رحلة إلى اللانهايـة

حياتي مع ستيفن

جين هوكينغ

نقلته إلى العربية
ابتسام محمد الخضراء

العبيكان
Obekan

رحلة إلى اللانهاية

حياتي مع ستيفن

جين هوكينغ

نقلته إلى العربية

ابتسام محمد الخضراء

العبيكان
Obeikan

Original Title
Travelling to Infinity
The True Story Behind the Theory of Everything

Author:
Jane Hawking
Copyright © Jane Hawking, 1999-2014

ISBN-10: 1846883660
ISBN-13: 978-1846883668
All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by ALMA BOOKS LTD, Hogarth House, (U.K.)
حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع ألما بوكس ليميتد، المملكة المتَّحدة.

© العبيكان Obeikan 2015 _ 1436

ح
شركة العبيكان للتعليم، 1437هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
هوكينغ، جين
رحلة إلى اللانهاية: حياتي مع ستيفن/ جين هوكينغ؛ ابتسام الخضراء - الرياض 1437 هـ
536 ص؛ 16.5×24 سم
ردمك: 8 - 991 - 503 - 603 - 978
1- هوكينغ، جين - مذكرات. أ. الخضراء، ابتسام (مترجم) ب. العنوان
ديوي: 818,03 رقم الإيداع: 9498 / 1437

الطبعة العربية الأولى 1438هـ - 2017م

الناشر العبيكان للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517
www.obeikanpublishing.com

كتبنا على جوجل
Google Play
Kitab Sawti
دار ضاد للنشر الالكتروني Dhad Audio Publishing WWW.DHAD.SA
B8KS.COM | بوكس.كوم

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 - هاتف مجاني: 920020207 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595
www.obeikanretail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

المحتويات

الفصل الأول

1. أجنحة للتحليق عاليًا 9
2. على المسرح 19
3. عربة ملكية 29
4. حقائق مخفية 37
5. مبادئ غير مؤكدة 43
6. خلفيات 53
7. بحسن نية 63
8. مقدمة للفيزياء 75
9. الزقاق 83
10. العطلة الشتوية 93
11. منحنيات التعلّم 99
12. نهاية متواضعة 111
13. مدارات الحياة 119
14. عالم مضطّرب 125

الفصل الثاني

1. أَرَقٌ في سياتل 135
2. تيرا فيرما Terra Firma 145
3. الكرات السماوية 151
4. أنشطة خطِرة 159
5. التوسع الكوني 165
6. المشاركة في الحملة 175
7. الترحال صعودًا 185
8. الحكمة والجهل 195
9. تتبع آثار تشيخوف 205
10. رياح باردة 215
11. قانون التوازن 225
12. آفاق الحدث 231

الفصل الثالث

1. رسائل من أمريكا 241
2. السكن 261
3. كنز دفين 271
4. لعبة الزمالة 279
5. غابة سيلتك 289
6. نظرة إلى الخلف 299

7. طريق مسدود 309
8. يد العون 319
9. المفاجأة 333
10. التنافر 345
11. الاضطراب 351
12. إلى النجوم 363
13. عودة الوئام 375
14. أعمال غير منجزة 385
15. المغادرة 391

الفصل الرابع

1. الليلة الحالكة 401
2. خيط رفيع 411
3. عبء المسؤولية 419
4. التمرد 429
5. القيامة من الرماد 441
6. الرياضيات والموسيقا 451
7. التطرّف 459
8. الملكة الحمراء 471
9. البحث عن الجنة 481
10. عودة إلى الوطن 485

11. ثمن الشهرة 489
12. الدكتوراه الفخرية.. 495
13. العِشرة الطيبة.. 503
14. يوم الغضب 507
15. واقعية لا تحتمل 513
16. عدم ولا شيء!.. 519

شباط/فبراير 2007 527

الفصل الأول

1
أجنحة للتحليق عاليًا

بدأت قصة حياتي مع ستيفن هوكينغ صيف عام 1962، وربما قبله بنحو عشر سنوات دون أن أعي ذلك؛ عندما دخلت ثانوية سانت ألبانز للبنات بعمر السابعة بوصفي طالبة سنة أولى، اعتدت رؤية صبي ذي شعر بني ذهبي وطليق، كان مقعده قرب الجدار في الصف المقابل لصفنا، كانت المدرسة تستقبل البنين أيضًا، ومنهم أخي كريستوفر في قسم المبتدئين، على أنّني لم ألحظ الصبي ذا الشعر الطليق إلا في المناسبات، كما عندما جمعوا طلاب السنة الأولى في الصف نفسه كأكبر الأطفال سنًّا بسبب تغيّب أحد معلمي الصفين؛ لم يسبق أن تحدثنا مع بعضنا قط، لكن تلك الذكرى المبكرة كان لها دورها على الأرجح، بما أنّ ستيفن كان تلميذًا في المدرسة لمدة قبل أن يغادرها إلى المدرسة التحضيرية الواقعة على بعد بضعة أميال.

كانت شقيقتا ستيفن أكثر تميّزًا؛ لوجودهما في المدرسة لمدّةٍ أطولَ، شقيقته ماري تصغره بثمانية عشر شهرًا فقط، وهي تكبر شقيقتها، وتتمتع بشخصيةٍ متميّزةٍ غريبة الأطوال، وجسم ممتلئ وشعرٍ أشعث، وذهنٍ شاردٍ منشغلٍ باهتماماتها الشخصية، وقد غطت نظاراتٌ جذابة وسميكة جمالهاٍ وبشرتها الشفافة، أما فيليبا فتصغر ستيفن بخمس سنوات، ذات عينين لامعتين وملامح عصبية وانفعالية بضفائرها القصيرة الجميلة، ووجهها الوردي المستدير.

كان نظام المدرسة صارمًا في الاتجاهين الأكاديمي والانضباطي، إلا أنّ التلاميذ كما شأن جميع أطفال المدارس في كلّ مكان، لم يكونوا على تلك الدرجة من التسامح على الصعيد الشخصي في كثيرٍ من الأحيان، فنظرة القبول والإعجاب تتوجه إلى ركوب سيارة رولز رويس وامتلاك منزلٍ في الريف، وخلاف ذلك سيكون المرء عرضةً للسخرية والتهكم اللاذع، وهذا ما قوبلت به بسبب واسطة النقل التي تقلني، والتي كانت سيارة صالون 10 ما قبل الحرب؛ وهو ما ينطبق على حالة آل هوكينغ الذين

يأتون إلى المدرسة بتاكسي لندنية قديمة، وهو ما جعل أطفال آل هوكينغ يستلقون على أرضية سيارتهم التاكسي للاختباء من عيون أقرانهم، إلا أنّ المساحة الضيقة كانت لهم بالمرصاد، وأفشلت مبتغاهم في تلك المراوغات اليائسة.

وقبل وصولهما المرحلة الدراسية العليا، غادرت فتيات هوكينغ المدرسة، أما والدتهما فقد تمتعت بوجهٍ مألوفٍ، تقف يوميًّا على زاوية التقاطع قرب المدرسة منتظرةً ابنها الصغير إدوارد، بجسدها النحيل الصغير ومعطفها المصنوع من الفرو، كان إدوارد يصل بالحافلة من مدرسته التحضيرية في الريف، ذات المدرسة التي ذهب إليها شقيقي بعد عامه في رياض الأطفال في ثانوية سانت ألبانز، وكانت تلك الرياض تُدعى دار أيليسفورد Aylesford House، حيث يرتدي الأولاد ستراتهم وقبعاتهم الوردية، وبخلاف هذا الزي الغريب كانت جنةً حقيقيةً للصبية الصغار، خاصةً لأولئك الذين لم يكن لديهم ميل أكاديمي، من خلال الأنشطة الكثيرة من ألعابٍ وكشافٍ وتخييم وعروضٍ جماعيةٍ، وكثيرًا ما شارك والدي في تلك الأنشطة عن طريق العَزف علىً البيانو، لكن إدوارد الوسيم والساحر في عمر الثامنة، عانى بعض الصعوبات بسبب عائلته بالتبني -علمت هذا عندما عرفت عائلة هوكينغ- ربما لعادتهم الغريبة باستحضار مواضع مطالعاتهم إلى مائدة العشاء، وتجاهل وجود أي شخص لا يهوى القراءة، وهي عادة اختبرتها صديقتي في المدرسة ديانا كينغ Diana King لدى آل هوكينغ، ربما هذا ما سبب دهشتها عندما علمت بخطوبتي من ستيفن: «أوه جين! أنت تتزوجين من عائلة مجانين». كانت ديانا أوّل من لفت انتباهي إلى ستيفن في ذلك الصيف لعام 1962، عندما كنّا سويةً مع صديقتنا جيليان نستمتع بمدة استرخاء بعد الامتحانات قبيل انتهاء الفصل الدراسي.

وحتى ذلك الحين، كنت قد دخلت عالم الكبار خارج المدرسة ووظائفها وامتحاناتها مرتين، بفضل منصب والدي الحكومي، مرّةً إلى عشاء في مجلس العموم وأخرى إلى حفلة في حديقة قصر باكنغهام ذات يوم مشمسٍ حارٍّ؛ وفي ذاك الصيف غادرت دياناً وجيليان المدرسة، لأبقى فيها رئيسةً الفتيات لفصل الخريف، وهو الفصل الذي شهد تقديمي للالتحاق بالجامعة، ومع هاتين الصديقتين نزلنا بعد ظهر أحد أيام

الجمعة إلى البلدة لتناول الشاي، كنّا نحمل حقائبنا ونرتدي قبعات القش، ولم نكد نقطع مسافة مئة ياردة حتى صادفنا منظرًا غريبًا على عيوننا على الطرف الآخر من الطريق: شاب يمشي بشكلٍ مزعج أشبه بوثبات غير منسجمة، مطرقًا برأسه إلى الأرض، خافيًا إياها تحت شعره البني المنسدل، منغمسًا في أفكاره دون أدنى التفاتة، غافلًا عن مجموعة التلميذات على الطريق، لم يكن ذلك المشهد ظاهرةً عاديةً في سانت ألبانز التقليدية جدًّا، حدقنا أنا وجيليان فيه بذهول، فيما بدت ديانا غير مكترثة بالأمر.

قالت جيليان لزميلتها الصامتة: «هذا ستيفن هوكينغ، لقد سبق وتحدثت معه».

ضحكنا في شكٍ وقلنا: «كلا، لم تفعلي!».

قالت: «بل فعلت؛ صحيح أنّه غريب لكنه بالغ الذكاء، وهو صديق باسيل (شقيقها)، ويشارك في مسيرات (امنعوا القنبلة Ban the Bomb)».

رفعنا حاجبينا دهشةً، وواصلنا طريقنا إلى البلدة، لكنني لم أستمتع بالنزهة لانشغالي بالتفكير بهذا الشاب الذي لم أشعر بالارتياح لحالته، ربما جذبتني غرابته أنا الفتاة التي تحيا حياةً تقليديةً، وربما انتابني هاجس غريب، أنّني سأراه مرّةً أخرى، ومهما كان السبب، ظلّ ذلك المشهد محفورًا في نفسي بعمق.

كانت عطلات ذلك الصيف حلمًا لأي مراهق على وشك الاستقلال عن والديه، رغم أنّها كانت بمثابة كابوس لهما، خاصةً إذا كانت وجهتي مدرسة صيفية في إسبانيا، وفي عام 1962 كانت تلك الوجهة بعيدةً محفوفةً بالمخاطر، كما لو أنّها نيبال اليوم!

ورغم أعوامي الثمانية عشر، كنت واثقةً من قدرتي على رعاية نفسي، وكنت محقةً في ذلك. كان البرنامج منظمًا جيدًا، حيث أقام الطلاب في مجموعاتٍ في منازل خاصة، وفي عطلات نهاية الأسبوع كنّا نذهب في جولاتٍ نجول بها المعالم السياحية جميعها، من بامبلونا Pamplona حيث تجري الثيران في الشوارع، إلى مصارعة الثيران الوحيدة التي شاهدتها، والتي رغم وحشيتها وهمجيتها كانت مذهلةً وآسرةً في الوقت

نفسه، وإلى لويولا Loyola حيث منزل القديس أغناطيوس St Ignatius؛ مؤلف الصلاة التي غُرست بي وبكلّ تلميذ من تلاميذ سانت ألبانز .

أيضًا أمضينا مدد بعد الظهر على الشاطئ، والأمسيات خارج البلدة قرب الميناء في المطاعم، وفي المشاركة في الحفلات والرقص، وفي الاستماع إلى الفرق الصاخبة، ومرأى الألعاب النارية التي تخطف الأنفاس؛ وسرعان ما شكّلت صداقات جديدة خارج إطار صداقات سانت ألبانز المحدود، تركزت تلك الصداقات على المراهقين الآخرين في البرنامج، وخضت معهم في أجواء إسبانيا الرائعة والحماسية تجربة استقلالية البالغين، بعيدًا عن المنزل والأسرة والانضباطية المدرسية الرتيبة.

وفور عودتي إلى إنكلترا، اقتادني والداي على الفور -تقريبًا- في عطلة عائلية في البلدان المنخفضة ولوكسمبورغ، بعد أن شعرا بالراحة لعودتي سالمةً، وكانت هذه أيضًا تجربةً وسعت آفاقي، واحدة من العطلات التي تخصص بها والدي وقد أعدَّ لها منذ سنوات طويلة، منذ زيارتي الأولى إلى بريتاني Brittany في سن العاشرة.

وبفضل حماسته وجدنا أنفسنا في طليعة الحركة السياحية، نسافر مئات الأميال على طول الطرق المتعرجة عبر أوروبا الخارجة من صدمة زمن الحرب، زرنا المدن والكاتدرائيات والمتاحف الفنية، وكانت المرّة الأولى التي يستكشف بها والداي هذه الأماكن أيضًا، لقد كانت مزيجًا تعليميًّا ملهمًا من خلال الفن والتاريخ والاستمتاع بطيبات الحياة من طعام وشمس صيفية، ويتداخل ما سبق مع النصب التذكارية للحرب ومقابر حقول الفلاندرز(1) Flanders' fields.

عندما عدت إلى المدرسة ذلك الخريف، كنت مشحونةً بشعور غير مسبوقٍ من الثقة بالنفس بفضل تجارب الصيف، كنت كمن خرج من الشرنقة، إذ لم تقدِّم المدرسة إلا طيفًا شاحبًا من الوعي والاعتماد على الذات الذي اكتسبته من خلال

(1) حقول فلاندرز: اسم عام يستخدم لساحات المعارك في الحرب العالمية الأولى في مقاطعة فلاندرز البلجيكية. (المترجم).

السفر؛ وربما كان هذا سبب إقحامي أفكارًا جديدةً في مكانٍ قديم، إذ خطرت لي فكرة من خلال عروض الأزياء التي تُعرض على شاشات التلفاز، فابتكرت -بصفتي رئيسة الفتيات- عرض أزياء ترفيهيًّا للصف السادس، مع فرْق أنّ الأزياء جميعها قد تم تكييفها وتعديلها بشكل غريب للزي المدرسي! ومع هذه البدعة انهار انضباط المدرسة، عندما تدافع التلاميذ لدخول القاعة، وجن جنون الآنسة ميكلجون Miss Meiklejohn (تُعرف أيضًا باسم ميك)، الآنسة البدينة والقصيرة، سيدة الألعاب الخارجية التي يعتمد حسن سير العمل في المدرسة على صياحها المسترجل والمرعب، كادت أن تصاب بسكتة وهي عاجزة عن سماع صوتها في جلبة المكان، وبيأس لجأت إلى مكبر الصوت الذي لا يُستخدم عادةً إلا في يوم الرياضة، وفي معرض الحيوانات الأليفة، وبغرض السيطرة على جموع التلاميذ المتحركة التي كنّا نشكلها في مسيرنا في كل شارع خلفي من سانت ألبانز عندما نذهب لأداء الشعائر الفصلية في الدير.

لم يكن من المفترض أن يكون ذلك الفصل الدراسي لخريف عام 1962 عن العروض، إذ كان من المفروض أن يكون عن القبول في الجامعات، وللأسف لم يكن هذا نجاحًا لي من الناحية الأكاديمية.

اقترنت تلك المدة بالتملق الكبير للرئيس كينيدي، فقد برزت إلى الوجود أزمة الصواريخ الكوبية في شهر أكتوبر/تشرين الأوّل، وهو ما هزَّ الشعور بالأمن لجيلي وبددت الآمال بالمستقبل، مع موجود قوى عظمى تلعب مثل تلك الألعاب الخطرة بحياتنا، ولم يكن أحد متأكدًا من أنّ هناك مستقبلًا يُمكن التطلع إليه؛ وفي أثناء صلاتنا من أجل السلام في المدرسة تحت إشراف العميد، تذكرت نبوءة المشير برنارد مونتغمري[1] Marshall Montgomery في أواخر الخمسينيات، والتي تنذر باندلاع حربٍ نووية خلال عقد من الزمن، وكنّا جميعًا من كبارٍ وصغارٍ نعرف أنّنا نمتلك أربع دقائق فقط كإنذارٍ عند حدوث الهجوم النووي، وهو ما يعني نهايةً مفاجئةً للحضارة كلّها.

(1) برنارد مونتغمري (1887-1976): مشير في الجيش البريطاني، قائد عسكري بارز في الحرب العالمية الثانية (المترجم).

أما أمي فقد جاء تعليقها على احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة في حياتها بشكل فلسفي وعقلاني هادئ كما عودتنا دائمًا، فنقلت إلينا تفضيلها تحمّل كلّ شيء والناس كلّهم من تحمُّل عذاب رؤية زوجها وابنها يُجندون للحرب التي لن يعودوا منها أبدًا.

بصرف النظر عن التهديد العظيم في المشهد الدولي، شعرت بعدم قدرتي على استجماع نفسي للتحضير لامتحانات المستوى المتقدم، والافتقار إلى الحماس في أداء العمل المدرسي بعد أن ذقت طعم الحرية في الصيف، ولم يجرَّ العمل الجاد لدخول الجامعة إلا الذل عليّ عندما رفضتني جامعتا أوكسفورد وكامبريدج، والأشد إيلامًا من ذلك كان إحباط والدي الذي عقد آمالًا كبيرةً على حصولي على مقعدٍ في كامبريدج منذ كنت بعمر السادسة؛ وجاء دخول مديرة المدرسة الآنسة جنت Miss Gent في الأمر ليتعاطف معي، ويخفف شعوري بالفشل الذي لم يخفَ عنها، فأشارت إلى أنّه لا عار في عدم الحصول على مقعدٍ في كامبريدج؛ لأنّ الكثير من الرجال في تلك الجامعة كان أدنى فكريًا بكثير من النساء اللاتي اضطررن إلى الابتعاد بسبب عدم توافر أماكن لهن في الجامعة؛ كانت النسبة في تلك الأيام ما يقرب من عشرة رجال مقابل امرأة واحدة في جامعتي أكسفورد وكامبريدج، وعليه فقد أوصت بأن أقبل العرض المقدم لإجراء مقابلة في كلية ويستفيلد Westfield College في لندن، وهي كلية نسائية على نموذج كلية جيرتون بكامبريدج Girtonian model، تقع في هامبستيد Hampstead على مبعدة من بقية مباني الجامعة، وهكذا فقد ركبت الحافلة ذات يوم بارد من أيام ديسمبر الرطبة، للسفر من سانت ألبانز مسافة خمسة عشر ميلًا إلى هامبستيد.

كان يومًا كارثيًا لدرجة أنّني شعرتُ بالراحة الجمّة عندما صعدتُ الحافلة للعودة إلى المنزل عبر الطريق الكئيبة والمطر الثلجي القاتم والثلج الذي يغطي كلّ شيء في الخارج، وبعد تمرينٍ غير مريح في قسم الفرنسي، والذي يرتكز تمامًا على الشاعر تي سي إليوت T.S. Eliot، والذي كنت لا أعرف عنه إلا الشيء اليسير، ثم طُلِب مني الانضمام إلى طابور الدراسات الرئيسة، وعندما حان دوري، كانت السيدة التي تجري المقابلة جديّةً؛ قلَّ ما ترفع رأسها عن أوراقها، ولها مظهر الموظف المتقاعد بنظاراتها

ذات الإطار البني العريض، وبما أنّني كنت تحت تأثير شعوري بالإخفاق التام الناجم عن المقابلة السابقة، فقد قررتُ أن أجعلها تلحظ وجودي حتى لو كان بطريقة تدمر فرصتي، لذلك عندما سألتني بملل وصوت جاف: «ولماذا اخترتِ الإسبانية بدلًا من الفرنسية كلغةٍ رئيسةٍ؟». أجبتها بالملل نفسه والصوت الجاف: «لأنّ إسبانيا حارّة أكثر من فرنسا». سقطت أوراقها من بين أيديها، وفعلًا تحققت آمالي ورفعت بصرها إليّ.

ولدهشتي، فقد تم توفير مكان لي في ويستفيلد! لكن مع قدوم عيد الميلاد كانت جرعة التفاؤل والحماس التي اختبرتها في إسبانيا قد تلاشت. وعندما دعتني ديانا إلى حفلة رأس السنة التي أقامتها هي وأخوها في الأوّل من يناير/كانون الثاني، لبّيت الدعوة على الفور، وارتديت زيًّا أنيقًا بقماشٍ صناعيٍ أخضر قاتم، وبتسريحةٍ جعلت من شعري لفةً منتفخةً، كنت أشعر بالخجل من الداخل وغير واثقةٍ تمامًا من نفسي، وهناك مقابل الجدار وقف في الزاوية شاب مديرًا ظهره إلى الضوء، وهو يومئ بيديه ذات الأصابع الحادة خلال حديثه، كان شعره منسدلًا على وجهه فوق نظاراته، يرتدي سترةً مخمليةً سوداءَ أنيقةً وربطة عنقٍ مخمليةٍ حمراء، كان ذلك الشاب هو ستيفن هوكينغ، الذي رأيته يمشي واثبًا في الشارع في الصيف.

كان يتحدث مع صديقٍ من جامعة أكسفورد بعيدًا عن المجموعات الأخرى، يشرح له أنّه بدأ بحثه في علم الكونيات في كامبريدج، لكن ليس كما كان يأمل تحت إشراف العالم الشهير تلفازيًّا فريد هويل Fred Hoyle ، بل بإشراف اسم غريب هو دينيس شارما Dennis Sciama، وكان ستيفن يظن في البداية أنّ لفظ اسم مشرفه هو سكيارما Skeearma لكن مع وصوله إلى كامبريدج علم أنّ اللفظ الصحيح كان شارما Sharma، وأقرَّ أنّ أموره في التعليم تجري بشكلٍ مريحٍ، ففي الصيف الذي كنت أقوم به بامتحانات المستوى المتقدم A levels، استطاع الحصول على الدرجة الأولى في أكسفورد، وكانت هذه نتيجة سعيدة بالطبع، فقد احتار المتحنون في المقابلة الشفوية في هذا المرشح المتفرد لكن غير الكفؤ، الذي تشير أوراقه إلى ومضات من

الذكاء فيما إذا كان يستحق الدرجة الأولى أو الدرجة دون الأولى[1] Upper Second أو درجة البكالوريوس العادية، ويُعدّ الخيار الأخير بمثابة فشل، لكنه أبلغ الممتحنين بلا مبالاة أنّهم إذا أعطوه الدرجة الأولى فسيذهب إلى كامبريدج للحصول على درجة الدكتوراه، ومن ثم منحهم فرصة للزج بحصان طروادة في معسكر الخصم، بينما إذا منحوه الدرجة دون الأولى (والتي ستسمح له بإجراء البحوث)، فإنّه سيبقى في أكسفورد، وعليه فضَّل الممتحنون خيار السلامة ومنحوه الدرجة الأولى.

تابع ستيفن شرحه لجمهوره المكوّن مني ومن صديقه في أكسفورد، كيف قام بخطواته نحو خيار السلامة، مدركًا وقتها مدى ابتعاد خيار حصوله على الدرجة الأولى في أكسفورد نظرًا إلى ضآلة ما قام به من عمل، فهو لم يذهب أبدًا إلى محاضرة -فضّل البقاء مع أصدقائه على الدراسة- وحكايته الأسطورية عن تمزيق أوراق العمل ورميها داخل سلة مهملات المدرّس، ومغادرة البرنامج التعليمي وهي قصة حقيقية، وبسبب خشيته على فرصه الأكاديمية قام ستيفن بالتقديم للانضمام إلى الخدمة المدنية Civil Service، واجتاز المراحل التمهيدية للاختيار في عطلة نهاية أسبوع في منزل ريفي؛ لذا أعد نفسه للتقديم لامتحانات الخدمة المدنية بعد النهائيات. وفي صباح أحد الأيام استيقظ كالمعتاد مع شعورٍ سيئ بأنّ هناك ما يجب القيام به اليوم، غير برنامجه اليومي بالاستماع إلى التسجيل الكامل لحلقة نيوبلونغ أو الرباعية الأوبرالية Ring Cycle لريتشارد فاغنز، وبما أنّه لا يعتمد على يوميات ويقتصر في مواعيده على الذاكرة، فقد تذكر بعد مضي ساعات عدّة أنّ ذلك اليوم كان هو يوم امتحانات الخدمة المدنية.

استمعت إليه بافتتان، بانجذاب إلى هذه الشخصية غير التقليدية من خلال حسِّه الساخر وشخصيته المستقلة، وسحرتني حكاياته بدرجةٍ كبيرة، خاصةً عندما يصاب بالفواق خلال ضحكاته، فيكاد يختنق تقريبًا وهو يروي النكات التي تتناوله شخصيًّا

(1) الدرجة دون الأولى: هي درجة مؤهلة في الجامعات البريطانية، وهي أدنى من الأولى وأعلى من 2:2. (المترجم).

في كثيرٍ منها. كان من الواضح أنني أمام شخصٍ مثلي؛ ميّال للتعثر في الحياة، وله القدرة على رؤية الجانب المضحك من المواقف، شخص مثلي خجول إلى حدٍّ ما، لكنه لا ينفر من التعبير عن آرائه، وهو بخلافي لديه حس قوي بقيمته الخاصة ولديه الوقاحة لإعلانها، ومع انتهاء الحفل تبادلنا الأسماء والعناوين، دون توقع رؤيته مرّة أخرى باستثناء لقاءات عابرة. كان شعره المنسدل وربطة عنقه دليلًا على حالة من الاستقلالية العقلية، وفي المستقبل كان بإمكاني تجاهلها، كما فعلت ديانا، بدلًا من الانشداه بدهشة إذا ما صادفته مرّة أخرى في الشارع.

2
على المسرح

لم تمضِ بضعة أيام حتى استقبلتُ بطاقة دعوةٍ من ستيفن، دعاني فيها إلى حفلةٍ ستقام في الثامن من يناير، وقد كُتِبت الدعوة بخط اليد في صحيفة نحاسية جميلة، ورغم إعجابي بها والجهد الكبير المبذول في كتابتها إلا أنها لم تكن متقنة، فاستشرت ديانا بشأن الدعوة، وكانت هي الأخرى قد تلقت دعوةً إلى الحفلة نفسها، فأبلغتني أنّ الحفلة بمناسبة عيد ميلاد ستيفن الحادي والعشرين، ولم يكن هناك ذكر لهذه المعلومات على بطاقة الدعوة، وقطعت وعدًا بأن تأتي وتقلني؛ لم يكن من السهل اختيار هديةٍ لشخص قد التقيته للتو، لذلك أخذت له قسيمة شراء أسطوانات.

كان منزل آل هوكينغ في شارع هيلسايد Hillside Road، سانت ألبانز نصبًا تذكاريًّا للتوفير والاقتصاد، ولم يكن ذلك غريبًا تلك الأيام، حيث أصبح للمال احترامه البالغ في مرحلة بعد الحرب، فأصبح الناس يبحثون عن المساومات ويتجنبون التبذير؛ بُني المنزل في السنوات الأولى من القرن العشرين، في شارع 14 هيلسايد، منزلٌ بسطحٍ قرميدي أحمرَ مكوّن من ثلاثة طوابق، يحتفظ بسحره الخاص، ربما لأنّه بقي على حالته الأصلية منذ إنشائه، دون أي تحديثٍ عصري مثل التدفئة المركزية أو تغطية الأرضية بكاملها بالسجاد، وقد تركت الطبيعة والعوامل الجوية والعائلة المكونة من أربعة أطفال آثارها على الواجهة المتهالكة المخفية بالسياج النباتي الجامح، وقد تدلت الوستارية[1] Wisteria على الشرفات الزجاجية المتداعية، وكانت الكثير من ألواح الزجاج الملون في النافذة العلوية فوق الباب الأمامي مفقودة.

(1) الوِستارية أو الغِليسين أو الحُلْوة: الاسم العلمي Wisteria وهي جنس من النباتات يتبع الفصيلة البقولية من رتبة الفوليات. (المترجم).

عندما ضغطنا الجرس لم يفتح لنا أحد، حتى جاءت امرأة اعتادت الانتظار متدثرةً بمعطفها الفرو على زاوية التقاطع، والتي قُدمت لي أنّها إيزابيل هوكينغ، والدة ستيفن، وكانت برفقة صبي صغيرٍ ساحرٍ مع شعرٍ أسودَ مجعدٍ وعينين زرقاوين لامعتين، وبدا خلفهما مصباح كهربائي وحيد يضيء المدخل الأصفر الطويل ذا الأثاث الكثيف -بما في ذلك ساعة الجد- وورق جدران ويليام موريس[1] الأصلية والعتيقة.

عندما بدأ أعضاء الأسرة بالظهور على باب غرفة المعيشة لاستقبال الواصلين الجدد، اكتشفت أنّني أعرفهم جميعًا: والدة ستيفن كانت معروفةً جيدةً بسبب انتظارها على التقاطع، وأخوه الصغير إدوارد الذي كان يرتدي قبعةً ورديةً، وشقيقتا ستيفن ماري وفيليبا اللتان أعرفهما من المدرسة، وفرانك هوكينغ الوالد المميز للأسرة، الطويل بشعره الأبيض، الذي أتى مرّة إلى حديقتنا الخليفة لجمع سرب نحل، والذي أبعدنا وقتها بحركاتٍ فظةٍ من يده عندما اقتربت مع أخي كريس لمراقبة ما يفعل؛ وإضافةً إلى كونه مربي النحل الوحيد في المدينة، كان فرانك هوكينغ معروفًا لامتلاكه مع عدد قليل من الناس زوج زلاجات، ففي الشتاء كان يتزلج على التل نحو الأسفل متجاوزًا منزلنا إلى ملعب الغولف، حيث اعتدنا الذهاب في نزهاتٍ لجمع الجريس في الربيع والصيف والانزلاق على صواني قصديرية في فصل الشتاء. لقد كان الأمر مثل تركيب أحجية الصور معًا:

كان جميع أولئك الناس مألوفين تمامًا بالنسبة إليَّ، لكن لم أكن على درايةٍ بقرابتهم، وفي الواقع كانت هناك سيدة أخرى من الأسرة، معروفة جيدًا بالنسبة إلي، وهي عادةً ما تبقى في غرفتها، لكنها تنزل للمشاركة في المناسبات العائلية كهذه المناسبات، وهي أغنيس ووكر Agnes Walker، جدّة ستيفن الاسكتلدنية؛ كانت شخصيةً معروفةً في سانت ألبانز بفضل براعتها في العزف على البيانو، وكانت تقدِّم

(1) ويليام موريس (William Morris، 1834-1896): معماري وفنان ومصمم للأثاث والمنسوجات وكاتب اشتراكي إنجليزي. (المترجم).

عرضًا في الشهر مع فعاليات دار البلدية مع مولي دي كين Molly Du Cane، سيدة الرقص الشعبي المرح.

كان الرقص والتنس أنشطتي الاجتماعية الوحيدة طيلة أعوام مراهقتي، وحصلت من خلالهما على مجموعة من الأصدقاء من الجنسين من مختلف المدارس والمشارب، وخارج أيام المدرسة كنا نذهب جماعيًّا إلى القهوة صباح يوم السبت، والتنس في الأمسيات، ونحضر الفعاليات الاجتماعية في نادي التنس في الصيف، ودروس الرقص الثنائي والرقص الشعبي في الشتاء، ولم يحرجنا حضور أمهاتنا أمسيات الرقص الشعبي مع الكثير من مسني سانت ألبانز ومقعديها، كنّا نجلس منفصلين عنهم وبعيدين ما يكفي عن الجيل الأكبر سنًّا.

ازدهرت الرومانسيات في زاويتنا في بعض الأحيان، ما كان يثير الكثير من القيل والقال وقليلًا من المشاحنات، ثم سرعان ما تختفي تلك الأحاديث كما ظهرت. كنّا مجموعةً وديةً هادئةً من المراهقين الذين يعيشون حياةً أكثر بساطةً من نظرائنا آنذاك، وكان الجو في الرقصات بهيجًا ورائعًا، بفضل حماس مولي دي كين وحيوية فنها، كانت تدعو الحضور للرقص والكمان على كتفها، في حين تعزف جدّة ستيفن السمينة بأصابعها الرشيقة على البيانو، دون أن تسمح لعقدة شعرها على جبهتها بأن تتحرك قيد أنملة، كان لها شخصية مهيبة، وكانت تعاين الراقصين محدقةً بصمتٍ غريبٍ، وهي بالطبع من نزلت إلى الطابق السفلي لاستقبال الضيوف في عيد ميلادٍ ستيفن الحادي والعشرين.

ضمت الحفلة خليطًا من الأصدقاء والأقارب، القليل من أصدقاء ستيفن في أكسفورد، لكن معظم أصدقائه كانوا من زملائه أو مقربين منه في مدرسة سانت ألبانز، الذين أسهموا في نجاح تلك المدرسة في امتحانات دخول أوكسبريدج Oxbridge لعام 1959. في سنه العشرين كان ستيفن أصغر من أقرانه في المدرسة، ومن ثم كان صغيرًا لدخول الجامعة ذلك الخريف، خاصةً أنّ الكثير من زملائه من الطلاب الجامعيين لم يكبروه بعام واحد فقط بل بأعوام عدّة؛ لأنّهم جميعًا قدموا إلى أكسفورد بعد أدائهم الخدمة الوطنية التي كانت قد ألغيت، وقد اعترف ستيفن في وقت لاحق

بفشله في الحصول على أفضل النتائج في أكسفورد؛ بسبب الاختلاف العمري بينه وبين زملائه من الطلاب الجامعيين.

وبالتأكيد فقد حافظ على علاقات وثيقة مع أصدقاء المدرسة أكثر من أي من معارفه في جامعة أكسفورد، ما عدا باسيل كينغ Basil King شقيق ديانا، وقد عرفت ذلك من سمعتهم بأنّهم النخبة الجديدة في مجتمع سانت ألبانز، حيث قيل إنّهم المفكرون المغامرون لجيلنا، المكرّسون بحماس لرفض البديهيات والسخرية من كلّ ابتذال، ولاستقلالهم الفكري وبحثهم في المنهج الموضوعي للعقل.

هللت صحيفتنا المحلية ذي هيرتس أدفرتايزر The Herts Advertiser بنجاح المدرسة قبل أربع سنوات، ووضعت أسماءهم ووجوههم على صفحاتها، وبينما كنتُ على وشك الشروع في مسيرتي الجامعية كانت سنواتهم الجامعية خلفهم، وكانوا بكل تأكيد مختلفين جدًّا عن أصدقائي وعني، كنت مشرقةً، لكن فتاة عادية في الثامنة عشرة من عمرها شعرت بالخوف، فأي من هؤلاء لا يمضون أمسياتهم في الرقص الشعبي، شعرت بالألم من ضآلة ثقافتي، لذلك اتخذت موقعًا قريبًا من النار مع إدوارد على ركبتي، واستمعت إلى المحادثة دون نية بالمشاركة، كان بعض الحضور واقفًا وآخرون متكئين على الجدار البارد لغرفة الطعام، حيث كان المصدر الوحيد للحرارة القادمة من موقد ذي واجهة زجاجية؛ كانت المحادثة متقطعة وتكونت معظم الوقت من نكات، ولم يكن أي منها يمت بصلة إلى الثقافة الرفيعة التي كنت أتوقعها، وكل ما أتذكره من تلك المحادثات لم يكن نكتة بقدر ما هي أحجية ساخرة، عن رجل في نيويورك يريد الوصول الى الطابق الخمسين من المبنى لكنه طلب المصعد إلى الطابق السادس والأربعين! لماذا؟ لأنّه ليس لديه من الطول ما يكفي ليصل إلى زرّ الطابق الخمسين...

استغرق الأمر بعض الوقت قبل رؤية أو سماع ستيفن مجددًا، وكان انشغالي مركزًا في لندن من خلال اتباع دورة سكرتارية في النوع الثوري من الاختزال، والتي تستخدم الأبجدية بدلًا من الكتابة الهيروغليفية وحذف حروف العلة جميعها. كنت أرافق والدي في البداية إلى المحطة للحاق بقطار الثامنة صباح كلّ يوم، حتى اكتشفت أنّه لم يكن مطلوبًا مني أن أكون في المدرسة في شارع أكسفورد باكرًا، وأنّ باستطاعتي السفر

بوتيرة مريحة أكثر من وتيرة والدي الكادحة المستعجلة، لذلك صرت أمشي بتؤدة إلى المحطة لأستقل قطار التاسعة المختلف تمامًا عن قطار الثامنة من حيث ركابه، فلا وجود للازدحام الصباحي لركاب الثامنة ممن هم من المعيلين في منتصف العمر ببدلاتهم الداكنة. ونادرًا مرّ اليوم دون مقابلة شخصٍ أعرفه، غير مستعجل وببدلته الرسمية، إما ذاهبين إلى الكلية بعد عطلة نهاية أسبوع في المنزل وإما مسافرين إلى لندن لإجراء مقابلة؛ كان هذا استفتاحًا جيدًا ليومي؛ لأنّ بقيته خلا استراحة قصيرة لتناول طعام الغذاء كان مقتصرًا على الفصول الدراسية، محاطةً بقعقعة الآلات الكاتبة القديمة، وثرثرة الشابات المتفاخرات بعدد دعواتهن إلى قصر باكنغهام Buckingham Palacen أو قصر كنسينغتون Kensington Palace في لندن أو كلارنس هاوس Clarence House.

تعلمت الشكل الثوري من الاختزال بسهولة، لكن الكتابة على الآلة الكاتبة دون النظر إلى لوحة المفاتيح كانت كابوسًا، وكنت أرى أنّ للاختزال فائدته في تدوين الملاحظات في الجامعة أما الكتابة فقد وجدتها مملة لأقصى حد، وأصابتني باليأس، حتى إنني كنت أكافح للوصول إلى أربعين كلمة في الدقيقة عندما أنهى بقية الصف الدورة وأتقنوا المهارات الإضافية جميعها لفن السكرتارية. وفي الواقع كان للاختزال قيمة على المدى القصير في حين أثبتت مهارات الكتابة نفسها مرارًا وتكرارًا.

كانت عطلات نهاية الأسبوع فرصتي لنسيان أهوال الطباعة ومواكبة أصدقائي القدامى، وفي صباح يوم سبت من شهر فبراير/شباط التقيت ديانا التي أصبحت طالبةً ممرضةً في مستشفى سانت توماس، وإليزابيث شانت Elizabeth Chant؛ صديقة أخرى من أيام المدرسة كانت تتدرب لتصبح معلمة مدرسة ابتدائية، وجرى لقاؤنا في مقصدنا المفضل في قهوة غرينز Greens، وهو المتجر الكبير الوحيد في سانت ألبانز؛ تبادلنا الملاحظات حول دوراتنا، وبدأنا بالحديث عن أصدقائنا ومعارفنا، وفجأة سألتْ ديانا: «هل سمعت مؤخرًا عن ستيفن؟» أجابت إليزابيت: «نعم، أليس أمرًا مروِّعًا؟». علمت أنّهم يتحدثون عن ستيفن هوكينغ، فسألت: «ماذا تقصدين؟ لم أسمع أي شيء عنه».

قالت ديانا: «حسنًا، يبدو أنّه في المستشفى لأسبوعين، في بارت Bart على ما أظن، حيث تدرب والده وحيث تتدرب ماري الآن، إنّه يتعثر ولا يستطيع ربط حذائه»، توقفت قليلًا وتابعت: «لقد أجروا له الكثير من الاختبارات الرهيبة، ووجدوا أنّه يعاني مرض شلل مروِّعًا لا أمل في علاجه، وهو أشبه بالتصلب المتعدد لكنه ليس تصلبًا متعددًا، وهم يعتقدون أنّ لديه عامين فقط ليبقى على قيد الحياة».

شعرت بالذهول وأنا أسمع تلك الأنباء غير السارّة، كنت قد التقيت ستيفن للتو وبالرغم من غرابته فقد راقني، بدا كلانا خجولًا في وجود الآخرين، لكن الثقة كامنة في دواخلنا، ومن الصعب تصوّر مواجهة شخص يكبرني بضعة سنوات لاحتمال موته، لم يكن الموت مفهومًا ذا دورٍ في وجودنا، كنّا ما نزال شبابًا صغارًا بما يكفي لنشعر بالخلود.

سألتُ ديانا والصدمة بادية على وجهي: «كيف حاله؟». أجابتني: «لقد زاره باسيل، وقال إنّه مكتئب جدًّا، فقد كانت نتائج الاختبارات غير سارّة، وتوفي صبي من سانت ألبانز في السرير المقابل لستيفن ذلك اليوم».

تنهدت وتابعت: «أصرَّ ستيفن على مكوثه في جناح، وليس في غرفة خاصة كما أراد والداه بسبب مبادئه الاشتراكية».

سألتها بصراحة: «وهل يعرفون سبب هذا المرض؟».

أجابتني: «ليس تمامًا، يعتقدون أنّه قد أعطي تطعيمًا غير معقم ضد الجدري عندما سافر إلى إيران منذ بضعة سنوات، وهو ما سبب بدخول فيروس في عموده الفقري، لكنهم غير متأكدين، وهذه مجرد تكهنات».

عدت إلى المنزل بصمت وأنا أفكر في ستيفن؛ لاحظت أمي انشغالي، لم تكن قد التقته من قبل لكنها تعرف ودّي له، وكنت قد اتخذت الاحتياطات بتحذيرها حول غرابة أطواره، لكي لا تُدهش في حال التقته ذات يوم. وبإيمانها العميق الذي جعلها

تكمل الحياة خلال سنوات الحرب، ومرض العضال لوالدها الحبيب، ونوبات الاكتئاب التي تصيب والدي، قالت لي بهدوء: «لماذا لا تصلي له؟ قد تساعده صلاتك».

ولذلك، فقد اعترتني الدهشة وأنا أراه بعد أسبوع من ذلك اللقاء في محطة القطار؛ كنت بانتظار قطار التاسعة، وإذ بستيفن يمشي بتؤدة على الرصيف حاملاً حقيبة قماشية بنية اللون، وقد غمرته البهجة والسرور لرؤيتي، كان ظهوره عاديًّا تمامًا وربما أكثر جاذبية عن مظهره في المناسبات السابقة -من ناحية صورته المألوفة في أكسفورد من ربطة عنقه، وسترته المخملية السوداء، وبشعر أطول- إذ ارتدى ربطة عنق حمراء ومعطفًا واقيًا من المطر وكان شعره مسرحًا ومرتَّبًا. كان اللقاءان الماضيان في المساء في إضاءة خافتة، أما في النهار فقد كانت ابتسامته العريضة المنتصرة وعيناه الرماديتان الصافيتان لصالحه تمامًا. وهناك ما جذبني خلف تلك النظارة الشبيهة بالبومة، وربما ذكرني من دون وعي مني ببطلي المفضل؛ لورد نلسون Lord Nelson بطل نورفك[1]. جلسنا سويةً في القطار إلى لندن وخضنا الأحاديث بسعادة، ولم نتطرق إلى موضوع مرضه إلا لمامًا، فقط أخبرته بسماعي دخوله المستشفى وكانت ردّة فعله تغضن بسيط في وجهه دون أن يقول شيئًا.

تصرف ستيفن بشكل مقنع كما لو أنّ كلّ شيء على ما يرام، وشعرت أنّ عليّ ألا أتابع في موضوع مرضه أبعد من ذلك. كان في طريق عودته إلى كامبريدج كما أخبرني، وعندما اقتربنا من سانت بانكراس St Pancras قال إنّه يعود إلى المنزل في كثيرٍ من عطلات نهاية الأسبوع، وسألني عما إذا كنت أود الذهاب معه إلى المسرح ذات مرّة، وكان جوابي هو بالإيجاب طبعًا.

التقينا مساء أحد أيام الجمعة في مطعم إيطالي في سوهو، وكان جلستنا في المطعم لوحدها كافيةً بأن تغطي ذلك المساء، إلا أنّ ستيفن كان قد ابتاع تذاكر للمسرح كذلك، ولذلك كان علينا الانتهاء من الوجبة المكلفة بسرعة وبشكل محرج لنتمكن من

(1) نورفك (Norfolk): خامس أكبر مقاطعات إنكلترا، تقع في شرق إنكلترا في المنطقة المعروفة باسم إيست أنجليا. (المترجم).

شق طريقنا جنوبًا قرب النهر إلى أولد فيك Old Vic، ووصلنا في وقت عرض فولبون[1] Volpone، دخلنا المسرح على عجلة ورمينا حوائجنا تحت المقاعد الأخيرة في الصالة عندما بدأ العرض.

كان والداي من رواد المسرح كذلك، لذلك فقد رأيت الخيميائي The Alchemist وهي المسرحية العظيمة الأخرى لجونسون، واستمتعت بها كثيرًا؛ وكانت مسرحية فولبون مسلية، وسرعان ما أخذتني دسائس الثعلب العجوز الذي أراد اختبار صدق ورثته، والذي باءت خططه بالفشل الذريع.

وقفنا في موقف الباص وأخذنا نناقش المسرحية التي أعجبنا بأدائها، ومرّ متشرد بقربنا وطلب بأدب من ستيفن إن كان لديه أي فكة، مدّ ستيفن يده في جيبه، وقال محرجًا: «آسف، لم يتبقَ بحوزتي شيء!». ابتسم المتشرد والتفت إليّ وهو يقول: «لا بأس يا سيدي» غامزًا باتجاهي متابعًا: «أتفهم هذا». وفي هذه اللحظة وصل الباص فصعدنا إليه بسرعة، وما إن جلسنا حتى التفت ستيفن إليّ معتذرًا: «أعتذر بشدّة لكنني لا أملك حتى أجرة الباص، هل معك مال؟»، وبما أنّني أعلم المقدار الكبير الذي أنفقه تلك الليلة فقد طمأنته بسعادة، وعندما اقترب قاطع التذاكر وأصبح فوقنا بحثت عن محفظتي في أعماق حقيبة يدي، وسرعان ما تعادل إحراجي بإحراج ستيفن منذ دقائق عندما اكتشفت أنّها غير موجودة. نزلنا مسرعين من الباص عند أوّل إشارة مرور، وجرينا بسرعة عائدين إلى أولد فيك، كان المدخل الرئيس للمسرح مغلقًا، لكن ستيفن ضغط على باب منصة المسرح ووجده مفتوحًا والممر مضاء في الداخل.

غامرنا ودخلنا بحذر، لكن لم يكن هنالك من أحد في منظورنا، ووجدنا أنفسنا على خشبة المسرح المهجورة في نهاية الممر، كانت لا تزال مضاءة، وبرعب تخطينا الخشبة على رؤوس أصابعنا ونزلنا على الدرجات نحو الصالة المظلمة، وما هي إلا

(1) فولبون: مسرحية كوميدية كُتبت من قبل بِن جونسون (Ben Jonson) عام 1606، وتتميّز أسماء الشخصيات بأنّها مستمدة من عالم الحيوان، وتعني فولبون الثعلب. (المترجم).

ثوان حتى شعرنا بارتياح بالغ ونحن ننتشل المحفظة الجلدية الخضراء عن الأرض تحت المقعد حيث جلست، وعندما هممنا بالعودة إلى الخشبة أُطفِئت الأنوار، وغرقنا في الظلام، فأمرني ستيفن: «امسكي يدي»، ففعلت وأنا أحبس أنفاس إعجابي به وهو يقودني إلى الدرجات فالخشبة ومن ثم إلى الممر، وكان الباب لا يزال مفتوحًا لحسن حظنا، وما إن أصبحنا في الشارع حتى انفجرنا في الضحك، لقد كنّا على خشبة المسرح في أولد فيك!

3
عربة ملكية

بعد مضي بضعة أسابيع على حلقة أولد فيك، ومع اقتراب دورة الكتابة السريعة من نهايتها، استقبلتني والدتي عند عودتي إلى المنزل في المساء بحماس وهي تلوّح برسالة من ستيفن، الذي اتصل ليدعوني إلى حفلة مايو الراقصة May Ball، وهي نهاية السنة الأكاديمية في كامبريدج. كان ترقُّب الحفلة أشبه بالعذاب، وأذكر أنّه في الصف السادس في المدرسة دُعيت إحدى الفتيات إلى حفلة مايو، وشعر بقيتنا بالغيرة الشديدة إزاء كلّ تفصيل ورد في ذلك الحفل الذي بدا وكأنّه من حكايات الخيال، والآن وبشكل لا يُصدق، حان دوري، وعندما اتصل ستيفن لتأكيد الدعوة قبلت بسرور، وحللت مشكلة ماذا سأرتدي بسرعة عندما وجدت فستانًا من الحرير الأبيض والأزرق البحري في متجر بالقرب من مدرسة الكتابة السريعة في شارع أكسفورد، والذي كان ضمن حدود إمكاناتي.

كانت حفلات مايو الراقصة في كامبريدج تجري على خلاف اسمها في شهر يونيو/ حزيران، وكان أمامي بضعة أشهر، وفي تلك الأثناء كانت الأولوية لإيجاد مصدر مالي، مع تبدد أموالي في فستان الحفل والأسفار المترقبة حول إسبانيا في الصيف القادم، لذلك لجأت إلى وكالة توظيف في سانت ألبانز، واستغرقت أولى مهماتي يومًا ونصف -بعد ظهر الخميس وكلّ الجمعة- في مصرف وستمنستر Westminster Bank في هاتفيلد Hatfield، حيث كان مدير الفرع السيد أبركرمبي Mr Abercrombie الرجل الصبور واللطيف وأحد أصدقاء والدي. وقد تم إرسالي في البداية إلى المقسم، دون أن أمتلك فكرةً عما يجب القيام به، وشعرت بالذعر من الأضواء الساطعة وصرت أسحب بعض الموصلات من اللوحة في اهتياج لأضع غيرها في الثقوب الفارغة، وكانت هذه المحاولة يائسة إذ لم أنجح إلا في قطع اتصالات المتصلين من الخارج، ووصل هواتف الناس الذين يجلسون قبالة بعضهم في المصرف! بعدها، تنقلتُ تدريجيًا في

مجموعة متنوعة من الوظائف المؤقتة خلال الربيع وحتى بداية الصيف واقتراب أمسية حفلة مايو.

عندما وصل ستيفن بعد ظهر أحد الأيام الحارة أوائل يونيو ليقلني إلى كامبريدج، صدمت بتدهور حالته الصحية منذ لقائنا المسائي في مغامرة أولد فيك، وراودني الشك في قدرته على قيادة سيارة والده الضخمة من نوع فورد زيفير Ford Zephyr، المصممة كالدبابة، التي يتضح أنّها قد عبرت الأنهار في كشمير عندما كانت العائلة -باستثناء ستيفن الذي بقي في المدرسة في إنكلترا- تعيش في الهند منذ بضعة سنوات سابقة. أصابتني الخشية من أن تكون سرعة السيارة الهادرة فوق احتمال السائق الحالي الهزيل والضعيف والواهن، والذي يبدو أنّه يستخدم المقود ليرفع نفسه ليرى فوق لوحة القيادة. عرَّفت أمي على ستيفن ولم تُظهر أي علامات مفاجأة أو إنذار، بل لوحت لنا حتى ابتعدنا كما لو أنّها عرابة جنية ترسلني إلى الحفل مع الأمير الساحر في عربة زجاجية هاربة!

كانت رحلة مرعبة بكل معنى الكلمة، واتضح لي أنّ أسلوب ستيفن في القيادة مماثل لوالده الذي يقود بسرعة وبشكل محموم، ويتجاوز التلال والزوايا، وقد كان معروفًا جيدًا لمخالفته المرورية للمسار المزدوج والقيادة في الاتجاه غير الصحيح. ولم يكن بالإمكان خوض أي حديث بسبب عويل الرياح من النوافذ المفتوحة، وتجاوزنا بسرعة الحقول والأشجار لهيرتفوردشاير Hertfordshire إلى المناظر الطبيعية المكشوفة لكامبريدجشاير Cambridgeshire، وقلَّ ما تجرأت على النظر في الطريق أمام ستيفن، بينما بدا أنّه ينظر في الأنحاء كلّها ما عدا الطريق؛ ربما شعر أنّه قادر على تحمل العيش تحت الخطر ما دام قدره أن ينال تلك الضربة القاسية، لكن هذا لم يكن مطمئنًا كثيرًا لي بطبيعة الحال، وأخذت في نفسي عهدًا بالسفر بالقطار في المرّات القادمة، وبالتأكيد بدأ الشكّ يساورني حول التجربة المفترضة لهذه الحكاية الخرافية المتعلقة بحفل مايو.

وصلنا أخيرًا إلى سكن ستيفن، متحدين جميع إحصاءات حوادث المرور، كانت غرفة ستيفن في سكن الدراسات العليا ذي طراز الثلاثينيات مع حديقة وافرة الظل،

حيث انشغل المحتفلون الآخرون في استعداداتهم الأخيرة، غيّرت ملابسي في غرفة خُصصت لي في الطابق العلوي من قبل مدبرة المسكن، وقدمني ستيفن لزملائه في السكن من طلاب الدراسات العليا، الذين لديهم مواقف متناقضة مع ستيفن مما حيّرني، تحدثوا إليه بما يخص مصطلحاته الفكرية وأحيانًا بطريقة ساخرة لاذعة، وأخرى حاسمة ساحقة لكن دائمًا في جوٍّ من الدعابة، أما في ما يخص أموره الشخصية فقد عاملوه بكثير من المحبة، وقد وجدت صعوبةً في التوفيق بين هذين السلوكين النقيضين، فقد اعتدت اتساق المواقف والاتجاهات، وشعرت بالحيرة من هؤلاء الناس الذين يلعبون بثقة دور محامي الشيطان، فيتجادلون بشراسة مع أحدهم -أقصد ستيفن- لدقيقة، ومن ثم يعاملونه بالعكس بعناية شديدة لاحتياجاته الشخصية، كما لو كان قائدهم؛ لم أكن قد تعلمت التمييز بين المنطق والعاطفة وبين العقل والقلب، وكان عليّ تعلم بعض الدروس بسبب براءتي التي كانت مملةً ومتوقعةً وفق معايير كامبريدج.

ذهبنا جميعًا لتناول عشاء متأخر في مطعم في الطابق الأوّل يقع على زاوية متنزه الملك King's Parade، وكان باستطاعتي رؤية أبراج كلية الملك King's College، والقسم العلوي منها، من الكنسية والمنزل، والتي ترتسم بشكل ظليل على بانوراما مضاءة وكبيرة لغروب في شرق أنجليا[1]، وكان هذا المنظر ساحرًا بحد ذاته؛ عدنا إلى المنزل لتعديلات اللحظة الأخيرة قبل المشي لمدّة عشر دقائق على المساحات الخضراء الندية خلف المباني إلى المحاكم القديمة لكلية ستيفن، ترينتي هول Trinity Hall. أصرَّ ستيفن على إحضار مسجله ومجموعة أشرطة إلى الكلية؛ لتركيزها في غرفة أحد الأصدقاء التي وُضعت تحت تصرفنا عندما نحتاج إلى استراحة من الحفلة، لكنه لم يستطع حملها؛ لذلك تبرع أحد أصدقائه بحملها قائلًا: «مهلًا، أظن أنّ عليّ حملها عنك يا صديقي».

(1) شرق أنجليا (East Anglia): إحدى المناطق في شرق إنجلترا، وكامبريدج أشهر مدنها. (المترجم).

كانت كلية ترينتي هول صغيرةً نسبيًّا، متواضعةً وبعيدةً عن المشهد العام، وتتكوّن من مجموعة متنافرة من المباني القديمة جدًّا -قديمة جدًّا وذات طراز فيكتوري ومؤخرًا بعضها حديث- والمروج المسيجة وأحواض الأزهار والشرفة المطلة على النهر. اقتربنا من الكلية من الجانب الآخر لنهر الكام Cam، وتوقفنا لمدة وجيزةٍ على قوس جسر حديدي أبلغني ستيفن بقصته المؤثرة، فقد بُني هذا الجسر مؤخرًا في ذكرى أحد الطلاب يُدعى تيموثي مورغان Timothy Morgan، الذي توفي بشكل مأساوي في عام 1960 بعد أن أنهى تصميم هذه الجسر. ومن هذا الجسر بدا لنا مشهد قادم من حكايات خيالية، وقد ذكرني هذا المشهد بالمنزل الريفي الغامض في روايتي المفضلة مولن الكبير Le Grand Meaulnes لكاتبها آلان فورنييه Alain-Fournier، عن مغامرة بطل الرواية أوغستن مولن المراقب المرتبك في أضواء قصر قابع في أعماق ظلام الريف الشاسع، والذي يجد نفسه فجأة في حفلة صاخبة، حيث الموسيقى والرقص، وحيث لا يمكن توقع ما هو قادم. وهنا في كلية ترينتي هول كانت الفرق الموسيقية تطلق أنغامها عبر نسيم الليل، وقد تم تزيين المروج المؤدية إلى النهر بالأنوار المتلألئة، وتركزت نحاسية رائعة في الوسط، وكان الشبان والشابات يرقصون في أزواجٍ على المنصة تحت الشجرة.

تعرفت إلى كثير من أصدقاء ستيفن في الخيمة الكبيرة المنتصبة أعلى المرج، وصنعنا سويةً خطًّا متواصلًا لحصصنا من العصائر اللذيذة التي توزع على المحتفلين في الأماكن المختلفة: إلى القاعة المزدحمة حيث الملهى على منصة بعيدة لا يمكن سماع الموسيقى التي تعزف فيه، وإلى الغرفة الأنيقة المكسية بالخشب حيث تتنافس فرقة موسيقية وترية مع أخرى نحاسية من جامايكا خارجًا على المرج، وإلى الزاوية قرب المكتبة القديمة حيث تُوزع الكستناء من مجمرة متوهجة. ابتعد أصدقاؤنا تاركين لنا حرية الجلوس على الشرفة المطلة على النهر، لنشاهد الراقصين يتمايلون على وقع الأنغام الهادئة للفرقة النحاسية، واعتذر لي ستيفن: «آسف، أنا لا أرقص». وكذبت قائلةً: «لا بأس في ذلك ولا يهم».

إلا أنّ هذا لم يعنِ استحالة الرقص؛ لأنّه فيما بعد وبعد بوفيه آخر وعصائر أكثر، اكتشفنا فرقة جاز تعزف بعيدًا في القبو، كانت الغرفة مظلمةً، خلا بعض الأنوار الزرقاء الغريبة، وكان الرجال غير مرئيين ما عدا مقدمة وأطراف قمصانهم، والذين أشعوا ببريق أرجواني لامع، بينما لم تكن الفتيات مرئيات على الإطلاق، أبهرني المنظر فشرح لي ستيفن أنّ الأضواء تلتقط العنصر الفلوري الموجود في مسحوق الغسيل، ولهذا بدت قمصان الرجال مرئية، بينما لم تُعالج فساتين الفتيات بوساطة تايد Tide أو داز Daz أو أي منظف آخر؛ ولهذا لم تظهر في الضوء الشبحي، واستطعت إقناع ستيفن للنزول إلى حلبة الرقص في ظلمة الغرفة تحت الأرض، وأخذنا بالتمايل بلطف ذهابًا وإيابًا، ضاحكين على النماذج الراقصة للضوء الأرجواني حتى خيّبتنا الفرقة التي وضبت أدواتها ورحلت.

عند حلول ساعات الصباح الأولى، فتحت الكليات الأخرى التي لطالما استضافت حفلات مايو أبوابها لجميع القادمين، ومع بزوغ الفجر مشينا في شارع ترينتي Trinity Street إلى كلية ترينتي، وهناك أعد أحدهم، وهو مُنظّم للغاية، مع صديقة بالغة طعام الإفطار في مجموعة رحبة من الغرف، لكنني ارتميت على الكرسي ورحت في نوم عميقٍ، ولا بدّ أنّ أحدهم قد قادني مشيًا وأنا أغط في النوم إلى السكن في شارع آدامز Adams Road، حيث نمت بشكلٍ مريحٍ حتى منتصف النهار.

ووفق المقرر، خُصص برنامج النهار لشركاء حفل مايو ليكون مع مرشدين سياحيين أكفاء في جولة تستعرض الحداثة في الجامعة، وقد قدموا جولةً مثيرةً جدًّا؛ وكان أصدقاء ستيفن: نيك هيوز Nick Hughes وتوم ويسلي Tom Wesley يشاركان بقوة بوصفهما محررين في عملية إنتاج دليل مباني كامبريدج ما بعد الحرب، بعنوان العمارة الجديدة في كامبريدج Cambridge New Architecture، وذلك فضلًا عن بحوثهما لنيل الدكتوراه في الكيمياء، وقد طُبع هذا الدليل في عام 1964، وقد شاركهم ستيفن اهتمامهم هذا، وعمل بوصفه مستشارًا غير متفرغ لصالح المشروع، لذلك كانوا حريصين على إظهار موضوعات تدارسهم إلى أي طرف مهتم؛ ويُنظر الآن إلى هذه الأبنية بعين الريبة، أما في الستينيات فقد كانت مصدر حماسٍ بالغٍ بسبب

الاندفاع الكبير الذي تلا الحرب للتطور والتوسع، دون الاهتمام بالمعالم القديمة والمروج أو الأشجار التي لم تستطع منع الموجة الجديدة من الطرق والأبنية وتوسع الجامعة، ولم تكن لنظرة الحفاظ على القديم شعبيةً آنذاك.

بكثير من الحماس المتوهج، أشار لنا أدلتنا -نحن الضيفات الإناث الجاهلات الحساسات- إلى مجموعة مختارة من المواقع الجديدة، التي إما تم الانتهاء منها أو لا تزال قيد الإنشاء، وشملت الجولة التوسيع الضخم لكاسون Casson في موقع سيدجويك Sidgwick Site وكلية تشرشل Churchill College -الكلية التذكارية لسير وينستون تشرشل، الذي دفعه قلقه من نقص علماء التكنولوجيا في البلاد إلى تأسيس هذه الكلية في عام 1958، وأخذونا أيضًا إلى هارفي كورت Harvey Court التي كانت ضمن أعمال تطوير كلية كونفيل وكايس Gonville and Caius، وهي المباني التي سحرت الجميع بمن فيهم المساهمون في مشروع العمارة الجديدة في كامبريدج، وقد وصفوها آملين بأنها: «التجربة التي ستدفع سكانها إلى الاستمتاع بنمط الحياة الذي تفرضه هي نفسها»، وأضافوا في الدفاع عنها: «وهي المحاولة الأكثر شجاعة لكامبريدج لإيجاد الحلول المثالية الحديثة لمشكلات السكن الجامعي». ولم يخطر ببالي أنّني وبعد اثني عشر عامًا سأكون ممن يعيشون بالقرب من هذه التجربة المثيرة في عالم الحياة العصرية، وأخيرًا وكما هي التقاليد سُمح لنا، نحن الزائرين من الجامعات الأقل شأنًا، باختلاس نظرة داخل كنيسة كلية الملك King's College Chapel.

وبعد الغداء قمنا بجولة في قارب البنط، ومن ثم لاحت العودة في الأفق، فاقترحت بتردد لستيفن: «أظن أنّه من الأفضل أن أعود بالقطار»، لكنه لم يسمع ما قلت، ولذلك أخذت مكاني مرّة أخرى في الزيفير اللعينة دون أن أكرر رغبتي حرصًا على عدم الإساءة إليه، وكانت رحلة العودة مرعبة كسابقتها، وعندما وصلنا سانت ألبانز كنت قد قررت أنّه ومهما بلغ تقدير حفل مايو في نفسي إلا أنني لن أضع نفسي في عرضةً لركوب مثل هذه السيارات المرعبة مرّة أخرى. كانت أمي في الحديقة الأمامية عندما وصلنا أمام البوابة، ودعتُ ستيفن باقتضاب: «شكرًا لك، ووداعً»، ومن دون أدنى التفاتة سرت إلى المنزل.

تبعتني والدتي ووبختني بشدّة: «لن تتركي هذا الشاب المسكين يرحل دون أن يحتسي كوبًا من الشاي أليس كذلك؟». صُدمتُ بلامبالاتي، فقد أعادتني كلماتها إلى رشدي، ركضت إلى خارج المنزل لألحق بستيفن، كان لا يزال هناك في السيارة المركونة أمام البوابة، محاولاً تشغيلها، وببطء تحركت السيارة دون تشغيل لتنزل على المنحدر القاسي، لأنّه لم يكن قد فرملها قبل إقلاع المحرك. كبح السيارة بحركة رشيقة، ودخل لاحتساء الشاي معنا تحت الشمس قرب باب الحديقة، لاحظت لطفه وسحره ونحن نروي بحماس أحداث الحفل لوالدتي، وعلمت في قرارة قلبي أنني أميل إليه، وأنني سأغفر له جنونه على الطريق خاصةً أنّها تجربة لن تتكرر كثيرًا.

4
حقائق مخفية

بعد أسبوعين لاحقًا حصلت عائلتنا على استضافة مؤقتة لأجانب، بعد أن استجاب والداي لدعوة لاستضافة مراهقات فرنسيات قادمات بغرض الزيارة، وعليه تولوا الاعتناء بفتاة ذات ستة عشر عامًا، وصادف أن جاء سكن صديقتها المقربة لدى آل هوكينغ.

لم يمضِ وقت طويل بعد حفل مايو، حتى دعتني إيزابيل هوكينغ مع الفتاتين الفرنسيتين لمشاركتها في زيارة إلى كامبريدج، ومضينا معها في أحد أيام السبت من شهر يونيو، وسررت بقيادتها المتزنة للسيارة بخلاف أخيها، وخفة دمها وتركيزها على الأمور الفكرية، وكانت نزهةً رائعةً انتهت بتناول الطعام على شرفة غرفة ستيفن في الطابق الأرضي في آدامز رود Adams Road –أطلقت عليها إيزابيل (الوجبة الباردة)– وهذا ما جعل روابط عائلتي أقوى مع آل هوكينغ، وعندما عاد ستيفن إلى سانت ألبانز لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، دعاه والداي إلى العشاء، وعاملاه بكرم ضيافة تام؛ بدا ستيفن بمظهره رابط الجأش، وقد عاد بشكله إلى أيام أكسفورد القديمة، بشعره المسترسل المنطلق الذي كان أطول أكثر من أي وقت مضى، وبزته المسائية المخملية السوداء وربطة عنقه الحمراء وكأنّه زي موحد مسخّر لتحدي كل انسجام يمثله والداي، ومن جهتهم شعروا بالراحة لأنّ هذا اللقاء سيكون لقاءنا الأخير لبعض الوقت بما أنني كنت على وشك الانطلاق مرّةً أخرى نحو إسبانيا.

في وقتٍ مبكرٍ صباح أحد أيام يوليو/تموزمن عام 1962، قادني والدي إلى مطار غاتويك Gatwick؛ لأنضم إلى رحلة طلاب كان من المقرر أن تغادر في الساعة التاسعة صباحًا، لتصل إلى مدريد الواحدة ظهرًا، لكن تم تأجيل الإقلاع حتى يتم إجراء إصلاحات للمحرك؛ ولم أشعر بالقلق من التأخير، ولا من الحاجة إلى الإصلاح ولا من حقيقة أنّه وبعد إقلاعنا أخذ الماء يتدلى من سقف الطائرة كرقاقات ثلجية، ولم أكن

قلقة من استمتاع القبطان ومساعده بكوب من العصير عندما دُعينا، نحن الطلاب، إلى إلقاء نظرة على قمرة القيادة، أما أحد معارف طبيبنا المحلي ويدعى بيل لويس Bill Lewis فقد كان أكثر قلقًا عندما استقبلني في مدريد عند الساعة الخامسة بعد الظهر، وقال مازحًا: «أظن أنّ طريقكم كان عبر القطب الشمالي». أخذني إلى منزله للقاء زوجته التي خصتني باستقبال حارّ كل مساء من الساعة السادسة فصاعدًا، ومن ثم نقلني إلى مسكن كان قد وجده لي.

كانت بيلار صاحبة المكان ذات جسدٍ صغيرٍ وأنفٍ حادٍ وشعرٍ أسودَ وشخصيةٍ مرحة، عازبةً تعيش في شقةٍ كبيرةٍ حسنة التجهيز قرب الزاوية حيث يقطن آل لويس؛ أما المُستأجرة الأخرى عند بيلار التي تُدعى سيلفيا، فقد كانت إنكليزيةً أيضًا وتعمل في السفارة البريطانية، ولم تكن سيلفيا مرتاحةً لأصدقاء بيلار الذين يأتون في جميع الأوقات في الليل والنهار، وعندما أبلغتني هواجسها، أسرعت لوضع خططي لمغادرة مدريد بأقرب فرصة ممكنة، لكن ليس قبل الاستفادة من كلّ لحظة ثمينة في العاصمة وضواحيها بزيارة متحف برادو Prado Museum، والانضمام إلى العديد من الرحلات السياحية إلى القصور الملكية في آرانخويث Aranjuez والإسكوريال Escorial، وبالتأكيد ذهبت إلى طليطلة Toledo، وهي مدينة من القرون الوسطى تطفو على صخرة فوق نهر تاجو Tajo، وحيث عاش اليهود والعرب والمسيحيون وعملوا في وئام تام وسعي حثيث للتعلم في القرن الثالث عشر، وحيث رسم إل غريكو[1] بعضًا من أروع لوحاته.

ذهبت أيضًا مع مجموعة من الطلاب في زيارة لوادي فالين Valley of the Fallen ووادي الشهداء el Valle de los Caídos، الذي يُفترض أنّه النصب التذكاري لقتلى الطرفين في الحرب الأهلية الإسبانية، لكنه في الواقع مدفن خاص للفاشيين -دَفن فيه الجنرال فرانسيسكو فرانكو نفسه فيما بعد- وقد بُني من قبل أسرى الحرب الجمهوريين، وقد لاحظت خلال وجودي هناك أنّ العديد من المتسولين المشوهين في

(1) إل غريكو (El Greco، 1541-1614): من أبرز رسامي أوروبا في القرن السادس عشر، رسام يوناني إسباني عاش معظم حياته في إسبانيا. (المترجم).

شوارع مدريد كانوا من بقايا الحرب الأهلية المأساوية التي عصفت بتلك البلاد، والتي كشفت عن نزعة فصامية قبيحة لإسبانيا، وفي منتصف القرن العشرين ما زالت البلاد تعاني تناقضات مقلقة، كان قد صورها الرسام غويا Goya في لوحات ورسومات القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، والتي رأيتها في متحف برادو.

عندما عدت إلى مؤسسة بيلار، انتابني أنا وسيلفيا شعور من عدم الارتياح، وأنّ الأمور تتجه إلى التأزم، فقد رفضنا بإصرار الخروج معها في المساء، وكانت قعقعة القدور في المطبخ هائلة دائمًا، فيما أصبحت الوجبات وأوقاتها أمر خاضع للصدفة، ووسط شعوري بالذنب قليلًا لترك سيلفيا في هذا الوضع الحرج، قررت المراوغة والانطلاق بالقطار المكيّف لأغراض السلامة إلى غرناطة، حيث حضّرت نفسي لإقامة مطولة في نزل الطلبة الدوليين، الذي يستضيف حشدًا متحمسًا ومتنوعًا وغنيًّا، خاصةً الإسبان الذين تتراوح نقاشاتهم من السياسة إلى الشعر من دون أن تنقطع أنفاسهم خلال النقاش، ولأحفظ عقلي، كنت أهرب أحيانًا من ضغط النقاشات لأتجول في شوارع غرناطة في حرارة النهار، لأشاهد الأطفال الغجر يلعبون أمام كهوفهم، أو لأتنزه في القصر المغاربي، قصر الحمراء وحدائق جنة العريف، والذهول يتملكني أمام هذا الجمال الهائل والمتكامل للمكان.

كنت أسلم نفسي لغفوةٍ حالمة مستسلمةً لأريج الزهور العطرة وموسيقى النوافير، كنت أجلس لساعاتٍ تحت الأقواس في باحة الجداول في جنة العريف، ومن هناك كنت أحدق عبر الجدران التي تخفي الزخرفة النسيجية المتشابكة للساحات الداخلية للقصر، وكانت المدينة المتلألئة تحت أشعة الشمس تتوهج هناك في الأسفل، ويخفف من هذا التوهج شجر السرو الأخضر الطويل ونباتات الجهنمية الأرجوانية والوردية المتدلية على الجدران البيضاء العاكسة لأشعة الشمس؛ إنّها مدينة جميلة لكنها قاسية، وماذا ستكون مدينة قتلت أحد أشهر أبنائها؟ فعندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية قامت قوات جناح اليميني الثوري التابع لفرانكو في غرناطة بذبح أعظم شاعر إسباني في القرن العشرين، وهو فيديريكو غارسيا لوركا Federico García

Lorca، الشاعر الذي استقدمني عبر أبياته النابضة بالألوان والإيقاع إلى الأندلس قبل أن تطأ قدمي على ترابها بزمان طويل.

لم تمرّ تلك الأوقات الطويلة من التأمل الانفرادي في هذا الجمال الأخاذ دون أن تداهمني موجات وحدة فظيعة، وكنت قد عرفت في الماضي لحظاتٍ من الاكتئاب الشديد دون أن أتمكن من تحديد سببٍ دقيقٍ لها، لكن سببها أصبح واضحًا لي وكان طبيعيًّا تمامًا: إنّه التوق لشخصٍ يشاركني تجاربي، ليس هذا فحسب، بل أدركت أنّ الشخص الذي أرغب بمشاركته هو ستيفن؛ كانت علاقتنا المبكرة قد عقدت الكثير من الوعود بالانسجام والتوافق، لكن مرضه جعل من أي علاقة معه محفوفة بالمخاطر، ذات ديمومة قصيرة، وربما مفجعة، هل لي أن أساعده في إيجاد مدة وجيزة من السعادة؟ ساورني الشك في قدرتي على تولي هذه المهمة، ونقلت هواجسي هذه إلى أصدقائي الجدد من جميع الجنسيات، وجاءت آراؤهم لتحثني على المضي قدمًا: «إذا كان بحاجةٍ لوجودك بجانبه، عليكِ أن تكوني هناك».

وبعد صراعٍ داخلي، اقتلعتني روح المغامرة أخيرًا من السحر الكئيب لغرناطة، ووضعتني على متن حافلة حارّة ذات رائحة كريهة، مزدحمة ببائعي السوق وبضائعهم -الذين لم يكفوا عن الصياح والقهقهة- واتجهنا ببطءٍ نحو التلال إلى مالقة Málaga، وبينما كنت أنتظر في محطة الحافلات لحافلة تأخذني إلى لا لينيا La Línea، النقطة الإسبانية الأخيرة قبل جبل طارق، جاء رجل إليّ وسألني عمّا إذا كان بودي التدرُّب كراقصة إسبانية، ووسط مفاجأتي شرح أنّ لديّ مقومات الرقص من ناحية المظهر، وبالرغم من أنّني كنت قد كونت خبرةً في صد الرجل الإسباني إلا أنّ إطراءه أغواني، ورغم شكوكي بدا الرجل صادقًا، لم يكن مداهنًا أو متملقًا، بل واضحًا في عرضه، ناولني بطاقةً تحمل عنوان استديو الرقص، وبينما كنت أدرس عرضه ظهرت حافلة لا لينيا التي كانت إغواءً أشد أنساني إغراء الرقص الإسباني.

لكن هناك ما يثير ذهولي حتى الآن، وهو كيف جاءت تلك الحافلة في الوقت المحدد لها؟ وهو أمر غير معهود في إسبانيا! ومن يعلم كيف كانت قصتي ستكون لو تأخرت تلك الحافلة دقائق عدّة فقط؟

عبرت من لا لينيا عبر الحدود الطبيعية الفاصلة بين جبل طارق وإسبانيا، مجتازةً بوابةً محاطة بسياج حديدي أخضرَ بارتفاع عشرين قدمًا عند نقطة الجمارك؛ وشكّل جبل طارق مع وضعه المتناقض المتمثل في خضوعه للاستعمار البريطاني نقطة انطلاق مريحة لرحلتي الوحيدة إلى أفريقيا، إلى طنجة حيث كان لي لقاء مع المنحدرين من الناس الذين غزو إسبانيا عام 711 وظلوا هناك لأكثر من سبعمئة سنة، إنّهم العرب، الذين أحببتهم، والذين عاملوني بكياسة ولطف عظيمين رغم حالتي كفتاة إنكليزية تسافر وحيدةً، وعلى نقيض الإسبان الذين يتحرشون بأي أنثى أجنبية، عاملني العرب بكثير من الاحترام، إنّه شعبٌ ذو كرامة، فخورٌ بمهاراته الفنية، والتي تُعرض في كلّ مكان في أكشاك القصبة[1] Kazbah، لطفهم وضيافتهم لا تُنسى، ولديهم الفضول لمعرفة المزيد عن الحياة في أوروبا، وهو ما اكتشفته من خلال الكثير من الأكواب الساخنة من الشاي بالنعناع، التي كانوا يقدموها كلما اشتريت قطعةً صغيرةً من متاجرهم.

أما سيلفيا المسكينة، فقد روت لي أنّ عددًا لا يستهان به من القدور قد تقاذفت خلال غيابي، وازداد عدم رضا بيلار عن العائد الذي تحصل عليه من ضيوفها، متوقعةً مكافآت كبيرة منهم بشكل أو بآخر، كانت قد نقلَتْ سيلفيا من غرفتها، وأصبحت الآن تشاركني غرفتي، وقد وجدنا هذا شيئًا إيجابيًّا، لأنّ سلامتنا مضمونة أكثر سويةً، لكن الأمر لم يكن جيدًا لسيلفيا على المدى الطويل؛ لأنّني سأغادر قريبًا وستبقى لوحدها في المكان، وحتى ذلك الوقت كنت قد امتنعت عمدًا عن نقل الحقيقة لآل لويس حول المسكن الذي تكرموا ووجدوه لي، ولم أرد الظهور بمظهر الناكر لجميلهم وضيافتهم، إلا أنّ الوقت كان قد حان لإطلاعهم على ما يجري في بيت بيلار.

قدمت سيلفيا معي إلى جلسة كوكتيل الساعة السادسة عند آل لويس، وروينا سويةً ما يحصل هناك من تعاقب الزوار الكريهين إلى الشقة، وإن كان على نطاق ضيق، وتابعنا روايتنا حول محاولاتهم التحرش بنا عندما نعود في المساء، وكيف كنّا نحتمي

(1) القصبة: المدينة العتيقة في المنطقة المغاربية. (المترجم).

بالحارس الليلي الذي يبقي معه مفاتيح الأبواب الأمامية لجميع المنازل في الشارع، والذي يظهر عندما نصفق بأيدينا ليفتح لنا الباب الرئيس، روينا الكثير لكننا تغاضينا قليلًا عن الإشكاليات التي كانت تحصل كلّ الليل في غرف الشقة الأخرى.

بصقت السيدة لويس العصير من فمها من فرط غضبها، وهي تستمع لسردنا الذي كان يسمعه أيضًا جمهور صغير من المغتربين البريطانيين والذين لم يبدُ عليهم التأثر نفسه، كانت تلك آخر ليلة لي في مدريد، وسررت عندما سارع الجميع للبحث عن مسكن جديد لسيلفيا كمسألةٍ ملحة؛ كان معظم ضيوف آل لويس يعملون مثل سيلفيا في السفارة البريطانية، رغم أنّها لم تلتقِ بأي منهم من قبل، كانوا مسلين ومتواضعين، وهم يشكّلون بحقٍ دعايةً جيدةً للخدمة الدبلوماسية التي بدأت بالظهور بوصفها مهنةً مثيرةً. عدت إلى إنكلترا في اليوم التالي في رحلة الطلاب، الحزن يتملكني لما خلفت ورائي من تجارب كثيرةٍ ومناظرَ وأصواتٍ ومعارفَ ومؤامرات، ومذهولةً في الوقت نفسه من مجموعةٍ متناقضةٍ وربما متضاربةٍ من الاحتمالات التي انفتحت أمامي.

5
مبادئ غير مؤكدة

فشلت جميع محاولاتي للاتصال بستيفن بعد عودتي إلى الوطن من إسبانيا، ووفقًا لوالدته فقد عاد إلى كامبريدج، لكنه ليس بحالٍ جيدة. كنت مشغولة بالتحضير لمغادرة المنزل للشروع في مرحلةٍ جديدةٍ من حياتي في لندن، وخلال الأسابيع التالية ذلك الخريف، انحصر انتباهي في الدوامة الأكاديمية والاجتماعية لمشهد ويستفيلد على وجه الخصوص، ولندن بشكل عام، حيث كانت الحفلات والمسرح والباليه في متناول اليد، وذات يوم كنتُ أسافر عبر مترو أنفاق لندن مع مجموعة من الأصدقاء، عندما وقعت أعيننا على العناوين التي تعلن اغتيال الرئيس كنيدي، وفي تلك المدة من نوفمبر 1963 عاد الاتصال مع ستيفن مرّةً أخرى.

كان قادمًا إلى لندن لعلاج أسنانه، وسألني فيما إذا كنت راغبةً في مرافقته إلى الأوبرا؛ كان هذا أكثر إغراءً بكثير من قفزات طلاب السنة الأولى في حفلات جنون البيتلز[1]، حيث اعتاد الشبان الاستناد إلى الجدران حتى الرقصة الأخيرة. لم أكن قد حُظيت بتدريب منهجي على الموسيقى رغم حبّي لها منذ نعومة أظافري، ولم يسبق لي الذهاب إلى الأوبرا إلا مرّة واحدةً مع المدرسة إلى أداء أوبرا زواج فيغارو The Marriage of Figaro في سادلر ويلز Sadler's Wells، أما محاولتي اليتيمة للعزف فكانت مع الفلوت، وهي محاولة انتهت في سن الثالثة عشرة، عندما كسرتُ ذراعي في أثناء محاولة التزلج على بحيرة متجمدة في الحديقة في فيريليميوم Verulamium، وهو موقع المدينة الرومانية التي بنيت عليها سانت ألبانز.

---

(1) جنون البيتلز (Beatlemania): كناية عن انفعال وحماسة عشاق موسيقى فرقة البيتلز في بداية الستينيات من القرن الماضي. (المترجم).

التقيت ستيفن بعد ظهر يوم جمعة من نوفمبر/تشرين الثاني ﭬ هارلي ستريت Harley Street، حيث كان زوج عمته راسل كول Russell Cole يعالج أسنانه، كان ستيفن يسير متعثرًا، مترنحًا من جانب لآخر، جاعلًا من سيارة الأجرة ضرورةً مكلفةً ﭬ حال المسافات الكبيرة، والغريب ﭬ الأمر أنّه كلما أصبحت مشيته غير مستقرةٍ كانت آراؤه تزداد قوةً وتحديًا، وﭬ طريقنا لزيارة والاس كولكشن Wallace Collection القريبة من هارلي ستريت، أعلن بصلابة أنّه لا يتفق مع صورة البطل العامة للرئيس المغتال، وﭬ رأيه يمكن وصف طريقة تعامل كينيدي مع أزمة الصواريخ الكوبية بالمتهورة، فقد وضعت العالم على شفير حربٍ نوويةٍ، وأنّ الرئيس كينيدي، لا الروس، هو من هدَّد بالمواجهة العسكرية، وأكثر من ذلك، فقد صرّح ستيفن أنّه من غير المنطقي أن تدّعي الولايات المتحدة النصر بسبب موافقة كينيدي على إزالة الصواريخ الأمريكية من تركيا لتهدئة خروتشوف[1].

رغم القوة التي عبّر فيها عن أفكاره وصعوباته ﭬ المشي، كان ستيفن لا يكل ولا يمل، ولذلك فقد اتخذنا طريقنا من والاس كولكشن إلى ريجنت ستريت Regent Street بحثًا عن مطعم، وكنّا ﭬ وسط الشارع نعبر لاور ريجنت ستريت Lower Regent Street عندما تعثّر ستيفن وسقط حالما أصبحت إشارة المرور خضراء، فسارعت إلى جرّه على قدميه بمساعدة أحد المارة، وقدمتُ له ذراعي ليتكئ عليها، ففعل مرتجفًا، هتفنا لسيارة أجرة لنصل سادلر ويلز Sadler's Wells.

كانت الأوبرا التي ابتاع ستيفن لحضورها تذكرتين أوبرا الهولندي الطائر The Flying Dutchman، وكانت أوبرا رائعةً، أخذتنا بعيدًا ﭬ عوالم الموسيقى والدراما من خلال القصة الأسطورية للهولندي الطائر الذي حلت عليه لعنة الإبحار عبر البحار ﭬ العواصف والرياح حتى يجد من تضحي بنفسها من أجل حبّه! كان الهولندي شخصيةً وحشيةً تطارده اللعنة، فينوح بصوتٍ عالٍ باكيًا مصيره من الإعداد الدائم لحبال الأشرعة والصواري للسفينة التي تتقاذفها الأمواج بصخب، أما سينتا Senta

(1) نيكيتا خروتشوف: رئيس الاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة. (المترجم).

فكانت الفتاة البريئة والنقية التي وقعت في حبّه؛ وكما معظم السوبرانو الفاجنرية[1]، انتهت الفتاة موثقةً بقسوةٍ على عجلة مغزلها.

بدأت أفهم تكتيكات ستيفن الشيطانية مع استشعاري بمعرفة ستيفن الوثيقة بشخصية البطل، وكانت سيارة والده عربةً يستخدمها في ثورات غضبه بسبب الخدعة التي ورطه فيها القدر، وكان أيضًا يتحرك في الاتجاهات جميعها بحثًا عن مخرج لكن بطريقة لا يمكن وصفها إلا بالمتهورة.

بعد ذلك مساء، شعرت بحاجتي الشخصية إلى معرفة المزيد عن حالة ستيفن، ولذلك قمت بجولات عدّة في لندن، بحثًا عن معارفي القدامى الذين أصبحوا طلاب طب، وزرت المكاتب الرثّة للجمعيات الخيرية التي تُعنى بالأمراض العصبية، وعدت خالية الوفاض من هذه الجولات؛ ربما كان من الأفضل لي ألا أعرف، وتساءلت عمّا إذا كان مصير ستيفن أسوأ من هذا المصير الذي يتهددنا جميعًا؛ كنا نعيش في ظلّ السحابة النووية، لا يمكن لأيٍ منّا التعويل على العيش لسبعين عامًا.

اتصلت بستيفن في منزله بسانت ألبانز في سكون أحد الأيام القاتمة من فصل الشتاء بين عيد الميلاد ورأس السنة، كان على وشك المغادرة إلى لندن لحضور الأوبرا مع والده وشقيقتيه، وقد سرَّه كثيرًا قبولي السريع لدعوته العفوية في مرافقته مع والده في غضون أسبوع إلى أوبرا أخرى، التي كانت هذه المرّة أوبرا فارس الوردة لريتشارد شتراوس[2]، والتي بدت كأنّها هواية عائلية راسخة لدى آل هوكينغ، في حين أنّني أنا هذا القادم الجديد ما يزال يقيّم هذا النمط الفني الهجين، ورغم أنّ هذا الفن يمارس قوةً عاطفيةً هائلةً من خلال المزج بين الموسيقى والدراما، إلا أنّه قد يبدو هزليًّا إذا أهمل المرء تركيزه فيه للحظة. وبدا أنّ ستيفن قد وقع على مصدرٍ لا ينضب من تذاكر الأوبرا، وكان يأتي باستمرارٍ إلى لندن ليأخذني إلى كوفنت غاردن Covent Garden أو سادلر ويلز.

(1) يتعلق بموسيقى أو نمط موسيقى الملحن الألماني ريتشارد فاجنر. (المترجم).

(2) ريتشارد شتراوس (Richard Strauss، 1864-1949): مؤلف موسيقي ألماني. (المترجم).

غامرت إحدى المرات بالقول إنّني أفضِّل الذهاب إلى الباليه الذي كان شغفي منذ سن الرابعة، لكن اقتراحي ذاك قُمع بازدراء مدمر، فمن وجهة نظر ستيفن كان الباليه مضيعةً للوقت، وموسيقى تافهة، لا تستحق بذل جهد لسماعها، وبسبب هذا التوبيخ امتنعت عن إبلاغ ستيفن بأنّني قد حصلت على تذكرة لرائعة تشايكوفسكي[1] روميو وجوليت بأداء فونتين[2] ونورييف[3] من خلال اتحاد الطلبة؛ ذهبت برفقة مجموعة من الفتيات وجلسنا في المقاعد الرخيصة، في الخلف وأعلى المدرج في كوفنت غاردن، فوق القوس الكبير، حيث يجلس عادةً آل هوكينغ، وكان الأداء مهيبًا وحابسًا للأنفاس، وترك فيّ الأثر العميق.

استمر ستيفن بالقدوم إلى لندن بشكل متكرر من أجل الندوات الدراسية أو مواعيد علاج الأسنان، وصرت أزوره أكثر في كامبريدج في أيام السبت أو الأحد، وبالرغم من ترقب تلك الزيارات إلا أنّها كانت مخيبةً في الكثير من الأحيان لكلّ منّا، فقد كانت أجرة العودة البالغة عشرة شلن رقمًا كبيرًا بالنسبة إلى ميزانيتي البالغة عشرة جنيهات إسترلينية في الشهر، بالإضافة إلى أنّ مسار الحب لم يكن سلسًا، ولم يحتج الأمر لكثيرٍ من الخيال لإدراك عدم إمكانية ستيفن التفكير في علاقة مستقرة على المدى الطويل بحكم ظروف مرضه، وربما كانت الصداقة أقصى تصوراته، .

أدت وجهات النظر المتعارضة هذه إلى توتر بيننا، حتى إنني كثيرًا ما عدت باكيةً إلى لندن، وربما شعر ستيفن بأنّ وجودي بالنسبة إليه كالملح على جرحه المتمثل في مرضه، لكنه لم يكن يكشف الكثير عمّا يتعلق بالمسائل العاطفية ورفض التكلم عن مرضه، ومخافة إيذائه، حاولت حدس مشاعره دون إجباره على التعبير عنها، وهذا

---

(1) بيتر اليتش تشايكوفسكي (Pyotr Ilyich Tchaikovsky، 1840-1893): مؤلف موسيقي روسي، ومن أكثر الموسيقيين الكلاسيكيين شعبيةً في العالم. (المترجم).

(2) دام مارجوت فونتين دو أرياس (Dame Margot Fonteyn de Arias، 1919-1991): راقصة باليه إنكليزية، ومن أشهر راقصات الباليه الكلاسيكي في القرن العشرين. (المترجم).

(3) رودولف خاميتوفيتش نورييف (Rudolf Khametovich Nureyev، 1938-1993): راقص باليه ورقص عصري، من الشخصيات المشهورة في القرن العشرين. (المترجم).

ما أدى إلى حالة غير مقصودة من عدم التواصل، والتي أصبحت في النهاية لا تُطاق أبدًا؛ التقيت به مرّة أخرى في هارلي ستريت بعد مدة في ذلك الشتاء، بعد موعده مع طبيبه الاختصاصي، وعندما سألته: «كيف تجري الأمور؟»، تجهم وأجاب: «أخبرني ألا أزعج نفسي بالقدوم مجددًا؛ لأنّه غير قادر على تقديم شيء لي».

جاءت معي شريكتي في السكن مارغريت لحضور لقاءات الاتحاد المسيحي، حيث كنت آمل الحصول على بعض الأفكار الداعمة لي في هذا الوضع المربك الذي صرت منخرطةً فيه أكثر وأكثر. أما ستيفن فشأنه شأن والديه، لم يتردد في إعلان نفسه ملحدًا رغم الخلفية الميثودية[1] القوية لجديه من يوركشاير، كان من المفهوم أنّه وبوصفه عالم كونيات يدرس القوانين التي تحكم العالم، لا يمكن له السماح بتشويش حساباته، هذا بصرف النظر عن الإرباك الذي أصاب ذهنه بسبب مرضه، وكنت سعيدةً جدًّا للابتعاد عن رتابة يوم الأحد التقليدي والذهاب إلى الكنسية، لكن لم يكن لديّ الميل للتخلي عن معتقداتي بشكل تام.

وحتى ذلك الحين، وربما تحت تأثير والدتي، اقتنعت أنّ هناك أكثر من السماء والأرض التي تتضمنها فلسفة ستيفن الموضوعية الباردة، رغم أنني كنت مأسورة بفتنته في تلك المدة، مسحورةً بعينيه الزرقاوين الصافيتين وابتسامته اللطيفة العريضة؛ قاومت إلحاده، كنت أعلم بغريزتي أنّه لا يجوز السماح لنفسي بالاستسلام لمثل هذا التأثير السلبي الذي لا يقدم أي عزاء أو راحة أو أمل لحالة الإنسان، كان للإلحاد أن يدمر كلينا، وأردت التشبث بأي بصيص أملٍ قد أجده والحفاظ على الإيمان الكافي لنا نحن الاثنين إذا ما كان هناك أي خير لنا في محنتنا الحزينة.

لم يكن هناك حضور كبير للقاءات الاتحاد المسيحي، وسرعان ما أصبحت أقل مع مرور الوقت؛ كان موضوع مناقشات تلك المدة هي طبيعة النعمة الإلهية، لكن

(1) الميثودية أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ومستعمراتها لاحقًا من خلال الأنشطة التبشيرية، يتبعها ما يقارب السبعين مليونًا في جميع أنحاء العالم. (المترجم).

اتضح لنا أنّ قادة المجموعة يعتقدون بشكل راسخ أنّ المعمودية والاعتراف وممارسة الواجبات الدينية المسيحية هي التي تمنح النعمة الإلهية أو الخلاص أو ما يحلو لهم تسميتها، ومن دون هذه المؤهلات لا يمكن دخول ملكوت السماء، وكان من أولئك القادة قسيس شاب شوَّهنا اسمه باستخفاف إلى ريفد بي. سوبر Revd P. Souper. خرجت مع مارغريت ساخطتَين من هذه المناقشات، وأخذنا نستعرض بغضب قائمة طويلة من الناس الطيبين والمحبين ومن الأصدقاء والأقارب، الذين لا يوفون تلك المعايير، وأجرينا مناقشات طويلة حول هذه الموضوعات التي تابعناها في إجازاتنا عندما كنت أذهب للبقاء معها ومع أسرتها في يوركشاير.

يقضي طلاب اللغة في أيامنا هذه سنة كاملة في الخارج، أما في الستينيات من القرن الماضي فقد كان ترفًا كبيرًا للمرء أن يقضي فصلًا في بلد اللغة الهدف، وهكذا فقد ركبنا، نحن طلاب ويستفيلد، القطار ثم الزورق في أواخر أبريل/نيسان لقضاء الصيف في برنامج معد مسبقًا في جامعة فالنسيا؛ وصلنا لنجد أنّ لا وجود لمثل هذا البرنامج، وأنّ الجامعة كانت قادرة على توفير محاضرات عدّة في الإسبانية عن شكسبير، والالتزام الوحيد المنوط بنا هو جمع شهادات حضور البرنامج في نهاية الفصل، وهو أمر متاح في حال حضورنا المحاضرات أو لا، ذهبنا لمحاضرة واحدة فقط، حيث تم تقديم صورة محرَّفة عن ماكبث[1]، فقررنا أنّ هذا يكفي، فقد أمضيت عمري في دراسة شكسبير في المدرسة ولا أستطيع تحمّل جرعة إضافية عنه في الإسبانية، وافقني زملائي على هذا، ومن ثم ذهبنا إلى الشاطئ بدلًا عن هذه المحاضرات.

بعدها بأسبوعين وبينما استمر الآخرون بالذهاب إلى الشاطئ، طرأ ما أجبرني على البقاء في غرفتي في شقة الطابق السابع مع صداع فظيع، والذي ظننته في البداية ناتج عن ضربة شمس، لكنه تطور في حالة شديدة من الحُماق (جدري الماء)، وشعرت

(1) ماكبث (Macbeth): مسرحية تراجيدية للمسرحي الإنكليزي ويليام شكسبير، وتُعدّ هذه المسرحية أقصر تراجيديات شكسبير. (المترجم).

بأنني بائسة إلى أبعد حد. كنت أفتقد ستيفن كثيرًا، كان التواصل بوساطة الهاتف غير وارد في تلك الأيام، ولم يكتب لي رغم أنني راسلته مرّات عدّة.

كان مصدر الراحة الوحيد لي هو أصدقائي من ويستفيلد الذين أبقوني على اتصال مع العالم الخارجي، وصاحبة المكان دونا بيلار دي أوبيدا Doña Pilar de Ubeda، وابنتها في منتصف العمر ماريبيل، واللتان جسدتا اللطافة بشخصيهما. ومع التعافي البطيء بدأت أتجول في المطبخ، حيث علمتني دونا بيلار دروسًا في الطبخ الإسباني، علمتني كيفية تقشير البرتقال بشكلٍ مرتبٍ في فصول، وكيف أصنع حساء جازباتشو gazpacho والبايا[1] paella، وأخذتني للتسوق معها، ومن حسن حظي أنّ وجهي المنقط وحضور هذه المربية الموقرة أبعد عني الرجال الفظين المتسكعين في الشوارع.

بالعودة إلى الشقة، جلست في غرفة المعيشة أستمع حتى الغثيان إلى تسجيلين كنت قد اشتريتهما، وهما السمفونية السابعة لبيتهوفن ومقتطفات من تريستان وإيزولده Tristan and Isolde لفاغنر، وقد أدخلتني الأخيرة في حالة مؤلمة بشدة من الويل، وأخيرًا جاءت لحظة طال انتظارها، ركبنا القطار إلى برشلونة في الجزء الأوّل من رحلة العودة إلى الوطن؛ كنت مسرورةً بمغادرة فالنسيا، إذ رغم نضارة برتقالها وعطور بساتين الحمضيات الفواحة، فقد تركت أثرًا سلبيًا فيَّ؛ بسبب النظام القمعي الذي لا يتوارى عن رمي الطلاب في السجن تعسفيًا، وإزالة الصفحات التي لا تعجبه من النسخ المستوردة من صحيفة التايمز.

أحضر والداي ستيفن للقائي، وكانت اللحظات الأولى للم الشمل سعيدةً لكن قصيرة الأمد، وسرعان ما أدركت التغيّرات التي طرأت عليه في غيابي، لم تتغيّر حالته البدنية بشكلٍ ملحوظ، خلا أنّه يسير الآن دائمًا بالاعتماد على عصا، وألقت كآبته الداخلية الشديدة بظلالها على شخصيته، وهذا ما بدا واضحًا من خلال السخرية السوداء القاسية، المدعومة والمحرّضة بساعات طويلة من الاستماع لأوبرا

(1) بايا: طبق إسباني مصنوع من الأرز واللحم والخضار والمحار. (المترجم).

فاجنر بإصداراتها الكاملة، حتى إنه كان أكثر اقتضابًا وصمتًا، غارقًا في نفسه، وهو ما ظهر بشكل فج عندما عرض عليّ تعلّم الكروكيت على مرج ترنتي هول، وهنا بدا أنّه قد نسي وجودي تمامًا هناك، فرمى العصا جانبًا وهي التي أصبحت ملحقةً دائمةً به، ووجهني بتعليمات جافة قبل تسديدي الكرة إلى الطوق، وعندما فشلت بها، تناول مضربه، وأخذ يلعب بالكرة في المسار لوحده، حتى وصل نقطة النهاية قبل أن أحظى بدوري ثانيةً، وقفت مشدوهةً، مضطربةً وقلقةً في الوقت نفسه، كانت تلك جولة قوة مؤثرة، تخفي خلفها عدائيةً وإحباطًا، كما لو أنّه يحاول عمدًا ردعي عن التعلق به أكثر، كان الوقت قد فات على ذلك، وكنت منخرطةً في علاقتنا لدرجة عدم وجود طريقة سهلة أو واضحة للخروج منها.

كان الأمر مؤلمًا لكن ربما من المفيد أن نكون على وشك الافتراق مرّة أخرى، فقد حضّر ستيفن نفسه للسفر إلى ألمانيا مع شقيقته فيليبا، في رحلة إلى ضريح فاجنر، ومسرح الاحتفالات فيستسفيلهاوس Festspielhaus في بايرويت Bayreuth، مع تذاكر لحضور الرباعية الأوبرالية كاملةً لفاجنر، ومن هناك سينطلقون بوساطة القطار خلف الستار الحديدي إلى براغ، بينما وجب عليّ مرافقة والدي إلى المؤتمر الحكومي الدولي في ديجون Dijon، حيث سأبقى مع عائلة محلية، زوجان مسنان مع ابنة ذكية جدًّا ذات خمسة وعشرين عامًا، ولديها عمل، ولم يخلُ الجو من التسلية بالنسبة إلي، فقد كان لمؤتمر والدي بعد يوم أو يومين من المحاضرات وجلسات الدراسة الترفيه الخاص به، وكان لي شرف المشاركة فيه، كنّا في بورغون Bourgogne حيث الكروم تحيط بنا، وجدران كلوسClos[1] الشهيرة للمنطقة.

نتج إثر ذلك مرحلة جديدة أخرى، يمكن القول إنّها من أمتع مراحل دراستي، وهي تنمية مميزة لحاسة التذوق في منهج تعرفت بفضله على أسماء كبيرة وأنواع كثيرة من عصائر بورغون Bourgogne، ونوت سان جورجس Nuits-Saint-Georges، وكوت دي بون Côtes de Beaune وكلوس دي فاودجيت Clos de Vougeot.

(1) كلوس: من الفرنسية تقابل كلمة (مغلق)، وهي كروم محاطة بجدران لحمايتها من اللصوص. (المترجم).

فقد أثارت الشارة الدعائية لنوت سان جورجس Nuits-Saint-Georges فضولي البريء: مغرٍ بمذاقه الناعم القوي. ومن ديجون قدنا إلى مطار جنيف للقاء والدتي، ومن ثم قضاء بضعة أيام في مقصدنا المفضل، هناك في أعالي بيرنيز أوبرلاند Bernese Oberland في هوهفلاه Hohfluh، القرية الصغيرة على قمة برينر باس Brenner Pass، والمطلة على وادي اري Aare في ميرينجن Meiringen، حيث يمكن التمتع بأروع المناظر، وقبل أن نغادر سويسرا إلى إيطاليا، أخذنا والدي إلى لوسيرن Lucerne وهي مدينة من القرون الوسطى على حافة البحيرة، وأرانا لوحات متسلسلة لرقصة الموت، في عوارض سقف أحد الجسور الخشبية الممتدة فوق النهر، وأشار إلى الشكل المكسو بالبياض للموت، والذي يختار ضحاياه ويقبض عليه في عناق قاتل ليلتف عليها بسرعة متزايدة ليقودها إلى حتفها.

كانت إيطاليا ساحرةً، وليمةً للعقل والحواس، هناك كنّا على موعدٍ مع الفن والتاريخ والموسيقى والضوء واللون، كانت تلك العناصر حاضرةً في كل مكان ذهبنا إليه من كومو إلى فلورنسا وسان جيميجنانو وبيزا وسيينا وفيرونا وبادوا، إنّه عرض مذهل للجمال الغزير، أمضينا ليلةً في فلورنسا بعد يوم كان عنوانه مايكل أنجلو Michelangelo وبوتيتشيلي Botticelli وبيليني Bellini وليوناردو دافينشي Leonardo da Vinci، ومن نافذة الفندق كنا في تأمل أنا وأمي عبر نهر أرنو Arno في قصر بيتي Pitti Palace حيث سنحضر حفلة موسيقية، وحين أسرّت لي بالأسباب التي دعتها للزواج من والدي في بداية الحرب، قالت لي إنّه إذا ما أصيب في الحرب كانت رغبتها في العناية به بنفسها، كأن ذلك الكلام يتنبأ بما سيأتي بعد أيام قليلة تالية، فبعد وصولنا إلى فندق في فينسيا وهو فندق ديلا سالوت Hotel Della Salute الواقع على قناةٍ منعزلة خلف كنسية تحمل الاسم نفسه، ناولني المدير بطاقة بريديةً موجهةً لي، كانت منظرًا لقلعة في سالزبورغ Salzburg، مرسلةً من ستيفن.

شعرت بسعادة غامرة، هل كان ستيفن يفكر بي كما كنت أفكر به؟ ومنحني هذا سببًا لجرأة الأمل في أنّه يتطلع إلى رؤيتي في نهاية الصيف، لم تكن مجرد بطاقة بريدية بل كانت أخبارًا كثيرةً كذلك، فقد وصل ستيفن إلى سالزبورغ في ختام

المهرجان، والذي كان على النقيض تمامًا من بايرويت؛ كانت تشيكوسلوفاكيا رائعةً وبلادًا رخيصةً بشكل كبير، إنّها إعلان جيّد للشيوعية.

لم يبلغني أنّه تعرّض لسقوط مروِّع على متن قطار في ألمانيا، وهو ما أفقده أسنانه الأمامية، فأمضى الساعات الطوال من جلسات علاج الأسنان عند عمه في هارلي ستريت، حيث تعيَّن عليه استبدالها. أما بالنسبة إلي ففي وهج الرومانسية تلك بدت فينيسيا (البندقية) -وإن يكن من بعد- بقنواتها وبحيرتها وقصورها وكنائسها ومعارضها وجزرها أكثر تألقًا وروعة، متطلعةً بشغفٍ شديدٍ إلى افتتاح فصلٍ جديدٍ في حياتي، ولهذا لم أشعر بالأسف لمغادرتها والعودةً إلى سويسرا، ومن بازل Basle سافرنا بالطائرة إلى المنزل، بعد أن تم إرسال السيارة على متن قارب نقل، وهي ضربة بذخ كبيرة، لكن مبررة بعد قيادة والدي سيارته لآلاف الأميال لوحده دون مساعدة، وقطعه القارة على مرّ السنوات.

سرَّ ستيفن لرؤيتي بعد عودتي، وفهمت بحدسي أنّه بدأ بالنظر لعلاقتنا بشكل إيجابي أكبر، وربما فكر أنّه لم يفقد كلّ شيء، وأنّ المستقبل ليس مظلمًا كما صورته مخاوفه. وذات يوم سبت معتم في كامبريدج، همس لي بتردد عرضًا بالزواج مني، غيَّرت تلك اللحظة حياتنا، وأنستني أفكاري الوظيفية بالالتحاق بالسلك الدبلوماسي.

6
خلفيات

منذ اتخاذ ذلك القرار التاريخي بدأ كلّ شيء يأخذ مجراه الصحيح -وإن لم يكن بشكل تلقائي- كنا نحصل عليه ببعض العزيمة والجهد؛ نفَّذنا مخططنا خلال العالم التالي بنشوة كبيرة، واحتفظ الأصدقاء والعائلة بشكوكهم تجاه وضع ستيفن الصحيّ لأنفسهم، ولعلّ التعليق الوحيد الذي تلقيته منهم كان بشأن غرابة أسرة هوكينغ.

لم تقلقني مثل تلك التعليقات كثيرًا؛ لأنّني كنت أحب آل هوكينغ، وأنظر إلى غرابتهم بافتتان واحترام، فهم رحبوا بي، وعاملوني كفرد من أفراد عائلتهم، قد يكونون مقتصدين بما يتعلق بالأمور بالمادية، يفضلون الغرض المجرَّب على ذاك العصريّ الحديث، وهم بالتأكيد قد قاموا بحلٍّ وسطٍ بالنسبة إلى التدفئة، لدرجة أنّ الناس الذين كانوا يشعرون بالبرد كانوا يتلقون نصائح ساخرة بتقليد فرانك هوكينغ وارتداء ملابس أكثر؛ مبذل على سبيل المثال، حتى خلال النهار، وأكثر من ذلك، كنت قد اكتشفت آنذاك أنّ هناك مناطق من المنزل يمكن وصفها بالرثة المتهالكة، على أنّ تلك الأشياء كلّها لم تكن بجديدةٍ عليّ، وكانت تعني لي ببساطة أنّ لهذه العائلة أولويات لا تختلف كثيرًا عن تلك التي اعتدتها، فقد اقتصد والداي ووفرا لأعوام، لم نكن أثرياء، وكان علينا القيام بكثير من الأعمال والإصلاحات بأنفسنا؛ لأنّ قسمًا كبيرًا من دخل الوالد كان يُنفق على تعليمنا وعلى تلك العطلات الصيفية الرائعة، ولم يكن لدينا تدفئة مركزية في المنزل، وقد اعتدت الجلوس بقرب النار فأشعر بالحرارة العالية في وجهي وأصابعي في حين تلفع التيارات الباردة الجزء الخلفي من رقبتي.

وفي السرير ليلًا، كنت أريح قدميّ المخدرتين على زجاجة ماء ساخنة، مع معرفتي التامة بأنّ النتيجة ستكون تورم أصابعي صباح اليوم التالي، عندما أستيقظ لأجد أنّ السراخس والأوراق الداكنة للحديقة المتجمدة الساحرة تغطي زجاج النافذة؛ ولأنّه أصغر كان منزلنا أذكى من منزل آل هوكينغ، أيضًا بفضل تخلي والدي عن جميع

محاولاته في اكتساب مهارات تجعله بارعًا في كل الحرف، إذ إنّ محاولاته في الإصلاح جعلت الأمور أسوأ بكثير، فسقطت السقوف على رأسه مثلًا، بينما نتج عن محاولاته في الديكور الداخلي تطاير الطلاء في كل مكان إلا المكان الهدف، ولذلك فقد اقتنع أنّ الاعتماد على المهنيين المحترفين أقل تكلفة على المدى الطويل من القيام بتلك الأعمال الغريبة بنفسه.

قلَّ ما أكد أفراد آل هوكينغ القصص المروية عن عادتهم بإدخال الكتب إلى طاولة الطعام، وكانت أوقات الوجبات مناسباتٍ اجتماعية، تترأسها بهدوء والدة ستيفن التي كانت تحافظ على برودها في وجه انفعالات زوجها الحادة، على الرغم من حدته وتطلبه في بعض الأحيان؛ لم يكن فرانك هوكينغ قاسي القلب، وكانت انفعالاته الحادة تظهر عادةً بسبب مظهر مستفز لبعض الأدوات، مثل سكين غير ماضية أو كأس مسكوبة أو شوكة على الأرض، ولم ينفعل على أي شخصٍ من دائرة أسرته، وفي الحقيقة في ما يخص الشاب إدوارد الذي كانت تنتابه نوباتٌ غضب في أوقات النوم، كان فرانك نموذجًا للصبر والتحمل، أما بالنسبة إلى ستيفن فلم يعد خاضعًا لتقلبات المزاج السوداوية الفتاكة كما في الماضي، وكانت طبيعته الهادئة والفلسفية بالمجمل تَعدُه بأسلوب حياةٍ أكثر هدوءًا.

كان الحديث على المائدة فكريًّا كما هو متوقع، يتناول القضايا السياسية والدولية، وكان موضوع الثورة الثقافية موضوعًا متكررًا، خاصةً أنّ فيليبا كانت قد ذهبت إلى أكسفورد لدراسة اللغة الصينية؛ كنت أعلم القليل عن التاريخ والسياسة الشرقية، ووجدت أنّ من الأفضل البقاء صامتة على ادعاء المعرفة، إذ بدت إسبانيا وفرنسا محدودةً وغير جذابة بالمقارنة مع الشرق، ولم يبدِ أحد اهتمامه بهما أو بثقافتيهما على الإطلاق، فآل هوكينغ كانوا يعرفون الكثير عن فرنسا بما أنّ لإيزابيل أقارب فرنسيون، علاوة على أنّهم كانوا يعرفون كل ما يمكن للمرء معرفته عن إسبانيا، حيث قضت الوالدة وأولادها ثلاثة شهور على مقربة من أسرة روبرت غريفز Robert Graves في ديا Deià الواقعة في جزيرة مايوركا Majorca في شتاء عام 1950، عندما كان فرانك في أفريقيا، منخرطًا في بحوثه حول الطب الاستوائي، وكان بيرل غريفز Beryl

Graves صديقًا لإيزابيل من أيامهما في أكسفورد، أما روبرت غريفز فقد كان بمثابة أيقونة في الأسرة.

عندما يُرفع العشاء كنا نجتمع، نحن الجيل الشاب؛ لنلعب ألعاب الألواح، وكان ستيفن لاعبًا متحمسًا منذ طفولته المبكرة، حتى إنه ابتكر مع صديقه المقرَّب ماك كلينهان McClenahan لعبة طويلة ومعقدة لسلالة ملكية مع شجرة عائلة وطبقة أعيان وأراضٍ مزروعة واسعة وأسقفيات للأبناء الصغار وواجبات الموت، ولم يتم الحفاظ على هذه اللعبة لسوء الحظ؛ لذلك فقد اقتصرنا على الألعاب المعروفة مثل كلودو[1] Cluedo وسكرابل[2] Scrabble، وأحيانًا اللعبة الصينية الصعبة والمعروفة ماه جونغ[3] mah-jong مع قطعها القرميدية المنحوتة بدقة، ولم يحالفني الحظ بتعرُّف مهارات ستيفن في الكريكت فحسب بل تلقيت المعاملة نفسها عندما عرض عليّ تعلّم الشطرنج، إلا أنّه عندما جاء دور سكرابل، لم أحتج معلمًا لثقتي بمؤهلاتي في ألعاب الكلمات، وهو فن تعلمته منذ نعومة أظافري مع ألعاب معجمية عديدة مع عمتي إيفي المهذارة والخلاقة عندما عشنا في منزلها في شمال لندن.

وإذا لم يكتمل نصاب ألعاب الألواح، كنت أجلس وستيفن قبالة النار بعد العشاء لتمتعنا والدته بحديثها عن تاريخ العائلة؛ كنت أستمتع بالاستماع إليها وأعجب بها بوصفها نموذجًا يُحتذى به، كانت خريجة أكسفورد، ومفتشة ضريبة دخل قبل زواجها، ذكية وبارعة، لكنها مكرّسة تمامًا لعائلتها، ومن الواضح أنّها لم تملك أي طموحات لنفسها، فقد كانت تعلّم التاريخ كلّ الوقت في مدرسة خاصة للبنات في سانت ألبانز،

---

(1) كلودو: لعبة تجري في قصر مقسَّم إلى غرف ومجلس، حيث يحاول اللاعبون إيجاد حلّ قتل سيد القصر من خلال ثلاثة عناصر هم: المشتبه به والأسلحة والغرفة. (المترجم).

(2) سكرابل: لعبة تكوين كلمات بعد سحب عشوائي لسبعة أحرف. (المترجم).

(3) ماه جونغ: تُلعب بوساطة قراميد صغيرة على شكل قطع دومينو، مرسوم على أحد طرفيها أشكال مختلفة، وهدف اللعبة هو تشكيل ما يُسمى (اليد)؛ أي تشكيلة من ثلاثة إلى أربعة قراميد متشابهة أو سلسلة من الأرقام المتتابعة. (المترجم).

حيث لم تنل قدراتها الفكرية حق تقديرها. وفي إحدى العزلات التي سادها جو من الارتباك أخذت على عاتقها تقديم ماضيها الخاص وماضي عائلة هوكينغ.

كانت والدة ستيفين الطفل الثاني من سبعة أطفال، ولدت في غلاسكو Glasgow، حيث كان والدها طبيبًا منحدرًا من صانع مراجل ثري، وعلى الرغم من انتقال عائلتها بالقارب إلى بليموث Plymouth وهي لا تزال طفلة صغيرة، فإنّها تحتفظ بذكريات حيّة من منزل جدها المتقشف، حيث كانت الصلوات العائلية في غرفة الجلوس -والتي يحضرها جميع أفراد العائلة- التسليةَ الوحيدة لهم. أما من جهة والدتها، فكانت تنحدر من جون لو[1] من لوريستون Lauriston الذي غادر فرنسا بعد إفلاسها في القرن السابع عشر إلى لويزيانا، وحسب الروايات فإنّ الخلافات العديدة مزقت العائلة، وكان معظمها متعلقًا بالمال، حتى بدا أنّ استغناء أحدهم عن الآخر كان يُعدّ أمرًا تلقائيًّا ومقبولًا للتعبير عن استياء كبير.

أما عائلة والد ستيفن فكانت أسرةً زراعية من الأسر المتدينة في يوركشاير، ويأتي تميّزهم من انحدارهم من أحد الأجداد في القرن التاسع عشر، والذي كان وكيلًا لدوق ديفونشاير Duke of Devonshire، وتقديرًا لمكانته فقد بنى لنفسه منزلًا كبيرًا في بوروبريدج Boroughbridge في يوركشاير، وأطلق عليه اسم تشاتسوورث Chatsworth. ومنذ ذلك الحين تعرّضت ثروة العائلة لتقلبات متتالية، حتى أدت مغامرات جد ستيفن إلى الخراب المالي، وتوفي تاركًا للجدة مهمة إنقاذ الأسرة المكوّنة من خمسة أطفال -أربعة صبيان وبنت واحدة- من الفقر المدقع، وهذا ما فعلته بافتتاحها مدرسةً في منزلها، وكان نجاحها كبيرًا حتى إنها أصبحت رمزًا لقوة الشخصية، وكان المال والثروة ونشأتها وخسارتها عناصر بارزةً في رواية إيزابيل، مع أنّها تميل للحكم على الآخرين من خلال ذكائهم بدلًا من استقامتهم أو طيبتهم، إذ كانت نظرة المجتمع

(1) جون لو (John Law، 1729-1671) اقتصادي اسكتلندي مرموق، هاجر من لندن إلى باريس لحلّ مشكلتها المالية، وقد أبلى بلاءً حسنًا لسنوات، لكن سياسته المالية انتهت بفرنسا إلى الإفلاس بعد ازدهار مؤقت، فتم نفيه منها. (المترجم).

إلى الطيبة على أنّها خلل كبير في الشخصية، وفي الوقت نفسه نظر الناس إلى من لا يمتلكها بعين الريبة.

وبما أنّ والدته كانت واحدة من سبعة إخوة ووالده واحدًا من خمسة إخوة، فقد كان من الطبيعي أن يكون لستيفن جحافل من الأقارب من الدرجة الأولى وجيش من الأقارب من الدرجة الثانية؛ أما من جهة عائلتنا، فقد كان والداي وحيدين في أسرتيهما، ولذلك لم يكن لديَّ أقارب من الدرجة الثانية، فقط عدد قليل من الأقارب من الدرجة الثانية، أحدهم في أستراليا والباقي في نورفولك Norfolk الريفية، ولهذا كانت صدمتي كبيرة لرؤية هذا العدد الكبير من الناس الذين لم يرتبطوا ببعضهم بالدم فقط بل لديهم شَبَه كبير فيما بينهم، فمن ناحية والدة ستيفن، تميّزت وجوه أقارب ستيفن بعظام خد عالية وعينين متقاربتين زرقاوَين، وشعر كستنائي متموج، بينما كان أقاربه من جهة والده طوال القامة، وتميّزت وجوههم بامتلاء الخدين، أما من جهتي فقد كان هناك شَبَه طفيف بيني وبين شقيقي؛ وهكذا كان هناك ثلاثة وثلاثون قريبًا لستيفن، يشبهون بعضهم حسب طرف العائلة التي ينتمون لها، وجميعهم كانوا على اتصال وثيق بستيفن.

إلا أنّ عددًا كبيرًا منهم كان يعيش في الخارج، وبدا أنّ الطلاق مألوف بينهم، التقيت بالعديد منهم وبأصدقائهم وأزواجهم وزوجاتهم وحتى طليقاتهم، خلال الحفلات العائلية المتتابعة في ذلك الشتاء، وجميعهم عاملوني بطريقة ودودة منفتحة، وبدأت بإدراك فائدة علاقات العائلة الكبيرة، فقد عوّض شعور الأمان الذي ينتج عن مثل العلاقات الوطيدة خسارة الشخصية الفردية في المظهر الخارجي، وكان اكتشاف هذا الشعور السائد في العائلة الكبيرة بهيجًا، خاصةً إذا ما قارنتها بدائرة أسرتنا المكوّنة من الوالدين وأخي وجدة واحدة وعمتين لوالدي، وهي دائرة محدودة بعض الشيء.

لم أعرف سوى فرد واحد من آل هوكينغ ممن تعوزه الثقة بالنفس على خلاف بقية أفراد الأسرة، وكانت هي عمة ستيفن وتُدعى موريل Aunt Muriel، التي ما إن سمعت بخطوبتنا حتى قالت، على حد تعبيرها: «عليّ النزول من يوركشاير لمعرفة

أي نوع من الفتيات سيتزوج ستيفن». كانت موريل شقيقة فرانك هوكينغ الوحيدة، وهي الشخص الخجول في هذه الأسرة، وقد بقيت في المنزل لرعاية والديها المسنين رغم كونها موسيقية موهوبة، وفي الستينيات من عمرها، كان الإحباط باديًا عليها في وجهها المتغضن والحزين وعينيها البنيتين الناعمتين والكبيرتين، كانت مكرّسة لشقيقها فرانك وابنه البكر، ومعجبة بإخلاص بالصفات الفكرية للأسرة رغم عدم مشاركتها لهم بتلك الصفات، وكان كلامها البسيط يُقابل بالتجاهل من بقية أفراد الأسرة في كثيرٍ من الأحيان، لكن هذا لا ينفي أنّ ستيفن وهو ابنها بالمعمودية -ما يقابل ذلك لدى الطائفة الميثودية- كان لطيفًا معها وعاملها دائمًا بودٍّ ولطفٍ؛ وكنت أجلس كثيرًا وأتحدث إلى العمة موريل، وكنت أيضًا أهرب إلى العلية للتحدث إلى الجدة ووكر؛ للابتعاد عن الجو الفكري التنافسي لغرفة الطعام.

كان ستيفن انتقاديًّا للناس ما عدا أقاربه، وباستعادته ثقته بنفسه كان سعيدًا باستحضار أساليبه الأكسفوردية في أي محادثة، بشكل مخطط ومقصود ليصدم الآخرين بتصريحاته الاستفزازية، وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع أخذته إلى جدتي اللطيفة جدًّا لقضاء الوقت عندها، فقام بإزعاجها بقوله إنّ كاتدرائية نورويتش ما هي إلا مبنى عادي جدًّا. كما كان يعدّ أصدقائي ضحايا سهلة، ولم يجد مشكلة في احتكار الأحاديث في الحفلات مع آرائه الجدلية، التي غالبًا ما سيطرت على المشهد الاجتماعي بنقاشاته الصاخبة والعنيدة.

أما معي فقد كان مستعدًّا لمناقشة أنّ الزهور الاصطناعية مفضلة بالمقاييس كافة عن تلك الطبيعية، وأنّ مؤلفي الموسيقي المفضَّل برامس[1]، لا يعدو كونه في الصف الثاني بأوكستراه الضعيفة، وأنّ رخمانينوف[2] جيّد بفضل قمامته الموسيقية، أما تشايكوفسكي فليس إلا مؤلفًا لموسيقى الباليه، وحتى ذلك الوقت لم يكن لديّ تلك

(1) يوهانس برامس (Johannes Brahms، 1833-1897): مؤلف موسيقي رومانتيكي ألماني. (المترجم).

(2) سيرجي رخمانينوف (Sergei Rachmaninoff، 1873-1943): مؤلف موسيقي روسي، ومن أعظم عازفي البيانو في تاريخ الموسيقى. (المترجم).

المعارف الكثيرة عن المؤلفين: فكلّ ما عرفته عن رخمانينوف وتشايكوفسكي كانت موسيقاهم التي أثرت فيَّ، ولم أكن أعلم شيئًا عن توزيع الموسيقى لدى برامس، لكنني اكتشفت فيما بعد في إحدى مطالعاتي أنّ فاجنر كان يحتقر برامس، وأنّ هذا الشعور كان متبادلًا؛ وصحيح أنّني كنت أوافق ستيفن إلا أنّني فعلت ذلك لتفادي الانجرار إلى الأحاديث التفصيلية، وكنت أضبط أعصابي وأنا أعلم أنّ غطرسته بهذا الشكل السيئ سيودي بي إلى فقدان أصدقائي إن لم نقل علاقاتي جميعها.

في مرحلة ما انتابتني خشية من تعرض فرصي الأكاديمية للخطر في المستقبل، كنت مقتنعةً في التخلي عن الآمال الواعدة في العمل في وزارة الخارجية من أجله، لكنني لم أكن سعيدةً بالسماح له بتدمير أي فرصة قد تتاح لي لمتابعة أي نوع من البحوث، وعندما أخذته للقاء أستاذي المشرف آلان ديرمونك Alan Deyermond الذي شجعني على التفكير في القيام بدكتوراه في أدب العصور الوسطى، هبّ ستيفن ليتفوق على نفسه!

أخذ يلوح بنظارته الخمرية وهو يقول رأيه بثقة وكأنّ كل من لا يوافقه الرأي لا يعدو عن كونه مغفلًا، وبدا مستمتعًا وهو يبلغ آلان ديرمونك وزملائي بأنّ فائدة دراسة أدب العصور الوسطى مشابهة لدراسة الحصى على الشاطئ!

ولحسن الحظ كان آلان خريج أكسفورد أيضًا، فاختار التحدي ودخل في حوار ساخن مع ستيفن، ولم يفضِ الجدال إلى نتيجة، وافترق الطرفان بشكلٍ ودي، وعندما اعترضت خلال عودتنا في السيارة على ما جرى، هزّ ستيفن كتفيه بلا مبالاة، وقال: «عليك ألا تأخذي الأمر بشكل شخصي!».

أيضًا، تمَ اختبار اعتقاد ستيفنّ بعدم النظر إلى الاختلافات الفكرية كمسألة شخصية في العام نفسه مع البروفسور فريد هويل Fred Hoyle، الذي رفض في السابق طلب ستيفن لبحوث الدراسات العليا، وكان في ذلك الوقت رائدًا في استخدام التلفاز لنشر العلم إلى حدّ كبيرٍ، حتى إن اسمه أصبح على لسان كلّ أسرة، ومكنه نجاحه من الضغط على الحكومة لتمنحه معهد الفلك الخاص به في جامعة كامبريدج، وكان

من المفروغ منه أنّه سينضم إلى هجرة العقول إلى الولايات المتحدة مثل الكثير من العلماء البريطانيين في حال عدم تلبية رغبته، كانت لديه السلطة والشعبية، وتمتعت نظرياته الأخيرة بانتشار كبير في الصحافة، وخاصةً تلك البحوث الجارية مع طالبه الهندي جايانت نارليكار Jayant Narlikar، الذي كان مكتبه قرب مكتب ستيفن في موقع كافنديش Cavendish القديم في كامبريدج.

وقبل نشر هويل لآخر بحث يتناول جوانب أبعد لنظرية الحالة المستقرة للكون، والتي طورها مع هرمان بوندي Hermann Bondi وتوماس غولد Thomas Gold، عُرض البحث على تجمع مميّز للعلماء في الجمعية الملكية، وبعد العرض تم فتح المنتدى على الأسئلة، التي عادةً ما تكون في مثل هذه المناسبات مراعية أصحاب البحث نوعًا ما؛ كان ستيفن حاضرًا وانتظر دوره، وأخيرًا لوحظت يده المرفوعة من قبل الرجل المسؤول، كافح ستيفن ليقف على قدميه، وهو طالب البحوث المبتدئ جدًّا الذي لا يمتلك أي بحث أكاديمي في رصيده، وقام بإبلاغ هويل وطلابه وطبعًا بقية الجمهور أنّ الحسابات الواردة في العرض غير صحيحة، أصيب الجمهور بالذهول، وتكدَّر هويل من هذه الوقاحة، وسأله وهو يعلم أنّ خلفية ستيفن للجدل يمكن نقضها بسهولة: «وكيف عرفت؟»، لكنه لم يتوقع إجابة ستيفن: «لقد اكتشفت ذلك»، ثم أضاف بعد صمت قصير «في رأسي». ونتيجةً لهذا التدخل، عُرف ستيفن في الأوساط العلمية، ومن ثم وجد موضوعًا لأطروحة الدكتوراه: خصائص توسع الكون، لكن لم يحصل أي تقدّم بالعلاقة بينه وبين فريد هويل بعد تلك الحادثة.

وباستثناء المناقشات إن كانت علميةً أو غير شخصية أو غير ذلك، فإنّ كل ما فعلناه خلال ذلك العام الدراسي يعود إلى هدف مشترك، وهو زواجنا المقبل الذي حددنا موعده في يوليو/تموز 1965، وكانت أولويتي في السعي لنيل موافقة سلطات الكلية للبقاء في ويستفيلد بصفتي طالبة جامعية متزوجة، ومن دون هذه الموافقة قد يتأجل الزواج لعام آخر؛ لأنّ والدي أخذ منّا عهدًا بإكمال دراستي الجامعية، لكن مدة عام كانت وقتًا طويلًا بالنسبة إلى وضع ستيفن المرضي، ولطالما ذكرني والده بهذا، إذ لا يمكن ضمان نجاته من المرض خلال تلك المدة، وكانت هذه الحقيقة غير

المستساغة عاملًا يجب وضعه في الحسبان دائمًا كلما تطلعت إلى المستقبل، كان عليَّ إقناع البرفسور جون فاري John Varey أولًا، وهو رئيس قسم اللغة الإسبانية، ومن ثم المديرة السيدة ماثيوز Mrs Matthews أنّ الوضع عاجل لا يحتمل تأجيل.

عندما ناقشت المسألة مع البروفسور فاري، أجابني بعدم نظامية هذه الحالة، لكنه أبدى عدم اعتراضه عليها فيما إذا وافقت المديرة عليها؛ ومن ثم كان عليَّ لقاء السيدة ماثيوز التي كان لقائي السابق والوحيد معها في المقابلة المفصلية في عام 1962، لذلك لم تكن آمالي كبيرةً، وفي الساعة السادسة، وهو الوقت الذي عينته سكرتيرتها في أواخر خريف عام 1964، طرقت بيدي المرتجفة الباب المكسو بجوخٍ أخضر، والذي يفصل شقتها في منزل ريجنسي عن المنطقة الإدارية للكلية؛ وعلى الفور استطاعت السيدة ماثيوز ملاحظة ارتباكي منذ أن خطوت من الباب، طلبت مني الجلوس وتناولت سيجارة، وسألتني: «ما الخطب؟»، وبوجهها المتجهم ونظراتها المباشرة في عينيّ باهتمام قلق، قالت: «لا تقلقي، لن آكلك!».

أخذتُ نفسًا عميقًا، وبذلت قصارى جهدي لتوضيح علاقتي مع ستيفن، مرضه والتكهنات بشان مدة حياته، وخططنا للاستفادة القصوى من الوقت المتبقي لنا، لم ترفع عينها عني ولم تبدِ أدنى انفعال، وعندما سمعت قصتي بالكامل دون أي مقاطعة منها، قالت بشكل مباشر: «حسنًا، بالتأكيد إذا تزوجتِ سيكون عليكِ العيش خارج الكلية، أنتِ تدركين هذا أليس كذلك؟». دقّ قلبي بسرعة، مدركةً أنّها لم تعترض على خططنا، واستطعت الإيماء بالإيجاب بثقة؛ لأنّني أنجزت مهمتي في هذا المسار، وقلت: «نعم، أعلم هذا، ولقد وجدت غرفة في منزل خاص في جادة بلاتس Platt's Lane». وأجابتني السيدة ماثيوز وهي تحدق بثبات في جمر الموقد: «جيد، هذا أمر طيب».

ثم تابعت: «امضِ قدمًا، واستفيدي من فرصتك بقدر الإمكان». صمتت ثم أخبرتني في لهجة شاردة مختلفة أنّها مرّت في الموقف نفسه، كان زوجها مصابًا بعجزٍ كبيرٍ، وهي تدرك جيدًا أهمية قيام المرء بأفضل ما لديه، واتفقتْ مع والدي على ضرورة

إنهاء دراستي، وحذرتني من صعوبة ما سأواجهه في المستقبل، ووعدتني بمساعدتي بأي طريقة ممكنة، وكانت أهم تلك الطرق هي نقل موافقتها للبروفسور فاري.

بعد التغلب على العقبة الرئيسة، بقي لي ترتيب إقامتي في بلاتس لين، وهذا ما تم بسهولة، فقد وافقت السيدة دنهام Mrs Dunham بسهولة على ترك غرفة العلية في الطابق الثالث لي، وأثبتت هي وزوجها أنّهما أصحاب ملك صبوران ومضيافان، وأقول (صبوران)؛ لأنّهما لم يشتكيا ولو لمرّة من احتكارنا لهاتفهم في غرفة الدراسة في الطابق السفلي، فقد كان ستيفن قد ابتكر طريقة للاتصال بي بتكلفة أربعة بنس، وهي تكلفة المكالمة المحلية، عن طريق تحويلات وسيطية بين كامبريدج ولندن: وهذا يعني أنّه لم يكن هناك من حدّ زمني لمحادثاتنا كلّ مساء، وبصرف النظر عن المتعة الفائقة للاتصالات اليومية، كان لدينا الكثير لنناقشه ونحن نضع خططنا لمستقبلنا المشترك، ولم يشكّل المرض بالنسبة إلينا أكثر من إزعاج طفيف ونحن نتحدث عن فرص العمل والسكن وترتيبات الزفاف ورحلتنا الأولى إلى الولايات المتحدة، إلى المدرسة الصيفية في جامعة كورنيل Cornell University في ولاية نيويورك، والتي من المقرر أن تنطلق بعد عشرة أيام فقط من زفافنا.

7
بحسن نية

والآن بعد أن حُلت مشكلاتي الحالية بضربة واحدة، كنت واثقةً من إنهاء دراستي في سنتي الأخيرة في لندن بالتنقل يوميًّا من كامبريدج، خاصةً بعد أن أظهرت البحوث الاجتماعية الحالية أنّ إنتاجية الطلبة الجامعيين المتزوجين أفضل من نتائج الطلبة المحبطين، غير المتزوجين. وواصل والدي تغطية تكاليف تنقلي بوساطة السكك الحديدية، لكن مسؤولية إيجاد عملٍ ودخلٍ يدعمنا وقعت على عاتق ستيفن، ومن جهته أخذ بحوثه على محمل الجد، مدركًا أنّ عليه التميّز في بحثه، حتى لو لم يُنشر؛ ليكون قادرًا على الحصول على زمالة بحثية، ولهذه الغاية بدأ بتوسيع الأفكار التي تسببت بضجة في محاضرة الجمعية الملكية، فضلًا عن أنّه وجد طريقةً يعوّض فيها جهوده، ما جعل عمله متعة حقيقية.

نتيجةً لذلك، كانت بهجته في صباح بارد من شهر فبراير/شباط 1965 أكثر من بهجة متوقعة لخاطب شاب ينتظر وصول حبيبته إلى مكان إقامته لتيسير الأمور عليه في الجزء الرئيس من ترينتي هول: كان في الحقيقة يتوقع أن أضع مهاراتي السكرتارية بالخدمة لطباعة طلب عمل له، لكن نظرة الهلع التي ارتسمت على وجهه عندما دخلت غرفته مع ذراعي اليسرى المنتفخة في الجبس الأبيض خيبت آمالي حتى بأبسط تعاطف، ولم أكن أنتظر أكثر من ذلك؛ لأنّ ظروف الكسر كانت محرجةً للغاية لإخباره بها بوساطة الهاتف.

والحقيقة هي أنّ الرقص كان السبب! كان وصول دفعة السنة الماضية من الطلاب الذكور إلى الكلية جرعة نشاط كبيرة للكلية، كذلك كان انتخاب لجنة ترفيه أكثر دينامية لاتحاد الطلاب. كان لدينا الآن فرق جيدة عدّة تعزف موسيقى الستينيات، موسيقى البيتلز والتويست؛ أحببت رقص التويست، وفي رقصة منتصف الأسبوع، كنت منغمسةً برقص التويست مع صديق فتاةٍ أخرى، وكانت الأرضية مصقولة جدًّا،

فانزلق بي الكعب العالي على السطح الزلق، وسقطت على الأرض بقوة على يدي اليسرى الممدودة، وعرفت من الألم المبرح أنّ معصمي قد انكسر مجددًا، لكن هذه المرّة ليس بسبب التزلج على الجليد بل من الرقص.

في ظلّ هذه المحنة، لم أفهم في البداية سبب الرعب على وجه ستيفن، حتى أومأ إلى الآلة الكاتبة المستعارة وأكوام الورق الأبيض المرتب بدقة على الطاولة، وتفضل بالشرح لي أنّه كان يأمل في أن أكتب طلبه للحصول على زمالة بحثية في كلية جونفيل وكايوس Gonville and Caius College، الذي يجب أن يُسلَم بحلول بداية الأسبوع القادم، غمرني الشعور بالذنب بسبب رقص التويست، فجلست للعمل وكتابة الطلب كتابة عادية، باستخدام يدي اليمنى، واستغرق هذا العمل طوال عطلة نهاية الأسبوع، وكان بقائي كلّ الليل في غرف ستيفن أمرًا خياليًّا، لذلك فقد كنّا عرضة للرقابة في أكثر من مناسبة حسب ستيفن بنظرات سام الثاقبة من الدرج اللولبي، وهو الخادم العابس وحامي الأخلاق في الكلية، الذي بالتأكيد لاحظ وشاحي أو سترتي الصوفية المرمية بلا مبالاة على كرسي دراسة ستيفن.

عرض عليَّ العديد من أصدقاء ستيفن ذوي الوضع الجيد الاستضافة في عطلات نهاية الأسبوع، والكثير من هؤلاء الأصدقاء كان لديه منازل وسيارات وكانوا في مرحلة إنتاج الذرية، وهو التطوّر المتوقع للأحداث بالنسبة إلى جيلنا. إذ كان جيلنا آخر جيل هدفه الرئيس واضح تمامًا: مثاليات الحبّ الرومانسي والزواج والمنزل والعائلة، والفرق بالنسبة إلي ولستيفن كان أنّنا نعلم أنّ لدينا وقتًا قصيرًا لتحقيق تلك الأهداف.

تم تسليم طلب الزمالة في الوقت المناسب رغم جميع الصعاب، ومن ثم انتظر ستيفن استدعاءه للمقابلة، لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، إذ لعبت قوة السمعة السيئة لتدخله المروع في محاضرة هويل دورًا سلبيًّا، وتواصل ستيفن بالبرفسور هرمان بوندي Hermann Bondi في نهاية إحدى الحلقات الدراسية العادية في كلية الملك King's College في لندن، ليستفسر منه إن كان مستعدًّا ليكون مُحكمًا لطلب الزمالة، وبما أنّ هرمان بوندي كان جارًا لعمة ستيفن لورين وزوجها روس في هامبشاير، وروس هو

طبيب أسنان هارلي ستريت، فقد بدا لستيفن أنّ لا ضرورة في رسالة رسمية؛ وبعد بضعة أسابيع لاحقة، تلقى ستيفن رسالةً محرجةً من كلية جونفيل وكايوس، ففي ردّه على طلب الكلية لتوصية لستيفن هوكينغ، نفى البرفسور بوندي أي معرفة بأي مرشح بهذا الاسم!

ونظرًا إلى طبيعة ظروف وتواصل ستيفن غير الرسمي مع البرفسور، فقد بدا أنّه قد نسي ستيفن، وتم تصحيح هذا الأمر عن طريق مكالمات هاتفية مستعجلة، واستدعي ستيفن حسب الأصول لإجراء مقابلة، حيث كان محط إعجاب أعضاء اللجنة بفضل قدراته في النقاش الفكري، ولأنّ أحدًا منهم لم يكن عالم كونيات، مع أنّهم علماء بارزون في تخصصاتهم الأخرى.

يبدو أنّ فكرة قبول باحثٍ في علم الكونيات إلى وسطهم كانت قد راقت للجنة الزمالة، بينما كان ظهور اسم ستيفن في قائمة منح الزمالة سببًا لاحتفال بهيج. كان كلّ شيء يسير وفق ما أملنا، ويمكننا الآن تحديد موعد حفل زفافنا، كما كان مقررًا في منتصف يوليو/حزيران؛ وبتجاهلٍ لكآبة التشخيص الطبي وتحت نشوة سعادة الحب والأمل بالنجاح، بدأنا ذلك الصيف بسلسلة من الاحتفالات، مع القليل من الغيوم المكدرة التي تلوح في الأفق، مثل امتحان السنة الثانية لديّ، ومسألة السكن والشرّ الذي كنّا نجهله حتى الآن لضريبة الدخل.

لكن وسط سخطنا هبّت ريح الواقع العدائية قبل أوانها لتنثر تلك الغيوم بسرعة في طريقنا، وتثبط غبطتنا مؤقتًا؛ مشرقًا بنجاحه في طلب الزمالة، وباندفاع الشباب وقلة صبره، ذهب ستيفن بعد أسبوعين لزيارة أمين الصندوق في جونفيل وكايوس (التي تلفظ عادة في كامبريدج بـ (كيس) لكنها تُكتب بهذا الشكل بسبب الميل إلى اللاتينية في عصر النهضة)، وأبلغ أمين الصندوق ببرود زميل البحوث المعيّن حديثًا أنه لن يتولى مهامه حتى أكتوبر/تشرين الأوّل القادم، وكانت غطرسة كبيرة منه أن يطلب استشارة ستة أشهر مقدمًا، ولم يسأل ستيفن عن المبلغ الذي سيجنيه من الزمالة؛ لأنّ المسألة كانت أسمى بالنسبة إلينا، ليس هذا فحسب بل تابع الرجل أحكامه القاطعة بأنّه ليس من واجب الكلية توفير السكن لزملاء البحوث؛ خرجنا

متألمين من هذه المعاملة الاستبدادية، وبقي لنا أن نتكهن بالدخل التقريبي الذي سيتقاضاه ستيفن وأن نجد مكانًا للعيش به.

نظرًا إلى وجود الكثير من الزملاء الباحثين في كامبريج، فقد افترضنا أنّهم يتدبرون أمورهم بشكل ما، وبالنسبة إلى السكن فقد فضلنا أن نجد شقةً جديدةً من تلك الشقق التي كانت تُبنى قرب ساحة السوق، ووضعنا اسمنا لدى الوكيل للحصول على واحدة.

لم نكن لنسمح لأي مشكلات عادية بأن تزعجنا، بفضل ثقتنا بأنفسنا وانعدام صبرنا للبدء بمستقبلنا، وبالفعل أثبت موقف أمين الصندوق وأمثاله صحة احتقار ستيفن لسلطة من هم في منتصف العمر المغرورين، وهو احتقار لسنٍّ كنت في طريقي لإدراكه، كنّا نعلم أنّنا نتحدى عمدًا الحس السليم والحذر والتقاليد والعادة بمثاليتنا، ولم نكن لنسمح بتقويض مخططاتنا الكبرى أو قناعاتنا من قبل طبقة الموظفين ذات التفكير البسيط، وسرعان ما أصبحت محاربة طواحين البيروقراطية نسختنا الشخصية من تمرّد الستينيات، وفي المقابل كانت معركتنا الرئيسة مع قوى القدر، وفي سبيل هذا المسعى النبيل، كنّا على استعداد للسخرية من حجر العثرة الذي وضعه أمين صندوق الكلية في طريقنا.

عندما يخوض المرء حربه مع القدر في المسائل الرئيسة ذات الأهمية الحقيقية كالحياة والنجاة والموت، فإنّ قوى القدر تبدو إما غافلة عنه أو داعمة له، فرغم العقبات كان مستقبلنا المنظور في أجواء الحرب الباردة في منتصف الستينيات يبدو لنا وكأنه آمن بخلاف ما يبدو للآخرين، فبالنسبة إلى ستيفن كان احتمال الزواج يعني أنّ عليه الانكباب على العمل وإثبات قيمته في مجال الفيزياء، وجعلتني بساطتي أعتقد أنّ للإيمان يد في تحديد طريقنا نحو الأمام، ونوعًا ما كنّا نشترك بالإيمان، لكنه إيمان وجودي في مسارنا الذي اخترناه، لكنني وبتشجيع من والدتي وصديقاتي آمنت بقوة الله الذي بدا وكأنّه يمد يد العون لي عندما أَطلبها بتعزيز شجاعتي وتصميمي، ومن جهةٍ أخرى ورغم علمي بخلفية آل هوكينغ الميثودية وإعلان أنفسهم كلاأدريين إن لم يكن ملحدين، فقد وجدت ميلهم إلى السخرية من المسائل الدينية

أمرًا غير سارّ؛ فبعد شهرين من خطوبتنا أمضيت مع ستيفن أوّل عيد ميلاد سويةً، وقد أثار قدومه إلى قداس الصباح مع عائلتي رفع الحاجبين وتعليقات ساخرة في طريق عودتنا إلى 14 هيلسايد رود Hillside Road: «وهل تشعر أنّك أقدس الآن؟».

هذا ما سألته فيليبا لستيفن بلهجةٍ ساخرة، ولمحت في كلامها مسحة عداء غير مبررة اتجاهي، ضحك كإجابة عن سؤالها بينما قالت والدته: «لا شكّ أنّه أقدس من الآخرين؛ لأنّه تحت تأثير امرأة طيبة». كان من الصعب عليّ التعامل مع هذه التعليقات، وإلقاء الضوء عليها والتفكير بها؛ لأنّها تنطوي على قدر من التآمر وتستهدف عنصرًا أساسيًّا بالنسبة إلي وهو إيماني، والذي سأعتمد عليه في المهمة الملقاة على عاتقي، كانت تلك السخرية مختلفةً جدًّا عن السعادة التي شاركتها من القلب عندما درسنا الأشكال المختلفة لطقوس الزواج، لكنني شعرت بالرعب عندما وجدت أنّه وتبعًا لطقوس الزواج في كتاب عام 1662 للصلاة المشتركة كنت في طريقي لأصبح «إحدى الزوجات الرصينات المؤمنات»؛ لذلك فقد فضّلت إصدار عام 1928 حيث لم تظهر تلك العبارة.

وللنجاح قدرته العجيبة في توليد النجاح، إذ سرعان ما كنّا نحتفل مرّة أخرى، وأمضيت سبتًا آخر في غرف ستيفن بكتابة طلبٍ آخر، لكن هذه المرّة لجائزة الجاذبية Gravity Prize، التي يهبها أمريكي شهم دفعته حكمته إلى الظن أنّ اكتشاف مضاد للجاذبية سيشفي داء المفاصل الذي يعانيه. ولا يُرجح أن تكون تلك المقالات المُقدّمة قد وفرت أي راحةٍ لمعاناة الرجل المسكين، لكن جوائزه السخية وفرت راحةً ماديةً كبيرةً لكثيرٍ من الفيزيائيين الشباب المكافحين، وقد ربح ستيفن عبر السنوات طائفةً كاملةً من جوائز الجاذبية، تكللت بالجائزة الأولى في عام 1971، رغم أنّنا فوّتنا وسط انزعاجنا أول اشتراك بالمسابقة ذلك السبت في عام 1971، على أنّ جهوده تكللت بالنجاح في الوقت المناسب بعد أسابيع عدّة عندما دُعيت على عجل من عليتي في هامبستيد لأستقبل مكالمة من ستيفن، كان يتصل من كامبريدج كالمعتاد بأربعة بنسات ليبلغني بأنّه قد نال جائزة توصية Commendation Prize، بقيمة 100£ في مسابقة الجاذبية.

رقصت في مطبخ السيدة دنهام جذلةً، فقد كانت المئة جنيه لستيفن -إضافةً إلى المئتين والخمسين جنيهًا التي كان والدي قد راكمها لي في المدخرات الوطنية National Savings، وقد وعد أن يعطيني إياها في يوم ميلادي الحادي والعشرين- ستمكننا من سداد السحب على المكشوف لستيفن وشراء سيارة، وقبل الزفاف في وقت لاحق من ذلك الصيف، أعد لنا روب دونوفان Rob Donovan وهو صديق مقرّب لستيفن في ترينيتي هول صفقةً مواتيةً للغاية بالنسبة إلينا مع والده تاجر السيارات في شيشاير Cheshire، كان لدينا لنا الخيار في اثنتين من السيارات: رولز رويس 1924 لامعة، مطلية بالأحمر، مفتوحة السقف، كانت محيرة لنا لكنها غير عملية وتتجاوز إمكاناتنا، وفي المقابل كانت هناك سيارة ميني.

أذعن ستيفن على مضض لخيار الميني طالما أنّها كانت أكثر ملاءمة لإمكاناتنا ومتطلباتنا، خاصةً أنّ واحدة من تلك الغيوم الصغيرة نذيرة الشؤم كانت تلوح في الأفق وهي اختبار القيادة.

وكما باءت محاولاتي السابقة جميعها بالفشل، لم أتوقع أن ينتهي اختباري التالي في سيارة رولز 1924 مع ممتحن مزاجي جاف أعلن فشلي مرّة أخرى، وقال بجفاف إنّ قيادتي ليست قيادة مبتدئ إلا أنّها قيادة رعناء، وأنها قيادة مرعبة وقريبة جدًّا من حدود السرعة؛ وفي حالتي كان ينبغي أن يكون ممتنًا نظرًا إلى تجربتي الأخيرة مع ستيفن، فأنا -مثلًا- لم أتجاوز الحد الأقصى للسرعة، ولم أهجم وأخالف اتجاه الطرق الثنائية.

والمفارقة أنّه ونظرًا إلى تقنيات قيادته المعروفة، فقد كان ستيفن لا يزال يحتفظ برخصة قيادة سارية المفعول، رغم أنّه لم يعد قادرًا على القيادة، لذلك فقد كنت أستطيع القيادة في حدود القانون اعتمادًا على ترخيصٍ مؤقتٍ بينما هو جالس بجانبي. وأخيرًا تجاوزت ذلك الاختبار اللعين في خريف عامٍ 1965، وربما يعود ذلك إلى غياب البعبع؛ الممتحن الرئيس الذي كان في المستشفى كما علمت وقتها، وقد أنارت تلك النجاحات والاحتفالات في الأشهر الأولى من عام 1965 الطريق أمامنا، ونتيجة لذلك انحصر قلقي في كامبريدج والزفاف.

وبشكل حتمي أخذت الهوة بيني وبين أصدقائي ورفاقي بالاتساع، وهذا يشمل كلًّا من أصدقائي في ويستفيلد ورفاقي القدامى في الرقص والتنس في سانت ألبانز، كانت آخر مرّة رأيت فيها الكثير من هؤلاء الأصدقاء القدامى عندما عملنا سويةً في مكتب الفرز في مكتب البريد قبل عيد ميلاد عام 1964، أو في عيد ميلادي الحادي والعشرين، حيث وافق والدي ستيفن بلطف على استضافة هذا الحفل في منزلهم الكبير والواسع الذي كان أوسع بكثير من منزلنا المقسوم إلى قسمين تقريبًا.

كان يومًا عظيمًا، حارًّا مع سماءٍ صافيةٍ مشمسةٍ، وكانت سعادتي لا توصف؛ أهداني ستيفن تسجيلات من رباعيات بيتهوفن Beethoven Quartets، والتي تنقل عمق المشاعر التي بيننا، ولحسن الحظ كان عيد الميلاد ذاك مختلفًا جدًا عن سابقه في العام الماضي، عندما أعطاني ستيفن تسجيلًا للأعمال الكاملة لويبرن Webern، وأخذني لاحقًا إلى دراما حول كيفية استخدام الكرسي الكهربائي في الولايات المتحدة، وفي بعد ظهر ذلك اليوم جلست عائلتي بكاملها مع الجدّة في دائرة صمت في غرفة المعيشة للاستماع إلى عمل ويبرن الكامل، جلس ستيفن بهيبة على الأريكة بينما دفن والدي رأسه في كتاب، وشغلت والدتي نفسها بالحياكة وذهبت الجدة في غفوة عميقة، وبدت عائلتي واثقةً وهي تُظهر عدم تأثرها بالموسيقى التي تفتقر إلى التجانس والأشبه بالقعقعة والطويلة مع توقفات وتنافر مزعج، بينما جلستُ على الأرض على وشك الانفجار بالضحك لكنني أخفيت وجهي في وسادة.

بينما كان عيد ميلادي في عام 1965 مع أرجوحة في الهواء الدافئ تحت الأضواء الملونة على الشرفة، كان حفلًا ساحرًا كما لو أنّه قادم من عالم الحكايات الخيالية، وكما هي الحال في جميع القصص الخيالية كانت هناك حالة عداء خفية، ومرّة أخرى استشعرت استياء متسترًا في موقف فيليبا اتجاهي الذي لم أستطع فهمه، هل يُعقل أن يكون سبب ذلك السماح لي بالاستحواذ على منزلها لحفلي لليلة واحدة فقط؟ أم أنّ السبب هو أنّها تعدُّني أدنى فكريًّا ونسوية -مصطلح يُستخدم بغرض الإساءة في قاموس آل هوكينغ- كذلك؟ ولا بدّ أنّها وجدت إيماني مثيرًا للسخرية، أما جواب

ستيفن عندما نقلت له هواجسي في هذا الشأن فكان: «لا تأخذي الأمر على محمل الجدّ»، لكن رده العفوي لم يكن ضمانًا كافيًا.

أما شقيقتها ماري فكانت تعاملني بطيبة أكبر، ووفقًا لوالدته، لم يغفر ستيفن لشقيقتيه قدومهما إلى العالم بعد ميلاده بسبعة عشر شهرًا فقط، كانت ماري خجولةً ولطيفةً بطبيعتها، واستفاقت في الحياة لتجد نفسها في موقف لا تُحسد عليه في العائلة، لتكون بين شخصيتين استثنائيتين ذكيتين هما ستيفن وفيليبا، وكدفاعٍ عن النفس، انخرطت بقوة في قالب التنافس الفكري، وبدا أنّ مواهبها خلاقة وعملية أكثر بكثير، وبولائها الشديد لوالدها أقحمت نفسها في الطب، وكانت تتحدث إليه بحرية تامة؛ وبخصوص فرانك فعلى الرغم من استماع والداي إلى روايات كثيرة من أصدقاء عدّة في سانت ألبانز عن السلوك الفظ لفرانك هوكينغ، وتصرفاته الحمقاء تجاه موظفيه في مختبر البحوث الطبية Medical Research Laboratory في ميل هيل Mill Hill، إلا أنّه كان شخصًا شهمًا ومحترمًا معي، ومن المؤسف أنّه لم يقدِّم نفسه بصورة أفضل للعالم الخارجي؛ لأنّ حقيقته كانت رجلًا حساسًا يمتلك صفاتٍ كريمةً ومشرّفةً.

وقد عبّر مرارًا وتكرارًا مع صراحة يوركشاير المحببة عن تأثره وسعادته وسعادة أسرته بخطوبتنا، واعدًا بصدقٍ بالمساعدة بأي طريقة ممكنة.

كان محطمًا نتيجة تشخيص مرض ابنه، ورغم سعادته بزواجنا إلا أنّ خلفيته الطبية أجبرته على اتخاذ وجهة نظر تقليدية متشائمة بهذا الخصوص؛ وقد علم والدي عن طبيب سويسري يدّعي قدرته على علاج الأمراض العصبية عن طريق اتباع نظام غذائي معيّن؛ لذا عرض والدي دفع تكاليف ذهاب ستيفن إلى سويسرا للعلاج، لكن فرانك هوكينغ بمعارفه الطبية الواسعة، وشكوكه تجاه فائدة هذا العلاج، رفض ادعاءات الطبيب السويسري، وعَدَّها تفتقر إلى أي أساس متين، وفي هذا الصدد كان قادرًا فقط على تحذيري بأنّ حياة ستيفن ستكون قصيرةً، وكذلك تحذيري من قدرته على الإيفاء بمتطلبات العلاقة الزوجية، وعلاوةً على ذلك نصحني بأن لا نؤجل تكوين أسرة إذا كنا نرغب في ذلك، مؤكدًا أنّ مرض ستيفن غير موروث جينيًّا.

أما والدة ستيفن فقد أسرَّت لي أنّها مقتنعة بظهور الأعراض الأولى لحالة ستيفن في مرضٍ لا تفسير له عندما كان في الثالثة عشرة، وأبلغتني أنّه يجب أن أكون على علمٍ تامٍ بجميع التطورات المروعة المتوقعة مع تدهر حالة ستيفن، ومع استبعاد العلاج الوحيد المتاح له من قبل والده، وَعَدِّ هذا الادعاء نوعًا من الدجل، لم أجد ما يجعلني أتحلى بتفاؤل طبيعي في ظل سلسلة التنبوءات السلبية المكثفة دون أي محاولة تخفيف؛ لذلك كانت إجابتي لوالدة ستيفن هي بأنّني أفضِّل عدم معرفة تفاصيل التشخيص؛ لأنّني أحب ستيفن كثيرًا ولن يردعني شيء عن الزواج منه:

سأكون له، وسألغي طموحاتي السابقة جميعها التي لا تشكِّل شيئًا بالمقارنة مع التحدي الماثل أمامي، وفي المقابل وببراءة سنواتي الإحدى والعشرين آمنت أنّ ستيفن سيقدِّر ذلك، ويشجعني على المضي قدمًا بما فيه فائدتي، ووثقت أيضًا بالوعد الذي قطعه ستيفن على والدي عندما طلب يدي: لن يطلب ما يفوق تحملي ولن يسمح لنفسه بأن يكون عبئًا ثقيلًا عليّ؛ كما وعدنا والدي على استكمال دراستي الجامعية.

ومضت الخطط للزفاف سريعًا، تخللها ذهاب وإياب مرّات عديدة بين سانت ألبانز وكامبريدج، وذلك النوع المألوف من الخلافات حول الأعراس في كل مكان: رفض ستيفن مدعومًا بوالده ارتداء الطقم المعتاد صبيحة العرس، فيما أصرَّ والدي وشقيقي على النمط السائد، كما رفض ستيفن وضع قرنفلة في عروة سترته؛ لأنّها رخيصة ومبتذلة حسب رأيه، فيما كنت أجدها جميلة بلونها وعطرها الإسباني، ومن ثم كانت الورود الحلّ الوسط لهذا الخلاف.

أيضًا رأى والدي أنه لا يكتمل عرس من دون بضعة خطابات رمزية، بينما رفض ستيفن قول أي شيء، وصولًا إلى مسألة الإشبينة وهي المسألة التي راحت بين أخذ ورد دون حلّ حتى يوم العرس، والذي شغل فراغها إدوارد ذو التسع سنوات، بحلوله وصيفًا مرتجلًا، ولحسن الطالع تم التوافق عليه دون نقاشاتٍ محتدمة، وكان علينا أن نتزوج في كنيسة ترينتي هول من قبل القسيس بول لوكاس Paul Lucas، وقبل يوم من الشعائر الدينية التي أقيمت يوم الخميس الواقع في الخامس عشر يوليو/تموز حصل حفل مدني متواضع، بما أنّ الكليات غير مرخصة للزواج، وتكلفة رخصة خاصة من قبل

مطران كانتربري تبلغ 25 جنيهًا، وهي مصروفات لا داعي لها، ولذلك فقد اخترنا عمدًا مكانًا صغيرًا، وكان علينا نتيجة ذلك معاناة ضغط شديد لاستيعاب جميع الضيوف، واضطررنا إلى إلغاء بعض الأصدقاء والأقارب من القائمة، بينما كان على الآخرين الاحتشاد في شرفة الأرغن.

في خضم هذا الارتباك، كنت في صراعٍ مع نابليون الثالث وبلدية باريس عام 1871 وامتحاني الفرنسي النهائي، وحضر ستيفن أوّل مؤتمر له حول نظرية النسبية العامة General Relativity قبل مدة قصيرةٍ من حفل الزفاف، والذي عُقد آنذاك في لندن لحسن الحظ، وانضممت له لاستقبال الحكومة الرسمية في كارلتون هاوس تيراس Carlton House Terrace، حيث التقيت العديد من علماء الفيزياء الذين سيؤثرون بصورة مهمة في مستقبل ستيفن المهني فيما بعد، وهم: كيف ثورن Kip Thorne، وجون ويلر John Wheeler، وتشالز ميستير Charles Misner، وجورج إيليس George Ellis، واثنان من العلماء الروس، وأصبح كثير منهم أصدقاء دائمين لنا، وكان هذا المؤتمر الذي أوقع مؤيدي النظرية النسبية في العالم ومنهم ستيفن في حمى بحوث الثقب الأسود (الذي كان يُعرف في ذلك الوقت بشرحٍ مملٍ للانهيارات النجمية أكثر من الصور والرسوم التي توضحه)، وقد سيطر عليهم شغف تلك البحوث لعقود طويلة.

بعد حفل الزواج المدني في الرابع عشر من يوليو، الذي رتله مسؤول السجل وسط خزانات الملفات والأزهار الاصطناعية لشايرهول Shire Hall، جاءت إليّ حماتي وقالت بابتسامة مازحة: «أهلًا بالسيدة هوكينغ، طالما أنّه الاسم الذي ستُعرفين به من الآن فصاعدًا». وفي اليوم التالي؛ يوم القديس سويتين، قادنا إشبين ستيفن روب دونوفان Rob Donovan مع جموع المقربين منّا بمهارته عبر طقوس الزواج والاحتفالات في حرم ترينتي هول من دون وقوع مشكلات تُذكر، وهو إنجاز كبير إذا ما أخذنا بالحسبان عدد الأقارب المسنين الحاضرين وقبعة فيليبا ذات النطاق الواسع، التي زينتها بعرضٍ وفير من نباتات قفاز الثعلب والعائق والخشخاش، ما جعل قبعتها تنافس حدائق الكلية بوفرتها العشبية!

كان يومًا سعيدًا، رغم الغيوم الرمادية والرذاذ المتقطع، وفي النهاية في وقت مبكر من المساء، مع انتهاء حفل الاستقبال في قاعة الكلية، شكر والدي ستيفن بشكل علني على استلامي من يديه، بعدها قاد بنا روب دونوفان إلى ضواحي كامبريدج، حيث توقف هناك في شارع جانبي بسيارتنا الميني التي حصلنا عليها مؤخرًا، والممهورة بعلامة L[1] والبعيدة عن شقيقي وخططه الشقية. ركبت السيارة في مقعد السائق وستيفن بجانبي، وابتعدت بها بحذر عن الحافة، وسرت باتجاه لونغ ملفورد Long Melford في سوفولك Suffolk ونزل بول Bull Inn.

(1) علامة (L): تشير إلى أنّ السيارة يقودها متعلم حديث للقيادة، وهي اختصار لكلمة learner، ويجب وضعها على العربة من الأمام والخلف في الكثير من البلدان منها إنكلترا. (المترجم).

8
مقدمة للفيزياء

سرعان ما أصبح الأسبوع الأوّل المثالي للزواج ذكرى ذهبية، ذكرى لجادات سوفولك المتعرجة وحدائقها الخصبة وكنائس الريف العتيقة والقرى نصف الخشبية، وفي نهاية ذلك الأسبوع، جلسنا ننتظر إقلاع الطائرة إلى نيويورك، وقد ركبنا الطائرة قبل المسافرين الآخرين، كان انتقالاً سريعًا من الأسبوع الهني بنزهات النهار إلى القرى الهادئة والمنازل الريفية والساحل الندي، إلى التقدم العنيد للعلم والتقاليد المركبة والخطى السريعة للعالم الجديد.

في مطار كيندي Kennedy Airport، انضممنا إلى قائمة الانتظار للركاب لتدقيق جوازات السفر، عندما اقتربت مضيفة جوية طويلة وأنيقة منّا، وأمعنت النظر في ملفٍ تحمله، وسألت باحثةً بعينيها في القائمة: «ما هي أسماؤكما؟»، أجبناها دون أن نتوقع رسائل خاصة: «جين وستيفن هوكينغ». لكنها أجابت بدهشة: «أسماؤكما غير موجودة في قائمتي! كم عمركما؟»، وهنا حان دورنا لتسجيل دهشتنا فأجبت بالنيابة عن كلينا: «عمري واحد وعشرون وهو ثلاثة وعشرون»، أسرعت المضيفة بالاعتذار: «عفوًا.. عفوًا.. ظننت أنّكما قاصرَين غير مصحوبيَن».

شعرنا بالسخط إثر إهانة نضجنا وحالتنا كمتزوجيَن، مددنا أنفسنا لنبدو بكامل طولنا، ثم مررنا بالجمارك الأمريكية إلى المروحية التي حلقت بنا فوق مدينة نيويورك إلى مطار لا غوارديا La Guardia لطيرانٍ آخر إلى إيثاكا Ithaca في ولاية نيويورك، وكانت أوّل مشاهدة لنيويورك مثيرةً للاكتئاب، إذ كنّا نحلق فوق مستوى ناطحات السحاب عبر ضباب دخاني كثيف، لتبدو المباني خلال الضباب كالرماح العملاقة على وشك أن تطعننا برؤوسها، وكان من الصعب تخيّل أنّ هناك بشرًا يعيشون ويعملون في هذا

الجحيم! وتأكدت ظنوني عندما هبطنا في بروبدينغناغ[1] الحديثة، عندما تم إرشادنا إلى الليموزين التي أرسلت لكي تُقلَّنا من مطار إيثاكا وتأخذنا إلى جامعة كورنيل؛ كان كلّ شيء من السيارات إلى الطرقات إلى المباني أضخم بعشر مرّات من أي شيء سبق وشاهدته، حتى الفسحة الواسعة من الريف الأخضر الجذاب تبدو أبدية، وبالنسبة إلي كلغوية فقد اعتدت على التعامل بلغة أجنبية بعد ثلاثة وعشرين ميلًا من طول القنال، لذلك كانت حيرتنا كبيرة بأن نجد الناس يتحدثون اللغة نفسها التي نتحدثها بعد سفر آلاف الأميال، حتى لو كانت اللغة كما كلّ شيء في هذه البلاد قد عانت التضخيم بطبيعة الحال.

كانت غرفنا مؤلفة من مساكن للطبلة في غرف مزدوجة في الطابق الثالث من مبنى السكن في حرم كورنيل، ولم يكن في ذلك مشكلة بما أنّنا كنّا معتاديْن على نمط حياة الطلبة، لكن المزعج كان في أنَّ الطابق الثالث كان مخصصًا للإقامة العائلية لمدة المدرسة الصيفية، ووجدنا أنفسنا ملقين هناك للنجاة وسط العائلات والرضع والأطفال الصغار الذين كانوا ينتحبون طوال الليل أو يجلسون في الممر احتجاجًا، بينما يقيم آباؤهم حفلات في الصالون. وشكّل هذا الظرف غير المتوقع نهايةً مفاجئةً لشهر العسل الذي خططنا لاستئنافه على الجانب الأمريكي من المحيط الأطلسي، ورغم الجاذبية التي لا يمكن إنكارها لبعض الأطفال الصغار، إلا أنّ الإقامة في دار حضانة عملاق كان شيئًا لم نتوقعه على الإطلاق.

تفاقمت المشكلات بسبب التفاصيل اللوجستية للحرم الجامعي، فبالنسبة لقوي البنية فإنّه لن يتعرض لأي صعوبة، لكن مبنى السكن الذي يبعد ميلًا عن مدرج المحاضرات وهي المسافة الأقرب المتوافرة، كانت تتطلب جهدًا كبيرًا من ستيفن للوصول إلى المحاضرات في موعدها المحدد، كان باستطاعته المشي وحده لكن ببطء شديد، ويتحرك أسرع في حال وجود من يساعده، لذلك عهدت لنفسي بهذا الدور بكلّ

(1) بروبدينغناغ (Brobdingnag): أرض خيالية يقطنها العمالقة في رواية رحلات غوليفر التي كتبها جونثان سويفت. (المترجم).

سعادة، وذهبت إلى الأمكنة كلّها التي قصدها؛ أيضًا كانت الوجبات مشكلةً أخرى، فالعيش على المنح الطلابية التي نتقاضاها لا يسمح لنا بتناول وجبات الطعام في المطعم، ولم يتوافر إناء صغير واحد في المطبخ الصغير في طابقنا، ولم نمتلك وسيلة حتى لنصنع لنفسنا كوبًا من الشاي، وأخيرًا حضرت إحدى أمناء المؤتمر لإنقاذنا، وأخذتني بسيارتها إلى إيثاكا للتسوق في متجر وولوورثس Woolworths الأقرب، وحالما انزلقنا في سيارتها الستيشن الضخمة، سألتها بتهذيب لأفتح حديثًا معها عمّا إذا زارت أوروبا من قبل، فأجابتني دون مراعاة: «لا، كما ترين أنا لا أذهب إلى أماكن حيث ليس لديهم حمامات!».

تبضعتُ من المتجر ما يلزمنا من أساسيات مثل مقلاة صغيرة وسكاكين وأكواب وصواني ومروحة كهربائية للتخفيف من الحرارة التي لم تكن شبيهةً بالحرّ الإسباني، بل كانت حرارةً لزجةً ورطبةً، ومن ثم أمنتُ أساسيات المنزل، للمرّة الأولى لكن الوحيدة في حياتي الزوجية، ففي الطابق الثالث من مبنى السكن أمن لنا زميل البحوث مع ستيفن في كامبريدج وضيف زفافنا براندون كارتر Brandon Carter مساعدةً نفيسةً: استنادًا إلى تجارب طفولته في الأدغال الأسترالية؛ علمني كيفية إعداد الشاي على طريقة المخيمات في قدرٍ صغيرٍ، وهو القدر نفسه الذي نعد به البيض والمكرونة والفاصولياء المخبوزة، والطعام البسيط الذي يمكن إعداده في الغرفة والذي شكّل غذاءنا في تلك الأسابيع، وهكذا بدت تعددية جوانب الحياة أساسيةً في هذه المقدمة غير المتوقعة لمسرّات الحياة العائلية.

أمضيت جزءًا كبيرًا من يومي في المشي مع ستيفن من المحاضرات وإليها، والتسوق في المتجر القريب في الحرم الجامعي، ولأستغل الساعات الفاصلة التي كانت قصيرةً وتلزم من الوقت ما يلزمه أي مسير إلى أي مكان آخر، فقد ارتأيت الدراسة في المكتبة، ولكي لا يقتصر وقتي على الدراسات الإسبانية، خطرت لي فكرة استعارة آلة كاتبة ومكتب في مكتب السكرتارية، وكتابة المسودة التحضيرية للفصول الأولية من أطروحة الدكتوراه لستيفن التي كانت تناقش توسع الأكوان، لكن البحث كان بأشكال وصيغ هيروغليفية غير مفهومة -فضلًا عن الأرقام المألوفة والإشارات الرياضية العادية-

التي تتراقص فوق السطر وتحته، وسرعان ما تبيّن لي أنّ هذا المشروع سيتحول إلى كابوس مطبعي حقيقي.

على الرغم من هذه المواجهة المفاجئة مع التفاصيل الجوهرية للزواج من فيزيائي، والتي لم تكن متوقعة من الأسبوع الثاني لشهر العسل، إلا أنّني شعرت بالراحة لقيامي بعمل مفيد، فضلًا عن أنني كنت مسرورةً أيضًا بأن أشهد إثارة ستيفن وهو يتحرك بكثافة في الأوساط العلمية الدولية حيث بدأ بإثبات نفسه، وكان ارتياحه أيضًا بالتعاون المتزايد بينه وبين الفيزيائي البريطاني الأكبر سنًّا بقليل؛ روجر بنروز Roger Penrose في مشروع رياضي معروف باسم نظرية نقطة التفرد theory of singularities أو انهيار الجاذبية gravitational collapse؛ حيث اقترحت النظرية أنّ أي جسم يمرّ بانهيار الجاذبية يجب أن يشكّل تفردًا، وهي منطقة في الزمكان حيث يتوقف عمل قوانين النسبية، ربما لأنّ انحناء الزمكان يصبح لانهائيًا، فانهيار نجم تحت جاذبيته الذاتية يحصل بسبب تقلص سطحه وحجمه إلى الصفر، ويتوقع روجر أنّ نقطة التفرّد تكون مخفية فيما سيدعى لاحقًا بالثقب الأسود، ومن وحي نظرية روجر وعمل العالمَين الروسيين ليفشيتز Lifshitz وخالاتنيكوف Khalatnikov، كان ستيفن واثقًا أنّه بالإمكان عكس هذه المعادلات بالزمن؛ لإثبات أنّ أي توسع محتمل للكون يجب أن يبدأ بنقطة تفرّد، وهذا ما وفر الأساس النظري للانفجار الكبير Big Bang، كما ستوفر المعادلات خلاصة مهمة جدًّا لأطروحته.

وصلت زوجة روجر بنروز مسافرةً من منزل عائلتها في ديترويت، حاملةً طفلًا صغيرًا في حمالة أمامية على جسدها، وتمسك بالآخر بيدها بينما ترعى والدتها المسنة الثالث، شكّل وصول جوان غوثًا لي في جو الملل الذي يسود الطابق الثالث، اختصت جوان في الخطابة، ربما خصلة مفيدة في السيطرة على عائلة من الصبيان، وإنجازًا كبيرًا، إذ لاحظت صعوبة شعور الزوجة بنفسها في عالم الفيزيائيين حيث يمكن ملاحظة الزوجات بالكاد -كان هناك الكثير منهن مع حشد من الأطفال الصغار بصحبتهن- بعضهن كنّ صاخبات وثرثارات، وآخريات كتومات ومتحفظات، فيما احتفظ بعضهن بوجه متجهم وعابس، وتبنى الكثير من الزوجات اللواتي حظين

بخلفية جيدة في الرياضيات أو الفيزياء أسلوبًا ذكوريًّا تنافسيًّا، بينما قبعت الأخريات اللواتي يتمتعن بمواهب كامنة نصف منسية في الطرف الآخر، وكان ميلهن واضحًا للتشكك والعصبية، ويبدو أنّ الفيزياء قد تركت أثرها في كلٍّ منهن، وسواء كنّ يحببن بعضهن أم لا أو يتعاملن بلطف مع بعضهن أو لا، إلا أنّ ثمة ما يجمعهن جميعًا: كُنَّ فعليًّا بقصد أو من دون قصد أرامل أو بالأحرى أرامل الفيزياء!

لم يخلُ الجو من بعض التسالي التي لا تنسى، كنّا نتمشى يوميًّا في الحرم الجامعي، وفي أحد الأيام اغتنمت فرصةً ذهبيةً للدردشة بالإسبانية مع زوجين مكسيكيين، واللذيَن كانا مشوشيَن مثلي في كورنيل، أيضًا وجه لنا بعض معارف والدي ستيفن دعوة لطيفةً للانضمام إليهم في منزلهم الصيفي غير البعيد عن إيثاكا في ظهر أحد أيام السبت، وخلاف ذلك كنا نمضي أمسياتنا في دندنة أغنية والتزينغ ماتيلدا Waltzing Matilda، فوق مقلاتنا الصغيرة التي تغلي على السخانة في المطبخ الصغير للطابق الثالث، بينما أبهجنا براندون بمغامراته في الأدغال الأسترالية، مع التطرق أيضًا إلى اهتمامه بعالم الرياضيات جايمس كليرك ماكسويل James Clerk Maxwell، ورحلة إبحاره الدرامية للوصول إلى البحر المتوسط عبر خليج غاسكونيا Bay of Biscay، لكنه لم يصل أبعد من شيربروج Cherbourg؛ وعندما يتم استنفاذ هذه الموضوعات تتحول المحادثات إلى نقاشات كونية متواصلة بينه وبين ستيفن، في الوقت الذي أغسل فيه الطنجرة والصحون البلاستيكية، متسائلةً عمّا إذا كان محكومًا علينا قضاء كامل مدة المدرسة الصيفية عالقين في حرم جامعة كورنيل والطابق الثالث لمبنى السكن.

وعندما بدأت أستسلم للروتين الثابت، ظهر براين وسوزي بيرنز، وهما زوجين أستراليين سبق وأن أمضوا بعض الوقت في كامبريدج، ليعرضا علينا أخذنا في سيارتهم إلى نياغارا Niagara، وما أن وقعت أعيننا على تلك الشلالات حتى خُطفت أنفاسنا، كان منظرًا مهيبًا بعد قيادة مملة لا تنتهي عبر الضواحي الكبريتية لمدينة بوفالو Buffalo، غمرنا الافتتان بهذه الكميات الرهيبة من المياه المتدفقة باستمرار، والهابطة بعنفٍ من حافة الهاوية، لتتحول إلى كتلة ضخمة من الرغوة البيضاء، ولتشكّل خيوط قوسٍ قزح من خلال الرذاذ البارد، كان مشهدًا فاتنًا، وهدير الشلالات يصم الآذان

ويخدِّر الحواس، تجاوزنا الجسر إلى الجانب الكندي للحصول على مشهدٍ أفضل وأقرب، ووقفنا هناك مسحورين بهذا العرض المدهش للطبيعة حتى حان وقت عودتنا إلى إيثاكا، فركبنا طائرةً صغيرةً وأقلعت في السماء المكفهرة وسط الرعد والبرق، وكانت تلك المرّة الأولى في حياتي التي يصيبني فيها الجزع من الطيران.

في الأسبوع التالي، رتَّب براندون مع بعض الأصدقاء رحلة إبحار في بحيرة أونتاريو Lake Ontario، وانطلقنا بمساعدة النسيم اللطيف، وسرعان ما مرّ الوقت سريعًا بمجرد أن أصبحنا في قلب البحيرة؛ سبحت في المياه الخضراء بينما استلقى ستيفن على ظهرة غارقًا في أفكاره، مستمتعًا بالسماء الزرقاء الصافية وصوت المياه المرتطمة بهيكل السفينة، وفي وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم، كان رفاقنا قد توقفوا منذ مدة عن مشاركتنا سعادتنا في الظروف المسالمة، وأخذوا يتحدثون بقلقٍ عن إطلاق أنوارٍ وإشارات استغاثة، كان المركب قد توقف لقلة الريح، وكعادته أدلى براندون بملاحظته أنّه لم يتعرض لمثل هذا الظرف في أثناء إبحاره في خليج غاسكونيا، حيث يمكن الاعتماد دائمًا على الريح، واستطعنا بشكلٍ ما ذلك المساء من العودة إلى الميناء في الوهج الرائع للشمس الغاربة، الغارقة في الأفق الداكن والمنعكسة على وجوهنا المنهكة بتوجهها الكهرماني.

استغرق الأمر حتى الأسبوع الأخير من المدرسة الصيفية حتى انطلق أحدهم -وأعتقد أنّه راي ساكس Ray Sachs، فيزيائي منسبط من كاليفورنيا وأب لأربعة بنات- بفكرة رائعة بتنظيم أمسية اجتماعية، وهي نزهة في الحقل للعائلات، وهناك تعرفنا إلى مزيد من الزوجات وعدد أكبر من الأطفال، لكن الشخص الذي ترك أكبر انطباع لدينا هو روبرت بوير Robert Boyer، أمريكي هادئ من تكساس، أسس معه ستيفن علاقة مهنية على الفور، وقد شملني روبرت في الحديث بطريقة طبيعيةٍ ووديةٍ، متحدثًا عن أمورٍ أخرى غير الفيزياء، وفي الحقيقة يمكن القول إنّ الفيزيائيين -وهم أفراد- يتمتعون بالكثير من الجاذبية والودية والبساطة، لكنهم عندما يكونون في مجموعات، فإنّ طبيعتهم تنحو إلى الانزلاق المتعنت في نقاشات وجدالات لانهائية، غالبًا عن الفيزياء، والحديث المنافس الذي كان يجوب العقول، لا عقول الأكاديميين

فحسب بل جميع الشباب وهو موضوع فيتنام الذي كان على كلّ لسان في تلك النزهة، فقد ترافق الخطر المتنامي للحرب مع مشاعر الخوف والبغض، وشقت تلك الحرب طريقها على حساب شباب الأمة من أجل قضيةٍ لا يدعمها سوى الجيش والمتعصبون.

في آخر مساء من نهاية المدرسة الصيفية، جلسنا على درجات مبنى السكن نحدِّق بالقمر المكتمل العالق في السماء الشفافة، عندما تعرفنا إلى البرفسور آبي توب Abe Taub، العقل المدبِّر للمدرسة الصيفية، حيث كان يستنشق الهواء العذب مع زوجته تشيتشي Cice متأملين سماء الليل بإعجاب؛ استمعنا بافتتان إلى حديثهم عن حياتهم في كاليفورنيا، وإطلالة منزلهم على جسر البوابة الذهبية Golden Gate bridge في سان فرانسيسكو والحرم الجامعي وقسم العلوم في بيركلي حيث يترأس آبي المجموعة النسبية، ولمست دعوةً أوليةً من قبل آبي لستيفن واستجابةً متحمسةً من قبل ستيفن، لكن دون أن يتم ذلك بعرض رسمي.

عدنا إلى داخل السكن، وكنّا على وشك استكمال محادثتنا، لولا أنّه -فجأةً ومن دون إنذار- بدا أنّ ستيفن الذي تأثر ببرودة هواء الخارج قد أصيب بنوبة اختناقٍ مدمرةٍ، النوبة الأولى التي شهدتها؛ إنّه المرض الذي على ما يبدو طال قمعه، وها هو ينتفض كاشفًا عن حقيقته المرعبة، لقد أطل الشبح الكامن من الظل وأمسك بخناق ستيفن، ليهزه كدميةٍ لا حول لها ولا قوة، يدوسها ويرسل فيها سعالاً خشنًا رددَتْ صداه جدران الغرفة، بأزيزٍ عالٍ ومروع، وفي قبضة العدو بدا ستيفن عاجزًا، وبدوري وقفت خائفةً غير مهيأةٍ لهذا اللقاء المفاجئ مع السلطة المرعبة لمرض العصبونات الحركية، شريكنا غير المرئي في زواجنا، وأخيرًا استطاع ستيفن أن يومئ لي بأن أضربه بقوة على ظهره، فعلت ذلك بقوة، مصممةً على طرد هذا الوحش الخفي، وفي النهاية تراجع، بسرعةٍ كما ظهر، ليتركنا مصدومين ومرهقين كما بدا على وجوه المتفرجين المصعوقين، ولا شكّ أنّ هذا الهجوم المفاجئ قد شكّل صدمةً كبيرةً، وتحذيرًا من سوء طالع المستقبل الخطر، وتلاشت أحلام كاليفورنيا في سحب الخيال من حيث ظهرت لنا.

شعرت خلال عودتنا إلى نيويورك أنّ تجربة كورنيل قد حولتني -في سني الإحدى والعشرين- إلى زوجة مضطربة نوعًا ما من الزوجات الرصينات المؤمنات؛ وسرعان ما أخذت الطبيعة الشيطانية للمرض تعزز وجودها في العرج وصعوبة التحرك واضطراب التنسيق، وكأن هذا لم يكن كافيًا، إذ شعرت بظهور شريكة رابعة تتسلل إلى زواجنا، وإذ ظهرت تلك الشريكة لأول وهلة على شكل صديقةٍ هادئة موثوقة بها، تشير إلى طريق النجاح والإنجاز لمن يتبعها، لكنها أثبتت في الحقيقة أنّها منافسة شرسة، بارعة كأي عشيقة، تستدرج عشاقها بجاذبيتها الساحرة لتستحوذ عليهم كليًا، ولم تكن تلك الشريكة إلا الفيزياء، وأستشهد بتأثيرها بزوجة آينشتاين الأولى خلال قيامها بإجراءات الطلاق.

قدمت مدينة نيويورك مدة راحة ضروريةٍ من هذه الاعتبارات الكئيبة، وفرصةً لاستعادة التوازن في علاقتنا، بعيدًا عن إغراءات رفقة بقية الفيزيائيين، وبسخاء أمن لنا زميلٌ في الحقل الطبي لفرانك هوكينغ غرفةً في شقته في مانهاتن لعطلة نهاية الأسبوع، وكان موقعها مثاليًا لزيارة المعالم الأساسية للمدينة من متحف المتروبوليتان Metropolitan Museum إلى مبنى إمباير ستيت Empire State Building وتايم سكوير Time Square وبرودواي Broadway، وللأسف لم يكن هناك الكثير ليقدمه البرودواي في آب/أغسطس، وهذا ما دعانا إلى قضاء ليلة السبت في السينما لمشاهدة فيلم ماي فير لايدي My Fair Lady. ولم أشعر بالأسف كثيرًا عند وداع نيويورك، إذ ألقيت نظرةً إلى الخلف في أثناء توجهنا بالحافلة إلى مطار كيندي، إلى ذلك الخط المتصل المنحوت من ناطحات السحاب المنتصبة لإثارة الانتباه في كتلة رماديةٍ عبر الأفق، وفكرت أنّني لم أرَ تجسيدًا للوحشية البشعة كهذا التجسيد؛ كنت متلهفةً للعودة إلى العالم الليليبتاني[1] Lilliputian، الطيّع والضيق والقديم إذا ما قارناه بنيويورك المحمومة، لكنه العالم الهادئ الذي أنتمي إليه، المعتَّق بروح التاريخ وأبيات الشعر، حيث الاستقرار أقوى، وحيث يمتلك الناس وقتًا أكبر لبعضهم.

(1) من جزيرة ليليبت في رحلات غوليفر، وهي جزيرة الأقزام. (المترجم).

9
الزقاق

على درب عودتنا إلى إنجلترا تلاشت أوهامي العاطفية بشأن الاستقرار على الجانب الأوروبيّ من المحيط الأطلسي، حيث كان والدي على وشك الانتقال من المنزل الذي ترعرعت به منذ سن السادسة إلى منزل آخر يبعد عنه ثلاثين بيتًا، لتصبح القطيعة مع الماضي راسخةً كجدارٍ من الطوب.

عَلمنا لاحقًا أنّ الشقة التي حجزناها في منطقة السوق في كامبردج لم تنتهِ بعد، ما يتطلب العثور على منزلٍ آخرَ خاصٍ بنا على وجه السرعة لاستيعاب جميع هدايا الزفاف لدينا.

سارعنا إلى تحميل مقتنياتنا من حقائب وهدايا في سيارتنا الميني الحمراء منطلقين إلى وكيل العقارات في كامبردج؛ كانت الشقق قد انتهت بالفعل كما قيل لنا سابقًا، إلا أنّ المشكلة كانت في مكانٍ آخرَ، إذ لم يسجل الوكيل أيًّا من أسمائنا، ما أتاح لمستأجرين آخرين الحصول على فرصتنا في تلك الشقق، وفي تلك اللحظة بدا العالم القديم غير جديرٍ بالثقة أكثر من أي وقت مضى، كان علينا اتّخاذ الخطوة التالية خلال غداءٍ خيّم عليه القنوط، واقتضى قرارنا بمجازفة أخرى لستيفن ومعاودة الكرّة مع أمين صندوق كلية كايوس، علّه يقتنع هذه المرّة بمد يد العون لنا ولو إلى حين؛ جاءت المفاجأة حين علمنا أنّ أمين الصندوق تغيّر في الأشهر الستة الأخيرة، وسرّنا أن نعلم أن خلَفَه يمتلك من الوقت ما يكفي للإشراف على المسائل المالية للكلية، رغم أنّه كان هو الآخر محاصرًا باللغة التيبية، وعلى خلاف سلفه أبدى الرجل تعاطفًا ملفتًا مع طلب ستيفن؛ ليقترح حلًّا رسم طيف ابتسامة على وجه ستيفن الكئيب:

«أعتقد أنّنا قد نتمكن من مدٍّ يد المساعدة، فقط على المدى القصير جدًّا؛ لأنّه -وكما تعلم- لا تلتزم سياسة الكلية بتقديم مساكن لزملاء البحوث، تعلمون ذلك بالتأكيد؟». أجبناه بإيماءة من رأسنا تنم عن نفاد الصبر.

في النهاية أطلعنا على النتيجة: «هناك غرفة شاغرة في نزل هاريفي، مقابل اثني عشر شلنًا وستة بنسات لليلة الواحدة، تتسع الغرفة لشخص واحد، وبالإمكان وضع سرير آخر ليصبح الحساب خمسة وعشرون شلنًا في الليلة الواحد لكليكما».

كان واقعنا يحتّم علينا في تلك اللحظة القاسية كبح لجام الغضب؛ فلا مكان آخر لنذهب إليه، علاوة على أنّ ارتياد الفنادق أمر يفوق طاقتنا في الوقت الراهن، لكن ما خفف من قساوة المشهد الذي ساهمت سلطات الكلّية برسمه من خلال تعاملها الفظّ والجاف، كان تعامل طاقم الموظفين الطيّب معنا، وبالأخص مدبّرة النزل التي لم يكن بالإمكان أن تكون أكثر لطفًا، وقد ثبت أنّ تلك إحدى سمات المستخدمين في الكلية سواء كانوا عمّال نظافة، بستانيين، حمّالين، نوادل؛ فقد كشف هؤلاء الأشخاص عن صورةٍ لا تفتر ولا تنضب من الود الحقيقي والدافئ، وهو ما يعوز المناخ السائد لدى أصحاب المراتب العليا بشكل جليّ وواضح.

بثَّت مدبرة النزل الدفء في حجرتنا الصغيرة، كانت تحرص على ترك لمستها الحانية في كل مكان، بدءًا بترتيب أسرَّتنا وتهويتها، إلى تحضير البسكويت والشاي لنا مساءً إلى تقديم الفطور الصباحي، حتى إنها عرضت علينا القيام بالغسيل رغم أن ذلك لم يكن ضروريًّا نظرًا إلى مدة إقامتنا الوجيزة لحسن الحظ.

في اليوم الفاصل، جاء مشرف ستيفن؛ دينس سكيما Dennis Sciama على وجه السرعة، معلنًا أنّ الوقت قد حان ليتم انتشالنا من وضعنا الحالي بوضعنا على تواصل مع زميل من بيترهاوس Peterhouse، والذي أراد تأجير منزله المستأجر من تلك الكلية.

كان المنزل المعروض للإيجار بشكل فوري منزلًا خاليًا من المفروشات، لكنه مثاليٌّ بالنسبة إلينا؛ حيث يقع في أحد أقدم وأكثر الشوارع جمالًا في كامبردج، شارع ليتل سانت ماري Little St Mary's، على مسافة مئة ياردة من قسم ستيفن، والذي انتقل مؤخرًا إلى بناء بيت برس Pitt Press القديم لأعمال الطباعة في جادة ميل Mill Lane.

بدأت رحلتنا في شقتنا الجديدة والخالية من أي قطعة أثاث بتقبّل الوضع على ما هو عليه، ومحاولة التعامل معه بأفضل ما يمكن؛ بحثنا في مدخراتنا المالية وهدايا زفافنا، وباشرنا بشراء الأساسيات التي لم تكن بالكثيرة في واقع الأمر: سرير وقابس كهربائي، وريثما كنا ننتظر في المنزل وصول السرير من المتجر، تركت ستيفن يتّكئ على إحدى الجدران العارية في غرفة جلوسنا وذهبتُ لشراء بعض المُؤَن، لكني دُهشت حين عودتي بمشاهدته يسترخي على كرسي مطبخ أزرق اللون مصدرهُ سيدة أتت لتتعرف إلى جيرانها الجدد، لتجد ستيفن على أرضية المنزل فقامت بلطف بإحضار كرسيها ريثما نؤثث منزلنا.

كانت السيدة اللطيفة تقطن الشقة رقم 9 وتُدعى ثيلما تاتشر Thelma Thatcher، زوجة رقيب سابق ورئيس مركز فيتزويليام Fitzwilliam، وستصبح مع مرور الأيام من أكثر الشخصيات ذات التأثير الخيّر فينا، والأكثر امتاعًا وتسليةً لنا على مدى السنوات العشر القادمة.

طهوت عشاءنا الأوّل ذلك المساء في مقلاة كورنيل على وشيعة كهربائية واحدة، أما مائدة الطعام فلم تكن سوى علبة كرتونية، جلس ستيفن على كرسي تاتشر الأزرق، أما أنا فجثوت على ركبتي على أرضية شقتنا البيضاء.

احتسينا الشراب في كؤوسٍ كريستالية، وتناولنا طعامنا في أطباقٍ من الخزف الصيني مستخدمين أدوات المائدة اللامعة. بدا عشاءنا الأول بدائيًّا إلى حد ما، لكنه بطريقة أو بأخرى جاء ليحتفي بالحظ الذي ابتسم لنا أخيرًا، ومنحنا سقفًا نأوي إليه طيلة الأشهر الثلاث المقبلة.

كانت جغرافية المكان كلؤلؤة مختبئة في محارة مخفية عن أعين الفضوليين: الكنيسة الإصلاحية الفيكتورية على الجهة اليمنى، وكنيسة القرون الوسطى ليتل سانت ماري في الجهة اليسرى، اكتشف السياح هذا الزقاق مصادفةً بعد أن كان مختفيًا عن عيون المارة الفضوليين، لكن السلطات قامت بإغلاقه بفضل حملة قام بها سكان الزقاق، شاركنا فيها أنا وستيفن، وهو ما اضطّر زوار المجمّعين الضخمين، فندق غاردن هاوس Garden House Hotel ومركز الجامعة، إلى الوصول إلى وجهتهم عن طريق شارع ميل وهو شارع غير سكني.

كانت الشقة رقم 11 هي الشقة الأخيرة في بناء بثلاث طبقات على الجانب الأيمن في شارعٍ تعود بعض منازله إلى القرن السادس عشر؛ وعندما أقمنا في ذلك المكان عام 1965 كان المنزل قد أعيد ترميمه مؤخرًا من قِبل كلية بترهووس التي على عكس كلية كايوس توفر الإقامة لزملاء البحوث لديها.

كان المشهد المحيط بمنزلنا آسرًا بمجمل تفاصيله، من السور الحديدي على الجانب الجنوبي من الممر المحيط بكنيسة ليتل سانت ماري، إلى الحديقة الخضراء الوارفة المبهرة للحواس في ذلك الوقت من شهر سبتمبر/أيلول، والزعرور الأحمر المتوهج، والعبق الفواح من الورود الخريفية المنتشرة في أرجاء المكان، وشواهد القبور التي لا تزال ماثلةً هناك، وقد لعبت العوامل الجوية دورها في تمويه نقوشها لتصبح أحرفًا غير مقروءة، وسط انتشار فروع أشجار الجميز الشاهقة ونباتات الويستيرية الكثيرة العقد التي غطّت المكان، وحوَّلته إلى ملجأ صغير من أسوأ الأضرار الناجمة عن عناصر الطبيعة التي استوعبت بلطف قتلى القرون السابقة، وأعادتهم إلى رحمها، وبعثتهم من جديد في أسرابٍ وافرةٍ غزيرةٍ من أزهارٍ تسلّقت السور لتصل مصابيح الغاز القديمة التي أضاءت بتوهجها الكبريتي الشوارع المجاورة.

كانت الجارة الطيبة ثيلما تاتشر Thelma Thatcher قد نصَّبت نفسها حارسة الزقاق، وقامت بزرع عددٍ من شجيرات الورد في باحة الكنيسة، حيث تلهو كلبتها من نوع كلب السبنيلي الصغير King Charles spaniel والملقبة بماتي، ودائمًا ما اهتمت ثيلما

بلفّ قوائم كلبتها الصغيرة بأكياسٍ بلاستيكيةٍ في أيّام الطقس الرطب كأمر بديهي لابدّ منه.

حرصت ثيلما على راحة جميع جيرانها أيًّا كانت أعمارهم أو ظروفهم، ولم يمرّ أسبوع حتى امتلأ منزلنا الخالي تقريبًا، خلا بضعة قطع أثاث، بمجموعةٍ من الكراسي والطاولات والقدور والمقالي التي أرسلتها لنا ثيلما، كما أوصلتنا إلى الأخت شالميرس التي تعمل ممرضة في بيترهاوس، وكانت على وشك الانتقال إلى شقة مجهزة تجهيزًا كاملًا، فسمحت لنا باستعارة موقد الغاز الخاص بها، كما عزمت ثيلما على إيجاد مكان آخر لنا حين يحين وقت انتهاء عقد الإيجار الحالي، عدا عن خدماتٍ أخرى لا تعد ولا تحصى كالكؤوس المصقولة التي جاءت بها من غرفة الجلوس في منزلها القديم.

في عام 1965، كانت ثيلما قد بلغت السبعين من العمر بظهرٍ مستقيم وشعرٍ داكنٍ جعلها تبدو كما لو أنها أصغر بعشر سنوات؛ كانت تتميز بشخصية روائية متميزة، ولها لحظات إلهام غريبة، ففي زفافٍ ديني تقليدي Quaker wedding، وقفت ثيلما لتعلن على الملأ أنّ المساعدين نسوا إشعال الغاز تحت إناء الشاي!

وبطريقة أنصفت فيها الكوميدية بريطانية جويس غرينفل Joyce Grenfell، أصبحت ثيلما بمثابة ذلك الدبّوس الذي فجّر فقاعة الأنا المتضخمة لدى العديد من أكاديمي كامبردج، بأسلوبها الارستقراطي الحازم المدعوم بقيم المسيحية الراسخة والصادقة، والتي شكّلت الدعامة الرئيسة في الكيان الذي لطالما احتقره ستيفن، لكنه ورغم ذلك وجد فيها ما يشبهه، واحترم فيها طيبتها وكرم أخلاقها رغم كونهما سياسيًّا على طرفي نقيض، أما هي فقد وجدت في الليبراليين ذوي العقول الفوضوية هدفًا لها.

في الأشهر القليلة التي تلت سكننا، أحاطتنا ثيلما الطيبة بعنايتها، كما لو أنّها طائر يضم فراخه بجناحيه؛ اعتنت بستيفن خلال مدة تغيبي في لندن في الوقت الذي كانت ترعى كلًّا من حاجات زوجها المسن -تبعًا لها كان زوجها قد انتزعها من مهد

طفولتها- وابنتها المستقلة ماري التي كانت حياتها أشبه بفيلم عن حياة بريطاني في الهند.

في النهاية، حان وقت عودتي إلى سنتي الأخيرة في ويستفيلد، لتبدأ معها رحلتي المؤلمة كل إثنين حين كان يتعيَّن علي الابتعاد عن ستيفن؛ ما فاقم الأمر وجعله أكثر ألمًا هو قسوة النظام على كلٍّ منّا؛ أنا وستيفن الذي كان بالكاد قادرًا على أن يتدبر أمر نفسه في المنزل، ورغم ذلك كان يقوم كلّ ليلة برحلة طويلة مملة باتجاه متنزه الملك King's Parade؛ ليتناول عشاءه في الكلية باستثناء إذا تمت دعوته إلى مكانٍ آخرَ، وكانت صديقتنا الأسترالية آنا يونغ Anne Young تحرص بدقة دائمة على مراقبة ستيفن من نافذتها حين مروره على الطريق المقابل لها، كذلك تابع زميل أو اثنين رحلته نحو المنزل.

كان روتيني اليومي مجهدًا حيث يتعين عليّ الذهاب إلى لندن صباحات الإثنين، لقضاء الأسبوع في ويستفيلد ومن ثم العودة في ظهيرة اليوم نفسه للحاق بالمسافرين مرة أخرى، كان القلق يقضمني في الطريقة ذاتها التي كنت أقضم بها أظافري في توترٍ ظاهرٍ، وأنا في طريق عودتي إلى كامبردج، بسبب ستيفن ودورة محاضرات نيكولاس بيفسنر Nikolaus Pevsner ليلة الجمعة الخاصة في فن العمارة لعصر النهضة التي كنا نرتادها أنا وستيفن، ينهشني القلق مع كلّ دقيقة تمرّ وأنا أحاول التخمين كم من الوقت سيمضي القطار في نفقه الطويل، محاولةً تجاهل أكبر مخاوفي من تفويت فرصة اللحاق بوسيلة الوصول في شارع ليفربول، وأضحت هذه الحالة كابوسي المسيطر لسنوات، كابوس بقائي عالقة في قطار الأنفاق تحت الأرض.

يستمر الضغط كفكي كماشة يطبق علي أنفاسي: الترجمة من وإلى الإسبانية، والمقالات والأوراق الفصلية الواجب إنجازها في موعدهاالزمني المحدد، والوقت الوحيد الذي أملكه لإنجاز واجباتي كان مساءً، حيث كانت عطلات نهاية الأسبوع مخصصة للتسوق والغسيل وأعمال المنزل وطباعة موضوعات بحث ستيفن التي كانت في أجزاء منها ما قام ستيفن بكتابته بخطٍ غير مقروء خلال الأسبوع، أما

الجزء الآخر فكان يمليه عليّ لكتابته جالسةً على مائدة طعامنا الجديدة وسط حجرة معيشتنا الفارغة.

بدأت دورات السكرتارية التي اتبعتها قبل المرحلة الجامعية تؤتي ثمارها، فقد كان الاختزال مفيدًا إلى حدٍّ ما في تدوين الملاحظات خلال المحاضرات، أما الطباعة اللعينة على الآلة الكاتبة فقد كانت هبةً من السماء في تقديم قوانين الخلق، نظرًا إلى المبالغ الكبيرة التي وفرتها مقابل الأتعاب التي كان علينا دفعها لقاءها، وكانت النظرة الأولى للأطروحة في كورنيل -بمعادلاتها وإشاراتها ورموزها وثوابتها وترميزها اللاتيني وأرقامها فوق السطر وتحته وأكوانها النهائية واللانهائية- قد سببت لي الكثير من الارتباك، لكن بما أنّها أطروحة علمية فقد كانت -والحمد لله- قصيرةً، أضف إلى ذلك شعوري ببعض الارتياح لمعرفة أنّ أصابعي تنقل بدايات الكون على الورق، فلا شكّ أن جميع هذه الأرقام والحروف والإشارات المرمزة التي تشرح أسرار اللانهاية العميقة والسوداء كانت شيئًا يبعث على الرهبة، على أنّ الاستغراق في ضخامة شاعرية الموضوع لوقتٍ طويلٍ أدت إلى نتائجَ عكسيةٍ، فهو يصرف التركيز عن كلّ تلك النقاط الصغيرة والرموز الهيروغليفية أعلى السطر وأدناه، والتي سيؤدي أي خطأ فيها إلى جعل بدايات الكون في حالة من الفوضى الرهيبة، وتغيُّرُ الترتيب الكليّ للكون.

لم يقتصر فخري على مساهمتي في كتابة الأطروحة فحسب، إذ إنّ لغة ستيفن الإنكليزية لم تكن مشوقةً للقراءة؛ كان كلامه يحتوي الكثير من التعابير؛ مثل: كما تعلم وَأقصد بذلك، ويُظهِرُ هذا الأسلوب بالكتابة قلةَ اهتمام باللغة الإنكليزية، وبما أنّني ابنة موظف مدني متفانٍ، فقد تعلمتُ مبكرًا استخدام اللّغة بشكل دقيق، بتقديرٍ عالٍ لوضوحها وغناها، وهنا كانت المساحة التي التقت فيها قدراتنا المشتركة بيني وبين ستيفن؛ لأساعده في صياغة الأفكار مع الحفاظ على مستواها الفيزيائي، ولأمد يد العون لسدّ الفجوة بين الفنون والعلوم.

كانت هناك جوانب أخرى لعطلة نهاية الأسبوع، كالذهاب لشراء أثاث إضافي في محاولة لتأثيث المنزل، أو الذهاب في رحلات لاكتشاف كامبردج ورؤية الأصدقاء؛ وفي

إحدى المرات أمضينا ظهيرة يوم سبت في محاولة لاتخاذ قرارٍ بشأن إمكانية تحملنا لتكلفة إضافية تبلغ خمسة جنيهات؛ لشراء ثلاجة أكبر من تلك التي وضعنا ميزانيةً أقل لشرائها، آخذين فيالحسبان أنّ الراتب الشهري لستيفن يبلغ مئة وأحد عشر باوندًا في السنة، في الوقت الذي كان مصروفنا الأسبوعي الذين ننفقه مقابل إيجار الشقة وأجرة مدبرة المنزل -غير واضعين في الحسبان المصروفات التي لا تحصى- هو عشرة جنيهات، ما يجعل أيّ خمسة جنيهات إضافية على مشترياتنا إنفاقًا ضخمًا لا مبرر له.

بعد ظهر الأحد، كانت جولاتنا مرهونةً بسيارتنا الميني العالقة في مجمع كراج كايوس، حيث يتيح إخراجها لنا فرصة الذهاب بجولة في كامبردج، لزيارة القرى والكنائس، وفي بعض الأحيان البحث عن منزلٍ مناسبٍ أو قطعة أرضٍ للشراء. وفي مرّات عدّة، انتهت جولاتنا قبل أن تبدأ؛ بسبب محاصرة الميني في زوايا المرآب، بين سيارتي بينتلي قديمة وروفرز بطريقة لا يمكن الفكاك منها، وهو ما يتطلب رافعة لإخراجها وإخراجنا من هذه الورطة؛ وذات يوم أحد، حالفنا الحظ في مناورة موفقة كُللت بالنجاح في إخراج الميني من المرآب، حاولنا بعدها القيام بزياراتٍ للأمانة الوطنية الملكية Local National Trust property والدير الإنجيلي Anglesey Abbey.

كانت مواقف السيارات على بعد نصف ميل من المنزل، فتطلب الأمر القيادة على طول شارع محاط بالأشجار إلى المدخل الرئيس، حاملين معنا الآمال الساذجة في أن نلقى ترحابًا لطيفًا وتعاطفًا مع الراكب المصاب بعجز جزئي في السيارة، لكن واقع الحال كان مخيبًا لتوقعاتنا، حيث طالعتنا وجوه فظّة تنضح لؤمًا لنُطرَد بعدها ونعود أدراجنا خائبين إلى المنزل؛ أفرغت جام غضبي على الورق في رسالةٍ احتجاجية شملت نقاطًا عدّةً، من بينها عدم وجود مرافق لذوي الحاجات الخاصة، والسلوكَ غير المحترم الذي قوبلنا به، كانت تلك الرسالة إيذانًا لي ببدء النضال لحقوق ذوي الاحتياجات الخاصة.

في أوقات الظهيرة من أيام الأحد، كانت الفرصة مواتية أيضًا للقيام بنزهات أو لتعزيز العلاقات الاجتماعية، لنزور أصدقاءنا المتزوجين في محاولةٍ منا للتشبث

بوهم أننا نحيا حياة طالب طبيعية وعفوية، عرّجنا على عدد من الأصدقاء، بعضهم يتجاوزنا سنًّا، وبعضهم الآخر كان قد رُزق بمولوده الأول، ونتيجةٍ لذلك وجدنا أنفسنا نغوص أكثر فأكثر في نمط الحياة العائلية، وهذا ما أسهم في تعزيز ذلك الشعور لديّ؛ افتتاني المرتبك بكوني عرابة اثنين من أولئك الأطفال.

فيما كان ستيفن منهمكًا في مكانٍ آخرَ حيث زملاء كايوس وجونفيل. قمت بمرافقة ستيفن ذات مساء سبت في أوائل شهر تشرين الثاني أكتوبر تلبيةً لاقتراح قسيس، حيث سُمح لي بمشاهدة الجلسة من الدور العلوي، دُعوت بينهم كمجرد زوجة في ردائها المنزلي مُنحت فرصةً نادرةً لتتناول الطعام على المائدة المرتفعة[1] High Table؛ كان جلوسي بينهم سابقةً لامثيل لها، حيث كانت القاعدة الراسخة في كليات كامبردج أنّ لا مكان للزوجات -الزوجات بشكل خاص- على المائدة المرتفعة، التي كانت حكرًا على الزملاء الذين صقلوا جوهر ذواتهم بالطريقة البديعة ذاتها التي يقوم بها بعض البشر، من خلال الإنفاق بسخاء على جمع الطوابع الثمينة أو سلالة من سلالات حمام السباق، أما الحديث فيما بينهم، فقد تناول التفاصيل الدقيقة والصعبة والمعقدة -كما هي حال مجالاتهم بطبيعة الحال- والتي بإمكانهم الخوض مطوّلًا بإسهابٍ في الحديث عنها، متجنّبين الحرج الذي قد يسببه مناقشة موضوعات لا يعرفون عنها الكثير؛ كانت العشيقات المحظيات هنّ البليدات، كذلك الزوجات السخيفات، فقد يتمكن الزميل من دعوة أي امرأة للعشاء شريطة ألا تكون زوجته، وغني عن الذكر أن غير المتخرّجات يوضعن جنبًا إلى جنب مع الزوجات في قائمة الممنوعين من الجلوس إلى المائدة العظيمة، ليأتي الخرق على يد قسيسٍ مرتدٍ قام دون علم سلطات الكلية بانتهاك القوانين المقدسة.

(1) المائدة المرتفعة: مائدة تستخدم للأعضاء والزملاء وضيوفهم في كليات أكسفورد، كامبردج وكلّيات ومعاهد أخرى في بريطانيا، وتوجد عادةً في نهاية قاعة العشاء على منصة مرتفعة، ويُرتدى خلال الجلوس عليها رداء أكاديمي رسمي. (المترجم).

بعد تنصيب ستيفن بمدة وجيزة، جاء حضوره الأول لاجتماع الهيئة الإدارية للكلية ليدرك ماهية الأمور في ذلك المكان، وليجد نفسه متورطًا بعمقٍ في سياسة الكلية. ووسط حيرته وجد نفسه في مسارٍ أقرب لمجريات رواية الأسياد The Masters للروائي الإنكليزي تشالز بيرسي سنو C.P. Snow، لتشابه الأحداث بشكل كبير مع فارق بسيط، يتجلى في كون الخلاف حول بعثات الماجستير في الرواية قد حدث في كلية السيد سنو في حين أن الأحداث التي كان ستيفن شاهدًا عليها تجري في كلية كايوس، كان الأمر بمثابة محاكاة الفن للحياة اليومية بسبل غير اعتيادية. اكتشف ستيفن بعد وقوع الحادثة بأن التهمة الموجهة للحائز على الماستر السير نيفيل موت Sir Nevill Mott هي استخدام منصبة لمصلحته الخاصة، وفي الوقت الذي كان من المستحيل معرفة ما يجري في الخفاء كانت الهيئة الإدارية في جلبةٍ من أمرها، عمّ الغضب وتراشقت الاتهامات. وفي عملية حسابية سريعة شعر ستيفن بأن أصوات الزملاء الجدد قد لا تأتي بالحسم؛ كونهم لا يملكون أدنى فكرة عن ماهية ما يجري ولماذا يصوتون، كان نمط تصويتهم تعسفيًّا لا محالة. وهكذا جاء خوض ستيفن في سياسات الكلية إلى نهايته الدرامية مع استقالة السيد بعد ظهر ذلك اليوم، وبعد عام من تلك الحادثة هدأ الهياج الذي أثارته هذه الأزمة على يد الأستاذ الجديد جوزيڤ نيدهام Joseph Needham الذي أرشد الكلية إلى طريق الاستقرار الذي افتقدته، على الرغم من أنّي وجدت به رجلًا مهذّبا، أما زوجته المتميزة دورثي فقد مدّت يد العون لي بطريقةٍ لا تقدر بثمن، حين أمّنت لي موطئ قدم في الأواسط الأكاديمية في كامبردج، وبقيت تلك المرأة المبهرة على الرغم من تألقها العلمي من أكثر الأكاديميين الذين قابلتهم في حياتي تواضعًا ولطفًا.

10
العطلة الشتوية

اكتسب ستيفن سمعةً مبهرةً كثمرةٍ لنجاح أطروحته حيث عُدَّ معجزة في ميدانه، وتعقيبًا على نيل ستيفن جائزة ادامز Adams Prize التي أخذها مناصفةً مع روجر بنروز في ذلك الشتاء، وذلك لمقالة له في الرياضيات بعنوان المزايا التفردية وهندسة الزمكان Singularities and the Geometry of Space-Time، أكّد لي دينيس سكايما Dennis Sciama المشرف على مقالته أنّ يقينه قد أصاب حين أدرك أنّ ستيفن يجمع في مستقبله المهني خصائص نيوتن، وأنّه سيفعل ما بوسعه ليشجع تقدّمه ما أمكن.

قام ذلك المشرف المتفاني بكل ما لديه من حماسة وإيثار بترشيح طلابه لوظائف بدلًا من أن يقوم بذلك لنفسه، مدفوعًا برغبته لفهم آلية عمل الكون أكثر من أي دافع شخصي آخر، وذلك عن طريق إرسال طلابه إلى المؤتمرات والاجتماعات سواء كانت في لندن أو في الخارج، بالإضافة إلى دفعهم إلى توخي الدقة وإرسال التقارير بكلّ منشور له صلة ببحوثهم، مغذيًا بذلك بحر المعرفة لديه ولدى الطلّاب، لينجح بذلك في رعاية جيلٍ من العلماء المميزين في كافة المجالات من كون، نسبية، الفيزياء الفلكية، الفيزياء النظرية التطبيقية، وعلماء الرياضيات. التمييز بين تلك المصطلحات المختلفة لم يكن بالأمر اليسير باستثناء تلك العناوين التي تختلف باختلاف عناوين المؤتمرات: حين يُدعَون إلى مؤتمر فيزياء فلكية يتحول الجميع إلى علماء فيزياء فلكية، وحين يصبح العنوان لذلك المؤتمر يتعلق بالنسبية يصبح جميع أولئك علماء نسبية، وهلّم جرا، مثل حرباء متلونة قام الجميع بالتنكر بالزي الذي يستدعيه حضور مؤتمر النسبية المُقام في لندن ذلك الخريف، ومن ثم سارعوا لخلعه في إطار التحضير للمؤتمر القادم لعلماء الفيزياء الفلكية في ديسمبر/ كانون الأول على شاطئ ميامي.

كان الوقت قد تأخّر بعض الشيء حين عَلم ستيفن أنّ الأموال المتاحة لكلينا للذهاب إلى ميامي قد أصبحت جاهزة. ساورني الشك بخصوص إمكانية أخذ إجازة من ويستفيلد رغم أن مدة غيابي لن تتجاوز بضعة أيام في نهاية الفصل، لكن المفاجأة السعيدة جاءت حين لم يبدِ البروفسور أيَّ اعتراض على تلك الإجازة.

انطلقنا إلى وجهتنا ظهيرة يوم كئيبٍ من أيام ديسمبر/كانون الثاني بعد انتظارٍ طويلٍ في مطار لندن ريثما ينقشعُ ضبابٌ كثيف، لنصل فلوريدا بعد حلول الظلام الذي لم يسمح لنا باكتشاف ما حولنا حتى حلول اليوم التالي؛ كانت غرفة الفندق التي أقمنا بها ذات إطلالة مباشرة على المياه اللازوردية الخلابة لشاطئ البحر الكاريبي، وبدا الأمر مثل استنشاق الأكسجين بعد اختناقٍ طويلٍ في ضغط العمل المتواصل تحت سماء لندن الرطبة الباردة. أين يبدأ الواقع وأين ينتهي الحلم؟ كان الوضع برمّته كالقيام بخطوةٍ وسط مكانٍ ذي أبعادٍ جديدةٍ مختلفةٍ.

ما ساعد على تغذية هذا الانطباع مساندة عناصر الطبيعة لنا، السماوات بزرقتها التي لا تشوبها شائبة، دفء الشمس الذي لم نعتده في لندن بطقسها الرطب الذي سبّب نوبات الاختناق التي كانت تزعج ستيفن بشكل متواتر أكثر فأكثر، إذ كان بحاجةٍ ماسةٍ إلى جوٍّ أكثر دفئًا في الشتاء كما نصحت شقيقته ماري.

أتاح اليوم الافتتاحي للمؤتمر فرصة استكشاف المكان حيث انضم ستيفن لزملائه الجامعيين لحضور الجلسات التمهيدية، وتُركت لفضولي في استقصاء ما حولي، حيث لفتني تصميم الفندق الملتف حول حوض السباحة، بدا لي المكان مألوفًا بشكل ملفت، ليتضح الأمر سريعًا، فالفندق احتضن اللقطات الافتتاحية لفيلم جيمس بوند الأصبع الذهبي Goldfinger، حيث تم تصوير مشهد الفتاة التي ماتت اختناقًا بعد تغطيتها بقناع الذهب من رأسها حتى قدمها.

كان فندق فونتينبلو Fontainbleau عبارةً عن هيكلٍ خرساني حديثٍ مع أرضياتٍ من الرخام، تغطي جدرانه لوحة زجاجية ضخمة ومرايا عملاقة. تم تجهيز الفندق وتأثيثه في كل ركن بأثاث على طراز لويس الخامس عشر.

لم يقتصر التناقض على مفروشات الفندق، حيث كان هناك تناقض من نوع آخر ظهر جليًّا بين موظفي الفندق بلباسهم الأنيق الذي بالكاد يبدو مريحًا، وبين أعضاء الوفد الذين لا يمتّون للأناقة بِصلةٍ بقمصانهم المفتوحة، وسراويلهم القصيرة وانتعالهم للصنادل؛ وفي واحدةٍ من المرّات قررت المغامرة بالدخول إلى قاعة المؤتمرات بنية حضور واحدة من المحاضرات، دُهشت في البداية لعدم تعرفي لأي من الوجوه الموجودة، بعدها لاحظت أنّ لباس أعضاء الوفد مختلف إلى أبعد حدٍّ مع الملابس التي ارتداها علماء الفيزياء على الإفطار في ذلك الصباح، البزّات السوداء مع ربطات العنق، والتي يرتديها أناسٌ بشعرٍ مصففٍ لامع ووجوهٍ حليقةٍ ناعمة، لم يلزمني الأمر أكثر من دقيقة استماع لأدرك أنّ هذا المؤتمر لم يكن إلا لمديري جنازات يهودية يسوّقون لمنتجهم وهو أكفان بلاستيكية قابلة للتحلل.

كانت وجهتنا التالية إلى أوستن في تكساس، تاركين بذلك شمس ميامي الصيفية لننتقل إلى الأجواء الخريفية؛ اشتهرت هذه البلدة في أواسط الستينيات بعد أن هللت الصحافة لها كونها مسقط رأس أحد ألمع علماء علم الكونيات جورج إيليس George Ellis، والذي سافر معنا من ميامي إلى أوستن مع زوجته سو التي جمعتني فيها مناسبة زفافنا؛ أتاحت الإقامة مع الزوجين إيليس أسبوعًا من الزمن فرصة التعرف إليهم بشكل أفضل، وصوغ بداية علاقة صداقة امتدت معنا مسيرة الحياة، رغم كل التقلبات العاصفة وشدائد الحياة التي واجهتنا. كان جورج نجل رئيس التحرير السابق لصحيفة ديلي ميل راند Rand Daily Mail المشهود لها بمقاومتها نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وهناك في جامعة كيب تاون Cape Town University كان لقاء جورج بسو وهي ابنة عائلة روديسينة عملت في الزراعة.

جمعت المعارضة الشرسة للفصل العنصري جورج وسو، ليصبحا منفيين سياسيين بملء إرادتهما من جنوب أفريقيا دون أن يفكرا مرّة أخرى بالعودة إلى هناك، في المقابل كانا يتمتّعان بطبائع مختلفة، ففي حين كان جورج انطوائيًّا كثير التأمل، كانت سو فنانة ونحاتة موهوبة جامحة منطلقة دون إفراط بالقوة التي كانت تطغى على سلوكها المرح والحسّاس في آنٍ معًا لحاجات الآخرين. كانت تلك الإنسانة ممتلئة

بالدفء والإبداع الذي سخّرته في عملها في مدرسة لخدمة الأطفال المحرومين بالقرب من أوستن. كان تلاميذ سو خليطًا من ضحايا أسرٍ مفككة، تعرَّضوا للاعتداء الجسدي، وتم إنقاذ بعضهم من الأحياء الفقيرة في شيكاغو؛ لتقديمهم إلى تكساس لإعادة التأهيل.

استطاعت سو أن تقدِّم الكثير لهؤلاء من خلال إبداعها المتميز الذي سخّر كل مادة لديها لصنع تحفة فنّية من أصغر ورقة، أو سلك معدني، أو حتى حفنة من أعواد الثقاب، كلّ تلك الأشياء كانت كفيلةً لأن تتحول بين أصابع سو إلى شكلٍ ما يعيد البسمة إلى وجوه أولئك الذين أجبرتهم الظروف على عدم الثقة بالكبار، لتكون هي الاستثناء الذي حصد محبة الجميع.

كانت سو الاستثناء وليس القاعدة بين زوجات العلماء؛ استطاعت أن تنشئ هيكلًا متميزًا لحياتها في ولاية تكساس، ولم يكن ذلك يعني للبقية شيئًا ذا قيمة، باستثناء مخطوطات ورسوم ماكس بيربوم[1] Max Beerbohm في مكتبة الجامعة والشوارع الممتدة، كشبكة تنتشر عليها المنازل الفاخرة في مشهد تسيطر عليه مضخات النفط المنتصبة برافعاتها الشبيهة بطائرٍ ذي منقارٍ أسودَ يومئ برأسه صعودًا وهبوطًا.

سيطر علينا شعور غامر بالعزلة عن بقية الحضارة في ذلك المكان الذي غدا فيه تلقي إشارة بث مذياع أمرًا خاضعًا للحظ، وقد عزَّز مرور الزمن من وقع العزلة. استغرق الوصول إلى لندن عبر هيوستن وشيكاغو عشرين ساعة بعد أن تقطَّعت بنا السبل لساعاتٍ بسبب الثلوج على المدرج.

بالرغم من طموحات ستيفن بالانضمام إلى مجموعة الفيزياء في أوستن، إلّا أنّ حادثةً لستيفن جعلتنا نحسم قرارنا بوضع فكرة البقاء في أمريكا خلف ظهرنا رغم مزايا مناخها الجنوبي، فقد تعرّض ستيفن لسقطة عنيفة عندما كنا في زيارة لأصدقاء عائلة إيليس بعد ظهيرة يوم أحد، وأدت هذه السقطةً إلى ظهور بقعةٍ من

(1) كاتب وفنان كاريكاتير إنكليزي اشتهر بأسلوبه الساخر. (المترجم).

الدم في أثناء سعال ستيفن؛ كانت أسوأ مخاوفه في حدوث تلف في الدماغ، ما جعله يصرّ على مضيفينا الهلعين لاستدعاء طبيب، كانوا محرجين من سقوط ضيفهم، لكن الإحراج الأكبر كان في استحالة استدعاء طبيب لزيارة منزلية، وبالأخص بعد ظهر يوم العطلة وإقناعه بالمجيء، وبعد سلسلةٍ طويلةٍ من المكالمات الهاتفية، تم وضعهم على اتصال مع طبيب عام ممارس، وافق -بصورةٍ استثنائية- على المجيء لتفقد ستيفن؛ عندما وصل الطبيب تلقى معاملة ملكية لقبوله المجيء ليجري بعدها الاختبارات اللازمة التي أشارت أنّ كل شيء على ما يرام.

سيطر ذلك الهلع علينا لساعات، ما جعلني أخلص إلى نتيجة أن أمريكا مكان جيد للأصحاء والناجحين، لكنّها ليست لنا، أو لأي شخص مناضل أوٍ عاجز أو للأشخاص الذي لا يد لهم في إعاقة اكتسبوها خلال الولادة أو المرض أو حادث ما؛ هذه البلاد جميلة المناخ لكنّها قاسية ومجحفة بحكم أنّ البقاء فيها للأقوى.

11
منحنيات التعلّم

كان وصولنا إلى إنجلترا من تكساس عشية عيد الميلاد إيذانًا بتغيير آخر في حياتنا، فبعد قضائنا الميلاد في سانت آلبانز، عدنا إلى كامبردج لاستئناف حياتنا وإقامتنا، لكن هذه المرة ليس في المنزل رقم 11 في سانت ماري بل في المنزل رقم 6. حدث الأمر حين قامت الداعمة المخلصة لنا ثيلما تاتشر بقرع الباب على المالك الغائب للمنزل 6 الذي تعود ملكيته للسيدة تيولن بورتر Teulon-Porter، وقد أبدت تاتشر استغرابها من تلك المالكة التي تركت منزلها فارغًا! أيّ عارٍ مطلق أن يبقى منزل شاغرًا في الوقت الذي نعاني فيه (نقص السكن الشبابي)؟ ما كان من السيدة تيولن بورتر إلا أن تلحق بأول حافلة إلى كامبردج من منزلها في شافتسبري؛ في استجابةٍ سريعةٍ للدعوة العاجلة من قبل ثيلما رغم الشكوك حول شخصيتها الغريبة؛ كانت السيدة تولين بورتر امرأةً متقدمةً بالسن بشعرٍ رمادي وبنيةٍ جسديةٍ رقيقةٍ وصغيرةٍ، قدمت إلى إنجلترا في العشرينيات من القرن الماضي، وقامت بشراء المنزل رقم 6 في ليتل سانت ماري، لتتزوج بعدها جارها في المنزل المجاور، تشاركت السيدة بورتر وزوجها الراحل شغفًا عاطفيًّا بالتاريخ والفلكلور، وكانت تربطهما علاقة وثيقة بمتحف كامبردج الشعبي، الأمر الذي شكّل إدانة لها من قبل السيدة تاتشر، في إشارةٍ إلى أنها تمتلك هوايةً غريبةً غامضةً، وتجلى شغف السيدة تيولن وزوجها الراحل بوضوح في أغراض المنزل: حجر روني[1] أنجلوسكسونيمن المرجح أنّ مصدره كنيسة ما، وقد تم دمجه مع الموقد، وباب هو شريحة محفورة في جذع شجرة دردار، وقطعة خشبية مقتطعة من عجلة عربة تم تحويلها من انحناءة مستديرة إلى كرسي ملتف بنصف دائرة،

(1) الحروف الرونية هي الأبجدية المستخدمة في كتابة مختلف اللغات الجرمانية قبل اعتماد الأبجدية اللاتينية. (المترجم).

وصندوق بوستليون صُنع من خشب البلوط، يعود إلى القرن الثامن عشر تم تعليقه على الحائط ليشكِّل خزنةً صغيرةً.

بدت السيدة تيولن لطيفة بما يكفي لنا والفضل يعود إلى مضيفتها في المنزل رقم 9 التي كانت بمثابة مدربة شخصية لها، أما منزل السيدة بورتر فكان رغم فرادة مقتنياته وعرض تلك المقتنيات بطريقة مثالية في أرجاء المنزل، إلّا أنّه تسبب بصدمة لنا ناجمة عن قتامته كما لو أنه سجن، ورائحته العفنة، أما الواجهة المبنية بالطوب الأحمر فقد دخلت عليها التجديدات الجصّية ذات الطابع الإدواردي، في حين كانت جميع الغرف الأمامية الثلاث تعود بتاريخها إلى القرن الثامن عشر؛ في المحصلة كان المكان يبدو ساحرًا إن تمكّنا من التغاضي عن الاتّساخ المنتشر في الأرجاء. وبالرغم من أنّ سلالم المنزل كانت ضيقة ومنحدرة لكنّها لم تشكل في تلك المرحلة أي صعوبة لا يمكن التغلب عليها، كما كان الفناء الخلفي للمنزل مطلًّا على ساحة قذرة محاطة بمنازل أخرى، وجدارٍ خلفي مرتفع بدا أنّه على وشك الانهيار بسببٍ انخسافٍ الأساسات وهبوطها بشكل سيئٍ للغاية، ما أدّى إلى انحدار زاوية سقف المطبخ وأرضية الحمام في الطابق العلوي بطريقة تدعو للقلق فعليًا، إلّا أنّ ذلك لم يظهر بالأمر الخطر للسيدة بورتر؛ ووفقًا للوحة على الجدار الخارجي للمنزل، فإنّ جون كلارك John Clarke هو العقل المدبّر لهذه القطعة الهندسية المثالية في عام 1770.

أسهمت مخيلتنا المبدعة ونهج السيدة تاتشر اللامنطقي في خلق شيء من اللاشيء، وجعل هذا المنزل المهترئ بمثابة منزل الأحلام، ليصبح الخيال حقيقةً أقرب إلى الكمال، كما صوّرته لنا: الغرف الأمامية المواجهة لمصباح الغاز الأثري، الاستمتاع بإطلالة كاملة على ساحة الكنيسة، تذوق الشاعرية الحزينة حتى في فصل الشتاء، نسب الطابق الأرضي التي تشوَّهت بسبب درج المنزل رقم 5، غرفتي نوم كانتا ملائمتين تمامًا لمتطلباتنا. وإمعانًا من السيدة تاتشر في تلوين الصورة القاتمة للمنزل الأثري أضافت: «أعزائي كل ما سيحتاجه هذا المكان هو طبقة من الطلاء وسوف تدهشان بما قد تفعله طبقة من الطلاء». أنهت حديثها بنبرة آمرة واثقة، وقد عزمت على ألا تفسد أمور تافهة -كجدار آيل للانهيار أو سقف مهترئ- مخططها المعقود.

وهكذا تمّ إقناعنا لندخل بعدها في مفاوضات مع المالكة؛ قدَّم ستيفن بجرأةٍ سعر 2000 إسترليني مقابل هذا العقار، وليس من المستغرب أن تقوم المالكة برفضه بانعدام حياء رامقةً السيدة تاتشر بنظرة فهي كانت تتوقع عرضًا مغريًا بقيمة 4000 إسترليني في السوق المفتوحة، بيد أنها وافقت بالسماح لنا البقاء مقابل أربعة باوندات في الأسبوع ريثما نحسم أمرنا برفع سعرنا للمبلغ اللازم للشراء، وفي غضون ذلك كنا شبه أحرار في ترميم المنزل بمفردنا وإعادة تزيينه وفقًا لإرادتها.

بدا الاتفاق مرضيًا لجميع الأطراف، استضافت بعدها السيدة تاتشر مالكة العقار السيدة بورتر في منزلها لتقوم بعملية ممنهجة بدعوتها لتناول العصائر، لنسمع في اليوم التالي أنّ السيدة تولن بورتر وافقت قبيل مغادرتها إلى شافتسبري على إجراء تغييرات في الفناء الخلفي للمنزل، مع السماح لنا بإعادة طلاء المنزل من الخارج.

كانت الظروف مواتية لتجديد المنزل بعد أن أعطت السيدة بورتر الإيذان ببدء عمليات الإصلاح والتجديد داخل المنزل قبل انتقالنا إليه، كما كانت أطروحة ستيفن الآن في خطوتها النهائية تنتظر تجليد دفّتيها ككتابٍ رسمي بعد أن قضيتُ عطلات نهاية الأسبوع السابقة في كتابتها؛ ويمكن الآن تكريس الوقت بأكمله لشن حملات طلاء المنزل، كان الأمر مجزيًا باستثناء قلقي المتعلق بواجبٍ يتحتم إنجازه في مكانٍ آخر: الدراسات الإسبانية التي يتعيَّن تنقيحها، ماعدا ذلك، انصب اهتمامي على المنزل الذي بدا بحالةٍ مزرية، ولم نستطع تحمل تكلفة إعادة تصميم المنزل بشكل احترافي، والخيار الوحيد هو تكفّل تلك المهمة بنفسي مسلّحةً بجيشٍ من الفراشي وإمدادات وفيرةٍ من مستحلبٍ أبيضَ لسد الشقوق؛ بدأتُ الهجوم على الأوساخ التي تعلو جدران غرفة الجلوس، وكانت نيتي أن أطلي أهم غرفتين -غرفة الجلوس وغرفة النوم الرئيسة، قبل الانتقال تدريجيًّا في الأشهر التالية إلى معالجة البقية- العلّية، السلالم، الحمام والمطبخ.

أجبرتني رائحة الطلاء على إبقاء الباب الأمامي مفتوحًا على مصراعيه، ما أتاح للزوار والمارين إبداء الإعجاب وعبارات التشجيع مع دعمي بأكواب الشاي الساخن، حتى إنه في إحدى المرات توقف السيد تاتشر في أثناء مروره بالباب الموارب مسترقًا

النظر إلى الداخل، ليهتف: «قد تبدين لوهلة مجرد كائنٍ هشٍ رقيقٍ، لكن أقسمُ بأنّك فتاة جبّارة!». ابتسمتُ بسعادة لهذا الإطراء من شخصٍ من قدماء المحاربين في الحرب العالمية الأولى ما زالت آثار ذلك الصراع باديةً على قسمات وجهه الهزيل، وبعد مرور أيام قليلة علمنا أنّ عائلة تاتشر قررت دفع نفقة عامل لطلاء سقف غرفة الجلوس على نفقتهم الخاصة: «هدية دافئة لجيراننا الجدد». كانت هذه طريقة السيدة تاتشر لوصف سخاء زوجها.

كان العامل الذي أرسلت به السيدة تاتشر للقيام بتلك المهمة هو نسخة طبق الأصل للبدين الذي أدّى شخصيته جون غيلغود[1] JohnGielgud، كان العامل فنانًا متقاعدًا يشغل وقته في الطلاء بعد أن كان يدير دار طباعة في شارع كينغ براد، هذا الرجل الودود الذي كان يجد متعةً في مراقبة محاولاتي الأولى في القبض على فرشاة الطلاء، استطاع أن يصبح معلمي الخاص، حيث سرعان ما اكتسبت منه العديد من الحيل، مثل بدء طلاء الجدار من الأعلى، أو مد الطلاء بحركات دائرية على السطوح غير المستوية، أو استعمال الحافة القاسية للفرشاة لطلاء إطار النافذة.

في تلك الأثناء كان ستيفن يتقدّم بشكل ملحوظ على الصعيد المهني، حيث بدأ يصعد سلّم الشهرة؛ في المقابل كان تعلّمي يُظهر ترنُّحًا في سلسلةٍ غير منتظمة من الصعود والهبوط، كانت الجرعات المكثفة من مواد القرون الوسطى واللغات الحديثة، وفقه اللغة والأدب بمثابة المحرك الذي دفع هذه السلسلة إلى الأعلى، أما ما جعلها تهبط نزولًا فكانت الدورة المكثفة في مهارات الديكور الداخلي أيام السبت.

في النهاية واجهتني بعض المصاعب خلال رحلة الطلاء حين استعصت مساحة من الجدار والسقف على فرشاتي، ما اضطرنا إلى التفكير جديًّا في دفع كلفة عامل طلاء لينفذ الجزء الأصعب في المنزل، ألا وهو المطبخ، حيث تراكمت طبقات من الدهون والأوساخ القديمة بقدم المنزل.

(1) ممثل ومخرج ومنتج بريطاني. (المترجم).

وكأنما وُجد هذا المنزل المتآكل ليجمع كلتا عائلتينا، قدم والداي وأخي كريس الذين انتقلوا للتو إلى منزلهم الجديد من كامبردج لمساعدتنا على ترتيب الطابق العلوي من المنزل، لينضم لاحقًا والد ستيفن انطلاقًا من رغبته في مد يد المساعدة بقضاء يوم من جولته العالمية في منزلنا منكبًا على طلاء حمامنا، فيما كنت أضع طبقات من الميناء لأخفي شقوق الحمام القديم، ليتحول المنزل المتداعي القادم من القرن الثامن عشر إلى جوٍّ أشبه بمكان إقامةٍ رائع، بما يبرر الآن قناعات ثيلما تاتشر حول هذا المكان، ولتصبح زوايا طوابق المنزل -نظرًا إلى الحالة التي كانت عليها- مثيرةً للإعجاب بعد تحوّلها المبهر؛ وكلّ ما بقي علينا هو إشغال تلك المساحة الشاسعة الفارغة بقطع الأثاث القليلة التي نملكها. قام عدد من زملاء ستيفن بتركيب أبواب الغرف الخمسة التي عُدلت بما يتناسب مع أبعاد أبواب المنزل الجديد، حيث لم يكن لدينا أدنى فكرة عندما اشترينا تلك الأبواب عن المكان الذي ستستقر به في نهاية الأمر.

كان ترميم البيت الجديد أشبه ببث الروح في كائنٍ ميت، ومبعثًا للفخر في نفسنا؛ وعليه، قررنا أنا وستيفن أنّ الوقت قد حان لزيارةٍ أخرى لأمين صندوق كايوس، خاصةً أنّ ستيفن بدأ يشعر بالثقة في مكانه في التسلسل الهرمي للكلية. وفي مطلع العام الجديد، كان الأمر أشبه بتحدٍ لاجتماع السيدات السنوي، حين تمت دعوة زوجات الزملاء إلى حرم الكلية بشكل رسمي لمأدبة العشاء، ليتم معاملتهن كما لو أنّ الأمر برمته محاولة للتعويض عن الازدراء الذي كنّ محاطاتٍ به لبقية العام.

كان أسقف شاكستون Shaxton قد ورث مبلغًا سخيًّا من اثني عشر شلنًا وستة بنسات في القرن السادس عشر كبدلٍ ماديٍ عن كلّ زميل اضطّر إلى قضاء عيد الميلاد في المنزل بدلًا عن الكلية، وإذا ما تمت معادلة هذا المبلغ للرأس الواحد وفق مصطلحاتنا الحديثة، فإنّه كافٍ لتوفير خمسة أو ستة أصناف فاخرةٍ لعشاءٍ شهيٍ مع كمياتٍ غير محدودةٍ من أفضل العصائر، بما يكفي الزملاء المشاركين وزوجاتهم.

عادةً ما كانت الوجبة تتألّف من حساء، طبق كركند، وجبة صغيرة غير محددة من طيور الصيد تقدَّم عادةً مع الرأس والأطراف -طبق ضخم من البودنغ إضافةً

إلى أنواع الجبنة الشهية، وبعدها بالطبع يأتي دور التحلية فتُقدَّم العصائر بأنواعها المختلفة التي تُقدَّم بالطريقة التقليدية بتمريرها حول المائدة بحركة عقارب الساعة.

كان الأمر برمّته رائعًا من الناحية النظرية، أما عمليًّا، سببت قاعات الكلية المعرضة للهواء في جعل وجبات الطعام باردةً قبل وصولها إلى طاولة المدعوين.

كانت تجربتنا الأولى مع أسقف شاكستون تجربةً باردةً بشكل حرفي، ويتعدى الأمر درجات الحرارة التي تميل إلى البرودة فيما يخص الطعام، والشراب، وحتى القاعة، كلّ ما في الأمر أن جلوسنا جاء ليكون على المائدة نفسها التي جلس عليها أمين الصندوق السابق، ذلك الذي قام يومًا برفضٍ عنيف لطلبٍ ملائم تمامًا للتوصيف الوظيفي الذي قدمه ستيفن قبل أن نتزوج، وكأن الأمرٍ لم يكن سيئًا بما فيه الكفاية ليأتي ما يسبب إزعاجًا مضاعفًا حين وُضِعت أماكن جلوسنا خارج السرب في نهاية المائدة.

بعد وجبة طعام تم تناولها في صمتٍ فاترٍ، ظهرت فرقة مسنين من الظلام لتبدأ برقصة فوكستروت بدت كأنها قادمةٌ من عصور ما قبل الطوفان، لم يسبق لي أن تعلمت الفوكستروت إلّا أنّي قمت بمحاولة بُترت بظهور فريق البيتلز الذي أنهى مغازلتي القصيرة مع الرقصة، لأتحول إلى وضع المشاهدة المتأمّلة مع إحباط كئيب سيطر علينا حيث هُجرت المائدة التي نفينا إلى نهايتها، بعد أن هجرها الحضور إلى حلبة الرقص، ليظهروا كمظلّات سوداء تلتف حول الحلبة، يديرون بالسلطة الممنوحة لهم زوجاتٍ خاضعات، في جولةٍ تُظهر بشكل حاذق ودقيق عرضًا لأقدام تم تدريبها وتزيينها بشكل ملفت، كنت آنذاك في الواحد والعشرين من عمري وسط مجموعةٍ من السيدات في الأربعينات والخمسينات إن لم يكن في الستينات والسبعينات، وهكذا تم زجّنا في ثقافة المسنين حيث لا مكان لجيلنا الذي تم تجاهله عمدًا في هذا المكان، كما لو أنه لا صلة له بالموضوع، وكان عزاؤنا الوحيد يكمن في أن كايوس بوصفها واحدةً من أغنى الكليات والقائمة على أسسٍ صلبة، قد تقرضنا بضعة آلاف من الجينهات دون وضع إشارة في حسابات الكلية. كنا ندرك جيدًا أن ليس هناك أيّ جمعية ستفكر في وضع المنزل للرهن العقاري، لكن ستيفن لم يثن من عزيمته لقاؤه السابق في مكتب

أمين الصندوق، بل ذهب أبعد من ذلك في اعتقاده أنّه من الممكن التقدّم بطلب إلى الكلية للحصول على قرض، وأن هذا سيمكننا من تحسين عرضنا للسيدة تولين بورتر مالكة المنزل. وفي حين كان ستيفن في مكتب أمين الصندوق، جلست انتظر في المكتب الخارجي محاولةً التطرق بحذرٍ لمسألةٍ حساسةٍ مع السيد كلارك؛ مساعد أمين الصندوق بشعره الأبيض المهيب وصدره الرحب الذي يفوق بأشواط رحابة صدر أمين الصندوق نفسه؛ بدأت حديثي عن طبيعة الشكوى، مستفهمةً عن السبب الذي دفع به لإرسال استمارات إلى ستيفن للحصول على معاش تقاعدي من الجامعة قبل أسابيع قليلة، إذ من البديهي أنّ فسحة ستيفن العمرية قصيرة جدًّا ما يجعل منه غير مؤهل في جميع الاحتمالات المطروحة؛ ألا ينطوي الأمر على شيء من انعدام الإحساس والرحمة في إرسال تلك الاستمارات إلى ستيفن؟ والذي كانت نظرة واحدة منه كافيةً لأن يزجي بنظره بعيدًا دافعًا إياها في إنهاكٍ من انعدام الحيلة، راغبًا في عدم التفكير في المستقبل الذي قد يتوق إليه الآخرون، لكن قُدّر له أن يرفضه.

لم تفلح شكواي في نزع أي شكل من أشكال الاعتذار من فم السيد كلارك، بل على العكس قام بإيماءة من رأسه كما لو أنّه غير قادر على فهم مشكلتي، ناظرًا إليَّ بعيونٍ زرقاءَ لامعةً يعلوها حاجبان أبيضان كثّان: «حسنًا أيتها السيدة الشابة، أقوم بما يُملى عليَّ فقط، وهو إرسال جميع الاستمارات إلى الزملاء الجدد، الذين بدورهم لديهم حقوق مستحقة للحصول على معاش تقاعدي، زوجك هو زميل جديد لنا، لذلك فهو يستحق معاشًا تقاعديًّا من الجامعة، تمامًا كالبقية، كل ما يتعيَّن عليه فعله الإمضاء على الاستمارات لإثبات حقوقه». كان صدى الكلمات مازال يرن في مسمعي حين أضاف قائلًا بعد برهة: «لا حاجة إلى إجراء فحوصات طبّية أو أيّ شيء من هذا القبيل، إن كان هذا ما تفكّرين به».

كان الأمر أشبه بمعجزة عصية على التصديق، بالكاد استطعت إدراك أنّ ذلك الشأن الذي لطالما، عن جهل، رُفضنا منه ضمنيًّا لأننا غير ملائمين له، هو الآن بكل بساطة متاح وكل ما يلزم الأمر لتحقيقه هو مجرد توقيع، وعلاوة على ذلك فإنّ

ذلك يضمن لنا أمرًا لم يكن أي منا أنا وستيفن قد فكرنا به من قبل، وأقصد بذلك الضمان.

وهكذا تراءى لنا هدف جديد في الحياة، ظهر فجأة ليضفي شعورًا مريحًا بالاطمئنان، كان ذلك الهدف هو الضمان. في عصر أحد الأيام قام ستيفن بإقناع أمين الصندوق بإرسال وكيل الأراضي التابع للكلية، وذلك لتقييم المنزل بهدف تأمين قرض، كنت حينها قد حصلت على حقوق ستيفن في نيل المعاش، مع القرض الممنوح لنا لشراء المنزل ومعاش ستيفن بدت لنا حياة الرفاهية قد بدأت تتأسس بدعامتين ثابتتين في عالمٍ متغيرٍ.

جاء الوكيل في صباح ربيعي مشمس توهجت فيه أزهار ربيعية صفراء انتشرت بوفرة في أرجاء ساحة الكنيسة، لكن آمالنا المتوهجة بدورها ما لبث أن ذوت وبُدّدت إلى غير رجعة، حين أعلن الوكيل ملخصًا عن التقييم المتوقع الذي وضعه للمنزل، تاركًا لنا ذلك الانطباع القوي بأننا هدرنا وقته باستدعائه لقضاء مثل هذه المهمة التي لا معنى لها.

كانت تعليقاته من قبيل: هل بإمكاننا تجاهل تداعي الجزء الخلفي للمنزل؟ وكأن هذا الأمر غير كافٍ لتأتي احتمالية واضحة لخطر اندلاع حريق في علية الطابق الثالث. وأضاف بأنه لن يخاطر حتّى بالنوم هناك، ولا حتى تقديم المشورة لأحد بالقيام بذلك، ليس من الصواب في شيء شراء هذا المنزل الهرم حسب رأيه. وعلى كل حال، هناك العديد من مخطّطات إنشاء الطرق في المستقبل القريب، وبأنه لن يفاجئ في حال تم هدم حي بأكمله لإفساح المجال أمام طريق جديدة من الغرب إلى وسط المدينة، لينهي حديثه بأنّه من غير الممكن أن يوصي بهذا العقار كاستثمار للكلية.

أثار ذلك الحكم الذي يتّسم بقصر النظر استياء ستيفن، على أنّ احتجاجاته العنيفة لم تحل دون قبول أمين الصندوق لتقرير وكيل الأراضي؛ في وقت لاحق على تلك الحادثة، كنا نقود سيارتنا بالقرب من مكتب وكيل الأراضي على الجانب الآخر من المدينة، لم يكن بإمكان ستيفن أن يكبح سخطه حينها، همهم بغضبٍ مشيرًا إلى

المبنى: «على غرار منزلنا»، وهناك حيث أشار كان منزل الوكيل يرتفع حتى ثلاثة طوابق لكن على مستوى أكبر، بما يقارب عشر أقدام أعلى مما لنا، استعمل الطابق الثالث من المنزل بوصفه مكتبًا أو مكانًا للدراسة كما هو واضح من الإضاءة الظاهرة. علاوةً على ذلك، كان السقف الجملوني المطلي باللون الأبيض ومعه الإضافات الخشبية الظاهرة قد تحدَّب وانحنى بصورة مبنى متداعٍ من القرن السادس عشر، ما جعل من منزلنا الصغير القادم من القرن الثامن عشر يبدو عصريًّا تمامًا أمام هذا المنزل، لم يكن لدينا حل فوري لتلك المشكلة، ربما باستثناء توفير النقود ما أمكننا لرفع وديعة الرهن العقاري على منزل أحدث.

مع مرور الأيام، تحسَّن النظام المعمول به، وتحسَّن معه وضع ستيفن حيث حصل على المال من خلال الراتب والتعليم ومنافسات المقالات، فيما كنت أعمل بالاتجاه المعاكس للمناخ الوطني السائد المدعوم من قبل حكومة ماكميلان Macmillan، والذي يميل للإسراف المتهور حيث حضَّرت ما يدعم الموارد المالية للأسرة، دفعت الفواتير المترتبة علينا، وادّخرت ما استطعت من خلال تدبير شؤون المنزل وحاجاته بحرصٍ شديدٍ؛ جاءت شرائح لذيذة من اللحم المقدَّد بسعر شلن ونصف من محلات سينسبري القديمة، برفوفها الرخامية وطوابيرها التي لانهاية لها، وكبد البط من محلات سينت للحوم الدواجن كانت مغذية ورخيصة، ومع تكرار التجربة أثبتت السوق وفرة حقيقية من الفواكه الطازجة والخضراوات، وفي معرض بحثي عن عروض مغرية قدّم لي جزّار محلي تخفيضات على اللحوم، حيث ابتعت من عنده لحم الضأن الذي لم يكلفني أكثر من خمسة شلنات، والذي قدّمته على مائدة العشاء مرّات عدّة مستمتعين بها أيما استمتاع مع الأصدقاء من الكلية والقسم.

ورثت حكومة حزب العمال المنتخبة عام 1964عن المحافظين تراثًا مشبوهًا لدولة تُشارك في عملية ضخمة لهدر الأموال وتبذير الثروات؛ في ربيع عام 1966، وبعد أن مارست حقي في التصويت للمرّة الأولى، انضممت إلى الحشود في وقتٍ متأخرٍ من الليل في ساحة السوق؛ لأرحب بنجاح مرشح حزب العمال في الانتخابات المتكررة الذي دعا إلى زيادة الأغلبية الحكومية. المؤسف أن النائب الجديد؛ روبرت ديفيس، توفي

وهو في منصبه، مكبّلًا بالمشكلات الاقتصادية المتصاعدة، والاضطرابات المتكررة، والانشغال المستمر في ميزان المدفوعات؛ كانت مفردة أزمة هي الكلمة الاقتصادية الرنانة التي طغت في الستينيات لتهيمن على نشرات الأخبار الرئيسة أكثر من أي وقت مضى، ومع ضعف العملة كان على بريطانيا التخلّي عن دورها بوصفها قوة عالمية، في حين طغت الحرب الفيتنامية على المشهد الدولي بالإضافة إلى تصاعد حدّة التوتر في الشرق الأوسط لمواجهة القوى العظمى التي من شأنها أن تطلق العنان لترساناتها النووية لدى الجانبين.

في خضم الفوضى الاقتصادية وجد ستيفن وسيلةً لكسب المزيد من المال، فطالما راوده حلم دراسة الرياضيات في أكسفورد، لكن الحلم لم يترجم إلى واقع؛ لمعارضة والد ستيفن التي بررها بأنّ الفرص العملية في مجال الرياضيات تكاد تكون معدومة؛ أدرك ستيفن أنّ والده أصيب بخيبة أملٍ لعدم إعطائه مجال الطب أي فرصة، ليتهادن لاحقًا بقراره ويوافق على دراسة الفيزياء؛ وعندما جاء إلى كامبردج بصفته طالب الدراسات العليا، كان قد حصل فقط على الأساسيات في الرياضيات، فضلًا عن أنّه كان يعمل مع روجر بنروز، وهو نابغة يُضرب به المثل في الرياضيات، لم يجد ستيفن نفسه في وضع مناسب، لكنّه عوَّل على الحصول على راتبٍ بتعليم نفسه الرياضيات من خلال الإشراف الجامعي على طلاب ما قبل التخرج في كل من كليتي جونفيل وكايوس، وهكذا دأب على العمل بصورةٍ مطّردة من خلال انكبابه على منهج تريبوس Tripos في الرياضيات، ومن الغني عن الذكر أنّ ستيفن فاق كثير من طلّابه الذين افتقروا للتطبيق، الأمر الذي أحبطه، كما أشار في تقارير نهاية الفصل التي أملاها عليّ لكتابتها. فضلًا عن أنّه قام بالتحضير لبعض المحاضرات الجامعية في الرياضيات مع براندون كارتر Brandon Carter، ولاسيما تلك الدورة التي قدَّمها العبقري الحائز على درجة الماجستير السير ويليام هودج Sir William Hodge. كان الحاضرون لتلك الدورة التدريبية يغادرون تدريجيًّا ليبقى من الحضور ثلاثة مستمعين أوفياء، ستيفنوبراندون وزميل آخر يُدعى راي ماكلين Ray McLenaghan، لكنهم شعروا لاحقًا بالأسف لعدم فرارهم مع البقية، على أنّ هذا بدا صعبًا في ظلّ أن غيابهم سيصبح أمرًا واضحًا في تلك القاعة الفارغة، مما اضطرهما للبقاء فيها.

في السنة النهائية لي في لندن، عانى زوج عمّة ستيفن هيرمان هاردنبيرغ Herman Hardenberg –وهو طبيب نفسي في هارلي ستريت– أزمة قلبية، ليدخل بعدها مستشفى سانت جونز وود، اعتدت بعد انتهاء محاضراتي أن أعرّج عليه؛ كان هيرمان رجلًا دمثًا ساحرًا إلى جانب كونه رجلًا مثقفًا ومتحدثًا بارعًا يشاركني الميول الأدبية في بعض الموضوعات ولاسيما قصائد شعراء المتجولين باللغة البروفنسية[1] Provençal، وكانت هذه القصائد موضوع بحثي في الفصل النهائي، وكان قد تلا على مسامعي أبياتًا من قصيدة رمز المحبة للكاتب والباحث الإيرلندي سي أس لويس C.S. Lewis، ليتناول بطبيعة الحال التوتر الكامن في الأبيات التي تتحدث عن توق الشاعر العاشق لمحبوبته الصعبة المنال من وجهة نظر نفسية.

أخبرته عن حياتنا في كامبردج، وجهودنا المبذولة لإصلاح المنزل؛ وذات مرة سألني بحذر: «هل يحسنُ آل هاوكينغ التعامل معك؟». كان سؤاله ينطوي على عدم ثقة بتلك العائلة، ليأتي جوابي واثقًا مهدّئًا من مخاوفه ولو على حسابي، فقد كانت عائلةً غريبةَ الأطوار، تحيا في عزلةٍ اقتناعًا منها بتفوقها الفكري الذي يميزها عن بقية الجنس البشري، وكانت العائلةُ معروفةً على نطاقٍ واسعٍ في سانت ألبانز، حتى إنه كان يُنظر إليها بمزيج من الشك والرعب، وقد اختبرتُ هذا بنفسي إذ رافقت أجواء الخطوبة والزواج متاعب ونوبات غضب وسادت أجواء المناسبتين توترات عددتها جزءًا من الإطار العام لحياة هذه العائلة. أخبرت هريمان بأنّه لم يكن لديّ أي سببٍ وجيهٍ لأتذمر وأشتكي من الطريقة التي أعامل بها، فهم في الواقع يرحبون بي بسرور وحرارة عند رؤيتنا أنا وستيفن.

(1) ينظم الشعراء المتجوّلين قصائد تجمع الشعر بالموسيقى باعتماد اللغة البروفنسية المحكية في إحدى مناطق الجنوب الفرنسي. (المترجم).

12
نهاية متواضعة

مع اقتراب فصل الصيف، بدأت كرنفالات الألوان والعطور في ساحة الكنيسة المجاورة لمنزلنا، أشجار ونباتات تتنافس في سباق جذب أنظار السكان والمارة أو مجموعات متتالية من السياح لاسيما الأميركيين، الذين يحلو لهم التسكع في الحي ليقوم بعض الفضوليين منهم باستراق النظر، ضاغطين بأنوفهم على زجاج النوافذ في محاولة لرؤية الداخل من خلال الستائر. لكن في الجوار لم يكن الجميع خاضعًا لتأثير الجمال المحيط، وأذكر تأكيدًا لذلك صبيًّا صغيرًا أعلن بصوت جهوري لوالديه في أثناء تجوالهم: «لا أرغب بالعيش هنا، قد يظهر فجأة شبح ليخطفكما!».

في خضم الجمال المحيط بنا لم أستطع أن أجيز لنفسي الانغماس كليًّا، وباستثناء احتفال صغير مقتضب قمنا به على شرف نيل ستيفن للدكتوراه في شهر مارس/آذار، فإنّ كلّ لحظة ثمينة إضافية تم استغلالها في مشاغلي التي لا نهاية لها -التنقيح في مكتبة الكلية في لندن خلال الأسبوع، أو الغرق بين أكوام الكتب المكدسة من حولي في علية منزلنا في كامبردج في عطلة نهاية الأسبوع، أو قضاء عطلة عيد فصح هادئة في سانت ألبانز برفقة والداي.

على الجانب الآخر كانت أسرة هوكينغ تعاني بعض الضيق، إذ دخلت شقيقة ستيفن الصغرى فيليبا المستشفى في أكسفورد لأسبابٍ لم تكشف لي، شاركت ستيفن قلقه بشأن شقيقته، مبدية رغبةً صادقةً في زيارتها، يحذوني أمل ساذج بأن نتمكن ذات يوم من تسوية تلك الاضطرابات الغامضة غير المفهومة بيننا.

كان حبّي لستيفن يجعلني أنشد علاقةً جيدةً مع عائلته، لأحبّهم ولأكون محبوبة من قبلهم، لكني لم أتمكن يومًا من فهم السبب الكامن خلف صعوبة هذه العلاقة.

ذات يوم كنّا على موعد مع زيارةٍ لعائلة ستيفن، لكن المفاجأة جاءت حين أعلنت والدة ستيفن بعبارات لا لبس فيها مفادها أنّ فيليبا ترغب في رؤيته فقط، من دوني، موضحةً أن لا أحد، ناهيك عن فيليبا يريد أن يخلّ «بهذا الشيء (يفترض أن هذا الشيء هو زواجنا) بينك وبين ستيفن». لم يقم ستيفن بأي محاولة للتخفيف من وقع تلك العبارة الفظّة، في تلك اللحظة كنت على وشك الذهاب إلى منزل والداي للانخراط في البكاء، لكن سيارة الفورد القديمة خذلتني لأجد نفسي في انقلابٍ مفاجئٍ لمجرى الأحداث أقود سيارتنا الميني مصطحبة إيزابيل وستيفن إلى أكسفورد.

وبينما كان الجميع في زيارةٍ للمستشفى، أمضيتُ مدة ما بعد الظهر في غرفة الانتظار غارقةً في عوالمي الخاصة، أقوم بتنقيح القصيدة الملحمية الرائعة القادمة من العصور الوسطى والمبنية على مآثر بطل في منفاه، قصيدة El Cantar de mio Cid وهي أنشودة السيد[1].

يمضي الوقت سريعًا وأزداد انغماسًا في قصيدتي التي تستعرض معالجة نفسية متقدمة في أواخر القرن الثاني عشر؛ حيث تتداخل الأحداث ببراعة في نسيج القصيدة التي تحمل موضوعين رئيسين: الصورة العامة للمحارب الذي لا يُقهر والوجه الخاص للزوج والأب المخلص، وعند مغادرة سيد إلى منفاه يصف الشاعر محنته في فراق أسرته بأنّها «انتزاع الظفر من اللحم». لاحقًا يوثّق الشاعر محاولات البطل الخارق للعادة التي يساء فهمها من قبل أقارب زوجته الذين انقلبوا ضده؛ هذه القصة الملحمية أشبه بصوتٍ بعيدٍ يهمس لنا عبر القرون عن غموض العقل البشري وعدم إمكانية التكهن به، ورغم أن الأحداث تعود للقرن الثاني عشر، فإنّ هذا التباين المؤثر بين الحياة الشخصية للبطل وبين صورته العامة عُدَّت بوصفها مفهومًا أصيلًا.

في طريق عودتنا من أكسفورد، لم ترد أي إشارة للحادثة التي جرت في الصباح، كان هذا بمثابة تقليد عائلي تمامًا كإخفاء الأتربة والغبار تحت السجادة وكأن لا أثر

(1) بالإنكليزية (the poem of the cid) وهي أقدم قصيدة ملحمية قشتالية، عن قصة حقيقية لبطل قشتالي يدعى (el cid). المترجم.

لها، كانت عائلة هوكينغ تخفي المخلفات النفسية والبقايا العاطفية بعَدِّها أمرًا تافهًا لا يستحق أي حسبان، ومن شأنه أن يخلخل الغلاف الجوي؛ حيث إن الأمور العاطفية غير قابلة للنقاش أبدًا بسبب التهديد الذي قد تمثله لذكاء أفراد الأسرة.

لذلك فُوجئت بتلقي رسالة من فيليبا كُتبت بخطٍ ضئيلٍ قبل بدء الامتحانات النهائية، أعربت فيها عن أسفها للخلافات التي قد تسود بيننا في الوقت الذي تتطلع به إلى علاقات أفضلَ في المستقبل، مؤكدةً لي أنها تحترم رغبتي «لمحاولة حبِّ ستيفن». وعلى الرغم من استجابتي الصادقة والحارّة لتلك الرسالة التي عددتها غصن زيتون، شعرت بالحيرة الشديدة إزاء تلك الملاحظة التي أبدتها والدتي نقلًا عن إشاعات وصلت إلى مسامعها حول أنّ عائلة هوكينغ يفكرون بالانتقال إلى كامبردج لإعداد منزل لستيفن هناك، لتسألني بسخطٍ متأثرةً بتلك الشائعة، إن كانوا لا يتوقعون لزواجنا أن يصمد للنهاية.

شعرت بحيرة جراء تلك التصرفات التي تجري في الخفاء، غير قادرةٍ على فهم لماذا بدت عائلةً ستيفن دونًا عن الجميع عازمةً على تقويض علاقتنا وسعادتنا، خصوصًا عندما كُنتُ الركيزة التي يعتمد عليها عالم ستيفن اليومي.

كما لو كنّا ندحض الشكوك، ازددنا تقرّبًا أكثر من أي وقت مضى في الأسبوع الذي سبق الفصل النهائي. قدَّم لي ستيفن الدعم المعنوي بمجيئه إلى لندن، في حين انكببت في العمل على النظريات الأحادية، منغمسةً من حين إلى آخر في ترجمات روائع الأدب الإسباني -من بينها لاثلستينا La Celestina، رائعة فرناندو دي روخاس[1] Fernando de Rojas التي تعد نموذجًا أوّليًّا عن روميو وجولييت مع المسنّة سيلثتينا Celestina، وهيّ واحدة من أكثر الشخصيات المتعة في الأدب الإسباني في القرون الوسطى- وذلك في أثناء خروجي من قاعة الامتحان كل صباح، وفي جلسة ما بعد الظهر، كنا نتوقف في متنزه هامبستيد هيث Hampstead Heath أو نعرّج على الحدائق أو بيت كينوود

(1) كاتب مسرحي إسباني وهو مؤلف لاثلستينا وهي دراما تراجيدية كوميدية تتكون من 21 فصلًا، وتعد من أعظم كتب الأدب الإسباني. (المترجم).

house of Kenwood؛ لنيل قسطٍ من الراحة والاسترخاء والتخلص من تشنج الكتابة والانقباض الذهني.

زُرنا أيضًا أحبَّ الأشخاص إلى قلبي؛ العمّة الكبرى إيفي Effie التي لاتزال تتمتع بحيوية لافتة رغم سنواتها السبعين، وتحيا بمفردها في منزلها الكبير في توفنيل بارك Tufnell Park.

وفي حلول نهاية الأسبوع ومع اقتراب الامتحانات من نهايتها، كنت أقرب من أي وقت مضى من بلوغ هدفي، لكن ولسبب ما تملّكني إحساس هائل بالفتور، فمع تنقيح موضوعات ستيفن تبيّن لي أنّها كانت محيّرة إلى أقصى حدود، وكنت على علم بأنّ أول ما قد يتبادر للذهن بشأن أي شخص يحمل اسم هوكينغ إثبات أنّه محيّر تمامًا.

ومع النفس الأخير لقلمي على الصفحة الأخيرة من ورقة النهائيات الأخيرة، ودّعت أيام الدراسة إلى غير رجعة، وفي تلك المدة جاءت أسطوانة البيتلز، ريفولفر Revolver التي أهداني إياها ستيفن في عيد ميلادي هديةً مجرّدةً للأسف من أي معنى.

جاء الوداع باردًا وسريعًا، لا مظاهر احتفالية من أي نوع، مجرد وداعات سريعة جاءت قبل أن أخطو بشكل نهائي إلى الضفّة المقابلة لكينونتي الجديدة. انطلقنا في السيارة لتلبية دعوة روجر بنروز لتناول العشاء في منزله في ستانمور Stanmore، توقفنا في محطة ليكشف روجر على سيارته الفولكس فاجن الطاعنة في السن، ولم تثنه المفاجأة عن متابعة الطريق حين وجد العجلات فارغة من الهواء! ليدفع بسيارته إلى مرآب عند الزاوية حيث قام بضّخ الهواء في كلّ منها.

كان المنزل بطابقٍ وحيدٍ في نهاية طريقٍ مسدودٍ يقع في عزلةٍ تامةٍ بعيدًا عن بقية المنازل المجاورة، اُستقبلنا بترحاب حافلٍ من قِبل جوان وابنيها الصغيرين، كريستوفر وتوبي، الذي كان صغيرًا جدًّا في المرة الأخيرة التي رأيتها به في كورنيل الصيف الماضي، والآن بعمر ثمانية عشر شهرًا يتحرك بنشاطٍ بالغ، يذرع غرفة المعيشة جيئةً وذهابًا معلنًا عن بهجته بقدومنا ممسكًا بأحد يديه البِسكويت تاركًا

وراءه فتات الطعام عبر السجاد الأزرق الداكن، ليتحوَّل بعدها إلى كرسي بذراعين، بدأ بتسلقه صعودًا ليصل إلى ذراع الكرسي ومن ثم القفز؛ انخرط روجر مع ستيفن في مناقشة لا مفرَّ منها في رياضيات الفيزياء سعيدًا وغير مبالٍ بمثل هذه التصرفات الغريبة للطفل.

جاءت نتائج النهائيات أفضل مما توقعت، لم تكن بالنتيجة المذهلة لكنها جيدة بما يكفي للسماح لي ببدء العمل على نيل الدكتوراه؛ ومن مشاهداتي لسير الحياة في كامبريدج كان جليًّا أن دور الزوجة -وربّما الأم أيضًا- كان بمثابة تذكرة ذهاب من غير رجعة إلى المجهول، كان ذلك الدور جوهر وجودي، وقد تم تجاهل مواهب العديد من الزوجات الجديرات، وازدراؤهم من قبل النظام الجامعي الرافض للاعتراف بقدرة الزوجات والأمهات على خلق هويةٍ فكريةٍ خاصةٍ بهن، وحدث هذا حتى في ظل تحركات تسمح للمرأة بالدخول إلى بعض الكليات اللامعة التي لطالما احتكرها الرجال.

جاءت نهاية رحلتي الأسبوعية إلى لندن بسرعة، فقد أصبح ستيفن بحاجة مساعدتي أكثرَ فأكثر، كنت الكتف الذي يتّكئ عليه حرفيًّا ومجازيًّا أينما ذهب، في كل صباح كنا نذهب في جولة حول القسم، لأرافقه للمنزل لتناول طعام الغداء، والتي -مثل كل وجبة أخرى- يجب أن تتكون من اللحوم واثنين من الخضار لتلبية شهيته الهائلة.

أصبحت الأفكار التي راودتني بما يخص وظيفة في وزارة الخارجية جزءًا من الماضي، حتى وظيفة بسيطة أو دورة تدريبية للمعلمين كانت فكرةً غير واردة، بعد أن اقتصر وجودي بشكل ثابت وواضح في دائرة صغيرة تنحصر بين قسم الرياضيات التطبيقية، ليتل سانت ماري، والمطبخ. في ظل هذه الظروف بدت الدكتوراه الحل المثالي في وضعي الراهن، حيث كان بإمكاني التكيّف بسهولة مع ساعات الدراسة في مكتبة الجامعة بالموازاة مع عملي في المنزل بما يتناسب مع جدول ستيفن.

فضلًا عن ذلك، كنت مؤهلةً للحصول على منحة الطالب التي كانت موضع ترحيب؛ شدني أدب العصور الوسطى كمجالٍ للبحث، لكن بسبب ظروفنا التي لن تسمح لي بالسفر إلى المكتبات البعيدة بحثًا عن المخطوطات القديمة، وبسبب عم توقعي تحرير نصٍّ غير مكتشف حتى الآن، فقد وجب أن يأخذ بحثي شكل دراسةٍ نقديةٍ باستخدام نصوصٍ منشورةٍ سابقًا، وهو ليس بالأمر الصعب بالنظر إلى المرافق والتسهيلات الموجودة في كامبريدج.

من ناحيةٍ أخرى واصلت تسجيلي بصفتي طالبة في جامعة لندن لأسباب عدّة، لعلّ أكثرها إقناعًا خضوع الدكتوراه في كامبردج لمهلةٍ زمنيةٍ صارمةٍ تمتد لثلاث سنوات، في حين لم يكن هناك أيّ قيود مفروضة من هذا القبيل على الشهادات نفسها في جامعة لندن، ويبدو أنه من غير المرجَّح تكريس نفسي بشكل دائم لأطروحتي.

لم أشرع في العمل على الفور في مجال بحثي المختار، وهو الشعر الغنائي في القرون الوسطى في شبه الجزيرة الإيبيرية the Iberian Peninsula ويعود الفضل إلى ستيفن، حيث لَمَع موضوع آخر كورقة بحثية أوّلية، توَّلدت الفكرة نتيجة لقراءة لاثلستينا خلال مدة امتحاناتي، حيث ألهمني ستيفن بتلك الفكرة على طريق عودتنا إلى كامبردج في أسبوع الامتحانات النهائية حين استرسل أمامي بأفكاره: ألم يعجل رفض الطاعنة سيلثتينا لشخصية بارمينو في الفاجعة الرهيبة التي تتجلى في مزيج الموت والدمار واليأس، وهو الشاب الذي يعاني عقدة الأم تجاهها؟

نالت الفكرة موافقة المشرف وسط دهشته التي ازدادت حين اعترفت له أنّ الفكرة تعود لستيفن؛ أخذتني الدهشة أيضًا ممزوجة بإعجابٍ بمقدراته الإدراكية وحسّه الإبداعي، والتي كانت تخوِّله للتركيز على جوهر أي معضلةٍ تواجهه في أي مجال كان، بما يشملني أنا. كانت مهمتي ترتكز في الإبحار عميقًا لاكتشاف الفكرة وتطويرها، وتسويغ مفهوم فرويد بعد مطابقته على النص الذي يعود تاريخه إلى عام 1499؛ وفي خضم أجواء العمل على هذا المشروع كان ثمّة جانب مضيء آخر أثلج صدري وهو انسجامنا، وكأن العمل جاء تكريمًا لنجاح علاقتنا التي كان الوئام يسود أجواءها رغم جميع محاولات تفريقنا، حافظنا على نسيج علاقتنا متينًا من خلال دعمنا

لبعضنا، وتشاركنا في اهتماماتنا رغم تباين مجالات دراستنا ورغم الصعوبات التي لا مفرَّ منها نتيجة العجز المتفاقم لدى ستيفن؛ كنا سعداء جدًّا؛ مددنا بعضنا بالثقة والشجاعة القادمة من قوة عزمنا المشترك، من ثقتنا المتبادلة، وفي أوائل الخريف اكتشفنا أنني كنت أنتظر مولودًا.

13
مدارات الحياة

بعد مدة وجيزةٍ من تأكيد الحمل، جاء خبر حزين لأمر قدري لا مفر منه: رحيل جدّة والد ستيفن؛ السيدة هوكينغ الكبرى التي كنت قد تعرفت إليها قبل شهر واحد فقط عن عمر يناهز السادسة والتسعين، في الوقت الذي كان والدا ستيفن في جولةٍ رسميةٍ في الصين في ذروة الثورة الثقافية.

في آب من تلك السنة، قمنا برحلةٍ إلى الشمال لزيارة أقارب مسنين مع ستيفن ووالدته وإدوارد، حينها تعرّفت إلى إيزابيل؛ العمة المسنة التي تقطن في أدنبره، وفي رحلة عودتنا تسنى لي تعرّف مسقط رأس عائلة هوكينغ في بورجبريدج Boroughbridge في يوركشاير حيث قضينا ليلتنا هناك.

في أوائل القرن التاسع عشر، بنى الجّد الذي كان وكيلًا لدوق ديفونشاير القصر الكبير، وقام أيضًا بتعديل اسم العائلة من 'awkins' المبتذلة بعض الشيء إلى 'Hawking' الأكثر رقيًا. شَهد منزل العائلة هوكينغ تشاتسوورث The Hawking Chatsworth بأدراجه الملتفة، وسقوفه العالية ونوافذه العريضة أيامًا أفضل؛ كانت العمة المسكينة موريل تدير شؤون هذا المنزل الكبير بمفردها رغم إعاقتها وفي الوقت ذاته حافظت على كونها الأم الآمرة. لم يتبقَّ من شخصية السيدة هوكينغ إلا ظلال خافتة، لكن لم يكن من الصعب تبيّنها في وجهها الذي تشي تجاعيده بالصبر والثبات لامرأة ربّت خمسة أطفال وأنقذت عائلتها من الإفلاس. كانت تسكن في غرفة المعيشة وهي الغرفة الوحيدة التي لاتزال صالحة للسكن، أما بقية حجرات المنزل بما فيها حجرتنا، فقد كانت باردةً ومظلمةً بجوٍّ رطبٍ ثقيلٍ رغم جهود العمة موريل لجعلها ملائمة ومريحة.

قام إدوارد الشقيق الأصغر لستيفن بالإقامة لدى والدي بسبب سفر والديه، وذلك حين جاء إلى كامبردج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ليجد نفسه مجبرًا رغم سنه

الصغير على طهي غدائه بموجب تعليمات أخيه، والسبب في ذلك يعود لنوبات الغثيان الصباحي التي كانت تجبرني على الاستلقاء؛ رافقتني تلك الحالة الصحية طيلة ذلك النهار وحتى في الأيام التي تلتها، وهكذا دواليك لمدة أسبوع ليقترح صديق من ذوي الخبرة في النهاية ما أسماه أفضل علاج لغثيان الصباح، وهو احتساء كوبٍ من الشاي قبل النهوض من الفراش، وقد أثبتت الطريقة جدواها من الناحية النظرية، لكن عمليًّا لم أكن لأستطيع أن أصنع كوبًا من الشاي لنفسي دون النهوض للقيام بذلك، وسرعان ما جاء والدي بالحل بإهدائي آلةً لصنع الشاي ودّعت معها عددًا كبيرًا من آثار الحمل المتعبة، لأعود لاستئناف روتيني المعتاد للدراسة والكتابة بقوة متجددة.

كنت أمتلك بنكًا من الأصدقاء الذين مدّوا لي يد المساعدة والدعم، معظمهم أمّهات، قدّموا لي المشورة بشأن إيجابيات وسلبيات المستشفيات ودور العجزة والعلاجات الصحية، التنفس الوقائي، صفوف الاسترخاء، الرضاعة الطبيعية. وسط يأسي الذي انتابني لجهلي في مثل هذه الأمور، لاحقًا مارست دورة تدريبية في تغيير الحفاضات حين تركت صديقاتي أطفالهن تحت رعايتي، لكن الأمر بدا مجرد تطبيق نظري حتى الأطفال أحسنوا التصرف بشكل جيد، لدرجة أنّي اقتنعت بأن تلك المخلوقات البريئة وُجدت لتأكل وتنام فقط، بالإضافة إلى قليل من الأنين من وقت لآخر.

كانت صحتي في تلك المدة تبدو جيدةً بالمقارنة مع صحة ستيفن الذي بدت بحاجة إلى بعض الرعاية. كان فرانك هوكينغ قبل مغادرته إلى الصين قد طالع في مجلةٍ طبّية أن التناول المنتظم لأقراص فيتامين (ب) قد يفيد الجهاز العصبي، والذي يمكنٍ أن يعزّز أيضًا بوساطة حقنة أسبوعية لمستحضر يدعى هيدروكسوبالامين hydroxocobalamin.

كان الحصول على أقراص الفيتامين ممكنًا من خلال وصفة طبية للدكتور سوان الذي سجّل ستيفن معه في كامبردج، لكن تلك الحقنة الأسبوعية التي تُعطى على الجانب الآخر من كامبردج غدت مشكلة في رأي ستيفن، حيث إن قضاء نهار بانتظار حقنة هو نهار مهدور بلا فائدة.

قمنا بالمحاولة مرات عدّة، ما جعل انزعاج ستيفن يبلغ أقصاه، وظل الأمر على هذا المنوال حتى وصلنا ذات يوم إلى البيت بعد عملية جراحية جرت في منتصف النهار لنجد ثيلما تاتشر، كما هي العادة تمارس روتينها اليومي في كنس الرصيف؛ كان القنوط البادي على وجوهنا أمرًا جليًّا فبادرتنا بالسؤال: ما الأمر؟ لأشرح لها الزيارة الأسبوعية المنهكة التي نقوم بها، وهنا لدهشتنا الشديدة أدركتنا ثيلما بحل فوري: «هذا غاية في السهولة!! كل ما يتعيَّن علينا فعله هو أن نطلب من الأخت تشالمرز الاتصال بنا وهي في طريقها من بيترهاوس!». هكذا وبكل بساطة خرجت الكلمات السحرية محمّلة بحلول لمشكلتنا الأسبوعية لتعانق ثيلما كلينا، وتدخل لمهاتفة الأخت تشالمرز التي تكرّمت علينا ذات يوم بموقد الغاز عندما انتقلنا للمرّة الأولى إلى شارع ليلتل سانت ماري، وتولت تشالمرز بتحريض من فيما تاتشر إعطاء ستيفن حقنته الأسبوعية في المنزل عند انتهائها من العملية التي تجريها في الكلية.

طفت مشكلة مشابهة على السطح حين اقترحت السلطات الطبية العلاج الطبيعي بشكل منتظم للحفاظ على تمدد مفاصل ستيفن، والإبقاء على عضلاته نشطةً؛ حيث كانت أصابعه قد بدأت تلتف لدرجة أنه لم يعد قادرًا على الكتابة باستثناء الإمضاء باسمه؛ حضرنا جلسة علاج طبيعي واحدة فقط في المستشفى الجديد في أدينبروك Addenbrooke الذي يقع على مشارف كامبردج، لكن مرّة أخرى استبد الغضب بستيفن معلنًا أنّه لن يبدد المزيد من وقته الثمين في هذا العلاج، هذه المرّة، كان دينيس سيكما Dennis Sciama هو من بادر إلى نجدتنا حين أقنع معهد الفيزياء لرعاية الزيارات المنزلية بالقدوم مرتين أسبوعيًّا؛ لإجراء هذا العلاج بوساطة اختصاصي علاج طبيعي خاص، وتحمّل صندوق الإعانات الخيرية الخاص بالمعهد نفقات هذا العلاج، وفي هذه المرحلة دخلت كونستانس ويليس Constance Willis حياتنا.

كانت كونستانس واحدةً من تلك السيدات الإنكليزيات العانسات، وبجانب عملها الطبي جعلتها حماستها قائدة جمعية سانت ألبانز للرقص الشعبي والغناء، منفتحة على الآخرين، بشوشة وصريحة؛ كانت تأتي لتقوم بتمديد عضلات ستيفن في العاشرة صباحًا من يومي الثلاثاء والخميس، بعد أن تقوم بزيارة اثنين من مرضاها المسنين

في كلية ترينيتي: أحدهم السيد غاو، الكلاسيكي البارز، والقس سيمبسون عميد كلية سابق، كما كانت تقوم بمساعدتهم في ارتداء جواربهم.

تناوبت الأخت تشالمرز والسيدة ويليس على تخفيف الإزعاج الذي قد تتسببه الجلسات لروتين ستيفن، وذلك من خلال تمكينه من العمل عددًا من الساعات يقارب ساعات عمل زملائهن، ودفعه واقع الحال إلى العمل مساءً إضافةً إلى الوقت الذي اعتاد به العمل كلّ صباح، فغاص لمدد طويلةٍ عميقًا في أفكاره، وغالبًا ما أمضى عطلة نهاية الأسبوع جالسًا بصمتٍ يتبادل الشدّ والجذب مع معادلاته التي تنظّم بدايات الكون، جاهدًا في تدريب عقله على حفظ النظريات المعقّدة دون تدوينها، وقد أطلق السيد تاتشر عليها مازحًا: الميكانيك السماوي، ليسألني تعقيبًا على مرور ستيفن بالقرب منه دون إلقاء التحية: «أعتقد أن رجلك مشغول مع مكيانيكه السماوي؟». كان هذا الأمر شائعًا إلى جانب عزوف ستيفن عن بذل أي جهد بإجراء حديث صغير لطيف، والميل إلى الإساءة إلى بعض جيراننا الذين يتمتعون بحساسية عالية، إضافةً إلى معارف وأقارب، وضعني ستيفن في موقع الاعتذار منهم؛ لأوضح لهم حقيقة الأمر بأنّ ستيفن بحاجة صبّ تركيزه بأكمله على العمل.

حالت نوبات الغثيان دون حضوري جنازة السيدة هوكينغ الأكبر في يوركشاير، ولم أكن قد حضرت جنازةً من قبل، لكن هذا الواقع لم يدم طويلًا؛ كانت ماري تاتشر الابنة الوحيدة لجيراننا، وهي على وشك القيام بجولةٍ دراسيةٍ في الشرق الأوسط، ما يحتّم عليها الإقامة عدّة أشهر بين إسرائيل والأردن؛ قبل مغادرتها في ذلك الخريف، تسنت لي رؤيتها تمشي جنبًا إلى جنب مع والدها الذي أصبحت وتيرة خطواته أبطأ وأكثر توقّفًا، استمروا بالسير على طول الشارع حتى اختفوا في باحة الكنيسة.

تركت هذه الرؤية المؤثرة للوالد وابنته أثرًا عميقًا في نفسي، وكأنّما رأيت فيها قادم الأيام، وتنبّأت أن تلك اللحظة الثمينة ما هي إلّا وداع نهائي. بعد مدة وجيزةٍ من مغادرة ماري سقط الوالد مريضًا ليُنقل بعدها إلى دار لرعاية المسنين حيث توفي هناك بعد بضعة أسابيع.

كانت أوراق الأشجار الجافة تتراقص في رياح ديسمبر القارصة، في حين وقفنا أنا وستيفن جنبًا إلى جنب في الصفوف الخلفية لكنيسة هولي ترينتي Holy Trinity، وهي كنيسة تتبع أحد أفرع الكنيسة الإنكليزية ذات الطقوس البسيطة Low Church، والتي فضّلها ويليام تاتشر على الكنيسة الإنجيلية High Anglicanism في ليتل سانت ماري حيث الطقوس أشبه بالطقوس الكاثوليكية.

سرت في جسدي قشعريرة باردة خلال إصغائي لكلمات الجنازة المؤثّرة والترتيل الذي رافق حمل النعش إلى الكنيسة، غارقةً في تأمّلاتي مسكونةً بمفارقةٍ واحدةٍ تتجلى في تلك الضربة الواحدة التي تحصد معها كل شيء، التعلّم، الخبرات، البطولة، والخير، والإنجازات، وذكريات حياةٍ سنفارقها يومًا ما، في الوقت الذي كنت أحمل في أحشائي بداية حياة جديدة قادمة، صفحة فارغة تنتظر أن يُدوّن عليها الكثير من التعلّم والخبرة والإنجازات والذكريات. هناك في الصفوف الخلفية غارقة في تأمّلاتي جنبًا إلى جنب مع والد طفلي، ذلك الشاب المفعم بالحياة رغم ظهور العجز، كان يتمتع بصحة جيدة عمومًا، ويمتلك من العزيمة والتصميم على الاستمتاع بالحياة الشيء الكثير، ساعده على ذلك نجاحه في الفيزياء الذي أكسبه قوةً أكبر يومًا بعد يوم؛ على صعيدٍ آخر كان المشي صعبًا بالنسبة إليه، زرّ القمصان كان مصدر إزعاج، تناول وجبات الطعام بدأ يأخذ مدة أطول، والدّماغ تولّى مهمة القلم والورق في التدوين، لكن كل ما ذُكر كان مشكلات في ميكانيكية الأفعال مما يمكن التغلّب عليه بوساطة المثابرة والاختراعات، لكن ما لا يمكن تصوّره أنّه في ذلك اليوم الحزين كان ذلك الشاب والد طفلي هو المرشّح لأن يكون الرّاحل، إن الموت هو مأساة من بلغوا من العمر عتيًا وليس من هم في ريعان الشباب.

الفتوة والشباب جوهر وجود كامبردج، رغم ما تبديه المدينة بمبانيها القادمة من القرون الوسطى، والزملاء الرجعيون الذين ينهون يومهم بالعودة إلى جحورهم ليجثموا في الزوايا المظلمة؛ هذا المكان أشبه بمغناطيسٍ ضخم يجذب موجاتٍ من الشباب بعضهم لمدة ثلاث سنوات، أو إن حالفهم الحظ ستة، ثم تقذفهم كامبردج من أحشائها إلى العالم الحقيقي وكأنّها تنهي تعويذتها السحرية على هؤلاء لتيقظهم،

شغل العديد من أصدقائنا الأوائل مناصب في جامعات حول العالم بعضهم بشكل مؤقت والآخر بشكل شبه دائم، ومنهم صديق أمريكي كنا قد التقينا به في جامعة كورنيل كان في زيارة قصيرة لكامبردج وعرّج لزيارتنا، كان يُدعى روبرت بوير Robert Boyer، وعلى مائدة العشاء في منزلنا حدّثنا عن زوجته الإنكليزية وابنته الصغيرة، عن فيتنام، هواجس الأمريكيين في هذه الأيام، كما حدّثنا عن نفسه وعن الفيزياء.

في أحد الأيام بعد مضي مدة قصيرة على زيارة روبرت لنا، كنت أعد طعام الغداء بانتظار عودة ستيفن، بعد أن تكرّم جورج إيليس منذ عودته من ولاية تكساس بجلب ستيفن إلى المنزل في ساعة الغداء، وذلك خلال طريقه لتناول الطعام في مركز الجامعة الذي افتتح حديثًا في نهاية الحي. في تلك الأثناء كان المذياع يبث عناوين الأخبار ليأتي الخبر المرعب عن حادثة قنص في أوستن، تكساس حيث قام مختل بتسلق برج الجامعة ليطلق النار عشوائيًّا على المحاضرين والطلاب العابرين، وسقط أحد ضحايا الإطلاق قتيلًا على الفور، كان أفظع ما في التقرير قدرتي على تخيّل مكان الحادث بحكم معرفتي له، كان بإمكاني تصوّر ما حصل، وأدركت على الفور أنّ بعضًا من معارفنا قد يكون هدفًا من أهداف ذلك القناص، وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم سمعنا أنّ ضحية رصاصة القناص لم يكن إلا روبرت بوير.

لم يأتِ الموت نتيجة الشيخوخة، لم يأتِ نتيجةً لكارثةٍ طبيعةٍ مثل كارثة أبيرفان[1] Aberfan أو من مرضٍ سابقٍ لأوانه، جاء الموت هذه المرّة على يد إنسان متوحش.

في مراسم الجنازة تم تلاوة تلك الكلمات القاسية التي عكست حقيقة واقعية «..على يد إنسان جاء هذا الموت». كان ذلك الموت بمثابة خدعة قاسية جعلتنا نبحث عن وسيلة دائمة للتعبير عن حزننا وإعجابنا بروبرت بوير.

(1) قرية في ويلز، تعرّضت إلى انهيار أرضي عام 1966، ما أدى إلى مصرع 116 طفلًا في مدرسة القرية، بالإضافة إلى 28 شخصًا من البالغين. (المترجم).

14
عالم مضطّرب

وُلد روبرت جورج، كان يزن ستة باوندات وخمس أونصات، جاء إلى هذا العالم في العاشرة ليلًا من يوم الأحد 28 مايو/أيار عام 1967 أي في اليوم نفسه الذي أبحر فيه فرانسيس شيشستر Francis Chichester وحيدًا في يخته من ميناء بليموث، لتكون في استقباله هتافات الحشود حال عودته من رحلته حول العالم، أما قادمنا الجديد فكان في استقباله ابتهاجٌ من نوع خاص خصّه به والده الذي امتلأ سعادة لدرجة أنه حين نقل الخبر السار في صباح اليوم التالي لكل من بيك وهو جي إنج؛ جيراننا من سنغافورة الذين احتلوا منزلنا السابق رقم 11، ظنّت بيك لفرط العاطفة التي طغت عليه أنّني قد توفيت خلال الولادة.

كان روبرت المتحمّس للقدوم إلى هذا العالم قد أخذني على حين غرّة حين جاء قبل أسبوعين من موعد الولادة.

في شهر مارس/آذار، كنا أنا وماري شقيقة ستيفن وابن عمه جوليان، جنبًا إلى جنب مع الآلاف من الخريجين الآخرين نتلقى درجة البكالوريوس في حفل ضخم في قاعة ألبرت في جامعة لندن في حفل رائع ليس به شائبة إلا غياب رئيس الجامعة، الملكة الأم، بسبب المرض. ليقوم أهلنا بدعوتنا إلى حفل لا ينسى في مكان رائع وهو الجمعية الملكية للطب الاستوائي Royal Society of Tropical Medicine، والذي تم الحصول على إذن باستخدامه من قبل والد زوجي.

خلال أوائل العام الدراسي في وقت سابق، قامت الدكتورة دورثي نيدهام Dr Dorothy Needham؛ وهي زوجة بارزة من برنامج الماجستير في كيوس بمد يد العون لي بعد أن قدمتني إلى المجتمع الأكاديمي الفتي، كلية لوسي كافينديش Lucy Cavendish College الرائدة من قبل اثنين من العلماء، الدكتورة آنّا بيدر والدكتورة كيت بيرترام اللتان

عملتا على أهدافهما في تعزيز الفرص الأكاديمية للطالبات النساء في كامبردج؛ أثمر ذلك تعاونًا مع كلية لوسي كافنديش التي سمحت لي بالحصول صفة ماجستير في الجامعة، والتي تخوّلني باستعارة الكتب من مكتبة الجامعة.

في نهاية الربيع، كان الأطروحة التي ألهمني ستيفن فكرتها ثيلستينا Celestina قد شارفت على إبصار النور في المطبعة تحت اسم الأم ثيلستينا Madre Celestina، حينها لم أجد أي سبب منطقي يجعلني افترض عدم قدرتي على الجمع بين الأمومة والبحوث التي أعمل عليها.

في الجمعة الأخيرة من شهر أيار، وكعادتي في الوفاء لروتيني المعتاد، أمضيتُ معظم اليوم أعمل بابتهاج في مكتبة الجامعة على تجميع المواد لأطروحتي، دون أن يساورني أدنى شك بأنّه سيمضي وقت طويل قبل أن أعود لزيارة هذا المكان.

في ذلك المساء تجاهلت الأحاسيس الغريبة لشد وتوتر في الفخذين، ورافقت سو إيليس الحامل هي الأخرى إلى حفلة للزوجات أقامتها ويلما باتشيلور زوجة رئيس القسم. في صباح يوم السبت، بعد ليلة غير مريحة، ازدادت الأحاسيس قوةً وأصبح الشد أكثر تكرارًا، شعرت بأنّه يتعيَّن عليّ القيام بعملية تسوق لكميات وفيرة لأجل ستيفن قبل أن أصبح غير قادرة على الحركة؛ انطلقت بسرعةٍ إلى المدينة، وبعد جولة تسوق تبقى قليل من المشتريات النهائية، ولم يحتج القصاب كريس سوى نظرة واحدة لوجهي ليُصرّ بعدها على تلبية حاجاتي قبل الطابور ليقول لي في النهاية: «جين، من الأفضل أن تذهبي مباشرةً إلى المنزل». وهذا ما فعلته بكل سرور. في وقت لاحق من ذلك اليوم، وفي ذروة عاصفة رعدية، قام هاو جي وهو والد لفتاتين صغيرتين بإيصالنا أنا وستيفن إلى دار الرعاية، لكن سرعان ما تمنيت لو بقيت في المنزل أو طلبت الحصول على سرير في مستشفى الولادة التي كانت في تلك الأيام تقبل فقط النساء من خلفيات محرومة، أو من اللواتي لديهن مضاعفات. كانت القابلات المسنّات في ذلك المكان يمتلكن من الفظاظة التي تُذكرني بالسيدات العانسات في مدرستي أيام المراهقة. مشيت في ممر طويل مع ستيفن المتّكئ على ذراعي، فجأة شعرت ببدء انكماش قوي كمخالب أخطبوط تضغط بطني، باشرت بتأدية التقنيات المكتسبة،

والتي أُدخلت حديثًا في دروس ما قبل الولادة. اتّكأت على مسند الباب وركّزت انتباهي على ممارسة تمارين التنفس؛ في أثناء ذلك قامت إحدى الأخوات بعينين فولاذيتين بتوجيه سؤال لي بكل قسوة: «ما الذي يجري معك؟». ورغم صغر سنها أكثر من البقية إلا أنّه وجب أن تكون على دراية أفضل بمثل هذه الأمور.

ستستمر تلك العملية المنهكة المرهقة في مراوحة مكانها للأربع وعشرين ساعة مقبلة، لتنتهي أخيرًا بقدوم الطفل لكن ليس على يد واحدة من تلك القابلات بل على يد جون أوينز، طبيب شاب مرح من قسم الجراحة. في أثناء تلك العملية الطويلة كان ستيفن رفيقي المخلص الذي لازمني لساعات طويلة جالسًا قرب سريري، بل حتى متسلّلًا، وهو متّكئ على ذراع والدته عند مدخل الحديقة في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي.

استلقيت في السرير، تتملكني مشاعر من الملل والإحباط لا يخرجني منها إلا طغيان جمال الكونشرتو المزدوج للكمان والتشيلو التي كنت قد حفظتها عن ظهر قلب، كانت الموسيقى بمثابة بلسم للآلام التي تنتابني، ساعدتني على تشتيت ذهني عن الألم وإحياء ذكرى الأيام الجميلة حين قام والدي قبل شهرين من ولادتي باستئجار كوخ على حافة خليج صغير في ميناء سانت إسحاق في كورنوال في عيد الفصح، في ذلك الأسبوع واسترضاءً لذوقي، قدَّم لي ستيفن تسجيل كونشيرتو برامز كهدية عيد ميلاد.

مع نمو ثقة ستيفن بنفسه، اكتسب إصرارًا صلبًا وعزيمةً لا تلين؛ وخلال إقامتنا في بورت سانت إسحاق Port St Isaac، قررنا الذهاب بعد ظهيرة أحد الأيام إلى قلعة تينتاجل Tintagel الشهيرة التي كانت واحدةً من مواقع إقامة الملك آرثر، تجثم بعيدًا على الساحل الشمالي لكورنوال Cornwall، وكان من دواعي خيبة أملنا عدم قدرتنا على مشاهدة القلعة المهدمة من القرية، ووفقًا لمديرة مكتب البريد، كانت الطريقة الوحيدة للاقتراب من القلعة الهبوط في أخدود صخري منحدر بشكل حاد، أصرَّ ستيفن على رؤية القلعة رغم كل شيء، ولم نكن قادرين على حرمانه أي شيء؛ انطلاقًا من إدراكنا لقصر رحلته العمرية. أمسكنا أنا ووالدتي ستيفن كل من جهة،

لنحمله نزولًا في البرية غير المستوية لنتعثَّر بالأحجار في طريقنا ولنواجه الرياح في وجوهنا، حتى ظهر لنا الياقوت البحري في نهاية الدرب وبدأ بالانحسار ليعلن لنا القلعة كمكانٍ بعيد المنال، وبعد نضالٍ دام نحو ثلاثة أرباع الساعة بدأت والدتي تشعر بضيقٍ في التنفس، وساورها القلق حولي وأنا في هذه المرحلة المتقدمة من الحمل، لكن ستيفن كان ما يزال متشبثًا بطلبه رافضًا التخلي عنه؛ شاءت الأقدار السعيدة أن تظهر سيارة لاند روفر كمعجزة جاءت لتنقذنا مما نحنا فيه. كان السائق مترددًا في التوقف، لكنه توقف ليخبرنا بأن وجهتنا ما زالت بعيدة، حول الرأس البحري. بدت القلعة بعيدة المنال وأقوى من إرادتنا، طلبنا السماح لنا بأن يقلّنا للقرية، وبعد أخذ ورد وافق بنفاد صبر على نقل راكب واحد؛ لم يكن هناك شك أنّ هذا الراكب لابد أن يكون ستيفن.

كان الفرح الذي جلبه قدوم الطفل ذا نكهة خاصة. في عضون دقائق من ولادته اتّخذ وضعيته كمستقرٍ له في ثنية ذراعي، بلون أرجواني خفيف بدأ يراقب محيطه من دون أدنى قلق ظاهر، كما لو أنه قد سبق له مشاهدة تلك الوجوه، تنبّأت والدة ستيفن لحفيدها الأول ما أصبح عليه بروفسور المستقبل، وعندما أُحضر إلي بعد أن تعافى من تجربة الولادة واسترد لونه الطبيعي، بدت عيناه أكثر وضوحًا. كان لونًا أزرق لامعًا وسط وجه عفريتي صغير مع خدين ورديين، كان رأسه خاليًا من الشعر باستثناء مقدمة الرأس وأطراف أذنيه المدبّبتين، وبأصابعه الدقيقة الناعمة المجهزة بأظافرها البالغة الصغر والنعومة أطبق على إصبعي الممدود.

كان هذا المخلوق الصغير الرائع، تجسيدًا لمعجزة الكمال القادم إلى عالم يفتقر للكمال بشكل مؤلم، وبعد أسبوعٍ من ولادته، اندلعت حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط، مع نتائجٍ عنيفة استمرت طوال عقود من نشوء الطفل طويلًا حتى بلوغه. وبإدراكي البسيط في مرحلة ما بعد الولادة كنت مقتنعةً أنّ هذا العالم سيكون أفضل مما هو عليه، لو تمّ حكمه من قبل أمهات حديثي الولادة، بدلًا من الرجال العتاة الذين دأبهم تحريض الشباب على العنف؛ كان من شأن ذلك أن يوقف الحروب بين ليلةٍ وضحاها.

في الأيام التالية لولادة روبرت تأقلمنا مع الواقع الجديد تدريجيًّا، وساعدنا على ذلك وجود كل من والدينا أنا وستيفن لبضعة أسابيع، لنترك لمصيرنا وحدنا بعد ذلك ولنواجه التطوّر والتغيّر في نمط حياتنا المعتاد، أصبحت الرحلات من الآن وصاعدًا إلى القسم أو إلى المدينة يتشارك بها ثلاثة أشخاص بالإضافة إلى عربة أطفال وعصا للمشي، ولحسن حظنا جاء جورج إيليس كمنقذٍ لنا وذلك بجلب ستيفن إلى المنزل في ساعة الغداء، وإعادته ومن ثم جلبه إلى المنزل مساءً.

بعد مرور بضعة أسابيع، وفي عصر أحد الأيام عندما بدأت أيامنا تسترد بشكل خافت شيئًا من روتينها المعتاد، شعرت أنّ الوقت قد حان للعودة إلى كتبي وفهارسي وشغفي المتنامي بعد انقطاعٍ عن شعر الحب الآيبيري في القرون الوسطى؛ أطعمت الطفل وغيّرت ملابسه المتسخة؛ لأضعه في عربته في الهواء الطلق لفنائنا الخلفي تحت قبة سماء زرقاء لطيفة، بدا لي في تلك اللحظة مستعدًّا لأخذ إغفاءة ملؤها الراحة والطمأنينة، هذا ما بدا لي على الأقل مع توقعات بأن تمتد إغفاءته لما يقارب ساعة على الأقل، وبعد أن كبحت رغبتي بالتثاؤب والانضمام إليه، تسللت بسرعة إلى عالمي في الطابق العلوي من كتبي وبطاقاتي المنشورة على المنضدة، لكن لم أكد أستقر في جلستي حتى جاءتني صرخة صاخبة من الأسفل، فهبطت بسرعة إلى طفلي لأطعمه وأغيّر له الحفاض مرة أخرى، رغم أن الطفل لم يبدو جائعًا حقًّا؛ حملته بلطف مع عربته إلى الطابق العلوي، لكن الأمر تكرر مع بكائه من جديد، واستمر المشهد يتكرر مرات عدة بعد ظهر ذلك اليوم، لأدرك في النهاية أنّ هذا الطفل الصغير لم يكن جائعًا أو حتى يشعر بالنعاس، كل ما في الأمر أنّه يحتاج إلى أنيس.

بدأ روبرت بعمر شهر واحد العمل على أطروحة الدكتوراه، من خلال مساعدتي بالجلوس والتلوي على ركبتي وإصدار أصوات الغرغرة في أثناء محاولاتي الكتابة، لم يستغرق الأمر سوى يوم واحد فقط لأدرك تمامًا أن معتقداتي الواهمة حول الجمع بين الأمومة وأي نوع من أنواع النشاط الفكري قد تدمّرت تمامًا.

أضف إلى ذلك انعدام وجود أي فكرة لديّ عن حاجات الجسم بعد الولادة؛ كان كل ما يشغل بالي هو إحصاء الأيام للانتهاء من تلك العملية، ومن ثم التعافي لاستعادة

نمط حياتي الطبيعي، والعودة إلى عملي في غضون أسبوع، دون إدراك أنّ تسعة شهور من الحمل والصدمة التي تخلّفها عملية المخاض الطويلة تترك آثارها في قوة الجسد. أيضًا، أحد الأمور التي كنت على جهلٍ تامّ بها هي إرضاع الطفل، ذلك الالتزام المرهق الطويل الأمد الذي يترافق مع جدول زمنيٍّ مقلوب رأسًا على عقب من مطالب الرّضع التي لا تنقطع ليلًا ونهارًا، الأمر الذي يُودي بي في المحصلة إلى نعاسٍ عند ذهابه إلى النوم.

أصبحت الترتيبات معقدةً أكثر فأكثر، وتجلّى ذلك بوضوحٍ حين قام تشارلي ميزنر Charlie Misner وهو زائر أمريكي للقسم أصبح لاحقًا عرّابَ روبرت في كنيسة كايوس في يونيو حزيران، بالطلب من ستيفن زيارته في جامعة ميرلاند بعد انتهاء المدرسة الصيفية في سياتل للحديث عن التفردات، مؤكدًا هو وزوجته الدنماركية؛ سوزان، بأنّنا سنكون موضع ترحيب للبقاء في منزلهم الكبير في ضواحي واشنطن العاصمة برفقة أطفالهم الأربعة. لم أستطع السماح لنفسي بأن أظهر بمظهر فاتر إزاء تلك الرحلة، لكن لم أكن واثقة في كيفية ذهابنا جميعًا إلى سياتل، ناهيك عن شعوري بالتعب عند محاولتي حزم حقائب ستيفن وحقائبي، وتحضير حاجات طفلنا البالغ ستة أسابيع من العمر فقط؛ لم أكن أتوقع أي شيء من هذا القبيل، وما زاد الوضع سوءًا جسدي الذي لم أتوقع في أي يوم مضى أن يخذلني بهذا الشكل الكارثي.

استطعنا بمساعدة حشد من الأهالي القلقين، بالإضافة إلى والدتي، تسجيل الجوازات في مطار لندن في الوقت المحدد صباح يوم السابع عشر من يوليو تموز. جاء الوداع سريعًا؛ لأن الشركة كانت قد قدّمت فورًا كرسيًّا متحركًا لستيفن الذي وجد نفسه مضطّرًا إلى الجلوس، ليتم جرّ الكرسي مباشرة من خلال الجمارك، ومن ثم الجوازات إلى صالة المغادرة، محمّلًا بروبرت وأكياس المخصصات المتنوعة للرحلة؛ سارعت للحاق بهم وسط جحيم حقيقي من الحرارة المرتفعة، وكان مرد ذلك انهيار نظام فتحات التهوية في ذلك اليوم الحارّ من يوليو/تموز، ونتيجة لذلك انحبس الهواء الحارّ داخل المبنى، ما جعل الجو في الداخل كمرجلٍ مشتغل، وما أن وصلنا صالة المغادرة حتى أعلنت مكبّرات الصوت أن رحلة طائرتنا ستتأخّر.

جلسنا ثلاثتنا ننتظر في الحرارة الخانقة لقاعة الانتظار، فيما كان روبرت يرتشف كامل محتويات زجاجة من شراب بذور الورد البرّي المخفّف، التي يفترض أن تدوم طوال الطريق إلى سياتل. أعقب إعلان تأخير الرحلة إعلانٌ آخر يدعو ركّاب خطوط بان أميركان Pan American للحصول على المرطّبات المجّانية، أودعت روبرت على ركبة ستيفن لأنضم إلى طابور السندويشات المجانية، وكان في انتظاري عند عودتي مشهد جعل الدم يجمد في عروقي؛ كان روبرت لا يزال جالسًا بأمانٍ على ركبة والده مبتسمًا بابتهاج، متّكئًا بارتياح على صدر ستيفن الذي لفّ بذراعه حوله، أمّا وجه ستيفن في تلك اللحظة فقد عَلت على قسماته تعابير مضنية تشي بالعذاب الذي يعانيه، كان هناك نهر أصفر واسع يجري أسفل سرواله الجديد، وهو جالس محاصر بلا حِول ولا قوة، فيما كان النهر يتدفق في حذائه. للمرة الأولى في حياتي، صرخت وأنا أسقِط السندويشات، صرخت وكأنّما فعل الصراخ هو رد الفعل الأكثر منطقية في تلك الحالة، استدعت صرخاتي منقذتي التي ظهرت فجأةً من العدم، ممرضة نبيهة لم يلزمها سوى نظرة واحدة مباشرة في وجهي، تلك النظرة بدت كافية لإقناعها بأنّي في وضع رهيب ميؤوس منه؛ تولّت المرضة قيادة الوضع، قامت بجرّ الكرسي ودفع الأب والأبن والعودة عبر جميع الأقسام التي اجتزناها متجاهلة المسؤولين في طريقنا، وصولًا إلى المكان المخصّص في المطار لرعاية الأطفال، حيث قامت بتنظيف الطفل فيما قمت بتنظيف ستيفن في المكان ذاته، فيما دوى الإعلان الأخير لرحلتنا على مكبّرات الصوت؛ تابعت المرضة غير آبهة بالنداء عملها بعد أن خابرت الجهة المسؤولة عبر السنترال المركزي لتخبرهم أنّ الرحلة يجب أن تنتظرنا، وهكذا استطاع روبرت ذو السبعة أسابيع الحصول على امتياز تأخير رحلة دولية.

دامت تلك الرحلة المدهشة مدة تسع ساعات بقي فيها ستيفن جالسًا في السروال ذاته الذي عبرنا به فوق آيسلندا التي بدت كجوهرة تربّعت وسط غطاء من الحرير، فوق الجليد الطافي في شمال الأطلسي، فوق جبال غرينلاند المغطّاة بالثلوج والأنهار الجليدية، فوق المياه المتجمّدة لخليج هدسون والنفايات الجافة في شمال كندا، ثم أخيرًا جاءت الإشارة التي تؤذن بنهاية محنة ستيفن، حين لاح في الأفق جبل رينييه حيث بدأنا بالهبوط في مطار تاكوما. بعد بضعة أيام أخذت السروال إلى التنظيف الجاف، لكن ستيفن رفض ارتداءه مجددًا.

الفصل الثاني

1
أَرَقٌ في سياتل

كانت الترتيبات التي قدمها معهد باتيل التذكاري Battelle Memorial Institute سخية جدًّا، بالإضافة إلى بيت واسع من طابق واحد ومجهز بأفخر وسائل الراحة العصرية، بما في ذلك غسالة الصحون والمجفف وسيارة كبيرة بتحكم أوتوماتيكي، وأيضًا كانت المفارش المتسخة تُستبدَل بأُخرى نظيفة كل أسبوعين؛ وإنْ لم تعطني كل هذه الميزات الثقة الكافية فلم يكن ذلك لأنني لم أقدّرها حق قدرها، وإنما لأني كنتُ ضحية الإرهاق في ذلك الشاطئ البعيد حتى لو كان ذلك في تلك العزلة الفاخرة، محرومة بعد ولادتي بمدة قصيرة من دعم ومساندة أمي وعائلتي وأصدقائي؛ كنتُ هناك المسؤول الوحيد عن كل من زوجي المريض وطفلي الجديد، ولم يكن جورج إيليس قريبًا ليمد يد العون لستيفن.

أكد لي السكرتير أنّ معهد باتيل كان قريبًا جدًّا؛ على بعد ميل واحد أو ميلين، ولكن سواء كان ميلين أو عشرين ميلًا فلم يشكّل الأمر فرقًا كبيرًا، فقد كان يتم اصطحاب ستيفن إلى هناك بوساطة السيارة، وكان عليّ أيضًا أنْ أصطحب روبرت، وهذا يعني أن عليّ مساعدة ستيفن في ارتداء ملابسه وتناول طعامه في الصباح الباكر، ومن ثم كان عليّ إطعام روبرت حيث كانت الأولوية وفقًا للحاجات الأكثر إلحاحًا، ومن ثم أصطحب طفلي الصغير المشاكس روبرت في سرير الأطفال المحمول وستيفن على ذراعي إلى سيارة الفورد الفارهة التي كان يفترض أن تكون مركونة أمام المنزل عبر الطريق الطويل، حيث أُجلس أحدهما على المقعد الخلفي والآخر على الأمامي؛ كان روتينًا مقبولًا نوعًا ما.

لقد قيّدتُ حركتي لبعض الوقت لتكون فقط إلى معهد باتيل والمتجر، وكنتُ أقود تلك السيارة الضخمة وبداخلي ذاك الارتياب الذي قررتُ في نهاية المطاف -رغم الضغوطات التي أحسست بها بسببه- أنْ أقوم بما لم تحلم أن تقوم به أم أمريكية

من قبل؛ كنتُ أمشي إلى المتجر مع سرير الأطفال المحمول، وأحمل المشتريات فيه إلى جانب الطفل.

استقبلتُ وصول أسرة بنروز Penrose ببهجة الناجين من الغرق في قارب الإنقاذ، وكان إريك Eric هو الإصدار الأخير للعائلة، وكان أكثر قدرة على الحركة نوعًا ما من روبرت، ولكنه غالبًا ما كان يضطجع، كنتُ أفكر كلما نظرتُ إلى عربات الأطفال خاصتيهما أو إليهما وهما مستلقيان جنبًا إلى جنب، بأنّ طفلينا هذين يكملان ذلك الحوار (هاوكينغ - بنروز). كنتُ أتألق اجتماعيًّا بفضل جون Joan، فقد قدمتني لبعض الزوجات الأخريات من الوفود، وأخذتني في رحلات مختلفة حول مدينة سياتل، حيث تفقدتُ المتاجر، واشتريتُ ملابس الأطفال.

ازدادت ثقتي بنفسي بتأثير منها، وبدأتُ أجد طريقي على المحور الجنوبي الشمالي على الطريق السريع عبر مركز سياتل، حتى تمكنت من إيجاد موقع زميل قديم من مرحلة الطفولة؛ حيث كان قد أصبح مهندس طيران، وفي أحد أيام الأحد قادتنا قراءة ستيفن للخريطة إلى ميناء العبارات حيث عبرنا بوجيه ساوند Puget Sound إلى الجزيرة الأولمبية Olympic Peninsula حيث أُنزلت روبرت حتى لامست أصابعه مياه المحيط الهادي المتلألئة المتجمدة؛ وفي عطلة أُخرى قدنا السيارة لمسافة مئة وخمسين ميلًا عبر الحدود إلى فانكوفر، مصطحبين طفلنا روبرت الذي كان ينام بيننا على المقعد الأمامي، لنزور أصدقاءنا الأستراليين من جامعتي كامبردج Cambridge ويونغز the Youngs الذين جاؤوا لقسط من الراحة في جامعة كولومبيا البريطانية. كانت فانكوفر باردة ويغلفها الضباب على العكس من سياتل الحارة والجافة، وتشعر فيها بذلك السحر الكَنَدي الذي يجعلك أكثر استرخاء وراحةً من جارتها الأمريكية.

اجتمعنا ثانية في سياتل مع باقي المجموعة صباح أحد أيام السبت الحارة على الواجهة البحرية ضمن إحدى الرحلات التي ينظمها معهد باتيل؛ جاءت جانيت ويلر زوجة أحد رواد الفيزياء الأمريكيين لتقديم نفسها؛ في ذلك العام وفي ومضة إلهام أطلق جون ويلر John Wheeler في أثناء استحمامه اسم الثقب الأسود على الظاهرة التي كان ستيفن وآخرون غيره يدرسونها؛ كانت جانيت السيدة ذات الشعر الأشيب

وعضوة ضمن تلك المجموعة المختارة -سيدات الثورة الأمريكية- في الأسفل أمام الواجهة البحرية، تتولى عربة روبرت فيما اتكأ ستيفن على ذراعي، وأطلّت سيدتان لطيفتان مع عربة أطفال حيث قامت إحداهما بدغدغة أصابع الرضيع النائم، مما جعل السيدة جانيت تصرخ في وجهها كي لا تعكر صفو الطفل النائم، فشحبت السيدة المسكينة، وابتعدت مع رفيقتها بعصبية ضمن الحشد، أما من جهتي فقد رأيتُ أنّ مداعبة أصابع روبرت بهدف إيقاظه خلال النهار كانت فكرة سديدة قد تمنحني فرصة للنوم في الليل؛ كما العادة فقد نام معظم ذلك النهار، يستيقظ لبعض الوقت ليحدق قليلًا في وجه امرأة مسنّة كانت تهز له على ركبتيها فيما كنت أتناول عشائي على طاولة كبيرة من الطراز القديم.

كانت مسؤوليتي الوحيدة على الأقل في هذه الرحلة فقط، بصرف النظر عن تلبية احتياجات الطفل هي دفع العربة بيد واحدة ومساعدة ستيفن بالأخرى، المهمة الأخرى المثيرة للاهتمام كانت قيادة السيارة لمسافة طويلة، ما جعلني متعبة ومتوترة بشكل كبير إلى درجة أني جلست على ركبتيّ عند حلول موعد مجيء جيليان، صديقتي القديمة منذ أيام الدراسة، فقد جاءت إلى سياتل من جزيرة فانكوفر حيث يعمل زوجها المهندس جيفري في مهمة لمدة عامين؛ كان الاثنان بمثابة الخلاص لي حيث تمكنا من قضاء عطلة نهاية الأسبوع فقط معًا، تولى جيفري القيادة وأخذنا في رحلة طويلة قاربت يومًا كاملًا إلى مونت رينيه Mount Rainier، رحلة جمعت التسوق ومساعدة ستيفن على الدخول والخروج من السيارة وإليها، فيما ساعدتني جيل عن طيب خاطر في أعمال المطبخ؛ لقد نلت بعض الراحة والاسترخاء لأسبوع كامل.

وقعت حادثة فيما كانت جيل معنا وما زلنا نتذكرها أنا وهي بشيء من الاستياء؛ كانت إبرة الفضاء Space Needle هي النصب التذكاري الذي حظيت به سياتل من المعرض العالمي World Fair لعام 1962 وهو برج إسمنتي يرتفع قرابة ثلاث أقدام، وتقع في أعلاه منصة عرض على شكل صحن طائر. صعدنا في يوم السبت الأخير لصديقتي جيل معنا إلى أعلى إبرة الفضاء في المصعد السريع، وقد أعجبنا المنظر من الأعلى؛ حيث مياه بحيرة بوجيه ساوند المتلألئة والقمم البيضاء للمتنزه الأولمبي

الوطني Olympic Peninsula إلى الغرب، والشلالات الغزيرة في الجبال إلى الشرق، وإلى الجنوب يقف جبل رينيه Mount Rainier حيث البركان الخامد؛ كان المنظر ساحرًا، ولكن مع جيل التي كانت تحمل روبرت وستيفن يتكئ على ذراعي سرعان ما شعرنا بالإرهاق تحت أشعة الشمس الحارقة، فعدنا إلى المصعد منتظرين نزوله بنا إلى الأسفل، وبالقرب منا كان هناك فتاتان مراهقتان ولكن ليستا أصغر بكثير مني أنا وجيل.

كانتا تنظران إلينا وتتغامزان بشأننا، وبعد ذلك فيما كنا جميعًا نقف في المصعد بدأتا تطلقان تعليقات لاذعة ومؤذية بخصوص مظهر ستيفن؛ حيث كان يتكئ على جدار المصعد في طقس شديد الحرارة، بحيث بدا متعبًا تمامًا فيما أخذت الفتاتان تضحكان وتقهقهان بصوت مرتفع، فشعرت بالحنق وأردت صفعهما ودفعهما للاعتذار، أردت إخبارهما أنّ هذا الذي تسخران منه يكون بطل حياتي وزوجي ووالد طفلي الجميل عدا عن أنه عالمٌ كبير، ولكن لغتي الإنكليزية لم تكن لتساعدني على التعبير عن تلك المشاعر كلها فلم أفعل أو أقل أي شيء؛ نظرتُ بعيدًا وتجاهلتهما بالانشغال مع روبرت، وعندما وصلنا إلى الأرض بعد رحلة طويلة بالمصعد نظرت إحدى الفتيات إلى كتف صديقتي جيل، وسألتني عن روبرت «هل هذا طفلك؟» بنظرة لا تخلو من الإعجاب، فأجبتها «بالطبع»، فأسرعت تبتعد مع صديقتها، وقد أبدت جيل استغرابها من هاتين الفتاتين الغريبتين، ولحسن الحظ فقد كنتُ وجيل نقف بين ستيفن والفتاتين بحيث لم يلحظ أبدًا ما حدث.

بعد تلك الحادثة كنت مستعدة للعودة إلى المنزل على الفور بالرغم من أننا كنا على بعد يوم واحد من نهاية المدرسة الصيفية، وفي باتيل تلقى ستيفن عرضًا مثيرًا للإقامة لمدة أسبوعين في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وقد كان العرض مغريًا من الناحية المالية، وعلى الفور قدّم لنا أحد البرازيليين المشاركين في مدرسة باتيل الصيفية شقة فارغة تعود لأحد أصدقائه الغائبين، لم يكن هناك أيّ صعوبات نتخوف منها؛ لم أكن قد فقدتُ شيئًا من روح المغامرة التي جعلتني أتجول في جنوب إسبانيا

أيام الدراسة، وستكون هذه فرصتنا لنكتشف بأنفسنا المدينة المثالية التي أغرانا بها آبي وسيسي توب في كورنيل في عام 1956.

طرنا وصولاً إلى سان فرانسيسكو حيث كان عليّ قيادة سيارة ضخمة عبر متاهات الطرق السريعة ولحسن الحظ كان ستيفن ملاحًا أفضل من كونه سائقًا، وجدنا أخيرًا عنوان الشقة بعد جنوح السيارة بنا مرات عدة واهتزازها كسيارات الشرطة التي تلاحق المجرمين، كانت الشقة مؤلفة من غرفتين خشبيتين قديمتين، مما يوحي بأجواء منزلية دافئة، وتطلان على منظر بعيد من خلال الضباب والرذاذ على جسر البوابة الذهبية Golden Gate؛ رغم ذلك كانت الشقة متماشية مع أسلوبنا في الحياة أكثر من المنزل الفاخر في سياتل، إلا أنّ طابقه العلوي كان يبدو مروِّعًا، ومرة أخرى عاد الروتين الذي كنا نأمل أن نتركه وراءنا في سياتل، عاد للعب معنا من جديد إلا أنّ الرحلة هنا كانت من ثلاث مراحل بدلاً من اثنتين صعودًا وهبوطًا، وقد كان روبرت وهو ابن أسبوعين ثقيلًا جدًّا على أنْ أضعه في سرير الأطفال المحمول، لذلك كان لا بد من إيصاله إلى السيارة أولاً ومن ثم ستيفن؛ وكتعويض عن هذه المتاعب كلها اعتمدنا أكثر على السيارة في أوقات المساء وبعد الظهر؛ في نزهات إلى التلال خلف بيركلي أو بعيدًا إلى الشمال على طول فالق سان أندرياس San Andreas Fault، وهو منطقة مهجورة مليئة بالمستنقعات، وتلاحظ فيها شقوقًا في الطريق بسبب القوى الطبيعية الهائلة الكامنة تحت السطح، وقد قدنا السيارة ذات مرة إلى الأسفل حيث كان هنالك تجويف مهجور على الساحل يتحدى أسلوب الحياة الأمريكي، وهناك عاش الهيبيون في أكواخ على الشاطئ حياة خالية من القيود التي يفرضها المجتمع المادي.

حصل آبي توب Abe Taub رئيس المجموعة النسبية في بيركلي على تعيين مؤقت لستيفن في قسمه، وذات مساء دعانا هو وتشيتشي Cice لتناول العشاء في منزلهما على التلال المطلة على الخليج، وقد كان أبعد مما توقعنا، فوصلنا في المساء، ولم أكن قادرة على تمييز مكان الوقوف، فتابعت القيادة ضمن الأخدود على طرف الطريق، مما تسبب بإعاقة العجلات وعلقت السيارة.

بعد محاولة فاشلة لإخراج السيارة من الخندق توجهتُ لطلب المساعدة من توب وضيوفه الذين كان من بينهم عالم الرياضيات الباريسي البارز البروفيسور ليشنروفيتز Lichnerowicz؛ خلع الرجال معاطفهم وتحضروا لهذه المهمة بعزيمة، وتم انتشال السيارة من الخندق وعدنا إلى المنزل في وقت متأخر، حيث بدأ روبرت بالتذمر كما كانت عادته في سياتل؛ كان مستغرقًا في النوم حتى اللحظة التي وضعت فيها سريره المحمول بلطف في الجانب المظلم، حيث بدأ بالبكاء كما لو أنّه تمّ استبعاده من حفلة في مكان ما، ولم يكن هناك من سبيل لتهدئته سوى أنْ يقضي المساء مستلقيًا على ركبتيّ فوق الطاولة بوجود الضيوف في منزلنا، وقد لاحظتُ على وجه تشيتشي توب ما يوحي بالشفقة على مظهري الشاحب، فدَعتني لمرافقتها والسيدة ممي ليشنروفيتز Mme Lichnerowicz في اليوم التالي إلى حديقة الورود في بيركلي Berkeley Rose Garden.

أصبحت حديقة الورود ملاذًا للسلام والعزلة بالنسبة إلي في جو مسعور في منطقة خليج سان فرانسيسكو، وراحة من الروتين المضني الذي تفرضه ترتيبات معيشتنا؛ كان لها كذلك أثر لطيف في روبرت الذي كان يستلقي في زورقه الصغير تحت العريشة، مراقبًا تموجات الضوء على الورود وأوراق الشجر فوق رأسه، وكنتُ أجلس إلى جانبه في الظل أستنشق عطر الأزهار منغمسة في قراءة كتاب Stendhal's The Charterhouse of Parma، محدقة في الأفق خلف الخليج من وقت لآخر. أخذني تداعي الأفكار إلى إسبانيا؛ إلى جنة العريف Generalife في غرناطة حيث كنتُ قبل سنوات قليلة فقط أرسم في مخيلتي مستقبل حياتي مع ستيفن، وقد أصبح ذلك المستقبل واقعًا تجاوز أقسى توقعاتنا؛ كنتُ متعبة ولكني أشعر بالخفّة بحيث كانت سعادتي تفوق تعبي، وكان ستيفن قد نال الاعتراف بأهميته في الدوائر العلمية لإلمامه وبراعته في معالجة المفاهيم المعقدة، وقدرته على تصور البناء الرياضي بشتى أبعاده ولذاكرته المتقدة؛ كان المستقبل أمامنا وقد تجسد فعليًا في طفلنا الرضيع الواعد.

إنْ كان المستقبل يبدو مطمئنًا فمفتاح هذا الاطمئنان يكمن في إدارة الوقت الحالي، وقد أصبحت الحياة على مبدأ أن نعيش كل يوم بيومه بدلًا من التخطيط

للمستقبل البعيد؛ كان نجمنا في صعود على المدى القصير، أما على المدى الطويل فقد بَدَتْ علامات الاستفهام الكثيرة التي وَسَمت مسيرة الجنس البشري قد تمحونا عن الوجود جميعًا، خصوصًا مع تصاعد حرب فيتنام واستخدام العلوم الكيميائية وآثارها الهائلة في هكذا صراعات، وسباق التسلح غير المنضبط في كل من الشرق والغرب؛ بحيث إن شرارة في مكان ما في العالم قد تشعل حريقًا على طول الكوكب وعرضه.

كنا نعيش في وقتنا الحاضر ولكن حتى هذه الطريقة في الحياة لم تكن خالية من العقبات غير المتوقعة؛ فعلى سبيل المثال عرض علينا الزوجان البرازيليان اللذان قدما لنا الشقة بكل محبة، أن يأخذونا في جولة لزيارة معالم سان فرانسيسكو، وللوهلة الأولى أملتُ بالذهاب والاستمتاع بوقتي؛ وصلا باكرًا في صباح السبت مصطحبين معهم صديقًا برازيليًا لا يتكلم الإنكليزية، ساعدتُ ستيفن على نزول الدرج متوقعة أننا سنجلسه في سيارة الأصدقاء البرازيليين أولًا قبل أن أعود للمجيء بروبرت الذي سأجلسه على ركبتيّ، وللمفاجأة لم أجد أمام المنزل سوى سيارتنا البليموث إضافة إلى سيارة فولكسفاغن رمادية قديمة، وعندما سألت ضيفنا البرازيلي عن سيارته نظر إليّ متفاجئًا وأخبرني بأننا لن نستخدم سيارتهم؛ فهي صغيرة جدًا علينا، وقال: «من الأفضل أن نستخدم سيارتكم»؛ استقلينا سيارتنا حيث جلس ستيفن في المقعد الخلفي مع السيدات البرازيليات، فيما جلس ضيفنا على المقعد الأمامي يوجهني على الطريق وروبرت مستلق على ركبته، حيث كانت نظرة واحدة من روبرت إلى ذلك الشخص الغريب الذي يُجلسه على ركبتيه كافية لجعله يصرخ باكيًا كما لم يفعل من قبل.

ظلّ يبكي طوال الطريق عبر جسر أوكلاند وخلال الاختناقات المرورية التي عانيناها، وعلى طول الشوارع الصاعدة والهابطة التي مررنا بها وسط سان فرانسيسكو، كاد رأسي ينفجر وكنتُ بحاجة ماسّة إلى الراحة بينما كان عليّ أن أقود السيارة متحملة هذه الضغوطات كلها، مسجونة خلف المقود في وضع عبثي وموقف ليس من صنعنا.

لم نشعر بالهدوء حتى وصلنا أخيرًا إلى حديقة البوابة الذهبية، انفصلنا عن بقية ركاب السيارة، وانضممنا إلى تجمع كبير يقيمه الهيبيون من أجل السلام، جلسنا على المرج الأخضر نتمايل على وقع الموسيقى حيث كان معظم الأشخاص في عمر قريب من عمري ولكنني كنتُ أبدو أكبر منهم؛ كنتُ وستيفن نشاركهم مثاليتهم ونبذهم للعنف، وكذلك كنا نؤيد الحرية ضد مجتمع جامد وضيق الأفق، ولكن كنا مضطرين على اتباع الروتين الجامد المفروض من قِبل المجتمع، ورغم أننا نشاركهم معارضة حرب فيتنام فإن قضيتنا الأساسية كانت توجيه جهودنا ضد الجهل والمرض.

بعد ذلك اليوم قررتُ ألا أعتمد على الآخرين مرة أخرى، ولكن كان الحديث عن هذا القرار أسهل من وضعه موضع التنفيذ، فقد قَبِل ستيفن دعوةً ملحة لقضاء بعض الوقت في قسم تشارلي ميسنر Charlie Misner في جامعة ميريلاند University of Maryland؛ كانت واشنطن العاصمة على الطريق الرئيسة، فارتأينا أنّ بعض الأسابيع الإضافية لن تشكّل فرقًا كبيرًا، بالإضافة إلى أنّ التوقف في منتصف الرحلة سيكون أمرًا مريحًا لنا جميعًا، وخاصةً روبرت لمواجهة اضطراب الرحلات الجوية الطويلة، كما كنا نتطلع للقاء ماري شقيقة ستيفن؛ وهي طبيبة تعمل في الساحل الشرقي، وكذلك زيارة صديقه القديم جون مكلينهان John McClenahan، وزوجته الأمريكية التي تتحدث الإسبانية والمفعمة بالحيوية وعائلتها في فيلادلفيا.

جلسنا في الصف نفسه مع سيدة في منتصف العمر ظلّت تبكي طوال الرحلة، وقد كانت بين الفينة والأخرى تنظر إلى روبرت بشيء من الشوق فكنت أُقرّبه منها فتعانقه لبعض الوقت مع ابتسامة شاحبة على وجهها فيما كانت ضحكاته تعلو، واقترب صديقها عبر الممر ليقول لي إنها كانت في طريق العودة من فيتنام، حيث قُتل ابنها الوحيد؛ كان لدى الهيبيين الحق في معارضة استخدامهم بوصفهم وقودًا للحرب، في حين لا يملك العديد منهم الحق في التصويت أو حتى الحق في شراء الشراب لأنفسهم، حيث كان سن الرشد ما زال محددًا بواحد وعشرين عامًا. كان بعضهم محظوظًا بذلك فهم كطلاب سيتم تأجيل استدعائهم للخدمة في الجيش، وبذلك فإن

أساتذتهم الجامعيون سيحاولون مساعدتهم لتجنب التجنيد، وبعضهم سوف يهرب إلى الخارج؛ كندا مثلًا، فيما لم يحالف الحظ ابن تلك المرأة التي كانت على الطائرة.

لم تأتِ زيارتنا لعائلة ميسنر في ميريلاند في أفضل توقيت؛ لأنّ سوزان كانت منغمسة في معركة يومية شرسة مع إدارة المدرسة التي رفضتْ ابنهما الأكبر فرانسيس؛ لأنه يعاني توحُّدًا خفيفًا، وقد قابلنا ماري شقيقة ستيفن، وأمضينا عطلة نهاية الأسبوع مع عائلة مكلينهان ولكني كنتُ منهكة وأشعر بالاكتئاب، خاصةً أني اضطررت إلى اللجوء إلى حليب الأطفال لتغذية روبرت. جلستُ على السرير في قسم الطابق السفلي في منزل عائلة ميسنر الفخم باكيةً؛ لأني اضطررت إلى كسر ذلك الرابط الطبيعي في عملية إرضاع طفلي.

إذا كان لزجاجات الشراب تداعيات نفسية بالنسبة إلي، فإنّ تداعياتها المادية كانت أسوأ بالنسبة إلى عائلة ميسنر، فذات مساء تحلَّقنا حول طاولة عشاء رائعة أعدَّها كل من تشارلي وسوزان ليقدمانا إلى بعض الأصدقاء، وكان جميع الأطفال نائمين فجلسنا حول الطاولة نأكل ونشرب ونتبادل الأحاديث والضحك، ومن ثم شيئًا فشيئًا بدأ الجميع يشعر بالخمول وبتلك الحالة من الكسل اللذيذ، وأخذنا في هذه الأثناء نتابع مجموعة صور عائلية قام تشارلي بعرضها علينا، وفي ذلك الجو من النعاس والخمول تنبهت فجأة إلى رائحة سيئة جدًّا قادمة من المطبخ، ومن ثم تم الكشف عن الحقيقة المؤسفة وبدأ الجميع بالسعال والتعبير عن مشاعر الضيق، كنتُ مسؤولة عن تلك الرائحة السامة؛ فقد وضعت زجاجات الحليب البلاستيكية الخاصة بروبرت مع الجزء المطاطي منها على الموقد لتعقيمها بالماء المغلي، فنسيتها ونحن في ذلك الجو البهيج، فتبخرت المياه تمامًا، وامتلأ المطبخ بالدخان الأسود الذي انتشر بدوره في أرجاء المنزل، ولا أعتقد أني كنت لأتفاجأ وقتها لو تم رمينا في الشارع مع طفلي. بالنسبة إلى تشارلي وسوزان فهما لم يفعلا شيئًا وفي اليوم التالي تصرَّفا بدرجة مذهلة من اللطف، ولا بد أنهما كانا مسرورين للغاية عندما لوَّحا لنا يودعاننا ونحن نغادر منزلهم، وكذلك يودعان روبرت ابن الأربعة شهور.

2
تيرا فيرما Terra Firma

تغيّرت حياتنا إلى الأفضل من بعض النواحي وإلى الأسوأ من نواح أخرى بفعل تلك الرحلة إلى سياتل والمناطق المجاورة، وقد استفدنا كثيرًا من الأموالً التي حصل عليها ستيفن لقاء محاضراته التي ألقاها عبر الأطلسي طوال تلك الشهور، فأصبح بمقدورنا شراء غسالة أوتوماتيكية كنا بحاجة ماسة لها مع مجفف كذلك، فيما كان يبدو ذلك رفاهية زائدة بالنسبة إلى أسرة بريطانية خلال الستينيات، ولكن ستيفن رأى أن نمط حياتنا يتطلب المزيد من الأدوات الكهربائية؛ نشأ هذا الواقع المحلي ذات مساء يوم جمعة لاحقًا في عام 1967، عندما قمنا بتحضير حفل عشاء كبير للعالم الروسي البارز فيتالي غينزبورغ Vitaly Ginzburg، الذي جاء من موسكو إلى كمبردج في زيارة تمتد لثلاثة أشهر، ولم يكن طول مدة الزيارة هو الشيء الاستثنائي الوحيد في مناخ الحرب الباردة تلك الأيام، وإنما كذلك زوجته الشقراء الفاتنة؛ كانت كمية الأواني المكدسة في الطبخ في اليوم التالي دليلًا على نجاح حفل العشاء، كان ستيفن يقف في المطبخ مستندًا إلى الجدار يمد يده ليحضر المنشفة فاستاء من كمية الصحون المتكدسة، وفي اليوم التالي طلب مساعدة جورج إيليس لشراء غسالة صحون.

كانت هناك آثار أخرى لرحلة أمريكا ولكنها أقل وضوحًا، فقد أصبح للظاهرة التي كان ستيفن يعمل عليها اسمًا ملهمًا وهو (الثقوب السوداء)، وقد كان أقلّ إزعاجًا من (انهيار الجاذبية)، وقد مهدت النظرية الطريق لرياضيات نظريات التفرّد، ووحّدت البحث العلمي في هذا الشأن، وقد أشعل الاسم كذلك مخيلة وسائل الإعلام؛ عزز ستيفن بفضل المدرسة الصيفية في سياتل موقعه العالمي بصفته رائدًا في هذا البحث، وتوسعت دائرة أصدقائنا بشكل كبير. وقد قام ستيفن بحسابٍ معين بخصوص روبرت، فالوقت الذي قضيناه في العودة إلى إنكلترا خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر، طار روبرت مسافة شاسعة مقارنةً مع عمره، ومن ثم فحتى خلال نومه فهو بالنسبة إلى النظرية ما يزال يتحرك. لحسن الحظ لم يكن روبرت منزعجًا من هذه الخصوصية

التي حصل عليها من خلال زيارته الأولى إلى أمريكا؛ أنا كذلك سافرت مسافة بعيدة ولكن خلافًا لروبرت فقد عانيتُ نتائج مؤذية طويلة الأمد بسبب هذه الرحلات؛ كانوا قد زرعوا بذور الخوف من الطيران، وقد نما هذا الخوف بداخلي حتى أصبح كأعشاب عملاقة لأشهر وسنوات بعد عودتنا إلى الوطن، وبالمقارنة مع موقفي اللامبالي عندما كنتُ طالبة قبل عامين فقط، فقد كان هذا الخوف محبِطًا وغير مفهوم على حد سواء، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى بدأت تظهر لدي أعراض الرهاب (الفوبيا Phobia)، فعندما راجعتُ أحداث تلك الأشهر الأربعة في أمريكا اكتشفت أنّ المشكلة لم تكن في الطيران بحد ذاته -حيث إننا سافرنا بوساطة الطائرة لمسافات كبيرة وفي رحلات متعددة دون وقوع حوادث- وإنما المشكلة كانت بالظروف المصاحبة لتلك الرحلات من ضغوطات وتوترات، كانت هي المسؤولة بالكامل عن هذه الحالة؛ فقد مرت سبعة أسابيع بعد الولادة مليئة بالمسؤوليات والصعوبات تبلورت ببطء لتشكّل لدي حالة الخوف من الطيران، ولم يكن التعامل مع هذا الخوف بطريقة عقلانية ليجعله أكثر سهولة؛ لأني كنت أخجل من الاعتراف بهكذا ضعف، خاصة أنّ حياتنا كانت محكومة بمقولة ستيفن: «إذا كان هناك مرض جسدي في هذا المنزل، فلا مكان للمشكلات النفسية».

وعلى الرغم من حماس ستيفن لكل نجاح تحققه بحوثه وتصميمه على الإفادة من المؤتمرات والندوات والمحاضرات حول العالم، لحسن الحظ لم يكن هناك سفر في ذلك الشتاء الذي قضيناه في حالة مستقرة مريحة متكيفين من جديد مع الروتين المألوف للحياة الأكاديمية، حيث تمّ تجديد زمالة ستيفن للجامعة لسنتين أخريين، والآن مع روب دونوفان Rob Donovan زميله السابق الذي أصبح كذلك زميل بحوث كلية غونفيل وكايوس Gonville and Caius College، أصبح بإمكان ستيفن الاعتماد عليه لمساعدته للذهاب إلى الكلية لتناول الطعام مرة واحدة في الأسبوع. كان الروتين الخاص بي أكثر مرونة حيث تمثَّل بنضال مستمر للتوفيق بين احتياجات طفلي ومتطلبات أطروحتي، وعندما كنت ألعب مع روبرت كان ضميري يؤنبني لكي أهتم أكثر بالأطروحة، في حين كانت غرائزي الطبيعية تحثني على اللعب مع روبرت عندما كنت أعمل على الأطروحة، ولم تكن تلك حالة مُرضية، إلا أنها مع ذلك كانت الطريقة

الوحيدة التي أمكنني من خلالها الحفاظ على احترامي لذاتي في بيئة يتم فيها ازدراء الأطفال الرضع، وتنظر إلى الأمر على أنه مجرد حقائق ضرورية للحياة؛ من ناحية أخرى نالت الأطروحات كل الاحترام والتقدير.

في أواخر الستينيات لم تقدم الجامعة أي مرافق للحضانة على الرغم من وفائها للغرائز الذكورية. في الحقيقة كان الفضل لوالدتي في قدرتي على المثابرة والعمل بجد على بحثي وكذلك لمربية الأطفال التي ترعى ابن جيراننا الصغير أنيغو شافر، وقد كانت والدتي في كثير من الأحيان تأتي من كامبردج بوساطة القطار في وقت مبكر من يوم الجمعة، في الوقت الذي كنت أصطحب فيه ستيفن إلى العمل وتقوم برعاية روبرت بحيث يتاح لي المجال لأمضي معظم وقتي في مكتبة الجامعة؛ أجمع فيها الكتب والمواد الأخرى اللازمة لدراستي في المنزل خلال الأسبوع التالي؛ كانت مربية أنيغو تأخذ روبرت معها لساعة أو أكثر، حيث كان الطفلان يلعبان سوية وقت الظهيرة، فيتاح لي المجال كذلك للعودة إلى المكتبة؛ سمح لي نظام الحياة هذا كذلك بحضور وإقامة ندوات في لندن، مطمئنة إلى أنّ روبرت يلقى العناية المناسبة، ومطمئنة كذلك على ستيفن بفضل جورج إيليس الذي كان يأخذه لتناول الغداء مع مجموعة النسبية Relativity Group في المركز الجامعي الذي افتُتح حديثًا، وبهذا كنتُ قادرة على متابعة مشروعي الخاص في اكتشاف أوجه التشابه والتباين اللغوية والموضوعاتية بين المدد والمناطق الثلاث الرئيسة لقصائد الحب في العصور الوسطى في إسبانيا، وهكذا ففي حين كان ستيفن يجوب الكون بعقله كنت أنا أسافر عبر الزمن، إلى زمن قصائد الخرجة kharjas الإسبانية ومدة ازدهار الشعر الشعبي في اللغات الرومانسية، وقد بدأتُ بحثي بتوثيق مفردات المستعربين -وهي أوائل اللهجات التي نتجت عن التمازج بين الثقافة الإسبانية والإسلامية- المستخدمة في قصائد الخرجة التي تتألف من نهاية المقطع الأخير من الموشح (قصيدة عربية أو عبرية تأتي بشكل ثابت وتمّ ابتكار هذه القصائد في الأندلس في إسبانيا خلال العصور الوسطى الإسلامية)، وكنتُ أنوي توسيع عملي إلى الجاليكية - البرتغالية Cantigas de Amigo من القرن الثالث عشر وأخيرًا إلى القرن الخامس عشر؛ حيث اللغة القشتالية الشعبية أو الفيلانسيكوس villancicos.

وجدتُ في هذه المجالات الثلاث المزدهرة غنائيًّا والمتباينة في الزمان، وكذلك في المكان العديد من القواسم المشتركة؛ فالأغاني ترددها فتاة، تعهد بأسرارها تلقائيًّا إلى أمها أو شقيقاتها، وفي كثير من الحالات تم اشتقاق الصور من هذه الكلمات العذبة البسيطة من لغةٍ ذات خلفية دينية مسيحية.

هناك العديد من النظريات المتضاربة بخصوص مصدر وتفسير الشعر وخاصة قصائد الخرجة، وكان عليّ بوصفي طالبة بحوث مبتدئة أن أجد طريقي خلال هذه المتاهة في مكتبة الجامعة، وأمضي وقتي في مطالعة كمّ كبير من الكتب والمخطوطات الضخمة، والسعي للحصول على بعض المواد النادرة في مجلات نادرة، وكذلك البحث في المراجع والحواشي وأعمال النقد الأدبي الكثيرة، ومن ثم أدوّن ملاحظاتي في المنزل خلال الأسبوع التالي.

وصلتُ في بعض الأحيان إلى المخطوطات الأصلية لقصائد من العصور الوسطى، وهي تجربة لا تُنسى رغم أنها لم تضف الكثير إلى بحثي؛ وذلك لأنّ الإغراء يطغى على المحتوى اللغوي، بحيث إن دقة النص كانت تشتت انتباهي تمامًا.

على الرغم من أنه كان عليّ أنْ أشقَّ طريقي عبر أكوام من المواد المهمة التي تتطلب بحثًا شاقًّا، إلا أنني كنت أستمتع في تلك الساعات التي أقضيها في المكتبة؛ أحببتُ ذلك الفضول والوقار الذي يشعُّ من معبد المعرفة على روّاده الذين يجوبون أنحاءه كظلالٍ صامتة، حيث يغيب كل طالب سواء كان شابًّا أو متقدمًا في العمر في سفينته الخاصة مبحرًا في عالم المعرفة والعلم، مؤكدين على حرية أنْ تتمكن من القراءة والكتابة دون انقطاع.

كانت قراءة الشعر بحد ذاتها تعوض عن الملل الذي قد ينطوي عليه البحث في بعض جوانبه، لا سيما قصائد الخرجة التي تم شرحها وتحريرها ونشرها عن طريق صامويل شتيرن Samuel Stern، وهو باحث في جامعة أوكسفورد اكتشف في عام 1984 في القاهرة أولى مخطوطات هذه القصائد؛ حيث رأى فيها في البداية نصوصًا عربية أو عبرية لا معنى لها، ثم وجد أنه من خلال كتابة الأجزاء بالأحرف الرومانية ثم

إضافة الأحرف الصوتية، تصبح هذه النصوص قطعًا شعرية عربية وعبرية تنبض بالجمال والحب والعاطفة؛ قام شتيرن -على سبيل المثال- بكتابة مجموعة من الأحرف العبرية بالأحرف الرومانية الساكنة:

Garid vos ay yermanellas com contenir a meu male Sin al-habib non vivireyu advolarey demandare

وبصرف النظر عن الصيغة القديمة لهذا النص وعن كلمة عربية واحدة ترد فيه (الحبيب al-habib)؛ فالقصيدة واضحة تمامًا لمن يتحدث اللغة الإسبانية الحالية:

أخبروني يا شقيقاتي الصغار

كيف أحتمل حزني

كيف أعيش دون حبيبي

سأطير بعيدًا بحثًا عنه

في قصيدة أخرى من قصائد الخرجة وفي إشارة واضحة إلى خلفيتها المسيحية، تبكي حبيبها بمرارة:

Venid la pasca ayun sin ellu...

...meu corajon por ellu

جاء الفصح مرة أخرى دون أن يأتيني به .. قلبي له

عندما يعود الحبيب فهو يأتي كالشمس حاملًا بهاء الفجر، ففي هذه القصائد يلتقي العشّاق فجرًا، وسوف يلتقون كذلك في فجر عصور الشعر الإسباني الغنائي الشعبي، على عكس التقليد البروفنسي المتقدم حيث يفترق العشّاق عند الفجر.

non dormiray mamma

a rayo de mañana

Bon Abu 'l-Qasim

la faj de matrana

لن أنام في ضوء الصباح يا أمي

يا أبا القاسم الطيب

يا وجه الصباح

ولكن بالنسبة إلي، فقد فتنتني القطع الشعرية التي تبكي فيها الفتاة مرض حبيبها بكلمات تفطر القلب:

Vaisse meu corajon de mib

ya rabbi si se me tornerad

Tan mal me doled li 'l_habib

enfermo yed cuand sanarad

قلبي الذي غادر جسدي

هل سيعود يومًا ما؟

كبير هو حزني على حبيبي

مريضٌ .. متى يتعافى؟

3
الكرات السماوية

في إحدى قصائد الخرجة الكلمة الوحيدة المفهومة هي enfermad أي (مريض)، على الرغم من أنّ كوني طالبة مسجلة في لندن كانتْ خطوة تكتيكية جيدة، ولكني في الحقيقة كنتُ معزولة جدًّا في كمبردج، إلا أنّ الندوات واللقاءات التي كانت تتم تحت إشراف أستاذي آلان ديرموند Alan Deyermond كانت دائمًا محفزة، ولكنَّ الفرص التي أتيحت لي للذهاب إلى لندن كانت نادرة؛ لم يكن لدي في كمبردج حيث كنت أقرأ في المكتبة وأكتب في البيت، أي منتدى لمناقشة ما أعمل عليه؛ بفضل الدكتورة دوروثي نيدهام Dorothy Needham انتسبتُ إلى كلية لوسي كافنديش Lucy Cavendish College، التي تأسست حديثًا للطالبات من النساء الناضجات، وبفضل التنظيم الدقيق -الذي يتضمن رعاية روبرت وستيفن- تمكنتُ من الخروج مرتين إلى أمسيات العشاء التي كانت تقيمها كلية لوسي كافنديش في جامعة تشرشل Churchill College.

جاء الحل لعزلتي الأكاديمية بشكل غير متوقع، وذلك من خلال صداقة روبرت مع ابن جيراننا أنيغو شافر، حيث كان أحد الضيوف في عيد ميلاد أنيغو فتاة مرحة ذات شعر بني محمر، تبلغ من العمر ست سنوات واسمها كريسيدا درونك Cressida Dronke، كانت ترتدي نظارات شمسية ذات عدسات ملونة، تلعب برفقة مجموعة من الصبيان الصغار وأمهاتهم ومربياتهم مذهولات منهم وهم يمثلون قصة روميو وجولييت، حيث بدا على كريسيدا منذ ذلك العمر المبكر أنها من مرتادي المسرح منذ سن الطفولة.

كنت أعرف بيتر درونك Peter Dronke الذي حاضر في العصور الوسطى اللاتينية، من سمعته الرائعة بحسبانه واحدًا من العقول المهمة في كمبردج، والذي لم تقتصر سعة اطلاعه على مجال اختصاصه في القرون الوسطى اللاتينية، وإنما تشمل كذلك سلسلة كاملة من الدراسات الأدبية لأدب العصور الوسطى بما في ذلك مجال بحثي،

وقد قادت تلك الصدفة السعيدة بلقائه إلى اكتسابي صفة مشرف بديل غير رسمي في كمبردج؛ حيث كان بيتر على استعداد دائم لمشاركة معلوماته الموسوعية وتقديم الاقتراحات المفيدة والبنّاءة، فيما كانت زوجته أورسولا Ursula باحثة في الملاحم الاسكندنافية والآيسلندية القديمة، وكانت مصدرًا دائمًا للتشجيع والدعم، وكانت آخر نتيجة مهمة من لقائي ببيتر وأورسولا أنهما دعاني للانضمام إلى الندوات غير الرسمية، التي كانا يستضيفانها في منزلهما في أمسيات الخميس خلال الفصل الدراسي، ويمكنني القول بحق إنّ بيتر كان الأقدر من بين الجميع على مناقشة بعض الموضوعات الصعبة الشرح في الندوات؛ بسبب تخصصيتها الشديدة التي تغطي معظم مدة الأدب الأوروبي الكلاسيكي وأدب القرون الوسطى، حيث جلسنا نحن الطلاب باحترام على السجادة الملونة تمامًا عند أقدام بعض أعظم باحثي وقتنا الحالي.

لقد فوجئتُ واستمتعتُ بقدرة تلك الندوات على تقريبي من الأطر الفلسفية للدراسات الكونية، بما فيها علم الكونيات في العصور الوسطى، وساعدت النقاشات العديدة بخصوص فكر القرن الثاني عشر التي انبثقت من باريس، لا سيما من مدرسة تشارترز Chartres الكاتيدرائية، التي كانت تعتقد بأنّ موضوعات الجنس البشري يمكن دراستها وفهمها من خلال الأرقام والأوزان والرموز الهندسية.

كانت الجامعات الجديدة في كل من باريس وأوكسفورد في قلب النقاش الفكري المكثف الذي يقوم في المقام الأول على مناقشة طبيعة الإله والخلق ونشأة الكون التي شغلت أذهان العلماء واللاهوتيين، وقد قامت نهضة قوية في القرن الثاني عشر تدين بالكثير إلى الأفكار المبتكرة القادمة من إسبانيا، حيث استعادت القوى المسيحية في عام 1805 مدينة طليطلة/توليدو Toledo من المغاربة، وكانت النتيجة أنْ أصبحتْ تلك المدينة المختلطة متعددة اللغات واحدة من أغنى المراكز الثقافية في أوروبا، والمعروفة بأنها إحدى أكثر مدارس الترجمة ازدهارًا على حساب تراثها الخاص من الأدب العربي والأعمال التي يُفترض أنها فُقدت من العصور الكلاسيكية القديمة.

في القرن الثالث عشر قام ألفونسو العاشر حكيم قشتالة Alfonso the Wise of Castile بتوسيع دور طليطلة كمركز رئيس للترجمة والمنح الدراسية من خلال مشاركته هو نفسه في أنشطتها الثقافية، كرائد في استخدام اللغة الإسبانية بدلًا من اللاتينية لتدوين الوثائق وإنجاز المشاريع التاريخية المختلفة بالإسبانية كذلك؛ كانت المشاريع الصادرة عن بلاطه أكثر أهمية من مشاريعه الأخرى، وشملت كتابًا عن الشطرنج ونظريات ابن الهيثم العالم العربي من القرن الحادي عشر، التي تدرس طبيعة الضوء ومن ثم إرساء الأسس التي سيعمل عليها ليوناردو دا فينشي في شمال إيطاليا في القرن الخامس عشر، والأهم من ذلك كتاب المجسطي لعالِم الرياضيات والفلك السكندري بطليموس من القرن الثاني قبل الميلاد.

كان الكتاب باللغة اليونانية ولكن المجسطي Almagest كان متوافرًا فقط بالنسخة العربية، حتى أمر ألفونسو بترجمته في طليطلة، وقد استند نموذج بطليموس للكون على مفهوم أرسطو بخصوص مركزية الأرض وثباتها، وأنّ الشمس والقمر والكواكب والنجوم تدور حولها. في العصر البطلمي أو ما يسمى (مركزية الأرض) عُدَّت الأرض ثابتة في مركز الكون فيما تدور حولها الأجرام السماوية ضمن مسارات خاصة بها، وتمّ إدخال نظام أصغر من حركة المدارات لحساب التفاوت المعروف في حركة الأجرام؛ كانت النجوم ثابتة في السماء وراء مدار كوكب زحل، وكان ما وراءها هو المحرك الأول the primum mobile، القوة الإلهية الغامضة التي تقف وراء هذه الحركات الدورية للكواكب؛ ذلك الكمال، الحركة الدائرية التي دفعت الكواكب في مسارها في تناغم سماوي وانسجام تام، لم يتفق نموذج بطليموس تمامًا مع وجهة النظر الدينية بخصوص الكون بحسبان الأرض مسطحة تقع الجنة فوقها في السماء فيما يقبع تحتها الجحيم، ولكن بما أنه كان بالإمكان أن تتفق معها بغض النظر عن الأفكار المحددة المزعجة التي أصبحت أحد الركائز الدينية في العالم المسيحي، والتي دفعت لاستجواب الفلكي البولندي كوبرنيكوس في القرن السادس عشر؛ كان هذا النموذج الثابت للفلك والأرض هو أهم المعاني الضمنية للكنيسة المسيحية، والذي يؤكد مركزية الأرض والإنسان بحسبانه الكائن الأساسي الذي يسكنها، ومن ثم يتركز الاهتمام الإلهي فقط عليه وعلى سلوكه.

حضر ستيفن واحدة من هذه الحلقات الدراسية حول النماذج الكونية الأولى في غرفة المعيشة في بيت درونك مع زميله من الوزارة نايجل فايس Nigel Weiss، الذي كانت زوجته جودي إحدى المشاركات في الندوة؛ اضطر العالِمان إلى الاعتراف بأنّ أفكار الفلاسفة تييري من تشارترز Thierry of Chartres وآلن من ليل Alan of Lille، وروبرت غروستيست Robert Grosseteste وروجر باكون Roger Bacon من القرن الثالث عشر ضمن آخرين غيرهم، كانت أفكارًا غير عادية ودقيقة وبعيدة النظر بما في ذلك المرأة الفيلسوفة الألمانية ذات العقل الجبار الراهبة هيلدغارد من بينغن Hildegard of Bingen، التي ابتكرت تصورها الخاص الذي رأت فيه الكون على شكل بيضة وقد سبقت عصرها في ذلك، فلم تكن فقط رائدة فضاء في وقت مبكر بل اقترحت أيضًا أنّ على المرأة الجيدة أن تسلك مسارًا بعيدًا عن القيود الاجتماعية والدينية التي تسبب بها ضعف الرجال، وتحقيقًا لهذه الغاية قامت برحلات تبشيرية على طول نهر الراين لتدحض ادعاءات المهرطقين وتصحح الأخطاء الاجتماعية.

صدمتني مفارقات عدة في أثناء هذه الندوات خاصة تلك الندوة التي حضرها ستيفن ونايغل فايس والتي كانت أغناها، كان ذلك في النصف الثاني من القرن العشرين حيث كان وضع المرأة في المجتمع وفي الحقل العلمي قد تقدم بخطىً بطيئة منذ القرن الثاني عشر، على الرغم من تأكيدات هيلدغارد المتكررة على قوة المرأة وأهميتها، أما فيما يتعلق بالعلوم الكونية فقد كنت أستمتع بانعكاس التقدم العلمي ثورةً اجتماعية في القرن العشرين وتفكيك بعض المفاهيم البالية المرتبطة بمفاهيم علمية مقابلة أصبحت قديمة؛ فنظام بطليموس الذي كان مقبولًا بشدة في القرن الثالث عشر تمكن كوبرنيكوس من اقتلاعه من جذوره، وكان لا بد أن ينعكس هذا التغيّر المهم في النظرة إلى الكون على النظرة إلى الإنسان ودوره في هذا الكون كذلك،

وخاصة المبدأ الأساسي الذي ساد في القرن العشرين وهو المبدأ الإنساني أو الأنثروبي anthropic principle[1]

كانت هذه الموضوعات خلال مدة نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من الموضوعات التي أمضى ستيفن ساعات طويلة في مناقشتها مع براندون كارتر Brandon Carter، وكنا نسافر عادة مساء السبت خارج كمبردج إلى كوخ في البريّة حيث قام براندون وزوجته البلجيكية لوسيت بترميمه إثر زواجهما مؤخرًا.

كنت أغتنم ولوسيت الفرصة للخروج بروبرت في نزهة طويلة عبر الحقول نتحدث بالفرنسية حول كتبنا المفضلة والرسامين والموسيقيين، وكنا أيضًا نعد الشاي والعشاء فيما براندون وستيفن مستمرين في نقاشاتهما الكونية.

المبدأ الإنساني كما فهمته من شروحات ستيفن في تلك اللحظات النادرة عندما كنا نناقش أعماله معًا، جعلني أتساءل عن مدى التقارب الفلسفي مع النظرة إلى الكون في العصور الوسطى؛ كما في ذلك العصر؛ ففي الكون البطليمي يقع الإنسان كذلك في مركز الخَلق في المبدأ الإنساني، أو بتعبير أدق بما يُعرف بالنسخة القوية. يقول مؤيدو المبدأ الإنساني إنّ الكون الذي نوجد فيه هو الكون الوحيد الممكن لوجودنا نحن، فمنذ الانفجار الكبير قبل قرابة 15 مليار سنة سارت الأمور وفق شروط محددة كانت تنطوي على صدف كيميائية، وضبط جيد للمادة بالطريقة اللازمة لتطور الحياة الذكية، ومن ثم الحياة الذكية هي وحدها من يمكنها أن تسأل لماذا يكون الكون على هذه الشاكلة، ولكن هذا السؤال يُعدّ لغوًا، فالجواب هو أنه لو كان كوننا موجودًا بطريقة مختلفة، فلن تتوافر عليه حياة ذكية، ومن ثم لن يكون هذا السؤال

(1) أطروحة تقول إن الكون حتمي حيث تكون معادلاته وقوانينه الطبيعية مناسبة لظهور أنواع حياة ذكية، فلو كانت الجسيمات الأولية مثل الإلكترون والبروتون ليست بصفاتها الموجودة (مثل مقدار الشحنة ونوعها وكتلة كل منهما) والقوانين التي تحكمها، لكان من غير الممكن نشأة الحياة على الأرض بما فيها نشأة الإنسان نفسه، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي بمقدوره وصف الكون ومراقبته وتحليله فيزيائيًّا.

مطروحًا، لذلك ما زال من الممكن للبشرية أن تعدّ نفسها في مكانة مميزة في مركز الكون تمامًا كما النظام البطليمي.

في حين أنّ هذه الخصوصية كانت تعني لإنسان العصور الوسطى علاقة خاصة وفريدة بينه وبين الخالق، ولكن علماء العصر الحديث أظهروا رفضًا تامًّا لاستخدام المبدأ الإنساني بهدف الوصول إلى معتقدات كهذه.

على الرغم من أنّ الكون الحديث غير محدود بمفاهيم القرون الوسطى بخصوص السماء والجحيم فإنه في كثير من النواحي يُعدّ بيئة أكثر عدائية من نظيره في القرون الوسطى بدقة تنظيمه العالية، إلا على حساب درجات الحرارة العالية والمساحات الشاسعة من الفضاء والوقت حيث يظهر الجنس البشري في عزلة انفرادية؛ في عام 1968 مرت لحظة عابرة بدا من خلالها وكأننا لسنا وحدنا في هذا الكون الضخم المظلم.

ففي ظهيرة أحد الأيام من شهر شباط/فبراير من ذلك العام كنتُ مدعوة من الإدارة وكانت غرفة الشاي تعج بالإثارة، فقد التقطتْ طالبة بحوث في علم الفلك المذياعي اسمها جوسلين بيل Jocelyn Bell وأستاذها المشرف أنتوني هيويش Antony Hewish إشارات مذياع منتظمة من الفضاء الخارجي، من خلال مجموعة من التلسكوبات اللاسلكية المتمركزة على طول سكة الحديد المهجورة بين كمبردج وأوكسفورد على جسر لورد Lord’s Bridge على بعد قرابة ثلاثة أميال من كمبردج؛ هل كانت تلك الإشارات هي اتصالنا الأول مع حياةٍ خارج الأرض؟ رجالٍ خضر صغار مثلاً؟ وعلى سبيل المزاح قاموا بتسمية المصدر الأول لهذه الإشارات بالأحرف الإنكليزية التي تختصر عبارة (الرجال الخضر الصغار) LGMs؛ انتهت الإثارة عندما تمّ التعرف لاحقًا على مصدر هذه الإشارات، وقد كان نجمًا نيوترونيًّا وبقايا صغيرة من النجوم على بعد قرابة عشرين ميلًا وذات كثافة عالية تقارب مئات ملايين الأطنان لكل بوصة مكعبة، ولم تكن هناك من فرصة لنشوء حياة على النجوم النيوترونية.

بشكل غريب كشفت المعادلات عن وجود جمالٍ رياضي خارق يحبس الأنفاس، وقد عكس هذا الاكتشاف عجائب خفية للكون شكَّلت ما يمكن حسبانه نسخة حديثة للعالم الأفلاطوني؛ في القرن الخامس قبل الميلاد تحدث أفلاطون، والذي هو أستاذ أرسطو والمؤثر الرئيس في فكر القرون الوسطى، تحدث عن نظرية الأشكال، أو الكمال الذي لا علاقة له بالحواس، والذي يمكن للعقل فقط أن يميزه، فكل صيغة أو فكرة مثالية يوجد لها نظير ماديّ مقابل وغير كامل على الأرض، وفرض التقديس الذي تعامل وفقه علماء العصر الحديث مع رياضيات الكون إرهاصات مماثلة لفكرة الكمال الأسمى، ولكن للأسف لم يكن من السهولة بمكان الوصول بهذه التلميحات والإرهاصات إلى أولئك الذين لا يجيدون التعامل مع المصطلحات الرياضية.

في مواجهة الحجج العقلية العقائدية المتحجرة، لم يكن هناك من غاية لطرح الأسئلة الروحانية والدينية، وإنما ذهبت الأسئلة بشكل معاكس تمامًا للواقع الأناني الذي تفرضه النظرية الوراثية، فقضايا الضمير والأخلاق وتقدير الفنون كانت أفضل ما تبقى من الإرث السابق دون أن تصبح ضحية المقاربة الوضعية؛ بقي موقفي كما هو ضد الدين بوصفه مؤسسة منذ طفولتي، ولم أزر أي من الكنيستين بشكل منتظم ولكني التمستُ قدسية ما في حديقة سانت ماري Little St Mary's؛ حيث قامت ثيلما تاتشر Thelma Thatcher بتخصيص قطعة أرض صغيرة مقابلة لمنزلنا.

هناك، بين الورود والأزهار كان بإمكاني الشعور بالراحة وإشعال النار والاعتناء بالنباتات فيما كنتُ أدرس النظريات والأسرار والحقائق؛ كان روبرت وانيغو يلعبان على طول المسارات المتعرجة ويتسلقان الأشجار فيما كنتُ أعمل، وبزغت الحياة في الحديقة المقدسة القديمة مع موسيقى أصواتهم الشابة والأزهار الوردية والبيضاء التي قدمها لي ستيفن في عيد ميلادي، كانت وردة روزا غاليكا Rosa gallica الشهيرة المسماة روزاموندي Rosamundi على اسم روزاموند عشيقة هنري الثاني.

4
أنشطة خطِرة

بما أنّ حديقة الكنيسة كانت مغلقة فقد كان بإمكان روبرت أن يلعب هناك بأمان ويفرّغ طاقاته الكبيرة، فمنذ طفولته المبكرة كان من الواضح أنّ طاقته تبلغ ضعف أقرانه على أقل تقدير، وبصرف النظر عن كل ما لدي من مفاهيم بخصوص أنماط نوم الرضّع وحديثي الولادة فقد اكتشفت خلال ثمانية أسابيع تقريبًا أنّه على وشك أن يتمكن من الوقوف على قدميه، ولن يجلس بعد ذلك على ركبتيّ، وحتى عندما كنا في سياتل فقد تلقينا دعوة لحضور جلسة تصوير مجانية من قِبل خدمة حفاضات الأطفال؛ حيث قاوم روبرت المحاولات كلها لجعله يستلقي على وسادة، ويمد رأسه بحياء من تحت الغطاء الذي يغطي رأسه، مما أفقد المصور أعصابه عندما اضطر إلى السماح بظهور ذراعيّ في اللقطة.

بعمر السبعة أشهر وجد هذا الطفل المبدع طريقة ليفكك سريره؛ بحيث كان علينا ربط جميع الوصلات والقطع التي تستخدم في التثبيت ببعضها؛ لمنعه من السقوط على الأرض، ومع ذلك كنا كلما غلبنا النعاس بعد تثاؤب طويل نذهب إلى النوم، واثقين أنّ روبرت يغط في نوم عميق بعد أن أقرأ له مطولًا إحدى قصص الأطفال، ولكننا سرعان ما كنا نسمع وقع أقدامه الصغيرة قادمة أسفل الدرج لينضم إلينا بعد العشاء، فمنذ لم يعد بإمكانه تفكيك سريره تعلّم روبرت أنْ يقفز فوق العارضة، ثم يسقط على الأرض تحتها حيث كنا نغط جميعنا في النوم معًا قرابة الساعة الحادية عشرة.

لقد شغلنا روبرت في مناسبات عدة، وتسبب لنا بالذعر في حوادث عدة حتى قبل أن يتقن الحركة. في ربيع عام 1968 اصطَحَبنا والداي إلى كورنول مرة أخرى برفقة أخي كريس. لحسن الحظ اقتنع روبرت بالجلوس في السيارة مربوطًا على مقعده بغض النظر عن طول الرحلة، وعندما جلسنا نحن البالغين عند المساء على كراسينا

في شقتنا المستأجرة، كان روبرت ذو العشرة أشهر قادرًا على المشي برشاقة بين قطع الأثاث، فانطلق في جولة في الطابق الأرضي، وفجأة سمعنا صرخة عالية قادمة من خلفي، لقد وضع روبرت يده على المدفأة الكهربائية ليوازن نفسه؛ حيث كانت المدفأة ساخنة ولم نكن منتبهين إلى أنها على وضع التشغيل الأقصى، كانت حروق يده شديدة ولكن بفضل التدريب الطبي لأخي كريس تمكن من معالجة حروقه، ورغم تلك الصدمة تمكنت من النوم بشكل جيد بعد أن اطمأننت إلى حالة روبرت في الليل، وفي اليوم التالي بحثت عن طبيب جيد فقد خفت أن تتورم يده، فقدم لنا الطبيب وصفة وضمادات، وقد عبَّر عن إعجابه بنوعية الإسعافات الأولية التي قدمها أخي لروبرت، وكلّفه بمواصلة رعايته.

في وقت لاحق من ذلك الصيف قمنا أنا وستيفن باصطحاب روبرت لأول مرة إلى ساحل نورفولك الشمالي، وواجهتُ هناك معضلة الحاجة إلى أن أكون في مكانين في وقت واحد؛ كان ستيفن يجد صعوبة في المشي على الرمال الناعمة وأنا كذلك، وكنت بحاجة إلى أتوافر معه ومع روبرت الذي كان يعدو بسرعة في الوقت نفسه، كنتُ أحمل أغراض ستيفن وكذلك الدلو والمناشف والكرسي الخاص بروبرت، ولحسن الحظ كان البحر بحالة الجزر فلم يكن هناك من خطر عليه.

في صباح اليوم الأخير توجهت إلى الطابق العلوي لحزم حقائبنا، وتركت ستيفن وروبرت في الطابق السفلي في القاعة الرئيسة، وكان هناك في الخلف غرفة مشمسة مزودة بسلم خشبي يصعد إلى كوخ صغير ويظهر أنها لم تستخدم وأُبقيت مغلقة طوال الوقت، بعد نصف ساعة من توضيب الأغراض نزلت إلى الطابق السفلي لأجد ستيفن يجلس وحيدًا في الغرفة الأمامية، سألته عن روبرت فأشار لي إلى الغرفة الخلفية، وأخبرني بأنّ روبرت ذهب إليها وأغلق الباب خلفه، وأنه -أي ستيفن- لم يتمكن من فعل شيء كما أني لم أسمعه حين ناداني.

وقفت أحملق في الباب برعب للحظات، ثم دخلت الغرفة ولم أجد أثرًا لروبرت، نظرت إلى الأعلى فوجدت روبرت يجلس أعلى السلم متربعًا كأنه يمارس اليوغا، فقفزت إلى السلم وأنزلته، لم ينزل روبرت في تلك الزيارة الأولى للساحل إلى البحر؛

لأن ساقيه كانتا قصيرتين جدًّا للوصول إلى حافة المياه، وكنت أمسك به لأمنعه من التهور بعد أن تركت ستيفن على كرسيه بين الكثبان الرملية والشاطئ، كنت أتنقل بينهما بسرعة تؤهلني لدخول السباقات الأولمبية، بعد سنتين أو ثلاث كان روبرت يلقي بنفسه بتهور إلى أي امتداد للمياه متاح أمامه سواء في البحر أو بركة السباحة، وفي وقت لاحق عندما كنا في زيارة إلى نورفولك عند عائلة إليس، قفزت سو في البحر بسرعة البرق لإنقاذ روبرت الذي اختفى فجأة في الماء، وأيضًا سقط مرة على الأعشاب بين الضفادع عندما زرنا والدَي بيل صديق ستيفن في كليغورنس Cleghorns.

تزامنت المدرسة الصيفية مع قفزة كبيرة للبشرية؛ الخطوة الأولى للإنسان على القمر، كنا نشاهد ذلك على شاشة التلفاز في غرفة الطلاب المشتركة، خطوات صغيرة كانت تصنع قفزات عملاقة على درب المعرفة، بدت حاجاتنا وهمومنا اليومية صغيرة أمام ما يحدث، كما كنت بدوري بحاجة حقًّا إلى قفزات عملاقة لمواكبة حركة روبرت الزئبقية، في حين كانت خطوات ستيفن قد أصبحت أكثر بطئًا وأقل ثباتًا؛ كنت أصطحبه في كل صباح من السكن الطلابي إلى قاعة المحاضرات على الجانب الآخر من الحرم الجامعي الجديد، ووفق سرعة ستيفن كانت القاعة تبعد خمس دقائق مشيًا، كان روبرت ابن سنتين فقط، وكان يقفز أمام السيارة حال وصولها قافزًا بعيدًا عنا أنا ووالده؛ كان العزاء الوحيد أنه كان يتمتع بحساسية عالية للاتجاه الذي يقوده إلى قاعة المحاضرات حيث سيثبت نفسه في الصف الأمامي، وقد أصبح مثارًا للتندر بين المندوبين الآخرين؛ فقد كان وصول روبرت في الصباح الباكر بمثابة إنذار بوصول ستيفن بعد خمس دقائق، فيقوم الحاضرون بتهيئة المذكرات والمحاضرات ريثما يصل.

في المنزل كان علينا أن نضع حاجزًا لمنع روبرت من الهروب وإلقاء نفسه في النهر؛ كنت أعاني في مشاويرنا المسائية لأجد وسيلة لاستنفاد طاقته دون أن أستنفد طاقتي أنا، خاصة أنه لن يقبل أبدًا بالعودة إلى المنزل من تلقاء نفسه قبل أن يصل به التعب إلى درجة الانهيار، ومن ثم كان عليّ أن أحمله بوساطة عربة الأطفال في طريق العودة، كان قلق والديّ مبررًا ووصفوا تمسكي بحياتي هذه بالهراء، في حين كنت أواجههم

دائمًا بأفكاري حول الحرية الشخصية. لا غرابة في أني طوال سنوات دراستي لم أحصل على مشورة واحدة من جميع الكتب التي طالعتها، تفيد بشأن تربية الأطفال، وعلى ما يبدو فعلى مر العصور الأدبية الوسطى لم يكن للأطفال من مكان سوى أنهم يأتون إلى الحياة وحسب، ولم يكن من الضروري تعليم الآباء كيفية رعايتهم. إذا كانت تلك صفة جينية جين أناني، فقد كان مصممًا ليقوم بعملية التدمير الذاتي.

كان روبرت لا يتوقف عن اللعب والضحك منذ السادسة صباحًا حتى الحادية عشرة ليلًا، كانت طاقته بلا حدود حتى إن طبيبه عبَّر عن استغرابه وإعجابه بهذا الطفل المليء بالحيوية، ولكن وصل به الأمر إلى أنه كاد يخنق نفسه ذات يوم في السرير؛ كانت طاقته العالية تستنفد طاقتي أنا، حتى إن الطبيب ويلسون تعاطف معي وطلب مني أن أتناول منشطًا لأتمكن من مواكبة واجباتي اليومية.

ذات يوم تركتُ ستيفن يأكل بنفسه وارتديت ملابسي على عجل، وركضت بعربة الأطفال لألحق بروبرت أصطحبه إلى الطبيب الجراح؛ حيث كانت تظهر على روبرت مؤخرًا علامات الخمول، وقد أرسلنا الطبيب ويلسون مباشرة إلى المشفى على بعد نصف ميل بوساطة السيارة، وهناك بدأت كوابيسي؛ إذ اتضح مدى خطورة حالة روبرت،، فقد كانت ذراعاه وقدماه ترتجفان وقد أخذه الأطباء وبدؤوا ببعض الإجراءات العلاجية؛ كانت الممرضات يسألنني باستغراب عن الدواء الذي ابتلعه، وعندما حاولوا بشتى الأساليب المتبعة التخلص مما في معدته، تقدمت مني إحداهن قائلة «إنه مريض جدًّا، لا يوجد ما يمكن أن نفعله غير ما نقوم به، يتعين علينا فقط أن ننتظر ونرى ما سيحدث».

مرة واحدة فقط قبل أن أقلق على صحة روبرت، ذهبنا في الشتاء السابق مع عائلة إليس إلى مايوركا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع خلال العام الجديد، وقتذاك سقط روبرت مصابًا بمرض خطير من سلالة خبيثة من فيروسات البطن بمجرد وصولنا، لم تكن معدته قادرة حتى على تقبل الماء العادي؛ وقد تناقشنا مع الطبيب حول ما إذا كان علينا نقله إلى المشفى أو نعود به إلى المنزل. تجدر الإشارة هنا إلى أنه عندما هبطت بنا الطائرة في مطار غاتويك، بدأت معجزة شفاء روبرت، وعندما وصلنا إلى

المنزل كان قادرًا على ممارسة ألعابه المفضلة، ولكن تلك الحادثة كانت مروعة، أسوأ عذاب يمكن تخيله هو مشاهدة طفل يموت.

وضعوا روبرت على سرير في غرفة في جناح الأطفال، وجلست على كرسي في الزاوية أراقبه، وقد كان مثبَّتًا بقوة على السرير بوساطة قيود لمنعه من إيذاء نفسه، وغرقت في غيبوبة عميقة من الأفكار، كان روبرت طفلًا جميلًا مليئًا بالحيوية، وقد أثار إعجاب كل من عرفنا، ورأى مدى الطاقة والضحك اللذين كان يمدنا بهما أنا ووالده، لقد ترعرع بين يدي، وقد اعتدتُ عليه في شتى الظروف، وبذلت ما بوسعي للحفاظ على سلامته، لم تكن لدي الطاقة لاستيعاب مسألة وفاته في حال حدث ذلك، كنت أفكر أنه في حال حدوث هذا الأمر فينبغي أن أموت أنا أيضًا، ولم يكن بمقدوري التفكير سوى في هذا الإطار: «أرجوك يا إلهي ألا تدعه يموت، أرجوك احفظه يا رب...».

لم تكن حالته مبشرة بأمل الشفاء، وكل ما أمكن للأطباء قوله هو أن حالته لا تتدهور على الأقل، صُدمت في تلك اللحظات عندما تذكرت أنني تركت ستيفن وحيدًا في المنزل، وقد كان نادرًا ما يتمكن من القيام بشؤونه؛ أين عليّ أن أكون؟ هنا في المشفى مع ابني الذي يغط في غيبوبة، أم مع زوجي المعوق الذي ربما يسقط عن كرسيه أو يؤذي نفسه أو يختنق؟ شكرت الأخت التي أرسلتني لأذهب إلى ستيفن فيما ستهتم هي بروبرت.

ولحسن الحظ كان جورج قد أتى ليساعد ستيفن على النهوض واصطحبه إلى العمل، وقد تناول الغداء في مركز الجامعة منتظرين بيأس أخبارنا دون أن يعرفوا أين يمكنهم إيجادنا. جلستُ معه لوقت قصير؛ إذ لم يكن هناك الكثير لنقوله كي نطمئن بعضنا بعضًا. راقبت ستيفن وهو يتناول غداءه، فيما لم أتمكن حتى من شرب كأس من الماء؛ فلم أجد سببًا وقتها يدفعني للقيام بما يبقيني على قيد الحياة، كيف يمكن لي أن أعيش مع هذا الحزن؟ كنا نعبر هوة مظلمة لا يلوح فيها أي بصيص أمل.

لم أتجرأ بسهولة على العودة إلى المشفى، غادر ستيفن برفقة جورج ودخلت في دوامة من الخوف بشأن ما سأجده في المشفى، كان الجميع صامتًا هناك، وقد قادتني ممرضة شابة إلى السرير الذي يرقد فيه روبرت، كان لا يزال على قيد الحياة نائمًا بهدوء على ظهره كالملاك، وقد أدهشتني ابتسامة الممرضة وهي تخبرني: «عاد إلى التنفس، إنه نائم وسوف يخرج قريبًا من الغيبوبة». لم يكن للدموع وليس فقط الكلمات من سبيل لتصف مشاعري، دموع الامتنان والشكر، وتابعت الممرضة: «سيكون بمقدوره العودة إلى المنزل عندما يستيقظ»، قفزت إلى أقرب هاتف لأزف الخبر لستيفن: «روبرت على وشك الاستيقاظ من غيبوبته، وفي غضون عشر دقائق بعد ذلك سيكون في المنزل»، أرسلنا إلى الجيران نطلب منهم مشاركتنا الاحتفال بسلامة روبرت، وقد جاؤوا، ومارس روبرت وانيغو لعبتهما المفضلة بالسيارات غير مبالين وغير مدركين لما حدث اليوم.

نجا روبرت في ذلك اليوم ولكن جزءًا مني كان قد مات، فالتفاؤل وحماس الشباب بداخلي كان قد دُفن تحت حمل ثقيل من الأعباء والقلق، فرعاية ستيفن قد تكون مهمة متعبة يكتنفها بعض الملل، إلا أنها لا تصيب العقل أبدًا، أما كارثة فقدان أم لطفلها فذلك ما كان ليودي بعقلي وحياتي كذلك، وكان قلقي الدائم على سلامة روبرت وإخوته مثار تذمر دائم لديهم.

لحسن الحظ أن خبرة الأطباء مكّنت روبرت من الخروج من أزمته الصحية سالمًا تمامًا، دون أن تنخفض طاقته المعتادة التي ظهرت بأروع أشكالها في زيارتنا الربيعية لسويسرا لحضور أحد المؤتمرات، في حين قضى ستيفن أيامًا في دراسة الكون المظلم على ضفاف بحيرة ثون، وهناك اكتشفنا ولع روبرت بالجبال الخضراء؛ فقد أفرغ طاقاته بالتسلق فيما كنت أعدو وراءه متثاقلة وأنا حامل بطفل جديد.

5
التوسع الكوني

كانت أزمة زمالة البحث الخاص بستيفن التي تم تجديدها لمدة فصل من سنتين في عام 1967 أقل تأثيرًا من أزمة روبرت مع الأدوية التي عانيناها قبل نهاية الستينيات، وأعني بذلك أنها كانت سوف تنتهي عام 1969، ولم يكن هناك من طريقة لتجديد الزمالة، وبما أنّ ستيفن لم يكن قادرًا على إلقاء المحاضرات، فإنه لم يكن من الممكن له اتباع الطريق المعتاد الذي يتبعه عادة جميع من يتقدم إلى زمالة البحث والتقدم إلى منصب تعليمي، فضلًا عن أنه لم يكن من الممكن لنا أن نتوقع الحصول على زمالة كاملة؛ وذلك لأن زمالات الجامعة ليست مدفوعة الأجر، بل تقدم فقط عضوية في نادٍ ما، أو نادٍ خاص بالمفكرين، على عكس زمالات البحث.

أصبح ستيفن في عام 1968عضوًا في معهد علم الفلك الجديد والذي كان مبنى فخمًا مؤلفًا من طابق واحد، يقع بين الأشجار في الحقول الخضراء التي تم بناء منصة المراقبة فيها على طريق مادينغلي Madingly Roadخارج جامعة كامبريدج، وقد زوده ذلك بمكتب مشترك مع براندون، مما وفر له مكانًا للعمل لكنه لم يوفر له أي راتب، ولم يكن من المتوقع أن يحدث ذلك على الإطلاق -أن يوفر له ذلك العمل راتبًا- إذ إن مدير المبنى فريد هويل Fred Hoyle لم يكن ليسامح ستيفن على تدخله في محاضرة المجتمع الملكي منذ سنوات مضت، وعلى عكس الوضع المعتاد في أمريكا، فإن المناصب مدفوعة الأجر في بريطانيا كانت قليلة جدًّا ونادرة.

إذًا كان هناك حماسٌ قويٌ ناتجٌ عن بدء البحث بالنقطة السوداء منذ أربعة عوام، ولكن ستيفن كان لديه من يقف إلى جانبه؛ فقد قام دينز سيياما Dennis Sciama بقبول التحدي راضيًا، وكذلك وقف هيرمان بوندي Herman Bondi إلى جانبنا بعد أن طلب منه والدي ذلك، وانتشرت إشاعة تقول بأن لدى جامعة كينغ King's College

زمالة بحث مدفوعة الأجر، وأن اللجنة الحاكمة هناك كانت مستعدة لمنح تلك الزمالة لستيفن.

بعد حصولنا على عمل ودخل ثابتين، وجدنا أن الوقت قد حان لكي نعيد دراسة ترتيبات السكن الخاص بنا، وكنا قد اعتدنا أن نذهب في كل عطلة نهاية أسبوع إلى القرية باحثين عن بيت أفضل، ولكن كانت مشكلة النقل تقف في كل مرة حاجزًا في طريقنا، فإن انتقلنا لنعيش في القرية فسوف يتعيَّن عليّ أن أصطحب ستيفن بالسيارة إلى العمل صباحًا، ومن ثم أعود لإحضاره من العمل إلى المنزل في مدة بعد الظهيرة، وهذا الأمر مرهقٌ جدًّا خاصة وأني أرعى طفلين وأنتظر اثنين آخرين، من ناحية أخرى كان من المستحيل أن نأمل بتحسن وضعنا في ذلك الحي الصغير الذي نسكنه والذي كان يدعى القديسة ماري، وقد كان باستطاعة ستيفن حتى ذلك الحين أن يذهب إلى عمله مشيًا في الصباح مع بعض المساعدة، وكان غالبًا ما يجد من يقله مساءً إلى عمله لكي يتمكن من حضور النقاشات وحلقات البحث مع براندون. أما بالنسبة إلى ابننا روبرت، فقد كانت هناك مجموعة لعب (مجموعة من الأهالي والأطفال)، ولم تكن بعيدة عن المنزل؛ إذ كانت تجتمع عند كوكر هاوس Quker House؛ لذا كنت آخذه إلى هناك راكبًا الدراجة حين أجد أن لدي من الوقت والطاقة ما يكفي. كان مسكننا قريبًا جدًّا من مسكن المدينة، وإضافة إلى أنّ ساحة الكنيسة وفرت ما يلزم لروبرت من حاجات وأنشطة خارجية، فقد كانت توافق ذوقي فيما يخص النباتات والزينة أيضًا.

كانت السلبية الوحيدة لمسكننا أنه كان صغيرًا جدًّا وآيلًا إلى السقوط، رغم أني حاولت لمرات عدة إصلاحه، وقد قام أصدقاؤنا المغامرون جورج وسو إليسGeorge and Sue Ellis بشراء منزل في كوتنيهام Cottenham، وهي قرية صغيرة مجاورة لكامبردج، وقاموا بإجراء الإصلاحات اللازمة له، وقد قام كل من براندون ولوتس بالشيء ذاته؛ إذ حصلا على كوخ أحلامهم في الريف، وذلك بعد أن تزوجا عام 1969. هذا ولم أذكر لكم أنه حتى جيراننا الذين كانوا يسكنون في حي القديسة ماري، تمكنوا من إجراء إصلاحات لبيوتهم بطريقة ذكية، وبذلك حصلوا على منازل جذابة المنظر وذات

حجم جيد، وقد تمكنت صاحبة البيت رقم 5 كونستانس بابينغتن سميث Constance Babington Smith؛ مؤلفة ومؤرخة سيرة حياة روز ماكوالي Rose Macaulay، من تعديل منزلها بشكل خيالي، وذلك لكي يتناسب مع متطلباتها من الكتب. وحين رأينا جميع تلك النماذج حولنا، شعرنا ببعض من الغيرة، وأدركنا أنه يمكن أن نقوم بإجراء إصلاحات مماثلة لمنزلنا، إلا أننا كنا عالقين في تلك الحالة التي يسمونها في العامية البقاء ضمن الصندوق؛ كنا قد جمعنا قدرًا من المال يكفي وديعة، ورهان للحصول على مسكن جديد، ومن جهة أخرى كانت منح القنصلية متوافرة وكافية لتجديد مسكننا القديم. ولكن، وبسبب أن مسكننا قديم جدًّا، فلم يكن بمقدورنا وضعه في الرهان،وبالطبع وجد وكيل الكلية المسؤول عن تقييم المساكن أنه مسكن غير صالح للسكن.

خلال دراستنا لهذه المشكلة، ظهر أمرٌ ساعدنا على تغيير خطتنا بالكامل؛ إذ قرر المسؤولون عن المساكن في حينا (الجمعية السكنية) أنه يمكن وضع المساكن القديمة في الرهان، والأهم في ذلك الأمر أن الحصول على الرهان من المسؤولين عن مسكننا سوف يؤهلنا للحصول على قرض أكبر من الجامعة، وسيكون قرضًا لا تترتب عليه الكثير من الفوائد. بدأنا إذًا نجد الحل لتلك المشكلة، ولكن ستيفن شعر ببعض الارتياب، أما بالنسبة إلي فقد بدأت أفكر وأنا أحمل قلم الرصاص وأخط بعض السطور على الورق، أنه يمكن لنا تطبيق بعض الأفكار التي قام الجيران في ذلك الحي الضيق بتطبيقها؛ وذلك لنجعل منزلنا أكبر حجمًا وأكثر مناسبة للسكن؛ يمكننا أن نحول الطابق السفلي إلى غرفة أنيقة واسعة، وذلك بدمج الغرفتين الحاليتين، وبناء مطبخ جديد مجاور للساحة الخلفية، وبذلك يصبح بإمكاننا تخصيص الطابق الأول والثاني لغرف نوم جديدة وحمام جديد وكذلك حديقة مسقوفة؛ وعليه فقد وضع المساح المتقاعد المعروف باسم السيد ثريفت، خططًا مفصلة حول إمكانية توسيع المسكن إلى أقصى حد، وذلك عن طريق الاستفادة من كل ملميتر من المساحة.

قمنا أنا والسيد ثريفت بالبحث عن المنح؛ سواء المنح التي تُعطى من أجل التجديد، أو المنح التي تُعطى للمعاقين، وبعد أن أصبحت مسودة الخطة جاهزة تمامًا، أصبح

بإمكاننا أن نتقدم بطلب الرهان إلى الجمعية السكنية. على عكس وكيل الجامعة البغيض، قام ممثل الجمعية بتفحص البيت عن كثب، وقراءة الخطة المقترحة، ثم قال بابتهاج: «سوف يصبح المنزل رائعًا، أليس كذلك؟». مؤكدًا بذلك أنه سوف يقبل دخول المنزل في الرهان؛ لقد أصبح بمقدورنا الذهاب إلى السيدة المسؤولة عن المنزل الخاص بنا، وتقديم عرض مغرٍ وواقعي، وفي هذه المرة حصلنا على موافقتها.، ولكننا لم نحظَ بفرصة أن نكون مالكي المنزل: بعد أن وقَّعنا العقد النهائي، تعيَّن علينا وضع جميع أثاث المنزل في غرفة النوم الأمامية، وأن نخلي المنزل مفسحين المجال أمام البناءين لتنفيذ خطة العمل، وقد ساعدنا القرض الإضافي الذي منحنا إياه والد ستيفن، وكذلك منح إعادة البناء، على بدء برنامج إعادة بناء شامل لكل أرجاء المنزل.

وقد كل من سو وجورج أليس وماجي وآندي الذي كان يبلغ من العمر في ذلك الحين سنة واحدة قد ذهبا لقضاء ستة أشهر في شيكاغو، موطن عالم الفيزياء المعروف والحائز على جائزة نوبل Subrahmanyan Chandrasekhar سوبراهمانايان شاندراسيخار، وزوجته لولا، وقد أُجبر ذلك العالم رغم كونه عوضًا في جامعة ترنتي Trinity College على إيجاد منصبٍ في أمريكا، وذلك بعد أن قام صديقه المقرب آرثر إيدينغتون Arthur Eddington بإهانته أمام المجتمع الملكي عام 1933. أما تفاصيل القصة فتتمثل بأن شاندراسيخار كان توقع بحث البقع السوداء؛ وذلك لأنه تنبأ انهيار النجوم الضخمة بسبب وزنها، ولكن إيدينغتون وكذلك مجتمع رواد الفضاء سخرا من تلك النظرية، وفي شيكاغو كان هذا العالم يعيش أسلوب حياة لا يمكن سوى لزوج ناضج استيعابه والمحافظة عليه.

كان كل شيء في شقتهم الهادئة المنعزلة ناصع البياض كالثلج: سجادة سميكة بيضاء اللون، كنبة بيضاء اللون وكراس بيضاء اللون كذلك، وطبعًا ستائر بيضاء اللون، ويمكننا اختصار كل ذلك بقولنا: كابوس أبيض بالنسبة إلى أم أتت للزيارة مثل سو، لقد جاءت تزور تلك الشقة مع أطفالها الصغار الذين تبقى أطراف أصابعهم ملوثة بالشوكولا طول الوقت تقريبًا.

وفي تلك الأثناء مكثنا نحنا في العربة التي تم تحويلها إلى منزل ريفي، وتم تعديلها بما يتناسب ووجود أطفال في المنزل، وذلك ريثما تنتهي أعمال التجديد التي يقومون بها في منزلنا في حي القديسة ماري. ومن خلال السكن في الريف عرفت ما تتمتع به السكنى في البلدة من ميزات؛ كان المنزل جميلًا جدًّا ولكني شعرت بوحدة شديدة لكونه منعزلًا، خاصة وأني كنت أشعر بتوعك دائم طوال مدة الحمل، وكذلك كان يتعيَّن عليّ اصطحاب ستيفن في السيارة إلى مقر عمله صباحًا والعودة ظهرًا لكي أقلّه إلى المنزل، إلا في تلك المرات القليلة التي يكون فيها ستيفن جاهزًا في الوقت المحدد لانطلاق جيراننا في كوتينهام إلى أعمالهم حيث كانوا حينها يقلونه نيابةً عني. أما بالنسبة إلى روبرت، فقد كان يفتقد كلًّا من إنيغو Inigo وساحة اللعب المجاورة للمنزل، وأنا كذلك بدأت أفتقد جيراننا في ذلك الحي وخاصة أسرة تاتشير Tatchers، وباءت جميع محاولاتي لإكمال رسالة الماجستير الخاصة بي بالفشل، ولم يكن من شيء ليهوّن عليّ مصيبتي أكثر من سماع أخبار مصيبة أكبر؛ كانت الأخبار تنقل أحداث الشرق الأوسط، وتتنبأ بحدوث مواجهات جديدة بين مصر وإسرائيل، ومن ثم حدوث مواجهات بين القوى العظمى في العالم. لم تكن القوتان تكتفيان بمهاجمة بعضهما، بل ظهر وجه جديد آخر بشع للحرب، ألا وهو خطف الطائرات التي تقل راكبين مدنيين. لقد بدأت أشعر بالتوتر والإرهاق، ولم أعد أطيق صبرًا حتى إني بدأت أغضب، وكم أشعر بالخجل لذلك، من أولئك المقربين مني: ستيفن وروبرت بل وحتى، للأسف الشديد، من أمي التي تعاني صعوبة في الحركة، والتي جاءت لقضاء أسبوع حار جدًّا معنا في تلك العربة.

أخيرًا وعلى عكس التوقعات كافة، تحول ذلك المنزل الذي بدا ولأشهر طويلة وكأنه باقٍ كأثر لموقع تم رمي قنبلة عليه، إلى منزل جميل قابل للسكن، وأصبح بإمكاننا العودة إليه في منتصف الشهر العاشر. لم تكن أعمال الترميم قد انتهت بعد، وكنا نرقب قدوم عمال مختلفين من سبّاكين ودهانين وعاملي جصّ ومرممين في كل يوم، وقد بدا معظمهم قلقًا إذ كان عليهم إنهاء العمل في موعد تسليم محدد، بل موعد حياة محدد. وما أن عدنا إلى المنزل حتى أصبح بإمكان كل من ستيفن وروبرت العودة إلى نمط الحياة الذين اعتادوا عليه سابقًا، أما أنا فقد باشرت بتنظيف الأرضية،

وترتيب الأثاث، وتعليق الستائر، وتحضير الغرفة للمولود المنتظر. وقد احتلت هذه الغرفة بالإضافة إلى حمام جديد صغير مجاور لها موقع الحمام القديم المائل في الطابق الأول، وتطل تلك الغرفة على حديقة مسقوفة فوق المطبخ الذي تم بناؤه- كما اتفقنا- بجوار الساحة الخلفية للمنزل. أما موقع المطبخ القديم فقد تحول إلى غرفة طعام مجاورة لغرفة المعيشة، التي أخذت شكلًا طوليًا ممتدًا يدعمها في المنتصف عارضة خشبية، وعلى الحائط الخلفي الذي تم بناؤه من الحجارة الزهرية اللون المرقشة وقرميد كامبريدج الأصفر والأسود، أعاد السيد ثريفت تعليق لوحة جون كلارك التي تعود إلى القرن الثامن عشر.

أما في أعلى المنزل في الطابق الثالث، خلف العلية الخاصة بروبرت فقد تم بناء غرفة جديدة كنا قد اتفقنا عند التخطيط لترميم المنزل أن نجعلها مخزنًا؛ وذلك لأن السقف كان أخفض ببعض إنشات من الارتفاع الذي يُسمح لنا بتحويله إلى غرفة صالحة للسكن كما أنه كان مطلًّا على نافذة المسكن المجاور لنا، ولكن حين جاء المفتش ليقوم بتقييمه الأخير للمنزل، جال بنظره حول الغرفة، وقال: يمكن لتلك الغرفة أن تصبح غرفة نوم جيدة، أليس كذلك؟» فسارعت لإجابته مخبرة إياه أن هذه الغرفة مليئة بالصناديق والحقائب، وذلك لأننا كنا قد خططنا لتحويلها إلى مخزن، وسرعان ما وجدنا لتلك الغرفة استخدامًا جديدًا؛ إذ قمنا بتحويلها إلى غرفة لعب خاصة حيث إنها غرفة آمنة بعيدة عن الأنظار، وعن مرمى السمع، بعيدة حتى عن القلب.

بعد مضي أسبوعين، وذلك في الواحد والثلاثين من تشرين الأول، غادر العمال المنزل فأقمنا حفلة في منزلنا الجديد ودعونا أربعين من الأصدقاء، ذلك المنزل الذي أصبح يجمع القديم في الجهة الأمامية والجديد في الجهة الخلفية، وقد أنتج الحماس الذي شعرت به في أثناء الحفلة والجهد الذي بذلته في أثناء التحضير لها آثارًا إيجابية، فقد شعرت ببعض الوهن والتعب فاستلقيت على الكرسي الذي كنت قد انتهيت من تنجيده توًّا.

في الليلة ذاتها، ذهبت إلى المشفى لأني كنت قد اتخذت قرارًا حازمًا بألا أضع نفسي أو مولودي الجديد تحت رحمة القابلات الغاضبات في مركز التمريض، وقد كنت مصرة كذلك على وضع مولودي الجديد في مشفى التوليد، بإشراف القابلة المحلية الهادئة التي لا تتوقف عن الابتسام.

في صباح مغاير لباقي الصباحات، وضعت مولودي الجديد، أنجبت ابنتي لوسي التي أبصرَت النور في الثامنة صباحًا من يوم الإثنين الثاني من شهر نوفمبر/تشرين الثاني، وقد بقيت تلك القابلة التي ذكرتها سابقًا إلى جواري طوال الليل، ومنحتني كل ما أحتاجه من العناية، ثم غادرت في الصباح تاركة إياي تحت رعاية ممرضي وممرضات المشفى، إلا أن الساعة الثامنة من يوم الإثنين لم يكن يومًا جيدًا ومناسبًا لوضع مولود جديد؛ إذ قامت الممرضات المشرفات على ولادتي بالذهاب للقيام بواجبات أخرى فور انتهائهن من غسل المولود الجديد وإلباسه ملابس نظيفة، وبذلك بقيت وحدي مكتوفة اليدين على طاولة الولادة، وكانت ابنتي في مهدها بجانبي، إلا أنه لم يكن في مقدوري الوصول إليها، فبدأت بالصراخ حتى تحول وجهها إلى اللون الأحمر. كم رغبت بتهدئتها ولكن الأوامر كان تتطلب مني ألا أتحرك إطلاقًا، وقد خشيت إن حاولت إمساك ابنتي في حالتي تلك أن أوقعها أرضًا. وبنءً على ذلك، بقيت مستلقية على تلك الطاولة وأنا أشعر بالبرد والعجز والحزن؛ لأنها تعرضت لمثل هذا الموقف القاسي مع بداية قدومها إلى العالم.

بعد أن أمضيت يومين في المشفى، كنت مستعدة تمامًا للعودة إلى المنزل، بل إني كنت أتطلع بلهفة إلى ذلك، فقمت بارتداء معطفي، وتحضير ابنتي، لعبتي الزهرية اللون الجميلة تلك والتي صارت تشعر بدفء أكبر الآن، فقد قمت بلفها بوشاح ناعم. وفي تلك الأثناء، جاء طبيب إليّ وأمرني أن أعود إلى سريري فورًا؛ وذلك لأنه سوف يزود جسمي ببعض السوائل لتعويض النقص في معدلات الحديد الذي كنت أعانيه قبل ذهابي إلى المنزل. فأطعت أمره، وبدلًا من العودة إلى منزلي حيث ستيفن وروبرت، عدتُ إلى سريري، لجأت إلى ملحمة توماس مان Thomas Mann بودين بروك لكي أواسي نفسي، وقد كانت تروي قصة أسرة فارسية في نهاية القرن التاسع عشر، وفي

اليوم التالي عدت مع لوسي إلى المنزل، وكنت في حال أفضل بكثير بفضل الحديد الذي حصلت عليه. شعرت بسعادة كبيرة لأني عدت إلى ذلك الحي الضيق؛ إذ كانت آخر الأزهار في نهاية شهر نوفمبر/تشرين الثاني قد بدأت تتفتح، وبدت أجمل بكثير من أزهار الصيف، عاد روبرت من الحضانة برفقة أنيغو بعد الظهر، وما أن وصل إلى جانب صندوق البريد حتى بدأ يقفز مرحًا ويحاول استراق النظر إلى داخله، ثم ركض إلى داخل المنزل صارخًا: أين الطفل؟ أين الطفل؟ وما إن رأى أخته الصغيرة مستلقية على سجادة صغيرة على الأرض حتى أسرع إليها وأعطاها قبلة. ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من أن لوسي لم تكن تترك له مجالًا لأن يتكلم بعد أن أصبحت قادرة على الكلام، لم يكن هناك داعٍ للاستعانة بنصائح الطبيب سبوك فيما يخص علاقة روبرت بلوسي؛ وذلك لأنه لم يظهر أي نوع من أنواع الغيرة.

كان كل من والد ستيفن وأخيه قد سافرا إلى لويزيانا Louisiana؛ وذلك من أجل السنة الأكاديمية، إلا أن والدته بقيت في إنكلترا؛ وذلك لأنها أرادت البقاء إلى جوارنا في كامبريدج وخاصة بعد ولادة لوسي؛ إذ إن ستيفن صار يحتاج مساعدة أكبر في تلبية حاجاته اليومية؛ كان لا يزال قادرًا على صعود الدرج إلى الطابق العلوي بمفرده، ولكن مشيته أصبحت بطيئة جدًّا وغير متوازنة، وقد قبل أخيرًا -وإن على مضض- أن يستخدم الكرسي ذا العجلات.

في مدة مكوثي في المشفى التي دامت أربعة أيام، تعيَّن على أسرتي إيجاد بديل مناسب لغيابي؛ بديل يتحلى بالصبر وقوة التحمل والتفهم، بديل يمكن لستيفن أن يثق به، وبالطبع كان جورج مساعد ستيفن الشجاع في القسم، ولكن جورج لديه أسرته الخاصة التي ينبغي أن يعود إليها مساء، ولذلك اختار ستيفن أن تكون أمه مساعدته في غيابي، وقد بقيت كذلك معنا بضعة أيام بعد عودتي، وكانت لطيفة ونشيطة على الدوام، فضلًا عن أنها تمتلك روح الدعابة وإن كانت جافة بعض الشيء. كانت المتطلبات كثيرة، كان علي القيام بالتسوق وتنظيف المنزل وتحضير الوجبات والعناية بكل من روبرت وستيفن بمفردي، أما تلك الأيام عندما كان ستيفن يأتي إليّ بمنشفة ليساعدني في أعمال المنزل فقد ولت دونما عودة؛ بدأ مرضه يمنعه من القيام بأي

عمل مفيد في المنزل، وقد وجد ستيفن ميزة لذلك؛ إذ أصبح بإمكانه قضاء وقته وهو يقرأ ويدرس الفيزياء، شغفه الأقوى. ولم أمانع ذلك ألبتة؛ فقد كنت على يقين أن ستيفن لم يكن ليبتعد عن الفيزياء؛ ليساعدني في تلك الأمور اليومية المملة من طبخ وغسيل، وذلك مهما كانت ظروفه.

بعد عودتي إلى المنزل، جاءت أمي لتأخذ دور أيزوبل Isobel؛ وذلك لأنه تعيَّن على أيزوبل اللحاق بأسرتها في أمريكا بسبب أمر طارئ. قام والد ستيفن مدفوعًا بكرهه للزواحف بإهمال نصائح السكان المحليين، وقام بمهاجمة أفعى خطيرة باستخدام عصا المكنسة حتى الموت. كان مقررًا أن يقوم ستيفن بزيارة والده في لويزيانا في شهر ديسمبر/كانون الأول؛ إذ كان ينوي أن يحضر مؤتمرًا في تكساس بعد ستة أشهر من ولادة لوسي، لكن تلك المخططات تغيرت، وذلك ما أشعرني براحة كبيرة؛ لقد أصبح بإمكاني البقاء مع أطفالي وقرر ستيفن أن يذهب برفقة جورج.

حين غادرتنا الجدتين، تغير روتين المنزل من جديد، وأصبح التركيز متمحورًا حول ستيفن والمولود الجديد، وقد ساعدني في ذلك طفلي البالغ من العمر ثلاث سنوات، روبرت، ومربية أنيغو Inigo وثيلما تاتشر Thelma Tatcher. كنت أشعر بغاية السعادة لأني رزقت بطفلين معافيين، إلا أن ستيفن كان قلقًا بشأن لوسي؛ وذلك لأنها كانت تنام لساعات طويلة في النهار وتقضي الليل هادئة دون صراخ، وذلك ما دفع ستيفن للاعتقاد أنها تعاني مشكلة ما؛ ذلك أنه كان يرى أن الأطفال كلهم يجب أن يكونوا مثل روبرت، نشيطين ودائمي الحركة ليلًا ونهارًا. لم أشاطر ستيفن رأيه بل كنت أشعر بسعادة غامرة وبامتنان كبير لتلك المدة الهانئة والمستقرة التي تلت ولادة لوسي؛ لقد كانت تلك المدة من أكثر المدد هدوءًا واستقرارًا في حياتنا، خاصة أننا كنا قد قمنا بترميم المنزل وإصلاحه.

لقد أصبح المنزل مبهجًا، نظيفًا ولامعًا وجديدًا وواسعًا كذلك، وأضاف وجود المولود الجديد مزيدًا من البهجة والفرح، خاصة وأن ابنتي كانت صغيرة جدًّا، حيث كان من الممكن لي أن أحملها براحة يد واحدة، فضلًا عن أنها كانت هادئة جدًّا لدرجة أنه حين جاءت المستشارة الطبية لزيارتنا لم تلحظ أنها كانت مستلقية في

السرير إلى جانبي، ولأن لوسي كانت تنام ليلًا في وقت محدد فقد ساعدتني على تنظيم وقتي، والعناية بستيفن وروبرت، وكذلك الحصول على ساعة كافية من النوم، وبفضل ذلك أصبحت قادرة على العودة إلى قراءة الروايات، صرت أقرأ في تلك المدة التي يستعد فيها ستيفن للخلود إلى النوم، وكنا قد اتفقنا- وسبب مثل هذا الاتفاق أن ستيفن يجد في الإشارة إلى مرضة إهانة لشخصه- أن ستيفن سوف يستمر بالقيام بالأعمال بمفرده ما دام قادرًا عليها، حتى وإن كان ذلك يتطلب منه وقتًا طويلًا جدًّا، وكان لا يزال بإمكان ستيفن تبديل ملابسه بعد أن أقوم أنا بفك شريط حذائه وحل أزرار قميصه، وكان لا يزال بإمكانه كذلك ارتداء بيجامته بمفرده وإن كان الأمر صعبًا بعض الشيء، وريثما ينتهي من تلك المهمة كنت أستمتع بقراءة كتاب ما، وكان ذلك يمثل بالنسبة إلي ترفًا جميلًا بعد نهاية يوم شاق، وغالبًا ما كان ستيفن يستغرق وقتًا طويلًا في أداء جميع المهام ليلًا ليس فقط لكونه بطيء الحركة، ولكن لأن تركيزه منصب على مسألة أخرى؛ منصب على إحدى مسائل النسبية. ذات ليلة، استغرق وقتًا أطول من المعتاد لوصوله إلى السرير، ولكني لم أعرف السبب حتى اليوم التالي؛ فبينما كان يرتدي بيجامته في تلك الليلة ويتخيل تركيبة الثقوب السوداء، تمكن من حل بعض المسائل المتعلقة ببحثه، أما الحل الذي جاء به تلك الليلة فكان يتلخص بما يأتي: في حال اصطدم اثنان من الثقوب السوداء ببعضها، وشكلت بذلك ثقبًا واحدًا، فإن مساحة السطح للثقب الناتج لا يمكن أن تكون أصغر من مجموع مساحة الثقبين، ويجب منطقيًّا أن تكون أكبر من مساحة المجموع، ويمكننا اختصار ذلك بقولنا أنه مهما أصاب الثقب الأسود، فإن مساحة السطح لا يمكن أن تصبح أصغر حجمًا.

بما أن الثقوب السوداء كانت موضوعًا يتم تداوله بكثرة في تلك الأيـام، فإن اكتشاف ستيفن كان سيصنع منه شخصية بارزة. في سياتل، كنا لا نزال في مجال تسمية تلك الظاهرة الجديدة، أما الآن فقد اجتزنا آفاق الحدث المتوقعة، كنا قد اجتزنا تلك الحدود التي لا وجود لفضاء بعدها. ما تتنبأ به تلك النظرية، هو أنه ما إن يعبر أحدهم تلك الحدود (حدود الثقوب السوداء)، فإنه سوف يتمدد ويستطيل وكأنه قطعة من السباغيتي، ولن يكون لديه أي أمل بالعودة، بل لن يكون هناك أي آثار تدلنا على ما حل به.

6
المشاركة في الحملة

شهدت السنوات التي تلت ولادة لوسي صدور قانون المعاقين وأولئك الذين يعانون مرضًا عضالًا، ورغم أن الجميع رحَّب بذلك القانون في جميع أرجاء العالم، وعَدُّوه حدثًا تاريخيًّا مهمًّا؛ إذ إنه يضمن حقوق المعوقين، إلا أن الحكومة رفضت تنفيذه والعمل به لأعوام عدة، دافعة بذلك أولئك المعوقين الذين يعانون ضغوطات شديدة إلى عقد حملات تدعو إلى تطبيق القانون محليًّا، وما نتج من تلك الحملات هو أن الشكاوى ضد بعض المنظمات والمنشآت التي لا تسمح للمعوقين بدخول أبنيتها بسهولة قد بدأت تلقى الآذان الصاغية.

وخرجت أشارك في إحدى الحملات، كنت ضمن المحتجين الذين جاؤوا يطالبون بحقوق المعاقين ومن يرعاهم، كنت أحمل طفلتي ضمن الصفوف من خلال حمالتي الكتف الأمامية، وأجرّ كرسي ستيفن ذا العجلات، ويسير إلى جواري روبرت متعثرًا الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات حينئذ، وبالطبع فإن ظهور رصيف عالٍ بعض الشيء علينا صعوده، أو درج غير معبد علينا اجتيازه كان تحديًا كبيرًا، بل كان من الممكن أن يحوِّل نزهتنا العادية تلك إلى كارثة، وبما أنني لم أكن قوية بما يكفي لمواجهة مثل تلك العقبات، كان يتعيَّن علي أن أقف منتظرة مرور رجل أو فتى يساعدني على العبور، وأيضًا كان يتعيَّن عليَّ أن أبحث عن سيدة لطيفة بين الحشود تحمل ابنتي نيابة عني ريثما نجتاح العقبة التي تواجهنا. وبمساعدة الفتى، وروبرت كنت أتمكن من رفع الكرسي ومن يشغله (ستيفن) فوق الدرج أو الرصيف، وكنت دومًا أشعر بالقلق، كنت أخشى أن يقوم المتطوع بحمل الكرسي من الجهة غير الصحيحة كأن يحمله من مسند الذراع أو مسند القديمن، وحينذاك كان سيجد المتطوع نفسه واقفًا حاملًا المسند فقط بعد أن انفصل عن الكرسي. وبالطبع، كنت أتوجه بأجزل عبارات الشكر لذلك الفتى أو الرجل الذي قام بمساعدتنا ثم أتابع طريقي، كم أحمد الله أن الفتيان والرجال غالبًا ما كانوا يهبون لمساعدتي قبل أن أزعجهم بطلبي ذاك، وغالبًا

ما كانوا يتوجهون إلى بالسؤال الآتي بعد أن يقوموا بحمل الكرسي: ما نوع الطعام الذي يتناوله؟ إنه يزن أكثر مما يبدو بكثير، وكنت أجيبهم: إن الثقل في الوزن ناتج عمّا يحمله في دماغه.

قوبلت رسائل الاعتراض من قبل المسؤولين بالازدراء الشديد، وقد ذكرني ذلك بمواجهات ستيفن الأولى مع أمناء الصندوق في جونيفيل Gonville وكيوس Cauis. لم يسمع المسؤول عن المدينة سابقًا بمعاقين يريدون الوصول إلى محلات سبنسر وماركس ليشتروا ملابسهم الداخلية بمفردهم؛؛ لذا فهو لا يرى أي داع لمثل هذه الاحتجاجات، وكان واضحًا مما يقوله أنه يجد أنه ليس من حق المعاقين وذويهم أن يقطعوا مثل هذه المسافة. لمَ يجب على ستيفن تحمل المزيد من العوائق التي يضعها البشر في طريقه؟ ألا تكفيه تلك العوائق التي فرضتها عليه الطبيعة القاسية؟ ولم يمكن ويسمح لأولئك البيروقراطيين بجعل حياته أكثر صعوبة مما هي عليه؟ رغم أنه- على عكس أولئك المسؤولين المعتدين بأنفسهم- كان يحاول الاستفادة مما منحته الحياة من مقدرات محدودة من أجل تحقيق أهداف جيدة.

وبعد الكثير من المعاناة، تمكنّا من إقناع مسرح الفنون والسينما بتخصيص مقاعد للمعاقين الذين يتعيَّن عليهم ملازمة كراسيهم المتحركة، وشجعنا ذلك على المضي قدمًا في حملتنا فوصلنا بها إلى دار الأوبرا البريطانية الوطنية في الكوليزيوم، وقد لاقت مطالبنا قبولًا سريعًا هناك، وكذلك إلى دار الأوبرا الملكية في حديقة جوفنت Govent Garden؛ وقدمنا مساعدة تتمثل في رفع المسؤوليات عن اثنين من العجائز الجالسين على الكرسي المتحرك؛ حيث كانا يحاولان صعود الدرج إلى جوار ستيفن ليصلا إلى المدرج فقاما بإيقاعه أرضًا، ولحسن حظنا بدأ مجلس المدينة ببناء معبر للمعوقين.

تزايدتْ شهرة ستيفن مع مرور السنين فيما مرت عليَّ أجرّ فيها الكرسي وبرفقتي طفلين صغيران.

كانت أغلب الجامعات بطيئة في تنفيذ التعديلات المطلوبة متذرعة بنقص الموارد المالية، أو عدم إمكانية تحقيق التعديلات المطلوبة في تلك المباني التاريخية دون مخالفة قوانين المحافظة على الآثار، وغالبًا ما كان بالإمكان الوصول إلى غرفة الطعام في الكليات عن طريق المطابخ فقط وقد كان المرور عبرها صعبًا جدًّا؛ إذ إنها كانت دومًا مليئةً بالأحواض التي يتصاعد منها البخار، وأدوات الشيّ التي تصدر أزيزًا حادًّا، وكذلك مصاعد خدمات مليئة بالأواني الفخارية وزجاجات النبيذ. كان يتعيَّن علينا مواجهة نظرات الازدراء الشديد بعد أن نجتاز هذا المسار الصعب ونصل إلى طاولة العشاء، وكان ذلك يجعلنا نشعر بأن مقاطعتنا للعشاء كانت أمرًا مزعجًا ومخيفًا بالنسبة إلى الحضور، وقد استمرت معاركنا وصراعنا مع إحدى الكليات التي كانت مستعدة لاستقبال النساء حتى أعوام الثمانينات؛ وذلك لأنّ تلك الجامعة تابعت سياستها في إهمال متطلبات المعاقين واحتياجاتهم.

كنا نواجه عقبات كثيرة في التنقل كل يوم إضافة إلى الأرصفة وعتبات الدرج؛ ذات مرة وبينما كنت أدفع كرسي ستيفن ولوسي جالسة على ركبته، علق طرف العجلة الخارجي في حفرة، وقد أدى ذلك إلى طرح الاثنين أرضًا، وفي مرة أخرى بعد أن أصبحت لوسي أكبر عمرًا، استطعنا تجنب الحفرة ولكننا واجهنا عائقًا أكثر صعوبة؛ فقد تعمدت أن أغادر المنزل لا أحمل سوى المفتاح وبعض النقود؛ وذلك لكي أخفف عن نفسي عبء حمل أشياء ثقيلة، وما أن وصلنا بوابة جامعة كينغ الحديدية حتى لحظت لوسي أنه كان هناك عربة تبيع المثلجات عند الزاوية. كانت لوسي قد بدأت الكلام حين كان عمرها عشر شهور وقد لحظنا ذلك حين كانت تجلس إلى جوارنا في السرير وتشير بيدها إلى الضوء وتلفظ كلمة lat, lat؛ لذا فإن المطالبة بالمثلجات كانت أمرًا سهلًا بالنسبة إليها، خاصة أنها كانت قد بلغت من العمر عامًا واحدًا، وحين قوبل طلبها بالرفض من قبلي ما كان منها إلا أن نزلت عن ركبة والدها وجلست أمام كرسيه رافضة الحراك، معبرة بذلك عن غضبها. لم يكن في مقدوري أن أحملها وأدفع كرسي ستيفن في الوقت ذاته؛ لذا حاولنا أنا وروبرت تهدئة الطفلة ذات الملابس الزرقاء اللون والجدائل الكستنائية ولكن دون فائدة، وقد توقفَتْ إلى جانبها عربات موكب القدّاس في طريقهم من مدرسة الترتيل إلى الكنيسة، واستغرب الجميع أن

يظهر كائن صغير في عمر ابنتي هذا الحجم من المعاناة والألم. وبعد مرور مدة من الوقت أحسست بأنها استمرت إلى ما لا نهاية، قَدِم أحد أصدقاء ستيفن في القسم لنجدتنا، فقام بحمل لوسي -التي كانت لا تزال تصرخ بصوت عالٍ معترضة على عدم حصولها على المثلجات- في حين قمت أنا بدفع كرسي ستيفن.

لم نكن نملك وقتًا لقراءة الصحف؛ لذا كنا نعتمد على والدينا في الحصول على الأخبار المهمة. كان أولئك يقومون بقص العواميد التي تحوي قصصًا قد تهمنا، من آخر الاكتشافات في عالم الفيزياء إلى آخر أخبار حقوق المعاقين، وكان أحد تلك الأخبار ينصّ على أنه يمكن للمعاقين الحصول على التكاليف اللازمة لشراء عربة (كرسي كهربائي)، والحصول على الشهادة اللازمة لقيادته. شعرنا بالسعادة لقراءة ذاك الخبر، وذهبنا إلى طبيب ستيفن ليقوم بتوضيح الخبر لنا، فأخبرتنا الدكتور سوزان أن ذاك الخبر سابق لعصره؛ وذلك لأنه عام 1971 لم يكن هناك عربات متوافرة، وأن هذا القانون سوف يتم تطبيقه بعد سنوات عدة، وفي الوقت نفسه شجَّعَت ستيفن على محاولة الحصول على ذاك الكرسي.

منحنا احتمال الحصول على ذاك الكرسي آفاقًا جديدة، وذلك أنه سيكون في استطاعة ستيفن في حال تمكن من التحكم في عصا التحكم الخاصة بالكرسي الكهربائي التغلب على ما يعانيه من محدودية الحركة. تم قبول طلبنا وقمنا بإنهاء الأعمال البيروقراطية اللازمة ولم يتبقَ سوى مهمة واحدة؛ حيث كان يتعيَّن علينا وضع الكرسي بالقرب من مأخذ كهربائي؛ وذلك ليتم شحن بطاريته لمدة أسبوعين. وكالعادة، جاءت تلك المساعدة من مصدر غير متوقع، إذ قام هيو كوربت Hugh Corbett رئيس مركز الجامعة بتأمين مكان لنا لوضع الكرسي بجانب من مأخذ كهربائي.

رغم أن الجميع كان ينتقد عربات المعاقين الكهربائية لكونها غير متوازنة، إلا أنها -وهي تسير بسرعة دراجة هوائية- مكّنتْ ستيفن من التحكم في روتين حياته اليومية مرة ثانية. أصبح بإمكانه الذهاب إلى حيث يشاء، وبذلك تمكن من تقسيم مهام عمله؛ فكان يذهب في الصباح إلى القسم، أما في مدة بعد الظهيرة فكان يزور معهد العلوم الفلكية.

وحين يعود مساءً، كان يتوقف بجوار المنزل ويبدأ بالضغط على بوق السيارة، فيركض إليه روبرت متحمسًا ويتسلق العربة ليجد مكانًا له على الحافة ويرافق والده في ما تبقى من مسافة الرحلة، وكنت ألحق بهم محضرة الكرسي المتحرك لأنقل ستيفن إلى المنزل. لم يخلو الأمر من المشكلات فقد كانت تلك السيارة كثيرة الأعطال، فكثيرًا ما كنا نجدها وقد سدّت طريقها السيارة الأخرى في الكراج، وذات مرة انقلبت السيارة بستيفن مسببة له ألمًا شديدًا، ولكن حمدًا لله لم يتعرض هو لأي أذى أو مكروه.

كنا قد اعتدنا أنا والأولاد أن نخرج في نزهة في أيام الصيف إلى المرصد الفلكي ثم نقصد روبرت في مقر عمله في معهد العلوم الفلكية، وكان صوت صراخ الأطفال يسبقهم وهم يركضون في ذلك الممر المغطى بالسجاد، معلنين لوالدهم عن قدومهم فكانت تغمره في تلك اللحظات سعادة بالغة. لطالما كانت تعابير وجه ستيفن مقياسًا أدق وأقوى لمشاعره وعواطفه مما ينطقه من كلمات وقد كانت الابتسامة على وجهه تؤكد فرحته بتوافر صغاره من حوله. كانت هناك قبة تعلو المرصد الذي تم بناؤه عام 1823، أما باقي البناء فكان أجنحة إقامة للفلكيين؛ لذا كان يبدو كمنزل غريب ومهيب بعض الشيء؛ منزل يتوسط بعض البساتين التي تمت العناية بها بشكل جيد، وكنا قد حصلنا على بقعة في تلك البساتين لزراعة محصولنا الخاص. كانت تربة الحديقة الخلفية للكنيسة مناسبة جدًّا لزراعة الأزهار والورود، ولكني لم أُرحب بفكرة زراعة الخضراوات فيها. أما في حديقة المرصد فقد اعتاد الأطفال زراعة بعض البذور حيث كانوا يتحدثون مطولًا في أثناء حفر الأرض، ومن ثم يتابعون العناية بها ومراقبتها تنمو. وفي نهاية اليوم، كنا نحمل محصولنا من الجزر والحبوب والخس إلى داخل المبنى ليراه ستيفن قبل أن نسبقه في العودة إلى المنزل.

كانت تلك الليالي التي نقضيها في المرصد تمثل بالنسبة إلينا استراحة من صعوبات الحياة التي كنا نواجهها في حي القديسة ماري الصغير ذاك. حين قدمنا إلى ذلك الحي عام 1965 كان هادئًا ومسالمًا، إلا أنه مع بدايات السبعينيات كان قد بدأ يتحول إلى حيٍ صاخب ومزدحم؛ إذ إنه أصبح يشكل الممر إلى مركز الجامعة، جامعة بيترير

هاوس Peterhouse College وفندق غاردن هاوس Garden House Hotel على ضفة النهر؛ لذا كثيرًا ما كانت تأتي عربات محملة بعشرات الأطنان ضالة الطريق إلى الحي الضيق ذاك، معتقدة أنها قد وصلت إلى المركز أو الفندق آنفي الذكر، ليجد أصحابها أنفسهم عالقين في منتصف الطريق، ولم يكن أصحاب العربات يجدون حلًّا للتراجع سوى العودة عن طريق شارع ترمبينغتن Trumpington حيث كنا نسكن، وكانت تلك العربات تقترب من واجهة منازلنا كثيرًا، فتترك بذلك غرفنا مليئة بدخان السيارات.

تلك كانت المشكلة الأساسية في النهار، أما في الليل فكانت موسيقى البوب التي تأتي من بيترهاوس المعروف بغرفة الموسيقى تحديدًا تصم آذاننا، كانت مشابهة إلى حد كبير لصوت الارتطام. قام أصحاب بيتر هاوس بحركة ذكية جدًّا؛ إذ اختاروا موقعًا لغرفة الموسيقى -حيث كانت تقام حفلات البوب بشكل شبه يومي- بعيدًا جدًّا عن بناء الكلية الأساسية، اختاروا غرفة تطل على ساحة الكنيسة الخلفية. ربما كانوا يعتقدون أنه ما من مشكلة في إزعاج سكان القبور الذين يغطون في نوم أبدي، ولكنهم ولسوء الحظ لم يفكروا بسكان الأحياء الأخرى، خاصة أولئك العجائز والأطفال منهم الذين لم يكن بمقدورهم احتمال أصوات الضجيج تلك التي تماثل العويل والتي تصدر كل ليلة. كان يمكن لنا توقع الليالي التي ستقام فيها حفلات البوب بسهولة، وذلك منذ الظهيرة إذ إننا كنا نسمع صفير المتحدثين، ومحاولة دوزنة الغيتار وصوت اصطدام الأصناج بعضها ببعض، وحين نميز تلك الأصوات كانت تاتشر تشير إلى بيتر هاوس وتقول: «أليس ذلك جميلًا؟». إنهم يحضرون للحفلة.

كانت هناك حاجة إلى إقامة المزيد من الحملات، إلا أن مطالبنا هذه المرة لم تكن تتعلق بحقوق المعاقين وإنما بالضجيج، وبالفعل فقد بدأنا بإرسال عدد لا نهائي من الرسائل إلى المشرفين على البيتر هاوس، وإجراء عدد لا يحصى من الاتصالات الهاتفية بعد منتصف الليل مع البوابين، بل ومع المشرف العام نفسه ذات مرة، وتمكنا في النهاية من عقد اتفاق. بدأ المشرفون بتقليل عدد ساعات الاحتفال وتخفيض صوت الموسيقى والضجيج بعد منتصف الليل.

أما الازدحام المروري الذي كان يشكل خطرًا شديدًا على الأطفال الثلاث لوسي وروبرت وأنيغو الذين كانوا يحبون ركوب الدراجات صعودًا ونزولًا وزيارة الجيران في أثناء ذلك، فقد تطلب حملة أكبر وأكثر تنظيمًا، وعقد اجتماعات أكثر، وإرسال رسائل أكثر بكثير، ولكننا للأسف لم نلقَ أي رد. إلا أن كل ذلك تغير بعد أن شبَّ حريق في فندق غاردن هاوس Garden House Hotel عام 1972، وذلك بعد مضي عامين على استهدافه من قبل احتجاج طلابي معارض؛ لكونه مؤيدًا للنظام اليوناني الحاكم.

في نهاية يوم الحريق ذلك، تحولت جميع مشاهد اجتماعات الأسر السعيدة التي كنا نشهدها إلى رماد، إلا أنه سرعان ما تحول إلى خطط طموحة، خطط تهدف إلى إعادة ترميم الفندق بل وجعله أكبر حجمًا كذلك؛ كنا نعلم أن خطط التعمير والبناء تلك سوف ينتج منها ازدحام مروري غير مقبول؛ لذا قمنا نحن -سكان الحي الضيق- بمعارضة تلك الخطط معارضة شديدة، وفي تلك الأثناء التي كان فيها الطرفان يستعدان للمواجهة؛ أدركنا جميعًا أن أهدافنا لم تكن متباعدة بقدر ما كنا نعتقد؛ لقد أراد مديرو الفندق الحصول على بناء جديد، وأردنا نحن سكان الحي إغلاق حيّنا واستعادة الهدوء والأمان اللذين كنا ننعم بهما، واكتشفنا أنه يمكن تحقيق الهدفين عن طريق دمج الفريقين بدلًا عن استمرارهما في الصراع، وذلك بعد عقد اجتماع بين المديرين والسكان في منزل أسرة تشاتشيرز Thatchers وإشرافها.

وإذا كنا أنا وستيفن قد وجدنا أساليب تساعدنا على التأقلم مع البيئة المحيطة بنا في كامبريدج والتحكم فها، فإن الأمر كان أكثر صعوبة بكثير في مناطق أخرى؛ حين عاد والدا ستيفن من لويزيانا، قررا شراء عربة في الريف، فاقترحت أنا أن يختاروا موقع الكوخ على الساحل الشرقي، وبذلك يتمكنون من تقديم مساعدة كبيرة لأسرتنا. في كل من منطقتي سوفولك ونورفولك Suffolk، Norfolk. كان الرمل ناعمًا جدًّا، أما التضاريس فكانت متدرجة ويسهل التنقل فوقها؛ لذا كان من السهل دفع ستيفن حتى طرف الشاطئ حيث يجلس ويشاهد الأطفال وهم يلعبون، ولكن فكرتي تلك لاقت معارضة شديدة حيث قالت إيزوبيل Isobel: الشاطئ الشرقي شديد البرودة؛ لذا لن يتمكن والد ستيفن من تحمل الطقس هناك. وجدتُ الأمر محيرًا بعض الشيء؛

وذلك لأن فرانك هوكينغ Frank Hawking كان يقضي معظم وقته في الحديقة في جميع فصول السنة غير آبه بدرجة حرارة أو برودة الطقس تمامًا مثل ما كان يفعل السيد ماكجريروير القوي Mcgregor في كتاب بيتر رابيت Peter Rabbit –وكان كذلك يدخل المنزل ويلف نفسه بملابس تساعده على التدفئة بدلًا من أن يقوم بتجهيز المنزل بما يلزمه من أدوات تدفئة تاركًا بذلك الجميع على وشك التجمد.

كانت إيزوبيل تطمح للحصول على عربة مع فيليبا Philippaالتي كانت قد أنهت دراستها في اليابان حيث مكثت عامين كاملين، وكانت كلاهما متحمستين للحصول على الكوخ الحجري المطل على مجرى نهر وي Wyeالمجاور لقرية للاندوغو Llandogo في مونموثشاير Monmouthshire. كان مكانًا جميلًا جدًّا مليئًا بالمناظر الخلابة والطرق الجميلة والجداول والغابات؛ حيث يمكن للأطفال قضاء وقتهم في اللعب، لم أذهب يومًا في حياتي إلى ويلز Wales، ولكن حماسهما قد أثّر بي خاصة بعد أن حصلنا في نيسان عام 1971على سيارة جديدة بديلة لتلك القديمة الصغيرة كثيرة الأعطال، وذلك كجائزة حصل عليها ستيفن في مسابقة الجاذبية السنوية Gravity Competition مقابل مقال كتبه في عيد الميلاد، وعلى الرغم من كبر حجمها الذي يماثل ثلاثة أضعاف سيارتنا الصغيرة، إلا أننا كنا نجد صعوبة كبيرة في وضع جميع أمتعتنا فيها.

كنت أضع الكرسي المتحرك وكرسي الدفع ومهد الصغيرة في القسم الخلفي الواسع وبعدها لا أجد مكانًا لأضع فيه الحقائب، ولذلك كنت ألجأ إلى السقف المتحرك لوضع باقي الأغراض، ولكن ذلك بدوره خلق مجموعة أخرى من المشكلات، فما أن انتهيت من حزم حقائبنا جميعًا، وساعدت ستيفن على الجلوس في المقعد الأمامي للسيارة، وأحضرت الكرسي المتحرك ووضعته في الخلف، وأحضرت الأطفال وأجلستهم في أمكنتهم، ووضعت أمتعتنا في المكان المخصص لها، وكان ذلك يتضمن ___ كما ذكرت سابقًا –كرسي الدفع ومهد الأطفال المخصص للسفر– ووضعتُ ما تبقى من الحقائب فوق السقف المتحرك، حتى شعرت أني في غاية التعب، وبذلك فقدت الحماس تجاه الرحلة؛ إذ إن القيادة لمسافة تبلغ 220 كيلومترًا يوافق المسافة

بين منزلنا وسوفولك أو نورفولك بثلاثة أضعاف، وذلك سيكون أمرًا مرهقًا جدًّا. وجدتُ أن هذه الرحلة قد أصبحت محنة أكثر من كونها مغامرة، ولم يتغير شعوري ذاك حتى بعد أن تم افتتاح M4 بعد رحلتنا الأولى بمدة وجيزة.

حين توقفنا عند الحدود الويلزية لنأخذ قسطًا من الراحة ونتناول كوبًا من الشاي، رأينا أن لافتات الطريق أصبحت كلها مكتوبة بلغة غريبة، وشعرنا برائحة الهواء الرطب، وقد ساعدنا ذلك على استعادتنا للحماس. وأخيرًا كان بإمكاننا أن نجيب بصدق على سؤال روبرت الذي ما برح يسألنا كم تبقى من المسافة ليصل وذلك منذ اللحظة التي غادرنا فيها كامبردج. وبعد أن قطعنا أميالًا عدة من الطرقات الجبلية المفتوحة وصلنا إلى بعض الأزقة المشجرة وبذلك وصلنا وجهتنا. أما الكوخ فقد كان مطابقًا للوصف تمامًا: كان موقعه أخاذًا وغاية في الروعة، حيث إنه كان يطل على نهر واي Wye والوادي وبعض الهضاب المغطاة بالأشجار في الضفة الأخرى حيث فرض الخريف سلطة ألوانه الملكية على المشهد، وكان يجري إلى جانب المنزل جدولٌ صغير، أما خلف المنزل فقد كان هناك طريقٌ محاط بأشجار الزان وبعض النباتات الصغيرة، ويؤدي إلى شلالات كليدون Cleddon. وفي منطقة لا تبعد كثيرًا فوق الجبال السوداء Black Mountains وبريكون بيكونز Brecon Beacons، كانت تهب وبشكل دائم رياح شديدة لا يمكن لأقوى متسلقي الهضاب احتمالها، كما كان بناء المنزل كذلك جميلًا جدًّا، كان أبيض اللون ذا سقف حجري، ويقع على جانب الهضبة المغطاة بالأشجار، ويتصاعد من مدخنته دخان أزرق. بالفعل، لا يمكن مقاومة سحر ذلك المنزل.

لقد قمت بوصف المنزل على تلك الشاكلة مهملة بذلك بعض الحقائق، ومن أمثلة ذلك أن جانب الهضبة حيث يقع المنزل كان لا يسمح لنا بالتحرك سوى إلى الأعلى أو الأسفل. لم يكن هناك سوى مسار واحد مستقيم يمكن دفع الكرسي المتحرك عليه بسهولة، وكان ذلك المسار يبعد مئات عدة من الياردات من أجمة توت العليق حيث تقع تلك الأخيرة في طرف الغابة، وليس ذلك فحسب بل لا يمكن الوصول إلى المنزل إلا بعد عبور مجموعة متواصلة من درجات السلم شديدة الانحدار والمغطاة بالأعشاب

والطحالب. أما في الداخل، فيمكن الوصول إلى غرف النوم وحمام المنزل الوحيد عن طريق درج داخلي، وطبعًا لم يكن ذلك الوضع يناسب ستيفن على الإطلاق؛ فعلى الرغم من أن والده كان يسانده ويبقى إلى جانبه، كان دخول الحمام وخروجه يتطلب منه قرابة عشر دقائق، أما صعود أو نزول الدرج الذي يؤدي إلى الخارج فقد كان يتطلب وقتًا أكبر، وبناء على ذلك كنا نقوم بجميع الرحلات بالسيارة؛ إذ لم يكن هناك من حل آخر يمكننا اللجوء إليه.

لقد أحب الأطفال المكان وأنا نفسي شعرت ببعض السعادة، خاصة وأن ألوان الطبيعة كانت مبهرة كما أن الهواء النقي كان منعشًا حقًّا، إضافة إلى أني استمتعت كذلك بوجبات الطعام التي كانت تطهوها والدة ستيفن إذ إنها كانت طباخة رائعة، ولكن باستثناء تلك المناسبات التي تحاول فيها التوفير فتكتفي بتقديم طبق من نباتات الحديقة، أما بعد العشاء فكنا نقضي الليلة ونحن نلعب ألعابًا أسرية؛ وذلك حتى يشعر الأطفال بالنعاس، كنت أشعر بحزن شديد حين أرافق روبرت في رحلات تسلق الجبال تلك؛ وذلك لأني كنت أترك ستيفن جالسًا وحده في المنزل، خاصة أنه لم يكن أي مكان آخر يشعره بعجزه مثل ذلك المكان، يا إلهي كم شعرت بالعجز والألم لحاله! يبدو أن أسرة ستيفن كانت تعدّ نفسها غير مسؤولة عنه بأي شكل من الأشكال، لا أنكر أنهم كانوا يُبدون استعدادهم لتقديم المساعدة في تلك المرات التي كنا نزورهم فيها، ولكن بعيدًا عن تلك المرات لم يعيروا اهتمامًا لمتطلبات ستيفن التي يسببها مرضه.

7
الترحال صعودًا

اتضح لاحقًا أن لياندوغو بالعقبات كلها التي رافقتنا فيها عام 1971 كانت بروفة مفيدة لما سيحدث في نزهة الصيف التالي، والتي كانت وجهتها مدرسة الفيزياء الصيفية الموسمية في لي هوتشي Les Houches في جبال الألب، والمقامة على منحدر منخفض من مونت بلانك، كانت تلك الرحلة من اقتراح سيسيل دي ويت وزوجها الأمريكي بريس، وسيسيل هي أم لأربع بنات وأحد أهم الفيزيائيين البارزين في عصر لم يكن للمرأة فيه حضور يذكر؛ كانت سيسيل إحدى أولئك النساء العظيمات اللواتي أقف أمامهن باحترام، تمامًا كما أقف أمام زملاء لوسي كافينديش. قامت من بيتها في أمريكا، بتنظيم المؤتمرات العلمية التي كانت ستعقد في بلدها الأصلي فرنسا، وحرصت على انتقاء المشاركين فيها ودعوتهم بنفسها. في لي هوتشي أشرفت على التحضيرات كلها، وترأست الجلسات وتخطت العقبات. أما فيما يخص ستيفن، فقد جهَّزتْ قوة عاملة كاملة، وأحضرَتْ الجرافات الضخمة لتصنع مدرجًا يوصلنا إلى الشاليه الذي كان لنا أن نقضي فيه ستة أسابيع متتالية، بالإضافة إلى أنها فعلتْ ما بوسعها لتأمين الراحة لنا، ولا يمكن أن تلام على طقس جبال الألب ذلك الصيف.

استقل ستيفن وزملاؤه الطائرة إلى جينيفا، بينما سافرنا أنا ووالداي وبقية العائلة إلى باريس برًّا، وتوجهنا بدايةً إلى سان جيرفاز Saint-Gervais، حيث تنطلق رحلة القطار الليلية على بعد عشرين ميلًا من لي هوتشي، وقد تزامن وصولنا إلى باريس مع الازدحام الكبير أواخر شهر يوليو/تموز، حيث يخرج الفرنسيون جميعًا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ولكن نجح والدي بطريقة ما في إيجاد محطة القطار التي استطعنا بأعجوبة، وبالمال القليل الذي كان لدينا أن نحصل على مكان لنا بين جماهير المسافرين المحتشدين في غير دي ليون Gare de Lyon، وبعد رحلة ليلية كانت أشبه بكابوس، أشرقت الشمس علينا ونحن نتناول فطورنا المكون من القهوة والكرواسان خارج محطة سان جيرفاز، كانت الشمس تضيء القمم البيضاء أمامنا

في منظر مدهش، رافقنا ونحن نشق طريقنا بحماس على طريق متعرج في وادي تشامونيكس Chamonix إلى قلب جبال الألب.

وما إن بدأنا بتسلق المنحدرات باتجاه المدرسة الصيفية، والتي كانت تجمُّعًا لبعض الشاليهات وقاعات المحاضرات الموزعة بين المروج وأشجار الصنوبر، حتى غربت الشمس وحلَّ مكانها ضباب رقيق ثم بدأت الأمطار بالهطل، كان الطقس باردًا واستمر هطل المطر لساعات، كانت المياه تدلف من الأسطح، عبر المزاريب، من أغصان الأشجار، وحتى عن حواف الأعشاب، وتحول المدرج الذي صنعته سيسيل إلى مزلق طيني. كنا في منتصف شهر يوليو/تموز، ومع ذلك تعيَّن علينا أنا وأبي أن نملأ الموقد بالكثير من الأخشاب؛ حتى نبقي على المكان دافئًا ونجفف الزغابات التي كانت تزين كل زاوية من الشاليه. حاولت الصغيرة لوسي بعفويتها أن تساعد ما أمكنها بتدريب نفسها على استخدام النونية في عمر العشرين شهرًا.

في هذه الظروف، وعلى الرغم من صعوبة التحرك صعودًا في الرحلات الاستكشافية كافة، كان ستيفن سعيدًا؛ فمن الصباح وحتى المساء كان محاطًا بزملائه الذين يجمعهم -على اختلاف جنسياتهم- شغفهم العارم بدراسة الثقوب السوداء. كان بعضهم يتجمع لقضاء يوم كامل في تسلق مونت بلانك كلما سمح لهم الطقس بذلك، وقد أضاف ذلك جوًّا من المتعة والتشويق إلى جانب ما أعطاه من لمسة إضافية لشخصياتهم المتفوقة. لم يكن هناك أي شيء يصعب على أولئك البشر الخارقين، فقد كانوا قادرين على فك رموز السماء وخوض تحديات الأرض في آن معًا. يدخل ستيفن بكل تأكيد في عداد هؤلاء بفضل قدرته على تخطي إعاقته الجسدية بشجاعة وتسلق الجبال بوصفه متسلقًا متمرِّسًا.

تُرك بقيتنا -المرافقون، الزوجات، الأمهات، الأجداد والأولاد- لأعمالنا الخاصة؛ نتسوق، نطبخ، ونبحث عن تسليات خاصة بنا. زودتنا الغارات التي قمنا بشنها على المتجر المحلي المحدود البضاعة بالبيض اللازم لوجباتنا الأساسية من أنواع العجة المطبوخة في فرن غاز تقليدي، على الرغم من وجود مطعم يقدم كل ما يطلبه الزائرون، إلا أن أسعاره كانت مرتفعة ولم تكن العائلة قادرة على تناول طعامها فيه

كل الوقت، هذا إضافة إلى أن معظم الأحاديث التي كنا نتبادلها على طاولة الطعام كانت تتغير بشكل محتوم، وبشكل يمكن وصفه بالودي، باتجاه الخوض في موضوعات شائكة تتعلق بالثقوب السوداء أو تسلق جبال الألب، وكان من الصعوبة لنا (في ما يخص عائلتي) الدخول في تلك الأحاديث بشكل بنّاء.

عندما كانت الأمطار تتوقف عن التساقط، كنا نبدأ بالتنزه تحت الأشجار المحملة بقطرات المطر، وعلى الجرف الصخري وراء الشاليه، متجاوزين قاعات المحاضرات إلى الغابة القريبة بحثًا عن ثمار العليق والتوت البري. وهناك، كان بانتظارنا عقبة أخرى غير متوقعة؛ فحين كان روبرت، الملتزم بالمسير، يمضي معنا إلى النهاية، كانت لوسي ترفع يديها بعد أن تقطع بضع ياردات مشيًا، طالبةً أن يتم حملها بقية الطريق. ما حيرني فعلًا، هو رفض لوسي للمشي في حين أن طاقة روبرت المحدودة بدت طبيعية الآن، أعاد ذلك إلى ذاكرتي تحيُّر ستيفن بأمر لوسي عندما كانت ترفض النوم في أيام حياتها الأولى، كان تقدمنا في الجبال بطيئًا، ونادرًا ما وصلنا أماكن توافر العليق والتوت البري قبل أن تبدأ الأمطار بالهطل مجددًا، وفي إحدى الجولات حدث شيء غريب.

كانت لوسي هذه المرة تمشي على قدميها بجانب روبرت، متجاوزين جديهما بعشرة ياردات تقريبًا، وأنا في المؤخرة حيث لا يعيق مسيري أي شخص، لا صغير ولا كبير، كنت أستمتع بحرية الحركة المؤقتة تلك، وفجأة، رأيت الولدين يقفان جامدين، يتهامسان فيما بينهما، ويومئان إلينا بصمت، مشيران إلى الأرض، وهناك حيث أشارا، كانت أفعى صغيرة وجميلة من نوع نادر تشق طريقها متلوية من طرف الطريق إلى طرفه الآخر، كانت رمادية اللون تغطيها بقع ألماسية بيضاء. لم تعرنا انتباهًا ومضت تدخل في جحر لها تحت الأرض. كانت جميلة جدًّا، لكن الأجمل منها، كان مشاهدة ردة فعل الطفلين، فكأن الغريزة هي من حذرتهما وأجبرتهما على الوقوف بهدوء أمامها.

إضافة إلى حيوية المشاركين الأمريكيين في لي هوتشي وقدراتهم الملحوظة في تسلق الجبال، ساعد مرحهم على إضفاء جو لطيف مقابل الآثار القاسية للمطر؛ فلم يكن هناك أي تكلف في تصرفاتهم الودودة، ونجح كيب ثورن وزوجته ليندا -المختصة في

علم النبات- في كسر الحدود التي كان ليفرضها عليهم إيمانهم المورموني في سبيل الوصول إلى حقائق أعمق وأدق، ومهما كانت أفكارهم التي يؤمنون بها فقد احتفظوا بها لأنفسهم، ولم تظهر خلفيتهم الدينية إلا في إيصال الجانب الإنساني لطائفة المورمون التي تهتم بخير البشرية وتقدمها نحو عالم أفضل.

كان جيم باردين Jim Bardeen أكثر علماء الفيزياء هدوءًا وتواضعًا على الإطلاق، وكان منهمكًا مع ستيفن وبراندون كارتير بمهمة دقيقة لوضع القوانين الناظمة لآلية عمل الثقوب السوداء، معتمدين معادلات آينشتاين في نظريته حول (الفيزياء النسبية). أثارت مجموعة القوانين الجديدة التي تُفَصّل آلية عمل الثقوب السوداء صخبًا وحماسًا حول مشابهتها للقانون الثاني من قوانين الديناميكية الحرارية، حيث كان هذا التشابه دافعًا للمختصين في علم الفلك إلى تقليص الفجوة بين الديناميكا الحرارية والثقوب السوداء، بترجمة نظرية الثقوب السوداء إلى لغة الديناميكا الحرارية؛ تؤطر قوانين الديناميكية الحرارية العمليات المايكروكوزميكية من حيث إنها تصف سلوك الذرات والجزيئات وتحلُّلها الحتمي إلى طاقة حرارية تتم مبادلتها مع الأشياء المحيطة بها، ولكن المعضلة التي واجهت الفيزيائيين آنذاك كانت تتلخص في أن قوانين الديناميكا الحرارية، على الرغم من الشبه المكتشف بينها وبين نظرية الثقوب السوداء، لم يكن لها أن تصح في حالة الأخيرة، فالنظرية تقول بأن لا شيء يمكنه تخطي الثقوب السوداء، حتى الحرارة.

حين كان ستفين وجيم وبراندون يحاولون فك ذلك اللغز المعقد ذات أمسية، وضبت أغراض الأطفال وجديهما ورحلنا متجاوزين تشامونيكس باتجاه سويسرا، في الحقيقة، لم يكن باستطاعتي تحمل نقطة أخرى من المطر، فأملت أن أجد هناك انتقال حرارة ترحيبيًّا من جسم إلى آخر، ولم يكن يعنيني إن كانت الحرارة تشير إلى التحلل، أو غيرها من المصطلحات العلمية التي يستخدمها الباحثون. رافقتنا نانسي، زوجة جيم، وقد نجحت في الاستحواذ على انتباه الأطفال بالغناء لهم وإخبارهم بعض القصص أو بإلقاء الدعابات المضحكة وإنشاد الأشعار أمامهم على طول الطريق حتى مارتيغني Martigny -حيث وجدنا الشمس مشرقة هناك بالفعل- وكذلك فعلَت

في طريق العودة أيضًا. كانت نانسي تخفي وراء إشعاع عينيها البنيتين الواسعتين ألم فراق والديها الذي لم يمض عليه إلا مدة قصيرة من الزمن.

في إحدى الأمسيات الماطرة في لي هوتشي قابلنا أيضًا بيرنارد كار Bernard Carr، أحد الطلاب الجدد الذين يشرف ستيفن على بحوثه، كان بيرنارد مختلفًا عن أقرانه من الطلبة الباحثين؛ فقد كان طلقًا، كثير الكلام، اجتماعيًّا بطبيعته، وربما كان ذلك نتيجة لتعلمه في مدرسة داخلية منذ عمر السادسة. تنوعت الأحاديث التي كان يخوض فيها، وغالبًا ما كانت تنتهي بالحديث في الموضوع الأساسي الذي يشغل اهتمامه، علم النفس الغيبي، ذلك العلم الذي نظر إليه علماء الفيزياء، بما فيهم ستيفن، بعين السخرية؛ أما بالنسبة إلى برنارد، فكان البحث في حدوث الصدف أو التخاطر بين البشر أمرًا في غاية الأهمية. لقد أصيب في الواقع بالدهشة عندما عرف بأن ستيفن، مشرفه الجديد، توقع زيارته إلى جينيفا حيث يقيم على الرغم من أن تلك الزيارة جاءت عفوية ومن دون تخطيط إلا من قبل ستيفن، الذي أرسل دعوة شفهية إليه عن طريق طرف ثالث فشل في إيصال الدعوة. كان طموح بيرنارد في البداية أن يغدو رائد فضاء. في طفولته، اكتشفت أمه مذعورة أنه قضى يومًا كاملًا يقف على رأسه في خزانة صغيرة تحت السلالم كتحضير للبدء في مهمته نحو الفضاء، في حين كان أخوه يقف خارجًا مراقبًا فنيًّا لتلك المهمة، لا بد أن أمه شعرت بالرضى عندما اتجه تفكير بيرنارد في اكتشاف الفضاء نحو النظرية بدلًا عن التطبيق.

عندما قبلت الشمس أخيرًا الإشراق على فرنسا كما هي في سويسرا، وعندما ظهرت الجبال من خلف الغيوم، عرض علي كيب وليندا اصطحابي مع روبرت في نزهة جبلية لمشاهدة أحد أنهار الجليد، فكانت وجهتنا نهر بيوناسي المتجمد Glacier de Bionnassay على الوجه الغربي من جبل مونت بلانك Mont Blanc. تركت لوسي وستيفن مع والدي، واستقلينا التلفريك من لي هوتشي باتجاه الجرف الصخري، حيث أمكننا رؤية القرى وبيوتها كنقاط صغيرة مبعثرة حول الوادي، وغابت المدرسة الصيفية إلى يسارنا خلف الأشجار المعتمة، وإلى اليمين كان بإمكاننا مشاهدة طريق صغير ينحدر بشدة على جانب الجبل، أوصلتنا الأسلاك المعلقة الزاحفة صعودًا من

سينت غيرفاس إلى محطة عش النسر، وشكّل التضاد الساحر بين بياض الجبال وزرقة السماء مشهدًا ساحرًا فيما استمرت العربة بالصعود، توقفنا مرات عديدة لنشارك ليندا نشوتها العارمة بمشاهدة التنوع الهائل لنباتات جبل الألب وأزهاره تحت أشعة شمس الظهيرة. تابعنا تسلقنا، أعلى وأعلى، خلف نهاية خط التلفريك باتجاه النهر الجليدي الهائل بلونه الأزرق المائل إلى الرمادي، واستمر البحث عن نباتات جديدة لدراسات ليندا.

لم ندرك أننا أصبحنا وحيدين في تلك الجبال إلا بعد أن وصلنا أول ملجأ من ملاجئ المتسلقين في دوم دو غوتير Dôme du Goûter. بعيدًا في الأسفل، كانت عربات التلفريك قد توقفت عن الحركة، واختفى المتنزهون عن المشهد تمامًا متجاهلين أن الشمس لم تغب بعد، كان الهدوء مرعبًا، حيث خلا الجو من أي حركة ربما باستثناء بعض الصقور التي كانت تحوم فوقنا بصمت، أو من جدول بعيد ينساب عبر الصخور. لم يفكر أيّ منا في السؤال عن وقت رحيل العربة الأخيرة في المحطة أسفل الطريق، وعدنا أدراجنا مسرعين باتجاه محطة التلفريك التي تجاوزناها بمسافة ساعة أو أكثر مشيًا، وكانت المفاجأة بأننا وجدنا عربة متوقفة في المحطة وحارسًا يقف بجانبها، فاتجهنا إليه والابتسامة تعلو وجوهنا من شدة الارتياح، لكنه وقف في طريقنا ونظر إلينا نظرة يملؤها الحزم، وأعلن لنا بلؤم من لا يعنيه الأمر بأن آخر عربة قد غادرت في الساعة الخامسة والنصف، والساعةَ الآن أوشكت على السادسة. رجوناه بشدة مشيرين إلى الطفل ذي الخمس سنوات الذي كان معنا والذي بدأ بالشعور بالتعب لأول مرة له في الرحلة، بقي الرجل معاندًا صلبًا كالصوان، فعدنا أدراجنا خائبين غاضبين. في الريف الصخري فوق المحطة، كان هناك نزل صغير حاولنا أن نتصل بالمدرسة الصيفية فيه لكن عبثًا، لم يكن من المنطق أن نبقى أكثر من ذلك، فالشمس كانت في طريقها إلى الغروب، تركنا القليل من المال مع صاحبة النزل كي تحاول الاتصال مجددًا بالمدرسة وتترك رسالة لأصدقائنا.

كان خيارنا الوحيد هو النزول أسفل الجبل بأقصى سرعة ممكنة، متبعين الطريق حيث أمكننا إيجادها، متدافعين بين السراخس والأعشاب الطويلة حيث لا يمكن تبيّن

معالم الطريق. قام كيب بحمل روبرت الذي أُنهك تمامًا بعد أكثر من أربع ساعات من المشي، وبدا في ذلك المشهد الأبوي كالقديس كريستوفر في إحدى لوحات العصور الوسطى، تابعنا طريقنا بين الشجيرات المتشابكة وكم كانت المفاجأة كبيرة حين شاهدنا العربة التي خلفناها وراءنا تحمل ذلك الرجل العنيد وتبحر فوق رؤوسنا باتجاه لي هوتشي. بدأ الهواء بالتجمد من حولنا مع غروب الشمس خلف الجبال، وأصبحت السماء معتمة أكثر فأكثر، ثابرنا على المشي، مواسين أنفسنا بأنا نتجه هذه المرة نزولًا لا صعودًا.

لم تحدد قرية لي هوتشي نهاية المسير، بل كان علينا أن نجاوزها غربًا سائرين لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة؛ كي نصل إلى المدرسة الصيفية المتربعة فوق التلة الجبلية. كانت الساعة قد تخطت التاسعة عندما دخلنا متعثرين إلى قاعة الطعام المضاءة حيث كان الجميع متجمهرين بانتظار أي خبر عنا، لم تصل أي رسالة من النزل، وكان الجميع بمن فيهم عائلتي -والداي وستيفن- والزملاء والطلاب يتوقعون أسوأ ما يمكن أن يحدث، تعانقنا ودموع التعب والارتياح تمتزج في عيوننا.

في نهاية شهر أغسطس/آب، وبعد أن نجونا من الأمطار مع آخر اجتماع لنا في المدرسة الصيفية -والذي كان حفلة شواء ضخمة لخروف كامل فوق حفرة مملوءة بالحطب- اقترح كيب على ستفين أن يذهب في زيارة إلى موسكو؛ للحديث مع العلماء الروس الذين لم تتح لهم حرية السفر إلينا. وعد كيب بأن يقوم بالإجراءات كافة اللازمة لزيارة خاصة تتبع مؤتمر كوبرنيكس في بولندا صيف 1973، وسَرَتْ في جسدي رعشة باردة بسبب اقتراحات كيب التي قدمها عن طيب نية؛ عندما كانت لوسي ما تزال رضيعة، اعتاد ستيفن السفر إلى المؤتمرات مع جورج إليس أو غاري غيبونز، أول طالب أشرف على بحثه، أو مع أمه أحيانًا. أما الآن، وبعد أن أصبح روبرت في الخامسة من عمره، وأصبح عمر لوسي سنة ونصف، انتهت المهلة الممنوحة لي للتهرب من الرحلات الدولية. كان ستيفن يطلب إليّ مرارًا أن أصحبه في رحلاته إلى أماكن قصية، وكان جوابي الدائم بأني لا أحتمل الابتعاد عن أولادي.

كنت مشتتة بين التزامين: كانت إرادة ستيفن في المضي في مهنته صلبة كالحديد، وشكلت المؤتمرات العلمية فرصة مهمة له لإثبات وجوده على الساحة الدولية، وكان هدفي في البداية يكمن في مساعدته لتحقيق أقصى نجاح ممكن، ولكن بسبب هذا الالتزام، أصبحت أمًّا لأولاده، وأصبحت مسؤولياتي تجاههم مساوية لمسؤولياتي تجاه ستيفن؛ فحيث كان ستيفن يحتاج مساعدتي في الكثير من أموره الشخصية، كان الأولاد يفتقرون لمساعدتي في تلبية جميع احتياجاتهم؛ فسنهم الصغيرة تطلبت مني تفرغًا تامًّا، ولما كان مستقبلهم غير مضمون من ناحية وضع والدهم الصحي، تعيَّن علي أنا؛ أمهم، ألا أبتعد عنهم إلا في الحالات القصوى، فعلى الرغم من وجودهم بين أيدٍ أمينة مع جديهما، فقد شكلت فكرة ابتعادي عنهما لآلاف الأميال لأي مدة من الزمن قلقًا كبيرًا بالنسبة إلي.

السيناريو ذاته يتكرر مرارًا: سجال عنيف بيني وبين ستيفن؛ هو يطلب مني الذهاب إلى مؤتمر، فلنقل في نيويورك، وأنا أرفض متوترةً. كان يتجاهل نفوري من الذهاب، ويعيد الطلب ذاته لأسابيع عدة قبل أن أصاب بنوبة جنون عارمة مع إحساس شديد بالذنب إن أنا خذلته في رغبته، ولم يكن ذلك دون أن يدركني شيء من الحزن لعدم قدرته على استيعاب مشكلتي. كل هذا الضغط كان مترافقًا مع خوفي الشديد من الطيران، ذلك الخوف الذي بدأ معي منذ رحلة أمريكا في العام 1967، والذي كان يحلق فوق رأسي كطائر أسود كلما ذكر أمامي السفر جوًّا؛ لقد سافرت بوساطة الطائرة مرتين فقط منذ ذلك التاريخ؛ مرةً في عطلة شتوية إلى مايوركا وفيها مَرِض روبرت، والثانية إلى سويسرا في مايو/أيار في العام 1970. كان هناك رحلة من المفترض أن نقوم بها إلى تبيليسي في جورجيا في سبتمبر/أيلول عام 1968، ولكن لحسن حظي، رفض العديد من العلماء البريطانيين، ومن بينهم ستيفن، المشاركة في المؤتمر احتجاجًا على غزو روسيا لتشيكوسلوفاكيا في أغسطس/آب من العام ذاته. لم يكن خوفي من الطائرة دون سبب: ففي ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، تعرضت الطائرات لكثير من الحوادث الجوية وبتكرار مخيف، إضافة إلى أنها كانت الهدف المفضل للخاطفين من المجموعات الإرهابية المختلفة التي تزايدت أعدادها في تلك المدة.

تلخصت النتيجة النهائية لتلك الضغوط المتناقضة في خضوعي لسنوات من الشقاء والترحال عبر أطول وأكثر الطرق مخاتلةً. في العام 1971، دعي ستيفن إلى مؤتمر في تريستي، وفي حين سافر هو جوًّا، اصطحبت روبرت معي في القطار، تاركين لوسي ذات السبعة أشهر مع والدَي، وبعد رحلة طويلة في حرارة أوروبا، توقفنا في البندقية. وهناك أخذ المشهد الساحر من أعلى الكامبنايل Campanile مأخذه من روبرت، فرفض النزول رفضًا قاطعًا إلى أن اضطره ضجيج الأجراس الضخمة معلنة انتصاف النهار إلى اللجوء إلي لأحمله. بعد ذلك، أصرَّ أن يجلس على إحدى الطاولات في ساحة القديس مارك خارج فلوريان، وقد تعلمنا من تلك الحادثة درسًا غالي الثمن -حيث دفعنا ستة جنيهات ثمن فنجان صغير من القهوة- وبسبب ذلك، وعندما مررنا ثانية في فلوريان جلسنا على أحد الأدراج المطلة على الساحة لنصبح هدفين ثابتين لتسلية الحمائم.

بعد مضي سنتين، أخذت الرحلة المقترحة إلى موسكو عبر مارسو مسارًا مختلفًا: تحتم السفر جوًّا، وكان التقدم للحصول على التأشيرات اللازمة يتم قبل أشهر عدة من الموعد المحدد، لم يكن هناك أي خيار آخر؛ تعيَّن عليّ الابتعاد عن طفليَّ قرابة الشهر، ففي تلك الحقبة من القمع التي تلت سقوط خروتشوف، لم تُمنح الموافقة على مرافقة ستيفن لأحد سواي. أرعبني المشهد، لكن القرار كان قد اتُخذ، وبطاقات الطائرة قد تم حجزها ودفع ثمنها- كالعادة- من قبل إحدى الجمعيات العلمية، وأخيرًا كانت تأشيرات السفر قد وصلت من السفارة الروسية ولو بعد جهد جهيد. كم كان كئيبًا أن أستذكر كيف اختفت في غضون سنوات قصيرة فقط، تلك الطالبة التي طالما جابت إسبانيا وحدها، ضاربة بعرض الحائط أي هم يتعلق بأمور الزواج والأولاد، مرحةً في انطلاقها نحو المغامرة، متلذذة بالسفر جوًّا، حتى لو عبر تلك الطائرات ذات المحركات التي تصدر أصواتًا قاصفةً كالرعد... باتجاه وراسو وموسكو. تسللتُ مع ذلك القلق المخيف تاركة طفليَّ يلعبان بسعادة في بيت جديهما في سينت ألبانز في أغسطس/آب 1973.

8
الحكمة والجهل

تهافت الفلكيون إلى بولندا في العام 1973 للاحتفال بالذكرى السنوية الخمس مئة لولادة نيكولاس كوبيرنيكس Nicolaus Copernicus، عالم الفلك البولندي الذي لم يرضَ عن المعادلات الرياضية المربكة المستخدمة في دراسة حركة الكواكب وفقًا لنظرية بطليموس التي تعتمد الأرض مركزًا للكون، العالم الذي قاده عدم الرضا ذلك إلى تطوير نظرية جديدة للكون في عام 1514 للميلاد. كمتخصصة في تاريخ القرون الوسطى- إن جاز التعبير- وكمن لديه أكثر من اهتمام عابر بعلوم الفلك، أعترف بأنه لطالما أذهلني التأثير العلماني لنظرية كوبرنيكس، التي بناها على فرضية أن الأرض -كما بقية الكواكب جميعًا- تطوف حول الشمس، فدحض بذلك نظرية بطليموس التي كانت تُعدّ آنذاك بديهة دينية وعلمية في آن معًا، مع أن صلتها في الحقيقة بالنص الديني القائل بأن الأرض مسطحة، وفوقها الجنة وتحتها الجحيم كانت صلة ضعيفة. في زيارتي الأولى لما وراء الستار الحديدي -بغض النظر عن الزيارة القصيرة ليوغسلافيا لمدة يوم واحد في العام 1971- تعلمتُ درسًا في بولندا عن طبيعة المأساة: مأساة التاريخ في بلد حمل ندوب القهر والتقسيم، والمأساة الفلسفية للجنس البشري في الانشطار الذي سببته نظرية كوبرنيكس بين العلم والدين؛ مأساة العبقرية.

صحيح أن كوبرنيكس لم يعش حتى يرى كيف طور غاليليو نظريته في القرن السابع عشر للميلاد، إلا أنه كان مدركًا خطورة جدليتها، فلربما كان العالمَ الأول الذي فتح صندوق باندورا Pandora's box[1] في مجال البحث العلمي، مع تلك الاحتمالية المزدوجة لأن يحمل ذلك الفتح بذور تطور المعارف البشرية ومعها معضلات شائكة تمتحن معايير الاستقامة الأخلاقية للإنسان. تستحق تلك النظرية بالفعل اللقب التي أطلق

(1) في الميثولوجيا الإغريقية، صندوق باندورا هو صندوق حُمل بوساطة باندورا يتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب وحسد، ووهن، ورجاء.

عليها: (ثورة كوبرنيكس)؛ فوفقًا لما طرحه كوبرنيكس، لم تعد الأرض مركزًا للكون، وكذلك لم يعد الإنسان محور الخلق. قاد ذلك التغيير الجوهري في المنظور الفكري إلى تحرير الإنسان، وسمح له بتوسيع مداركه الفكرية وتثمين خصائصه الفيزيولوجية، وكان أيضًا أحد أهم العوامل المؤثرة في تطور فلسفة عصر النهضة في أوروبا، حيث راح المعماريون يبنون القصور بدل الكنائس، واستبدل الرسامون والنحاتون المَثَل المقدس بالجسد البشري، مُصورًا لأجله، ومنحوتًا لجماله وقوته. علميًا، مهدت نظرية كوبرنيكس الطريق أمام اكتشافات نيوتن في القرن السابع عشر في إنكلترا، حيث تجلى الأثر الإيجابي لتزمت بيوريتاني مختلف في إفلات الفكر المنطقي من قبضة الدين. أما في المجتمع الكاثوليكي آنذاك، فقد سببت نظرية كوبرنيكس ردات فعل معادية للعلم، يمكن لمس صداها في مجتمعات اليوم.

ربما كان استبصار كوبرنيكس لتعقيدات نظريته هو ما دفعه إلى تأجيل نشر عمله الذي حمل عنوان: (فيما يتعلق بثورة الأجرام السماوية concerning the revolution of the heavenly spheres) إلى ما قبل وفاته بقليل؛ حيث يشاع أنه استلم أول نسخة مطبوعة من عمله وهو على فراش الموت في الرابع عشر من مايو/أيار من العام 1543، لكن هذا لا يعني مطلقًا بأنه كان راغبًا في إخفاء نظريته تلك، فقد كانت ذائعة الصيت طوال مدة من الزمن، حتى إنه قام بإلقاء محاضرة أمام البابا كليمنت السابع عن موضوع النظرية في روما في عام 1533.

من المعتقد أن البابا لم يدرك مضامين المحاضرة بالمجمل كونها قُدمت له على أنها مجرد تبسيط لمعادلات بطليموس الرياضية المعقدة، أو ربما لأنه لم يأخذها على محمل الجد، حيث كان لا بد من مضي وقت كاف حتى يسقط عبء سخط الكنيسة على غاليليو جاليلي -وكان ذلك في القرن السابع عشر- لدعمه ونشره النظام الفلكي الجديد.

يعود الفضل في اختراع المنظار -كما وصل إلينا- إلى مجموعة من الأطفال الذين كانوا يلهون بقطع الزجاج والعدسات في مختبر أحد صانعي النظارات الطبية الفلمنكيين، حيث وجدوا أن بإمكانهم مشاهدة الأشياء البعيدة بوضوح أكثر عند

استخدامهم لعدستين معًا. استطاع صانع النظارات رؤية الجدوى الاقتصادية التي قد يحققها مثل ذلك الاكتشاف في سوق الألعاب، ولكن عندما سمع غاليلو بالقصة في العام 1609، عمل على تطوير نظرية خاصة به، ونجح في ليلة واحدة بتصميم نسخته المعدلة: التيليسكوب، ومن ثم قدَّمها إلى تجار كامبانيل في فينيس. استغرب التجار آلية عمل التيلسكوب، وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما استطاعوا رؤية تفاصيل العلامات الموضوعة على إحدى السفن المبحرة بمحاذاة الأفق، وعلى بعد ساعتين تقريبًا عن الميناء. أدرك غاليليو عندها أن نجاح اختراعه الثوري في الملاحة يمكن قلبه باتجاه السماء، فبنى تيلسكوبًا في بودوا، واكتشف بوساطته أربعة كواكب جديدة -كانت في الحقيقة أربعة أقمار للمشتري- ونشر خريطة بالألوان المائية لسطح القمر. أكدت ملاحظاته الفلكية عدم حتمية كون جميع الأجرام السماوية في حركة دائرية حول الأرض، ما قاده إلى الاقتناع بصحة نظرية كوبرنيكس. في العام 1610 قام غاليلو، وبشيء من السذاجة، بنشر دلائل تثبت نظريةً بناها مستندًا إلى ملاحظاته تلك، وفي السنوات القليلة اللاحقة وجد نفسه في صراع مع الكنيسة التي كانت ترى، لاهوتيًّا، بأن الأرض ثابتة في مركز الكون.

في العام 1600 للميلاد، كان حرق جيوردانو برونو أمام العامة بسبب جرأته في الخوض في المسائل الفلكية، ولكن مصير برونو لم يثني غاليليو عن المضي في طرح أفكاره، فقد افترض بسذاجة أن لا أحد يرغب في نقض الدلائل البصرية، ومضى في كونه أهم وأكثر الداعمين لنظرية كوبرنيكس شهرة، وخصوصًا بعد أن نشر اكتشافاته باللغة العامية، الإيطالية، بدلًا عن اللاتينية. شكل هذا الهجوم على وجهة النظر اليهودية- المسيحية عن كون متمركز حول الأرض خطرًا غير مقبول من داخل كنيسة تحارب أصلًا خطر البروتستانية من الخارج، وفي العام 1616 أصدرت الكنيسة إيعازًا تطلب فيه إلى غاليليو أن يتخلى عن الالتزام بمذهب كوبرنيكس أو الدفاع عنه.

في عام 1623 انتخب مافيو باربيريني ليكون البابا يوربان الثامن، الأمر الذي أراح غاليليو مؤقتًا. كان باربيريني على قدر عالٍ من الثقافة، محبًّا للفن، ولكن في الوقت نفسه، كان متعجرفًا، مبذرًا وطاغية -قيل أنه أمر بقتل العصافير كلها في

حديقة الفاتيكان ليحصل على بعض الهدوء- لكنه كان صديقًا لغاليليو، وقد ساعده في التخفيف من إنذار عام 1616 بالطلب إليه بكتابة أطروحته: Dialogosopra i due massimisistemi del mondo, tolemaico e copernicano مناقشًا فيها الحجج المختلفة لكل من النظامين المتنافسين، وكان الشرط الوحيد هو أن تبدو الأطروحة حيادية تمامًا. ببداهة، عندما ظهر الكتاب في عام 1632، لم يكن من الممكن قراءته إلا كتأكيد تقريري عن صحة نظرية كوبرنيكس؛ اقتيد غاليليو على إثر ذلك إلى المحاكمة ليتم استجوابه من قبل المحكمة المختصة بمعاقبة الهراطقة، وصدر الحكم عليه بملازمة منزله في أركيتري.

قضى ملك الفضاء اللامتناهي عجوزًا، كفيفًا وأسيرًا وقته متخبطًا في علبة كبريت؛ بكى التفاوت الصارخ ما بين رحابة أفق بحوثه وضيق الحدود الجسدية التي يعانيها، قدرٌ يَسهُل علينا التعاطف معه: «لقد ذوى الكون بي الآن حتى أصبح كبوتقة ضيقة تملؤها ارتجافات جسدي».

على الرغم من الحكم عليه بقضاء بقية حياته حبيس منزله، لم تخمد إبداعات غاليليو؛ فقد تم تهريب مخطوطة جديدة تحمل العنوان Concerning Two New Sciences خارج إيطاليا باتجاه هولندا حيث نشرت في العام 1638، وبهذه المخطوطة، يُعدّ غاليليو مؤسس العلم التجريبي الحديث والفيزياء النظرية، ومع المخطوطة، أبحر العلم شمالًا، بعيدًا عن محاولات القمع التي تمارسها أوروبا الجنوبية.

على الرغم من أن غاليليو كان كاثوليكيًّا متدينًا، إلا أن صراعه مع الفاتيكان، والذي أدير للأسف بشكل سيئ من كلا الطرفين، هو الذي أسس لتلك المعركة القائمة منذ ذلك الحين بين العلم والدين؛ انقسام مأساوي ومحيّر بقي حتى الآن دون حل. اليوم، وأكثر مما مضى، يجد الدين في النظريات العلمية تهديدًا لحقائقه الإلهامية، ويتقهقر في وضع دفاعي في مقابل الهجوم الذي يطلقه العلماء، انطلاقًا من اعتقادهم الوثيق بأن الجدال المنطقي هو المعيار الوحيد الذي يمكن البناء عليه في فهم آليات عمل الكون. ربما كان كلا الطرفين مخطئًا في فهم طبيعة الدور الخاص به؛ فالعلماء لديهم ما يمكّنهم من الإجابة عن السؤال الميكانيكي حول كيفية عمل

الكون وأشيائه بما فيها الحياة، والنشوء، ولكن وبما أن طرائق تفكيرهم محصورة بالمنطقي والمادي المحسوس، لا يمكن للفيزيائيين الادعاء بقدرتهم على إجابة السؤال المتعلق بالغائية التي تكمن وراء وجود الكون؛ ولماذا نحن البشر موجودون هنا لنبحث فيها، وكذلك لا يمكن لعالم الأحياء أن يقدم إجابة مقنعة عن لماذا -انطلاقًا من أن أفعالنا تحددها جيناتنا الوراثية- نستمع أحيانًا إلى صوت الضمير، ونتصرف بغيرية أو تعاطف أو كرم، مع أن هذه الخصائل البشرية قد خضعت لهجوم المحللين النفسيين المختصين بدراسة تطور الإنسان، الذين يعزون التعاطف إلى نظرية جينية بدائية تقول بأن التعاون (كعائلة) بين أفراد نوع حيوي ما يساعدهم على البقاء. وبالمنطق نفسه تُعدّ الروحانيات المعقدة في الأنشطة المختلفة كالموسيقى والفن والشعر عملًا متطورًا لأعضاء حيوية بدائية.

تكرارًا وعبر العقود التي قضيناها كزوجين، كان أي مقال علمي أو برنامج تلفازي كفيلًا بإثارة أسئلة من هذا النوع في ذهني، وعلى الفور، كنت أحاول مناقشتها مع ستيفن. كانت نقاشاتنا الأولى حول هذه الموضوعات مرحة وودودة، ولكنها اتخذت مع تقدم السنين، طبيعة شخصية أكثر، وغدت خلافية ومؤلمة. انجر الانقسام المؤذي بين الدين والعلم إلى حياتنا الشخصية: كان ستيفن يتشبث بعناد بالموقف الفلسفي الوضعي الجلف الذي كنت أراه موهنًا ومحبطًا لوجهة النظر التي أحملها عن العالم، فأنا من أولئك الذين يتوقون للإيمان بأن هناك شيئًا آخر في هذه الحياة يتجاوز الحقائق الجافة التي تقدمها قوانين الفيزياء والصراع اليومي من أجل البقاء. على الجانب الآخر، كان أي تنازل من جانب ستيفن بمثابة لعنة لا يمكن تحملها؛ لأن ذلك كان يعني اعترافًا بشيء من عدم الثبات في الثوابت والمعادلات الرياضية التي يتعامل معها.

مات غاليليو في الثامن من يناير/كانون الثاني عام 1642، في العام نفسه الذي ولد فيه نيوتن، وقبل ثلاث مئة عامًا من اليوم الذي ولد فيه ستيفن، فلم يكن مستغربًا إذًا أن يكون غاليليو مثلًا أعلى لستيفن، ولهذا حصل ستيفن في العام 1975 على ميدالية تكريمية من البابا، فاستغل الفرصة بإقامة حملة شخصية لرد الحسبان لغاليليو. نجحت الحملة بالطبع لكنها أُطِّرت ضمن انتصارات المنطق العلمي على التفكير

العتيق الضيق للدين، كانت اتفاقية استسلام مشروطة للدين أمام العلم، لا اتفاقية سلام بينهما.

عاش نيكولاس كوبرنيكس، في القرن السادس عشر حياةً طبيعية ضمن عصر النهضة، ولم يكن ليخطر في باله المصائب التي ستلحق بغاليليو في القرن التالي، وقد استفاد كوبرنيكس من جميع مزايا عصر النهضة، فمن التوسع الثقافي والخبراتي في ذلك العصر التنويري إلى إمكانية السفر بحرية تصل حدود بولونيا Bologna، بادوا Padua وحتى روما. درس الطب إلى جانب الرياضيات وعلم الفلك، ترجم الكثير من المؤلفات من اللغة اليونانية إلى اللاتينية، شغل العديد من المناصب الدبلوماسية وقدم اقتراحات مختلفة لإنعاش العملة البولندية، ولسوء الطالع، كانت تلك المزايا ممنوعة عن مواطني كوبرنيكس المعاصرين الذين تجمعوا بعد خمس مئة سنة للاحتفال بذكرى مولده.

إن أهم المزايا التي توفرها بولندا بوصفها مكانًا للاحتفالية، من وجهة نظر العلم، تجلى في تأمينها مكانًا يسمح بالتقاء عباقرة الشرق والغرب، فلم يكن يسمح للفيزيائيين الروس بالسفر إلى أبعد من بولندا ضمن هامش مريح من الحرية. أما بالنسبة إلى علماء الغرب، حيث كان دخول بولندا أسهل بكثير من دخول الاتحاد السوفييتي: فتأشيرات السفر إلى بولندا وصلتنا على الفور في حين أبدى الروس ترحيبًا فاترًا. ربما كان التفصيل الوحيد الذي أزعج بعض المنتدبين الذكور هو الإلحاح الشديد على أن تكون الصورة الموجودة على جواز السفر مطابقة لحامله بكل تفاصيلها المملة.

كان سائدًا في عام 1973 الشعر الطويل واللحى الكثة بين جمهور الشباب، وبالنسبة إلى المبعوثين والطلاب الشباب، فلم يكن منظرهم الحالي يشبه في شيء صور جوازات سفرهم، فمن البديهي أنها التقطت لهم قبل عشر سنوات، حيث كانوا طلابًا بوجوه لامعة حليقة. لم تقتنع السلطات البولندية بأن حاملي الجوازات هم أصحابها الحقيقيون إلا بعد أن أجبرتهم على حلق ذقونهم وقص شعورهم في نقاط التفتيش الحدودية، وما دفعهم إلى تلك الإجراءات الصارمة هو الخوف أن يتسلل بين هؤلاء

أحد الهيبيز، ويقوض بدخوله نقاء الثقافة الشيوعية في البلاد. وصل الشباب إلى وارسو وهم يبدون كقطيع من الخراف تعرض صوفهم للجز، وكان ستيفن الوحيد الذي لم يتعرض شعره لعملية تشذيب سريعة، حيث كان أقصر مما يبدو عليه في الصورة.

كانت بولندا التي عرفناها في العام 1973 مقاطعة حزينة، دمرتها ألمانيا واحتلتها روسيا؛ ولذلك لم يكن غريبًا أن ينظر البولنديون بعين من الريبة إلى الأجانب كلهم بمن فيهم نحن. كنا جميعًا مدموغين بالتهمة نفسها: فإن لم نكن ألمانًا، لا بد أن نكون روسًا. لم نستفد من إعلاننا المتكرر بأننا بريطانيون، فالبريطانيون كما الأمريكان ينتمون إلى تلك المجتمعات المترفة المحسودة التي كان البولنديين يتمنون الانتماء إليها دون طائل. حملت واجهات المحلات بعض الملامح المشابهة لمحلات أوروبا الغربية، ولكن رفوفها كانت شبه خالية إلا من بعض المواد المزيفة أو تلك الباهظة الثمن إلى حد لا يمكن معه شراؤها.

في كل مكان من بولندا تجد ما يشير إلى أن تلك البلاد غير منسجمة مع نفسها، بلاد تعاني إشكالية التضاد بين القديم والحديث، وبين الشرق والغرب. يمكنك أيضًا ملاحظة التمزق الذي أصاب هويتها الثقافية عبر تاريخها المشترك مع جيرانها المتحاربين، روسيا وألمانيا، فالنصب المعمارية فيها ازدادت في الحرب العالمية الثانية بدلًا من أن تتعرض للدمار، ويتضح ذلك أكثر ما يتضح، في التفاصيل الدقيقة للمدينة القديمة وارسو. وفي المقابل، تجد هدية ستالين الفظة للشعب البولندي وهي مبنى هائل للبلدية، بُني من حجار المغليث الضخمة، ويقال بأن أفضل المشاهد في وارسو تشاهد من على ذلك المبنى -بمعنى أن المكان الوحيد في وارسو الذي يغيب فيه ذلك الصرح عن ناظريك هو سطح البناء نفسه- وفي ذلك المبنى كان مؤتمر كوبرنيكس. كان هناك درج طويل يوصل إلى المبنى، ومن ثم درج طويل آخر يدخلك من البهو إلى حيث يعتقد المؤتمر. في كل صباح، كان علي أن أتعاون مع بيرنارد كار (طالب من طلاب ستيفن)؛ لنحمل ستيفن إلى أعلى السلالم ونجلسه على كرسي هناك، ومن ثم نعود لنحضر الكرسي المدولب. في الداخل، كنا نفعل العكس، فنحمل الكرسي المدولب إلى أسفل السلالم ومن ثم ننزل ستيفن لنضعه عليه، وهكذا نكرر العملية معكوسة في

نهاية اليوم، وأحيانًا مرات عديدة في اليوم نفسه؛ وفقًا لاختلاف مواقع المحاضرات ومواعيدها. لم تثر كل تلك السلالم فينا انطباعًا بكرم ستالين تجاه الشعب البولندي: بل أكدت لنا بأنه شخص مصاب بجنون العظمة.

فرضت روسيا على بولندا نظامًا شيوعيًّا قمعيًّا، كان من نتائجه أن ترى الفلاحين التعساء يشابهون في نحولهم ما يسوقون من أبقار وثيران على الطرقات الريفية وفي الحقول، كل ذلك أدى إلى ردة فعل متحدية عند الشعب البولندي. تعد بولندا أكثر البلدان الأوروبية تمسكًا بكاثوليكيتها: فالكنيسة البولندية غدت رمزًا للاستقلال الوطني بعد أن أدت دورها النبيل في الدفاع عن حرية بلدها مقدمة العديد من رهبانها شهداء. ومع ذلك، أثار استغرابي وجود بعض التشابهات القوية بين الكنائس البولندية والكنيسة في إسبانيا، على عكس ما ترى في الكنائس الكاثوليكية في إنكلترا التي حافظت على بساطتها منذ إصلاحات البابا جون الثالث عشر؛ فالكنائس البولندية- كما في إسبانيا- تتميز بزخرفها، وإضاءتها المعتمة، وبخورها الذي تملأ رائحته المكان، فضلًا عن أنها مليئة بتماثيل القديسين والعذراوات، مخضبة بذلك الجو الكريه من الخرافة، وغالبًا ما تجد فيها رهطًا من العجائز المتشحين بالسواد، إما متجمعين في أروقتها أو ساجدين أمام مذبحها، تمامًا كما كان الوضع عليه في كنائس إسبانيا أيام حكم فرانكو. كان الاستقلال البولندي كما يتضح من الكنيسة الكاثوليكية محافظًا جدًّا وفي صراع دائم مع نظام عدائي سياسي بأفيونه التقليدي، أما في إسبانيا، فصحيح أن الكنيسة الكاثوليكية فيها كانت بالدرجة نفسها من المحافظة ولكنها كانت خاضعة تمامًا للنظام القمعي.

حُدِّدَت الجلسة الثانية للمؤتمر في كراكو Cracow حيث تتميز بهويتها الأكثر رسوخًا من وارسو، فنصبها التذكارية -قلعة واول وكنيسة القديسة ماري- نجت من الحرب العالمية الأخيرة دون أي أذية، لكن ما لوَّث سمعة كراكو هو اقترانها بالسمعة السيئة لأوتشفيتز Auschwitz. لم تكن زيارة أوتشفيتز مدرجة على جدول المؤتمر، إلا أن بعض المشاركين اليهود نظموا أنفسهم في زيارة خاطفة إليه، وعندما عادوا أخبرونا بانزعاجهم الشديد مما شاهدوا هناك.

لم أشعر بالسلام في هذا البلد الكئيب إلا عند زيارة مسقط رأس شوبان؛ كان بيته من طابق واحد مسقوف بالقش، مبني فوق مرج أخضر فوضوي في زيلازوا وولا في ريف وارسو؛ صحيح أن عائلة شوبان غادرت إلى وارسو عندما كان طفلًا، إلا أنه قضى جميع العطل الصيفية في زيلازوا وولا، المقر الريفي لأقرباء أمه الأرستقراطيين، عائلة شاربيكس، وفيه وضع اللمسات الأخيرة على أحد أشهر معزوفاته (بيانو كونشيرتو إي-ماينور)، وكذلك كان يجتمع مع أصدقاء الدراسة هناك أيام العطل. في أحد تلك الأيام، ذهب وأصدقاؤه في رحلة إلى توروم لزيارة المنزل الذي ولد فيه كوبرنيكس. عبَّر شوبان عن انزعاجه من الحالة السيئة لذلك المنزل؛ حيث احتل الغرفة التي ولد فيها كوبرنيكس ألماني «يحشي نفسه بثمار البطاطا ويطلق الريح بغباء».

شكل البيت القديم في زيلازوا وولا أنموذجًا بسيطًا عن حياة العائلة البولندية المثقفة في القرن التاسع عشر، فمن الأثاث الخفيف إلى الأرضية الملمعة ومن صور العائلة إلى مجموعة من الآلات الموسيقية المختلفة. إن أكثر ما سحرني في ذلك المنزل إضافةً إلى ذلك العبير الموحي بالعزلة، ذاك الصمت المثير للمشاعر والتخيلات؛ لقد أصابني إحساس غريب بأني قادرة على الشعور برقصات المازوركاس والفالس تملأ جو المنزل، كان الأمر كما لو كانت جدران غرفة الجلوس الرئيسة تردد صدى حفلات العائلة الموسيقية، غمرتني نسمات معطرة بألحان المساء المعزوفة على البيانو وكأنها تأتي حقيقة من الحديقة الظليلة، وأضاف المكان بعدًا بصريًّا ملموسًا على تلك الموسيقى المثيرة للمشاعر. بالإضافة إلى ذلك كله، كان البيت يوحي بالسكينة، تلك السكينة الخاصة بعائلة نشأ فيها أكثر عباقرة الرومانسية إثارة، عبقري وصفه صديقه ديلاكرويكس: «بمن حسدت السماء الأرض لوجوده عليها». عاش شوبان، تمامًا كما كوبرنيكس، مهاجرًا معظم حياته؛ فقد غادر بولندا في العام 1830ولم يعد إليها بعد ذلك، وأحبَّ فتاةً بولندية تدعى ماريا وودزي نسكا، ورغم حبها له وقف والداها في وجهه وعارضوا زواجه بها متذرعين بصحته السيئة. أعتقد أنه لو تزوج من ماريا لكان عاد إلى بولندا على الأغلب، لكن شوبان استوطن في فرنسا، مسقط رأس والده، وأسس علاقة عاصفة مع جورجي ساند، روائية متقلبة المزاج ذات سمعة داعرة، ومات بالسل في العام 1849 بعمر التاسعة والثلاثين.

دمغت التجربة المأساوية رحلتنا في بولندا، حيث رددت أصداء ذكريات الأمكنة هناك رجع ذكرياتنا وكشفت عن تشابهها مع حياتنا الخاصة... رافقتنا التجربة المأساوية حتى النهاية، فكان لقاؤنا مع العالم التشيلي كلوديو تيتيلباومو وزوجته باعثًا لذكريات شاعرية دفينة فرضت نفسها عَلَيّ. صحيح أنهما كانا يقطنان في برينكتون، إلا أن مبعوث تشيلي وزوجته كانا على علاقة وطيدة بالرئيس إليندي المنتخب حديثًا في حكومة تشيلي الاشتراكية وذلك من خلال والد كلوديو، أحد سفراء أليندي. كانوا جميعًا ضمن مجموعة من الإصلاحيين اليساريين الملتزمين إلى جانب بابلو نيرودا، الذي كنت أحبه بشدة أيام دراستي في الجامعة. في عام 1964، زار نيرودا كلية كينغ في لندن، وقرأ علينا مجموعة من أشعاره التي ما زلت أحمل في ذاكرتي صخب أحاسيسها- تمامًا كما أستذكر غنى وإثارة موسيقى شوبان التي اختارها نيرودا لترافق قصائده العاطفية، معانقة إياها، مظهرة قوة تصاويرها الطبيعية. أقحم نيرودا الشيوعي نفسه في أمور السياسة التشيلية حتى النخاع، وقد كان كرسي الرئاسة في متناول يده لولا أن تنازل عن طموحه لأجل صديقه العزيز سلفادور أليندي Salvador Allende. في آخر أيام لقاء كوبرنيكس، وفي الردهة الرئيسة للفندق في كراكو، وصلتنا أخبار انقلاب اليمينيين ضد الحكومة الشرعية في تشيلي بدعم من وكالة الاستخبارات الأمريكية.

مات أليندي وهو يدافع عن القصر الرئاسي وأصيبت عائلة تيتيلباوم بالصدمة، ليس من أجل رئيسهم المحبوب وحسب، بل حزنًا على أحلامهم في إجراء إصلاحات تحسن حياة العامة المضطهدين في تشيلي. كانوا بين الآلاف الذين حُكم عليهم بقضاء سنين طوال في المنفى، ومع هذا المصير، كان أمرًا أسهل بمرات من قدر أولئك الذين لم تكتب لهم النجاة من انتقام حكومة بينوشيه Pinochet اليمينية الحاقدة. وبعد أسبوعين من ثورة اليمين، مات بابلو نيرودا، شاعر الإسبانية الذي يضاهي لوركا في عبقريته.

9
تتبع آثار تشيخوف

شعرتُ بانطباعات غريبة ومضطربة حول بولندا، أما في موسكو فإن الوضع كان مختلفًا تمامًا؛ ذلك أنه لم تكن ثقة السكان بهويتهم السياسية أو من هويتنا نحن مهتزة، كنا نعلم- وكذلك كان الجميع يعلم- أن الاتحاد السوفييتي دولة ديكتاتورية مستبدة، وأنه ما من مجال للبحث عن الديموقراطية الليبرالية هناك. كان سكان موسكو مدركين لكوننا قادمين من مجتمع ذي مكانة عالية، ولكنهم لم يتصرفوا بطريقة تُظهر أنهم يعدّون ذلك نقطة سلبية، وفي أثناء الرحلة بين موسكو ووارسو، لفت كيب Kip انتباهنا إلى ضرورة أن نتظاهر بأن غرف الفندق خاصتنا مزودة بجميع التجهيزات اللازمة، وذلك ليس حفاظًا على سلامتنا فحسب بل على سلامة جميع الزملاء الذين سوف نقابلهم. كان ستيفن قد زار موسكو سابقًا حين كان طالبًا برفقة مجموعة من المعمدانيين- ويا لها من رفقة غريبة بالنسبة إلى شخص لديه أفكار ملحدة مثل ستيفن- إلا أن الأغرب من ذلك هو أنه ساعدهم على تهريب الإنجيل إلى روسيا وذلك بعد أن خبَّأه في حذائه.

لم يكن هناك أي تشابه أو تقارب بين تلك الذكريات وبين زيارتنا الحالية، وذلك لأنها اتخذت طابعًا من التعامل رفيع المستوى وكل ما يرافق ذلك من أساليب المعاملة الخاصة. حين وصلنا إلى فندق روسيا، وهو ساحة كبيرة تفصل بين الساحة الحمراء ونهر موسكفا Moskva؛ نظرنا حول غرفة الفندق خاصتنا التي كانت مزودة بثلاجة وإناء لإعداد الشاي، وشعرنا أنه من الممكن أن يكون هناك جهاز تسجيل مخفي من أجل تسجيل أحاديثنا الخاصة، ولكننا بالطبع لم نقم بما قام به ذلك الدبلوماسي الذي كنا نسمع عنه تلك الدعابة : يقال إنه قام برفع السجادة وقص الأسلاك التي وجدها أسفلها، فسمع صوت صراخ من الطابق السلفي؛ وذلك لأن الثريا سقطت على الأرض.

لاحظنا أن المصعد قد اجتاز الطابق الأول، إذ كان محظورًا الدخول إلى هناك، وكان ينبغي تطبيق تلك القاعدة في جهات الفندق الأربع التي يبلغ طول كل منها ما يقارب ربع ميل وتشغلها الإدارة، حيث يمكنك أن تقرأ على اللافتة (أدوات الاستماع). لم يرغب أغلب الروس الذي حضروا إلى المطار لاستقبالنا حاملين معهم باقات الأزهار والزينة بمرافقتنا أبعد من بهو الفندق، وفي ضوء التكتم ذلك، لحظنا أن الدكتور إيفانينكو Ivanenko، وهو عالم ذو سمعة متواضعة، كان يشعر بغبطة كبيرة حين كان يجلس في غرفة كيب لساعات متحدثًا وكأنه يود أن تسمعه بعض الآذان الخفية عما حققه للاتحاد السوفييتي، وكان ذلك الدكتور يرافق دومًا مجموعات علماء الفيزياء الفلكية صغار السن إلى المؤتمرات المقامة في الغرب، وشعرت بأنه كان المشرف عليهم إذ إنهم كانوا يحاولون تجنبه بشكل دائم؛ أما عن تصرفاته هو فقد كانت غريبة وغير متوقعة. كنا ذات مرة وذلك عام 1970 في أحد المؤتمرات في جوات Gwatt في سويسرا فإذ به يختفي عن الأنظار تمامًا في أثناء رحلة بحرية في بحيرة ثون Thun، ولم يجده أحد إلى أن ظهر ثانية بمفرده في موسكو.

جاء ستيفن إلى موسكو بغية تحقيق هدفين؛ فلكونه في الأساس عالمًا نظريًا، فقد بدأ بمحاولات إيجاد جواب عملي للأسئلة المتعلقة بالثقوب السوداء، وقد كان يحاول بذلك الإفادة من عالم فيزياء أميركي يدعى جوزيف ويبر Joseph Weber، فقد كان هذا الأخير يحاول بمفرده بناء آلة تستطيع التقاط الاهتزازات الصغيرة لأمواج الجاذبية التي كان من المتوقع أن تنبعث من النجوم حين تسقط تلك الأخيرة في البقع السوداء. قضينا أيامًا عدة ونحن نبحث في أمكنة رمي النفايات في كامبردج عن غرف مهجورة فارغة يمكن أن تُستخدم لوضع –وفقًا لأسلوب هيث روبنسون –Heath Robinson– أشرطة كاشفة مغمورة في سائل النتروجين؛ وذلك طبعًا بغية متابعة عمل ويبر.

قام فلاديمير براكينغساكي Vladimir Braginsky –عالم فيزيائي تجريبي– بمتابعة هذا الجانب من بحث الثقوب السوداء في جامعة موسكو. وقد قام بإطلاعنا على مخبره علاوة على أنه عرض عليّ عصا من الياقوت الصناعي كان قد استخدمها

في تجاربه، كان ذلك العالم يمتاز بطبيعة اجتماعية تظهر واضحة في رغبته بإلقاء الدعابات السياسية الخطيرة حتى في الاجتماعات العامة، وقد ساعدت تلك الطبيعة على إخفاء الدرجة التي يتمتع بها من بصيرة علمية. لقد استطاع هذا العالم ذات مرة إثارة الرغبة لدى مرافقيه بالبقاء مدة طويلة، وذلك بإطلاقه تلك الدعابات آنفة الذكر، وتقديمه لأنواع عدة من العصائر الجورجية بين الحين والآخر. لم تكن جميع تلك الدعابات مضحكة إلا أن أغلبها كان يتضمن جانبًا سياسيًّا، وأذكر -مثلًا- تلك الدعابة التي تتحدث عن وسائط النقل: اجتمع رجال؛ بريطاني وآخر أمريكي وثالث روسي، وأخذوا يقارنون وسائل المواصلات في بلادهم. قال الأمريكي : نحن نحتاج إلى ثلاث سيارات، واحدة لي، وأخرى لزوجتي وثالثة لأيام العطل، أما البريطاني فقد قال بتواضع : أما نحن فلدينا سيارة صغيرة نستخدمها للتنقل في البلدة، وأخرى كبيرة تتسع للأسرة بكاملها نستخدمها في أيام العطل، وهنا ردَّ الروسي قائلًا: إن المواصلات العامة في روسيا جيدة جدًّا؛ لذا نحن لسنا بحاجة إلى أي سيارات خاصة، وأما في العطل فإننا ننتقل ونسافر باستخدام الدبابات.

أما السبب الآخر الذي دفع ستيفن للقدوم إلى روسيا فهو إجراء محادثات وحوارات مع بعض العلماء خاصة أن أغلبهم من اليهود، ما يعني أن حرية التنقل والسفر لديهم قد أصبحت محدودة جدًّا، وكان ياكوف بوريسوفيش زيل دوفيش YakovBorisovichZel'dovich، -وهو شخصٌ غاضبٌ ومتهور- من الأشخاص البارزين الذين شاركوا في تطوير القنبلة الذرية السوفييتية خلال الأربعينيات والخمسينيات. أما في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات فقد بدأ يهتم -كما فعل نظيره الأمريكي جون ويلر John Wheeler- بالفيزياء الفلكية؛ ذلك لأن الظروف دخل النجوم الآخذة في الانهيار تشابه إلى حد كبير الظروف اللازمة لصنع قنبلة ذرية، وبذلك أصبح هذا العالم مرجعًا أساسيًّا في كل ما يخص بحث الثقوب السوداء، ولكن لم يكن يتوقع أنه سيكون بإمكانه الخروج من خلف الستار والقدوم إلى الغرب للمشاركة في بحث الثقوب السوداء.

و كما هو حال زيل دوفيش، لم يكن في استطاعة إيفجيني ليفشيتز EvgenyLifshitz، وهو أحد علماء الفيزياء اليهود ضمن تلك المجموعة، السفر والانتقال . وفي الواقع كان ذلك حال أغلب الطلاب المبدعين الذي كانوا على علم أن عليهم الانتظار لسنوات قبل أن يحصلوا على رخصة السفر، وكانت تلك الرخصة هي التي سوف تفتح لهم الباب للحصول على رخص أخرى. كان بعضهم مليئًا بالطاقة والحيوية، في حين كان بعضهم الآخر هادئًا وغارقًا في التفكير، ولكن ما كان واضحًا تمامًا هو كونهم يعيشون حالة من القلق والخوف الدائم حتى وإن حاولوا إثبات عكس ذلك بإظهار الجانب الاجتماعي من شخصيتهم؛ كانوا جميعهم يخشون تلك القيود التي تحاول أن تحدَّ من إبداعهم، كما أنهم كانوا يخشون وكالة الأمن الخاصة بالاتحاد السوفييتي. لقد تحدث كيب عن تلك الأوضاع كثيرًا مع أصدقائه الروس، أما أنا وستيفن فقمنا بتشكيل مجموعة من الأنشطة الاجتماعية المفيدة.

ذات مساء، تسببت تلك الحيل الذكية بنتائج عكسية؛ فخلال مكوثنا هناك، كان أصدقاؤنا يقدمون لنا بطاقات لحضور البولشوي : لحضور أوبرا بوريس جودنوف Boris Godunvo والأمير إيجور Prince Igor، وكذلك لحضور باليه الأميرة النائمة the Sleeping Beauty وكسارة البندق Nutcracker. وقد أظهر ستيفن حماسًا كبيرًا لحضور الأوبرا ولكنه بدا مترددًا بشأن الباليه. وفي الحقيقة، فإنه لم يحضر الباليه سابقًا سوى مرة وحيدة في كامبردج، وقد كان عرض باليه Giselle في مسرح الفنون؛ حيث ادعى أنه يعاني صداعًا شديدًا بعد نهاية الجزء الأول، فاضطررت أن أعود به إلى المنزل خلال الاستراحة، لأجد أن حاله قد تحسن فور وصوله للمنزل. وفي موسكو، كنا غالبًا ما نصل إلى مقاعدنا لحضور الأوبرا في وقت مبكر، ولكن ليس في عرض كسارة البندق؛ إذ إننا حين وصلنا وجدنا أن الأبواب قد أغلقت للتو؛ لذا تم اصطحابنا عبر ممر جانبي وتم إغلاق الباب خلفنا بخفة. كان كيب يخطط للهرب مختبئًا بغطاء الباليه إلى شوارع لندن بصحبة أحد الزملاء -فلادمير بيلنسكي- وذلك من أجل مناقشة بعض الأمور السياسية السرية وبعض الأمور العملية، فوجد نفسه محاصرًا. لقد رافقنا إلى المسرح ليساعدنا على إيجاد مقاعد مناسبة، ولكن حين أُغلقت الأبواب لم يجد خيارًا آخر سوى أن يجلس ويشاهد الجزء الأول من كسارة البندق ويغادر في

مدة الاستراحة، وبالطبع بقي بيلنسكي في الخارج ينتظره، وكان ذلك من حسن حظ ستيفن؛ إذ وجد من يشاركه محنته.

على الرغم من كوننا مدركين أن بعض العمليات الجاسوسية كانت مسيطرة على الوضع، إلا أننا بدأنا نعي أن زملاء ستيفن كانوا يتمتعون بدرجة محدودة من الحرية، حرية الفكر التي حُرمها باقي الناس، لم يكن النظام الشيوعي قادرًا بسبب جهله على إدراك أهمية البحث العلمي؛ لذلك قرر أولئك ترك العلماء بسلام شرط أن يتصرفوا بحذر وألا يمسوا الحزب بسوء، ويعني ذلك أنهم يجب ألا يتصرفوا بالطريقة التي تصرَّف وفقها أندري سخاروف Andrei Shakharov؛ إذ إنه تحدث بأمور معادية للنظام مستندًا إلى أسس سياسية واضحة، وفي الحقيقة تحدث كيب في كتابه الثقوب السوداء وانحناء الزمن Black Holes and Time Wraps عن ذلك الشعور غير الضروري بالخوف الذي كان يعتريه حيال العالمين الروسيين ليفشيتز وخلاتينكوف Lifshitz and Khalatnikov، وذلك حين وجد أن باستطاعتهم الاعتراف بخطأ ادعائهم بأنه لا يمكن للنجمة أن تتحد حين تنهار مشكّلة ثقبًا أسود:

إن الاعتراف بخطأ نتيجة قد تم نشرها وتعميمها يُعدُّ أمرًا محرجًا جدًّا بالنسبة إلى عالم فيزيائي نظري. إنه ليس أمرًا محرجًا فحسب بل هو أيضًا مدمر؛ قد يكون الأمر مدمرًا لعالم الفيزياء الأوروبي أو الأمريكي، ولكن الحال -وبكل تأكيد- أكثر سوءًا في الاتحاد السوفييتي. إن رأي العلماء كان مهمًّا ومؤثرًا في الطبقة التي ينتمي إليها العالم، وذلك أن رأيه هو ما كان يقرر مصيره في أمور عدة: رأيه هو ما يسمح له أو يمنعه من السفر إلى الخارج والوصول إلى انتخابات أكاديمية العلوم، وكان ذلك بدوره يكسبه ميزات عدة من مضاعفة راتبه إلى الحصول على سيارة ليموزين وسائق.

كان قد مضى على فرض حدود على تنقلاته وسفره أعوام عدة، حين حاول ليفتشز في زيارة سابقة لموسكو وذلك عام 1969 إقناع كيب على تهريب ورقة يتراجع فيها عن رأيه ويعترف فيها بخطئه، وتم نشر هذه الورقة في الغرب ولم تلحظ -ولله الحمد كما يقول كيب- سلطات الاتحاد الروسي ذلك.

انسجم ستيفن مع زملائه الروس بسرعة؛ وذلك لأنهم كانوا يتشاركون المنهج الحدسي في الفيزياء، ويعني ذلك أنهم كانوا جميعًا يهتمون بأساس الأمور مغفلِين تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يجدون لها أي أهمية. وستيفن -مثلًا- الذي كان يحفظ نظرياته كلها في رأسه، كان يجد أن تلك التفاصيل ما هي إلا معيقات لصفاء الذهن. ما كانوا يفعلونه إذًا هو التخلص من الأخشاب الميتة كلها للحصول على رؤية أوضح للأشجار، وبالطبع كان ذلك الأسلوب أساسًا يعتمدون عليه في أي نقاش؛ انطلاقًا من الفيزياء وانتهاء بالأدب. كنت أشعر أنهم قد خرجوا للتو من صفحات الماضي، أنهم قد خرجوا للتو من أوراق كل من تورجيني، تولستوي وتشيخوف. كانوا يجتمعون ويتحدثون عن الأدب والفن، عن عمالقة الفن الروسي، وكذلك عن شكسبير وموليير وثيرفانتس ولوركا، كما كان يفعل معارفي من الطلاب الإسبان، أما الفرنسيون فكانوا يقومون بإلقاء الشعر بل ونظمه تخليدًا لأي مناسبة كانت؛ وكم نظموا من قصائد على شرف ستيفن! بالنسبة إليهم، لم يكن وجود نظام حاكم مستبد بالأمر الخطير فقد اعتادوا ذلك حيث توالت على هذه البلاد أنظمة مستبدة دونما توقف ولم تشهد سوى مدد خاطفة من الديموقراطية؛ لذا كان لا بد لأبنائها من إيجاد الملاذ في الفن والشعر والأدب والموسيقى. أصبحت الثقافة في ذلك المجتمع الذي سيطرت عليه المادية السوفييتية، المصدر الروحي الوحيد، ومن خلالهم كنت أشعر بأني أستطيع أن ألمس روح البلاد، روح الأم روسيا المتألمة، التي كانت دومًا تجر أطفالها المنفيين للعودة إلى ربوعها وأنهارها. وحينها تبدأ شخصيتهم تظهر متحدية حياتهم الكئيبة تمامًا مثل قبب الكنائس الذهبية؛ تلك القبب التي حافظ عليها الشعب رغم أنه لم يعد يستخدمها، والتي تظهر خلف تجمعات مدينة موسكو الحديثة لتضيء وتتحدى بروعتها وجمالها مظاهر الكآبة الرمادية السائدة.

كان زملاؤنا أولئك يشعرون بالسعادة ذاتها حين يتبادلون أطراف الحديث حول العلم والعلوم وحين يصطحبوننا في نزهة ثقافية استكشافية وغالبًا ما كان الحدثين متلازمين إذ كان الحديث العلمي الموضوع الأساسي المرافق لرحلاتنا؛ كنا نتجول بجوار الكاتدرائيات القديمة ذات القبب المذهبة والتي جرَّدها النظام الشيوعي من

وظيفتها الدينية، ولكنه لم يتمكن من تجريدها من تلك الهالة القدسية التي تضفيه على المنطقة.

شعرنا بالبهجة ونحن نشاهد الأيقونات على جدران المذبح، وقمنا كذلك بتفحص الجدران المصنوعة من الأحجار الكريمة، وتجولنا بعد ذلك في المعارض الفنية- تراتيكوف وبوشكين- وقمنا برحلة الحج المقدسة إلى منزل تولستوي الخشبي؛ حيث كان يتجول رجل يرتدي زي دب يقوم باستقبال بطاقات الزوار، ولم ننسَ بالطبع زيارة الغرفة الخلفية التي كان تولستوي يستخدمها لممارسة شغفه الآخر : صنع الأحذية، ومن حديقة منزل تولستوي قمت بالتقاط بعض الأوراق الصفراء المتساقطة.

طلبتُ من زملائنا اصطحابي إلى كنيسة لا تزال تؤدي وظيفتها الدينية، فما كان منهم إلا أن قاموا باصطحابي إلى كنيسة القديس نيكولاس في موسكو، والتي كانت مزينة بالألوان البيضاء والحمراء والزرقاء الزاهية، وإلى كنيسة مونوفيديشتي الواقعة على أطراف موسكو، وعلى الرغم من أني استطعت سماع صوت التراتيل الدينية وصوت تقبيل الأيقونات، لم أشعر بأن هاتين الكنسيتين تضفي ذلك الشعور من القداسة التي تضفيه الكنيستان الآخريان المجاورتان للفندق واللتان تم تجريديهما من وظيفتهما الدينية، وقد كانتا صغيرتي الحجم إذا ما تمت مقارنتهما مع الفندق الضخم. يبدو أن منع النظام الشيوعي للتنظيمات الدينية قد ساعد على نمو ما يدعى بالروحية الداخلية التي لم يكن سوى لأولئك الذين يشعرون بها أن يلمسوا وجودها.

في عصر السفر عبر الزمن، تمكنّا من العودة إلى الماضي وزيارة أسياد الشعر؛ لم يكن هناك الكثير من السيارات على الطريق المؤدي إليهم، فضلًا عن أن متاعهم المادي كان قليلًا جدًّا بالإضافة إلى أن ملابسهم شديدة البساطة، وقد توافرت لهم الرعاية الصحية المجانية إلا أنني أعتقد -وفقًا لما رأيناه- أن المشافي والأطباء الروس لم يكونوا أهلًا للثقة على الإطلاق. خلال الأسبوع التالي، شعر ستيفن أنه بحاجة إلى جرعة من الفيتامين المقوي التي كانت الأخت تشالمرز تزورنا في كامبردج كل ليلة لتعطيه حقنة الفيتامين تلك. بعد مواجهة عدد من الصعوبات، تمكنا من إقناع أحد الأطباء بالمجيء إلى الفندق، وحين رأيت تلك الطبيبة اعتقدتُ بأنها الآنسة ميكلاجون

Meiklejohn المرعبة التي كانت تشرف علينا في حصة الرياضة في مدرسة القديس ألبان الثانوية؛ قدمت إلى غرفتنا وأخرجت أدواتها التي كانت تتمثل في حقيبة سوداء، وعاء صغير ومحقنة وبعض الإبر التي يمكن إعادة استخدامها. شعر كلانا بالريبة، وتصرف ستيفن برزانة كعادته؛ إذ جلس بهدوء ريثما قامت الطبيبة بغرز الإبرة في جلده، وتصرفت أنا بجبن كالعادة فأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى.

أعادت صفوف الناس الذين يرتدون المعاطف المطرية وينتظرون دورهم في شراء الطعام إلى ذاكرتي صورة لندن في مدة ما بعد الحرب، وبدا أن هدف النظام المتبع في البيع والشراء سواء في المتاجر الأساسية في الساحة الحمراء أو المحلات المجاورة هو الحدُّ من رغبة الناس في شراء أيًّا كان من الأشياء. كان على الزبائن بداية الانتظار في الصف ليتمكنوا من معرفة ما إذا كان مطلبهم متوافرًا على رفوف المحل، ثم كان عليهم الانتقال إلى صف آخر، فيدفعون هناك النقود اللازمة لشراء الغرض، ومن ثم يذهبون إلى صف آخر يستلمون فيه إيصالًا بالمبلغ المدفوع، ليعودوا بعد ذلك إلى الصف الأول، حيث يحصلون هناك على مطلبهم؛ ولأننا كنا سياحًا، كان من الممكن بالنسبة إلينا أن نقوم بالتسوق في المتاجر المخصصة للسياح، والتي كانت تطمع بالحصول على أكبر كمية ممكنة من نقودنا. وهناك كنا نجد كل شيء من ألعاب خشبية وشالات ملونة وأوانٍ مزخرفة. كنت أعتقد أن كل تلك البضائع قد تمت صناعتها في الاتحاد السوفييتي إلى أن صادفت زوجًا من القفازات المصنوع من الجلد الأسود، والذي كان يحمل عبارة (صنع من قبل شركة بلاكبرن Blackburn في لانكس Lancs.

في المتاجر الأخرى المخصصة للسياح، كان يمكن لنا شراء أطعمة طازجة ومستوردة كالعنب والبرتقال والطماطم، حيث كانت مثل هذه البضائع تُعدّ بالنسبة إلى المواطن الروسي متوسط الدخل ضربًا من الرفاهية. في حال كان يمكن حسبان الطعام الذي يُقدَّم لنا في الفندق -والذي كنا نعُدُّه فندقًا من الدرجة الأولى- مقياسًا لما يحصل عليه المواطن الروسي متوسط الدخل، حيث يشمل نسبًا قليلة وغير كافية من اللبن والمثلجات والبيض المسلوق، كان الفندق يقدم كميات صغيرة من تلك المواد

بعد وضعها في كفتة مصنوعة من الطحين، أو كان يقدم أطعمة عديمة المذاق، ولم تساعدني معرفتي القليلة باللغة الروسية على اختيار أطعمة جيدة من القائمة التي كانت تقدم لنا في الفندق، إذ إنه بعد أن كنا نقلب صفحات القائمة العديدة ونختار أحد الأطباق كنا نحصل على الجواب نفسه دومًا: الطبق غير متوافر.

لم نيأس من الحصول على وجبة للأكل في الأيام القليلة الأولى، وقد اكتشفنا مطعمًا في الطابق العلوي من الفندق يطل على النجوم الحمراء لأبراج الكرملين؛ وجدنا أنفسنا نجلس بالقرب من رجل فرنسي مذهولين وقد وصلت وجبته، وشرع يتناول طعامه بثقة في واحد من أفضل المطاعم في مدينته الأصلية، وشرع بتناول وجبته المؤلفة من طبق من الكافيار والسمك المدخن واللحوم الباردة مع كوب صغير من العصير، ثم أتوا بقطعة من الدجاج إليه ومن ثم شرائح الخبز المحمص مع البطاطا والسمك، وحدقنا به مستغربين هذا التنوع الذي لم نعتده في أطعمة الاتحاد السوفييتي، وقد أكل بشراهة حتى إنه اتكأ إلى الوراء على كرسيه متنفسًا الصعداء؛ كل ما كان عليّ القيام به هو التوجه إليه وسؤاله بالفرنسية: أين يقع سمك الحفش والكافيار على قائمة الطعام؟ فأشار إلى أرقام البنود التي تحتوي هذه الأطعمة، ولكن لسوء الحظ كان المطعم في الطابق العلوي مغلقًا في اليوم التالي.

لم نستغرب أن مضيفينا الروس لم يتمتعوا بحرية دعوتنا إلى منازلهم باستثناء حالة واحد، وهي الأستاذ إسحاق خالاتنيكوف الذي كان مبتهجًا، وقد التقى بستيفن لأول مرة في مؤتمر النظرية النسبية العامة في لندن قبل زواجنا عام 1965، وقد سمعنا في تلك الجلسة عن الصعوبات التي تواجه الحياة الأسرية في موسكو.

كانت شقة خالاتنيكوف كبيرة على نحو استثنائي، وتتألف من غرف فسيحة مجهزة بشكل جيد مع هاي فاي وتلفاز، وعلاوة على ذلك كان الطعام يمثل مأدبة حقيقية وكأننا في حفلة عشاء غربية، الكافيار واللحوم والخضار والسلطة والفاكهة كلها كانت حاضرة.

دار حديث مطول حول المقارنة بين الامتيازات في الاتحاد السوفييتي مقابل الامتيازات وطريقة منحها في الدول الغربية، وتطرقوا كذلك إلى جدلية المساواة وتعارضها مع القيم الأرستقراطية التي يقوم عليها المجتمع الرأسمالي وكذلك الثورة، وصولاً إلى المقارنات الأدبية بين نتاج الحضارتين الشرقية والغربية من أوروبا.

في وقت عيد الميلاد هذه السنة قامت أمي باصطحاب الأطفال لمشاهدة النسخة اللندنية من عرض كسارة البندق في قاعة المهرجان، فعادت لوسي مذهولة بالمشاهد الرائعة. وأصرت على أن نقوم بدعوة كلارا بطلة الباليه، وأمضت وقتًا طويلًا تتابع رقصاتها، وملأت غرفتها بصور الباليه، استهوتها أيضًا لعبة السكواش، فكانت جدتها تصطحبها لممارسة هوايتها تلك، أما روبرت فكان يحب مراقبة الصنادل تبحر في نهر التايمز.

10
رياح باردة

نلنا نصيبنا الكافي من الضغوط في ذلك الشتاء في كامبردج، ولم تكن ضغوطًا ذات طبيعة سياسية، لقد فتح المؤتمر في بولندا والزيارة إلى موسكو مع اكتشافات السنة الماضية في لوس هوتشيز الباب لآفاق جديدة، ووضعنا أمام مسائل يتعيَّن حلها تتعلق ببحث الثقب الأسود، كان الهدف السري لجميع الفيزيائيين هو اكتشاف ذلك العنصر السحري، نظرية الحقل الموحد التي لم تتشكل بعد، والتي ستوحد بين جميع فروع الفيزياء وتوفق بين البنية المهولة للكون -والتي كانت موضوع كتاب كل من ستيفن إيليس وجورج إيليس- وبين البنى الصغيرة للفيزياء الكمية أو فيزياء الجسيمات الأولية ونظرية الكهرومغناطيسية. تعد الثقوب السوداء الأفق المثير والمحير الذي قد يشكل فاتحة المساعي حول البحوث من هذا النوع، كما في حالة التشابه الغامض بين نظرية النسبية العامة والديناميكا الحرارية المتضمنة داخل قوانينها.

لم تكن نية ستيفن في متابعة النقاشات التي أجراها في موسكو عن طريق الاستشارات التي يجريها في كل مؤتمر حول العالم هي الدافع الوحيد وراء سعيه ذاك، لقد أمضى كل ساعة من ساعات نهاره مستغرقًا في مداولات من ذلك النوع. أصبح السؤال حول سفرنا خارج البلاد أمرًا معتادًا بشكل مزعج. أطلقتُ مرارًا سيلًا من الأعذار، لكن لا فائدة من إقناعه بما سيخلفه ترك الأولاد لوحدهم بعض الوقت حين يكون مستقبل الفيزياء على المحك.

في الوقت نفسه، كنت مضطربة من ميل ستيفن لقضاء كثير من ساعات المساء أو أيام العطل جالسًا كأنه التمثال الذي نحته رودين وأسماه المفكر، مطرقًا برأسه، مسندًا إياه على يده اليمنى، وكأنه قد انتقل إلى بعد آخر لا يشعر فيه بوجودي ولا بوجود الأولاد يلعبون من حوله، وعلى الرغم من قساوة التحدي الذي تشكله فيزياء الثقوب السوداء، إلا أنني لم أكن قادرة على استيعاب ذلك الحد من الاستغراق في

الذات. كنت أظن في البداية بأنه كان منهمكًا في حل مسألة رياضية؛ لذا كنت أسأله ببهجة عما يدور في باله، لكنه لم يكن يجيب في معظم الأحيان، عندها أصبح قلقة على الفور. ربما لم يكن مرتاحًا في كرسيه المتحرك أو لا يشعر بأنه بخير، فأسأل نفسي هل قمت بإزعاجه حين رفضت الذهاب إلى ذلك المؤتمر؟ فتصبح تصوراتي أكثر حدة حين لا يجيب أو عندما يجيبني بهزة بسيطة من رأسه، وتأخذني الشكوك لأظن بأن جميع تلك العوامل ترافقها حالة الإحباط من حالته الصحية المتدهورة تضغط عليه بشكل لا يطاق. لقد كانت الهيئة التي اتخذها تتطابق إلى حد كبير مع الهيئة التي تظهر على بعض الفنانين عندما تظهر عليهم علامات الإحباط.

أصبح حديثه غير مفهوم، ما استدعى جلسات مملة أخرى مع خبير معالجة عيوب النطق في محاولة لإخفاء تلك التشوهات في الكلام، ولم يكن بعض الناس ممن كنا نعُدُّهم من مصابي الصم أو البلاهة قادرين على فهمه على الإطلاق. استدعى الأمر مساعدتي لقضاء جميع الحاجات الشخصية، وفي إلباسه وغسله، وفي بقية أموره الأكثر أهمية. لقد كان يتعيَّن علي حمله من وإلى كرسيه المتحرك، أو نحو سيارته، أو الحمام والسرير. كان لابد من تقطيع الطعام إلى قطع صغيرة حتى يستطيع استخدام الملعقة في أثناء تناولها، وأصبحت وجبات الطعام مطولة للغاية، كما أصبحت السلالم في منزلنا عائقًا كبيرًا بالنسبة إليه. كان قادرًا على رفع نفسه نحو الأعلى -وهو تمرين رياضي نصحه الأطباء به- لكنه ما زال يحتاج إلى أحد ما يقف خلفه للاطمئنان. لقد كان واضحًا بأنه يحتاج إلى وجودي بجانبه حين يكون خارج المنزل، وفي الأوقات جميعها، شعرت بقيود خانقة من الكآبة واليأس كوّنها ذنب كظمته في نفسي حين ترددت في الاستفادة من كل هذه الفرص والسفر حول العالم، وبإحباط من قلة التواصل معه. شعرت وكأنني مسافر وقع في ثقب أسود، لتبدأ قوى عشوائية بشده وسحبه وجره كقطعة من المعكرونة.

بعد أيام عدة، خرج ستيفن من عزلته وعلى وجهه ابتسامة المنتصر، وأعلن بأنه توصل من جديد إلى حل مسألة كبرى في الفيزياء، تحولت تلك الحوادث إلى مزحة بعد الحدث مباشرة، لم أكن قادرة على تمييز العوارض؛ لأن كل حالة جديدة كانت

تختلف بشكل ضئيل عما سبقها؛ انتابني القلق في ذلك الوقت حين ظننت بأن ستيفن لم يكن يشعر بأنه بصحة جيدة، وكنت أهنئه في كل مرة على نجاحاته، لكني كنت أعلم في سري بأنني والأطفال قد خضنا للتو معركة تلك الإلهة التي لا تقهر، والتي قابلناها للمرة الأولى في أمريكا في العام 1965، إنها الفيزياء التي حرمت الأطفال من والدهم والزوجات من أزواجهن؛ أذكر جيدًا بأن السيدة آينشتاين قد صنفت الفيزياء كطرف ثالث أثناء المضي بمعاملات طلاقها.

كانت مدد التركيز الحاد التي تصيب ستيفن مفيدة في إعادة توجيه تلك الطاقة الداخلية الصامتة لتمكنه من التفكير في أحد عشر بعدًا مختلفًا، ولم أكن أدري إن كان مجبرًا على تجاهل رغبتي بالحديث معه والانغلاق بعيدًا عما يحيط به، أو أنه لم يكن يهتم بتلك الرغبة على الإطلاق، كانت تلك المدد عذابًا لايطاق، خاصة حين تصاحبها جلسات طويلة من أوبرا فاغنر، وبالتحديد تلك التي تدعى دورة الجرس، يطلقها المذياع أو آلة التسجيل بأعلى صوت، بدأت أكره فاغنر حين شعرت بصوتي يختنق وبمزاجي العفوي محتجزًا في داخلي. كانت الموسيقى قوية للغاية، قوية لدرجة تجبرني على الاستماع إلى تلك النشوة الفاخرة التي تحملها تلك الأوتار الساحرة والانتقالات اللحنية المثيرة، لكن جولاتي اليومية لم تكن لتمنحني لحظة واحدة من الراحة، فأتنقل دون توقف بين التسوق والطبخ وأعمال المنزل ورعاية الأولاد وستيفن نفسه. كنت مأخوذة تمامًا بالقدرة الملائكية والنغمات الآسرة لتلك الموسيقى وأنا في المطبخ أو الحمام، أو حتى غرفة لعب الأولاد في الطابق العلوي، محاولة تجاهل قدرتها المغرية الغامضة؛ لأني أعرف قدرتها على التلاعب بحالتي العقلية المرتبكة بكل سهولة. كان صفاء موسيقى البحر المتوسط معياري الموسيقي الأسمى، لا الموسيقى التشاؤمية السوداء لأساطير الشمال، التي يموت فيها جميع الأبطال وهم في ريعان الشباب وتسود الفوضى وينتصر الشر؛ كان ستيفن مسحورًا بتلك القوى كما سحرته الفيزياء -القوتان اللتان أصبحتا معتقده الذي يؤمن به- لكن تعيَّن عليّ أن أصحو من كل هذا. سيسقط كل ما بنيته من حولي، ويتحول إلى غبار إن سمحت لنفسي بالانقياد لسطوة تلك الموسيقى. بدأ فاغنر يتحول في عقلي إلى نابغة شرير، فيلسوف

العِرق الأسمى والشيطان وراء معتقلات أوشفيتز Auschwitz؛ لقد كنت صغيرة جدًّا على التأقلم مع هذا الضغط العاطفي.

لحسن الحظ، لم تكن حصتنا من الترفيه مقتصرة على فاغنر، لكنها كانت انتقائية للغاية، فشملت إلى جانبه كلًّا من فيردي وموزارت في دور الأوبرا، مرورًا بمقطوعات إدوارد إلغار Elgar الموسيقية الدينية التي أداها في كنيسة جامعة الملك King's College والقداديس الصباحية لـ مونتيفيردي في شارع ألبانس Monteverdi Vespers in St Albans، وعرض الأميرة آيدا PrincessIda في مسرح الفنون. لقد كان ستيفن متنوعًا في ذوقه الموسيقي معجبًا بجيلبيرت وسوليفان Gilbert and Sullivan كما فاغنر أيضًا، وكان يجد متعته المفضلة في عروض أضواء المسرح Footlights وهو نادي المسرح والموسيقى في الجامعة، والعروض التي تقدم في الصيف، والمسرحيات الإيمائية في الشتاء، حيث كان يهجر سلوكه اللاذع والانتقادي المعتاد. لقد وجدت عروض أضواء المسرح مملة؛ لأن معايير الفكاهة لم ترتق أبدًا للتوقعات المثالية التي أثارتها المسرحية البريطانية الفكاهية (ما وراء الحافة)، أما بالنسبة إلى العروض الإيمائية، فقد كانت نكتها السمجة تصبح أقل ظرافة مع التكرار الدائم لذات العروض.

في تلك الليالي التي كان ستيفن منغمسًا خلالها في أفكاره، والتي -ولحسن الحظ- يصمت فيها فاغنر، وبعد أن يهدأ صخب النهار ويخلد الأولاد إلى النوم، كنت أشغل نفسي ببيانو صغير كنت قد اشتريته لروبرت كي يبدأ بتعلم العزف عليه. في تلك البيئة التي يظهر فيها الجميع مكتملًا، كنت خجلة من الاعتراف بأنني أنا من يود أخذ تلك الدروس؛ أخذت بعضًا منها عن طريق مدرس متقاعد تعاطف مع شغفي بالتعلم، ولم يودَّ جرح مشاعري بإخباري أني كبيرة جدًّا على تعلم العزف؛ لقد واجه التحدي وبدأ بتدريبي على الأساسيات النظرية والتناغم، وسمح لي باختيار المقطوعات التي أريد، روبرت أيضًا أخذ بعض الدروس، مع مدرس شاب رسم له صورًا لمجموعة من الجنيات ترقص على مفتاح العلامات ومجموعة من العمالقة تدوس الأرض بجانب إشارات أصوات الجهير.

كان روبرت منذ أن بدأ بالذهاب إلى المدرسة دائم السعادة والحيوية، وكان يتحول إلى شخص أكثر هدوءًا وتحفظًا. لقد كان في الرابعة من عمره ووفقًا لنظام التعليم المحلي، كان مجبرًا على أن يبدأ المدرسة، وكنت مقتنعةً بأن الوقت ما زال مبكرًا جدًّا. قرأت بعد مدة أن الفرق السيكولوجي بين طفل بعمر الرابعة وطفل بعمر الخامسة هو الفرق نفسه بين طفل بعمر السابعة وطفل بعمر أحد عشر عامًا، فضلًا عن أن بدء المدرسة في عمر مبكر أمر مؤذٍ لتطور الطفل، إضافة إلى أن روبرت كان صبيًّا خجولًا، وعندما سُئل ما الذي يفعله في وقت الغداء أشعرني رده العفوي بالحزن؛ فقد هز كتفيه، وقال أجلس على الدرج. كانت مدرسته الابتدائية ذات سمعة رائعة بتخريج أطفال سريعي التعلم، وكانت بشكل رئيس مدرسة أدبية يستطيع فيها الأطفال الذين يقرؤون بسرعة أن يحققوا تطورًا سريعًا. بعد سنوات عدة تفتحت مواهب لوسي الذاخرة بالإبداع والموهبة الأدبية وازدهرت هناك، لكن روبرت كانت لديه صعوبة بالغة بالقراءة، وكنت قلقة بأن هذا ربما يكون له تأثير معيق، ولكن تعليقات والدة زوجي كانت مطمئنةً؛ فقد كان واضحًا بأن روبرت كان ابن أبيه، حيث إن ستيفن لم يتعلم القراءة حتى عمر السابعة أو الثامنة. لقد أدركت حينها لماذا ترك الشتاء الذي قضته عائلة هوكينغ في جزيرة مايوركا أثرًا غير سعيد في ستيفن؛ لقد كان بعمر التاسعة، وقد تعلم القراءة لتوِّه، ولا بد أن الجلسة اليومية الخاصة بتحليل سفر التكوين تحت مراقبة العين الثاقبة لروبرت غريف كانت كئيبة. لم يهتم ستيفن بما كان يقرؤه روبرت طالما أنه يتعلم القراءة، وكان روبرت يمطرنا بكتب بينغو المصورة وبكل كتب الطرائف المتاحة له، ليكون وقت كل وجبة مصحوبًا بنكت غير منتهية.

لم يكن عسر القراءة حالة معروفة في النظام التعليمي في بداية السبعينيات، في هذه الأيام يقال بأن ليوناردو دا فينشي وآينشتاين غالبًا ما كانوا يعانونه. عانينا بأن ستيفن كان لديه عسر في القراءة وكنا متأكدين -تقريبًا- من الأمر مع روبرت، ولكن عدا صفوف القراءة العلاجية لم يكن هناك أي طريقة مساعدة مخصصة لعسر القراءة في نظام الولاية. لقد كانوا في أفضل الأحوال يصنفون كسالى، وفي الحالات السيئة يصنفون على أنهم متخلفون وكسالى في عمر الخامسة. أنا كنت أعرف بأن روبرت ليس متخلفًا، بل كان طفلًا في الرابعة، وبينما كنا نعتني بحديقتنا ذات يوم

أخذ يطرح عليّ أسئلة صعبة وأكبر من عمره وهو ابن الخامسة، وكان يجلس على البيانو ليشرح لي مفهوم الأرقام الناقصة؛ لقد قال هذه النوتات هي أرقام موجبة، وهذه الأخرى هي أرقام سالبة.

لقد كنت متأكدة أن تشديد المدرسة على الأدب عوضًا عن المهارات الرقمية كان غير صحيح لروبروت، وعندما كان في السادسة أتت مدرسة جديدة للمدرسة، وأعلنت أنها تريد أن تنشئ مجموعة متقدمة للرياضيات، وقد ناشدتها أن تسمح له بالانضمام للمجموعة، وكان واضحًا أنها منعت نفسها بصعوبة من الضحك وقالت محتجةً: ولكنه لا يستطيع القراءة، كيف سيستطيع حل الرياضيات؟ إلا أني واظبت على طلبي: أرجوكِ دعيه يحاول. فوافقت على مضض على أن تدعه ينضم للصف لثلاثة أسابيع، وخلال هذه الأسابيع لم يبدُ أن روبرت يواجه أي مشكلة مع الرياضيات المتقدمة وبدا أقل توترًا. في نهاية هذه الأسابيع أحضر روبرت رسالة من المعلمة الجديدة إلى المنزل تقول أنها تريد أن تتحدث معي بعد المدرسة. خرجت لتقابلني خارج بوابة المدرسة، وقالت سيدة هو كينغ أنا مدينة لك باعتذار.

لم أعتقد حقًّا أن روبرت سيكون قادرًا على التعامل مع الرياضيات المتقدمة عندما طلبت مني أن أسمح له بالانضمام للصف، ولكني يجب أن أعتذر لك لأني كنت مخطئة جدًّا، إنه جيد في الرياضيات بطريقة غير عادية، وهو متقدم جدًّا على الآخرين، ولكنّ صف الرياضيات انتهى بعد فصلين لأن المعلمة غادرت لولادة طفلها، وبعدها عاد روبرت إلى نقطة البداية. لقد افترضنا أنا وستيفن دون مبالاة أنه وتوافقًا مع مبادئنا الاجتماعية فأطفالنا سوف يتعلمون في مدارس حكومية، ولم نكن جاهزين لفكرة أنّ الوفاء بحاجات أطفالنا لم يكن متطابقًا مع مبادئنا السياسية. لم يقم نظام الولاية بخدمة روبرت بشكل جيد حتى الآن؛ كان بحاجة إلى المديح على أمر يستطيع القيام به بشكل جيد، خصوصًا الرياضيات، واحتاج للتشجيع لا التوبيخ على الأمور التي لم يكن يستطيع القيام بها وخصوصًا القراءة والكتابة. فقط في القطاع الخاص كنا نستطيع أن نتأكد أن الصف سوف يكون قليل العدد بما يكفي لكي يتلقى روبرت الاهتمام اللائق. لم يكن العائد المادي لمنحة التميز بالعلوم كافيًا كي نستطيع تحمل

نفقة التعليم الخاص ولا مؤسسة البحث التي عين فيها ستيفن بعد ذلك، في معهد العلوم عام 1972.

في عام 1970 وبعد وقت قصير من ولادة لوسي، توفيت ماريل عمة ستيفن الوحيدة، وعوضًا عن الاستمتاع بحريتها الجديدة بعد وفاة أمها وبكل بساطة بذَّرت المال الذي ربما كان يجب أن تنفقه على نفسها بالذهاب في رحلة حول العالم. لم يكن الميراث وحده كافيًا ليمول سنين التعليم الطويلة، ولكن عندما جمع مع حصة مساوية من والد ستيفن تراكم ليصبح كافيًا لشراء منزل صغير من الممكن تأجيره بشكل مربح جدًّا، حيث ذهب نصف الإيجار إلى والدي ستيفن بينما ساهم النصف الآخر بشكل رئيس بدفع أقساط روبرت المدرسية. كانت كامبردج مكانًا جيدًا لمغامرة مثل هذه؛ لأن العقارات كانت ما تزال رخيصة نسبيًّا والنسب المتزايدة من الباحثين الزوار كانت تعني أن هناك حاجة دائمة إلى الشقق المستأجرة. وبخبرتي التي اكتسبتها من تجديد منزلنا توليت مهمة المشروع. شراء منزل جديد وتجديده ومن ثم تأجيره كان عبئًا إضافيًّا في وقت كان ممتلئًا تمامًا. النظرة التي أعطاني إياها إلى القذارة في حياة الناس الآخرين كانت مثبطة للهمم، ولكن بما إنني كنت واعية إلى حاجتنا لتوفير المال إلى الأقساط المدرسية دائمة التراكم، لم يكن لدي خيار سوى أن التقط فرشاة الدهان؛ من أجل أسبوع مُركَّز من التزيين الفردي مرة أو مرتين في السنة، وفي بعض الأحيان هذا الأمر كان يجب أن يتم أكثر من ذلك لإرضاء زوار الصيف.

أن هذه الأنشطة والانشغالات المرهقة تركت لي أقل وأقل من الوقت والطاقة من أجل أطروحتي؛ لقد نجحت في تجميع المواد من أجل الفصل الأول، وأتيت ببعض الأفكار الرئيسة الخاصة بي، وقد تعقبت بعض الذكريات اللفظية بين الخرجة (مصطلح أدبي يشير إلى نهاية المقطع الأخير من الموشح) وأغاني سليمان، ولقد اكتشفت تشبهًا صاعقًا بينها وبين تراتيل موزارت تراتيل الجماهير المسيحية الأصلية تحت السيطرة البربرية. مع بعض الحظ وإن كانت الأشياء الأخرى كلها قد أُتمَّت، كنت أخطف ساعة للعمل على أطروحتي بينما كانت لوسي في حضانة الأطفال بعد أن أكون قد أخذت ستيفن إلى القسم، لقد استهلكتني متابعة بحثي إلى أقصى حد، ولم تعد أي فرصة

موجودة لتوسيع فهمي للمدد الأخرى من العصور الوسطى، ناهيك عن البحث في مجالات وموضوعات أخرى طُرحت للنقاش في أَعْشِية أروقة جامعة لوسي كافيندش.

لقد كنت منقطعة التواصل عن المشهد السياسي والعالمي، فوقت القراءة لدي كان شحيحًا، ولم يكن لدي الكثير لأقدمه أو أكسبه عدا وعي محبط لعدم كفاءتي، سواء من جامعة لوسي كافيندش أو من ندوات العصور الوسطى. وعندما كنت أحضر واحدة منها كان يتعيَّن عليَّ أن أكون مخادعة في النقاشات والمحادثات، أو أن أبقى شخصًا صامتًا مملًا، لقد كان وضعًا غير مريح شعرت فيه بأنني محتالة.

كان لدي صديقة واحدة في الجامعة وهي هانا سكوليسوفو؛ شعرت معها بالراحة. هانا كانت باحثة في العصر الإليزابيثي، وكانت تستمتع بمدة التأجيل التي وجدتها في كامبردج بعيدًا عن توتر بلدها الذي مزقته الحرب. هانا وأنا اكتشفنا أن بيننا الكثير من الأشياء المشتركة، وعلى الرغم من أن ظروفنا كانت مختلفة جدًّا، كلانا كنا نحاول أن نعيش حياة طبيعية ونربي أطفالنا ذوي الثلاثة أعوام رغم التوتر والضغوطات. عندما التقينا كانت لوسي قد ولدت منذ وقت قصير فيما كانت هانا تتوقع مولودها الثاني، وعندما ولدت أريل في الصيف اللاحق كنا قد أصبحنا أصدقاء. علاوة عن ذلك فقد وجد ستيفن في زوج هانا البروفسور الكلاسيكي شمويل شريكًا ذكيًّا في النقاش. كان هانا وشمويل سريعي البديهة وواسعي الإدراك أكثر من العديد من الناس الذين عرفناهم أكثر وبشكل مفاجئ مدة أطول. عندما انتهت سنة الإجازة الخاصة بشمويل عادوا قلقين إلى إسرائيل مع عائلتهم الصغيرة، وبذلك تراجع دافعي للذهاب إلى الجامعة وأصبحت أكثر عزلة.

لم يكن أمرًا مهمًّا، فتقدم ستيفن المهني كان أكثر أهمية بشكل واضح من تقدمي؛ لقد كان على وشك وضع بصمة خالدة في عالم الفيزياء بينما كنت لأشعر بأني محظوظة إن تمكنت من صنع تموج صغير على سطح الدراسات اللغوية. وكما ذكّرتُ نفسي باستمرار لقد كان لدي عزاء بطفلي الحيويين، الظريفين، المحبين والبديعين. العديد من الناس الذين حدَّقوا بقسوة بستيفن مستغربين إعاقته، في حين أنّ نفس الأناس الذين دعوه بالمعاق كانوا فزعين بشكل واضح من منظر أب معاق بشكل جدي

مع أطفال جميلين بشكل لافت للنظر، كان كل منهما معجزة للكمال التام. اكتسب ستيفن الثقة من خلالهما واستطاع أن يربك هؤلاء الناظرين الشكاكين بأن يعلن لهم: هؤلاء أطفالي. أعطتنا لحظات الحنان العميق. في تلك الأوقات طاقة كبيرة واحتضنتنا نحن ومنزلنا وعائلتنا وامتدت لتصل لكل المحيطين بنا.

لقد كان الأطفال مصدر راحة لوالداي خاصة جدتي التي كانت صحتها وذاكرتها تتراجعان بشكل سريع، وعندما انتقلت مؤخرًا من منزلها في نوريتش كان قد تأخر الوقت كثيرًا حتى تستقر في أي مكان آخر بثقة. كنتُ أعلم مسبقًا وأنا ألوح بالوداع لها بعد ظهر يوم الأحد أو ديسمبر من عام 1973 بأنني لن أراها مرة ثانية؛ لقد ذرفت الدموع كل الأسبوع على المرأة الشجاعة لطيفة الروح التي أحببتها جدًّا، وعندما اتصل بي أخي يوم الجمعة اللاحق في السابع من ديسمبر ليخبرني بأنها توفيت في فراشها، كان أمرًا محزنًا جدًّا ولكنه لم يكن مفاجئًا.

11
قانون التوازن

لم يؤثر الاختفاء التدريجي لأصدقائنا المقربين من حماس روحي الوثابة؛ حيث لم أقابل أصدقائي في الجامعة وفي المدرسة إلا نادرًا، فهم إما كانوا قد سافروا للخارج أو انتقلوا مع أسرهم إلى مدن أخرى، وقد توزع أصدقاء السنوات الأخيرة مغادرين كامبردج ليتطوروا في وظائفهم وأعمالهم؛ فقد غادر روب دونوفان Rob Donovan الذي كان أفضل أصدقاء ستيفن في مدة زواجنا، مع زوجته وابنته إلى إدنبرة وأصبح تواصلنا معهم بعد ذلك متقطعًا، ولكن استمرت صداقتنا متوهجة عندما كانت تتاح لنا فرص لقاء قليلة، وقد أمضينا معهم بعض الوقت خارج إدنبرة في صيف 1973 قبل أن نخطط لرحلة إلى موسكو؛ وكما هي الحال دائمًا بين الأصدقاء القدامى تراوحت حواراتنا حول لقاءاتنا في مساءات الأحد وعن كامبردج والتطور في مجال العلوم ومدى تعقيد طلبات المنح وأصدقائنا الذين تفرقوا في أنحاء العالم.

أصرَّ روب عندما تكلمنا عن رحلة موسكو بأننا لا ينبغي أن نركن للهدوء بسبب ضعف التغطية الإعلامية لأزمة الصواريخ الكوبية، وألا نعُدَّ سباق التسلح قد انتهى، فقد كانت جميع القوى العظمى تقوم خلسة بتطوير مجموعة ضخمة من الأسلحة الأكثر تطورًا من أي وقت مضى، وعلى الرغم من أنّ خطر نشوب حرب نووية كان ما يزال محوِّمًا فوق رؤوسنا في كل مرة تزمجر فيها إحدى القوى الكبرى، وفي الحقيقة رغم قيام هذه القوى بتطوير وتحسين قدراتها النووية الهائلة، إلا أنها لم تنشر ترساناتها تلك على نطاق واسع. تسبب كلام روب لي بالقلق فقد قال إنه لا يكفي الآن ونحن لدينا أطفال أن نقول بأن العزاء الوحيد لنا في حال نشوب حرب نووية هو أننا سنموت جميعنا معًا.

لم أكن مستعدة لقبول هذه الفكرة، أنْ تُدمر حياة أبنائي، ولكن ما الذي يمكنني أو يمكننا القيام به؟ كان دور العلماء الذين يقومون بتطوير تلك الأسلحة في الخمسينيات

والستينيات محدودًا الآن، وكان العديد منهم على الجانبين معروفين بالنسبة إلينا بالستارة الحديدية Iron Curtain؛ فالقرار أصبح الآن بيد سياسيين لا يستحقون الثقة، نكسون الماكر في الولايات المتحدة، وبريجنيف الغامض في الاتحاد السوفييتي.

انتقل كارتر، وبراندون، ولوسيت الذين اعتدنا أن نمضي العديد من عطل نهاية الأسبوع معهم إلى فرنسا مع طفلتهم كاترين، حيث تسلم براندون عمله في مرصد باريس في ميدون، وقد تم تعيين موقع المرصد في فناء القصر château مطلًّا على المناظر الخلابة في مدينة باريس. افتقدتُ لوسيت بشدة وبغض النظر عن أنها كانت الشخص الوحيد الذي أمكنني التحدث معه بالفرنسية في كامبردج، فقد كانت عالمة رياضيات محترمة، وكانت ذكية وبليغة في الكلام دون لغو؛ كانت مخلصة لأصدقائها وذات إحساس متَّقد.

جاءت الصدمة الأكبر مع رحيل عائلة إليس حيث كان رحيلهم مؤلمًا؛ لأنهم لم يكونوا ليتركوا كامبردج ببساطة للحصول على وظيفة أخرى، ولكن السبب كان انفصال الزوجين؛ كنا على علاقة وثيقة بجورج وسو بحيث إنهما عندما انفصلا شعرنا بتهديد يطالنا نحن أيضًا، كنا عائلتين نتشارك الكثير من الأشياء، وقد كانت سو عرابة لوسي، وقد جدَّدنا بيوتنا سوية، وكنا نذهب لحضور المؤتمرات معًا فضلًا عن صداقة أطفالنا مع بعضهم.

كما قام جورج وستيفن بإعداد كتابٍ معًا The Large-Scale Structure of Space-Time، وعلى الجانب الآخر كنتُ وسو ندعم بعضنا عند الأزمات، وفي نضالنا كأمهات للحفاظ على عائلتينا؛ حيث كان يمكن لستيفن وجورج أن ينقطعا عن العالم الخارجي غارقين في أسرار فيزياء الكون، وقد بُنيت العديد من خبراتنا نتيجة هذه الحياة المشتركة، وعندما فشل زواجهما شعرنا باهتزاز علاقتنا أنا وستيفن.

كانت كل تلك الصداقات مع العديد من الأزواج الذين غادروا كامبردج الآن، قد شكلت في ظروف خاصة فقد كانت نتاج علاقات ستيفن في الإدارة أو في واحدة أو أكثر من الجامعات، فقد كانوا يشاركونه اهتماماته، العلمية عادةً في حين وجدتُ أشياء

مشتركة مع زوجاتهم، ومع رحيل أصدقائنا المقربين عائلة إليس فقد انتهت علاقة كانت وثيقة للغاية، وعلى الرغم من أننا كنا على علاقة وثيقة بالعديد من الزملاء الأصغر سنًّا، إلا أنه لم يكن هناك بالضرورة تلك القواسم المشتركة بيننا إضافة إلى أني كنت أميل لتكوين صداقات مع أشخاص يحتاجون التعاطف؛ فهم إما كان لديهم سبب للحزن في حياتهم الخاصة، أو لديهم بعض الخبرة في التعامل مع احتياجات المعوقين، كانت تلك صداقات ثمينة، وكانت الأكثر دوامًا، فضلًا عن أنها كانت نقطة مهمة جدًّا لستيفن.

كان من ضمن مساعدي كونستانس ويليس فتاة نحيلة ذات شعر جميل بعمري تقريبًا، كارولين تشامبرلاين Caroline Chamberlain، كانت كارولين قد توقفت عن العلاج في صيف 1970؛ لأنها كانت تنتظر مولودًا في المدة نفسها التي كنت أنتظر فيها قدوم لوسي؛ كانت تقيم في مكان قريب في مدرسة ليز Leys School، وقد حافظنا على تواصُل بيننا تطور إلى صداقة أوثق بعد ولادة ابنتينا، وقد ركزت ذهني في تلك المدة أكثر من أي وقت مضى على مشكلات العجز؛ حيث بدا في بعض الأحيان وكأنه فخ نُصب في طريقنا جميعًا أنا والأطفال فضلًا عن ستيفن.

التقيت عند باب المدرسة حيث المكان التقليدي للقاء الأمهات، بصديقة مكافحة أخرى، كانت جوي كادبيري Joy Cadbury التي كان ابناها توماس ولوسي في نفس عمر أبنائي روبرت ولوسي، كانت جوي وهي ابنة طبيب في ديفون Devon قد حققت طموحها الشخصي بأنْ تصبح ممرضة أطفال بعد تخرجها من أوكسفورد؛ تعمقت علاقتي وجوي حيث كانت مستعدة دائمًا لمساعدتي في رعاية الأطفال في وقت الأزمات؛ في ديفون ليس بعيدًا عن منزل عائلة جوي كان لدي أصدقاء آخرين داعمين لي هما أخي وزوجته بينيلوبي، فبعد الوظيفة الأولى المؤقتة لكريس في برايتون انتقلا إلى ديفون عند انضمامه إلى التدريب كطبيب أسنان في تيفرتون Tiverton، كانت بينيلوبي مهتمة بالفن بطبيعتها وكذلك بالعلاقات ففهمت حاجتي للحديث عن الشخصيات والتأثيرات والمشاعر والطرق وتواصل الناس مع بعضهم، تلك الأمور كانت محظورة

تقريبًا في عائلة هوكينغ، لقد وجدتُ في كريس وزوجته فهمًا ودعمًا عميقًا، كانت المشكلة الوحيدة أنهما كانا يسكنان بعيدًا جدًّا.

لم تكن المعارف الجديدة كلها التي اكتسبتها لتمنحني التشجيع الذي وجدته في كارولين وجوي وعلاقاتي الإنسانية، كان بعض أصدقائي مهمشين كما هي حالتي ولو بطرق مختلفة؛ كان أغلبيتهم بحاجة لدعمي ومساندتي من الناحية الجسدية التي تهيمن على حياتنا والتي كانت واضحة للعيان حيث كان نادرًا ما أنتبه إلى مآسي الآخرين في الماضي، ومع العمر والنضج بدأتْ تستيقظ بداخلي أسباب ومضاعفات المعاناة، فبعض الناس كانوا يكافحون عواطفهم وحالتهم المادية بعد الصدمة ونفور أحبائهم منهم وبعضهم الآخر كان بعيدًا عن المنزل، وقد حاولتُ التعامل مع الحالات التي صادفتني بأكبر قدر من الموضوعية والعقلانية، ومن المفارقات أن الحالات التي تشبه حالتي كانت هي الحالات التي عانيت أكبر صعوبة في التعامل معها.

وعد بعض الأصدقاء من ذوي النوايا الحسنة أن يقدموا إليّ ممرضة يعاني زوجها مرض التصلب المتعدد، وكنت أتطلع بأمل إلى هذا الاجتماع آملة أن نتبادل الخبرات، كان من الصعب عليّ أن أذكر المشكلات التي أواجهها، المسؤوليات المضنية والضغط العاطفي والتعب المطلوب لتنشئة طفلين صغيرين دون مساعدة ورعاية شخص معوق في الوقت نفسه؛ لم يتحدث ستيفن قط عن المرض كما لم يشكو قط، ازدادت لديه مشاعر البطولة الطوباوية، وازداد إحساسي بالذنب كلما أعطيت انتباهي لهواجس أقل قيمة، ولكن الافتقار للتواصل كان أصعب ما يمكن احتماله حتى إنه كان أصعب من جميع الأعباء الجسدية.

مرة واحدة فقط امتلكت شجاعة طرح مشكلاتي الخاصة، وكان ذلك على ثيلما تاتشر التي كان جوابها حاسمًا؛ حيث قالت: «جين، سأقول لك ما أقوله عادة عندما تسوء الأمور: تذكري النِعم التي تعيشينها». كان جوابها نبيلًا ومحقًّا فقد كان لدي الكثير لأكون شاكرة بشأنه، ليس فقط عائلتي وتصميم ستيفن على العمل وشجاعته، فأنا لم أكن محتاجة أو معوزة، ولم يكن لدي خيار سوى القبول بنتائج اختياري

وأحفظ عائلتي وأعمل بجد لأجلها، كما هو شأن ثيلما نفسها التي كان عليها التعامل مع فقدانها لرضيعيها الاثنين.

تم استدعاء ثيلما في اليوم التالي وقالت إن عليَّ الحصول على المزيد من المساعدة، وأنها ستستدعي كونستانس بابينغتون سميث Constance Babington–Smith لترسل لي المرأة التي تنظف منزلها، كانت كونستانس كنزًا حقيقيًّا، حيث أعادت تنظيف المنزل وترتيب أسرَّتنا كل أسبوع؛ كان عبء الأعمال المنزلية جزءًا من المشكلة؛ فما زلت بحاجة إلى شخص مستمع متعاطف، شخص يستمع إليّ بصبر ويفهم همومي دون تأنيب، لم أكن أتوقع الحصول على هكذا شخص بشكل سحري، ولكني أملتُ أن أعثر عليه بطريقة ما. فامرأة مع زوج معوق ستكون شخصًا يصغي ويتجاوب بتفهُّم أكثر من أي شخص آخر وربما يقترح أساليب وطرقًا للتعامل مع بعض الصعوبات العملية. في الوقت الذي التقينا فيه كانت على وشك المغادرة إلى الولايات المتحدة مع شريك جديد تاركة زوجها في دار المعاقين.

كانت فلسفة ثيلما تاتشر القائمة على تركيز المرء على النواحي الإيجابية في حياته، هي الشيء الوحيد الصالح بالنسبة إلي، وقد كرست نفسي من أجل ستيفن ليحيا حياة طبيعية قدر الإمكان، ولم يكن لدي أدنى نية في التراجع عن ذلك، ولكني كنت معزولة أرقب حياة الآخرين، وما من جهة كان يمكنها تقديم المساعدة لي؛ إذ كان عليّ إيجاد طريقي ضمن متاهة من المشكلات والصعاب.

12
آفاق الحدث

في ليلة مظلمة وعاصفة -في 14 شباط/فبراير -1974 اصطحبتُ ستيفن إلى مؤتمر في مختبر رذرفورد في موقع بحوث الطاقة الذرية في هارويل؛ أقمنا في منزل كوزنر في أبينغدون وهو منزل ريفي قديم على ضفاف نهر التايمز الذي كان يفيض في ذلك الشتاء. لم تحبطنا الأمطار الغزيرة، كنت وستيفن ومجموعة من طلابه نشعر بالإثارة في هذه الأجواء كما كان ستيفن على وشك الوصول إلى نظرية جديدة حيث كان قد توصل سابقًا إلى أفكار معينة بخصوص آليات عمل الثقوب السوداء مقابل الديناميكا الحرارية المفارقة التي كانت تؤرقه منذ الصفوف الصيفية في لي أوش Les Houches، كان مهووسًا بالحسابات كما ازدادت شكوكه باستنتاجاته السابقة بسبب جون ويلر الذي كان طالبًا في برينستون حيث كان قد توصل إلى تشابه بين قوانين الديناميكا الحرارية وبحوث ستيفن بخصوص الثقوب الأسود في عام 1971. كان هذا زعمًا سخيفًا بنظر ستيفن فبما أنّ الثقوب السوداء تنصاع لقوانين الديناميكا الحرارية فستكون ذات درجة حرارة محدودة وستكون مشعّة وهذا يعني أنّ مجموعتي القوانين يجب أن تتزامنا في جميع الجوانب وليس جانبًا واحدًا، وقد تجاوزت المقاربات التي قدمها ستيفن جميع التوقعات.

قادتني تلك المدد المليئة بالضغط والتركيز إلى استنتاج مفاده أنه على عكس كل النظريات فقد تكون الثقوب السوداء مصدرًا للطاقة حيث يتبخر الثقب ويتلاشى فاقدًا كتلته وطاقته عند قيامه بإصدار الطاقة. تزداد درجة حرارته وجاذبيته كلما انكمش إلى حجم النواة فيما يبقى وزنه بين ألف ومئة مليون طن؛ أخيرًا وفي درجة حرارة لا يمكننا تخيلها يختفي الثقب الأسود في انفجار هائل، وهكذا لم يعد يُنظر للثقوب السوداء على أنها بمناعة وقوة اللون الأسود وبات يمكننا النظر إليها على أنها خاضعة لقوانين الديناميكا الحرارية بدلًا من الصراع بينهما، مدة الحمل الطويلة هذه التي عانتها النظرية أحاطت المولود بشيء من السرية وقد شعرت من جهتي

بمتعة في حضور ولادتها بحسبانها نافستني على استحواذ اهتمام ستيفن وقد تسببت لي بالكثير من المتاعب، وكان برنارد كار Bernard Carr كمساعد القابلة في هذه العملية، يحضِّر محاضرات ستيفن، ويعدُّها على شرائح لعرضها على الجمهور.

في صباح يوم المحاضرة جلست خارج القاعة في صالة الشاي، قاطع تركيزي الثرثرة الصادرة عن الخدم في الزاوية البعيدة، كانت ملاعقهم تطرق أطراف كؤوسهم بصخب، وقد عبقت الصالة بدخان سجائرهم.

عندما جاء ستيفن على كرسيه المتحرك متأهبًا لتناول القهوة قبل الشروع بمحاضرته تفحصته بهدوء من أعلى رأسه حتى أسفل قدميه، نعم كان على قيد الحياة بالتأكيد، ولكن كان عليّ أن أسأل نفسي إن كان ينظر لحياته معي وكأنها تمضي في الوقت الضائع وإن كان ينهار حقًا؛ عليّ أن أعترف بذلك لمراقب خارجي، فهو ربما كان في مرحلة انهيار وقد جعلني الأمر حزينة جدًا، ولكن لحسن الحظ فهذه المخاوف لم تكن لتجد طريقها إلى عقله ذو الجذور الراسخة في العلم المادي، وكما يغيب عن بال دون كيشوت أمر مظهره والغرض مما يقوم به، وجهوزيته للدخول في المعركة برفقة صديقه المخلص سانشو بانزا، كان برنارد كار كذلك؛ لحقت بهم إلى قاعة المحاضرات أشعر بالارتياح مستلهمة ذلك من النساء اللواتي ينظفن المكان حيث كان يُنظر إليهن بأجسادهن النحيلة على أنهن في حالة يرثى لها متجاهلين قوة العقل وقوة الروح اللتان يتحلين بها. رغم ذلك كانت قناعتي بأن ستيفن سيبقى خالدًا تعاني من صدمة أخرى.

بمفارقة رائعة، أكد ستيفن خلوده في تلك المحاضرة على الرغم من رئيس مجلس الإدارة وبعض الحاضرين أعطوا الانطباع وكأن ستيفن قد جُنّ، جلست على مقعدي وأنا أستمع إلى ستيفن منحنيًا في كرسيه ليتقي الأضواء يشرح ما حضّره برنارد في الشرائح على جهاز العرض الضوئي، وفي الواقع فقد تم إعطاء المحاضرة مرتين، واحدة من خلال شرح ستيفن والثانية من خلال الشرائح نفسها ولذلك لم يكن هناك شك في الرسالة التي يرغب بإيصالها: الثقوب السوداء لم تكن سوداء بقدر ما تبدو كذلك.

على الرغم من وضوح العرض فقد ساد الصمت عند نهاية المحاضرة وبدا أن الجمهور يعاني في هضم تلك الرسالة البسيطة، ولم يبق البروفيسور جون تايلور John G. Taylor من جامعة الملك في لندن، صامتًا لوقت طويل؛ كان مذعورًا وهو يشن هجومًا مهرطقًا على إنجيل الثقوب السوداء، قفز على قدميه بشكل صاخب قائلًا «حسنًا هذا مناف للعقل! لم أسمع أبدًا بشيء كهذا من قبل، ليس لدي بديل ولكن يجب إيقاف هذا الأمر حالًا!» بدا تصرفه لي غير منطقي أبدًا وقد تذكرت هجوم إدنغتون على شاندرسيخار في عام 1933 باستثناء أن إدنغتون استخدم كلمة «سخيف» بدلًا من «مناف للعقل» ليصف نظرية شاندرسيخار؛ لم يكن عاديًا فقط للرئيس أن يتيح الوقت للأسئلة بعد المحاضر بل كان كذلك من باب المجاملة المقبولة بأنه يشكر المتحدث «على حديثه المفيد للغاية» لم يقدم تايلور (ينبغي عدم الخلط بينه وبين تايلور J.C. عالم فيزياء الجسيمات الذي سيصبح مع زوجته ماري صديقان حميمان بعد بضع سنوات) الكثير من هذه المجاملات لستيفن بل أعطى انطباعًا بأنه تمنى لو احترق قبل الإتيان بهذه البدعة، احتمل ستيفن هذه الإهانة الواضحة على طريقة سيدات التنظيف فهذه المحاولة للتقليل من شأنه تنطوي على محاولة لتصوير عجزه الجسدي وكأنه ينعكس عجزًا علميًا.

أما في قاعة المحاضرات فكان بالإمكان سماع دبيب النمل، وفي غرفة الطعام بعد المحاضرة كان هناك ضجة كبيرة، كان الأمر كما لو أن الجسيمات تتطاير من الثقوب السوداء في كل الاتجاهات لتضرب الحاضرين مثل لعبة البولينغ وقد أجلس برنارد ستيفن بهدوء عند زاوية الطاولة بينما ذهبت أنا لأنتظر الحصول على وجبتي، كان الغمز واللمز على طلابه وقد وقف تايلور J.G. ورائي في الصف لا يعرف من أكون. كنت أتمرن على بضع ملاحظات للدفاع عن ستيفن عندما سمعته يغمغم «علينا الحصول على هذه الورقة فورًا» فكرت بأن أحتفظ بصمتي وأنقل ما سمعت لستيفن؛ على الرغم من تجاهله بطريقة لطيفة إلى أنه أرسل ورقته الخاصة إلى الطبيعة في الحال خلال عودتنا إلى كامبردج.

لم يكن من المفاجئ أن يتم رفض النظرية بحسبان أن تايلور .J.C هو من قام بتقديم مراجعة لها لإحدى المجلات، ثم طلب ستيفن إرسالها إلى جهة مستقلة لتحكم عليها وتم قبول الطلب في المرة الثانية كما تم قبول ورقة تايلور إلا أنها ماتت بشكل طبيعي في حين تميزت ورقة ستيفن كخطوة أولى على طريق توحيد الفيزياء والتوفيق بين الهيكل واسع النطاق للكون وبنية الذرة صغيرة الحجم من خلال وسيط هو الثقب الأسود، ودون شك فقد ساهمت تجربة رذرفورد في زيادة تصميم ستيفن على تجاوز كل الصعاب الجسدية منها والفيزيائية؛ أعطتني نفس النظرية شعورًا بالفخر والانزعاج كذلك من العديد من التيارات الخفية التي كانت تنطوي عليها. مهدت نظرية تلاشي الثقوب السوداء الطريق لانتخاب ستيفن إلى الجمعية الملكية في الربيع التالي وهو بسنّ 32 حيث لم يسبقه أحد إلى ذلك من قبل.

في القرن السابع عشر تم انتخاب أعضاء لا تزيد أعمارهم عن 12 عامًا ولكن ذلك كان عندما كان يتم انتخاب الأشخاص وفقًا لامتيازاتهم لا لجدارتهم أما في الماضي القريب فقد كانت درجة يطمح لها العلماء ويسعون للوصول إليها في نهاية حياتهم المهنية بعد الحصول على عدة درجات من الدكتوراة وإنجاز العديد من الأعمال العلمية والاستشارية، أصبحت فخرًا لمن يشتغل بالعلم ولا يفوقها هيبة سوى جائزة نوبل.

في مساء يوم 22 آذار/مارس 1974 اصطحب الطلاب ستيفن إلى الجامعة حيث صفقنا له كبطل منتصر، وخلال الحفل جاء دور ستيفن في الكلام، وكان معتادًا على إلقاء الخطب أمام الجمهور ولكنه في هذه المناسبة المفاجئة لم تتح له الفرصة لإعداد ما سوف يقوله فألقى خطابًا طويلًا كان يتحدث فيه ببطء وبصوت ضعيف وقد تكلم عن سير بحوثه على مدى السنوات العشر الماضية منذ وصوله إلى كامبردج وأعرب عن شكره لدينيس سيياما لدعمه وشكر أصدقاءه على حضور الحفل، وقد مضى في حديثه كعادته مستخدمًا كلمة «أنا» بدلًا من «نحن»، انتظرت مطوقة أطفالي بيدي أن يأتي على ذكرنا في جانب من حديثه أو أن يلتفت إلينا بابتسامة أو مجرد كلمة موجزة عن تقديره لتسع سنوات من زواجنا.

في ذات الأسبوع الذي تم فيه نشر قائمة زمالة الجمعية الملكية تلقى ستيفن دعوة -بدفع من كيب ثورن دون شك- من معهد كاليفورنيا للتكنلوجيا في باسادينا، لقبول عرض زمالة زيارة للعام الدراسي التالي وقد كان العرض مغرٍ إلى أقصى حد. بغض النظر عن الراتب المغري فقد تضمنت الدعوة كذلك ميزات ممتازة كتأثيث البيت دون إيجار واستخدام السيارة وجميع الملحقات الممكنة بما في ذلك الكرسي المتحرك بالطاقة الكهربائية لمنح ستيفن أقصى قدر من الاستقلالية.

إذا كان من الممكن أن يكون استبدال البرد الجليدي بالرياح الصحراوية الدافئة لجنوب كاليفورنيا موضع ترحيب فبقية العقبات يمكن تذليلها، وقد شُغلت أكثر بموازنة المزايا مقابل العيوب في هذا التغيير، وفيما شُغل ستيفن بخمسة عشر مليون عام من عمر الكون كانت نظرتي للمستقبل تقتصر على الأيام القليلة القادمة وقد تعلمت أن أقوم بحساباتي للمستقبل البعيد كوضع خطة لمدة سنتين أو خمس سنوات أو حتى عشرين سنة من الآن، ومع ذلك طالبت بدراسة متأنتة للأشهر الثمانية عشرة المقبلة خصوصًا في ضوء تجربتي الماضية على الساحل الغربي للولايات المتحدة والتي كانت مليئة بالفوضى. كذلك شغلتني مشكلتي الشخصية بالخوف من الطيران، وفي هذه المرة كان عليّ على الأقل ألا أتخلى عن أطفالي لأنهم سيكونون معنا بطبيعة الحال ولكن القلق كان يملؤني عن كيفية تدبر الأمور في السفر لمسافة طويلة جدًا وأنا الوحيدة المسؤولة عن الأطفال وعن ستيفن الذي كان في حالة شديدة من الوهن؛ ثانيًا كيف يمكنني التعامل مع الأزمات منفردة تمامًا لمدة عام كامل دون جيران أو أقارب! وقد عانيت في كثير من الأحيان من صداع وانفلونزا وآلام الظهر والجنب طوال العامين الماضيين إلا أني كنت قادرة على الاعتماد على والدتي، بينما سأفتقد هذا الدعم في كاليفورنيا.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان رفض ستيفن المطلق لأي مساعدة خارجية بشأن العناية به، عقبة كبيرة بغض النظر عن نصائح والده الذي كان يقترح أن نعلمه بحالته المتدهورة في حين كان ستيفن يرفض أن نأتي على ذكر مرضه أمامه وقد كان

ذلك أحد الدعائم التي ترتكز عليها شجاعته وآلية دفاعه عن نفسه في وجه المرض، وكنت أعرف أنه إذا اعترف بحالته الحرجة فسوف تخونه شجاعته.

استمع طبيبي إلى مشكلاتي واجتمع مع طبيب ستيفن محاولين معًا إعداد جدول من الممرضين الذكور لمساعدة ستيفن على الدخول والخروج إلى الحمام بضعة مرات في الأسبوع على الاقل. تم إحباط هذه الخطة بعد وقت قصير من وضعها لأن الممرض اللطيف كان قادرًا على الحضور فقط في الساعة الخامسة بعد الظهر وكان هذا الانقطاع المفاجئ عن العمل في هذه الساعة مرفوضًا تمامًا بالنسبة إلىستيفن وأصبحنا بحاجة إلى معجزة لحل المشكلات التي تواجهنا؛ مع ذلك جاءتني فكرة مع عيد الفصح بحيث تغير المشهد في نظري تمامًا وكانت فكرة بسيطة تقضي بأن ندعو طلاب ستيفن للعيش معنا في منزلنا الكبير في كاليفورنيا بحيث نقدم لهم إقامة مجانية مقابل المساعدة في قضاء حاجات ستيفن حيث كانت حالة ستيفن من السوء بحيث إنه لم يعد حتى قادرًا على تناول الطعام بنفسه كما كان بحاجة لمن يسهر على راحته على الدوام، وبمساعدة برنارد الذي لم يحبذ الإتيان بممرضات للعناية به لأن ذلك سيعني له تدهور حالته بشكل مخيف أما المساعدة من الأصدقاء والعائلة فربما تكون أكثر قبولًا، وفي البداية رفض ستيفن الفكرة ولكن بعد أن أخذ وقته في التفكير أدرك أنّ مشروع كاليفورنيا قد يتعطل جراء رفضه فعدل عن رأيه ونقلتُ الفكرة إلى برنارد كار ومن ثم إلى بيتر دايث الذي وافق بحسبان أنّ هذا الحل يوافق جميع الأطراف بشكل جيد.

بقي هناك وظيفة رئيسة واحدة وجب توفرها في ذلك الصيف، وهي قبول ستيفن لزمالة الجمعية الملكية في يوم الخميس الثاني من مايو/أيار؛ انطلقنا من كامبردج في الوقت المناسب لنتناول الغداء في كارلتون هاوس Carlton House مقر الجمعية الملكية منذ القرن الثامن عشر المطل على مركز التسوق. وعندما كنا نقترب من شمال لندن بدأت السيارة تترنح فجأة وأصبحت السيطرة عليها أصعب ولم يكن لدينا من خيار سوى المضي قدمًا في رحلتنا على أمل بأننا سنصل إلى وجهتنا. أخيرًا قمت بشد عجلة القيادة بقوة والتفتُّ أطلب العون في فناء كارلتون هاوس حيث تمت مساعدتنا في

إصلاح السيارة وإخراج ستيفن منها ومن ثم إعادة تجميع قطعها وإعادة ستيفن إلى داخلها.

كما في العديد من المناسبات أتتنا المساعدة من آخر جهة نتوقعها فقد كان الأمين العام (السكرتير) لرويال هاوس نفسه، رجل قليل الكلام متجاوب مع مطالب ضيوفه المهمين؛ نزل على يديه وركبتيه مرتديًا بزة رمادية داكنة وقام بتغيير العجلة غير منتبه بأننا كنا نتناول غداءنا مع عالمٍ آخر من كامبردج وهو رئيس الجمعية الملكية السير آلان هودكين Sir Alan Hodgkin. استغرقت مراسم القبول مدة ما بعد الظهر وسط جو احتفالي في قاعة المحاضرات وتم إلقاء كلمات قبول الزميل الجديد وتقديمه، ثم تم توقيع كتاب القبول وساد صمت عندما تم إنزال الكتاب من المنصة ليأتوا به إلى ستيفن كي يوقعه بدوره ثم ضجّت القاعة بتصفيق حماسي وسط ابتسامة فرح على وجهي والدموع تملأ عيناي.

لم يكن ستيفن العالم الوحيد من كامبردج الذي يتم تكريمه في هذا العام، ولا حتى الفيزيائي الوحيد، فقد تم قبول أستاذ فيزياء الجسيمات جون بولكينهورن John Polkinghorne لزمالة الجمعية الملكية في نفس المناسبة، وقد كان على وشك التخلي عن الفيزياء بعد وصوله إلى ذروة حياته المهنية وذلك لتولي اللاهوت، وهذا يعني أنه سينتقل من كونه البروفسور بولكينهورن إلى الدراسة من جديد والاجتهاد والتنسيق مع راعي الأبرشية والرعية بدافع من محاولة رأب الصدع بين العلم والدين كما كان شأن غاليليو. كان العلم لا يتعارض مع الدين وفق رأيه وإنما هما جانبان متكاملان ورغم عدم معرفتي به إلا أني كنت معجبة برأيه القائل بأنّ الإلحاد ليس شرطًا أساسيًا للعلم وبأنه ليس من الضروري أن يكون جميع العلماء ملحدين كما يبدو الأمر.

الفصل الثالث

1
رسائل من أمريكا

«مرحبًا، أُدعى ماري لو Mary Lou وأقطن في سيرا مادري Sierra Madre، من أين أنت؟»

تعود هذه الكلمات لكائنةٍ ضئيلة الحجم بحلةٍ سمراءَ قابلت ردنا بابتسامةٍ عريضة؛ كنّا قد وصلنا للتو إلى الحفل المقام من قِبل مجموعةٍ من المغتربين الإنكليز بعد مضي ما يقارب الأسبوع على وصولنا إلى لوس أنجلوس.

كان الطابع المباشر في الحديث أمرًا لم نعتده بعد، ما استلزمنا برهةً من الزمن للتغلب على دهشتنا ولندرك أنّ الآخر يتوقع منّا قدرًا مشابهًا من العفوية كردّ فعلٍ، ففي المحصلة استلزم الأمر عشرة أعوام انقضت من أعمارنا، لكي يتمّ الاعتراف بنا في حافلات كامبريدج حيث اتسم حضورنا في ذلك المكان بانعدام الثقة بالنفس، لكن ذلك تغيّر في الآونة الأخيرة حين بدأ بعض الزملاء، وبشكلٍ أخصّ زوجاتهم، بإظهار اهتمامٍ متزايدٍ بنا، لم يكن الأمر عاديًا لمن اعتاد على مدى السنوات الجلوس منبوذًا في زاويةٍ قصيةٍ من مائدة الطعام، وكانت الأحاديث الموجهة إلينا حدثًا مفاجئًا! ففي إحدى المرات وجد أحد متعهدي المطبخ مشقةً في إيجاد مكانٍ لنا على أيّة مائدةٍ في احتفالات الكلية، لعدم رغبة أحد في الجلوس معنا، ولذلك جاءت دهشتنا أمام ماري لو أمرًا طبيعيًا لعدم استعدادنا لمبادرتها، وسرعان ما سرت إلينا عدوى حماسها في إجراء أحاديث ودية، حيث أعربتُ بالمقابل عن حماستي في كل ما يخصّ كاليفورنيا خلال مراسلاتي مع عائلتنا واصدقائنا، وعلى سبيل المثال ما جاء في رسالتي إلى والداي، والتي كُتبت قبل أيام من أن يصبح اتصالنا الهاتفي معهم أمرًا ممكنًا من الناحية المادية:

30، آب أغسطس، 1974

جادة ويلسون الجنوبية 535
باسدينا، كاليفورنيا 91106
الولايات المتحدة الأمريكية

والداي العزيزان

استغرقت رحلتنا المباشرة إلى هنا وقتًا طويلًا لكنها خَلَت من أيّ محطات توقف مقارنةً بالرحلة الأخيرة التي حلقنا فيها فوق القطب حيث كان روبرت حينها لا يزال طفلًا صغيرًا. وكطفلٍ مسافرٍ يقتفي أثر خطاه كان مأسورًا بالمشهد من الأعلى، تملكته دهشة طفولية من القمم السوداء التي تنمو من حقول الثلج، والجبال الشامخة وسط البحر المتجمد حيث تتوهج البحيرات الطبيعية بين الحين والآخر بلون الزمرد في عمق الجليد، والجزيئات المتلألئة بياضًا من الجبال الجليدية في خليج هادسون، تعقبها صحاري أمريكا والمحيط الأطلسي.

كانت لوسي تتساءل إن كنا قد وصلنا إلى وجهتنا بطريقة تشي بقلة اكتراثها حول مغامرتنا برمّتها، لكن لحظة حطّت بنا الطائرة استعدنا نشاطنا المفقود، كما لو أن الروح قد دّبت فينا من جديد رغم تجاوز الساعة حينها الثانية صباحًا (بتوقيتكم). بعينين مفتوحتين على اتساعهما لاستيعاب المشهد الجديد كليًّا، طالعتنا التفاصيل غير المألوفة، أشجار النخيل، السيارات الضخمة، عربتنا البراقة التي استقلها كيب لاستقبالنا، الطرق السريعة ثنائية الاتجاه من وإلى المدينة، ناطحات السحب، وفي نهاية المطاف المنزل الذي بدا أجمل بكثير مما كان عليه في الصور بألواحه الخشبية المطلية بالأبيض.

بدا الأمر أشبه بحلم، وصلنا وضوء الغسق ينير أرجاء المكان ليتسلل عبر النوافذ، أصبح حلم ديزنّي أمرًا واقعًا فالمنزل أنيقٌ من الداخل كما هو جميلٌ من الخارج، مريح جدًا بأريكة ضخمة وثيرة تدعوك لأن تغرق في أحضانها، حمامات متعددة تنتشر في أرجاء المكان، وبالطبع كل شيء يحكمه تناسق لوني أنيق سواء أكان ذلك في العلامات التجارية الحديثة، أو الأثاث المشابه للتراثي التقليدي، أو المناشف والخزف الصيني، وحتى قدور الطعام! لا شكّ أنّ هؤلاء الناس يعتقدون بأننا قد اعتدنا مستوى فلكيًا من المعيشة؛ لو علم هؤلاء فقط بمقدرتي على مشاهدة الجبال حين أقف إلى حوض المطبخ، في حين أصبح ستيفن أقرب إلى

مكتبه مما كان عليه واقعه في كامبريدج، فالمنزل هنا يقع قبالة الحرم الجامعي، وبدا ستيفن أشبه بصبيٍ صغيرٍ امتلك لعبةً جديدةً. تملّكته الحماسة في تعلم المناورة على كرسيه الكهربائي المتحرك تمامًا كالكرسي الذي يمتلكه في المعهد مع فارق السرعة.

مضت سنوات منذ أن شاهدت ستيفن يتمتع بمثل هذا الحرية في حركته بالرغم من بعض الصعوبات في كرسيه، والذي كان سلس الحركة، باستثناء وجوب رفعه في كل مرة يصادف بها سلالم أو حجر الرصيف الذي كان جزءًا من المشكلة لارتفاعه الملحوظ هنا، وكأن لا أحد يمشي في الشوارع على الإطلاق. أضف إلى ذلك الهيكل الثقيل والبطاريتين الصلبتين اللتان تزن كل منهما طن هذا إذا استثنينا وزن الراكب، مما جعل زيارة المهندسين أمرًا واجبًا لتصبح زيارة دائمة ومتكررة يقومون بها بإجراء تعديلات على الكرسي وعلى جميع الأجهزة الأخرى، لكن لم يكن هناك ما يثير المتاعب الكبيرة، فحديقة المنزل الشبه جرداء من الأشجار خضعت لإشراف فريق من البستانيين الذين جاؤوا بمعداتهم من مقصات تشذيب مكانس وأجهزة تنظيف، ليبدؤوا بعملهم في ترتيب جنبات الحديقة وتشذيب المرج بصورةٍ جعلت من الصعب تمييز عشبة واحدة في هذه المساحة العشبية الخضراء التي تحتاج قدرًا كبيرًا من المياه، والتي يزودها بها نظام ري تحت الأرض ما ينفي الحاجة إلى خراطيم المياه أو إناء سقاية.

كان المشهد برمّته غريبًا للغاية! في الصباح الأول لنا في هذا المنزل، خرجنا إلى الفناء لنجد طائر الطنّان يحوم حول نبتةٍ غريبةٍ بأزهارٍ برتقاليةٍ وزرقاءَ شائكةٍ؛ انتشرت حول المنزل شجيرات الكاميليا التي تكاد تكون بحجم الأشجار، وبالقرب من الفناء انتصبت شجرة بلوط ضخمة جافة تبدو بشكلها الحالي أشبه بدعوةٍ مفتوحةٍ لتسلق أغصانها، فيما أحاطت مجموعة من الأشجار حواف الحديقة، ومنها شجرة برتقال تحمل أزهارًا وفاكهة في آن معًا، شجرتا أفوكادو، شجرة سرو ونخلة صغيرة.

وكنّا لا نزال نتناول وجبات الطعام في فناء الحديقة حتى ذلك الحين نظرًا للجو الحار، وبسبب غرفة الطعام بسجادتها الحمراء الفخمة وخشب مائدتها الماهوغاني[1]، ما جعلنا نتجنب دخولها ناهيك عن تناول الطعام هناك.

ذهبنا بعد ظهيرة هذا اليوم إلى حوض السباحة التابع لمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. لم يرق الأمر للوسي خاصة بعد سقوطها في البركة، واُعتبرت طفلةً متأخرةً عن بقية الركب لعدم تمكنها من السباحة رغم بلوغها الثالثة خلاف روبرت الذي سيصبح متمكنًا من السباحة هذا الأسبوع كما هو واضح؛ أحاطت بي وبالأطفال حالة من الذهول بمعناها الإيجابي الممزوج بالسعادة والإنهاك لدرجة أن لوسي غطّت في النوم أمام التلفاز، (الذي رغم حداثة اختراعه إلا أننا قلما شاهدناه لكثرة الإعلانات المعروضة طوال الوقت دون نهاية) حتى روبرت بدأت تظهر عليه أمارات النعس، بل اعتقدت أنّني سأنام قبله حتى!

مع وافر الحب، جين.

كان من المقرر لوالدي أن يُحال إلى التقاعد من وزارة الزراعة بحلول عيد ميلاده الستين في ديسمبر، كانون الثاني من عام 1974 بعد حياةٍ مهنيةٍ طويلةٍ أمضاها بتفاني في العمل، وقد خطّط مع والدتي للاحتفال بتلك المناسبة وذلك بالسفر للبقاء معنا في كاليفورنيا، وفي ذلك الحين، تدفق علينا الكثير من الزوار والضيوف، بعضهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وآخرين مثل بيتر دياث Peter De'Ath تلميذ الدكتوراه لدى ستيفن، والذي أقام لدينا مدة من الوقت وساعد مع برنارد في العناية بستيفن ريثما يجد له مكانًا للسكن؛ وبمرور الوقت، تنامت ثقتي في قيادة السيارة، كما تنامت قائمة المشتريات لزوارنا بأعدادهم الكبيرة لكن الأمر لم يجهدني أو يتسبب لي بأيّ إرباك، فالمشتريات كانت تتم تعبئتها بحرصٍ داخل أكياس من الورق البني (وليس أكياس بلاستيكية) ليتم بعدها حملها إلى السيارة من قبل مساعدين يحرصون على رسم ابتسامةٍ دائمةٍ على وجههم، وعلاوةً على ذلك، كان روبرت بسنواته السبع الملّاح

(1) نسبةً لشجرة الماهوغاني، وخشبها البني الضارب إلى الحمرة. (المترجم).

الرائع في رحلة التسوق، وكأنما وُجدت الخريطة السريعة للمكان داخل رأسه، ويتمتع على عكس والده بالقدرة على إخباري متى يتعين عليّ التوقف مسبقًا.

وفي اليوم الأول لأطفال مدرسة ريف باسدينا Pasadena town and country school، أوصلتُ الأطفال والقلق ينتابني لأعود في الظهيرة، وانضم إلى طابور الأمهات المنتظرات في سياراتهن لاصطحاب لوسي من قسم الحضانة.

عند وصولي إلى البوابة، أعطيت اسم لوسي للمعلم الواقف على الرصيف ليهدر باسمها على مكبر الصوت: «لووس هوكنغ، لووس هوكنغ» لم يكن هناك أيّة استجابة، لا إشارة عن ʻلووس هوكنغʼ وسط جموع الأطفال المنتظرين لذويهم بفارغ الصبر.

حدثت جلبة وارتباك عظيم عقب نداءات المدرس لتطفو على السطح إحدى أسوء الكوابيس بالنسبة إلىلمدرسة، هل من المعقول أن تُخطتف ʻلووس هوكنغʼ في يومها الدراسي الأول؟ عمّت الفوضى المكان، وقمت على الفور بركن سيارتي لأسارع الدخول، وهناك وجدت المدير مندفعًا خارج مكتبه وسط سرب من السيدات في منتصف العمر، كانوا قد انتشروا في جميع الاتجاهات في عملية بحث محموم عن الطفلة. لم يكن من الصعب إيجاد لوسي هوكينغ في النهاية؛ كلّ ما في الأمر أنّها أحبّت مدرستها كثيرًا لدرجة أنّها قامت من تلقاء نفسها باتخاذ قرار تناول الغداء في المدرسة، والبقاء هناك حتى الساعة الثانية والنصف؛ لكنها أخذت تخرج من المدرسة بمزاجية بعد تلك الحادثة، كما لو أنّ تلك الطفلة ذات الأعوام الثلاث قد مرّت بيومٍ طويلٍ.

وَجَد الأطفال في الطفل شو البالغ من العمر ثمانية أعوام صديقًا جديدًا لهم، كان شو ابن عائلة جيراننا اليابانين، كين وهيوكوناكا الذين عاًشوا لبعض الوقت في كامبريدج قبل أن ينتقلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان كين عالم أحياء متخصّص في عين سمك السلور والتي تشبه عين الإنسان، وهو نوع من البحوث التي تندرج تحت مسمى الغرائب العلمية؛ قامت العائلة باصطحاب كل من لوسي وروبرت للمدرسة كما قامت بالتخطيط لجميع أنواع الأنشطة والرحلات الاستكشافية إلى المنتزهات والشواطئ للأطفال الثلاثة، وفي إحدى المرات التي جلبت فيها الأطفال

من المدرسة، اكتشفت أنّ شو يمطر محادِثته بتعابير ومصطلحات حاسوبية، في حين كانت لوسي تبربر على نحو يتعذر معه كبحها، واستمر شو في مونولوجه الخاص الذي شارك فيه روبرت بإيماءات من رأسه كمن يفهم التعابير، كان انجذابه بلا شك مقدمةً لهذا العالَم الذي استهواه، وهو عالَم تكنولوجيا المعلومات، العلم الذي سيصبح في نهاية المطاف ميدانه المهني، شاعرًا بالابتهاج لاستقلاليته الجديدة المكتشفة.

وفي مكان آخر، كان ستيفن يتذوق سعادة من نوع مغاير، وهي أن يكون محط الأنظار في الحرم الجامعي حيث يجلس هناك طوال اليوم في مكتبٍ مكيّف. ظهرت السلالم هناك في كل مكان من الحرم الجامعي كما أنها ظهرت على الدرب إلى المنزل، وكان لدى ستيفن سكرتيره الخاص ويدعى بولي غراندمونتين Polly Grandmontgen ومعالِجة طبيعية تتردد بشكل منتظم، وهي تدعى سيلفي تيشك Sylvie Teschke، والتي كانت زوجةً لصانع ساعات سويسري تملكه هاجس دائم أنّ حياته ستنتهي بقدوم ساعات الكوارتز؛ أما برنارد تلميذ ستيفن فأخذ بالاستقرار والدخول في روتين الأسرة بروح مبهجة بلا كلل رغم نظام الأسرة الغريب الذي تضمن مساعدته لي في وضع ستيفن في سريره كل ليلة لينطلق برنارد بعدها إلى الحفلات، ومن ثم العودة للجلوس حتى ساعات الصباح الأولى في مشاهدة أفلام الرعب -بسبب أرقه- لينام بعدها حتى ساعة الغداء، وفي إحدى المرات قمت بزيارته في الطابق العلوي لإيقاظه في منتصف اليوم، لأجده مستغرقًا في النوم، جسده في السرير ورأسه على الأرض!

في ذلك الخريف زارتنا ماري تاتشر خلال جولةٍ لها لإلقاء محاضرةٍ حول فيلمها الأرشيفي حول حياة البريطانين في الهند، قمنا باصطحابها كما فعلنا مع جميع زوارنا إلى الأماكن الجذابة محليًا، الحدائق ومعارض هانتغون التي أسسها السيد هانتغون الذي استثمر جميع أمواله في السكك الحديدية، وتزوج عمته للإبقاء على الثروة بين جدران الأسرة، وجاء تنامي الثروة المتزايد ليمكّنه من شراء لوحة كونستابل Constable المدعوة 'مشهد على نهر الستور' View on the Stour، إضافةً إلى عديد من مخطوطات

شاوسر[1]، وإنجيل غوتنبرغ[2] Gutenberg Bible، إضافةً إلى العديد من الأعمال البارزة في معرضه، كما كان لديه في ذلك المعرض حديقة جميلة تم تقسيمها إلى مناطق جغرافية ونباتية متخصّصة كحديقة الصبار الصحراوي الشائك، منطقة استرالية تزينها أشجار الكينا لكن دون حيوانات الكنغر، ومنطقة الأدغال حيث الصفوف المتراصة لأشجار الكاميليا، بالإضافة إلى الحديقة الشكسبيرية، والحديقة اليابانية التي اكتملت تفاصيلها بجسر شبيه للجسور اليابانية، وحديقة للشاي والصنوج، أيضًا حديقة زين الفلسفية الغامضة والتي هي في الغالب عبارة عن أرض مفروشة بالحصى مع عدد من الأحجار الكبيرة، كما كانت نخبة من الأعمال الفنية الأوربية في متناول اليد، إن لم تكن في معرض هانتغون، ففي أماكن كثيرة كمتحف باسدينا للفنون في كالفورنيا Pasadena Museum of California Art وفي متحف جي بول غيتي في ماليبو J.Paul Getty Museum أو في قصر هيرست Hearst Castle على الطريق إلى سان فرانسيسكو، وفي بعض الأحيان خلال تأملاتي للفن الأوروبي وبالأخص لوحة كونستابل، كانت تتملكني عواطف جياشة وحنين هائل للديار.

وسط ازدحام التفاصيل، كانت هناك مساحة ضئيلة لخفايا الحياة التي كنا على دراية تامة بها، تلك السماء الرمادية المألوفة لي، رثاثة الهيئة المحترمة، والمباني المتداعية، وعدم الثقة بالنفس، ومشاعر الاستعلاء، والألوان والمناظر الطبيعية، كما الأشخاص، وسلوكهم ولغتهم التي بدت لي واضحة المعالم، صادقةً وخاليةً من الفروق.

أما على صعيد الطعام، فقد كان متوافرًا بكثرة لكن محشوًا بالإضافات، وكنا سعداء بأشجار الفواكه في حديقتنا، والتي أوليناها رعايتنا لتأتي النتيجة بحصيلة اثنان وخمسون حبة أفوكادو سقطت من شجرة واحدة في نهايات أكتوبر/تشرين الثاني عندما كنا في سانتا باربرا. لنسارع عند عودتنا إلى التقاطها على عجل لتخزينها

(1) جيفري تشوسر (Geoffrey Chaucer، 1343-1400): شاعر إنكليزي شهير من القرن الرابع عشر. (المترجم).

(2) أول طبعة للكتاب المقدس من قبل يوهانس غوتنبرغ في القرن الخامس عشر. (المترجم).

في ثلاجتنا قبل أن يقوم البستانيون بعملية التنظيف الأسبوعية للحديقة؛ وفي شهر نوفمبر/تشرين الثاني كتبتُ لتحذير والدي مما هو محتّم ومتوقع:

والداي العزيزين

كلنا شوقٌ للقائكم في غضون الأسابيع القادمة، لكن ما آمله واتمناه حقًا هو أن تلتقطا أنفاسكما في هذه المدينة التي تخطف الأنفاس ولا تترك فسحةً لالتقاطها! نحيا هنا في دوامةٍ اجتماعية مستمرة انطلاقًا من كون منزلنا هو الأكبر والأقرب للحرم الجامعي ليتحول هذا العام إلى مصدر جذب لإمتاع مجموعات دارسي النسبية.

يمتلك كيب وليندا منزلًا جميلًا مبنيًا على الطراز الإسباني القديم في آلتادينا Altadena لكن موقعها خارج البلدة يجعل منها مناخًا ملائمًا لانتشار اللصوص بكثرة، بحيث إنه بمجرد شراء أي شيءٍ جديد فإنّ مصيره المحتم هو الاختفاء، المصير ذاته ستلقاه أيّة سيارة مركونة في الشارع، لتصبح أنشطتنا محصورةً في حفلات الكوكتيل والعشاء، وأمسيات احتساء الشراب، عدا عن حفلة لوسي التي أقيمت في عيد ميلادها والتي قامت بدعوة جميعا أصدقاء صفّها إلى جانب مدرسيها؛ سيحل عيد الشكر قريبًا ليصبح معه منزلنا قبلةً للعديد من الزوار، سأتولىّ إعداد الديك الرومي، أمّا المقبلات التقليدية كفطيرة القرع فسوف أتركها للأمريكيين الذين يتقنون صنع مثل هذه الأطباق ويتمتعون

بذائقة غريبة ونزعات يصعب عليّ فهمها، تأكيدًا لذلك حظينا في الأسبوع الماضي بزيارة عددٍ من الأشخاص لتناول العشاء في منزلنا، وصنعت لتلك المناسبة طاجن لحم البقر، ولدهشتي أضافوا حبات الفريز التي كانت موجودةً في وعاءٍ على المائدة إلى أطباق حسائهم.

ستجدون في انتظاركم عددًا من الأصدقاء الجدد الذين حظينا بمعرفتهم مؤخرًا، الزميلان القادمان من فيرتشيلد والمتخصصان في مجال ستيفن (بوب وآني ديكز) القادمان من جامعة برنيستون، واللذان يتقاسمان الشبه معكم في نواحٍ عديدة. بوب إنسان مثقّف وعازف بيانو ممتاز، أمّا آني فتمتلئ بمشاعر دافئةٍ تشبه بها حنان الجدّات، وفي كثيرٍ من الأحيان كنت أذهب برفقة الأطفال

لاحتساء الشاي معها، والسباحة في الحوض المائي الموجود في مجمع الشقق الذي يقطنون به والمعروف باسم (الوحدات السكنية).

هل سبق والتقيتما الزوجين الإسرائيليين القادمين من أدمنتون عندما جاءا إلى كامبريدج برفقة ابنهما البالغ من العمر عشرة أعوام وذلك في عام 1971؟ يتّسمون بفكرهم التحرّري الذي يتجلّى بوضوح في وجهات نظرهم، التي تنمّ عن ثقافةٍ معرفيةٍ هائلةٍ بعيدةٍ عن أيّ تكلفٍ أو ادّعاءٍ، إضافةإلى تمتعهم بروح دعابةٍ لطيفةٍ.

أرجو إبلاغ ما أنا بصدد الحديث عنه إلى كريس: عانى روبرت في المدة الماضية ألمًا في الأسنان، وتفاقم الوضعُ سوءًا لديه رغم زيارتنا لطبيب الأسنان الخاصِّ بالمدرسة، فما كان منا إلّا أن توجّهنا إلى طبيب أسنانٍ بنسخته الكاليفورنية، لنلقى أنفسنا في عيادةٍ فخمة ذات أرضية مفروشة بالسجّاد المخملي، وأرائك وثيرة، وأصص نباتات تزيّن زوايا المكان الذي صدحت به موسيقى مرحّبة. خرج الطبيب بعد معاينة أسنان روبرت ليطلعني على النتيجة قائلًا: «حسنًا سيدة هوكينغ»، ثم يصمت برهةً ليترك لكلماته الفرصة لأن تصبح نافذة المفعول: «ما نحن بصدده سيكون حتمًا استثمارًا جيدًا، أضراس هذا الشاب بحاجة إلى علاج سريع؛ تيجان فولاذية مقاومة للصدأ، ما يعني مئة وثمانين دولارًا». يمكنني أن أتخيّل رد فعل كريس على مثل هذه المحادثة الطبّية، لكن: هل باليد حيلة سوى دفع ما يترتب؟

وفي المكتبة المحلّية، كان لنا جولات بعد اشتراكنا فيها أنا والأطفال، لكن أكثر ما صدمني وأسعدني في الوقت نفسه هو اختيار روبرت كتابًا للقراءة يدور حول الإمبراطورية البريطانية، الأمر الذي أثار في داخلي مشاعر وطنية مفرطة.

شغفٌ آخر أدمنته، يعود الفضل في إحيائه إلى سيدة تدعى تريشا هولمز Tricia Holmes، التي قدّمتني إلى صف الكورال المسائي في باسدينا للتدريب أسبوعيًّا على قراءة النوطة غنائيًّا مع كورال كبير، كان الأمر غاية في الإثارة على الرغم من عدم إجادتي له. كنا نتنقل بين المقطوعات العالمية، حيث كانت البداية مع موسيقى براهمز، ثم موسيقى موزارت، لنتناول في وقتٍ لاحقٍ من هذا العام مقطوعة (سانت ماثيو باشن) st.Mattew Passion ليوهان سبستيان باخ، كان

الأمر أشبه بالطريقة الأمريكية المختصرة لزيارة أوروبا، يوم في باريس، ويوم في لندن، وربّما يومان إضافيان في فينيسيا.

أيضًا حظت لوسي بأنشطة متميزة برفقة ليزي ابنة تريشيا التي كانت في سن لوسي تقريبًا، لقد عادت الحياة لأحذية الباليه الصغيرة، وهذه المرّة بشكل جدي، فلا مزيد من اللهو بحركات عبثية على أنغام أغاني الأطفال، ولا مزيد من الدموع؛ بل دروس باليه حقيقية مع معلّمة أمريكية شابة وجدّية، لكن تحفظي الوحيد عليها يكمن في طريقتها غير الصحيحة ربما في تعليم لوسي. منذ رسالتي الأخيرة التي كتبتها إليكم، حلَّ ضيف جديد علينا في المنزل، مهاجرة بولندية شابة شغلت غرفة في منزلنا ريثما تجد مكانًا آخر للإيجار، إنّها آنّا زيتكوف Anna Zytkof عالمة فيزياء فلكية، بعد وصولها بمدة وجيزة اقترحت ممارسة لعبة تنس، وما أن بدأنا اللعبة حتى سقطت آنّا أرضًا وكسر كاحلها ما حدَّ من نشاطها دون أن يحدّ من إبداعها، ذلك أنّها صنعت بيت دمية مفروشًا ومصنوعًا بالكامل من الورق المقوى بمناسبة عيد ميلاد لوسي، في الواقع لم يكن بيت دمية عاديًا، بل تحفة فنّية مصنوعة بدقّة وإبداعٍ قلَّ مثيله، جاعلًا من بيوت الدمى المنتشرة في الأسواق والمحلات التجارية مجرد مشغولات بلاستيكية مبتذلة وخرقاء لدرجة مخيفة.

مع حلول عيد الميلاد تغادرنا آنّا اللطيفة، ليعجَّ المنزل في المقابل بالزائرين، حيث سيحلُّ علينا زائرًا جورج إيليس للبقاء معنا بضعة أيام عند عودته مع ستيفن من المؤتمر المقام في دالاس في الحادي والعشرين والثالث والعشرين من هذا الشهر، ولاحقًا ستنضم فيليبا هوكينغ القادمة من نيويورك حيث تعمل هناك.

سيكون لقاؤنا المنتظر على أرض المطار في تاريخ السادس عشر، فلتستعدّوا لحفلة ضخمة نحن بصدد القيام بها في الحادي والعشرين هذا الشهر، ولكل أنشطة نهاية الفصل الدراسي، وسيفاجئكم روبرت بقراءته عن معركة بنكرهيل.

حتى يوم لقائنا المنتظر لكم كلّ الحب.

ديسمبر، كانون الأول

جين.

في إحدى ليالي شهر ديسمبر كان ستيفن في دالاس لحضور مؤتمر مع الوفد المرافق له، وكنت وحدي مع الأطفال في المنزل، فاستيقظت جراء هزّة قوية هزَّت السرير والأرض من تحتي. وفي مثل هذه الظروف علينا أن نركض نحو الشرفة، لكن الرعب شلَّ حركتي وجمَّدني تمامًا. في النهاية تمالكت نفسي، وسارعت إلى تفقد الأطفال، ويا للدهشة! إنهم يغطّون في نوم عميق، فعدت أدراجي لأستلقي على السرير، حينها عادت الهزّة الأرضية لتضرب مجدَّدًا بصورة أقوى على العكس من الهزّات الخفيفة المنتظمة التي كانت ترتج لها النوافذ والأبواب بعد ظهر كل يوم، لم يتوقف الأمر هنا، بل استمر حتى عيد الميلاد بشكلٍ طفيفٍ تصعب ملاحظته (تمامًا كما حصل مع ستيفن في زيارته لإيران عام 1962، عندما غفل عن ملاحظة الزلزال الكبير الذي ضرب البلاد حينها لسفره عبر البلاد بوساطة باص، علاوة على أنه آنذاك كان مصابًا بالزحار).

اجتمعت العائلة بوصول ستيفن وجورج من دالاس، وأبي وأمي من بريطانيا، وشقيقة ستيفن فيليبا التي وصلت في وقت لاحق من نيويورك، وبدأت الأجواء الاحتفالية مع ما يقارب الأربعين شخصًا من زملاء وأصدقاء، وقضينا معهم وقتًا رائعًا امتد حتى الساعة الثانية صباحًا، وبوصفه دليلًا مؤكّدًا على تلك الليلة الاحتفالية الطويلة، التقطنا صورة لعالم الفيزياء كبير السن والمتميز للغاية ويلي فاولر Willy Fowler، الذي كان يمارس اليوغا على أرضية غرفة المعيشة في تمام الساعة الثانية صباحًا.

كان عدد المجتمعين في عشاء عيد الميلاد ستة عشر شخصًا، ما يعني جمهورًا عريضًا بالنسبة إلى الأطفال الذين أمتعونا بعروض الشعوذة الخاصة بهم، أمتعنا روبرت بأول محاولة بريئة وناجحة له في ألعاب الخفّة مع مساعده المتحمّس، حيث طرح الأحاجي وألقى الدعابات بطريقة مذهلة أدخلت الأطفال في عاصفة من الضحك، كان العرض ممتعًا رغم التناقض بين افتتاحيته المناورة الاحترافية التي بدأها بالعبارة المتداولة: «إن كنت ترغب في طرح الأسئلة، من فضلك قم بذلك بعد الانتهاء من العرض»، وبين صندوق حيله الفوضوي الطفولي تتجلى سعادته حين

تلاقي إحدى حيله النجاح، ويبدو غيظه المكبوت عند سرقة مساعده أحد العروض، ناهيك عن ابتسامته المحبَّبة لفمٍ خالٍ من الأسنان.

مع انتهاء أعياد الميلاد واستعراض جامعة باسدينا لرأس السنة، استجمعنا طاقتنا لأخذ العائلة لقضاء يوم كاملٍ في ديزني لاند، كانت طوابير انتظار الدخول طويلةً جدًّا، ما مكّن الأطفال من ركوب واحدة أو اثنتين من الألعاب فقط، وفي وقت لاحق اتخذنا مكانًا مميزًا في أحد عروضِ ديزني الباذخة، لكن ذلك العرض كاد أن ينقلب إلى شبه كارثة بالنسبة إلى لوسي الصغيرة، إذ -لسوء حظّها- قدَّمت لها الساحرة الشريرة التفاحة في عرض بياض الثلج، لتفرَّ خائفةً مختبئةً خلف تنورتي.

ومع بداية السنة الجديدة زرنا وادي الموت والحديقة الصحراوية التي تبعد عنه 300 ميل إلى الشمال الشرقي، ساعد وجود والديّ على تقاسم المهمات لقيادة الأسرة، الأمر الذي كان مصدر راحة عظيمة، اقتسمنا مهمة رفع كرسي ستيفن المتحرك والبطاريات الخاصة به من السيارة وإليها. إضافة إلى مدِّهم يد المساعدة في تسلية الأطفال وتلهيتهم ريثما أنتهي من تحضير ستيفن.

بعث فينا المشهد الطبيعي البدائي المُغرق بغرابته شعورًا من الرهبة، حيث تناثرت الكثبان الرملية مع الأحجار والصخور الناتئة الرملية اللون والمنتشرة في كلّ مكان حول الفوّهات البركانية.

كانت المسطّحات الملحية تحت مستوى البحر كل ما تبقى من البحيرة العميقة التي تعود إلى العصر الجليدي، أما الوادي فهو محاط من الجهات جميعها بالجبال المغطاة بالثلوج، التي كانت بطبقاتها الملوَّنة شاهدةً على اضطراباتٍ جيولوجية هائلةٍ حدثت منذ فجر التاريخ.

يُعدُّ وادي الموت الصحراء الأكثر حرارة في العالم في فصل الصيف، ويكاد يكون قاحلًا إلا من نباتات قليلة قادرة على البقاء على قيد الحياة وسط مجموعات الصخور

العدوانية، كنبات الإيلكس[1] والكريزوت[2] والصبّار، أما الكائن الحيّ الوحيد الذي صمَدَ أمام الملوحة الشديدة لبعض الجداول الضحلة فهو سمك البطحيشية[3] Pupfish الصغير جدًّا، الذي يعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

على الرغم من المنظر الطبيعي الساحر للوادي تحت الشمس الساطعة، إلا أن هذا المشهد لم يخلُ من بعض الرهبة، ربما يعود ذلك إلى الحكايات الحزينة لأولئك الذين حاولوا مرارًا عبور وادي الموت عام 1849، وما تبقى من أحلام المنقّبين عن الذهب القائمة في بقايا بلدة أشباح قريبة منه، ومع الصمت المهيب لهذا المكان؛ تركت والدتي ملاحظتها بمدى الحيوية والإصرار والقسوة والخشونة التي تمتّع فيها الرواد الأوائل لهذا المكان، وليس مستغربًا أن نجد تلك الصفات نفسها في الجيل الجديد في كاليفورنيا، وبالأخص النساء حفيدات الأوائل.

انتظرتنا عند عودتنا إلى المنزل مفاجأة لطيفة، كنا قد نظَّمنا حفلة وداع صغيرة لوالديّ، ومن قبيل المصادفة السعيدة توافقت تلك المناسبة مع احتفالنا بمنح الجمعية الفلكية الملكية ستيفن وروجر بينروز وسام إدنيتجون Eddington Medal، وهي جائزة عريقة ومرموقة لم نتأكد مما تدلُّ عليه حقًّا، وعلى الرغم من ذلك جاءت الجائزة في وقتها المناسب لتذكر ستيفن بدفع الاشتراكات المترتبةِ عليه للجمعية.

حزمت لوسي حقائبها بعد أن عقدت النية على مرافقة جدّيها العائدين إلى إنكلترا، وعندما تبيّن لها أن الأمر قد تم من دونها بعد أن أقلعت الطائرة، شعرت بسخط عظيم ما حتَّم علينا المسارعة إلى إنقاذ الموقف بشكل عاجل بالذهاب لأقرب منفذ كنتاكي فرايد تشيكن وتهدئة روعها.

(1) الإيلكس: نبتة ذات أوراق شائكة الأطراف بأزهار بيضاء صغيرة. (المترجم).

(2) الكريزوت: شجيرة بأزهار صفراء تنمو في بعض الصحاري. (المترجم).

(3) البطحيشية: سمك صغير يشبه الشبوط. (المترجم).

أصبح مارتن ريز Martin Rees رئيسًا للجمعية الفلكية وكلية ترينتي في كامبريدج، لكنه وبالعودة إلى عام 1975، كان واحدًا من أفضل الأصدقاء وألطفهم وأكثرهم تواضعًا، وقد وافق على احتساب أصواتنا في استفتاء دخول بريطانيا في السوق المشتركة. كان الأمر مجرد تزجية للوقت على الأرجح بالنسبة إلى ستيفن الذي كان بتصويته يسلبني تصويتي تلقائيًّا (لطالما كان ستيفن معتادًا على فعل ذلك). لكن في رأيي الخاص تبدو بريطانيا لي- وأنا في موقعي من كاليفورنيا- أشبه بجزيرةٍ أوروبيةٍ صغيرة، وأفضل ما قد تستطيعُ فعله هو الانضمام للسوق المشتركة، بدلًا من العيش على أمجاد الماضي السحيق وأطلال الإمبراطورية العظيمة، ولحسن الحظ ما تمنيته قد حصل بالفعل، رغم محاولة ستيفن سلبي صوتي.

في تلك الأثناء كان ستيفن على موعد مع المتاعب حين راهن كيب ثورن Kip Thorne بأنّ كوكبة الدجاجة[1] لا تحوي ثقبًا أسود، وإن أثبت ستيفن وجود الثقب الأسود فسيحصل على اشتراك لأربعةِ أعوام في مجلة (برايفت آي[2])Private Eye، من جهته رضيَ كيب باشتراكٍ لمدّة عام واحد في مجلة (بينتهاوس[3]) Penthouse إن ثبتَ -كما هو مرجَّح- أن تلك الكوكبةً لا تحتوي على ذلك الثقب الأسود. في مكانٍ آخرَ كان ستيفن يجري الاتصالات مع عالمي فيزياء الجسيمات البارزين: ريتشارد فانيمان Richards Feynman، وموري جيلمان Murray Gell–man، واللذين حاولا مواراة منافستهما المحتدمة خلف ستارة من السلوك المهذَّب.

كان ستيفن شاهدًا على إحدى جولات المنافسة في إحدى محاضرات دورة تولّى جيلمان إلقاءها، إذ أعلن بعد ملاحظته وجود ريتشارد فانيمان بين الحضور بأنه محاضراته ستستخدم لإجراء مسحٍ للبحوث الحالية في فيزياء الجسيمات، وشرعَ

(1) كوكبة الدجاجة: هي كوكبة في نصف الكرة السماوي الشمالي، تظهر بصورة أكثر وضوحًا في السماء خلال فصلي الصيف والخريف. (المترجم).

(2) مجلة بريطانية تُعنى بالكتابة الناقدة وهجاء الشخصيات العامة التي قد تُدان لفساد ما، أو عدم نزاهة، أو تباهٍ متعجرف. (المترجم).

(3) مجلة بريطانية إباحية. (المترجم).

بعدها في قراءة طويلة بصوت رتيب من دفتر ملاحظاته لمدّة امتدت عشر دقائق، وما إن غادر فانيمان حتى تنفس جليمان الصعداء، قائلًا: «وأخيرًا! يمكننا الآن الخوض في أشياء ذات قيمة حقيقية»، فانتقل بعدها إلى البحوث التي أجراها مؤخرًا وأحدث ما توصل إليه في فيزياء الجسيمات.

يكاد الشتاء في كاليفورنيا يكون غير ملحوظ، قد تمطر السماء في بعض الأحيان ولأيام قليلةٍ متواصلة، لكن سرعان ما تعود الشمس إلى توهجها وسط قبَّة السماء التي انقشعت منها الغيوم ليظهر المدى أكثر وضوحًا، وكاشفًا عن روعة قمم الجبال المكسوة بألق الثلوج.

جلب المطر الربيع إلى الوديان التي كانت ترابية اللون عند قدومنا، أما اليوم فقد اكتست بحلة خضراء جميلة، وتموَّجت الطرقات والمنحدرات بموازاة الشاطئ بزهورٍ برّية جميلة؛ من أزهار الخشخاش البرتقالية، ونباتات الترمس الزرقاء، والأقحوان.

لم ندع المطر يعيق أيًّا من أنشطتنا، فقد قمنا بمناسبة ميلاد جورج واشنطن في فبراير/شباط بالقيادة مسافة 350 ميلًا، وهي المسافة الأطول التي قطعتها في يوم واحد عبر دوامات السحّابات الجليدية في جبل بلامور Palomar وصولًا لأكبر تلسكوب في العالم، لنعبر بعدها وسط جوّ حار إلى صحراء آنزا بوريغو Anza-Borrego حيث تفتَّحت مجموعات من الزهور.

في شهر مارس/آذار قدمت إلينا والدة ستيفن وعمّته جانيس، فزرنا متنزَّه جوشوا الوطني joshua Tree National Park، وهو متنزَّه صحراوي على ارتفاعِ 3000 قدم، حيث تقع شجرة جوشوا بزهورها التي تشبه الزنابق، وعلى ارتفاع أقل تتوافر غابة الصبّار التي تُدعى الصبّار القافز jumping chollas، وهو اسم ملائم لها، ولم أنجُ من وخز ذلك الصبّار حين انزرعت أطراف أوراقه الشائكة في ساقي، وكأن الحادثة بديل عن الاحتفال بعيد ميلادي، خاصةً بعد هرس كعكة عيد الميلاد التي جلس عليها الأطفال في المقعد الخلفي للسيارة، على أنَّ الخبرة الطيبة للعمة جانيت قد ساعدت على إنقاذ ساقي من وخزات الصبارة المؤلمة، لكن الكعكة لم تُنقذ.

في إبريل/نيسان منح البابا بيوس الحادي عشر Pope Pius XI ستيفن الميدالية الذهبية للعلوم، حيث راقت للفاتيكان فكرة الانفجار الكبير بوصفها نقطة لبداية الخلق، وأخيرًا وجدوا في غاليلو بطلًا؛ بعد أن وجَّه ستيفن نداء خاصًّا في خطابه أمام الجمعية لإحياء ذكرى غاليلو بعد 333 عامًا من رحيله.

وفي الوقت الذي كان فيه ستيفن في زيارة له إلى أوروبا، زرت مع الأطفال وآني ديك Annie Dicke جزيرة كاتلينا Catalina Island، كان القارب الذي أقلَّنا إلى الجزيرة ذا قعر زجاجي أتاح لنا رؤية أعماق البحر، حيث اندفعت الأسماك في مراوغة ممتعة بين فروع الأعشاب البحرية التي نمت حتى ارتفاع عشرين قدمًا.

سحرنا الجمال الذي أحاط بنا من كل حدبٍ وصوب، تساءلتُ: «كيف للمرء أن يغفل عن هذا السحر الأخّاذ الصامت، وعن هذا العالم الذي يكتنفه الغموض والواقع تحت أقدامنا وعلى شواطئنا؟».

في زيارةٍ لاحقة لهذه الجزيرة سنة 1996م هالني ما شاهدت، لقد فقد هذا المكان الذي كان جوهرةً غير مكتشفة بكارته المتمثِّلة في الجمال البدائي للأبد، وتحولت جزيرة كاتلينا إلى جزيرة ملوثة تحت سطح المحيط تمامًا كما لو أنّها على اليابسة، وما حدث للجزيرة حدث لنا بصورة مماثلة لتأخذ حياتنا منحًى جديدًا.

مع اقتراب السنة المليئة بالأحداث الإيجابية من نهايتها، لم أستطع أن أمنع نفسي - رغم كل شيء- من تلمس الصدع الآخذ في الاتّساع، ليصبح الشّرخ واضحًا ما بين حياتنا العلنية المشرقة وظلامها من الداخل. وجدت نفسي -وجهًا لوجه- أمام محدوديتي، مجرد والدة قاصرة عن التقدُّم والتطور في الوقت الذي باتت فيه المرأة التي لا تملك عملًا بعد سنتين من ولادة طفلها فاشلة فشلًا ذريعًا، وتفتقر حتمًا إلى تحقيق الذات، دفعني اكتشافي لتلك الحقيقة إلى الدخول في سلسلةٍ من الأنشطة المحمومة، تيار متدفق من الزوار، ووصلات اجتماعية لا تنتهي، واستعارة كتب بشكل متواصل، وبطبيعة الحال، الأطفال وعالمهم الصاخب؛ ذلك كله شتَّت ذهني عن حقيقة ما يجري، وهو أنّ الحياة على مقربة من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا حمل

أثرًا محطِّمًا للمعنويات لأي شخص لم يكن ذا عبقرية علمية، لقد بات هذا المكان بمثابة المعبد الذي يُقصد لإقامة الصلاة في محراب العلم وبالأخص علوم الفيزياء، ونبذ كل ما عداه بما في ذلك (الزوجات).

كافح (نادي الزوجات) ببسالة للترفيه عن الأزواج من خلال القيام برحلات متعددة إلى أماكن متميزة؛ مثل متحف بول غيتي J. Paul Getty Museum، أو الذهاب بين الحين والآخر إلى حفلٍ موسيقي هنا أو حفلة مسرحية هناك. لكن رغم المحاولات كلها بقي عدم الرضى هو الجوهر السائد بين الزوجات الساخطات لعدم نيلهن السعادة، والسبب يعود لأزواج هاجسهم الوحيد يتجلّى في العلم.

عزمت على تجنب الغرق أكثر في دوامة المعهد، وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع، حين كان ستيفن غارقًا في نقاشاته التي لانهاية لها مع زميله جيم هارتل Jim Hartle، تمددت على الشاطئ، متدثِّرةً بالرياح الجليدية، غارقة بالنظر إلى البحر الذي يمتد أمام ناظري والأطفال الذين يلهون على مقربة مني.

داعبت الرمل المنساب بين أصابعي، وتساءلت: كيف انسابت حياتي من بين أصابعي؟ وما الذي أنجزته لنفسي خلال فسحة عمري التي امتدت ثلاثين سنة؟ نعم، لدي أطفالي وهم (نعمتي في الحياة) كما تدعوهم العزيزة ثيلما تاتشر، لديَّ زوجي الذي أشعر بفخرٍ تجاه إنجازاته بكل تأكيد، لكن لم أكن أشاركه تلك النجاحات رغم أن كل ما يحدث له هو أمر محوري لي، سواء أكان ذلك الشيء هو التكريم الذي حظي به، أو تألق الشهرة والمجد، أو حتى مصاعب الحياة التي صادفها؛ مثل تلك الاختناقات المباغتة التي كانت تهدد حياته على حين غرّة، أحببت ستيفن من أعماق قلبي لما تمتَّع به من شجاعة، وخفة ظل، وحس السخرية والعبثية، والكاريزما الشريرة التي لطالما مكَّنته من جعل معظم الناس - بمن فيهم أنا - خاتمًا في إصبعه، وكأنّما قد خُلقت لمهمة واحدة ويتعين عليَّ إنجازها، أن أكرِّس نفسي لأجل ستيفن، وأن أهبه ما أمكنني لكي أترجم العبقرية التي يتمتَّع بها واقعًا، لكن في خضمِّ هذه العملية التي نذرتُ نفسي لها بدأت هويتي بالتلاشي، فعلى الصعيد الدراسي لم يعد من الممكن أن أعدَّ نفسي متخصِّصة باللاتينية أو حتى مجرد لغوية، كما لم أحظَ بالاحترام في

أيِّ مكان سواء في كاليفورنيا أو كامبريدج، ربّما كانت كل تلك العلاقات الاجتماعية المسعورة التي سعيت لإنشائها هي في الحقيقة طريقتي الفردية في قول: «أرجوك، أعرني انتباهك».

التقينا للمرة الأولى بعائلة لها ظروف مشابهة هي عائلة الإيرلنديَّين: لوسي، وديفيد، وابنهما جون، الذين كانوا يقطنون في أركاديا Arcadia على بعد بضعة أميال من باسدينا، كان ديفيد عالمًا بالتدريب، درس الرياضيات وعلّمها، وكان وضعه مشابهًا لستيفن؛ فهو مُقعد إلى كرسي متحرك، ويعاني من إعاقة دائمة مرافقة لمرض عصبي، وبالكاد يستطيع أن يعتمد على نفسه، لكن امتلك كمًّا هائلًا من الإيجابية لمواجهة وضعه، في المقابل كانت جويس شخصًا نشيطًا منظمًا، قابلت ديفيد وتزوجته وهي على دراية كاملة بوضعه وحالته الصحية.

كان ستيفن يشعر بالتوتر إزاء مقابلة تلك العائلة، من جهتي فقد شعرت بالقلق الذي سيطر عليه ورغبت في حمايته، لكن برغم صدمته من حالة ديفيد، إلّا أنه كان قادرًا على رسم ابتسامة سعادة على وجهه بمجرد مقابلتهم، واستطعنا سويةً الحفاظ على الواجهة المشرقة للحياة الطبيعية؛ كنت أتساءل دومًا عن رأي عائلة ديفيد فينا، لربّما أعجبوا بتصميمنا وإرادتنا، لكن الواجهة المشرقة التي رسمناها بإتقان لم تخدعهم، إذ لا شكّ في علمهم بالكثير من المعارك والصراعات، لقد عكست معارك تلك العائلة في نواحٍ كثيرة معاركنا الخاصة، لكن بوجود فرق جوهري يكمن في نهجهم الذي اتخذوه في التعامل مع مرض ديفيد الذي شرّع أبوابه أمام نفسه وأمام العالم جليًّا واضحًا دون أي محاولة ترميم أو إخفاء وراء ابتسامات شجاعة، وأودع ديفيد لاحقًا روح الصراحة التي تمتع بها في كتابٍ قدَّم فيه نفسه إلى ابنه في حالة فارق الحياة قبل قدومه، أو قبل أن يكبر بما يكفي لأن يعرف ماهية الوضع. كانت تلك الكلمات الموجَّهة تحت عنوان: رسائل إلى طفل لم يرَ النور بعد صورة ذاتية صادقة تروي رحلة الوعي الذاتي في تصدي ديفيد لإخفاقه الأكبر ، حيث فشل في إخفاء أناه الحقيقية وراء الشعبية والشهرة، وراء المحيط الخارجي الممتلئ ضجيجًا، اكتشف ديفيد من خلال عمله في نهاية المطاف مستشارًا الإيمان المعزَّز بمحبة الله، تلك

المحبة غير المشروطة أو المقيدة بحدود الزمان والمكان، التي ساعدته على مواجهة المستقبل دون خوف أو شعورٍ بالمرارة.

كان لكتاب ستيفن الفضل في تصالحي مع ذاتي ومع دموع الإحباط، وحتى نوبات الغضب التي انتابتني خلال الجو الذي ساد فيه عدم الاكتراث وانعدام الوجود، وتفاقم تعبي بما يفوق طاقتي على الاحتمال، جعلتني كلماته أدرك أنّ كل ما يصدر عني من ردود فعل هي في المحصلة مشاعر طبيعية وسليمة انطلاقًا من عبارة مرّت في كتابه: «إنّها طريقتنا في إطلاق السموم التي من شأنها أن تصيبنا بمقتل»، في المقابل فإنّ رباطة الجأش وتمالك النفس وضبط المشاعر القوية وقمع عواطف الآخرين، جميعها حالات غير صحية لا بل خطيرة.

استطاع شخص آخر أن يصل بمحبة إلى الآخرين وهي روث هيو Ruth Hughs منظِّمة التطوع في معهد كاليفورنيا، المسؤولة عما يقدّمه الزوار للأطفال من ألعاب ودراجات. كانت روث لاجئةً من بطش النازيين، وتمتعت بحسٍّ عالٍ من الإدراك، اهتمت بي وبالأطفال، وصدمتني يومًا حين قُدِّمت لها، حيث قالت إنّها رأت ستيفن للمرة الأولى في النادي الثقافي للكلية، وبينما راح الجميع يشيد بشجاعته وتألقه في بلدٍ يمدح الناجحين فقط ويستهجن الفشل والفاشلين، حينها أسرَّت في نفسها بأنّ وراء ذلك الرجل ونجاحاته شخصًا ما يوازيه شجاعةً؛ وهو السبب في تلك النجاحات، لم يقل لي أحد من قبل مثل هذا. صدمني الأمر في الصميم، وعندما كُرِّم ستيفن بالميدالية البابوية لاحقًا قدمت لي روث بالمقابل بروشًا من اللؤلؤ.

2
السكن

قبل مغادرتنا كامبريدج إلى كاليفورنيا في صيف عام 1974، أدركت أنها المرّة الأخيرة لنا في منزل شارع سانت ليتل ماري، فقد أصبح ذلك المنزل أصغر من أن يتسع لنا جميعًا بوصفنا عائلة بدأت بالنمو، إضافة إلى أن المنزل بأدراجه القديمة بات محفوفًا بالمخاطر بالنسبة إلى ستيفن، لكن في عملية البحث عن منزل بديل اصطدمنا بحاجز تمثَّل في قلة العقارات السكنية في كامبريدج التي يسهل الوصول منها إلى وسط المدينة، لذلك بقيت مشكلة الانتقال قائمة على الرغم من سعر المنزل المعقول في السوق المفتوحة، لكننا لم نكن نتحمل كلفة شراء منزل أكبر مساحة وأكثر ملاءمة، وفي الوقت ذاته على مقربة من قسم ستيفن، وبالتأكيد ليس في المكان الذي سبق لستيفن وإن سكن فيه في المدة التي سبقت زواجنا، إضافة إلى أنه لم تعد تنتابني أيُّ مخاوف من الاقتراب من جامعتي كيوس وجونفيل اللتين استحوذتا على المجد الذي حققه ستيفن من نجاحاته المتتالية، فمن غير المرجح أن نعامل باللامبالاة القاسية نفسها التي أظهروها لنا في الستينيات حين كنّا مجرد شابين يافعَين، ومجهولَين نكافح من أجل معيشتنا.

عرفنا أن أمين الصندوق لم يعد يتعامل في تأجير عقارات الكلية، فلحسن حظنا استولى عليها القسُّ جون ستردي John Sturdy الذي كان قد عُيِّن عميدًا قبل مدة وجيزة من تنصيب ستيفن زميل بحوث في أكتوبر/تشرين الأول عام 1965، والذين أصبحوا أصدقاء لنا منذ ذلك الوقت، ويقدّمون لنا الدعم اللازم، ويعتنون بالأطفال عند الحاجة لذلك، كان جون دارسًا مولعًا بالعبرية، وجد في زوجته جيل نصفه الآخر المتمم له؛ حيث كانت امرأة عملية صاخبة. في السنوات التي انتظرنا فيها مجيء روبرت كانت عائلة ستردي تنتظر ولادة طفلها الثالث، وقد تبنَّت هذه العائلة على مدى السنوات الخمس عشرة اللاحقة تسعة أطفال من جميع الخلفيات والألوان والأعراق، كما نالت جيل شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية، وخضعت بعدها

لدورة تدريب المعلمين، وأنشأت مدرستها الخاصة لتدعم عائلتها الخاصة وتثقّفها. في عيد الميلاد نظّمت عائلة ستردي في الكلية حفلة لأطفال الأعضاء والموظفين جميعهم؛ سواء كانوا زملاء أو موظفي مطبخ أو عمال نظافة، وساعد جون ابنه البكر كريستيان على ارتداء زي بابا نويل، لتبدأ بعدها فقرة الألعاب ولعبة الكراسي الموسيقية بصخبٍ مليء بالفرح حول المائدة العالية.

على الرغم من ثقتي بجون وتعويلي على تعاطفه معنا، إلا إنّني لم أمنع نفسي من الدهشة حين سألني: «هل فكرتِ في المكان الذي ترغبين في العيش فيه؟»، شعرت بأنّ الخيارات المتوافرة لدي غير محدودة؛ أخبرته لاحقًا في مناقشة انعقدت في يونيو، تموز عام 1974 بأني أرغب في العيش في مكان ما من غراند رود دون أن أعلق آمالًا كبيرة، وجاءني الجواب هادئًا بسيطًا: «حسنًا دعينا نلقِ نظرة على العقارات في تلك المنطقة علّنا نحظى بشيءٍ مناسبٍ لنا».

شاهدنا عددًا كبيرًا من المنازل على الجانب الغربي من كامبريدج على تخوم القرية الفيكتورية لمنطقة نيونهام Newnham، التي كانت فيما سبق ملك العائلات التي سكنتها لتتحول لاحقًا إلى عقارات تابعة للكلية، تفاوتت المنازل؛ فبعضها بعيد جدًّا عن قسم ستيفن، والآخر كان على مقربةٍ من الطريق الرئيس، وكان الطابق الأرضي في بعضها صغيرًا بما لا يكفي لحركة الكرسي المتحرك. بعد بحث طويل استرعى انتباهي منزلٌ على الطريق الغربي ينتصب بلمسته الفيكتورية الواثقة وسط حدائق كبيرة مجاورة لمحكمة هارفي، حيث التطور الرهيب الذي تجسد واضحًا في عمارات كامبريدج الحديثة.

كنّا على دراية تامة بتلك الحدائق، فهي المكان الذي احتفلنا فيه بعيد ميلاد روبرت. كانت أمي تتولى أمر الكعكة الضخمة المزيّنة بسخاء، فيما جهّزت مع والدي ما يكفي من الألعاب والتسالي لإمتاع ما يزيد على اثني عشر طفلًا مدة تزيد على الساعتين، أما أعياد ميلاد لوسي فتأتي في فصل الشتاء، وتتطلب تحديًا أكبر في إضفاء التعديلات على الطابق الأرضي من شارع ويست رود 5 (West Road 5، حين

كان المكان يلائم الجميع بعدد كاف من الغرف الواسعة والمضاءة بشكل جيد لاستيعاب الأسرة، بالإضافة إلى المرافق الضرورية الأخرى جميعها.

كان المنزل يقع على مسافة من قسم ستيفن أكثر من المسافة بين القسم وليتل سانت ماري، لكنها بقيت مسافة مقبولة، وهي المسافة نفسها إلى مدرسة لوسي. كان في الحدائق المنتشرة في المكان مجال للحفلات والألعاب المختلفة وبالأخص الكريكيت، التي لم تكن مرغوبةً في مدرسة سانت ألبانز، لكنها الآن مناسبة تمامًا لتنشئة ابني.

تعرَّض المنزل في أوائل السبعينيات لتهديدات غامضة بالهدم، وخُصِّصت الأرض التي ينتصب فيها البناء موقعًا محتملًا لكلية روبنسون الجديدة، واتضح لاحقًا أنَّ المساحة صغيرة جدًّا، وأنَّ المنزل خُصِّص قبل نحو خمس سنوات فتحوّل إلى فندق عائلي، وعندما انتهى عقد الإيجار استخدمته الكلية سكنًا جامعيًّا، وأعطي الطلاب فرصة اختيار الألوان التي يريدونها، ولذلك كان لغرفة الطعام الفيكتورية الجميلة سقف أسود وجدران قرمزية، لم يزعجني هذا كثيرًا، فطبقة الطلاء سطحية ويمكن تغييرها بسهولة، على أي حال نالت أبعاده المناسبة إعجابي، فوقع اختياري عليه في نهاية جولتي على المنازل المتاحة ودون أدنى تردد، وبالمناسبة، أُسكِت الفصيل المنادي بهدم المباني في الكلية، بما في ذلك هذا المنزل المبني قبل عام 1960، واستمرت المفاوضات دون أي عقبة تذكر، واتفقنا على أن نشغل الطابق الأرضي في المبنى بعد عودتنا من كاليفورنيا عام 1975، وستستخدم الكلية منزلنا في ليتل سانت ماري سكنًا للزملاء بعد أن خففت نظامها الداخلي بما يسمح للزملاء بالإيجار.

خلال مدة غيابنا أُنشئت الجدران الداخلية بهدف فصل الطابق السفلي الخاص بنا عن الآخر العلوي المخصَّص للطلاب الجامعيين، وأجريت تغييرات جذرية في ديكور الشقة الجديدة، وأقيمت الممرات المنحدرة على الباب الأمامي وباب الحديقة، وتولّيتُ بنفسي مهمة توجيه هذه العمليات عن بعد من موقعي في كاليفورنيا، وجنَّدت لهذه المهمة توبي تشرش Toby Church؛ الطالب النشيط الذي لم تحدَّ إعاقته من إبداعه، كان توبي يعاني شللًا في أطرافه السفلية، ويفقد القدرة على الكلام. وظَّف توبي خبرته الهندسية في تكييف البيئة المحيطة به بما يناسب حاجاته الخاصة، وبما

يتيح له القدرة على الاعتناء بنفسه -مع مساعدة ضئيلة من الممرضات- وليبني أيضًا اختراعه المتميز ألا وهو الكاتبة الضوئية، وهي لوحة مفاتيح حاسوب محمول صغيرة الحجم مع شاشة رقمية تمكِّنه من كتابة خطاباته، ولسوء الحظ لم يكن هذا الاختراع ذا قيمة بالنسبة إلى ستيفن، فعمل لوحة المفاتيح هذه يتطلب الكثير من البراعة، في الوقت نفسه لم يعطِ توبي أيّ اهتمام بالكراسي المتحركة الكهربائية؛ لأن تركيزه جلّه كان منصبًّا على إبقاء عضلات ذراعيه في حالة جيدة من خلال تسخيرهما لخدمته، لكنه أقحم نفسه بوصفه وسيطًا عني في ويست رود مرّات كثيرة خلال صيف عام 1975.

وفي النهاية حانت الساعة لوداع كاليفورنيا والحياة الأمريكية، وأن نعود إلى الديار، وإنه لأمر يبعث على السرور أن يحيا الإنسان في أماكن مثل هذه يحيط بها الجمال من كل حدبٍ وصوب، وعلى مدار ستة عشر عامًا، أدركنا مدى حسن حظنا حين أتينا إلى هذا المنزل. كانت عودتنا من أمريكا إلى هذه الأماكن المحاطة بالجمال سببًا في السعادة، وعلى مدار ستة عشر عامًا كنا واعيين لحسن حظنا في قدرتنا على العيش في مثل هذا المنزل بحجراته الواسعة، وسقفه العالي المزدان بأفاريز جصّية زخرفية، وورود منقوشة في الوسط حول تجهيزات الإضاءة، ونوافذ مطلّة على شريطٍ طويلٍ من العشب الإنكليزي الحقيقي المؤطّر بالصنوبريات المختارة بعناية مع مجموعةٍ من الأشجار الموسمية؛ منها شجرة طقسوس[1] كالحة مظلمة اختلطت أوراقها بسعف صفصافة، وشجرة سيكويا عملاقة (شجر أحمر كالفورني) نصب حديثًا وأدخل إلى أوروبا عندما شُيِّد المنزل ليرتفع فوق منبت زجاجي في إحدى زوايا المنزل، يناجي شريكه في الحديقة، وثنايا شجرة تويا أو كما تدعى شجر الأرز الأحمر[2] لها ارتفاع مشابه في مكان قصيّ من الحديقة.

(1) الطقسوس: شجر دائم الخضرة من الفصيلة الصنوبرية بأوراق منحنية، وقد يصل ارتفاعه إلى 15 مترًا. (المترجم).

(2) شجر الأرز الأحمر: شجر من العائلة السروية، دائم الخضرة وكثيف التفرعات. (المترجم).

وشجرة أخرى وافرة الثمر زيَّنت إحدى أركان الحديقة، وهي شجرة تفاح قديمة بفروع كثيرة العقد أنتجت لنا محصولاً وفيرًا كل عامين من أكتوبر/تشرين الثاني إلى ديسمبر/كانون الأول، فقد كانت الأرض أسفل الشجرة تتحول إلى سجادة مفروشة بالتفاح الفائض عن الحاجة (هذه المرة لم يكن تفاحًا ناضجًا بما يكفي)، تحول الأطفال إلى ما يشبه جوقة على مائدة العشاء مع ابتسامة والدهم المتواطئة الخبيثة، الذي صرَّح بأنه يتحسَّس من الفاكهة المطهية، ومع حلول فصل الصيف تصبح الفرصة مواتية لنتمتع بفردوسنا الخاص، ونبدأ بنصب شبكات النوم بين أشجار الحديقة، حبال تسلق تمتد بين فروع شجرة التفاح يحلو الجلوس أسفل أغصانها للاستمتاع بغناءِ شحرور قد استقرّ داخل جذعها الأجوف. إلى الجانب الأيسر من شجرة التفاح، تموضع الحد العشبي ذو الشكل المقوس بظلال شجيراته المزهرة: الليلك الأرجواني، واللوز، والزعرور.

واحتفظت حديقتنا بجمالها الأخّاذ حتى في فصول الشتاء القاسية، وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء التي شهدت هطولاً مستمرًّا للثلوج نظرت من خلال الستائر الثقيلة المنسدلة لغرفة المعيشة، فتملَّكتني الدهشة من جمال ما رأيت، ذلك التحول الذي أصاب الحديقة البنيّة الرطبة، بعد سقوط ثلجي كثيف وانقشاع الغيوم التي كشفت عن سماء يزينها بدرٌ مكتمل، وسط غطاء من النجوم التي ازداد لمعانها بعد هطول الثلج الذي كسا العشب والأشجار بنقاء ساحر باهر.

مما لا شكّ فيه أن هذه الحديقة كانت قد شَهدت أيامًا لا تُنسى، وعلى الرغم من حشيشة الأفعى المنتشرة في أرجاء المكان إضافةً إلى البيلسان الأرضي، فإنّ المكان لا يزال يوحي بأمجاده السابقة، بأشجاره المعمِّرة التي زرعت على أنها جزء من خطة شاملة تعود ربما إلى قرن من الزمن حين بني المنزل، كانت الحديقة بحاجة إلى عناية دائمة لتحافظ على ألقها وجمالها، ولذلك الغرض طلبت المساعدة من بستانيّ الكلية جيرمي برين الذي بذل جهده في محاولة جزِّ الأعشاب الضارة والتخفيف من انتشار عشبة الأفعى.

وتعقيبًا على اهتماماتي الزراعية، أشاد زميل ستيفن في البعثة والعامل في مكتبة الكلية بجهودي المبذولة، واقترح بأن انتخَب للجنة بستنة الكلية بناءً على ملاحظته بأن أعضاء تلك اللجنة لا يمتلكون القدرة على التمييز بين الهندباء والنرجس البري. وبالطبع قوبل الاقتراح بالرفض، ذلك أنّه لا يمكن لشخصٍ من غير الزملاء- ناهيك عن كوني زوجة- أن يُنتخب في لجنة الكلية.

منذ لحظة وصولنا في خريف عام 1975، تحوَّل المنزل وحديقته إلى معرض حماسي لحفلات لا تُعدُّ ولا تحصى؛ من احتفالات الأسرة وحفلات عيد الميلاد إلى مناسبات الواجبات، وهي مناسبات جمع تبرعات بعد أن انضممت إلى العمل الخيري، ومن صباحات القهوة والأمسيات الموسيقية، وحفلات الأقسام، وحفلات بداية العام الأكاديمي ونهايته، واستقبالات العشاء، وحفلات الشاي على العشب مع شطائر الخيار، وأمسيات الرقص الشعبي، وحفلات الشواء والألعاب النارية؛ كانت تلك المناسبات موضع متعة ومحلَّ تقدير، لكنها في الوقت ذاته تطلَّبت منّي جهدًا كبيرًا قمت به دون تلقي أي مساعدة لصنع تلك الولائم حتى وقت لاحق في سنوات قادمة، وفي بعض الأحيان كان يأتي برفقة الضيوف الرسميين أشخاصٌ لم تُوجَّه إليهم الدعوة، متطفلون متملقون، ظنُّوا أنَّني خادمة المكان بسبب المئزر الذي كنت أرتديه، فيتجاسرون بطلب كأسٍ آخر من النبيذ أو شطيرةٍ أخرى، غير مدركين أنّ تلك التي ترتدي المئزر وتخدم الحفل هي مضيفة الحفل.

ظهر لنا أنّنا نحيا في بيئة لها امتيازات ولا تخلو من السلبيات، فالمنزل مهدَّدٌ بالهدم رغم إشغالنا له، ولم يُسمَح لنا بأعمال الصيانة إلا في حدِّها الأدنى بعد انتهائنا من الترميم على نفقتنا، أما نظام التدفئة الذي يعتمد على المشعات الفيكتورية فلم يمنحنا سوى القليل من الدفء في فصل الشتاء، خاصة عند هبوب الرياح الشمالية ونفثها النسمات الجليدية من ثغرات النوافذ والأبواب، وانبعث الدخان من تمديدات التدفئة المكملة لعمل المشعات، أما التمديدات الكهربائية فظهرت غريبة الأطوار بمزيجها غير المتآلف من مآخذ حديثة التركيب مع أسلاك قديمة لم يُعرف مصدرها.

بدا سقف المنزل آيلًا إلى السقوط في أي لحظة، وقد استطاع والدي -رغم تاريخه الحافل بانهيارات العديد من الأسقف- أن يتجنب انهيارًا محتملًا بنعمة من الله حين كان في مكان آخر، فلم يتعدَّ الأمر سوى الأضرار المادية. وفي حادث آخر مرَّ دون أن يلحق الأذى بأحد في إحدى ليالي يوليو / تموز عام 1978م، عندما سقط سقف غرفة المعيشة مجلجلًا وسط سحابة من الأوساخ وغبار الجص ساحقًا نظام (الستيريو)، ومحولًا إياه إلى قطع صغيرة، ولحسن الحظ كنا قد أوينا للتوِّ إلى سريرنا، وأيضًا لم يكن أحد في الحمام حين انهار سقفه بعد مدة وجيزةٍ.

لم تكن حال المنزل في الخارج أفضل منها في الداخل، فقد تساقطت أحجار القرميد الواحدة تلو الأخرى، وبقينا تحت رحمة هذا الوضع الكارثي حتى عام 1982، حين زارنا صاحب السمو الملكي دوق أدنبره ورئيس جامعة كامبريدج في الوقت المناسب، دفعني خوفي من احتمال سقوط قرميدة على رأسه الملكي عند دخول سموه من الباب الأمامي إلى طلب تركيب شاشة واقية من الشباك، توضع حول مزاريب السقف، وقد أخذت هذه النقطة بعين الحسبان، فأُعيد بناء سقف المبنى بعد أشهر عدة، وحصلنا على تجهيزات حمام جديدة، ذلك كلّه بفضل الزيارة الملكية.

شغلت عائلتنا الطابق السفلي من المنزل، وشغل الطلاب القسم الأعلى بمدخلهم المستقل عن مدخل المنزل، أما الفئران فسكنت الأعماق المظلمة للقبوِ الغارق في المعدات التي تنتمي لنادي الكهوف الجامعي، لكن تلك الفئران ظلت بعيدة عن لوسي بعد اقتنائها قطًّا مفترسًا، فكانت هذه الفئران أكثر تعايشًا مع الطلاب.

شكَّل الطلاب مجموعةً بهيجةً وديةً تمامًا كما يتمنى المرء، تعرفنا إليهم في المناسبات التي دعوناهم فيها لتناول شراب، أو حين نلتقيهم في الحديقة في منتصف الليل، عندما كان إنذار الحريق الذي ينطلق دون سبب وجيه يجبر مَن في المنزل جميعهم على الخروج، ولكن بطبيعة الحال كان نمط حياتهم وروتينهم اليومي وعاداتهم تختلف -في معظم الأوقات- عن عاداتنا، خاصةً جلَبتهم وصداماتهم وصيحاتهم الغاضبة.

وصلت المنزل في إحدى المرات ساعة الغداء، قبل ربع ساعة من زيارة متوقعة لبعض أبناء عمومة ستيفن قادمين إلينا من نيوزيلندا، سمعت صوت تدفق المياه لحظة فتح الباب بالمفتاح، ثم صدمتني رائحة عفن قوية، عبرت القاعة إلى المطبخ لأجد الأرضية غارقةً بالمياه، أما أفضل أطباقنا وأوعيتنا التي وضعتها في الخارج استعدادًا للزيارة المتوقعة، فامتلأت بالقاذورات، وسبحت الجبنة والطماطم والخس والخبز في بِركٍ رمادية من سقف المطبخ.

لم نكن على اطلاع بسلبيات المكان الجديد، عندما نظَّفت ووالدتي بيت ليتل سانت ماري لتسليمه إلى الكلية سبتمبر/أيلول 1975، ورتَّبنا ممتلكاتنا تحضيرًا لنقلها إلى منزلنا الجديد؛ كانت حياتنا ما بعد محطة كاليفورنيا قد تغيَّرت بشكل دراماتيكي. لقد عدنا إلى إنكلترا لنحيا حياة الأحياء السكنية، التي كانت أقرب لمنزلٍ فخمٍ مصغَّرٍ أو بيتِ سيدٍ، أيضًا كان ستيفن متأكدًا من حصوله على رتبة قارئ بعد أولِ مشاركة رسمية له في الجامعة، ومنذ وجودنا في الخارج سرت شائعة مفادها أنَ بقاءنا في كاليفورنيا من أجل منفعة، وما إن تناهت الشائعة إلى مسمعي حتى حضر في ذهني قول من الكتاب المقدس معناه أن «لا كرامة لنبيّ في أرضه حتى يثبت صحته»، أما رتبة القارئ فقد استعيض عنها بكرسي شخصي، ليتجسد الحلم أبعد مما أراده ستيفن، وأبعد من ذلك انتظرت الجامعة عودته بفارغ الصبر، جلب هذا المنصب معه حاجة ماسة إلى وجود سكرتيرة هي جودي فيلا Judy Fella، التي قدمت بشخصها من الحيوية والنشاط ما يكفي لإدخال التألق على العوالم الباهتة لقسم الرياضيات التطبيقية والفيزياء النظرية، عملت جودي مع ستيفن لسنوات عديدة بولاءٍ وكفاءة لا تعرف الملل، في النهاية أصبح هنالك شخص قادرٌ على تولي إدارة حياة ستيفن الرسمية في إنكلترا، تمامًا كما فعل بولي غراندمونتن Polly Grandmontagne في كاليفورنيا. طبعت جودي أوراقه، حتى تلك التي بدت مثل طلاسم لا قابلية لفكها، ورتبت مواعيده وأسفاره وحجوزاته، وكل ما يتطلب العمل بدوام كامل بعد أن تحول إلى نجم مطلوب.

لم تكن أمريكا متميزة في تملقها للنجاح، في المقابل كان لبريطانيا تملقها الخاص لكن بطريقة أكثر سرّية يغلفها احترام خجول، حيث تعاقبت المؤسسات العلمية محاولة نيل الصدارة في تكريم ستيفن، ومنحه أكثر الميداليات المرموقة؛ خشية التفوق عليها في مباراة ازدحمت بمن يريد الاعتراف بالنجم العلمي اللامع الذي أضاء آفاقهم، وعلى مدى السنوات المقبلة وفي مناسبات عديدة يأتي والدي إلى كامبريدج لإحضار الأطفال من المدرسة، في حين كنتُ آتي بستيفن من القسم وأنا أحمله وأحمل الكرسي المتحرك إلى السيارة، ومن ثم الانطلاق إلى بعض فنادق لندن الفاخرة، مثل سافوي Savoy، أو دورشيستر Dorchester، أو غروسفينور Grosvenor، حيث كانت تجري مراسم التكريم.

وانطلاقًا من كوني المرأة المتعددة المهمات، حيث كنت السائقة والممرضة والخادمة وحاملة الأكواب والمترجمة والزوجة المرافقة أيضًا، كنت أجد نفسي مجبرةً على أن أحجز ليلة واحدة في إحدى تلك الفنادق، الأمر الذي من شأنه أن يخفِّف حجم الضغط الهائل. وأخيرًا عندما نتغلب على العقبات جميعها الفاصلة بين فحوى أعراف الحياة في كامبريدج والمشهد الاجتماعي اللندني كنا نظهر في الحفلات والأمسيات، متأخرين دومًا، بلباسٍ أنيق (الزي كامل مع ربطة العنق الفراشية التي أصر ستيفن على ارتدائها)، لندخل القاعات المتلألئة تنتظرنا صفوف المثقفين العلميين وطيف متنوع من الشخصيات.

كانوا جميعهم ساحرين للغاية، برفقة زوجاتهم اللطيفات، ولكن بالنسبة إليّ ظهروا مسنين نوعًا ما، بل أكبر من والدي،لم يكونوا من صنف الناس الذين ألتقيهم عادةً في الشارع أو عند بوابة المدرسة، حيث يكون هناك أصدقائي الحقيقيون، وكان هؤلاء الأشخاص أنفسهم جنبًا إلى جنب مع نخبة مشاهير لندن موجودين أيضًا في مناسباتٍ اجتماعية بارزة أخرى، بالأخص أمسيات الحديث عن الفنون، وأمسيات فصل الصيف في اجتماعات رويال حيث الأغنياء والمشاهير يتأبطون أذرع بعضهم بعضًا دون هوادة للخروج وسط ازدحام المكان بالعصائر والمقبلات، في حين كان القائمون على المعرض من العارضين يقفون أمام معروضاتهم التي أُعدت بعناية

كأنهم حراس صبورون، ينتظرون انتهاء هؤلاء من جولاتهم لإيلائهم بعض الاهتمام في بحثهم المضني.

أثار السحر الاصطناعي لمثل هذه المناسبات مزيجًا من المشاعر المتناقضة في نفسي، المتعة والغضب في آنٍ معًا، ففي حين كنت أقضي وقتًا طيبًا في تلك الأمكنة، كنت أعلم علم اليقين أنَّ الساعات المقبلة لا تحمل بين طياتها من هو مستعدٌ للقيادة بنا إلى المنزل بعد منتصف الليل، وأن ليس هنالك من سيمدُّ يد العون لوضع ستيفن في السرير، ونعود في اليوم التالي إلى الروتين المعتاد: تجهيز ستيفن، وإطعامه وجبة الفطور مع الشاي، وأدويته، لأغسل بعدها وجبة أو اثنتين من الملابس المتسخة في الغسالة قبل أن أنطلق في تقشير البصل والبطاطا للوجبة التالية، في أثناء ذلك ألقي نظرةً على برج مكتبة الجامعة الذي يظهر في الطريق ملوِّحًا لي في الأفق بأصابع الاتهام، كتذكيرٍ صامتٍ وبليغٍ لأطروحتي المهملة.

بالطبع عند عودتنا من أمسياتنا لن يكون هناك حذاء سندريلا الكريستالي، لكن على الرغم من ذلك ستكون هناك ميدالية ذهبية لامعة، موضوعة على سرير من الساتان المخملي لتذكِّرنا بأنّ الليلة الفائتة لم تكن مجرد حلم عابر، حتى تلك الميداليات اختفت عن الأنظار بعد يوم أو يومين، فقد كان المنزل فريسة لسرقات انتهازية بسيطة تحدث بين الحين والآخر (سُرقت حقائب اليد من القاعة، والدراجة من الشرفة)، أما الميداليات التي كان يتعيَّن أن تودع في خزنة المصرف فنادرًا ما رأيناها مرة أخرى.

3
كنز رفين

يبدأ واقع الحياة اليومية من الليلة السابقة دومًا، بعد أن أناول ستيفن أدويته وأضعه في سريره، وأحضِّر فطور الأطفال. أصابت حماسة روبرت للاستيقاظ المبكر هدفها الحقيقي بعد طول انتظار، إذ أصبح أهلًا للثقة، يتناول فطوره بنفسه ويشرف على شقيقته، وفي الصباح كنت أساعد ستيفن على النهوض من سريره، ألبسه، وأقدم له كوب الشاي وفيتاميناته الصباحية، وبعدها أوصل لوسي إلى مدرستها على دراجتي، وأعود محمَّلةً بأغراض التسوق في طريق عودتي، وفور وصولي أقدم لستيفن إفطاره وأحضِّر له حاجاته الشخصية قبل ذهابه إلى العمل.

بعد تذوقه طعم الحرية التي وجدها في كاليفورنيا، لم يكن ستيفن ينوي تحمُّل إحباطات دفع الكرسي المتحرك، فما كان منه إلا أن تقدم بطلب إلى وزارة الصحة لنموذج كهربائي سريع للكرسي المتحرك، فقد كانت هذه الأجهزة - وفقًا للدعاية - متاحة مجانًا، بيد أنَّ الحقيقة لا تتفق مع ما وعد به الإعلان، ولم تفلح كل قوى ستيفن بإصراره المستمر وإلحاحه الدائم لتغير رأي المسؤولين في هذا القسم الحكومي بمنحه مبتغاه، خوفًا من أن يشكِّل ذلك سابقة من شأنها أن تفتح الباب على مصراعيه لمتقدمين مماثلين.

قالوا له إن بإمكانه تقديم طلب آخر للحصول على كرسي بعجلات ثلاث تحركها بطارية سيارة، لكن ستيفن يفتقر الآن إلى القوة التي تعينه في السيطرة على مثل هذه الكرسي، كما اقترحوا عليه كرسيًّا متحركًا كهربائيًّا، ولكن بنسخته البطيئة المصمَّم للاستخدام في الأماكن المغلقة فقط، تمامًا كالنموذج الذي اشتراه الصندوق الخيري، حيث كان ستيفن يملك واحدًا مشابهًا له في المعهد، وبذلك أهدرنا ساعات ذهبت سدى دون الحصول على الكرسي الكهربائي.

يعود الفضل في ذلك لدولة الرفاه التي نحيا بها، والتي أسهمت بأقل الممكن لتصنع رفاهيتنا حتى يكاد المرء يعتقد أن الهدف من كل ذلك هو منع المعوقين من العمل بكامل طاقتهم، ومن ثم من المساهمة كدافعي ضرائب في الخزينة الوطنية، وكان أفضل ما وهب لنا حفنة من الفيتامينات تبعًا لوصفة طبية مع الحد الأدنى للدعم المادي والعملي والمعنوي.

حتَّم علينا ذلك كله أن نصبح أكثر اعتمادًا على الأسرة ولفيف من الطلاب والأصدقاء؛ لننجح في معركتنا اليومية بأن نبقى بمثابة عائلة، وفي النهاية استطاع ستيفن الحصول على الكرسي الكهربائي الذي أراده -عن طريق الأموال الخيرية، وليس من خلال خدمة الصحة الوطنية- ويرافقه بحذر إلى العمل كل صباح أحد طلابه، فيتأمل جمال الطريق على امتداد كلية الملك، الذي تزدهر فيه أزهار الثلج في فصل الشتاء والنرجس البري في الربيع، عن طريق النهر فوق جسر همباك humpbacked bridge، والخروج من تلك الكلية عن طريق مدخل جانبي، وصولًا إلى مكتبه في الجانب الآخر من شارع سلفر Silver Street، ليتمتع بأبسط حقوق الإنسانية الأساسية وهي التنقل بحرية متى أراد وكيفما يشاء، وهذا الحق الذي استطاع أن يتمتع به لم يأتِ نتيجة مخصَّصات أو منافع حكومية، بل كان ثمرة عمله الجاد وتفوقه في الفيزياء.

شكَّل التنقل مع الأطفال مشكلة أخرى، كنت أحمل لوسي إلى المدرسة على ظهر دراجتي صباح كل يوم، لكن مدرسة روبرت كانت على مسافةٍ بعيدةٍ نوعًا ما، ويعود الفضل بوصول روبرت إلى مدرسته في الوقت المحدد إلى جون ستارك John Stark الوافد الجديد نسبيًّا إلى كامبريدج، فقد أوصل - بكل لطفٍ - روبرت مع ابنه دان إلى مدرسة بيرس التحضيرية قبل ذهابه للعمل، قَدم جون وجين ستارك وطفلاهما إلى كامبريدج من لندن في أوائل السبعينيات، حين تولى جون منصب مستشار في قسم الصدرية في مستشفى أدينبروكس Addenbrooke's Hospital، وانتقلوا إلى المنزل الذي بناه فريد هويل لنفسه قبل عقد من الزمن.

وكنت أرد جميل آل ستارك في إحضار الصبيان في مدة ما بعد الظهيرة وإيصال دان إلى المنزل، وفي بعض الأحيان أبقى ريثما ينتهي الأطفال من اللعب، وفي تلك الأثناء أتبادل أطراف الحديث مع جين، وهي خريجة في مدرسة لندن للاقتصاد، كانت تبدي آراءها في المواقف الذكورية الشوفينية السائدة في كامبريدج، وهيمنة الجامعة على مناحي الحياة جميعها بشكل متشنج وغير مشجع، تشاركنا سويّة الإحباط حول هذا النظام التعليمي الذي لقَّننا أن تكون المرأة ندًّا للرجل حتى سن الحادية والعشرين، ومن ثم تُرسل تلقائيًّا إلى مرتبة أدنى منه، لكن هذا الإحباط لم يخالطه - ولو للحظة- أسف لأدوارنا بوصفنا أمهات وزوجات، بل كان استياؤنا يتمحور حول انعدام التقدير؛ وخاصة في مجتمع كامبريدج المانح للأدوار الرئيسة.

أصرَّت جين وشجَّعتني على العودة إلى أطروحتي، مع اعتقادي بعدم جدوى التفكير بمشروع مماثل بالرغم مما كان يمثله سابقًا في حياتي، ما جعله في بعض الأحيان مرحبًا به وفي أحيان آخر مصدر استياء كبير، فبعد ما يقارب عشرة أعوام أنجزت ثلث المشروع فقط، وعلى الرغم من جمعي لقسم كبير من المواد، إلا أنّ إنهاء ما شرعت به لن يكن أمرًا واقعيًّا بالنسبة إليّ، إذ كان وقت الفراغ الوحيد المتاح لي هو في المدة الزمنية الفاصلة بين مغادرة ستيفن في منتصف النهار والجولة السريعة في المحلات التجارية في مدة مبكرة من الظهيرة قبل جلب لوسي من المدرسة في الثالثة إلا رُبعًا، يعني ساعتين ونصف الساعة على أكثر تقدير، وعلى الرغم من ذلك، وبفضل إصرار جين، والقدوة الاستثنائية التي تتجسد في شخص هينري بوتون Henry Button زميل من زملاء الخدمة المدنية القدامى لوالدي، والذي باشر العمل على بحوثه في المينيزانغ[1] الألمانية German Minnesänger عام 1934، وأنهى العمل عليها في مدة تقاعده أي بعد مرور أربعين عامًا.

(1) يتألف المصطلح من كلمتين: الأولى Minne ومعناها حب، والثانية هي Sangوتعني الغناء. بما معناه: قصائد الحب الغنائية، أو غنائيات الحب وتعود إلى المدة ما بين القرن الثاني عشر والقرن الرابع عشر، أما مضمونها فيدور حول تبجيل المرأة والتغزل بها بأسلوب شعري راقٍ وفنية عالية. (المترجم).

أصبح احتمال العودة للأطروحة شيئًا فشيئًا أكثر منطقية بعد أن اتضح لي أنَّ المجالات والأزمنة الثلاث في بحثي حُدِّدت بوضوح، ما سهَّل عملية العودة وجعلها أقل تحديًا مما كنت أتخيل، كما كنت قد وثَّقت أفكاري ودوَّنتها على كلمات قصائد الموشحات، فسمح ذلك لي بالانتقال إلى المنطقة الثانية لازدهار الشعر الغنائي في العصور الوسطى، وهي غالسيا Galicia في الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية، فقدكانت اللغة هناك أقرب إلى البرتغالية منها إلى القشتالية، وحيث مدينة سانياغو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela التي حققت شهرةً تجاريةً عالميةً على حساب ضريح القديس جيمس shrine of St James ووفقًا للأسطورة المحلية، فقد جرفت الأمواج تابوته إلى الساحل الجاليكي عام 842.

وبحلول القرن الثالث عشر أطاحت أغاني الشعراء المتجولين الجاليكية بشعر بروفانس المتراجع والذي كان التسلية المفضلة عند القشتاليين، وقد تطور تكوينها إلى شكل آخر في عهد الملك ألفونوسو الحكيم، ومن بين باقة متعددة من المؤلفات المختلفة على نطاق واسع كانت هناك مجموعة كبيرة هي كانتيغاس دي أميغو cantigas de amigo قصائد غنائية من العصور الوسطة، والمكوَّنة من الأغاني التي تعبر عنها النساء، وهي ذات موضوعات متعددة، وتحمل ملامح الموشحات، مثل تقابل العشاق عند الفجر غالبًا، ووثوق الفتاة في أمها أو إخوتها، وغياب الحبيب، وتُظهر تلك القصائد العناصر الشعبية الفلكلورية في الأسلوب واللغة، وتعيدنا إلى الماضي التقليدي بقوة.

كان لدي مهمة محددة في تلك الساعات القليلة التي أمتلكها كل يوم، وهي تدقيق العناصر التقليدية من رقم 512 في كانتيغاس دي أميغو، وتقييم ملامح الأسلوب واللغة البارزة التي تتقاسمها مع الموشحات ومقارنة لغتهم مع الكلاسيكيات، أو نصوص الكتاب المقدس ووضعها مقابل خلفية أكثر أوروبية.

وجدت الكثير من أوجه التشابه بين الموشحات وكانتيغاس دي أميغو التي أنشأها المستعربون المهاجرون شمالاً، بعيدًا عن الموجات اللاحقة المتعصبة من قمع العرب، ووجدت أيضًا فروقًا مذهلةً؛ فالكانتيغاس لا تحتوي أيًّا من الصور المتوهجة الواضحة

المعالم، أو أي إحساس من الانتظار والترقب مثل الموشحات، حيث تستمد الصور المتخيلة من الخلفية الطبيعية للجبال ومجاري المياه في الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة التي تعرضت لاضطرابات رياح المحيط الأطلسي، والتي حدّدت مع مشاعر الأطراف المتصارعة.

أما أكثر ما أقنعني في رحلة بحثي عن أصول الشعر فتأثير الماضي الوثني البعيد، الكامن في غشاوة أيام سحيقة أبعد من الثوابت المسيحية الواثقة للخرجة[1].

فمثلاً، في إحدى القصائد يشار إلى فتاة تنطق بالجمال، بياضها كالفجر، تنهض باكرًا لتغسل الثياب في الجدول، ويبدو أن تيار جدولها مكرسٌ لأحد آلهات خصوبة سلتيك القديمة، أو آلهة غاليسيا تلك المدينة التي ما تزال حجارتها ونقوشها شاهدًا على الماضي:

Levantou–s' a velida,
levantou–s' alva,
e vai lavar camisas
em o alto:
vai–las lavar alva.

أطلَّت الحسناءْ
وأطلّ معها الفجرْ
ومضت لتغسلَ الرداءْ
في مجرى النهرْ
ومضى الفجرُ عليهما، مترقرقًا عذبًا.

وفي بعض قصائد الفجر، تتوقف الفتاة بسبب الريح اللعوب -التي تُعدُّ في المصطلحات الوثنية محرِّكًا للأرواح الشريرة- وعند آخرين بوساطة الأيل الجبلي،

(1) الخرجة: مصطلح أدبي يشير إلى نهاية المقطع الأخير من الموشح. (المترجم).

أيلٌ يخطو في المياه مثيرًا إياها في إشارةٍ رمزية لكلٍ من وجود الحبيب ولنشاطهم العاطفي.

Passa seu amigo
que a muit’ ama;
o cervo do monte
volvia a augua
leda dos amores’
dos amores leda.

يدنو المحبوبُ قربَها
قلبُه ينبضَ حبَّها
أيلٌ جبليٌ
يمخرُ عبابَ المياهْ
مختالٌ بالحبِ قلبُها
جذلٌ بالغرامِ قلبُها

يعدُّ مشهد ظهور الأيل عند ينبوع الماء بمثابة ذكرياتٍ من الكتاب المقدس، وهي تُشير إلى نشيد الأناشيد أو المزامير، لكن على المستوى الشعبي، قد تكون بقايا من طقوس الخصوبة التي أدانها العديد من الأساقفة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. تُستَشف الكآبة والحزن من قصائد عديدة تفصلها فورًا عن القصائد المشرقة في الموشحات، هذه العقبات التي تواجهها في طريق الحب الحقيقي تتجلى في التقلُّب والرفض، كذلك الحقائق العملية كالحرب أو التقاليد الاجتماعية، ويعبرون عن ذلك من خلال الأشجار والعصافير والينابيع التي تستقصي أراضي عاطفتها التي أمست خرابًا بعد أن يهملها العشيق، الفتاة المتيمة تدعوه وتذكِّره بأيام خلت حين كانت الطيور تشدو بأجمل الألحان في حبِّهم، وتلقي اللائمة على قسوتهً في تدمير مشهد الحب، وتعبر النغمة المتكررة في القصيدة عن توقها للسعادة المفقودة:

Vós lhi tolhestes os ramos en que siian
e lhi secastes as fontes en que bevian;
leda m' and' eu.

سلبتَ أغصاني حيثُ تشدو (الطيور)
وجففتَ ينبوعَها، منكَ يشكو
أعد لي سعادتي.

على الرغم من جلوسي في المكتبة وحيدةً ومحاطةً بالمجلدات الصفراء، في محاولة لتقييم الأهمية النسبية لكل واحدة من المؤثرات الكثيرة التي ساهمت في تكوين هذه القصائد كانت سعادتي كبيرة في العودة إلى أطروحتي التي أحيَت فيَّ الروح المعنوية الفكرية، أما عن موقف ستيفن من دراسات العصور الوسطى، فلم تقلَّ حدَّته على مر السنين، ففي رأيه أنها دراسات لا قيمة لها، تمامًا كجمع الحصى على الشاطئ، لكن هذا لم يؤثر في عزيمتي، وعملت بجدٍّ على الحلقات الدراسية التي كانت تُعقد بخصوص القرون الوسطى التي أَعدُّها مصدر ابتهاج وتشجيع لي، أما صِلاتي مع قسم الإسبانية في كامبريدج فكانت واهية، ورغم مواظبة والدتي على قدومها يوم الجمعة لرعاية الأطفال في وقت ما بعد الظهر، إلا أنّي شعرت بفقدان التواصل مع الحلقات الدراسية في لندن.

ملأت الأصوات المتلاطمة من الكانتيغاس عالمي الداخلي، ورافقتني في أنشطة العزلة الانفرادية، وكانت معي في أثناء أدائي الأعمال المنزلية، لتحتل تفكيري خلال إطعام ستيفن وجباته المطولة -لقيمات مقطَّعة صغيرة، ملعقة بعد ملعقة، جرعة في إثر جرعة- منتهزةً كلَّ لحظة مناسبة مهما كانت ضئيلة لتندفع إلى ذهني أفكار وأنا على مائدتي قرب النافذة المطلة على الخليج في غرفة الجلوس، فأجلس لأدوِّن بعض الملاحظات والأفكار مزودةً بعددٍ قليلٍ من المراجع، مع ذلك لم يكن كافيًا دراسة تلك الأغاني وإضافة الحواشي عليها وتحليلها، إذ احتجت إلى الشغف الذي يمكنني من التعبير عن تلك المشاعر، من خلال أغنية، أغنيةٍ من أي حقبةٍ زمنية، وبعد أن تعلمت مقدمة الموسيقى الصوتية في كاليفورنيا، شعرت بتَوقٍ إلى القدرة على الغناء بشكلٍ

جيد، كان بإمكاني ممارسة تمارين تقنيات الصوت في أي وقتٍ وأي مكانٍ، حتى في أثناء أعمال المنزل.

وعلى الرغم من ازدراء ستيفن دراسات العصور الوسطى مقابل تنامي إخلاصه للأوبرا -وخاصةً موسيقى فاغنر- فقد دأب على تشجيع اهتماماتي الجديدة ومساندتها، باكرًا مرةً في الأسبوع برفقة أحد طلابه؛ كي أتمكن من الخروج لمدة ساعةٍ من أجل حضور الصف المسائي للتقنيات الصوتية، بقيادة الصوت المتميّز نايجل يكنز Nigel Wickens الذي كان معلمًا وفنانًا في آنٍ معًا.

كان نايجل يمتلك قامة طويلة منتصبة ازدادت مهابة بشكل جمجمته الدائري، وفي لقائنا الأول بدا لي مهيبًا، لاسيما بالنسبة إلى الدقة المبالغة في حديثه الخطابي، لكن هذا لم يكن سوى نزر قليل من ملامح شخصيته التوسعية، إذ يتمتع بدراية جيدة بفنون الأداء، ويتمتع أيضًا بسطوة يُخضِع فيها صفه لصمتٍ مرعب ثم يدخلهم بعدها في نوبة ضحك هستيري، ساحر موسيقي حقيقي، يفتح صندوق حيله الإبداعية كل أسبوع ليكشف لنا عن ثروةٍ من الأحجار الكريمة المتلألئة، وليعرض ألوان الطيف العاطفي جميعها، إضافة إلى المحتوى التراثي الغني لخلفاء العباقرة الموسيقيين من شوبرت وشومان وبرامز وفور وموزارت الذين لمست موسيقاهم الذات الداخلية، حتى وصلوا إلى صميم الروح، معربين عن الآمال والمخاوف والحزن وحس المأساة حين تصبح الكلمات وحدها غير معبرة، وفي بعض الأحيان ترك الحزن والحنين الغامض الذي انطوت عليه بعض الأغاني آثارًا مؤلمة فينا، ولم تمضِ بضعة صفوف حتى عزمت على تعلم الغناء بشكل صحيح، وتدريب صوتي من الصفر، وبناء أدواتي الإيقاعية الخاصة.

4
لعبة الزمالة

بدأ ستيفن بعد استقراره في محيطِ عمله الجديد في الجامعة بتوجيه الدفة إلى وجهة أخرى، حيث أدار ظهره للقوانين الكونية للنسبية العامة، وغمر نفسه شيئًا فشيئًا في ميكانيك الكمّ، وهي القوانين التي تعمل بمستوى الجسيمات الأولية المصغرة والفيزياء الكمية ووحدات بناء المادة، جاء هذا التغيير نتيجة بحوثه في الثقب الأسود واتصالاته مع علماء فيزياء الجسيمات في ولاية كاليفورنيا، وعاد به إلى السعي الحثيث والبحث أكثر في نظرية الثقالة الكمومية، التي أعرب عن أمله في أن تُوفّق بين قوانين أينشتاين في النسبية العامة وبين ميكانيك علم فيزياء الكم. كان أينشتاين متشكّكًا في نظرية ميكانيكا الكم التي وضعها الفيزيائي الألماني فيرنر هايزنبرغ Werner Heisenberg والفيزيائي الدنماركي نيلس بور Niels Bohr في العشرينيات من القرن المنصرم، وقال إنّه لا يثق في العناصر الغامضة والعشوائية التي ينطوي عليها هذا الإنجاز العلمي، ذلك أنّها تقوّض إيمانه في طبيعة الكون المنتظم بشكل جميل، معربًا عن كراهيته - التي لا مفرَّ منها- لنيلس بور.

نشأة الكون من الأشياء التي أربكت مخيلتي طيلة حياتي الزوجية وما سبقها، وكانت والدتي تشير بإصبعها نحو الأبراج المتألقة في سماء نورفولك الصافية حين كنت أنا وكريس ما نزال أطفالًا.

وفي السبعينيات لم تكن الإضاءة الأرضية قد بلغت الحدَّ الذي يحجب النجوم المتلألئة بعيدًا في الظلام عني وعن روبرت ولوسي، محاولين التكهن بالمسافات التي لا حصر لها والمدد الزمنية غير المفهومة، والدهشة تعترينا من عبقرية والدهم وزوجي الذي تمكن من تحويل الزمان وهذا الفضاء اللامتناهي إلى معادلات رياضية، ومن ثم حمل هذه المعادلات في رأسه كأنّه يؤلف سمفونية كاملية لموزارت كما وصفه الفيزيائي الكندي فيرنر إسرائيل.

حملت هذه المعادلات مفاتيح كثير من الأسئلة حول أصولنا وموقعنا في الكون، وليس التساؤلات حول طبيعة دورنا بوصفنا أفرادًا ضئيلين في كوكبٍ صغير يدور حول نجم عادي في المراكز الخارجية لمجرة غير ملحوظةٍ بأقل الأسئلة أهمية، لطالما خطرت هذه الأسئلة في ذهني على الرغم من معرفتي البسيطة البدائية حول الفيزياء والرياضيات، وفي المقابل فإنّ حركة اصطدام لجسيمات غير مرئية- خصوصًا عندما تكون تلك الجسيمات ليست غير مرئية وحسْب، بل وهميةً كذلك- فإنّ ذلك لم يثر اهتمامي بالخوض في شغف الرحلة الذهنية الفريدة عبر مليارات السنين الضوئية وصولًا لبدء الزمان، وهذا ينطبق على ما يجب الاعتراف به، من عدم تمكّن مجموعة العلماء المرتبطين بستيفن من إثارة اهتمامي بشكل كاف.

كان علماء فيزياء الجسيمات عمومًا مجموعةً من العلماء المهووسين ممن أولوا العلاقات الاجتماعية اهتمامًا قليلًا، بل كان جلُّ اهتمامهم مسلطًا على سمعتهم العلمية الشخصية، وتحلّوا بطباعٍ تنافسية عدائية أكثر مما كان عليه علماء النسبية الذين يتمتعون بودٍّ ولطافةٍ وقدرةٍ على الاسترخاء؛ كانوا يحضرون مؤتمرات أنشطة اجتماعية يحضرونها، ولكن، وبصرف النظر عن مجموعةٍ من الروس البشوشين المندفعين، فإنّ شخصياتهم كانت تترك انطباعًا سريع الزوال، ووسط هذا المستنقع الرمادي كانت رؤية وجوه شخصيات عرفناها لمثقفين وكتاب وأصدقاء ساحرين قدامى مجرد متعةٍ عرضية، تنتمي لأيام النسبية من الإسرائيليين وعائلة هارتلز وكيب ثورن وجورج إيليس وكارترز وبارديز. إلا أن بول ديراك Paul Diracعالم فيزياء الكمية الأكثر شهرةً بينهم ترك انطباعًا دام طويلًا رغم كونه شخصًا كتومًا قليل الكلام، وهو عالم فيزياء كامبريدج الذي وفَّق في عشرينيات القرن الماضي بين نظرية الكم ونظرية أينشتاين النسبية الخاصة، وحاز على جائزة نوبل في عام 1933، ويُعدُّ شخصية أسطورية في عالم الفيزياء، عدّ ستيفن وبراندون نفسيهما من أحفاده العلميين، إذ أشرف عليهما دينيس سكايما الذي سبق وأشرف عليه ديراك نفسه.

تعرفت إلى ديراك وزوجته مارغيت فيغنر Margit Wigner، شقيقة فيزيائي هنغاري مميّز، وذلك في تريست Trieste عام 1971، وقد قيل إنّ ديراك عرَّف زوجته إلى أحد

زملائه بعد مدة قصيرة من زواجهما بقوله: «هذه شقيقة فيغنر» بدلًا من (هذه زوجتي)، وبعد تقاعد بول في عام 1968 من الكرسي اللوكاسي[1] ، انتقل ديراك من كامبريدج إلى ولاية فلوريدا، حيث أصبح هناك أستاذًا فخريًّا.

تقول الحكاية إنَّ ديرك شاهد ذات مرّة زوجته منهمكةً في حياكة رداء صوفي، وما إن وصلت إلى نهاية غرزات الحياكة، حتى وضع زوجها نظرية رياضية لفن الحياكة، وأوعز إليها مباشرةً كيف تدير الإبرة وتحبك غرزات معكوسة في الصف التالي.

زارنا ديراك في أحد الأيام في كامبريدج، كانت زوجته مارغيت لا تختلف عن ثيلما تاتشر في نشأتها الأرستقراطية، من شعرها البني المحمرّ، وشخصيتها المستقلة المنطلقة، وتمتلك موهبة طبيعية في إجراء المحادثات بكل سلاسة وعفوية بما يتناقض بشكل لافت للنظر مع صمت زوجها. جلسنا على عشب الحديقة لاحتساء الشاي، وتكلمت مارغت عن رحلاتهم وعائلتهم ومنزلهم في فلوريدا، وأيضًا أبدت إعجابها بالأطفال، متحدثة معهم بحرية وعفوية، كانت مارغيت تمتلك القدرة على تعويض مدد الصمت وقلة الكلام، في حين كان زوجها يستمع ويشاهد بصمت، ويُعزى صمته إلى ضغط والده المدرس السويسري عليه، فقدكان يسمح له بالتحدث فقط بالفرنسية التي لا تشوبها شائبة عندما كان طفلًا في منزله في بريستول. كانت مارغيت تتحدث عن زوجها كثيرًا، تمامًا كما كنت أجد نفسي في مرّات عدة أتحدث بوصفي الناطقة بلسان ستيفن، خاصة عندما يكون الحديث لا يتعلق بالفيزياء، تشابه ستيفن وبول ديراك في أنّ كليهما من صنف الرجال قليلي الكلام، وممن يفضلون وضع كلماتهم المدروسة إما لخدمة الفيزياء أو لتطغى على أحاديث أخرى تجري أمامهم، لكنهما اختلفا بشكلٍ كبيرٍ في شيءٍ واحدٍ فقط.

هاتفتني مارغيت في أسبوع إقامتهم في كامبريدج لتدعوني إلى حضور باليه في مسرح الفنون، ترددت في الحضور؛ لمعرفتي بأنه ليس من دواعي السرور الهائل

(1) الكرسي اللوكاسي (Lucasian chair) للرياضيات أو الأستاذ اللوكاسي: لقب أستاذية في الرياضيات في جامعة كامبريدج، ويدعى أيضًا كرسي نيوتن. (المترجم).

لستيفن أن يقضي أمسيته في مشاهدة كوبيلياCoppélia[1]، حتى وإن كان برفقة واحد من أكثر علماء العالم شهرة. لكن رد مارغت على اعتذاري بالنيابة عن ستيفن صدمني، فقد هتفت بشكل قاطع: «لا، لا يا عزيزتي، إنّ الدعوة ليست موجهة له، بول يريد منك أن تأتي معنا»، أنهت رغبات بول أي تردد آخر، فانضممت إليهم بعد أيام، لأدهش قليلًا بوجوده معنا، اعتقادًا مني أن بول سيتقاسم مع ستيفن ازدراءه للرقص الذي لطالما أحببته. في الحقيقة كنت مخطئة، فقد ظهر لي بول مستمتعًا بالأداء تمامًا كأي شخص آخر. وعلى الرغم من كلماته القليلة إلا أنّه ومارغيت كانا مريحين ولطيفين، فشعرت بأنّ حضوري مرحب به، ولم أجبر في تلك الليلة على فعل أي شيء على الإطلاق، حتى إنه لم يراودني قلقي المعتاد على راحة رفاقي واستمتاعهم بوقتهم.

أصبح الروتين في المنزل أقل بقدوم طالب دراسات عليا جديد من طلاب ستيفن يدعى آلان لابيدس Alan Lapedesمن برينستون، والذي وافق على العيش معنا في غرفة إضافية خالية لدينا، استطاع آلان أن يقوم بالمهمات التي كان يقوم بها برنارد في كاليفورنيا وخاصةً في المهمات الشاقة؛ كالرفع. كان آلان مكتفيًا ذاتيًّا، ومد يد المساعدة دون تذمر أو شكوى، وهذا ما أثار قلقي خوفًا من استغلال استعداده؛ لأنه كان أيضًا مع زملاء آخرين يساعد ستيفن يوميًّا في القسم. تنامت مشكلات راحة ستيفن الجسدية وأصبحت كبيرة، مع رفضه اللجوء إلى أي إجراء ملطف، وعادة ما أبقانا في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، أما خلاله فقد كان الأمر مصدرًا دائمًا للقلق والإحباط، على الرغم من جهود المساعدة الأحدث لكونستانس ويليس Constance Willis سو سميث Sue Smith التي حاولت أن تشجعه على زيادة التمارين الرياضية المنتظمة، من خلال تمديد جسده ومساعدته على المشي في القاعة الممتدة بدعم من مساعدٍ واحدٍ على كلّ جانب.

لم تستطع سو قطُّ إقناع كريس بإجراء التمارين له أكثر من ساعتين في الأسبوع على الرغم من حس الفكاهة الشمالي الذي تمتعت به وعن تسليتها لستيفن بقصِّ

(1) عرض باليه كلاسيكي مسرحي بروح كوميدية. (المترجم).

آخر أخبار الشائعات والثرثرات بطريقتها المسلية الخاصة، كانت سو تحاول بشتى الوسائل قائلة: «الآن سوف تؤدي تلك التمارين، ألن تفعلها من أجلي فقط؟»، كان ردّه ـ ببساطة ـ واحدة من ابتساماته الخدّاعة، ابتسامات أبي الهول، والحقيقة أن أطرافه قد ضعفت مع المرض وعدم ممارسة الرياضة منذ أن أصبح يومه بأكمله جلسة مستقرة، أما في الخارج فإنّ الكرسي المتحرك بمزاياه الميكانيكية الكهربائية والاستقلال الذي يمنحه، ساهم في إخفاء حقيقة امتداد مرض العصبونات الحركية، فأصبح يصل بحرية تامة إلى أي مكان ذهابًا وإيابًا عبر النهر، ومن القسم وإليه.

لكن هذه الآلة الثورية كانت تستدعي مساعدة اثنين أو ثلاثة قادرين جسديًّا على رفع 120كغم على انحدار حاد أو رحلة طويلة على درج أو أمام أي عقبة تواجهها، وبالتأكيد سنكون في ورطة إذا صادفنا في الطريق إلى أمسية ما درجة واحدة فقط.

لم يكن ستيفن عرضةً للأمراض البسيطة التي جلبها الأطفال من المدرسة إلى البيت، على عكسي تمامًا، كما حافظ ستيفن على شهيته وصحته، مفتخرًا بأنّه لم يفوِّت على نفسه يوم عمل واحدًا، ولم يكن لدى أحد من الغرباء أدنى فكرة عن جسده الهزيل بصورة مؤلمة، ولم يلحظ أحد نوبات الاختناق الرهيبة التي تراوده وقت العشاء وآخر الليل، حيث كنت أحتضنه بين ذراعي مثل طفل خائف، حتى تخفت حدَّة نوبته ليعود تنفسه إلى إيقاعه الطبيعي، حاولنا تجنب تلك النوبات من خلال تناول وجبات غذائية مختلفة في البداية للقضاء على السكر، ومن ثم منتجات الألبان، وأخيرًا الغلوتين (البروتين اللزج في الدقيق اللازم للكعك والخبز)، وكل تلك المكونات يشتبه في تهييجها للبطانة الشديدة الحساسية في الحلق، وعلى الرغم من استمراري في تناول الخبز والكعك مع الأطفال ـ ولم يكن الطبخ من دون سكر بالأمر الصعب- إلا أنّ تحدي الطبخ الخالي من الغلوتين في السبعينيات- أي قبل مدة طويلة من ظهور المنتجات الخالية منه على رفوف المتاجر- تطلب بعض التعديلات الرئيسة في المطبخ، فقد كان الدقيق الخالي من الغلوتين في تلك الأيام كابوس الطهي، ومع ذلك، كان هذا التحدي الأفضل لمواجهة هجمات الاختناق الرهيبة التي تهدد الحياة.

وعندما اعتقدنا أننا ودعنا الشتاء دون أيّ أمراض، استقبلنا ربيع عام 1976 وبجعبته مجموعة قاسية من العقبات التي تشبه لعبة لوحة الثعابين والسلالم[1] ولكن مع الكثير من الثعابين والسلالم، ومع النرد الذي من المرجح أن يسقطنا على الثعبان، وكان قدرنا في العشرين من مارس/آذار أن نصادف الثعبان الأول على اللوح حين وقعت لوسي فريسة جدري الماء.

لا يُعدُّ داء الجدري خطيرًا جدًّا، لكنه في النهاية مرض، ويستحسن -بالتأكيد- التخلص منه في مرحلة الطفولة بدلًا من الإصابة به في سنٍّ متقدمة، علمت هذا من تجربتي الشخصية عندما كنت طالبة في فالنسيا، وفي يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر آذار/مارس كانت لوسي المسكينة تحمل تلك البقع الحمراء الصغيرة، تبكي طلبًا لكلّ ما يمكن أن تحصل عليه من اهتمام ليلَ نهارَ، وبقدر ما شغلنا هذا الداء وأثار ذعرنا لم نختلف عن أي عائلة أخرى لديها أطفال صغار، لكن في هذه النقطة لا تشابه، ومن حسن حظ لوسي أنها تماثلت للشفاء بصورة عاجلة خلال الأسبوع نفسه، ليُرمى النرد مرة أخرى دافعًا بنا إلى ثعبان أشدَّ خطورة بكثير.

في صباح السبت في نهاية الأسبوع نفسه، استيقظنا جميعًا مصابين بالتهاب في الحلق، وفي اليوم التالي كان آلان وستيفن يشعران بتوعُّك واضح، وقد رافق ألم الحناجر الملتهبة حمى شديدة، كان ستيفن لا يزال يشعر بالاستياء من معاملة الأطباء الرديئة له في عام 1963 في وقت التشخيص، ما أدى إلى تزعزع ثقته بمهنة الطب، إضافةً إلى خوفه من المستشفيات تمامًا مثل خوفي من الطيران، وعليه منع ستيفن استدعاء الطبيب رغم عدم تمكنه من الأكل والشرب، كما كان يسعل في كل مرة يتنفس بها. في وقت لاحق في اليوم التالي هاتفتُ الطبيب وأنا غارقة في اليأس، لكن ستيفن هز رأسه غاضبًا من كل اقتراحات الطبيب لاتخاذ تدابير تخفيفية؛ مثل شراب للسعال أو دواء لتخفيفه، كان قد صاغ نظريه تقضي بأنّ مثل هذه التدابير ما

(1) لعبة كلاسيكية تُلعب بين شخصين أو أكثر على لوح ذي مربعات تضم عددًا من السلالم والثعابين، والهدف من اللعبة المضي بحجر اللعبة من البداية وحتى النهاية وفقًا للنرد. (المترجم).

هي إلا قمع لطبيعة ردود فعل الجسد، وقد تنطوي على خطورة أشد من السعال نفسه. لقد أصبح طبيب نفسه بصورة فاعلة، وتتملكه قناعة بأنّه يعرف عن حالته أكثر من أي شخص في مهنة الطب.

بقيت معنا والدة ستيفن التي جاءت في ظهيرة الأحد لاحتساء الشاي، وتناوبنا على رعاية ستيفن خلال ليلة مقلقة جدًّا، وفي اليوم التالي -يوم عيد ميلادي- بقي ستيفن مصرًّا على عدم السماح لي بجلب المساعدة على الرغم من مرضه الشديد وشحوبه واختناقه المؤلم المضني، وفي وقت متأخر من ذلك اليوم -وكتنازل كبير بمناسبة عيد ميلادي- سمح لي في النهاية باستدعاء الطبيب.

عندما سُمح للطبيب سوان بأن يضع قدمه داخل المنزل في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً، جاء رد فعله بشكل عملي سريع: اتصل طالبًا سيارة إسعاف بشكل عاجل، مطمئنًا ستيفن بأنه سيعود إلى المنزل خلال بضعة أيام.

كان ستيفن – بلا شك – شخصًا محظوظًا، ففي تلك اللحظات الحالكة التي وصلنا بها إلى وحدة القبول في المستشفى، فكَّر بأنه على وشك أن يحبس في زنزانة، شاركته الشعور نفسه، ممسدةً له ذراعه دون حول أو قوة، وفي تلك اللحظة جاء صوت مألوف واثق وسلطوي خرج من مكتب الأطباء، إنه صوت جون ستارك استشاري الصدرية الذي أوصل روبرت إلى المدرسة كل يوم، كان ستيفن يُكنُّ الاحترام لجون بوصفه صديقًا، أيًّا كان رأيه بالأطباء بشكل عام، غمرتني سعادة جارفة للقاء شخص ما في موقع سلطة في المستشفى يمكنه أن يتولى المسؤولية عن الحالة دون طلب تفسيرات مطولة، شخص بخبرة طبية يشعرني بالراحة، ويخفف عني المسؤولية الصعبة لرعاية مريض بحالة سيئة جدًّا لا عون له، ورغم ذلك كان ستيفن عاجزًا عن التواصل إلا مع حفنة من الأشخاص، وبسبب الفكرة المرعبة التي تملكته في أن يُعطى دواء أو غذاء قد يكون له آثار ضارة، لازمت المستشفى بجانب سريره طوال الليل. ظهر في اليوم التالي تحسن طفيف في حالته التي شخَّصها الأطبّاء على أنّها التهاب صدري حاد، كما بدأ – تدريجيًّا- بتسلق الدرجات الأولى في سلم التعافي، ليصبح بعد يومين أكثر فرحًا مع بداية ظهور علامات الصحة بما يكفي ليعود إلى المنزل.

في هذه الأثناء استأنفت الحياة في المنزل وعادت إلى وتيرتها المعتادة، جاء والديّ لرعاية الأطفال، وذهبت لوسي إلى المدرسة، أما روبرت فذهب في رحلة اليوم الدراسي إلى يورك، وعندما أحضرنا أنا وآلان ستيفن من المستشفى في الأول من إبريل/نيسان، خالجتنا مشاعر من التفاؤل الساذج، مؤملين في أن نعود إلى سير حياتنا الطبيعي مرة أخرى، لكن ما إن وصلنا إلى المنزل مملوئين بالأمل حتى أصابت حالة الاختناق ستيفن بعنف شديد ومن دون انقطاع، وما لبثت حالته أن تراجعت على الفور إلى حالة تبعث على اليأس، لم يكن هناك شيء يمكننا القيام به لوقف معاناته، ورغم كلّ نصائح الخبراء الطبيين، شعر ستيفن بالاختناق أيًّا كانت وضعيته، سواء في الجلوس أو الاستلقاء، ولم يكن قادرًا على الشرب أو الأكل، وبدا أوهن من أن يتحمل العلاج الطبيعي.

وضعنا نظام تناوب فيما بيننا أنا وأمي وبرنارد كار وآلان، بحيث يبقى واحد أو اثنان منا مع ستيفن طوال النهار في حين يخلد الباقون إلى النوم في الليل، كان هناك شكوك ضئيلة في أنّ الوضع حرج للغاية، ولم أكن بحاجة الأطباء ليخبروني بأن أعد نفسي لما هو أسوأ، حيث أقرت العلوم الطبية بالهزيمة، لكن القلق الذي أظهره الأصدقاء جلب لنا قوة غير متوقعة، وألهمنا إحياءً متجددًا للأمل. جاء لنا جون ستردي عميد كلية كيوس وزوجته جيل في إحدى الليالي، وقدّموا - بهدوء وبعيدًا عن الأعين - الدعم من خلال صلواتهم.

أيضًا كان طلاب ستيفن وزملاؤه متفانين في إخلاصهم، يزورونه بانتظام ويمدون يد المساعدة في رعايته، وغالبًا خلال الليل. بدأ ستيفن بالتحسن تدريجيًّا، رغم كونه ما يزال في حالة واهية وعرضة لهجمات الاختناق، حتى جاء يوم الأحد الرابع من أبريل/نيسان الذي أمضاه كاملًا دون التعرض لهجمة اختناق، وتمكن أيضًا من تناول القليل من الطعام المهروس، ولكن مرّةً أخرى في تلك الليلة تدهورت حالته الصحية من جديد، في اليوم التالي شهدنا انزلاقًا مرّةً أخرى إلى المربع رقم واحد، لقد استيقظ روبرت في صباح ذلك اليوم وقد غطّته بثور جدري الماء من الرأس حتى القدم مع ارتفاع في درجة الحرارة، وأصيب خلال اليوم بهذيانٍ محمومٍ.

أُدخل والدي إلى المستشفى في سانت ألبانز لإجراء عملية جراحية، وعاد إلى المنزل في الوقت الذي بدأ فيه ستيفن بالتعافي؛ كان الضغط كبيرًا للغاية، ما اضطرَّني إلى طلب المساعدة من أصدقائي الطيبين على رعاية الأطفال، وبالأخص صديقتي جوي كادبري Joy Cadbury، التي كانت ولسنواتٍ عديدة مستعدَّة لمدِّ يد العون حين يتطلب الأمر، وبأقصى قدر من المسؤولية، حتى إننا تركنا روبرت في عام 1973 في عهدة عائلة كادبري حين كنّا في روسيا، وشعر روبرت ولوسي بارتياحٍ كبيرٍ كأنّهم في المنزل مع أطفال كادبري، توماس ولوسي غريس.

أمضى الأطفال أيضًا بضع ليال مع عائلة كادبري عندما كنتُ برفقة ستيفن في العناية المركزة، فقد عرضت جوي بمنتهى الشهامة العناية بروبرت وتمريضه، تجاوز ذلك حدود أيّ صداقة، إذ إن انتقال البثور الحمراء لجدري الماء إلى طفليها في الأسابيع الثلاثة المقبلة أمر محسوم، لكن خياراتي كانت ضيقة لأمتنع بعد نضوب مواردي الخاصة؛ فأرسلت روبرت إلى هناك.

وبالفعل، بدأ روبرت يتماثل للشفاء بفضل رعاية جوي في الأيام التالية، وانتقلت العدوى إلى أطفالها بطبيعة الحال، وسار تعافي ستيفن بوتيرةٍ أبطأ بسبب رفضه البنسلين الذي وُصِف له؛ كان يجلس بصمتٍ في كرسيه، مسندًا رأسه على يده، بالوضعية الحزينة نفسها التي كان عليها أولَ مرّة في الستينيات، صامتًا مُعرضًا عن الكلام، يأكل كميات قليلة ويحتسي رشفات متأنية، وقد تعرض للاختناق مرات عدة ومتكررة، ولما طالت إقامته دون استرداده قوته للخروج، جاء إليه القسُّ وعقد جلسات الدراسية في غرفة معيشتنا، وزارنا أيضًا والدي في المستشفى بعد عمليته بمدة وجيزة، ما أمدني بجرعةٍ كبيرةٍ من الطاقة.

في آخر عطلة عيد الفصح، بدأت علامات اكتساب القوة تظهر على ستيفن، وعدنا تدريجيًّا إلى النوم ليلًا، وعدت للاسترخاء قليلًا دون كوابيس الاختناقات المرعبة، وعاد الأطفال إلى المنزل، لينصبَّ تفكيرنا في الأسبوع المتبقي من العطلة المدرسية على عمل بعض أنشطة العطلة، لكن ستيفن نفذ أفكاره الخاصة بشأن العطلة، ففي إثنين عيد الفصح استدعى طلابه وهو ما يزال في مدة النقاهة، فانطلقوا بالسيارة

لعقد مؤتمر لمدة خمسة أيام في أكسفورد، فيما وقفتُ مذهولة في مدخل المنزل أراقب هذا التصرف المتهور الذي دفعته إليه حاجته الماسة إلى الهرب بعيدًا قدر الإمكان. طلب دينيس وليديا سكايما – اللّذان تملكهما الذعر حول تهور صحة ستيفن – حجز غرفة في فندق في سانت ليفس St Ives في كورنوال Cornwall، ووسط حالة من الذهول البائس والعجز عن فهم ما يحصل ودون أدنى معرفة للمكان الذي سنقصده أو لماذا، ومدفوعين بالرغبة الكبيرة للابتعاد عن كامبريدج، غادرتُ مع الأطفال إلى لندن لنستقل بعدها القطار في بادينتغون Paddingtonإلى غرب البلاد، بدأ القطار بعد وصوله إلى إكستر Exeter بالإبطاء، ليزحف بوتيرة بطيئة تمتد على طول خطوطٍ فرعية متعرجة، غافلين عن المرور البطيء للزمن، وغافلين عن ألعاب الأطفال، وعن الضحك والثرثرة، حدقت بنظرات ساهمة من النافذة المطلة على حقول كورنوال المزدانة بأزهار الربيع دون أن أراها حقًّا، كان الذهول يخيم عليَّ، والكآبة قد استنفدتني.

5
غابة سيلتك

كنا نحيا على حافة الهاوية، وعلى الرغم من ذلك حاولت جاهدةً إنقاذ تلك الجذور الصغيرة، المتغلغلة في الصخور والحجارة والجذور التي تسند معظم أنواع التربة الهزيلة، لتشكِّل أساسًا آمنًا بما يكفي للفروع التي في الأعلى رغم توقف نموها وإنتاجها. في نهاية أبريل/ نيسان وبعد عودتنا من كورنوال وعودة ستيفن من جامعة أكسفورد، عاد الأطفال إلى مدارسهم كأنَّ كابوس عطلة عيد الفصح لم يحدث قطُّ. استطاع روبرت بتساهل وهدوء أن يتعامل مع إعاقة أبيه ومرضه بإيجابية، ولحسن الحظ أصبح الآن يذهب إلى المدرسة التي وفرت مجالًا واسعًا لفعل كل تلك الأنشطة البدنية التي لم يستطع أن يفعلها مع والده، ومنذ أن أصبحت لوسي تقتدي بأخيها في كل شيء ظهرت عليها بعض علامات الاضطراب بسبب طبيعة خلفيتها غير التقليدية، لكن حياتنا بقيت على إيقاعها المعتاد مع عزم أكبر على التركيز على كل لحظة من كل يوم، كما عاد روتين ستيفن والأطفال إلى نظامه المعتاد. أما أنا فقد حاولت التقاط كل ثانية إضافية لتدوين بعض الأفكار اللازمة للأطروحة، إلى جانب ترتيب منزل الإيجار بمساعدة روبرت وجديه اللذين اعتمدنا عليهما في دفع جزء من رسوم مدرسته، أيضًا تابعت ما أمكنني من صفوف الغناء، وبطبيعة الحال إعداد أطباق حفلات العشاء للحشود المتدافعة من الزوار الصيفيين للقسم.

في منتصف فصل الصيف، جاء إلينا طاقم تلفاز البي بي سي لتقديم فيلم عن ستيفن يكون جزءًا من فيلم وثائقي لمدة ساعتين عن نشأة الكون، وشاءت الظروف أن تكون منتجة الفيلم فيفيان كينغ Vivienne King، وهي طالبة في ويستفليد في دفعتي السنوية في الجامعة، وعلى الرغم من دراستها للرياضيات إلا أنها لم تتبنَّ النهج العلمي المتشدد في تصوير فلمها، فقد أرادت تقديم ستيفن بتعاطف مع الحديث عن خلفية العائلة التي جاء منها. راقت لي هذه الصورة التي سيقدم بها الفيلم؛ لأني خشيت النهج العلمي المتشدد الذي قد يقدم ستيفن بوصفه شخصية شريرة حاقدة؛

مثل شخصية الدكتور سترينجلوف على كرسيه المتحرك Dr Strangelove في فلم ستانلي كوبريك، ليأتي الفيلم الوثائقي بصيغته النهائية الأول والأفضل من نوعه، فقد ضمَّ عناصر شعرية -وإن كان في سياق علمي- ليظهر ستيفن في أثناء عمله في القسم، يتفاعل مع طلابه، ويعطي الحلقات الدراسية، ويشرح أحدث نظرياته، كما أجرى مقابلة في داخل المنزل تحت أشعة شمس الصيف بين زهور الحديقة، وحين بُثَّ الفيلم في الشتاء التالي جزءًا من كلٍّ من برنامج بي بي سي الوثائقية -مفتاح الكون- شاهدت صديقة لوسي في المدرسة (ابنة أحد الأساتذة الزائرين) الفيلم في منزلها في اليابان، فما كان من الأم إلا أن راسلتنا لتتحدث عن وقوف ابنتها مذهولة أمام شاشة التلفاز تشاهد لوسي تتأرجح تحت شجرة التفاح، كل ما استطاعت فعله حينها هو أن تصرخ وسط دموعها التي انسكبت على خديها: «لوسي.. لوسي».

كان هذا بلا شك صورة للاكتفاء الذاتي الذي واصلنا التطلع إليه رغم أنّ تلك الصورة ماهي إلا وهم جميل للنجاح الذي بات صعب المنال.

شعر آلان بالإنهاك عند عودته من مؤتمر أكسفورد بعد عيد الفصح، وكان بحاجةٍ ماسة لنيل قسط من الراحة بعيدًا عنّا وخاصة بعد أن أصيب بالالتهاب الصدري أيضًا، لكن حالة ستيفن الصحية وحاجته إلى العناية لم تسمح لنا بأن نفكر للحظة في حالة آلان الذي ساعدنا بلا كلل طوال أوقاته الحرجة وفي أوقات قادمة أيضًا، وحين قرر ستيفن الذهاب إلى أكسفورد لم يكن لدى آلان خيار سوى مرافقته.

أصابت محاولات ستيفن الباسلة هدفها في الظهور بشكل لائق وجيد في القسم، لكن الأمر ظهر مختلفًا في المنزل؛ فقد كانت معنوياته منخفضة جدًّا، وكان جسده هزيلًا ضعيفًا، يتحدث فقط حين يريد أن يعبر عن طلب ما، وما إن تقضى حاجة ما حتى تظهر أخرى، جاعلًا مقدرتي على التحمل في أقصى طاقة لها؛ لذا كانت حاجتنا إلى المساعدة أمرًا ضروريًّا أكثر من أي وقت مضى، وعلى الرغم من طلبات أطبائنا الموجهة إلى قسم خدمات الصحة الوطنية إلا أنّ أحدًا لم يستجب، وأصرَّ ستيفن على رفضه أي خدمة تمريض خارجية، ما جعل الطبيب يتقدم بطلب إلى السلطات المحلية لتساعدنا في الخدمة المنزلية على الأقل، بعد أن أنفقنا كل دخلنا الاحتياطي

على الرسوم المدرسية الخاصة بروبرت، لا على رفاهية المساعدة اليومية، جاءت إلينا الاختصاصيةالاجتماعية لتقييم وضعنا، لكن نظرة واحدة ألقتها على المحيط كانت كفيلة بأن تحجب عنّا أي مساعدة، لم تكن للأسف سوى واحدة من سلسلة طويلة من الأشخاص الذين فشلوا في التمييز بين الوهم المطلي بالذهب الذي كنا نناضل من أجل الحفاظ عليه، وبين الواقع الوحشي في صميم أوضاعنا.

وعندما أتت المساعدة الحقيقية، جاءت ترتدي ثوبًا من البراءة، لتحمل عني قدر استطاعتها بعضًا من الضغط الجسدي، تاركة في نفسي شعورًا بالذنب أثقل مئة مرة من أي حمل، جاءت المساعدة البريئة على يدي روبرت بسنواته التسع، والذي ودَّع طفولته إلى الأبد ليخطو إلى عالم الكبار، ويمد يد العون بجلب الأشياء ومساعدتي بالحمل والرفع والإطعام والغسل، وفي أخذ والده إلى الحمام وعند غرقي في الأعمال المنزلية، أو شعوري بالتعب حتى الثمالة لدرجة عدم تمكني من الرد، فإنّ روبرت - وفقًا لفلسفة ستيفن البراغماتية للنجاة- كان ذراعي وساقي، وبالتأكيد أفضل من وجود ممرضة في المنزل ولو مؤقتًا، لكن الأمر لم يكن هيّنًا، أن تلقى طفولة روبرت نهايتها المفاجئة لتنتهي مدة الحرية التي لن تتكرر في حياته مرّةً أخرى.

حاولت لاحقًا أن أعوِّض ما فاتنا في عطلة عيد الفصح، إذ نظَّمت عطلة عائلية في الأسبوع الأخير من الفصل النصفي في نهاية مايو/أيار وذلك إلى فندقنا المفضل ذي أنكور The Anchor في والبيرسويك Walberswick الذي يبعد مسافة ساعتين ونصف الساعة قيادة عن كامبريدج، لكن الأقدار شاءت أن تحوِّل عطلتنا إلى كارثة رغم محاولة طواقم الفنادق جميعها تلبية حاجاتنا بأكملها بما في ذلك نظامنا الغذائي، عاودت نوبات اختناق ستيفن الظهور مجددًا منذ اليوم الأول للعطلة وحتى اليوم الأخير، تناول ستيفن وجباته في عزلة تامة معبرًا بذلك عن استيائه من اقتراح العطلة الذي بدا له غير مناسب، وعند مشاركتنا تتحول وجبات الطعام إلى محنة للجميع، حيث يدوّي صفيره المتشنج، ملقيًا بصداه على الجدران صارفًا الضيوف والنزلاء عن طعامهم، ليتحول ستيفن مع مرور الوقت إلى الاستسلام للخمول والاكتئاب، مشكلًا جدارًا عازلًا يحيط به ليكتفي بالتواصل مع الآخرين فقط عند التعبير عن حاجاته

الخاصة، لقد شارفتُ على الانهيار، إذ يتطلب الوضع الآن مقدرات امرأة خارقة وقدرة على التحمل وشجاعة أكثر مما كنت أمتلك.

بحثت بيأسٍ عن أيّ مساعدة، وسألت نفسي مرارًا وتكرارًا: أين يمكنني إيجادها؟ كان أصدقاؤنا جميعهم حريصين على البقاء قربنا ولكن لمدة قصيرة، فجميعهم لديهم عائلاتهم وحياتهم التي تحتاج إلى من يقودها، ولا أحد يملك فائضًا من الوقت أو الطاقة أو التفاني، ووسط بحر اليأس هذا، بدا لي باب أخير لا مناص من طرقه، وهو اللجوء إلى والدَي ستيفن.

لطالما مد والداي يد العون لي بطريقة هائلة خلال مدة زواجنا كما كانا جدّين رائعين، لكن في هذا الظرف الذي يتطلب تدخلًا طبيًّا لم يكن بإمكانهما فعل شيء، فضلًا عن أنّه من غير الإنصاف طلب أي شيء منهما، في المقابل ما زلت أذكر وعد والد ستيفن لي بمد يد العون بكل وسيلة ممكنة في الأوقات المبهجة ما قبل زواجنا عام 1965، وبالفعل لم يتوانَ فرانك هوكينغ عن المساعدة التي تجلَّت في طلاء الحمام من أجلنا عندما انتقلنا في المرة الأولى إلى شارع سانت ليتل ماري، علاوة على أنه دفع مع إيزابيل رسوم بقائي في المستشفى عند ولادة روبرت، ودفعا أيضًا أجرة عاملة نظافة تأتي إلينا مرة في الأسبوع عندما كان روبرت طفلًا صغيرًا، وقدما أيضًا مبلغًا سخيًّا من المال لمساعدتنا على شراء المنزل، وأغدقا علينا مجموعة من تحف العائلة العريقة لتظهر غرفة معيشتنا بمظهر أنيق، ومن جهتها اعتنت إيزابيل بستيفن عند ولادة الأطفال، وكانت مستعدة للسفر معه لحضور المؤتمرات حول العالم حين كنت مقيدة للأرض بسبب فوبيا الطيران، ولأن الأطفال كانوا صغارًا في ذلك الوقت.

أما في الرحلة السنوية إلى بيتهم الصغير في ويلز، فقد اعتمدت عليها مع فرانك للمساعدة في عناية ستيفن رغم عدم أهلية ممتلكاتهم لأي معاق على كرسي متحرك، وهي التي استطاعت بطبيعتها الخيرة أن تتحكم في أعصاب زوجها ونفاد صبره، فقد جاهدت عاطفيًّا مع انضباط ذاتي ملحوظ في مساعدة زوجها على التصالح مع قيود العجز المتزايد لدى ستيفن مع مرور الوقت.

تمتع والدا ستيفن بحسٍّ عالٍ ملفت للنظر فيما يتعلق باستطلاع مواقع جميلة وبالأخص البحث عن مواقع القلاع في رحلاتهم، حيث يحصون الخطوات بدقة، مدونين أيّ عوائق محتملة الحدوث قبل وقت سابق من وصولنا، ومع ذلك كانت زيارتهم إلى كامبريدج أكثر رسمية من زيارات والديّ اللذين كانا بطبيعتهما جدّين عاطفيين، يعبرون عن مشاعرهم بصورة واضحة في كل مرحلة من حياة الأطفال وحياتنا، في حين تصرَّف والدا ستيفن بوصفهم زوارًا عند وصولهم لا مقربين، أيضًا شعرت في الآونة الأخيرة بابتعادهم قليلًا عنّا، كأنَّ القشرة الخارجية لحياتنا الطبيعية - كما بدت وكما جهدنا في إظهارها - قد انطلت عليهم، فلم يجدوا ضرورةً للمشاركة بشكل أكبر فيما نحن فيه.

عند عودتنا سارعت إلى كتابة رسالة يائسة أستجدي فيها حضورهم ليخففوا بخبرتهم الطبية ومساعدتهم صعوبات الوضع المحيط بنا من كل جانب، ويمنعوا الخطر الذي يهدد أسرتنا.

لم أحنث بعهودي التي قطعتها لستيفن، ولم أكن أنوي ذلك، لكن أعتى الجبابرة وأقوى الإرادات الفولاذية لا تتحمل صعوبة هذا الوضع الذي أرزح تحته، لاسيما في مواجهة الضغط المتزايد بلا هوادة كلّ يوم وفي قسط كبير من الليل، تسارعت وتيرة الحياة منذ إصابة ستيفن بالالتهاب الصدري، ومع انعقاد مؤتمر جديد في كامبريدج، ومع المزيد من حفلات العشاء، ومزيدٍ من حفلات الشراب والاستقبالات شارفتُ على الانهيار دون أن يطرأ أي تقدم على حالة ستيفن المتشبث برأيه الرافض لأي نوع من أنواع المساعدة للمساهمة في التخفيف عن الأطفال -روبرت بشكل خاص- وعني، كان رفضه المستمر لحاجتي المتزايدة إلى المساعدة هو قوة التغيير التي خلعت عني العواطف الوجدانية، تلك العواطف التي لم تفارقني في أي مرحلة من حالته المتدهورة.

جاء الرد في رسالة فرانك هوكينغ واعدًا بالتشاور مع طبيب ستيفن حول الجوانب الصحية للقضية، وأنه سيكون هناك فرصة كبيرة لمناقشة مسائل أخرى بمزيد من التفصيل في الصيف القادم في عطلة لياندوغو[1].

كانت فرص مناقشة مثل هذه المسائل في ويلز ضئيلة، وذلك بسبب شخصية ستيفن المترددة في مناقشة أي شيء يحمل طابعًا شخصيًّا، ساعد فرانك بكل إخلاص على رعاية ستيفن كل صباح، ليتوجه بعد ذلك - كعادته- لارتداء حذائه الطويل ومعطفه المضاد للمياه مع قبعات الرقبة، ليختفي بعدها في البرية لمهاجمة الحشائش التي تسخر من محاولته في زرع الخضراوات في ظل ظروف الغابات المطيرة في التلال الحادة المواجهة للشرق.

من جهتها نظَّمت إيزابيل أفضل الرحلات المثيرة لنا -رحلات دمى الدببة، وزيارة لقلعة غوودريتش Goodrich Castle، والبحث عن البرسيم السويدي ذي الأوراق الأربعة- كانت أنشطة عائلية ممتعة، تمت دون الإشارة إلى التوترات الكامنة، حتى صباح أحد الأيام التي جاءت فيها إيزابيل لتخبرني بلهجة حادة مرتبكة: «إذا كنت تريدين التحدث إلى الوالد، فها هو الوقت المناسب». مشيرةً إلى الخارج حيث وقف فرانك تحت المطر المنهمر، ارتديت معطفي الواقي، ولحقت به، فمشينا على طول الطريق دون أن ننبس بكلمة، ووسط جداول صغيرة تنحدر مباشرة إلى أسفل التل حيث يكبر مجرى النهر في أسفل الوادي.

كانت أفكاري وعواطفي تتخبط في دوامة فوضوية يصعب توجيهها في تدفق متماسك، إذ تعيَّن عليَّ إقناع أسرته أنَّ الأمر ليس على ما يرام، وأنّه يجب السعي إلى وسائلَ أخرى وإن فرضها الواقع لتخفيف الأعباء، والأهم هو التخفيف عن روبرت الذي قُمِعت طفولته، لكنني فشلت في بلوغ ما صبوت إليه، إذ وضعني أدنى تلميح عن

(1) قرية صغيرة في غرب ويلز. (المترجم).

عدم الرضا في خانة عدم الولاء لستيفن، مع إيحاءات تقول بأنّ ما يجري هو انعكاس واضح لعدم كفاءتي.

عرض فرانك مناقشة الأمر مع ستيفن، رغم شكّه في أن تترك الكلمات أي أثر في نفسه في أي حال من الأحوال، مؤكدًا أن ستيفن لن يقبل مزيدًا من المساعدة، أما تعليقاته الوحيدة فكانت تدور حول شجاعة ستيفن الكبيرة التي استمدها من تصميمه، وأنه كان يبذل قصارى جهده تجاه عائلته لتوفير الأفضل لها. نعم، لقد أنعم الله علينا بطفلين جميلين، كما حالفنا الحظ لوصولنا إلى ما نحن عليه اليوم، ولم أنكر تلك الحقيقة في يوم من الأيام، بل أدركت جيدًا - مقارنة ببقية عائلات المعوقين- أننا كنّا أسرة ميسورة الحال، ولكن لم يكن مريحًا لي تكرار مثل هذه البديهيات دومًا، فقد دأبت على تكييف نفسي على إحصاء هذه النعم التي جاءت على حسابي طوال سنوات عديدة، وكنت أعلم علم اليقين أنَّ إصرار ستيفن كان سلاحه الذي أشهره ضد المرض، لكن لم أكن لأفهم لماذا عليه أن يشهره ضد عائلته.

أعرب فرانك عن قلقه بما يخص روبرت الذي كان انطوائيًّا جدًّا بطريقة حوَّلت حجتي رأسًا على عقب، قائلًا إنّه يتعيَّن على روبرت الخروج من قوقعته كيلا يحطم انعدام كفاءته الاجتماعية مهنته مستقبلًا، كما أتلفت في الماضي مهنته، وحرمته من الإشادة والاعتراف في عمله المهم في طب المناطق الاستوائية.

بدا من الواضح أن لا جدوى من الخوض أكثر في هذا الجدال العقيم، ورغم قوته وصحته الجيدة كان فرانك أكبر من والدي بعشر سنوات، ربما تقدَّمت به السنون وأصبح مسنًّا جدًّا ليفهم شعوري ويتكيّف مع ما أطلبه، شغل اهتمامه ستيفن وحده، لكنه عجز عن رؤية ما هو واضح، فأصبحت مهمتي شرح هذه الرؤية الواضحة وتكرار مضمون رسالتي، وهو تسبب انطواء ستيفن بالحالة التي تسود المنزل، في النهاية لم أنجح في التوصل إلى حلٍّ سوى أن أظهر كأسطوانة مشروخة تُعاد إلى ما لا نهاية.

بعد انقشاع الغيوم المطرة وفي وقت لاحق لتلك المحادثة مع فرانك، جلست أعدُّ البازلاء على الشرفة تحضيرًا لطعام الغداء عندما جاءت إيزابيل وجلست إلى جانبي

متطلعة باهتمام: «أعتقد أنّك تحدثت مع الوالد؟»، أجبتها: «عمليًّا، لا»، عضَّت شفتيها بالتحدي نفسه الذي أظهرته في وقت لاحق، وأعلنت بشراسة: «حسنًا، يبدو أنّك لم تفهمي الرسالة، لن يسمح الوالد بوضع ستيفن في دار رعاية». وما إن رمت بقنبلتها حتى استدارت ودخلت المنزل، صعقتني كلماتها بل جرحتني، لم يخطر لي ببال وضع ستيفن في دار رعاية، ناهيك عن سخافة هذا الطرح، كان الأمر أبسط بكثير، فما أطلبه يتمحور حول حماية ابني اليافع من الآثار النفسية المدمرة لمرض والده.

غادرت الشرفة مخلفة ورائي وعاءً نصف ممتلئ من البازلاء، خالجني شعور بالإذلال والقنوط، فمشيت ببطء بعيدًا عن المنزل إلى غابة كليدون، وجلست هناك في العزلة الطبيعية على حجر مسطح واسع، لا تلفتني ضوضاء الشلالات المحيطة بي، لم أكن وحيدة في الغابة بهذا الشكل من قبل أسفل تلة يجري قربها جدول جميل، لكن الطبيعة قادرة على التعاطف عندما يعجز الآخرون عن تقديمها، بيد أن تعاطف الطبيعة لا يغيِّر من حياتنا العقلانية، فما حدث للتوّ هو رفضٌ للاعتراف بالواقع العاري أمامهم والمتوسل للمساعدة.

أشرقت الشمس وسط سماء صافية في الأسبوع الثاني من العطلة، وظهر لي أني أخطأت الحكم على والدة ستيفن التي أخذتنا إلى فندق على الشاطئ، وتشاركت معي رعاية ستيفن معظم الوقت فقامت بإطعامه أحيانًا، وساعدته على ارتداء ملابسه، وجالسته على الشاطئ ليتسنى لي بعض الوقت لألهو مع الأطفال وأحظى بقليلٍ من السباحة، كان لتلك المبادرة الأثر الطيب في رفع معنوياتي وإحياء طاقتي، وبدا أنَّ إيزابيل قد استجابت في النهاية لاستغاثتي من خلال قيامها بمجهود حقيقي للمساعدة.

شعرت بالامتنان، ولكني وقفت عاجزةً إلا عن الابتسام، محتارة أمام بعض ملاحظاتها التي كانت تدلي بها على شاكلة: «لا يبدو الاعتناء بستيفن على هذا القدر من الصعوبة»، ومثل: «لا يمانع روبرت على الإطلاق في مساعدة والده، بل أعتقد أنّ هذه المساعدة مفيدة لكليهما»، لم أمانع سماع مثل هذه الملاحظات طالما أنّها تأتي في

قالب لطيف ومحترم، إضافة إلى تقديمها لنا مثل هذه الإجازة الممتعة التي جاءت في الوقت المناسب.

إلا أن ذلك العزف المستمر على وتر مدى سهولة المسؤوليات الملقاة على عاتقي، والإيحاءات التي تدل على عدم أخذ طلبي بالمساعدة على محمل الجد، جعلت من ثقتي المستيقظة اتجاهها تتضاءل؛ بدت لي غير قادرة على استيعاب وفاة براءة الطفولة عندي منذ زمن طويل، وأنّ تفاؤلي الفتي الكامن قد تلاشى بالكامل، وبأنّ مجرد التفكير بحدوث هذا مع روبرت أيضًا بعمر أقل من عشر سنوات أمر لا يُطاق، لكنها لم تكفَّ عن العودة إلى ملاحظاتها لتعلن بعبث في نهاية الأسبوع: «الكرسي المتحرك ليس ثقيلًا، حتى إن لوسي قد ساعدتني على وضعه مع البطاريات في السيارة، وفعلنا ذلك بشكل رائع».

كانت لوسي حينها في الخامسة من عمرها فقط، وسبق أن تسبَّب الكرسي المتحرك مع بطاريات الجل الصلب في شحوب وجوه أضخم الطلاب الشباب لوزنه الكبير.

وكأنما حزني لم يكن ثقيلًا بما يكفي ليأتينا في نهاية شهر أغسطس/آب خبر رحيل ثيلما تاتشر بعد أن نُقلت إلى المستشفى في غيابنا لإجراء عملية لم تنجُ منها؛ عشر سنوات هي المدة الزمنية التي عرفنا فيها صديقة العائلة ثيلما، ربما ظهر ذلك الزمن طويلًا بالنسبة إلينا، إلّا أنه لم يكن سوى جزء ضئيل للغاية من حياة ثيلما تاتشر الحافلة، تلك المرأة الاستثنائية التي تعاملت معنا عَقدًا من الزمن كأننا جزء لا يتجزأ من أسرتها، كانت من أولئك الذين يتمتعون بروح خيِّرة معطاءة وعلى أهبة الاستعداد دومًا لتهبَّ لنجدتنا في أحلك الأزمات التي عصفت بنا وبأي شخص يحتاج المساعدة، حاضرة الدعابة، وتتقن فرز ما هو سخيف أو غير معقول في أيّ حديث.

أحبَّها الأطفال بشدة، وأحبتهم كأنَّها جدّتهم بالتبني، أما بالنسبة إلي فقد كانت هذه المرأة الكتف الذي استندت إليه حين عجزت عن الوقوف، والصديقة الحقيقية التي أرشدتني بحكمتها التي لم تخطئ يومًا حتى ولو ظهرت لي تلك الحكمة في بعض الأحيان عسيرة على الفهم.

كنت قد رأيت ثيلما قبل ذهابي إلى ويلز، وكالعادة كان اهتمامها منصبًّا علينا، دون أن تتطرق إلى موضوع صحتها، فنظرتها الفلسفية الخاصة منعتها من الاعتراف بأزمتها الصحية، بل عدَّتها - وهي التي تعلم تمامًا مدى خطورتها- أشياء لا أهمية لها، وفي ذاك اللقاء الأخير، احتضنتني ثيلما تاتشر وقالت لي: «أتمنى لو أنّ باستطاعة تاتشر العجوز أن تكون أقوى وتساعد فتاتها الشجاعة أكثر».

6
نظرة إلى الخلف

لم تتغير ظروفنا بتغيُّر الفصول، إذ حمل الخريف مزيدًا من الواجبات والأنشطة، وانضم عدد من العلماء ليشاركونا وجباتنا بعد نهاية اليوم الطويل المزدحم بتفاصيله المعتادة، الأطفال والمدرسة والأنشطة بعد المدرسة من نوادي الأطفال، إلى جانب متطلبات ستيفن التي استدعت مساعدة روبرت، وساعدني ذلك الأسبوع على شاطئ البحر في استعادة شيء من عزيمتي، وظهر ستيفن بصحة جسدية ونفسية أفضل، على الرغم من أنّ تعافيه من نوبة الالتهاب الرئوي لم تعنِ نهاية الداء الملازم له، والذي استمر في حربه الصامتة وتسبب له بضمور العضلات، وصعوبات في تناول الطعام، لكن في المقابل فقد تراجعت حدَّة مشكلات الاختناق والجهاز التنفسي.

أما في الأكاديمية فقد كان ستيفن يمارس متعَهُ الخاصة في الحصول على الشهرة، وكان آخر ما نتج من البحث الدؤوب ندوات المناقشة، وهي نوعٌ من المؤتمرات التي تطهى على نار هادئة يطول أمدها، وقد تصل زمنيًّا إلى عام كامل، كانت مثل هذه المؤتمرات محطَّ اهتمام كبير لستيفن لأسباب عدَّة، أحدها أنّها ساعدت على زيادة التمويل الذي يوضع تحتَ تصرفه؛ ما سمح له بجلب العلماء من أنحاء العالم جميعها ليتشارك معهم العمل في أوقات الفراغ على مشاريع طويلة مثل الكتب والأوراق البحثية؛ لأنه يستحيل تنفيذ مثل تلك المشاريع في مناخ سريع لمؤتمر مدته ثلاثة أيام أو أربعة. كان ستيفن لايزال يتأرجح في اهتماماته بين النسبية وبين ميكانيكا الكمّ العامة، في الوقت الذي حضر فيه مؤتمرًا في بداية العام الدراسي، كان معظم زوار المؤتمر من فريق النسبية وجوهًا مألوفة قادمة من أمريكا الشمالية، لكن أدعاهم للاحترام وأكثرهم تواضعًا -من وجهة نظري- هم أتباع العالم تشاندراسخار[1]، إذ

(1) سابرامانين تشاندراسخار (Subrahmanyan Chandrasekhar، 1910-1995): وهو عالم فضاء أمريكي من أصول هندية، حائز على جائزة نوبل للفيزياء عام 1983. (المترجم).

علمت قبل وصولهم إلى مائدة العشاء أنّهم نباتيون، وقد توقعت أنّهم كذلك بعد أن قدمت لهم شطائر سمك في حفلة شاي، ولم أتوقع أي تعقيدات أخرى، وفي الدقيقة الأخيرة لمراجعتي السريعة لقائمة الطعام، تحوَّلت رغباتي نحو الوجبات الخالية من اللحم والسمك، والخالية أيضًا من الغلوتين والسكر، وقد ساعدتني لغتي الإسبانية التي كانت متأهبةً عند الطلب على استذكار ذلك الطبق الإسباني المدعو غازباتشو gazpacho، والذي أعطى لمسةً متميزة على وجبة سماتها الأساسية أرزية الفطر والبصل، على الرغم من أنها كانت أكثر ملاءمة لأن تكون على طاولة عشاء يوم أحدٍ أكثر منها لحفل عشاء ضيوفٍ كرام.

في منتصف الفصل الدراسي شد الرحال إلى أكسفورد زمرة من علماء كامبريدج، وسبقهم إلى هناك دينيس سكايما الذي كان قد انتقل إلى هناك في وقت سابق لنيل بعثة في كلية أول سولز All Souls College، ونظَّم مع روجر بنروز – الذي عُيِّن أستاذًا للرياضيات هناك- مؤتمرات لمدةٍ زمنيةٍ قد تتراوح بين يوم أو اثنين أو ثلاثة.

رافقتُ ستيفن إلى هناك، وحين كان ينشغل مع زملائه في إعطاء الندوات، أنتهز الفرصة للتعرف إلى المتاحف وأفضل النصب التذكارية في أكسفورد، كنت أزور أكسفورد على مدى السنوات القليلة الماضية مرة أو مرتين في العام، على الرغم من أنّ الأطفال كانوا صغارًا حينها، وتطور إحساسي بالمكان وسحره وظهر لي أكثر عالميةً وحيويةً من نظيره في فينلاند (فينلاند هي منطقة الحكومة المحلية في كامبريدج). كان لأكسفورد وقع مختلف على ستيفن الذي أحبَّ دومًا الرجوع إليها، وكان يقدر على إرشادي بطريقة لا يشوبها الخطأ إلى أي مكان أريده كأنّه يحمل في رأسه خريطةً للمدينة التي يعشقها، ويفتخر بمعرفته القديمة بطرقاتها وأزقَّتها وشوارعها الخلفية، الأمكنة جميعها تحمل ذكرى في نفس ستيفن الذي أشار لي يومًا بحنين جارف إلى الجدار الذي تسلَّقه ذات مرة ليسقط بعدها بين ذراعي شرطي، وفي مكان آخر إلى الجسر الذي طلاه مع بعض الأصدقاء في منتصف الليل بشعار منع القنابل؛ لكنَّ مرور شرطي بالقرب منهم جعلهم يقعون جميعًا في قبضته، باستثناء ستيفن الذي تُرك حينها معلقًا في قفص يتدلى أسفل الجسر.

بدت هذه الحادثة وحوادث أخرى مشابهة إلى حدٍّ ما أقربَ إلى رواياتٍ ملفَّقة، على الرغم من وجود الكثير من الصور الشاهدة على طرائف ستيفن الكارثية، وكان من المحتمل أن ستيفن مشارك متحمس في جماعة تُدعى المعقَل (نوع من المسابقات)، وفرضت عليه غرامة لمخالفة السلوك.

رسم إحياء ذكريات الأيام الخوالي الفرحة على وجه ستيفن، وعلت قسمات وجهه لمحة مغرية تعود إلى ذلك الشخص المتمرد الذي وقعت ذات يوم في حبِّه، وكانت تلك الأيام متعة شبابه قبل تشخيص مرض العصبونات الحركية، ذلك المرض الذي كان ظاهرة كامبريدج من حيث التسلسل الزمني.

ثمة العديد من الزملاء والطلاب السعداء بفرصة السفر، وحضور المؤتمرات البعيدة، ولقاء قامات شهيرة في علوم الفيزياء، كان هذا مصدر راحةٍ لي، إذ لطالما شكَّل السفر بالنسبة إلي هاجسًا مرعبًا لسببين: أولهما أنَّ السفر يعني ترك الأطفال خلفي، أما الآخر فهو رعبي الأزلي من ركوب الطائرات.

كان لدي مهمة جسيمة يجب أن أقوم بها على أفضل وجه، وهي أن أضطلع بالقيام بدور الأم والأب في آنٍ معًا، كما حدث في ديسمبر/كانون الأول لعام 1976 حين سافر ستيفن مع طلابه إلى بوسطن لحضور مؤتمر في مدة ما قبل عيد الميلاد، فتعيَّن عليَّ حينها أن أكرِّس نفسي لدوري بصفتي أمًّا، فحرصت على حضور مسرحيات ميلاد السيد المسيح، وعروض الباليه، وقداس الترانيم المدرسية، وأيضًا حرصت على مرافقة الأطفال إلى حفلة الكلية بعيد الميلاد. لم أرد لأطفالي أن يعانوا إعاقة أبيهم، لكن ذلك لا يعني أن أبعدهم عنه، بل على العكس كنت أشجعهم على حبِّه وتقديره واحترامه. كانت لدي مخاوف كثيرة تشاطرتها مع معلميهم في المدرسة دون علم ستيفن، على أملٍ عقيمٍ بأن أحميهم من أي إساءة أو حتى إغاظة قد تمرُّ في ملاحظة ما في أثناء اللعب.

في ذلك الشهر عاد آلان لابيدس إلى منزله في برينستون، ذلك الشاب اللطيف الذي كرَّس نفسه ليساعدنا خلال أزمتنا العاصفة، فنظفت غرفته، تلك الغرفة الإضافية

التي نملكها في الجزء العلوي من المنزل، وحضرتها للوافد الجديد؛ الفيزيائي المقيم دون بيج Don Page الذي التقيناه في كاليفورنيا، كان دون طالب دراسات عليا سابقًا في كيب ثورن، وجاء إلى كامبريدج في جولة برفقة والدته، وأرادوا - بطبيعة الحال - أن يتحرّوا عن العرض الذي نقدمه -وأظن أنهم أرادوا الحكم على صاحبة المنزل فيما إذا كانت إنسانة محترمة- فاجتزنا الاختبار، وانضمَّ دون إلى الأسرة بقوة تمامًا مثل شخصية النمر في قصة آلان ألكسندر ميلن[1]، وقد وصل إلينا مع ستيفن عند عودته من بوسطن في الثامن عشر من ديسمبر ، وانضم - بفارغ الصبر- إلى احتفالات عيد الميلاد.

حتى ذلك الحين، شملت معرفتي بالفيزيائيين مجموعةً كبيرةً ومتنوعةً وعلى مدى مدة زمنية طويلة كافية لإدراك قدوم معظم هؤلاء العلماء من خلفيات استثنائية، وهو ما كان عليه وضع دون القادم من خلفية مماثلة حتى بين مجموعة الفيزيائيين أنفسهم. وُلد دون لأبوين يعملان مدرسين تبشيريين، ونشأ معتزلًا في مكانٍ ناءٍ من ألاسكا، فقد أدخله والداه في التعليم باكرًا، ثم التحق بكلية مسيحية في ميسوري Missouri، مسقط رأس والديه، ومن هناك تخرَّج في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، وانضم لمجموعة كيب بوصفه طالب دراسات عليا. كانت معتقداته المبدئية متأصِّلة بشدة لدرجة الصدام الواضح بينه وبين مجال دراسته (فيزياء الجاذبية ونشأة الكون)، ولم تزعجه تلك المفارقات في عيون الآخرين على ما يبدو، إذ امتلك القدرة على تجزئة أنشطته، ورغم كون مسيحيته ذات مبادئ ورعة، إلا أنّها لم تتعرض لذلك الاختبار القاسي حتى الآن، وبدت أنّها ينقصها الحساسية نوعًا ما، ومن جانبٍ آخر تطلبت منه هذه القناعات الإنجيلية الشديدة حماسة دؤوبة في مساعيه الكونية جميعها.

---

(1) آلان ألكسندر ميلن (A.A.Milne، 1882-1956): أديب إنكليزي شهير، أما تشبيه المؤلفة لدون بالنمر في قصة ميلن، فهو النمر اللعبة الذي يمتلكه صبي صغير في كتب ويني الدبدوب (Winni the Pooh) التي ألفها ميلن، وقد ظهر النمر بوصفه شخصية كرتونية ظريفة في العديد من أفلام والت ديزني. (المترجم).

كان دون إنسانًا دينيًّا ملتزمًا، يحضر الكنيسة مرتين في أيام الأحد، بالإضافة إلى زيارة أخرى في منتصف الأسبوع لحضور صفوف تدريس الإنجيل، احترمت تلك الحماسة الدينية، ورحبت بالتأثير الذي تركه ذلك في حياتنا، إلّا إنّني وقفت إلى جانب ستيفن برفضي التنصير على مائدة الفطور يوميًّا، لم أكن أشك في حسن نواياه، فقد كان دون مدفوعًا بأمل إحداث تغيير مذهل مثلما حدث لشاول[1] على طريق دمشق. واظب دون على قراءة الكتاب المقدس وتلاوة صلواته في الصباحات الباكرة، رغبت مرّات عدّة بأن أخبره أنّ جهوده في قلب حياتنا مصيرها الفشل؛ لأنّ الدرب المضاء بثوابت الكتاب المقدس كان أقل عرضه للنجاح من دربي الخاص المتسم بالهدوء، والتمهل البسيط المتواضع على طول دروب متعرجة من الثقة البسيطة في الإيمان والعمل.

لم يكن ستيفن يملك الصبر أو الوقت على أي شيء إلا قوة الفيزياء العقلانية، ما جعلني أشك في أن تؤدي تلك القراءات الحثيثة الجادة والخطب الحرفية إلى إنارة درب ستيفن، كان يبدأ قراءته عند الثامنة والنصف صباحًا بعد إيصال لوسي إلى مدرستها، ومع بداية تلاوته كان ستيفن يختفي وراء صحيفته المدعومة بإطار خشبي يساعده على قلب الصفحات في أثناء تناوله طعام الإفطار. وكانت الصحيفة بمثابة حاجز تعبر من خلاله الملعقة المحملة بطعام الإفطار شاقةً طرقها لإيصال محتواها الضخم من حبوب، وملّيِّنات، وبيض مسلوق، وشرائح اللحم، والأرز، والشاي، علاوة على أن الصحيفة كانت أيضًا حاجزًا أمام أي محادثة محتملة.

كان ذلك صادمًا بالنسبة إلى دون الذي لم يتوقع ممانعة مثل هذه في الصباحات الأولى، حين نزل للإفطار مسلَّحًا بالكتاب المقدس ومنشوراته التثقيفية. جلَّ ما فعلته أنّي التزمت الصمت تاركةً دون يخطب في جماعاته غير المرئية كما يحلو له، أما

(1) شاول هو الاسم اليهودي لبولس الرسول الذي كان يهوديًّا متطرفًا، يلاحق المسيحيين ليسوقهم موثقين إلى أورشليم، وفي طريقه إلى دمشق، وبحسب رواية العهد الجديد، جاءت رؤية غيّرت حياته فيصبح مبشّرًا وناشرًا للدين المسيحي. (المترجم).

ستيفن المحمي بحاجز صحيفة التايمز، فلا يمكن صرف اهتمامه وتركيزه عن الاطلاع على الشؤون الحالية والجوهرية التي يجدر الاطلاع عليها؛ كما يليق بالزملاء الذين يتباهون بأنّ لهم - دائمًا- الكلمة الفاصلة والأخيرة في جدالات المائدة العليا، سواء أكان النقاش يتناول الوضع المادي غير المستقر في بريطانيا والمتفاقم بسبب الاقتراض من الولايات المتحدة، أو إن كان النقاش حول اختبارات المكوك الفضائي. وعادةً ما كنت أسترق نظرات سريعة على عناوين الصحف التي يقرأها ستيفن بتمهل وإنعام نظر، كأنّه ينسخ كل خبر مثل صورة طبق الأصل في عقله، ويعمل على هضم كل قصاصة معلومات، وكلّ حقيقة وواقعة حصلت، ليسترجعها في مناسباتٍ لاحقةٍ حين تستدعي الحاجة، ربّما في نقاشات المائدة العليا.

منذ أن توصَّل دون لإدراك مدى صعوبة مهمته التي حملها على عاتقه، خَطر لي أن هذا الرجل بحاجة إلى بعض الإلهاء وشغل تفكيره في شيء ما، ذات صباح دعوته لتناول الكورن فلكس مع مزيج الحبوب والفواكه، والبيض المسلوق والخبز المحمَّص لأسأله إن كان قد تذوق المارميتي من قبل، التقط الجرّة البنية المستديرة بغطائها الأصفر مجيبًا بالنفي: «لا، ليس لدينا هذا الشيء في الولايات المتحدة، أعتقد أنّها نوع من أنواع الشوكولا»، وسارع إلى ملء ملعقة بتلك المادة السميكة الداكنة على شريحة من الخبز المحمص، شجَّعته على أن يجربها، وبمجرد أن قضم قضمةً واحدةً حتى تغيَّرت ملامح وجهه، بتعبير طفولي علا وجهه بعد التنافر الذي استشعرته براعم التذوق لديه، في نكهةٍ تجمع اللاذع بالنكهة المالحة، حتى إن ستيفن أزاح الصحيفة مبتسمًا ابتسامة عريضة تكشف عن الغمازات المغرية في خديه، تملّكت دون لحظات من الحيرة، ثم ما لبث أن حلت محلها روح النكتة وحس الدعابة الذي لم يعد يفارقه، وأيضًا لم يعد مجدّدًا إلى تباشيره المتحمسة على مائدة الإفطار.

كان وجود الأمريكيين الموفدين إلينا من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا ذا أثر إيجابي عظيم، فقد رافق العلماء الأمريكيون ستيفن في رحلاته إلى لوس أنجلوس أو أي مكان آخر في الولايات المتحدة للاهتمامات علمية، وأيضًا كان دون مستعدًّا للذهاب بدلًا عني حين ضغط ستيفن عليَّ راغبًا في مرافقتي له إلى أمريكا لمدة ثلاثة أسابيع،

وهكذا جاء الحلُّ بشكل غير متوقع لإحدى المشكلات العصية التي لطالما واجهتنا، ما مهد لي الطريق لأن أقوم بالوفاء لحنينٍ قديمٍ كان هاجعًا لديّ طيلة سنوات.

مضى وقت طويل منذ أن وضعت قدمي للمرة الأولى على الأرض الإسبانية، ثلاثة عشر عامًا، مدة طويلة جدًّا جعلت شوقي يتأجَّج رغبةً في بث الروح مجددًا بصلات الوصل التي ربطتني بهذا البلد وحضارته التي أثَّرت في دراستي، بالطبع قبل أن تُبتلع تطلعاتي وطموحاتي المتواضعة في ثقب أسود.

اقتصرت علاقتي الحالية باللغة الإسبانية على المجاملات التي كنا نتبادلها أنا والخادم الإسباني في كلية كايوس في أمسيات عشاء الكلية، والتي كانت بالكاد تكفي للحفاظ على طلاقتي في اللغة المحكية، تلك اللغة التي تضاءلت مهارتي بها بشكلٍ يدعو إلى الرثاء، حيث لم يتبقَّ منها سوى قليل من الصيغ المهذبة المحكية، وعلى صعيد آخر افتقرت أطروحتي إلى الإلهام والتحفيز، ويعود ذلك إلى سببين: الأول طول الأطروحة التي باتت حملًا ثقيلًا يزخر بكمية هائلة من الملاحظات غير المترابطة، والتي تنتظر أن تدرج في ترتيب معيّن، أما السبب الآخر فهو بُعد الموضوعات عني لدرجة كدت أفقد التواصل بها.

لطالما تحمَّس والداي لاقتراح عطلة برفقة أحفادهم؛ لذا شرعت مع والديّ في ترتيب عطلتنا القادمة، وقد تضمنت جولةً واسعةً في شمال إسبانيا والبرتغال، بالتزامن مع عبور الطريق الفرنسي[1]. أعادني مجرد التخطيط للرحلة إلى ذكريات رائعة للعطلات الأوروبية القديمة التي كنّا نقوم بها، والتي ميَّزها شغف والدي التاريخي الذي لطالما لاحق عبق الكنوز التاريخية المتميزة، ولم يفارقه ذاك الشغف حتى اليوم، وهو ما جعله ينتقي الأماكن التي ربما لا تلفت نظر السائح العادي.

---

(1) الطريق الفرنسي (camino francés): واحد من أكثر المسارات شعبيةً في طريق سانت جيمس، طريق الحج القديم إلى سانتياغو دي كومبوستيلا في غاليسيا، إسبانيا. (المترجم).

وهكذا حانت اللحظة التي طال انتظارها بعد الهجوم الشرس للحصبة على لوسي التيباتت طريحة الفراش قبل نهاية الفصل، ومع مغادرة ستيفن إلى كاليفورنيا والتأكد من نفاد كل الأنشطة الصيفية وحفلات عشاء المؤتمرات المصغَّرة، وحفلات الشواء والغداء وحفلات شاي الأطفال، ومع انتهاء أيام الرياضة المدرسية وأنشطة الكلية، وغيرها من الأمور اليومية الضرورية التي لا يمكن إغفالها مثل صيانة السيارة، وتنظيف المنزل المستأجر؛ في نهاية ذلك كله جاء موعد إبحارنا إلى بلباو[1] Bilbao، وعلى الرغم من استقبال هذه المدينة الصناعية القذرة على الساحل الشمالي برطوبة غائمة، إلا إنّني شعرت بقلبي يقفز من مكانه ما إن وضعت قدمي على التراب الإسباني مرة أخرى، فقضيت عطلتي هذه في قفز مستمر وغبطة لا مثيل لها، ليس فقط لإحياء علاقتي واكتشافي لذلك البلد المحرَّر، فقد سقطت الفاشية فيها لتبدأ الديموقراطية في إنشاء نفسها بنفسها، بل أيضًا لإعادة تلمس لمحات من شخصيتي السابقة، تلك التي كانت فيما مضى فتاةً يملؤها الأمل والسعادة، المراهقة التي تهوى المغامرة والتي دُفنت مدة طويلة تحت كومة من الأعباء الصارمة والأولويات الأكثر إلحاحًا.

استعدتُ -تدريجيًّا- إجادتي اللغة الإسبانية في النحو وبناء الجمل والمفردات، وكان ذلك جزءًا من إعادة اكتشاف ذاتي، فقداستطاعت تلك اللغة بحيويتها أن توقظ صوتي اللغوي، وتحيي نبرة صوتي الذي اعتاد أن يبقى منخفضًا يرزح بصمته الخجول تحت وطأة قمع التحيُّز الفكري في كامبريدج، التي سرعان ما يتعلم المرء فيها أن يبقى صامتًا كيلا يجعل من نفسه أضحوكةً.

مزيج من السحر لفَّ أرجاء المكان، الكاتدرائيات الباذخة، وأديرة العصور الوسطى، والمصلون المستعربون، ومواكب الحجاج تحت وهج شمس حارة أضاءت الحقول وبساتين الزيتون الواسعة، وشق ذلك المحيط المختلف الطريق للضوء الباهر والحرارة المتَّقدة؛ لتنفذ إلى كآبتنا الباردة القادمة معنا من حياتنا الشمالية،

(1) ميناء بحري مهم، وهي عاصمة مقاطعة بيسكاي في الشمال الأوسط من إسبانيا. (المترجم).

أبهرتني الطبيعة المحيطة هنا من خلجان صخرية، وجداول، وجبال، وأشجار صنوبر، إضافة إلى التقاليد التي ما زالت حية وقائمة، كل ذلك أعادني إلى بيئة كانتيغاس دي أميغو، ذلك الإحساس بثقل وزن الدراسة التي حاولت أن أقولبها لأجعل منها أطروحة لها أساس في الواقع، حيث إن دراسات العصور الوسطى كانت فيما بعد من ناحية النشاط الإنتاجي أكثر أهمية من جمع الحصى على الشاطئ، أعطاني ذلك كلُّه دفعةً هائلةً لأن أقطع عهدًا على نفسي بأن أنهي الأطروحة بشكل جدِّيّ مهما كانت المستجدات التي قد تقف حائلًا في طريقي لإتمامها، وعلى الرغم من أنّ هذا الإنجاز قد لا يقودني إلى أي مكان، إلا أن أطروحتي تحوَّلت إلى غايةٍ في حد ذاتها.

شعرتُ بنفاد الصبر، فاختليت بنفسي، وسجلت تفاصيل كلَّما رأيته في الرحلة، وكلّ ما له صلة بالنصوص التي أعمل عليها، لكن ذلك لم يجعلني أتحرق شوقًا في المقابل للعودة إلى كامبريدج، فقد قلَّصنا ما أمكننا من أنشطة للاستفادة من أكبر وقت نقضيه في إسبانيا والبرتغال. بالإضافة إلى حاجة الأطفال الماسة إلى تعويض الساعات كلها التي قضوها في المقعد الخلفي من السيارة ينتظرون دون تذمُّر أو شكوى، فكان التعويض بضعة أيام قضيناها على شاطئ البحر، وامتلكت لوسي الصغيرة مخيِّلة خصبة منحتها القدرة على إبقاء نفسها ومن حولها جميعهم في متعة دائمة مهما طال زمن الرحلة أو اشتدت الحرارة الحارقة. وفي رحلتنا تلك فُتِنت لوسي بالقواقع التي تعجُّ بها الطريق إلى ضريح سانت جيمس في سانياغو، حيث أبقت نفسها متنبهة بعينين مفتوحتين لإحصاء الأصداف على المباني وفي التماثيل والإشارات، لتفلت منها صرخة انتصار في كلّ مرة تحصي قوقعة جديدة.

لم يكن مستغربًا أن يصاب روبرت ولوسي كلاهما بنوعٍ من التشويش في تناولهم حياة القديسين بعد أن شاهدوا عددًا كبيرًا من المعالم الدينية التي زرناها، ونتيجةً لذلك اخترع الطفلان لعبة مجنونة حين وصلنا إلى البحر في أوفير، ومثَّلت لوسي دور يوحنّا المعمدان وهي تغسل أخاها في مياه البحر، بينما لفَّ أخوها نفسه في منشفة ممثلًا دور الحاج الرزين في طريقه إلى ضريح القديس جيمس، ولا حاجة إلى القول

بأنّه – وعلى الرغم من الإشارات الدينية لهذه اللعبة– لم تكن أكثر من لعبة بين أطفال يلهون، ولا تنطوي على تأثر حقيقي بالأجواء الدينية.

كانت العطلة رائعة من النواحي جميعها، حتى مع تلك الحادثة التي كادت تكون كارثة، حين وجد والدي نفسه عالقًا في غرفته وقد أُقفل عليه الباب خطأً، ومع عدم وجود هاتف لم تكن هناك سبيل للخروج من الغرفة إلا عن طريق الشرفة، فلم يجد والدي بُدًّا من القفز سبعين قدمًا على غرفتنا للخروج.

انتهت الكارثة، وانضمَّ إلينا والدي على الشاطئ متباهيًا بإنجازه المتهور الذي لا مفرَّ من الاعتراف –وسط دهشتنا – بأنّه لم يكن إنجازًا عاديًّا لرجل بلغ من العمر ثلاثةً وستين عامًا.

7
طريق مسدود

توقَّد ذهني مجددًا في خريف عام 1977 بانطباعات عن شبه الجزيرة الإيبيرية، وعزمت على مواجهة الأطروحة برؤية حيوية جديدة على الرغم من مشقة تنظيم المادة وضيق الوقت. عاد ستيفن من كاليفورنيا بترقية إلى كرسي أستاذ في فيزياء الجاذبية، وترتب على تلك الترقية لنيل مرتبة الأستاذية آثار أبعد من الزيادة المتواضعة في الراتب، تتلخص في تعزيز مشاعر الاحترام والتقدير لشخصه أينما ذهب، مع وجود استثناءات قليلة، وقد وقعت واحدة من تلك الاستثناءات داخل قسمه، إذ تصادفت ترقيته مع إعادة تصميم الديكورات وتجديد القسم، فانتظر بعض الوقت وصول السجادة التي يحق له بصفته بروفسورًا وضعها في مكتبه، طال الانتظار وامتد بضعة أشهر دون جدوى، في النهاية قرر طرح المسألة على رئيس الإدارة الذي امتعض من طلبه ليقول بمشاكسة: «إنّ الأساتذة فقط من يحق لهم الحصول على سجادات في مكاتبهم»، فاحتج ستيفن: «لكنني أستاذ».

وفي نهاية المطاف، وتأكيدًا على مكانته وصلت السجادة الأستاذية. خشي ستيفن من أن يخلق التعيين الجديد فجوة بينه وبين طلابه، لكن ما لبث أن تلاشت تلك الأفكار، فقد كانت المساعدة الجسدية التي يطلبها من تلامذته كفيلة بنزع سلاح عدم الثقة التي جاءت نتيجة لسمعته النبيلة، وعلى الرغم من كون ستيفن أيقونة فكرية لا منازع لها في الجامعة، إلا أنّه كان يرتجف خشية أن تكون صورته مطابقة لصورة أستاذ في مؤسسة تعليمية، فهو لطالما فضَّل صورة الشباب الدائم بابتسامته الصبيانية المتميزة وتهكمه الدائم على موقع السلطة التي أصبح جزءًا منها الآن. كانت الترقية بلا شك أمرًا مرحبًا به إلا أنّ الحالة الجسدية لستيفن جعلت من الترقية سببًا لمجموعةٍ من المشكلات الخفية التي عانيتها لاحقًا.

من تلك المشكلات صعوبة التعامل مع العالم بأسره بعد الشهرة المتزايدة التي اكتسبها ستيفن بما يتجاوز تمامًا ظروفنا الحالية، وحدهم أصدقاؤنا المقرَّبون من أدركوا كيف لهذا المنزل أن يبقى قائمًا وسط معركة الحياة اليومية.

تحوَّل ستيفن – رغم الهجمات الشرسة لمرض العصبونات الحركية – إلى شخصية وطنية، فهو أصغر زميل في الجمعية الملكية، وهو الحاصل على جوائز وميداليات وجمهور غفير، والمُلقَّب بخليفة أينشتاين والأستاذ في جامعة كامبريدج، وتكمن المفارقة في أنّ ما سبق كلّه جعل منه أثيرًا محبوبًا عند وسائل الإعلام، لا في النظرة الشعبية فحسب، بل في نظر عائلته التي وجدت أن نجاحه هذا دليل سيطرته على مرضه، ما يعني انتصاره في هذه المعركة، وتعني استحالة حاجتنا إلى المساعدة؛ وهكذا كنّا الضحايا الأبرياء لنجاحنا الخاص.

تعدت المشكلة الاختلاف بين المظهر العام والمعاناة الداخلية بل كانت صراعًا حقيقيًّا، ومن المؤكد أن بعض المناسبات العامة تركت أثرها المبهج، كما حصل في صيف عام 1978 عندما تقلد ستيفن الدكتوراه الفخرية من جامعة أكسفورد، لكن تلك الأضواء لم تقدِّم أدنى مساعدة من الناحية الجسدية أو النفسية، ولم يدرك أحد حاجتنا إلى المساعدة أكثر من أي وقتٍ مضى؛ بسبب المرض الذي بدأ يوسع خطاه المدمرة في جسد ستيفن، وتطلب ذلك تكاتف الأسرة المباشرة كلّها، واكتفيت من إقناع نفسي بأنّ ما يحصل لا يتعدى مجرد الإزعاج، وأنّ المرض حقيقة من حقائق الحياة، إذ هيمن المرض على حياتنا وحياة الأطفال رغم الجهود الجبارة للمحافظة على القشرة الخارجية الموحية بأنّنا نحيا حياةً طبيعيةً، قشرةٌ زائفةٌ لحقيقة كارثية..

بدا لي أن روبرت يعاني الاكتئاب، فقد انسحب إلى داخل قوقعته الخاصة، وانهمك في كتيبات الحاسوب التي أصبحت تسليته المفضلة على أيّ ألعابٍ أخرى، لم تكن تلك الحالة– وفقًا لطبيبي – مألوفةً لدى الأطفال، وحاول ستيفن جاهدًا أن يعمل على تحقيق دوره الأبوي عن طريق شراء مجموعة متكاملة لقطار كهربائي مفصَّل مع طرقه الخاصة بتشعباتها المعقدة، ولم يمتلك روبرت المهارة الكافية لتركيب قطار

كهذا، ولم يسعفه قدوم صديقه أنيغو بمهاراته الإلكترونية المتقدمة في تسيير القطار بسلاسة.

أدى انتقال روبرت إلى مدرسته الجديدة إلى انفصاله عن صديقه المفضل أنيغو، لكنّه لم يظهر أي رغبة في صداقات جديدة، كان من الواضح أنّه بحاجة إلى نوع آخرَ من الرفقة، أشبه بنموذج يُحتذى بين الرجال، شخص يمكنه أن يتنزَّه معه ويتصارع معه، ويخفِّف عنه ما يعانيه، ويخرجه من طفولة ضائعة ليعبر به إلى مرحلة المراهقة، شخص ما لا يبني توقعات عليه في المقابل؛ كالمساعدة في المتطلبات الجسدية الخاصة على الأقل.

وخلاف روبرت، كانت لوسي طفلةً منطلقةً تتمتع بحسٍّ اجتماعي، حيث طوَّرت شعورًا مبكرًا من الاستقلال مكَّنها من زراعة دائرة واسعة من الأصدقاء، وجدت فيها بعض التعويض عن أوجه القصور في حياتها المنزلية، وسخَّرت منذ سن مبكِّرة طاقاتها كلها في حلقة اجتماعية صاخبة تشمل مهرجانات السباحة، والمخيمات، ومسابقات الجري، والمسرحيات المدرسية، أيضًا الحفلات الموسيقية، والموسيقى، والدراما في نادي السبت الموسيقي، وغيرها من الأنشطة، وكان لمجموعتها الضخمة من الدمى والعالم الخيالي الذي أبدعته مع لوسي كادبري Lucy Grace Cadbury لدمى السنوبي الخاصة بهم دور واضح في تطويرها أساليب في اللاوعي للتعامل مع خلفيتها الاستثنائية، وعلى الرغم من بقائها حساسةً جدًّا لظروفها، إلا أن سنّها وجنسها مكَّناها من تجنب بعض الضغوطات التي تحملها أخوها، حاول والداي التعويض، وقد تمكَّنا من ملء العديد من الثغرات في حياة الأطفال من خلال الرحلات التي كانا يذهبان بها إلى لندن، وجلسات الشاي في فندق ريتز، وزيارات المسرح، أما بالنسبة إلي فقد عانيتُ كثيرًا ثغرة عميقة في حياتي الخاصة، ولم أمتلك الجرأة على طرحها أمامهم.

كانت ثيلما تاتشر ذكيةً وصريحةً بما يكفي لتقوم بوضع أصبعها على الجرح الذي أعانيه في إحدى ملاحظاتها قبل رحيلها في صيف 1976، حين مالت عبر منضدتها المصقولة لتنظر في عينيَّ مباشرة قائلةً: «لا أستطيع تخيُّل كيف لكِ أن تحيي بشكل

طبيعي مع زوجك». أدهشتني صراحة تلك المرأة الثمانينية، ولجمت قدرتي على الكلام، واكتفيت بهزِّ كتفي، أعتقد أنّي لم أكن أملك الإجابات عن سؤالها في ذلك الوقت، لكن إحساسي بالولاء لستيفن كان كافيًا لإنهاء أي نقاش حول هذا الموضوع، والذي كان واحدًا من المحرَّمات بالنسبة إلى ستيفن تمامًا مثل موضوع مرضه، وفي تلك المناسبة لم أسمح لنفسي أن أثق في ثيلما تاتشر ولم تأتِ مناسبة أخرى لأفعل ذلك، وعلى الرغم من ذلك كنت بحاجةٍ ماسة إلى شخصٍ يمتلك من الحكمة والعمر ما يكفي للوثوق به.

كانت العلاقة الزوجية بيننا -وبصرف النظر عن الجوانب الجسدية- نغماتٍ مختلفة لا يمكن التوفيق بينها، فمن الناحية الذهنية كان لدى ستيفن زهوة عملاقة شاهقة بمقدراته العقلية، ويصر دائمًا على خلوه من الأخطاء، ذلك الإصرار الذي نُسبت إليه عبقرية ستيفن، أما من الناحية الجسدية فقد كان ستيفن إنسانًا عاجزًا، غير مستقل، تمامًا كالأطفال حديثي الولادة، فالوظائف التي كنت أنجزها له كانت جميعها مثل التي تؤديها أم لطفلها الصغير، كنت مسؤولةً عن كيانه بأكمله، بما في ذلك المظهر، فعلت كل شيء يتعلق به وبوجوده باستثناء بعض المهمات الطبية التي رفضتُ فعلها؛ كإعطاء الحقن أو أي تدخل طبي، فأنا لم أتلقَّ أي تدريب في هذا الشأن. اتَّخذت مشكلاتنا حجمًا أكبر وتفاقمت بصورةٍ يستحيل حتى مجرد الحديث عنها.

أشحتُ بنظري عن أيّ حالة مماثلة لحالتي، وصممت أذني عن كلمات المشورة ومحاولات نثر فتات الراحة من حولي لعلّي ألتقط شيئًا منها يعود عليّ بالسكينة والرضا، ولكن عند زيارة نادرة قمت بها إلى كلية لوسي كافنديش بعد وقت قصير من تقاعد كيت بيرترام، قدَّمت الرئيسة الجديدة نفسها في مأدبة كانت بمثابة حدث فريد في الكلية، ورغم تحفُّظاتي الكثيرة على هذه الكلية، إلا أنّني شعرت بالتردد إزاء تجاوز حدث كهذا.

وقفت الرئيسة الجديدة بعد العشاء لتتحدث عن حياتها ومسيرتها الأكاديمية، حينها لم أتمكن من كبح نفسي عن البكاء حين بدأت تتحدث عن زواجها قائلةً: «كان زوجي يعاني مرضًا عضالًا تسبب في جعله مقعدًا». وهكذا في لمحة بصر وجدتُ واحدة

ممن أستطيع التكلم معها بحرية، إنسانة ستفهم تعبي ويأسي الفطري القابع خلف ابتسامتي التي استحالت إلى واجهةٍ مترددة، لكن دهشتي كانت كبيرة حين طلبت الرئيسة الجديدة تعاطف الجمهور معها إزاء مفترق الطريق الذي وجدت نفسها أمامه، فقد تحتم عليها الاختيار بين العمل الأكاديمي وبين زوجها عندما عُرضت عليها زمالة أمريكية مرموقة، وقد اختارت الزمالة.

في النهاية، وجدت نفسي أمام حلٍّ وحيد، فلجأت إلى الدكتور سوان في عيادته، وأنا أرزح تحت وطأة يأسي وإحراجي لأتكلّم له بصراحة، جاءت كلماته بلهجة متجرِّدة، صريحة بقدر كلمات ثيلما تاتشر: «تشبه مشكلاتك تلك المشكلات المرتبطة بتقدم العمر، لكنك ما زلت امرأة شابة لديك حاجات وتوقعات طبيعية»، توقف لبرهة وأضاف بعدها ناظرًا إلى وجهي من تحت إطار نظّارته الذهبية: «ليس بإمكاني فعل شيء إزاء مشكلتك سوى أن أدلي لك بنصيحتي: ليكن لك حياتكِ الخاصة».

في وقت لاحق وفي لحظةِ ودٍّ لا مثيل لها، أسدت إلي فيليبا نصيحة بمنتهى الهدوء، مفادها أنَّ الوقت قد حان لترك ستيفن، وأضافت بعدها بشكل متعال كأنّ في نصائحها السهلة التطبيق الحلّ لمشكلاتي جميعها: «لن يلومك أحد على ذلك جين».

كانت ثقتي بها هائلة أيًّا كانت الدوافع التي جعلتها تقدم تلك النصيحة، لكن كان لصدى كلماتها وقع هزَّني من الداخل؛ إذ شعرتُ بضعف ثقتي بأحكامي الذاتية. لا شكَّ في أنّ هذا الحل كان كفيلًا بطردي من دائرة عائلة هوكينغ المتلهفة لفعل ذلك، ولم تستطع العائلة فهم أنّ هجري لستيفن أشبه بهجر طفل، وهو أمر أعجز عن القيام به، كذلك لم أشأ تشتيت عائلتي؛ العائلة التي شكَّلتها بتفاؤل، وسيدمر هجراني لها إنجاز حياتي الوحيد وذاتي معه.

سيكون التظاهر بعدم انجذابي لرجالٍ آخرين منافيًا للحقيقة، لكنَّ علاقتي الوحيدة كانت مع ستيفن، ولم يكن لي أيّ علاقة أخرى، أما الانجذاب الذي أتحدَّث عنه فلم يتعدّ يومًا نظرة عابرة، إذ فقدتُ إحساسي بنفسي أو بكوني امرأةً منذ مدة طويلة؛ وكلّ ما رأيته في نفسي أنّها جزء من زواج، زواج شبَّ وتنامى ليتطور من

رابطة تجمع شخصين إلى شبكة واسعة، أشبه بحديقة مزدانة بالنباتات والزهور المتنوعة، ولا تقتصر تلك الحديقة على الأم والأب والأطفال فحسب؛ بل الأجداد أيضًا والأصدقاء المخلصين والطلاب والزملاء، أما الشجرة المركزية في تلك الحديقة فهي المنزل الذي أنشأته على مرّ السنين سواء كان في ليتل سانت ماري في باسدينا أو في ويست رود، تجذرت العلاقة وتفرعت وتشعبت في كلّ حيزٍ من هذا التنوع المعقَّد، وتغيَّرت العلاقة بين الشخصين الأساسيين اللذين أسساها لتتحوَّل وتتجاوز حاجاتهما الشخصية، وغدت علاقة الشخصين أشبه بصدفةٍ بعيدة وحيدة هشَّة وفارغة.

صليتُ كثيرًا للحصول على المساعدة، وفي الوقت نفسه راودتني رغبة بالانتحار، تفاقم الوضع وأصابني اليأس، إلا أن ذلك لم يحل بيني وبين إيجاد بعض الحلول للمحافظة على بقاء الأسرة من جهة، وليستمر ستيفن في عمله ومنزله وبين أطفاله من جهة أخرى.

في وقت لاحق جاءتني نصيحة من صديقة استثنائية، تتميز بحسِّها المرهف وعقليتها الديناميكية، وهي كارولين تشامبرلين Caroline chamberlain اختصاصية العلاج الطبيعي التي عالجت ستيفن في زمن مضى، والتي اقترحت عليَّ الانضمام لجوقة الغناء في الكنيسة المحلّية لعلَّ ذلك يساعدني على التنفيس عن كربتي، وأخبرتني عن حاجتهم إلى سوبرانو إضافي للترانيم.

في وقت متأخر بعد ظهر أحد الأيام في منتصف ديسمبر/ كانون الأول، تركنا الأطفال لدى بيتر زوج كارولين، وتوجهنا للانضمام لتدريبات الكنيسة، كانت هذه المرّة الأولى التي أغني فيها في جوقة حقيقية، خلافًا لصفّ الكورال في باسادينا، وعلى الرغم من تطور صوتي تطورًا جيدًا، إلا أنّ قراءة النصوص والعدّ كانت من المهارات الغائبة عندي بصورة واضحة، ونظرًا إلى معاناة السوبرانو الآخر في الفرقة من عسر القراءة الموسيقية أكثر مني، فقد رجحت الكفَّة لي، كان المايسترو شابًّا رقيقًا شاحبًا حاول أن يخفي بأدب استياءه من تلك البطّة الموسيقية القبيحة التي أدخلتها كارولين إلى الجوقة، ومع الممارسة أخذ أدائي بالتحسن قليلًا، وأخبروني أنّ

مساهمتي لم تكن سيئة كما كانوا يخشون، ودُعيت في وقت لاحق إلى الانضمام إلى جوقة الإنشاد في الأبرشية ذلك الأسبوع.

رافقتني لوسي وقد دبَّت الحماسة فيها ودعت الجميع للحضور، حيث بدا أنّ أعضاء الجوقة والمايسترو ليسوا معروفين فحسب؛ بل محبوبين أيضًا في هذه المنطقة من كامبريدج والتي تقع فيها مدرسة لوسي، كنت بالكاد أعرف هذا الجزء من كامبريدح، هنا حيث أسهم الأصدقاء والجيران والأسر في تماسك المجتمع بإحكام، والذين لأجلهم أصبحت الكنيسة الإدواردية المبنية بالطوب الأحمر ممثلة للنواة، سواء حضرت الكنيسة أم لم تحضرها بشكل منتظم.

وفي ليلة شتائية مظلمة، مشى جوناثان جونز هيلير Jonathan Hellyer Jones قائد الكورس بمحاذاة حافة الرصيف لحمايتي أنا ولوسي من حركة المرور، ودارت في تلك الأثناء محادثة بيننا، استرسلت بعدها في الحديث كما لم أفعل منذ سنوات طويلة ليراودني ذلك الإحساس الغريب بأنني التقيت صديقًا مألوفًا تجمعني به معرفة طويلة، تحدثنا مطولًا عن الغناء والموسيقى، وعن المعارف المشتركة والعديدة بيننا، وعن الأسفار، وخاصة بولندا التي غنى فيها مع جوقة حجرة الجامعة في صيف عام 1976.

أخبرني عن القديس مارك الذي كرَّس له نفسه بشكل استثنائي، وعن الكاهن بيل لوفليس Bill Loveless، الذي كان يقدم له الدعم الكبير ويعزِّز إيمانه خلال أزمة سبق ومرّ بها، لم يخبرني مزيدًا من التفاصيل، لكن كارولين أطلعتني مسبقًا عن الثمانية عشر شهرًا التي عانى فيها جوناثان بسبب رحيل زوجته التي قضى معها عامًا واحدًا، لتتوفى بعدها بسرطان الدم .

جاء لقاؤنا التالي بعد مضيّ أسابيع وبمحض الصدفة تمامًا، كان ستيفن حينها في أميركا مع الوفد المرافق له لمدة ثلاثة أيام، رافقت نايجل يكنز ومجموعة من طلاب صفِّه لحضور أمسيةٍ فكتورية قدَّمها العازف المنفرد ذو الصوت الجهوري بنيامين لوكسون Benjamin Luxon؛ لمحته على الفور في الجانب الآخر من القاعة، شخصية

مميزة لافتة للنظر، طويل القامة، ملتح بشعرٍ مجعد، فوجئت عندما تعرَّف إليّ في الاستراحة فعرَّفته إلى نايجل، وفي طريقٍ عودتنا أدلى نايجل بملاحظته قائلًا: «ما ألطف هذا الرجل!». فوافقته بحذر، مفضِّلةً التركيز على الموضوع الرئيس الآخر من المحادثة ألا وهو زواج نايجل المقبل من المغنية الأمريكية الموهوبة إيمي كلور Amy Klohr.

نتج عن هذا اللقاء قدوم جوناثان لتعليم لوسي العزف على البيانو يوم السبت أو الأحد بعد الظهر، وسرعان ما بدأت لوسي بالاعتياد عليه وعلى جدِّيته، فتحول التردد في سلوكها إلى حيوية وفرح، وحرص جوناثان بدوره على الالتزام بوقت الدرس بدقة في البداية، ثم أصبح يمكث مدة أطول قليلًا لمرافقتي في أغاني شوبارت التي كنت أتعلمها، بينما انشغل ستيفن بتوجيه عمليات لعبة السكك الحديدية في غرفة روبرت.

بعد أسابيع قليلة من هذا الروتين، صار جوناثان يشاركنا تناول طعام الغداء أو العشاء قبل أن يساعد على قضاء احتياجات ستيفن، مخففًا الحمل عن روبرت في الأعمال جميعها التي كانت ملقاة على عاتقه لمدة طويلة، تعرَّفنا إلى جوناثان أكثر فأكثر، وأصبح روبرت ينتظر قدومه أمام الباب الأمامي لينقض عليه لحظة وصوله، ويرميه على الأرض ويتصارع معه. استطاع جوناثان أن يتعامل مع هذا الشكل غير التقليدي في الترحاب بكل ذكاء وتجاوب مع احتياجات الصبي المتنامية للعراك لتفريغ طاقته الزائدة.

كانت اللقاءات التي جمعتنا عن طريق الصدفة في كثير من الأحيان خلال كل أسبوع مثيرة للدهشة، حيث كنا نقف إلى جانب الطريق، ونتحدث غافلين عما يفترض أن نقوم به، أو عن المكان الذي نكون فيه. كانت هناك موضوعات كثير ة نتحدث فيها؛ حداده، والوحدة التي يشعر بها، وطموحه الموسيقي، وفي الجانب الآخر مخاوفي على ستيفن والأطفال، ويأسي من الصعوبات التي تواجهني ومما هو مطلوب مني القيام به بتسامح وصبر، وبالرغم من أنه أصغر مني سنًّا إلا أنه جعلني بحكمته الكبيرة ونظرته الواسعة الأفق أنظر إلى الحياة بطريقة جديدة متحررة من القيود، واستطاع بإيمانه القوي جدًّا وروحانيته أن يضيء لي أفقي الأسود، كما لو أننا سلكنا حقًّا

الأرض المقدسة التي - ووفقًا لكلمات أوسكار وايلد - توجد حيث يوجد الحزن. لقد ساقتني الظروف والأقدار لأن ألتقي شخصًا عرف شدائد الحياة في مواجهة الموت.

تضافرت الظروف مرَّة أخرى لتجمعنا في أغرب الطرق، إذ كنت أواظب على حضور حفلات العشاء في كلية لوسي كافنديش مرّة كل فصل، وهدفي ببساطة هو الحفاظ على صلات التواصل ليس إلا.

وفي إحدى المناسبات بعد أن أُجهِدت مدخراتي المحدودة في إجراء الأحاديث، انتقلت إلى وضعية المستمع بعد أن تناهى إلى سمعي حديث يجري على المائدة، حين كانت زميلة كبيرة في السن من الكلية تدعى أليس هايم تكيل المديح للشاب الذي زار بيتها بانتظام ليعزف البيانو معها؛ الدفء الذي وصفته به، ولطفه في التعامل معها وموهبته الموسيقية التي أذهلتها، جعلته يبدو فريدًا من نوعه، أبولّو حقيقي. أدهشت تلك المدائح كلّها رفاقها المسنين على المائدة، فضلًا عن حماستها المتدفقة في وصفه، وعندما استفسروا عن اسمه أجابتهم: «جوناثان، جوناثان جونز هيلير».

شعرتُ باحتراقٍ في أذني، واكتسى وجهي بألوان المتعة، كأنني الشخص الوحيد الحاضر الذي يقاسمها تقديرها لهذا البطل الذي دخل حياتنا، ولا يمكن أيضًا أن يوجد شخص آخر أكثر دهشةً مما كنت عليه، بالقدر الذي جعل من ردَّة فعلي تتمثل في حمرةٍ علت وجنتيّ وحماسة شبيهة بحماسة أليس هايم، علمت أنّ التوهج الذي غمرني كان بسبب المتعة والحرج في آن معًا، وكأنّني متهمة بذنب سريّ، رغم عدم وجود سبب واضح، فهي ليست صداقة سريّة أو مشوبة بالذنب، بل كانت صداقة مبنية على اهتمامات مشتركة، وحرص على أحوال الآخر وتقديم الدعم لبعضنا، وقبل كل شيء كانت صداقة قوامها الأساسي الموسيقى.

8
يد العون

اقترح جوناثان أن أنضم إلى جوقة الكنيسة التي كانت تتمرن على مقتطفات من موسيقى المسيح Messiah [1] لتؤدّى بشكل أوركسترالي في عيد الفصح، أصبح روبرت ولوسي كبيرين بما يكفي لتركهما منفردين لمدة ساعة أمام التلفاز في وقتٍ مبكرٍ من المساء، وانضممت إلى مجموعة من أبناء الرعية الكورالية لتدريبات الخميس في الكنيسة، وبوصفي مبتدئة -إلى حدّ ما- فقد كان التعقيد البياني لجوقات هاندل -حيث الأغنام في المسرحية تركض بسرعة مفزعة تجعل كلّ شخص يمشي في طريقه- يمثِّل تحدِّيًا كبيرًا لي، وقد واجهته بحماسة مفرطة.

إضافة إلى الانضمام إلى الجوقة انضممت إلى الكنيسة، إنها تختلف عن الكنيسة الإنكليزية التي عرفتها منذ الطفولة، كانت الكنيسة الأنغليكانية خالية من عقيدة المنافقة والتحذلق الخانق، وذلك بفضل رؤية الكاهن بيل لوفليس Bill Loveless الديناميكية الحكيمة؛ الذي يتعارض لقبه مع شخصيته، هو صحفي سابق في (بيكتشر بوست[2]) Picture Post وممثل، وجندي، ورجل أعمال، أصبح على ما هو عليه بعد أن بلغ منتصف العمر، ذلك الرجل كان لا يزال ينعم بالسعادة والحيوية الهائلة، استحضر خبراته التي استقاها من أماكن عدَّة في حياته، بالإضافة إلى شبكة معارفه الذين كان يتواصل معهم لمساعدته في عمله الرعوي، وفي بحثه الذي لا ينتهي في الموضوعات ذات الصلة بخطبه. كان منتداه الشهري يتناول موضوعات مختلفةً تخصُّ الحياة اليومية، يُدعى إليها سلسلة من الضيوف المتحدثين من أطباء، ورجال شرطة، وعاملين اجتماعيين، وناشطين سياسيين، وهلم جرّا.

---

(1) موسيقى دينية مكتوبة باللغة الإنكليزية للمؤلف الموسيقي جورج فريدرك هاندل. (المترجم).

(2) مجلة بريطانية مصورة. (المترجم).

كانت ظروفًا استثنائية تلك التي جمعتني بجوناثان وأنا على حافة الانهيار، وفي الوقت ذاته، كانت الظروف نفسها عادية جدًّا لدرجة لم أقدر على تجنب ذلك الانطباع الغريب وربما الساذج، بأن لقائي بجوناثان كان بتدبير من القوى المحبَّة المحيطة بنا، التي تتجلَّى في أصدقائنا المشتركين، كنّا نتجرَّع أحزاننا الخاصة بتؤدةٍ في كلّ يوم، بانتظار المساعدة، أكان هذا اللقاء الذي جمعنا جزءًا من مخطط إلهي؟ أو أنني لست أكثر من إنسانة سخيفة، بل منافقة؟ كنت أعرف جيدًا مولييري الكامن في داخلي، فقد أردت البحث عن ذاتي أو عن جوناثان ليؤدّي دور تارتوف المنافق.

اختلفت رؤى من حولنا فيما يخصُّ علاقتنا، إذ اعتقد بعضهم أنّ هذا الدعم الذي ظهر في حياتي فرصة سعيدة لتخفف من ثقل الحمل الملقى على عاتقي، ووجد آخرون أنَّ الأمر مجرد مصادفة، أما بالنسبة إلي فإنَّ السمة المميزة للعطية الإلهية كانت مفعمةً بالتوتر ومجهدةً إلى حدِّ الانهيار، حتى في تلك المرحلة من ربيع 1978، حين كنا أنا وجوناثان بالكاد قد بدأنا بمواجهة مشاعرنا إزاء بعضنا بعضًا، وكان السؤال الأساسي الذي طرح نفسه هو: كيف لنا أن نتعامل مع هذه الهبة السماوية؟ كان الجواب مثل نصل سيف جارح على رقابنا، فهو يطرح احتمال تفريق الأسرة التي استثمرت فيها حياتي بأكملها في حال فكرت - مجرد تفكير - للحظات في أن نقوم أنا وجوناثان بصنع منزلنا الخاص معًا.

حينها لن يكون كافيًا الادعاء بأنني قد وفيت بعهودي لستيفن في ظلّ الظروف الصعبة التي عشتها على مدى مدة زمنيةٍ طويلةٍ جدًّا؛ لأن هذا لم يكن الأساس المنطقي القابل للتطبيق في تعاليم كنيستنا التي نؤمن أنّها تجعل من الإنسان، ومن ثم نحن، الأساس الحقيقي الوحيد للحياة الإنسانية، كان المسار البديل هو الوحيد الذي يمكننا اتباعه، ومن ثم يمكننا التصرف بالهدية السماوية لصالح الأسرة ككل، للأطفال وستيفن في حال استعداده لقبول هذا الوضع، فالمسار الأخير لن يكون سهلاً، وسيتطلب كمية دقيقة من الانضباط الذاتي، أما فيما يخص الاهتمام بستيفن فإنّ جهودي ستنكب على المحافظة على مسافة بين بعضنا أنا وجوناثان، وعدم السماح

لأنفسنا بأن تظهر منّا أي إشارات خارجية تنم عن المودة التي كنا نكنُّها لبعضنا، أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل أمام الملأ.

من حيث المبدأ، سترتكز حياتنا الاجتماعية دائمًا على ثلاثة أشخاص على الأقل - إن لم يكن خمسة- وليس على شخصين، وكان رفاه ستيفن والأطفال السبب المبرر لعدم تفكيرنا بمستقبلنا معًا. على صعيد آخر، كان من الأنانية احتكاري حياة شابٍ عانى الكثير من المآسي، ووجدت نفسي في دوامة؛ فالجواب التلقائي لأسئلتي كان معضلة في حد ذاته، فنحن قادرون على البقاء على قيد الحياة بوصفنا عائلة مع وجود جوناثان، لكن من دونه سيُحكم على العائلة بالهلاك.

بدأنا -على استحياء- بمكاشفة بعضنا بعضًا بالانجذاب الذي جمعنا، فبدَّد جوناثان الشكوك، ووَجَد أنه خفَّف من خلالنا -جميعًا- آلامه الناتجة عن خسارته الخاصة.

في إحدى الرحلات النادرة إلى لندن، وبينما كان جوناثان جالسًا في الجانب الهادئ من مصلى كنيسة وستمنستر، أعلن لي عن استعداده الدائم للالتزام معي ومع عائلتي مهما كلّف الأمر، كان ذلك تجسيدًا لأعلى درجة من نكران الذات، وقد جعلني هذا التعهد أحلق خارج الفراغ المظلم من حياتي، لكن هذه العلاقة المليئة بالنبل والتحرر بقيت علاقة أفلاطونية لمدة طويلة، إذ هدد الانجذاب المتبادل والعواطف الجامحة بالانفجار، فتسامينا عنها بالموسيقى التي تدربنا عليها معًا وعادةً في وجود ستيفن في عطلة نهاية الأسبوع، وأحيانًا في أمسيات الأسبوع نفسه، كان يكفيني أن شخصًا ما قد أشرق في حياتي ليكون سندًا لي ولو بشكل ضمني.

استقبل ستيفن في البداية حضور جوناثان في حياتنا برد فعل ذكوري عدائي، وقد حاول بطريقة آل هوكينغ تأكيد تفوقه الفكري، وكأنّه يواجه طالب بحوث جديدًا، لكن الأمر لم يطل حتى اكتشف ستيفن أنّ عليه نزع سلاحه غير المجدي مع جوناثان الذي لم يكن -بطبيعته- شخصًا تنافسيًّا، بل كان حساسًا جدًّا لاحتياجات الآخرين،

واستجاب بسلاسة لعجز ستيفن وسحر ابتسامته أكثر من التعامل مع سمعته المشهورة، وأصبح ستيفن أيضًا أكثر هدوءًا واسترخاء، وأكثر تقديرًا.

بات بإمكاني أن أضع ثقتي في ستيفن بطريقة لم يسبق لها مثيل. بالمقابل اعترف لي ستيفن في جوف الليل - بكل لطف وسخاء- بأننا جميعًا بحاجة إلى المساعدة، لا أحد أكثر منه، وإن كان هناك شخص على استعداد لمساعدتي، فإنه لن يعترض طالما واصلت محبتي له.

لم يكن من الممكن أن أفشل في حبه عندما أظهر لي عن طيب خاطر هذا الوعي المتفهم، والأهم من ذلك أنّ ستيفن جاء بنفسه ليخبرني باطمئنانه بعدم خذلان جوناثان لي حين كان جوناثان تحت وطأة الاكتئاب، وباستثناء تلك المرّة التي صارحني بها ستيفن بهذا الموضوع، فإنّنا لم نأتِ على ذكره إلا لمامًا، لكنني كنت مطمئنةً إلى حد كبير بأنّي أستطيع الوثوق بستيفن.

كانت محاولاتنا، نحن الثلاثة، قد شرَّعت الباب أمام مدة إبداعية متميزة، ولم يخلُ الأمر من أوقات التعب الممزوج بعناد ستيفن الفطري الذي كان يجرني إلى حافة الانهيار، ويظهر أنّ الاحترام الذي منحته زمالة ستيفن في الجمعية الملكية إضافة للميدالية البابوية لستيفن قد شكلت جواز سفر تلقائيًّا إلى عالم من التكريمات، في حين واصل بحوثه في فهمه للكون، وبدورها واصلت أنواع الهيئات الموقرة جميعها رحلتها في التنافس الدؤوب على منحه الميداليات والجوائز والدرجات الفخرية، تضمن ذلك دكتوراه فخرية من جامعته؛ جامعة أكسفورد، ولإرضاء حس الاستثنائية مُنح زمالة فخرية من كلية الجامعة.

اتسمت أجواء أعياد نصف السنة في الجامعة بالدفء والود، وشغلت تجاوزات طلاب ستيفن حديثنا، حيث كانت موضوعًا متكررًا يعيدنا إلى ماضٍ جميل، ومادةً لنبش ذكريات الأيام الخوالي، عندما كنّا نعيش في غرف جامعية يحتاج الوصول منها إلى أقرب حمام مسير مسافةٍ عبر البلاط البارد الرطب.

وفي شهر مارس آذار عام 1978 قررت كلية كيوس- بدافع رغبتها في نيل شرف السبق- رسم لوحة لستيفن، موكلةً المهمة إلى الرسام ديفيد هوكني David Hockney، ولما بدأ هوكني بالرسم أخذت لوسي تلهو قرب والدها، لترسم هي الأخرى على كرسي في زاوية غرفة المعيشة.

شكَّل الرسم النهائي مفاجأة لزملاء كيوس، حين وجدوا أنّ هوكني قد ضم لوسي إلى الصيغة النهائية للرسم تظهر لاهية خلف والدها، في اعتراف لطيف منه بخلفية ستيفن العائلية لخلق توازن في الصورة الرسمية له، وفي اليوم الثاني، قدَّمت لوسي تحيتها الخاصة إلى هوكني، حين كنّا نحتسي القهوة متمددين على عشب الحديقة في محاولة لاستغلال إشراقة وجيزة لشمس الربيع، وفجأة اندفعت لوسي من داخل المنزل، لتقفز في أنحاء الحديقة جميعها في كيس قفزها (بالون كبير مصنوع من مطاط قاس)، وقد أرخت رداءها حتى وصل إلى الركبتين، وكشفت عمدًا عن جوربيها مختلفي اللونٍ تمامًا مثلما يرتدي هوكني، أحدهما أبيض والآخر بني.

في أحد المساءات الشتوية الباردة من شهر شباط، انضممت مع ستيفن وزملائه إلى اللقاء الموقر في الجمعية الملكية، وذلك للاحتفال بقبول الأمير تشارلز بوصفه زميلًا فخريًّا؛ كانت الحافلة هي وسيلة نقلنا إلى هناك (قبل أن تركَّب مصاعد في الحافلات للكرسي المتحرك)، وكان عليَّ رفع ستيفن إلى متن الحافلة بمساعدة سائق الحافلة، في كل الأحوال لم يكن هذا الإجراء بأصعب من رحلة القيادة إلى لندن والبحث عن مكان لركن السيارة، كانت هذه المناسبة مصدر بهجة عظيمة لستيفن كذكرى طيبة لذلك التلميذ الذي كان يومًا ما غير جدير بالتقدير، والآن بالكاد يميز تحت ثقل المظاهر المبهرجة لتقدير المؤسسة.

خلال مراسم الحفل، أثنى الرئيس الجديد للجمعية الملكية على الأمير لجهوده الملكية المكرَّسة لرعاية الجمعية التي أسَّسها -حسب قوله - الأمير تشارلز الذي يحمل نفس اسم تشارلز الثاني، ومن ثم تابعها ابنه جيمس الثاني، لكن ما إن نطق بكلمته الأخيرة حتى انطلق ستيفن مقهقهًا ليعلن بابتهاج وبأعلى طبقة يقوى عليها من صوته الهامس: «لقد أخطأ، فجيمس الثاني هو شقيق تشارلز الثاني وليس ابنه».

وفي حفلة الاستقبال التي تلت المراسم متَّع ستيفن نفسه أكثر، حيث اقترب بكرسيه المتحرك من الأمير تشارلز، وعندما وصل إلى أقرب نقطة له أسرع على مسافة قريبة جدًا منه، يكاد يكون فوق حذائه الملكي المصقول للغاية، وكرر ستيفن تلك الفعلة في وقت لاحق مع رئيس أساقفة كانتربري في حفل عشاءٍ في كلية جون في كامبريدج.

كانت مهنة جوناثان في المقابل أقل غرابة بمراحل كثيرة من ستيفن، ففي الواقع كانت مهنته قد بدأت بالكاد، وبصرف النظر عن المأساة المدمرة التي تعرَّض لها، وإحباطه من كونه موسيقيًّا مكافحًا في أيام مظلمة قاتمة تعرض لها في بعض الأيام، فقد عمل -سابقًا- مرتِّلًا، وحاز على بعثة من كلية سانت جون، كان مكتفيًا بطموحه إلى حدٍّ جعله راضيًا على اقتصار عمله على الدروس التي يعطيها في تعليم البيانو المثبط للهمم، لكن شخصيته المحجمة بطبعها وحياءه الجمّ يميل إلى إخفاء موهبته الحقيقية بوصفه عازفًا للأرغن والبيان القيثاري، كان لديه حب هائل ومعرفة واسعة في موسيقى الباروك ولا سيما باخ، خصوصًا عندما تُؤدَّى مقطوعاته بآلات أصيلة، كان هذا الشغف الموسيقي منفذه الضئيل خارج الروتين الممل لتعليم البيانو في المدارس، واقتناعًا منه بأنّ لديه مهمة مقدسة تقتضي القيام بفطم آذان الجمهور عن الآلات الحديثة الرنانة والتفسيرات الرومنسية، وصولًا إلى الأبعاد الخفية لتقنيات أداء الباروك، كان بالكاد يعرف من أين يبدأ تنفيذ مهمته تلك.

تحوَّلت الأصالة في الأداء إلى موضوع قيد المناقشة في أثناء تناول وجبات الطعام، عندما يسمح لنا الأطفال الذين انتحوا جانبًا ليمارسوا ثرثرتهم الخاصة في أن ندير محادثة لبعض الوقت، حيث يبدأ ستيفن في مضايقة جوناثان حول الصعوبات في العزف على البيان القيثاري، مصرًّا على أن وضع إطار صلب على الآلة من شأنه أن يحل المشكلات التي تستغرق وقتًا طويلًا في ضبط الآلة، أشار جونسون - ردًّا عليه- إلى أنّ الآلة بشكلها الذي تكلم عنه ستيفن سوف تصبح آلة مختلفة تمامًا وغير مناسبة للأداء الباروكي الأصيل، إضافة إلى أنها لن تصبح آلة محمولة، بل ستتحول إلى بيانو.

بالرغم من حس الفكاهة الدائم والمداعبات المتبادلة، إلا أننا أصبحنا أنا وستيفن معنيَّين بالمشاركة في الموسيقى وتشجيع جوناثان لأخذ زمام المبادرة، والابتعاد عن التدريس والتوجه إلى الأداء الموسيقي، لكن هذا الاقتراح جاء بمعضلة كان جوناثان على دراية تامة بها، وتكمن في أن الاتجاه إلى أداء الموسيقى يحتِّم عليه هجر معظم ساعات التدريس ليكرس وقته للتمرين والممارسة، في الوقت الذي كان فيه التدريس مصدر دخله الوحيد. أما الميزة الوحيدة التي يمتلكها فهي اقتناؤه آلته الخاصة.

كلما خضنا نحن الثلاثة في مناقشة هذه المشكلة أدركنا أن السبيل الوحيد لجوناثان هو خلق فرصته الخاصة بنفسه، والتي تضمن له بناء ذخيرة تخوله للاعتراف به بوصفه عازفًا في بيئة ذات قدرة تنافسية عالية مع استمرار كسب الدخل من التدريس، وذلك يمكن إنجازه بشكل تدريجي عن طريق الترويج له بوصفه عازفًا من خلال تقديم خدماته للمؤسسات الخيرية، وقد نشأت علاقة تكافلية النوع بينه وبين جمعيات خيرية مختلفة شارك في أنشطتها؛ ولاسيما في تلك التي تُعنى بسرطان الدم وأنواع أخرى من السرطان.

قدم جوناثان الحفلات مجانًا، فساهم ذلك في شحذ مهاراته في تقنيات الأداء الذي لم يكن مجرد لعبٍ في النوتات، بل حضورًا كاملًا يتغلب فيه على الأعصاب من جهة والتخطيط والتقديم للبرنامج من جهة أخرى، واستفادت الجمعيات الخيرية بشكل كامل من الأرباح التي اجتزئت منها تكاليف الدعاية فقط.

وفي الوقت نفسه، توصلت أخيرًا إلى إحكام قبضتي على العصف الفكري الذي اجتاح ذهني فيما يخصُّ أطروحتي، وفي الحقيقة، نادرًا ما اعترفت بالمدة التي أمضيتها للوصول إلى تلك المرحلة، إنّها رحلة اثني عشر عامًا وطفلين، شعرت في نهاية الدرب أنّ المشرف على أطروحتي، آلان ديرموند Alan Deyrmond كان محقًّا حين أصرَّ على أن أعود للتسجيل في جامعة لندن كأنّني طالبة جديدة؛ لأنه حريٌّ بأي جامعة أخرى أن تفصلني منها بعد غيابي كلّ تلك الأعوام.

كان الدرب شاقًّا والرحلة طويلة ومضنية، وحين تملكني الإحباط من وصولي إلى نهاية تلك الأطروحة، أضاء جوناثان حياتي ليقف لي في نهاية الدرب، تمامًا عند الخطّ النهائي للسباق، هاتفًا لي بأن أتابع تقدمي، أعطى جوناثان الموضوع اهتمامه الكبير فتحفَّزت كثيرًا، كان يطلب إليَّ في نهاية اليوم حصيلة الإنجازات والأرشيف، ويصغي لبضعة أبيات من الشعر، ويمد يد العون في فرز فهرس البطاقات وعدد هائل من الملاحظات المدوَّنة على قطع غريبة من الورق.

ذلك الاهتمام وقليل من المساعدات العلمية التي أمدَّني بها كانت كلَّ ما يلزمني لشحذ عزيمتي والانطلاق من جديد إلى الجزء الأخير من رحلتي، إذ كان من المقرر أن يتناول الفصل الأخير من أطروحتي لغة الشعر الشعبي للقشتاليين في العصور الوسطى ويضعها في معرض التحليل. اتسمت الكلمات القشتالية بتنوعها، وكأنّها باقة ملوَّنة من الزهور الحيّة النضرة، وامتلأت -بصورة كثيفة- بالمفردات الصورية الأيقونية من حدائق ونباتات، وفواكه وطيور، رمزًا لتعدد جوانب الحب وبوصفها إشارات دينية أيضًا، فالحديقة ترمز للمحبوب فضلًا عن كون تلك الصورة رمزًا لفضائل مريم العذراء، أما النافورة التي تقع في المركز فهي ربيع الحياة ورمز الخصوبة على حد سواء، والتفاح هو ثمرة السقوط، وقد استمدت إسبانيا هذه المجموعة المتميزة من الصور الحيّة من المشاهد الطبيعية الرائعة التي تمتاز بها.

الفاكهة التي تذوقتها الراهبة الحزينة هي (الليمون المرّ)، في حين كان العشاق في ظلال بستان البرتقال الحلو مغتبطين فرحين، وبالمثل فإنّ بستان الزيتون أصبح مسرحًا لاجتماعات العشاق، عادت هذه الصور المتنوعة للظهور في شعر يهود السفارديم[1] Sephardic Jews الذين طُردوا من إسبانيا في عام 1492، وظهرت هذه الصور مرّة أخرى في شعر العالم الجديد بوصفها خير دليل على ظهورها الفلكلوري المبكِّر، وقد مثَّلت هذه القصائد تقليدًا متينًا وثيقًا دائمًا للأسلاف من المستعربين

(1) تعود الأصول الأولى ليهود السفارديم إلى اليهود الذين طُردوا من إسبانيا في القرن الخامس عشر، وتفرقوا في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى. (المترجم).

والجاليكين، غنتها -عادةً- الفتيات الشاكيات لوعة فراق المحبوب، ليلتقي العشاق مع مطلع الفجر ، ولتبقى الأم شخصية ثابتة في تلك القصائد.

اعتدت الكتابة في البداية خلال أيام الأسبوع بشكلٍ متفرق لما يقارب نصف الساعة، وما لبث أن تدفق كلُّ ما طال انتظاره في عطلة نهاية الأسبوع، يومي السبت والأحد بعد الظهر، انسابت الأغاني مع تناولي الشّره لكل ما وضعه نايجل أمامي من موسيقى لشوبرت، وشومان، وبرامز، وموزارت، وبريتن باخ، أو بروسيل، ليصبح نايجل بمثابة (سفنغالي[1]) Svengali الشخصي. أما ستيفن فكان له الفضل بامتلاء مكتبتي بموسيقاي المفضلة؛ حيث أمطرني بها في مناسبة عيد ميلادي، وضمن هدايا الميلاد.

طُلب إليَّ في بعض الأحيان تأدية بعض الأغاني المنفردة في الكنيسة، فأصعد إلى المسرح وقد تملكتني رهبة هائلة، لكن في نهاية المطاف كانت حصيلة التدريب والممارسة أنني أصبحت أكثر تمالكًا لنفسي، ليخرج بعدها صوتي منسابًا مترقرقًا كأداةٍ موسيقية، كنتُ أول المذهولين بها فهو بالكاد يمتُّ لي بصلة، وكان الصوت الذي يخرج من حنجرتي قويًّا واثقًا، كأنه ينتمي إلى شخص آخر، شخص على أهبة الاستعداد، واثق ومتأكد.

وفي ذلك الربيع زارنا شقيقي كريس برفقة زوجته بينيلوب وطفلتهما للبقاء معنا لمدة، قدمت لهم جوناثان بصفته صديقًا جديدًا، ومن لطفهم أنهم لم يطالبوا بشروح وافية للوضع الذي لم أتمكن أنا نفسي من تفسيره بشكل تام، كان شقيقي وزوجته جمهورًا متقبِّلًا ومقدرًا لبعض الأغاني التي كانت تدور في تلك الأمسيات، ويبدو أنّ تلك الأجواء الجديدة التي كانت تعم غرفة جلوسنا في ذلك اليوم أثارت نظر

(1) سفنغالي: هو اسم شخصية البطل في رواية (Trilby) لجورج دو مورييه (George Du Maurier) عام 1895، وتعني مفردة سفنغالي الشخص الشرير الذي يحاول السيطرة والتلاعب بالشخص المبدع مثل الفنان أو المغني. (المترجم).

بينلوبي التي وجدتها أمرًا شبيهًا بالسحر، وكأنها شعور هائل بالسلام والهدوء قد حطَّ بمنزلنا.

أما كريس فقد عزز ثقتي بصداقتي الجديدة، وكان توافقه مع جوناثان كبيرًا لدرجة أنه قد أخذني جانبًا قبل مغادرته، وأخبرني كم هو رائع ذلك الشخص بعيونه البيزنطية الملامح. وفي وقت لاحق هاتفني من ديفون لنتحدث لمدة طويلة في مناقشة وضعي والطريقة التي تتغير بها حياتي، ولاقت تلك النصائح صداها في قلبي، حيث استشفَّيت الصدق في حروفه: «لقد أمضيتِ حياتك تتولين مسؤولية توجيه زورقك وسط بحر هائج ووجهة مجهولة، إن كان هنالك من شخص لديه الاستعداد ليمسك بيدك ويوجه القارب إلى برِّ الأمان، فاسمحي له بذلك واقبلي بالمساعدة التي يمكن له أن يقدمها».

في وقت لاحق من ذلك الصيف زارتنا مديرة مدرستي الثانوية السيدة هيلاري جنت، التي كانت تخصُّنا بزيارتها السنوية ضمن جولتها في أنحاء البلاد؛ لترى فيها زملاءها القدامى وطلابها الذين مرّوا خلال رحلة تعليمها الطويلة. كان لديها ذلك النوع من الذاكرة التي تمتص الوجوه والأسماء والحالات، وتحتفظ بها بطريقة يصعب بعدها محيها، استمتعتْ بشبكتها الاجتماعية الكبيرة التي مكنتها من ربط الفتيات اللواتي كنَّ يومًا تلميذات على مقاعد الدراسة بالمعلمين القدامى، والعكس أيضًا، كما نظَّمت حلقات تعارف بين الناس الذين ينتمون لمراحل مختلفة في رحلة حياتها، والذين لم يسبق لهم أن التقوا ببعضهم قطّ؛ امتلكت بدورها عينَي صقر شديدة المراقبة، واستشعرت بحساسية مرهفة إنهاكي ومعنوياتي المنخفضة خلال السنوات الماضية، وحاولت جاهدة أن تفعل ما بوسعها لانتشالي عن طريق مراسلتي دائمًا بكلمات مشجعة، ومحاولتها لوضعي على اتصال مع الفتيات القدامى من سانت ألبانز ممن جِئنَ إلى كامبريدج.

لكن نادرًا ما سمحت لي حياتي بمتاهاتها المتشابكة باتباع تعليماتها ونصائحها، كنت في سن الثالثة والثلاثين، أميل لرفقة كبار السن كاعتراف ضمني بأني الآن قد تحوَّلت إلى شخص متقدم في السن؛ فقد شاخت الروح، وأصبحت بحاجة ماسة

إلى حالة الاطمئنان الفلسفي التي تتولد عند المسنِّين للتصالح مع معضلة الشيخوخة والموت، تلك المعضلة التي كنت أراها تحدق بي.

كانت الفنانة السابقة دوروثي ولارد Dorothy Woollard أكبر الأشخاص المسنين في حلقة معارفي، وثابرت على زيارتها مرّةً كل أسبوعين تقريبًا، وجلست في مسكنها المحتجب عن ضوضاء الخارج، وأصغيت بنهم إلى حكاياتها عن الماضي، ورثيت بصمتٍ حالها في ظلِّ ظروفها القاسية؛ كانت غرفتها مثل واحة هادئة من العزلة والتأمل بعيدة كل البعد عن الروتين المحموم في الخارج، تلقت دورثي ولارد - أو كما دعوتها دو- تدريبها في مدرسة بريستول للفنون، وحظيت حين كانت شابه بفرصة لقاء الملكة فكتوريا.

رسمت تلك المرأة العجوز الضئيلة بشعرها الأبيض المغطى بقلنسوة سوداءخلال الزيارة الملكية إلى بريستول صورةً لمجسم منزل الملكة ماري في قصر وندسور Windsor Castle، فضلًا عن أنها عملت في رسم التخطيطات البيانية في الأدميرالية خلال الحرب العالمية الأولى. لم تتزوج قطُّ، لكنها كرَّست سنين عديدة من حياتها لرعاية معلمها المحبوب، الذي تحول ببلوغه سن الشيخوخة إلى مُقعدٍ على كرسي متحرك، ووجدت في لوحاته كنزها الأغلى، فزيَّنت جدران غرفتها بها وسط مجموعةٍ واسعة من رسوماتها المائية ونقوشها المتقنة، وفي حين تقاعد من هم في سنها من الأنشطة جميعها حافظت دو على نشاطها، وذلك من خلال ترجمة الكتب إلى طريقة بريل لتظهرر كأنها شعلة متقدة من النشاط والحيوية، وفي ذات مرّة تركت مائدة العشاء لتثبت لنا قدرتها على لمس أصابع قدميها وهي واقفة، الأمر الذي أذهل والديّ الحاضرين، أما طول عمرها (عاشت حتى عمر المئة) فقد أرجعته إلى شرب الشاي في مدة ما بعد الظهر، وإلى مشروب المتَّة، وهو مشروب من أمريكا الجنوبية قدمته لي حين زرتها ذات مرة. في هذا المحيط الذي كان بعمومه من الأشخاص كبار السنّ كانت الآنسة جينت -التي تبدو أصغر بعشر سنوات على الأقل- الوحيدة التي يمكن أن تنافسنا بوضوح فكرها وسرعة بديهتها الحاضرة دومًا، وقد أنعم الله على الامرأتين

بإدراك الحكمة والحساسية اتجاه مشكلات المرض لدى الآخرين، ومن الصعب أن تجد تلك الصفات في من هم في مقتبل العمر عمومًا.

حين قدمت الآنسة جينت لشرب الشاي ظهيرة يوم سبت، كان جوناثان موجودًا، فدخل الاثنان في محادثة امتدت طوال مدة الظهيرة، فيما جلسنا أنا وستيفن ذاهلين لتلك المحادثة الطويلة بين جوناثان الشاب في أواخر العشرينيات والآنسة جينت في أواخر السبعينيات، لقد كانت دائرة المعارف المشتركة بينهما كبيرة لمعرفة الآنسة جينت الوثيقة بالموسيقى والساحة الموسيقية.

حين ذهبت لإعداد الشاي لحقت بي الآنسة جينت إلى المطبخ لتعلن لي بصراحة متميزة: «أشعر بسعادة عارمة لأنّك مع جوناثان الآن، لا أدري كيف سُوِّي الأمر لكنك تستحقين وجود شخص ما ليدعمك ويساندك. لقد كافحتِ كثيرًا ولمدة طويلة من الزمن وتستحقين ذلك الشاب الرائع». ربما قالت هذا الكلام لأنّها امرأة مسنة وعانس، ناهيك عن أنها مديرة مدرستي السابقة، شعرت بتلك الكلمات تخرج من فم العزيزة ثيلما تاتشر، وكأنها كانت تخبرني بأنّ هذه العلاقة هي إشارة من القدر يجب تلقفها كأعطية سماوية.

في الصيف كانت المرة الأولى التي التقى بها والداي بجوناثان، كما جرت العادة بقي والداي متحفظَين عن التعبير عن آرائهما، لكن أفعالهما - في الوقت نفسه - تضمنت إشارةً أبلغ من أي كلمة، كانت تصرفاتهما توحي بأن حضور جوناثان في حياتنا كان منذ زمن بعيد، حتى إنهم لم يدلوا بأي تعليق حول وجوده في منزلنا بشكل منتظم؛ ومن جهته أفسح جوناثان -بكل لباقة- المجال لوالدي للعزف على البيانو، فأشعل والدي بحبه لبيتهوفن جذوة الموسيقى في روحي.

في حين كان والدي غارقًا مع بيتهوفن في مقطوعته الشهيرة السوناتا العاطفية the Appassionata، دخلت والدتي مع جوناثان بمناقشة مزايا الآلات الموسيقية القديمة، فأخبرها عن حملته النشطة للإبقاء على الآلات الأصيلة، أما رأي والدتي في جوناثان فلم يصلني صريحًا وواضحًا إلا في وقت لاحق حين التقينا بوالدَي جوناثان، حيث

أدليت حينها بملاحظة لوالدتي عندما قلت لها: « كم هم لطيفون ورائعون هؤلاء الناس»، فرمقتني أمي بنظرة دهشة قائلة: «ما الذي كنتِ تتوقعينه من عائلة أنجبت ابنًا مثل جوناثان؟ بالتأكيد هم رائعون. كيف يمكن أن يكون الأمر مخالفًا لذلك أيتها الساذجة؟».

افترقنا في الصيف، وذهب كل منا إلى ارتباطاته متوقعين أن يلتم شملنا في الخريف من جديد، وغادر جوناثان بريطانيا إلى النمسا للتدريس في المدرسة الصيفية للباروك، أما أنا فقد شرعت بالتخطيط للذهاب إلى جزيرة كورسيكا.

لم أعد أرى جين القديمة في مرآة نفسي، بل تنامت ثقتي بنفسي بحلول ذلك الوقت، حتى مخاوفي القديمة بدأت بالتلاشي وإحداها كان عقدة الطيران التي لازمتني طويلًا، ذلك الخوف المرعب من الانفصال عن الكائنات التي تصغر وتصغر كلما ارتفعنا لتظهر كم هي ضئيلة وضعيفة في آنٍ معًا.

قطعت عهدًا مغريًا لنفسي بعد أن أصبح الأطفال أكبر سنًّا، بأن أمضي بعض الوقت في عطلة قرب البحر المتوسط في إحدى الجزر الفرنسية، لكن في هذه المرّة لم تشكِّل حقيقة أن العطلة أيضًا لحضور مؤتمر في الفيزياء أيّ عائق أمام الاستمتاع بكل تفاصيل المكان، بل كانت في الحقيقة الحل المثالي لستيفن وزملائه كلهم للتفرغ كليًّا لمحبوبتهم الأزلية (الفيزياء)، وأيضًا حلًّا للعائلة التي ستستمتع بأفضل عطلة شاطئية على بعد مرمى حجر من مركز المؤتمر، كنت أتطلع بشوق لرؤية عائلة كارتر مجددًا، حيث كنت أنوي أن ألتقي لوسيت، تلك التي وُهبت مقدرةً بديهية على فهم الناس والعلاقات، وأبوح لها بكل ما يعتمل في صدري من مشاعر، وعما يجري في حياتي من مستجدات، ولا شكَّ في حصولي منها على المشورة الصائبة.

9
المفاجأة

جاء انعقاد المؤتمر في مقره الواقع على الشاطئ الغربي لكوستاريكا بمثابة حل رائع للعلماء المساهمين عن العالم في فيزيائهم الأثيرية دون التفكير بعائلاتهم الشابة، ففي حين كان ستيفن يمارس متعته الخاصة في الفيزياء، كنّا أنا والأطفال نستلقي على الرمال الدافئة أمام مشهد البحر المتلألئ تحت أشعة الشمس الساطعة، وكانت هذه السعادة المستكينة بين الحين والآخر عرضةً لغضب عارم نتيجة الارتفاع الهائل للأسعار في تلك الجزيرة بغية منع السياحة الشعبية هناك، والإبقاء على شواطئ الجزيرة وخلجانها في حالة نظافة وعدم ازدحام، تمامًا مثل جزيرة مايوركا.

عُقد المؤتمر في كارغس Cargese، وهي بلدة أُسِّست لتكون موطنًا لليونانيين الذي لجؤوا إليها هربًا من بطش الأتراك في القرن الثامن عشر، وقد كان تجلى ذلك الوجود اليوناني في أسماء الشوارع وأسماء العائلات وأسماء الفنادق كذلك، تفتخر كارغس بكنيستَيها اللتين تزيِّنان الجروف المطلة على المدينة، إحداهما لاتينية والأخرى يونانية، وفي كلتيهما يتناوب الكاهن نفسه بينهما كلّ أحد على التوالي لتأدية الصلوات. حضرت أنا ولوسيت الطقوس اليونانية مفتونتين بروح الانسجام المثالي الرائع فيما قد ينقسم المجتمع حوله، ضمت الكنيستان كلتاهما صورًا ليوحنا المعمدان الذي ظهر رمزًا يونانيًّا بملامحه البيزنطية الحادة الوضوح، والمتكررة في كلّ صور القديس ذي العينين المشدوهتين اللتين رأيتُ فيهما عيون جوناثان، لكن تلك الرؤية لم تلهمني الشجاعة الكافية لأبوح للوسيت بعلاقتي به، في كل مرة استجمعت قواي لأخبرها سواء بالإنكليزية أو الفرنسية، خانتني الكلمات واستعصت على النطق، وحاصرني ذلك الشعور المرير عند أدنى تلميح بعدم ولائي لستيفن.

وعلى الرغم من أنّ تلك العلاقة العظيمة قد بثت فيَّ الروح من جديد، لكنها أجبرتني بشكل ما على عيش حياة مزدوجة، وقد تنقلب تلك المشاعر لتصبح صعبة

للغاية بقدر صعوبة التوتر والضيق الذي خيَّم عليَّ في الأشهر والسنوات السابقة، كنت أستجمع شجاعتي حين تحضرني كلمات الآنسة جينت ونصائح شقيقي كريس، لكن تلك الشجاعة نفسها ولَّت هاربة مني عند مرافقتي الفيزيائيين وعائلاتهم ممن كان ستيفن بالنسبة إليهم بطلًا مذهلًا بإمكاناته. كنتُ بحاجة إلى أن أبثَّ همومي إلى أحد ما، فكان لي ذلك في خليج هادئ بعيدًا عن صيحات الأطفال، هناك، جلست في زاوية بين الصخور لأكتب رسالة طويلة لجوناثان في محاولة مني لترتيب أفكاري المبعثرة لعلّي أجد مخرجًا من ضميري المضطرب. أخبرته كم يملؤني الشوق له وبشعوري بالامتنان الأبدي تجاهه، لهذا الضوء الذي أنار حياتي ساطعًا كضوء شمس كورسيكا التي تخترق أعماق المياه الخضراء للمحيط الشاسع، كم كان حاضرًا بمساعدته الدؤوبة التي أحدثت تغييرًا في منزلنا، وقلصت التوتر وفرضت طابعًا سلسًا في التعامل، لكن هذه السعادة التي طغت على حياتي لن تدعني أجازف بتدمير عائلتي، وبصري في عن واجباتي تجاه ستيفن وأطفالي، ستيفن الذي عشتُ معه الكثير من الصعاب لن أستطيع الآن أن أتنصل من زواجي به في الوقت الذي تحوَّل فيه ليصبح أشبه بطفل صغير لا حول له ولا قوة، ولن أتنصل من حاجته إليَّ أكثر من أي وقت مضى. أرخيت بثقل أفكاري ورأسي العاصف على صخرة دافئة، كنت في قرارة نفسي أُعِدُّ ذاتي للأسوأ، فليس غريبًا على الإطلاق أن يقرر جوناثان - بعد أن يملي التفكير في علاقتنا- التوصل إلى خلاصة منطقية. فالارتباط بأسرة هوكينغ يحمل معه كثيرًا من التحديات المادية والصعوبات العاطفية، وفي حال اتخذ قراره بالابتعاد، فإنّ الأمر سيكون مفهومًا ومبررًا بكل تأكيد، فلماذا يريد ذلك الشاب الحرُّ أن يُحمِّل نفسه أعباءنا وكل ما أوتينا من مشكلات معقدة، ويدخل بكامل إرادته إلى هذا الفخ العاطفي، ذلك الشاب الفتي تنتظره حياة سعيدة بكاملها.

تلاشت ذكريات كورسيكا بسرعة على طريق العودة إلى الوطن، لكن تلك الإجازة أورثتنا تذكارًا دائمًا لن يمحى ولن يزول، فعند عودتي إلى روتين الحياة اليومية في كامبريدج ذلك الخريف، وتضاؤل الاحتمالات بأن يعيد جوناثان التواصل معنا مرة أخرى، وتلاشي آخر احتمالات لمِّ الشمل بين سحب أيلول، عادت الأيام لدورتها

القصيرة، وتسلَّل الهواء القارس منذرًا بالشتاء القادم، أما أنا فانكفأتُ إلى قلق آخرَ جديد، أراقب التقويم والتاريخ لأسقط ذاهلة حائرة أمام احتمال أن أكون حاملًا.

كنت قد هجرت وسائل منع الحمل بعض الوقت، إذا إنّها بالكاد تعنيني. ومع مرور الوقت وفي كل ساعة استيقاظ والعديد من ساعات الأرق ليلًا زاد إدراكي بأنّ راحة البال التي رافقتني من المناخ المتوسطي قد هجرتني إلى الأبد، كنت أعشق أطفالي، لكن فكرة الاعتناء بطفل آخر سيعتمد عليَّ كليًّا في متطلباته، وسيكون أمرًا لا يطاق دون الاستفادة من مساعدة جوناثان، تلك المساعدة التي جمعت الأسرة الموجودة لمدة عام تقريبًا، لماذا يتعيَّن عليه أن يحمل على عاتقه مسؤولية طفل آخر من تلك العائلة، في حين أنّه لم يكن لديه أطفال وربما لن يكون له طالما بقي مرتبطًا معنا، وهو الاحتمال الذي لا يمكن تصوره؛ إن تحتَّم عليَّ خسارته فسأفقد بتلك الخسارة كلَّ أملٍ في المستقبل وسأعود إلى وحدتي الأزلية مرّةً أخرى.

في اللحظة التي تأكد فيها الحمل، كان ستيفن قد غادر لمؤتمر في موسكو، ووافقت والدته على الذهاب معه بدلًا عني لمعاناتي الشديدة من غثيان الحمل الصباحي، كما غادر دون مع والدته في إجازة استحقها بجدارة بعيدًا عن الكمِّ الهائل من كل تلك الواجبات التي أداها بكل نزاهة.

وكأن اقتراب الشتاء في كامبريدج كان مرآةً لشتائي الخاص الذي أطبق بقبضته الجليدية على أعماقي الكئيبة، ذلك الشتاء الداخلي الذي كنت على وشك الإفلات من براثنه للأبد سرعان ما أطبق عليَّ من جديد، كتبتُ إلى جوناثان لأعلمه بأمر الطفل، دون علمي إن كان قد عاد من مدرسته الصيفية في النمسا، وقد تملَّكني يقينٌ بائسٌ أنَّ هذه الكلمات لن تلقى الرد، وأنها بمثابة التوقيع النهائي المفاجئ لتلك الأشهر القليلة من الهناء والسعادة الأفلاطونية، لكن المفاجأة جاءت حين تلقيت رسالة منه، والمفاجأة الأكبر هي قدوم الرد على صورة اعتذار لعدم وجوده بقربي في الوقت المناسب لهضم هذا الكم الهائل من المستجدات والتكيُّف معها، أما التزامه معنا فهو لم يتغيَّر، ولن يتغيَّر، على الرغم من عدم معرفته بأمر الطفل، فإنّه على يقين أنني بحاجة المساعدة الآن أكثر من أي وقت مضى، وهو مستعد لتقديمها.

كم أنا مباركة! هذا ما شعرت به في تلك اللحظة، غمرني امتنان رائع لهذا الدعم الهائل من هذا الإنسان الذي أيقظت مأساته الخاصة تعاطفه الإنساني داخله، وجعلته ينظر إلى مصائب الآخرين بعين الرحمة؛ مهما كانت درجة استثنائيتها، مدَّ جوناثان يده لي، قبل تلك الرسالة لم أكن أنا في أعماق الماء فقط بل تحت طبقات من الجليد أذابتها شجاعته، وحوَّلت أشهر حملي الطويلة من قلق وانتظار إلى ترقُّبٍ يحذوه الأمل، بل إن انتظاري غدا ممتعًا، أعاد الاطمئنان العاطفي والهبة المباركة التي منحني إياها جوناثان تفاؤلي الذي مكنني من التحضير لتحدٍّ آخر يختلف عن أي تحدٍّ خضته من قبل؛ لكنني أعلم هذه المرّة علم اليقين أنَّ لدي في هذا العالم من انتشلني من الضعف ليقف معي ويساندني، التحدي الآخر الذي جاء بالموازاة مع حملي هو أطروحتي التي يتعيَّن عليَّ الانتهاء منها بحلول وقت ولادتي للطفل، وإلا فإنّ حصيلة جهدي سيلقى في سلة المهملات.

ارتدت الروح إليَّ، وأصبح الحافز موجودًا لأعود إلى الانكباب على العمل رغم تقطع مدده وعدم انتظامها. وكما جرت العادة، فإن أوقات الكتابة كانت بين الجولات المعتادة للأعمال المنزلية، ورعاية ستيفن، وحفلات الأطفال، وأمراضهم أيضًا، ووجبات العشاء والغداء، والزوار ، والرحلات وكل ذلك العدد الهائل من التفاصيل.

أضيفت إلى تلك الدوامة زيارتنا لمؤتمر الفيزياء في دبلن، كانت المرة الأولى التي نزور فيها إيرلندا؛ رافقتنا لوسي في تلك الرحلة لتظهر على الصفحة الأولى من صحيفة دبلن تايمز في مظهر لا يختلف عن تلك الصورة التي رسمها هوكني لها، فقد وجدها مراسل تختبئ خلف الباب وهي منهمكة في قراءة كتاب في أثناء استقبال رسمي للحكومة، كان جوناثان حاضرًا دائمًا للعون، وساعد ستيفن على احتياجاته، وكان مع الأطفال ومعي في الكورال، حتى في التسوق؛ وهذا ما دفعني للعودة إلى أطروحتي رغم تقدمي المتعثر.

وتنافس على الوقت الذي كنت أمنحه للكتابة كلٌّ من الموسيقى ومواعيد المستشفى، الموعد الأول لزيارة طبيبي كان في نوفمبر/تشرين الثاني حين أدركت فجأةً حقيقة وجود جنين عمره أربعة عشر أسبوعًا. ذلك الكائن الغامض، المخلوق الأثيري،

يهمس لي بكلمات تشير إلى وجوده عن طريق اختراع علمي جديد هو جهاز التصوير بالموجات فوق الصوتية. وبعد إمطاري بوابل من الاختبارات المعتادة أوصلني الأطباء إلى ذلك الجهاز، وحين أصبحوا راضين عن النتائج سألوني عن رغبتي في الاستماع. تناهت إلى أذني أصوات محبَّبة، وإيقاع حفيف يصدر عن قلب صغير يدقُّ بسرعة، ويتحرك بصورة مؤثرة أيقظت فيَّ الرابط العميق مع الحياة الجديدة التي كانت تنمو في أحشائي، والتي استمعت إلى نبضها دون أن أراها، كأن طفلي يتقرب إليَّ من خلال موسيقى ضربات قلبه، وهكذا قبل الولادة بوقت طويل بدأت أعتز بوجود طفلي غير المرئي بعد، لأهبه محبتي بالقدر الذي أحببت فيه لوسي وروبرت.

كانت الموسيقى رفيقة دربي في مدة الحمل طوال فصل الشتاء، وعُيِّن جوناثان على مواردنا الذاتية بمنصب موظف الترفيه؛ جلب لنا تذاكر الحفلات التي كان كثير منها في قاعة الحفلات الموسيقية في الجامعة على مسافة خمس دقائق من المنزل فقط، وأتاح لنا عدم وجود مكان مخصص للكراسي المتحركة فرصة ذهبية للجلوس بالقرب من منصة المسرح إلى جانب الموسيقيين، والتمتع بمشهد كامل للجمهور، وفي أحيان كثيرة كانت مجموعة من أشهر الموسيقيين من منيوهين Menuhin إلى شوارزكوف Schwarzkopf يتأخرون في خروجهم بعد إغلاق الستارة؛ للمرور بستيفن وإلقاء التحية عليه.

أما في المنزل فكنت أتحين الفرص لأطلق العنان لصوتي في الغناء، وللتمرُّن تحضيرًا لأدائي الأول أمام الجمهور، استجاب الطفل مع غناء والدته مشيدًا بصوتها عن طريق الركل بقوة، وبعد مضي وقت طويل من الحمل وحالة متقدمة من التوتر وقفت للمرة الأولى في أدائي العلني الأول، وبخلاف الأغاني المنفردة في الكنيسة، كان من المقرر أن أغني أغنيتين شعبيتين للموسيقار الإنكليزي بينيامين بريتين Benjamin Britten، واثنتين من الأغاني التي كتبها الموسيقار الفرنسي فور Fauré.

جاءت الأصداء المرحبة غاية في اللطف، وقد عبر الجمهور عن تقديره من خلال تقديم تبرعات سخية لعملين خيريّين، الأول بحوث سرطان الدم، والثاني يعود لجمعية الأمراض العصبية المؤسسة حديثًا، التي أصبح ستيفن راعي المرضى فيها،

حيث تُعنى تلك الجمعية بهذا المرض الذي أصاب ستيفن منذ مدة طويلة، حينها قيل لنا إنَّ المرض نادر جدًّا، وإنَّ المعطيات حوله قليلة للغاية، فالذين يعانونه قلّةٌ، ومن ثم فلا أساس لمجموعة دعم لأولئك المرضى، لكن ذلك كان غير صحيح على الإطلاق، إذ اكتشفنا من خلال الجمعية أنّ هذا المرض معروف في أمريكا باسم لو غريغ Lou Gehrig نسبةً للرياضي الذي أُصيب به في الثلاثينيات من عمره، وعرفنا بانتشار هذا المرض على نطاقٍ واسع جدًّا، وقد يصاب المرء به في أي وقت، وأيضًا كان هناك العديد من التشخيصات لمرض العصبونات الحركية مثل مرض التصلب المتعدد، الذي حاز حتى ذلك الوقت على دعاية كبيرة له لزيادة الناجين منه، في حين أن مسار تطور مرض العصبونات الحركية أكثر سرعة -عادةً في غضون سنتين أو ثلاث- عدا عن التلاعب بالإحصائيات وترك المرضى وعائلاتهم المنكوبة بهذه المصيبة، دون السماح لهم بفرصة إنشاء جمعيات للدعم أو مجموعة للمساعدة الذاتية.

توافرت بعض المعطيات على الأقل مع إنشاء الرابطة، فقد ظهر أنّ مرض الحركة العصبية قد ينفجر في إحدى صورتين: الصورة الحادة من المرض حين يهجم ليشل عضلات حلق الضحية فيعجِّل الوفاة المبكرة، أو الصورة النادرة من المرض تلك التي هاجمت ستيفن والتي تؤدي إلى شلل تدريجي يزحف ليسيطر على العضلات الإرادية في الجسم -بما فيها عضلة الحلق في النهاية- بعد مدة أطول، ربما تستمر خمس سنوات أو عشر، وجاء صمود ستيفن لستة عشر عامًا منذ تشخيص إصابته بالمرض في الشهر الأول من سنة 1963، ما جعل منه معجزة طبيعة غير قابلة للتفسير تمامًا مثل المرض بحد ذاته.

على مدار السنوات القليلة التي تلت ذلك أحييت أنا وجوناثان العديد من الحفلات المشتركة لموسيقى الباروك، وذلك في الكنائس من خلال أيست أنجيلا ليعود ريع تلك الحفلات إلى جمعية الأمراض العصبية الحركية، واضعين نصب أعيننا جمع مبالغ محترمة من المال. وانطلاقًا من كوني متطوعة محلية زرت العائلات المنكوبة في منطقتي من المصابين بهذا المرض، تلك العائلات التي بددت صدمة تشخيص المرض أحلامهم وتركتهم ذاهلين مثل حالنا قبل سنوات مضت، شعرتُ إزاءهم بالمسؤولية،

وأنه يتعيَّن عليَّ أن أعطيهم خلاصة تجربتنا التي عشناها طيلة سنوات ليستفيدوا من خبرتنا، ولتمرير التقنيات العملية التي تمكِّنهم من إدارة حالتهم بأفضل ما يمكن، وفي النهاية كان لابدَّ من الإشارة إلى حقيقة ستيفن الذي نجا من موت قيل له فيما مضى إنّه المصير المحتوم في غضون سنوات قليلة، ما يعني أنّ تشخيص الحالة ليس بالضرورة حكمًا بالإعدام إذا توافرت الرغبة في الحياة والنضال أيضًا، ربما يعود السبب إلى أننا علمنا بأمر المرض في سنٍّ مبكرة، على عكس العائلات ذات الأعمار المتقدمة، لقد امتلكنا الحماسة التي جعلناها سلاحًا لنا في النضال ضد المرض، لكن على مقلب آخر كان لتلك العائلات طريقة خاصة في تقبُّل المرض جاءت على عكس المتوقع، إذ ظهروا أكثر هدوءًا وتقبلاً منّا نحن الذين جابهنا المرض عن طريق نمط حياة محموم، في حين عاشوا هم بسكينة مكتسبة، ممتنين لأدنى فعل لطيف يُقدَّم لهم، شاكرين كل الحب والعناية التي يتلقونها من عائلاتهم وكلّهم رضا وتسليم بمصيرهم المنتظر.

جعلتني تلك السكينة التي اتسمت بها حياتهم أتوخى الحذر خشية التعدي على خصوصياتهم، قدمت لهم مقترحات للتمارين: حميات غذائية، وحقنًا وفيتامينات، ونشطت أنا وستيفن في جمع التبرعات؛ فأصبح ستيفن راعيًا للجمعية، لكن ذلك وضعنا وجهًا لوجه مع واحدة من تلك المفارقات التي يفرضها وضعنا؛ في الحقيقة كنا بحاجة إلى النصيحة مثل أي شخص آخر، لكننا لم نطلبها بل على العكس نسجنا شرنقة حول حالتنا توحي بواجهة من الثقة، أما الاعتراف بحاجاتنا فسيمزق الشرنقة التي يعتمد عليها أناس آخرون لرفع معنوياتهم، وفي نتيجة أخيرة للتواصل الكثيف الذي جمعنا مع عائلات المصابين جميعهم اكتشفت ما كنّا نفتقده نحن، ذلك الشيء الذي شعرت رغمًا عني بأني أغبطهم عليه، لم يكن لديهم أي انهزامية، بل ساد حياتهم شعور ثمين ورائع، إنّه السلام الداخلي.

على أي حال، لم تنطلِ واجهتنا البراقة على عدد من المقربين، أولئك الذين يدركون خفايا القلوب والألم خلف الابتسامة، بمن فيهم أسرتي، وجوناثان ووالديه، وقلّة قليلة من الأصدقاء.

حظينا قبل ولادة الطفل بفرصة التعرف إلى بعض الأصدقاء الجدد، ومنهم بيرنارد وايتنغ Bernard Whiting زميل ستيفن الأسترالي وزوجته ماري اللذين انضما إلينا في أحد التجمعات الموسيقية لنلمس لديهم تلك الحساسية التي كنّا نملكها؛ كانا زوجين متميزين بهدوئهما المتزن وسهولة التعامل معهما. مد بيرنارد يد المساعدة إلى ستيفن كما فعل جورج أيليس ذات يوم، أما ماري فقد كانت عالمة آثارٍ كلاسيكية، وتجهِّز رسالتها في الدكتوراه، إلى جانب وضع كتالوغ لمجموعة الأحجار الكريمة المتنوعة في متحف فيتزويليام Fitzwilliam.

على أنّ عملها في الآثار والمتاحف لم يجعل منها قطعة قديمة متحجِّرة، بل على العكس بدت كسيلٍ متدفق من الطاقة، أحاط شعرها الرمادي -رغم صغر سنها- بوجهها ليبرز ملامحه الشابة الرشيقة، ويهبها قسمات متميزة بدت معها مثل العذراء في لوحة مادونا لرافييل؛ كانت تلك الملامح نابعة من شخصية عميقة، روحانية ومثقفة، لها اهتماماتها التي تمتد أبعد من علم الآثار لتشمل الفن والأدب والموسيقى، وبالأخص موسيقى الباروك؛ ما جعل لقاءها الأول مع جوناثان يحمل نقاشات كثيرة.

وفي نهاية مارس آذار من عام 1979، ذهب روبرت وهو في السنة الأولى من المدرسة الإعدادية في بيرس إلى معسكر كشافة، لم أكن متحمسةً لذهابه إلى مخيم الأطفال بعمر الحادية عشر ة في طرف حقل في شمال نورفولك، حيث الرياح الشديدة لربيع غير واضح المعالم، تساقط الثلج خلال مدة التخييم ليعود إلينا روبرت غارقًا في السعال ومتحليًا بالصبر أكثر من أي وقت مضى، أما المخيم فقد أشار إليه بكلمة (لا بأس) بعد بضعة أيام أمضاها في السرير، وأعلن أنه تعافى بما يكفي لأن يصطحب لوسي إلى كوخ ويلز لقضاء عطلة عيد الفصح مع والدَي ستيفن.

في تلك الأثناء، كنت أخوض غمار تجربة جديدة، لقد وقفت للمرة الأولى على منصة حفل مهرجان تنافسي في كامبريدج، لأغني أغاني بريطانية ويرافقني اثنان: جوناثان على البيانو وستيفن الذي ابتسم لي من بين الجمهور تشجيعًا لي، أشادت لجنة التحكيم -بلباقة- بخصوص جرس الصوت الذي أتمتع به، وأشارت إلى أنّ قدرتي على التحكم في التنفس خلال الغناء كانت مقيَّ دة بعض الشيء، ومع انتهاء

المسابقة عدنا إلى سان مارك، حيث كنا نجري التدريبات تحضيرًا للجمعة العظيمة ومهرجان عيد الفصح، الذي كنت سأقدِّم فيه عرضًا للغناء الفردي (الآن يشرق النصل الأخضر) Now the Green Blade Riseth، رافقني آلان هاردي Alan Hardyفي غنائها على الفلون، وهو أحد أصدقاء الدراسة لجوناثان، فأتى اليوم الموعود أحد الفصح بعد تدريبات مبكِّرة بدأت أوائل الأسبوع المقدس.

أوشك إنجازي المنتظر على إبصار النور، فقد أصبحت الأطروحة في مراحلها الأخيرة، وتحتاج لمسات أخيرة تكمن في بضع مهام مملة تقتضي ترتيب المراجع بشكل أبجدي، والانتباه إلى أدق التفاصيل فيها تبعًا لإصرار مشرفتي على أن تكون كل علامة ترقيم موضوعة في مكانها المناسب، وإلا لن تمرَّر الأطروحة وتقدَّم.

ومع مجيء خميس الأسرار ، وبتباهٍ لا حدود له، وضعت النقطة الأخيرة في قائمة المراجع، تلك التي أعلنت نهاية رحلة ثلاثة عشر عامًا من الندوات والبحوث والنقاشات، والأعداد اللامتناهية من بطاقات الفهارس والتنظيم والكتابة وتحرير الملاحظات والتزويد بالمراجع، كانت النهاية المكلَّلة بالنجاح لولادة حصاد سنوات من العمل الشاق؛ انتابتني في اليوم التالي (يوم الجمعة العظيمة) في أثناء الصلاة التعبدية مشاعر غريبة من الاكتئاب دفعتني إلى حافة البكاء، ربما جاء ذلك ردَّ فعل حساسًا تجاه القوة المحفِّزة للمشاعر لذلك الاحتفال الديني الذي واكبته الموسيقى، وربما كان ذلك بسبب الشوق الجارف للأطفال الذين بقوا مع جدّيهم إلى ما بعد موعد الولادة، غادرتني تلك المشاعر تدريجيًّا لتحلَّ مكانها في اليوم التالي أعراض جسدية معينة، أثارت فيَّ شكوكًا حول اقتراب موعد الولادة.

استمتعت حين رافقني ستيفن في حديقتنا بشمس ما بعد الظهيرة، في محاولة للاسترخاء وجمع باقات البنفسج، ومع حلول المساء أوصلنا جون إلى مستشفى التوليد، لكن بعد الكشف الروتيني ظهر أنّ الوقت ما يزال مبكرًا للولادة.

تشارك ستيفن وجوناثان ولعهم بأطباق الكاري، حيث حضَّر جوناثان الوجبات الجاهزة خاصة في أمسيات الأحد، وقدَّم فيها ثلاث وجبات للقادمين جميعهم، لكن

هذه المرة وبشكل استثنائي كانت الوجبات في أمسية السبت تشمل طبق كاري؛ وهو طبق دوبيزا[1] الساخن الاستثنائي الطعم.

في الليل قُضَّ مضجعي، وعند الفجر أيقظت دون ليأخذنا إلى المستشفى، كان ستيفن قد أصرَّ على أن يكون موجودًا في وقت ولادة طفله الثالث، وقد تواصل جوي كادبري - بكل اهتمام ولطف- مع رئيسة الممرضات في المشفى؛ لترتيب مكان مناسب للكرسي المتحرك في غرفة الولادة التي كانت كبيرة بما يكفي، وتتسع لستيفن وسو سميث (اختصاصية العلاج الطبي) التي رافقتنا لتعتني به بالإضافة إلى الفريق الطبي، وهكذا كان لدي وقت طويل لأقضيه متمددة على السطح القاسي لطاولة الولادة في انتظار قدوم الطفل، كان دون يجلس في الممر الطويل خارج الغرفة، يطل من حين إلى آخر بالقرب من الباب، في حين ابتعد جوناثان بكل حكمة لقضاء يوم الفصح المشمس اللاهب في منزل والديه في الريف.

وكأنما شعر الطفل بقدومي المبكر إلى المستشفى فقرر عدم الخروج، فقد تباطأت ظروف الولادة وصولًا إلى طريق مسدود، فأرسلت رسالة إلى دون القابع في الخارج أطلب إليه اللحاق بقداس الصباح في إحدى الكنائس، وحاولت جاهدةً أن أمدد جسدي بقدر الإمكان، شاعرة بالأسف لقدومي مبكرًا إلى المستشفى؛ وبالأخص حين أدركت مع مرور الساعات أنه كان بإمكاني الغناء في الكنيسة، وفي تلك الأثناء أعلن بيل لوفليس إلغاء الفاصل الموسيقي بسبب غياب المغنية (التي هي أنا) التي كان لديها التزامات معيّنة.

أجريت لي مختلف المحاولات أملًا بتسريع عملية الولادة، لكنها خرجت جميعها بنتيجة واحدة تلخصت في تحويلي إلى وسادة دبابيس بشرية، فازداد الألم الواخز مع مرور الوقت منذ مجيئي صباحًا وتحول الصباح إلى ظهيرة والظهيرة إلى مساء دون

(1) طبق جنوب آسيوي مؤلف من كميات كبيرة من البصل مطهية بالكاري. (المترجم).

أي مبشرٍ باقتراب الولادة، عاد دون مع القداس الصباحي ليغادر مرّة أخرى، وهذه المرة إلى صلاة المساء.

بدا الأمر أكثر تعقيدًا حيث تطورت الأحداث لما يشبه الأزمة؛ أظهر قلب الجنين علامات التعب، وبينما أدار الفريق الطبي ظهره لتحضير مسرح الأحداث ليمتلئ بأدوات التعذيب بغية إخراج الطفل دون أي تأخير، كنت قد استجمعت على عجل ما تبقى من طاقة مستنفدة لأقوم بدفعة هائلة أدت إلى ولادة طفل الفصح المجيد، حين جاؤوا بالطفل إليَّ لأراه كاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان لرؤية طفلي المدثر بغطاء أخضر قديم، وقد تحول وجهه إلى اللون الأزرق من كثرة الضرب الذي تلقاه، ومع أنه أكبر حجمًا من لوسي وروبرت عند ولادتهم، إلا أنه لم يُظهِر الطاقة ذاتها التي استقبلا العالم بها، بل على العكس؛ تمدد بين ذراعي ينشج بتعب. غفلت للحظة عن العالم بأسره مسحورةً بهذا المخلوق الضئيل الذي كنت على معرفة سابقة به. وفجأةً اندفع دون بزهو إلى غرفة الولادة ليتعرف بسعادة بالغة إلى ابنه بالمعمودية.

10
التنافر

خلال الأسبوع الذي أمضيته في المستشفى مع تيموثي ستيفن Timothy Stephen، وهو الاسم الكامل للطفل، عادت لوسي إلى كامبريدج للقاء أخيها الصغير، في حين بقي روبرت في سانت ألبانز لأسباب لم أجد شرحًا واضحًا لها، فقد قيل لي إنّ الأطفال كانوا يلعبون حفاةً في مجرى النهر في ويلز، ما أدى إلى إصابة روبرت بالزكام فعادت إليه نوبات السعال بصورة سيئة، وبقي مدّة أسبوع طريح الفراش حتى قررت ماري شقيقة ستيفن، ومن موقعها بوصفها طبيبة، بأنّ روبرت قد تماثل للشفاء بما يكفي للعودة إلى كامبريدج، فتزامنت عودته مع عودتنا إلى المنزل.

اهتم روبرت بشؤون أخيه الصغير ورعايته، واضعًا إياه على ركبتيه، لكن صحته بقيت تثير قلقنا وحين زارتنا والدة إحدى صديقات لوسي فاليري برودبنت كيبل Valerie Broadbent-Keeble (وهي طبيبة أطفال محترمة) تصادف قدومها مع قدوم طبيبي العام الدكتور ويلسون، ولم يستلزم الأمر سوى نظرة واحدة من كليهما ليدركا أنّ روبرت يشكو من خطبٍ ما، والأرجح أنه كان يعاني التهابًا رئويًّا فيروسيًّا، وعلى الحال نظَّمت فاليري عملية القبول الفوري لروبرت في جناح الأطفال في مشفى أدينبروكس، في حين كتب الدكتور ويلسون وصفة من البنسلين يأخذها روبرت مباشرة.

تحولت محنة الولادة المتعبة للطفل إلى نعمة، ذلك أنها جعلته يغطُّ في النوم ولمدد طويلة وطوال الليل وبشكل مثير للدهشة، وكأنما كان على علم بأن الأسابيع التي تلت ولادته كانت كارثية، كان لدى الجميع حاجات ينبغي تأمينها، وكنتُ المسؤولة عن ذلك، حاجات ستيفن، واحتياجات الطفل الملحة، ولوسي التي كانت بحاجة إلى طمأنينة لشعورها المتعاظم أنّ هناك منافسًا لها اغتصب مكانها بوصفها أصغر فرد في الأسرة، والأهم من ذلك كله روبرت القابع في المستشفى يعاني المرض بشدة، وهو بأمس الحاجة إليّ.

بعد ليلةٍ واحدةٍ أمضاها روبرت في جناح الأطفال استيقظ ليجد نفسه مغطًّى بحبوب حمراء تعلو جسده من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، وعُزي ذلك إمّا لإصابته بمرض معدٍ أو لحساسية مكتسبة بسبب البنسلين، ولأن السبب لم يكن واضحًا بعدُ نقل إلى جناحٍ معزول في القسم الأعلى من المستشفى؛ خوفًا من نقل العدوى إلى بقية المرضى في جناح الأطفال.

جلس روبرت وحيدًا في عزلته، ومرِّر له الطعام من خلال فتحة، وكان يزوره طاقم طبي يرتدي القفازات والأقنعة، وقد سُمح فقط لزوار محددين بزيارته بعد أن فُرض عليهم ارتداء الملابس الواقية، فاق الأمر طاقة احتمال طفل عُزل بعيدًا وحيدًا ومريضًا بشدة ليرقد على سريره وسيل من الدموع الحارة تنهمر على وجنتيه.

كانت زيارتي إلى روبرت بتوقيت دقيق ما بين مدد إطعام الطفل، وبعد إطعامه وتغيير ملابسه يخلد إلى النوم، فأنطلق بعدها لقضاء بضع ساعات في المستشفى بالقرب من روبرت، أقرأ الكتب له ونلعب سويًّا قبل المغادرة مرة أخرى لوجبة الإطعام الثانية للطفل، فتحول ذلك السعي المحموم إلى روتين يومي ريثما يتماثل روبرت إلى الشفاء؛ حاولت والدة ستيفن بأقصى ما لديها أن تساعد على المحافظة على المنزل في ظل غيابي، وعلى التسوق وطبخ الوجبات الصحية، لكن الوجبات كانت أكثر بكثير مما يمكن أن تحمله على عاتقها، وبدت الحاجة إلى مساعدة جون أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى؛ ليقوم بالاعتناء بستيفن والمساعدة على جلب حاجات التسوق، وإيصال لوسي إلى المدرسة، وزيارة روبرت أيضًا لإفساح المجال لي لألتقط أنفاسي بعيدًا عن فكي الكماشة التي أطبقت على أنفاسي.

لسوء الحظ لم يتعرف جوناثان إلى والدة ستيفن كما ينبغي إلا قبل مدة وجيزة من حصول تلك الأزمة، والسبب يعود إلى زياراتها النادرة على عكس والديّ وأصدقائنا المقربين، فلم تسنح الفرصة لها لإدراك أهمية وجود جوناثان في منزلنا، لكن الشك لم يساورني قطُّ في أنني عبر السنين التي جمعتني بستيفن قد حصدت احترامهم وتقديرهم، كما كانت آمالي حاضرة في أنّ عمري الذي وهبته لرعاية ابنهم، أو على الأقل محاولتي في أن بذل قصارى جهدي لأجله ولأجل الأطفال ستجعلهم قادرين على

أن يمنحوني الثقة أو على الأقل التعاطف أو التسامح، علاوة على أني أردت قبل أي شيء آخر أن أؤكد لهم واطمئنهم أنّي لست بصدد التخلي عن ستيفن، ولا رغبة لدي بأن أهدم منزلي بيدي، ولم يشجعني جوناثان على فعل أي من هذا.

لم يكن هناك وقت ولا فرصة مناسبة لطرح تلك المسألة على إيزابيل، لكن في نهاية المطاف عندما تسنى لنا أخيرًا أن نكون بمفردنا في المنزل مع الطفل المولود، تولّت زمام المبادرة على حين غرة لتوجه لي نظرة فولاذية، وتسألني بلهجة جهورية: «جين، أعتقد أن لدينا الحق بمعرفة هوية والد تيموثي؛ أهو ستيفن أم جوناثان؟»، ذُهلت، بل أصابني مسٌّ. كيف تمكنت من القفز لمثل تلك الاستنتاجات بتلك السهولة البالغة؟! أنا التي أظهرت كل انضباط، وأجبرت نفسي أنا وجوناثان في أن نتسامى على رغباتنا كليًّا، ونحافظ على علاقة سرية تداس بالأقدام، لم يكن هناك سوى حقيقة واحدة جلية كشمس ساطعة؛ لم يكن لتيموثي والد آخر غير ستيفن. لكن ظهر أنّه لا سبيل لوصول الحقيقة إلى من وجه التهم جزافًا وأصمّ أذنيه عن ماعدا ذلك، حيث لم تقتنع بحقيقة ما قلته، بدلًا من ذلك تابعت حماقاتها كأنها تعتلي قمة موجة: «أترين، لماذا لم نحبُّك في يوم من الأيام؟ لأنّك لا تناسبين هذه العائلة».

في وقت لاحق جاء الاعتذار على فورة الغضب تلك، لكن الوقت كان قد فات، وفي اليوم التالي استجاب فرانك هوكينغ لدعوات زوجته العاجلة بأن يأتي كامبريدج في الصباح الباكر، فبدأت حلقات التآمر بخروجهم إلى الحديقة للاختفاء في إحدى جنباتها لمدة، ومن ثم العودة مجددًا بوجوه متحدية، وبالكاد يكلفون أنفسهم عناء النظر إلي. كان مزيج الأحداث المؤلمة التي عصفت بي في مدة زمنية قصيرة بعد ولادة الطفل قد جاءت بتأثير مثبِّط للهمة، وكما توقعت تضاءلت قدرتي على إرضاع الطفل بعمر الأسبوعين، الذي خرج مصابًا بخدر ما بعد الولادة، ومارس أكبر قدر من طاقته في استعمال رئتيه وحباله الصوتية بأقصى قوته القلبية. لم يطق ستيفن يومًا -كعادته- معارضة له في ممارسة طرقه الخاصة في تسوية الوضع، وأكره لوسي البالغة من العمر ثماني سنوات على مرافقته إلى المدينة، ومساعدته في شراء الأحذية، كما اشترى مجموعة من الزجاجات والحلمات الاصطناعية، ومسحوق الحليب المعقم

السائل والمجفف، وهكذا ودعت محاولاتي التي يُرثى لها لإرضاع طفلي الثالث، ليبدأ واجب جديد يلقى إلى جانب واجبات جوناثان العديدة، فقد تعيَّن عليه في كل مساء قبل مغادرته إلى منزله أن يصنع زوادة اليوم التالي من حليب الأطفال ويخزنها في الثلاجة لتكون جاهزة عند الطلب.

بعد أسابيع على تسارع الأحداث الهائل، وفي أوائل يونيو/حزيران كنت أستعد للاحتفال بتيموثي، حين تلقى ستيفن رسالة من والديه مضمونها أنهم كانوا على اتصال منذ مدة مع فريق أمريكي من الأطباء في دالاس، تكساس، المعنين بمعالجة مرض العصبونات الحركية بوساطة عقارٍ جديد. وقد وجَّه هؤلاء الأطباء دعوة إلى ستيفن ليكون أول المرضى الذين يُجرى عليهم اختبار العقار، بدا أن الأمر لم يكن مجرد رسالة لدراسة الموضوع، بل أمرًا واقعًا لا مجال للبتِّ فيه؛ كنّا جميعًا: ستيفن وروبرت ولوسي وتيموثي وأنا مثل عصا يلوِّح بها في الهواء، هكذا بكل بساطة تُحزم الحياة بأكملها وتودع في حقيبة إلى ولاية تكساس، مرر ستيفن الرسالة لي دون تعليق أو تفسير، وكأنه أراد إخباري ضمنيًّا بأنّ القرار ملقى على كتفيي.

غرقت في دوامة من الحيرة وسط تلك المسؤوليات المعقدة جميعها، التي كانت تتطلب مني اتخاذ قرار بها؛ فهنالك فرصة لعلاج ستيفن لا أملك الحق بأن أمنعه من تجربتها، لكن في الوقت نفسه كنت أدرك جيدًا أنّ الضغوطات التي ستكون مفروضة على العائلة وعليَّ أنا تحديدًا ستكون هائلة، وبعيدة كل البعد عن أي شيء قد اختبرناه من قبل.

كان مجرد إحصاء التفاصيل المرعبة لهذا التغيير الهائل أمرًا يفوق التصور، إذ سيهجر الأطفال مدارسهم التي أحبوها، وبيئتهم التي اعتادوا عليها، ومنزلهم الذي منحهم السعادة والأمان؛ سُيجمع كلّ ذلك ويُلقى في مدينة أمريكية غريبة ومزدحمة، لن تكون مشابهة لباسدينا في أي شيء، إضافة إلى أنّ موضوع الدخل المادي ليس واضح المعالم، ولا حتى مكان الإقامة، ولا طريقة انتقال الأسرة بمن فيهم أنا والدة طفل يبلغ الآن ستة أسابيع وطفلين ووالدهم المشلول، كيف سنقطع مسافة توازي ثلث العالم لنقيم هناك وطنًا لنا لأجلٍ غير مسمى. هذا ما طُلب إلينا دون الإشارة إلى

السبيل لتحقيق الهدف، ولا حتى وعد بأي مساعدة في هذه المهمة الضخمة باستثناء مساعدة روبرت، ودون أي قدر من اليقين في أنّ العلاج سيلقى النجاح، وعادت ذكريات سياتل في عام 1967 لتحتشد في رأسي مثيرةً الألم والحزن، تلك الذكريات المعادة ألف مرة بتجارب السنوات السابقة.

وباقتراب موعد الاحتفال بالطفل، لم يعد بإمكاني إخفاء تلك المعضلة الأكثر إيلامًا عن والدي، جاء يوم الحفل وانقسم المنزل مباشرةً إلى معسكرين متعارضين، فتطلب الأمر مني براعةً قصوى من الجوانب جميعها لضبط أعصابي جراء ذلك المشهد العجيب؛ أخذت عائلة هوكينغ بأكملها مكانًا قصيًّا في غرفة الجلوس نابذين من تبقى من أفراد: والديّ وعرابا تيم وأسرهم، ولفيفًا من الأصدقاء. كان الجو مشحونًا بالتوتر إلى حدٍّ لم أعد أطيق احتماله، غادرت الغرفة لأتخذ لنفسي ملجأً في غرفة نومي، تبعني والدي بعد لحظات، مدركًا تمامًا كمية الضغط التي كنت أرزح تحتها. ما لبث أن سحب ورقة من جيبه ليقول لي: «جين، هل لك أن تلقي نظرةٍ على هذا؟ وفي حال حازت على موافقتك فإني سأرسلها إلى فرانك هوكينغ».

ما إن طالعت عيناي ما كُتب حتى غمرني الامتنان لتدخل والدي العاجل من خلال قرار حكيم وضعه لحلِّ المشكلة، دون أن يعرِّض ولائي لستيفن لأي خطر، بل اكتفى بالإشارة -بمنتهى البساطة- إلى أنّنا جميعًا نريد مصلحة ستيفن، لكن يجب على عائلة هوكينغ أن تدرك حجم الأعباء المتمثلة في رعاية طفلين صغيرين وطفل رضيع، أولئك الأطفال الذين هم في النهاية أحفادهم أيضًا، إضافة إلى عبء رعاية ستيفن، ما يجعل قرار السفر إلى ولاية تكساس بكامل العائلة قرارًا يفتقر إلى المنطق والتطبيق، وأشار إلى فكرة مهمة، بأنّهم في حال كانوا مقتنعين من فاعلية العلاج فينبغي عليهم النظر بأنفسهم في فكرة وجود مرافق لستيفن إلى تكساس.

وهكذا مرّة أخرى لعب والدي دوره المعتاد ليهبَّ لنجدتي في الوقت المناسب متسلِّحًا بالحكمة والهدوء، وعارضًا المساعدة الذكية من وراء الكواليس، كان يتكبد مشقات تفوق طاقته أحيانًا، شريف المقصد دائمًا. أرسلت الرسالة، لكن لم يكن لها أي صدى أو استجابة.

رُفعت ستارة التسامح الهشّ ليظهر وراءها الوجه الحقيقي الذي لم يبارح مكانه قطُّ، وجه الكراهية التي أعربوا عنه بفظاظة حارقة بعد ولادة طفلي الثالث مباشرة عندما كنت في أسوأ حالاتي النفسية، علاوة على الحالة الصحية الحرجة التي عاناها ابني البكر؛ ظهرت الكراهية وعمَّ العداء المخفي.

كان التعامي عن هذا العداء لسنوات طويلة غباءً مني، وبنيت لنفسي فقاعةً من الأمل الساذج في أن الأفضل ينتظرني دائمًا، وكونهم عائلة زوجي فإنه يتحتَّم عليَّ أن ألتزم بمحاولة التعايش معهم ما أمكنني ذلك، ولذلك السبب كنت مجبرة على المحافظة على هذه الطبقة الرقيقة التي تدعى (الكياسة)، سواء أحببت ذلك أم لا، وكانت رابطة الدم العامل الوثيق الثابت في هذا المأزق.

في ذلك الشتاء، وصلتنا الأخبار من فريق تكساس الطبي يعرضون علينا إرسال علاجهم إلى كامبريدج، إلا أنّ استشاريّ الأعصاب في أدينبروكس قال بحزم لا شك فيه أنّ العلاج غير مجرب ولا مثبت، وذهب أبعد من ذلك حين أعلن أنّ العلاج غير مناسب لمرض العصبونات الحركية، وسيتحول ستيفن إلى حقل تجارب لفريق تكساس، وأنّ أولئك الباحثين يفتشون عن الاحترام والشهرة في الأوساط العلمية التي ارتبط بها اسم ستيفن، ربما لجذب التمويل، أما العلاج فيجب أن يتم في المستشفى، ويتطلب وقتًا طويلًا، مع فرصة ضئيلة لتحقيق نتائج إيجابية حتى على المدى القصير، فمرض العصبونات الحركية كان قد سبق وضرب سهامه في جسد ستيفن، ما يجعل القيام بأي فعل في هذه المرحلة أمرًا متعذرًا، كما لا يُمكن نكران الحقيقة العلمية بأنّ الجسم غير قادر على إصلاح الأنسجة العصبية التالفة.

أما ما كان يهدد حياة ستيفن بشكل أكبر هو الالتهاب الرئوي وليس مرض الخلايا العصبية بحد ذاته، ليصبح هذا العرض العلاجي ليس إلا مضيعةً لوقت ستيفن الثمين، مجرد وهم من تلك الأوهام التي لطالما حذر منها فرانك هوكينغ بشكل حاسم في الستينيات من القرن العشرين.

11
الاضطراب

كان للأسى الذي سببه سلوك عائلة هوكينغ وطأة شديدة عليَّ، ولكن ظهر في طيات الأسى أن هنالك من يمكن الاعتماد عليه، إنها عائلة جوناثان التي جاءت تعويضًا تجلى فيه كل الخير المتواضع، مكرسين حياتهم للآخرين، أيًّا كانوا، وأيًّا كانت أصولهم دون أدنى تمييز بين أفراد الأسرة أو الأصدقاء وحتى الغرباء أو أبناء الرعية، كانت أبوابهم مفتوحةً ليل نهار لأي شخص واقع في محنة، غنيًّا كان أم فقيرًا، وسيجد في انتظاره آذانًا صاغية ويدًا تهوى فعل الخير.

لم أكن لأصدق بوجود والدين مثلهما مهما حسنت نياتهم، فكيف لأحدٍ أن يرحب بفكرة أنّ ابنهم البكر أصبح معنيًّا بأسرة بأكملها، وهو ما يزال في مقتبلٍ العمر؟ إلا أن الأيام قد أثبتت بأنّني كنت مخطئة، ففي زيارتنا الأولى إلى منزل والديه، بيت القسيس، رُحب بنا أنا وستيفن والأطفال ترحيبًا لا مثيل له، وأظهروا سرورًا كبيرًا لرؤيتنا، وتحادثنا طويلًا دون أن يمرَّ أدنى تلميح أو يطلق علينا أيّ أحكام.

كان لجون جونز John Jones وضع مشابه لبيل لوفليس، فقد كان فيما مضى طالب درجة كهنوتية، وقد قدم إلى كامبريدج ليتدرب لصالح الوزارة، بعد مهنته الأولى طبيب أسنان في واركشير، وقد حصل هذا التغيير المفاجئ في منتصف العمر بفضل تشجيع زوجته آيرين بكلّ تأكيد، التي تشبه أمي في إيمانها الهادئ والواثق في آنٍ معًا.

في منطقة مرتفعة خارج كامبريدج، كان جون وزوجته يزوران رعاياهم في المناطق المحيطة، معٍ أدائهم طقوس العبادة بمثابرة عملية قلَّ نظيرها بين الجيل الشاب، فكيف بأولئك الذين تقدم فيهم السن! كان حماسهم للعمل منقطع النظير، فلم يكتف برعاية الأرواح في لولورث والاهتمام برعايا أبرشيتها بمساعدة زوجته إيرين، بل أيضًا ساهم في ترميم البناء العائد للعصور الوسطى، والذي أوكلت أبرشية معدمة

إليه مهمة تعهده، كان بناء كنيسة لولورث قديمًا لدرجة أنّه احتاج إلى عمليات إصلاح سريعة، لكن في ظل عدم وجود أيّ أموال متاحة، فقد تكفَّل جون وإيرين بالمهمة، حيث شرعا في إزالة أطنان من روث الطيور المتراكمة في الداخل قبل فوات الأوان، وعزّزا بنيتها بشكل قد لا يعود من الممكن إزالتها.

من الصعب تصديق وجود مثل هؤلاء الأشخاص في عالمنا هذا، أشخاص لا يمتون لنا بقرابة، ولا صلة، لكنهم لم يكتفوا بالترحيب الحار بي وبعائلتي، بل أظهروا اهتمامًا صادقًا من غير زيف، وتعاطفًا وإيثارًا منقطع النظير بصورة لم أكن أتوقعها؛ لم تكن عائلة جوناثان وحدها من أسكنتنا في صميم قلبها، بل العائلة بأكملها: العمّات، والأعمام، وأبناء العمومة، وشقيقه تيم، وشقيقته سارة التي كانت اختصاصية سابقة في العلاج الطبيعي، تمتعت شقيقته بحس بديهي وإدراك سليم تمامًا مثل كارولين تشامبيرلن في مقاربتها للإعاقة الشديدة، حيث أدركت أنّ مرض الشلل يخيّم بظلاله على الأسرة بأكملها لا على المريض فحسب، وسرعان ما جمعتني صداقة مميزة مع سارة، حيث كنّا بالعمر نفسه تقريبًا، ورزقنا بأطفالنا في الوقت ذاته تقريبًا، إذ وُلدت طفلتها الأولى (ميريام) في فبراير/شباط 1979؛ أي قبل شهرين من ولادة تيموثي.

وجدت في النهاية الدعم غير المشروط، الدعم الصادق والنابع من أعماق قلب جوناثان وعائلته بأكملها، لأبتعد عن دائرة آل هوكينغ الذين لم أعد أنتظر منهم دعمًا أو مساعدة، لأعزز خطوات الابتعاد والانفصال عنهم كما فعلوا لسنوات مع أسرتي، لكن بشكل مفاجئ ظهر أشخاص جدد من دائرة هوكينغ وهم أقرباء بعيدون جاؤوا ليملؤوا الفراغ الموجود؛ ميشيل ماير أحد أقارب ستيفن، الذي تخرج في كامبريدج في أواخر الستينيات عندما كان روبرت طفلًا، عاد إلى العمل في قسم العيون في مستشفى أدينبروكس. كان ميشيل يتشارك مع خطيبته القادمة من جنوب أفريقيا (سولوم) والمختصة في التصوير الإشعاعي حسًّا متميزًا في الطهو؛ شاركونا به بين الحين والآخر حين أحضروا إلينا وجباتهم اللذيذة الغنية بالسعرات الحرارية المعدَّة مسبقًا، والتي جعلت لعاب لوسي وروبرت يسيل في أثناء استراقهم النظر من خلف الباب الزجاجي للشرفة، كانت هذه الوجبات موضع ترحيب أكثر من أي وقت مضى

بعد ولادة تيموثي، حين كنا نكافح لنبقي على توازن قاربنا وسط بحر هائج مضطرب من الخلافات.

اقتضت الأولوية الآن وجود شخص بالغ بدوام كامل؛ ليرعى أكثر أفراد الأسرة حاجةً، وغير القادر على الإتيان بحركة واحدة باستثناء التعامل مع ذراع التحكم في الكرسي الكهربائي، ومع الحاسوب الذي اشتراه احتفالًا بمولد تيموثي؛ كان ستيفن بحاجة إلى شخص مألوف مثل دون أو جوناثان ليبقى معه بشكل دائم ومستمر، أما الشخص الآخر في منزلنا الذي كان بحاجة إلى رعاية مشابهة فهو تيموثي الذي كان في البداية طيِّعًا سهل الانقياد، ولكن مع مرور الأيام بدأ بفرض نفسه، مستجيبًا لكل الاهتمام المنصبِّ عليه مع الابتسامات العريضة التي كان يرسمها على وجوه من حوله، ليحتجَّ في حال انصب الاهتمام على أحدٍ سواه.

كانت أمي تشير ضاحكة إلى الشبه الكبير بين تيموثي ووالده، فقد ورث عن ستيفن غمازتيه، أيضًا ورث عنه تلك العادة المضحكة في تدلي فمه إلى الزاوية للتعبير عن السخط وبالأخص حين يكون جائعًا، ومن نواحٍ أخرى وبالرغم من كونه طفلًا كبير الحجم إلا أنّه بدا نسخة طبق الأصل عن شقيقه الأكبر، حتى إني دعوتهما بالتوأمين، توأمان بفارق اثني عشر عامًا، ولم أكن الوحيدة التي لاحظت هذا الشبه؛ إذ تكرر الأمر أكثر من مرّة مع معارف عدّة حين يمرّون بتيم ليحيوه بانشراحٍ قائلين: «مرحبًا روبرت»، فيدركون لاحقًا خطأهم.

أما فيما يخص الأطروحة، فمن حسن الحظ أنّنا أصبحنا قادرين على تحمل رفاهية وجود مربية لبضعة أيام في الأسبوع، ما يتيح لي متابعة الإدارات كلها المعنية بإنتاج النسخ الأربع للأطروحة المطلوبة رسميًّا؛ أتاحت لي المربية الوقت لأتواصل مع المسؤولين عن الطباعة، وتدقيق نتاج أعمالهم، ومقارنة مئات الصفحات، ومراجعة غلاف الكتاب، وكانت مساعدتي كريستين أكن، ولاحقًا أصبحت تُدعى كريستيند كيكي كما لقَّبها الرضيع تيم، هي أمٌّ لأطفال ثلاثة، تأتي من الريف بشكلٍ منتظم بقدر ما تتيح لها خدمات الباص الذي لا تعوّل على مواعيده، لتساعدني بكل محبةٍ على التنظيف والعناية بالطفل.

كان ارتباطي بالشعر الإسباني قد وصل إلى وجهته الأخيرة باكتمال الأطروحة التي لم تحمل في طياتها أي وعدٍ أو أمل بعملٍ ما، لكن كنت على بينة من ذلك الأمر، وقد تصالحت مع نفسي، وأنجزت ما ترتَّب عليَّ إنجازه كما لو كان هدفًا في حد ذاته وليس سبيلًا للوصول إلى مراحل أبعد، وفي كل الأحوال لم تكن الوظيفة حلمًا واردًا لتلك المرأة التي ينصبُّ تركيزها بنسبة تسعة وتسعين بالمئة على منزلها وعائلتها، ذلك الاهتمام الذي وزَّعته بالتساوي بين الأطفال ووالدهم فيما كنت أحاول إيجاد بعض الوقت لي لأبقي طاقتي الذهنية على قيد الحياة.

وجد الأطفال أنفسهم تحت ضغط هائل للتكيُّف مع الظروف الجديدة، وبالأخص لوسي التي وجدت نفسها في وضع غير متميِّز، مجرد طفلة في منتصف سلَّم الأسرة؛ ليست بالطفل الأكبر ولا الأصغر، وبعد مغادرة روبرت إلى معسكر كشافة جديدٍ بقيت لوسي على إصرارها في عدم إظهار أي اهتمام بالطفل الجديد، لكنَّ غياب روبرت فرض عليها -تلقائيًّا- أن تحل مكانه فتستدعَى لإحضار زجاجات الحليب وغيرها من حاجات الطفل، في البداية قاومت بشدة، لكن سرعان ما انفجرت في البكاء. في تلك اللحظة أدركت كم كانت طفلتي تشعر بالسوء، وكم كانت ترزح تحت وطأة الصدمات النفسية التي واجهتنا منذ قدوم تيموثي، حيث تُركت لوسي وهي ما تزال طفلة لإعالة نفسها بنفسها رغم حاجتها إلى الطمأنينة بقدر أي شخصٍ آخر، سارعت إلى احتضانها لأخبرها بأني لم أتوقف قطُّ عن محبَّتها فقط لمجرد وجود فرد آخر في العائلة يحتاج إلى الرعاية.

كان لحديثي معها فعل السحر وكأنّها كانت تتوق إلى فعل ذلك، سارعت لوسي الصغيرة إلى احتضان أخيها وإظهار حقيقة مشاعرها التي لم تكن تعرف كيف تظهرها، حملته بين ذراعيها الصغيرتين وأولته اهتمامها كما كان يفعل روبرت؛ فأصبحت أكثر الأفراد المكرَّسين لأخيها بكل سعادة.

كان روبرت مريضًا جدًّا بالرغم من تعافيه وعودته إلى المدرسة، بدا دومًا ساهمًا وهادئًا، وبقيت مشكلة عسر القراءة عائقًا في طريق تعليمه. نظَّمت المدرسة جلساتٍ لأستاذ في علم النفس التربوي، فحاول أن يغرس تقنيات التعامل مع عسر القراءة،

لكنه فشل في التعرُّف إلى حجم المشكلة الحقيقي، واقتضى الأمر سنوات عدّة لنكتشف أنّ جذر المشكلة هو شعور غامر بالنقص.

أدرك روبرت منذ سنٍّ مبكرة مدى شهرة والده العالم العبقري، ما جعل الجميع وبالأخص مدرِّسيه يبنون عليه توقعات كبيرة، وحين شعر بعدم قدرته على تحقيقها، أخذت ثقته بنفسه تتلاشى، لدرجةٍ رأى أنّه لا فائدة ترتجى من الدراسة، في الوقت الذي كان محكومًا عليه بالفشل في عيون العالم بأسره، لكنه حاول مرّات عدة. أحزنني شعور روبرت بهذا النقص وهو بعمر السابعة فقط، حين لمس عبقرية والده شعر بنفسه أقل مرتبة، الأمر الذي وجهه لاحقًا لاتخاذ مهنةٍ علميةٍ دون أن يهتم بحصد شهرةٍ شبيهةٍ بتلك التي حصدها والده؛ لم يكن الحال أفضل بالنسبة إلى لوسي وتيم اللذين عانيا في وقتٍ لاحقٍ انعدام ميولهما العلمية، ليرزحا تحت وطأة ضغط المعلمين الذين أكالوا الصفعات النفسية إليهما معبرين عن خيبتهم الشديدة فيهما، وهكذا تأرجح الأطفال الثلاثة في حالة غير المنتصر دومًا، لكن الأحكام المسبقة التي أطلقها المعلمون مرّت بشكلٍ عابرٍ على لوسي وتيم كليهما، فيما تركت بظلالها السيئة على روبرت، الذي عانى بسبب توقعات المدرسة والمجتمع في آنٍ معًا.

تعزّزت شهرة ستيفن بشكلٍ متزايد في كامبريدج في خريف عام 1979، حينما نال الكرسي اللوكاسي؛ وهو لقب الأستاذية في كامبريدج عن الرياضيات، تأسس هذا اللقب عام 1663 على يد هنري لوكاس، وكان هذا الكرسي أحد أعرق الألقاب الممنوحة في أكثر الجامعات المرموقة في العالم، إنّه كرسي نيوتن الذي جعل من ستيفن الآن يحتلُّ مرتبةً توازي -بشكل قاطع- مرتبة نيوتن. احتفل ستيفن بارتقائه إلى المرتفعات الأكاديمية الشاهقة من خلال الاستفادة بإعطاء محاضرات افتتاحية، وهو أمر أشبه بتقليدٍ أو عُرفٍ معمول به على الأقل بين نخبة العلماء، وفي إحدى المحاضرات التي كان يلقيها في قاعة محاضرات باباج في كامبريدج، وقف طالبٌ من الحضور مقاطعًا خطاب ستيفن، والذي تحول ليصبح خطابًا باهتًا مُغرقًا في الغموض، حتى إن المسرح خلا من الطلاب إلا من عددٍ قليلٍ من الطلاب والزملاء وأفرادٍ من العائلة.

كان الجمهور بمن فيه من علماء غارقين في أفكارهم وكثير من الشباب الطامح يحاولون أن يصغوا بدقة لالتقاط نطق ستيفن للكلمات؛ تلك الكلمات التي لا يحتوي مضمونها أي وعدٍ بمستقبلٍ آمنٍ، إذ توقع ستيفن بابتهاجٍ عارمٍ نهاية الفيزياء قريبًا، فالظهور السريع والمتطور لأجهزة الحاسوب المتطورة من شأنه أن ينبئنا بما هو قادم بحلول نهاية هذا القرن؛ أي في السنوات العشرين القادمة حيث ستُجترح الحلول لكلِّ المشكلات الرئيسة في الفيزياء، بما في ذلك نظرية المجال الموحد، حينها لن يتبقى لعلماء الفيزياء ما يفعلوه، وأعلن ببشاشة أنه هو نفسه سيكون على خير ما يرام حين يعلن تقاعده بحلول العام 2009؛ أحب الجمهور تلك الدعابة، رغم أنّني لم أرَ فيها شيئًا يستحق الضحك إلى تلك الدرجة، في الواقع حتى ستيفن ليس لديه الكثير ليضحك حوله، ذلك أنه نبوءته بنهاية الفيزياء الحتمية جعلت منه رهينة للحظ، وخصمًا للآلهة، آلهة الفيزياء التي أهانها ستيفن ليأتي ردّها عنيفًا وسريعًا أيضًا.

بعد بضعة أسابيع، بدأ العقد الجديد بشكل غير متوقع بالنسبة إلينا جميعًا وبالأخص ستيفن، حيث أصبنا بزكام شديد بعد عيد الميلاد بما في ذلك الطفل تيم. وبحلول السنة الجديدة كان الزكام قد استقر في صدر ستيفن، مسبِّبًا عودة نوبات الاختناق المروعة التي أنهكت جسده، وجعلت من كل رشفة ماء أو ملعقة طعام أو حتى محاولة تنفس مدعاةً للألم الشديد. كان السعال زائره الليلي الذي قضَّ مضجعه حتى ساعات الصباح الأولى، وفي محاولةٍ لتشجيع عضلات البلعوم على الاسترخاء لجأتُ إلى بعض تقنيات اليوغا من خلال تكرار رتيب لمقاطع صوتية مهدِّئة، من شأنها أن تحوِّل اللهاث المذعور إلى تنفس هادئ، قد يذهب به في بعض الأحيان إلى الاستغراق في النوم في تلك الوضعية الحزينة لجسده المرهق، كان التكرار الرتيب المضجر أحيانًا يرسلني في إغفاءة متقطِّعة، بينما بقي ستيفن على حالة السعال والأزيز المرافق له حتى ساعات الصباح الأولى لنستيقظ في اليوم التالي مجهدين، وعلى الرغم من ذلك تمتع ستيفن بشجاعة جعلته يرفض الاعتراف بتعبه الشديد ليشرع في جدول أعماله المعتاد؛ رابط الجأش غير مبالٍ بأحداث الليلة السابقة.

جلُّ ما كنا نخشاه هو تكرار نوبة الالتهاب الرئوي تلك التي أنهكت ستيفن في عام 1976، لكن ستيفن كما كان متوقعًا رفض أن يسمح لأحد باستدعاء الطبيب، ورفض تناول الأدوية خوفًا من السكر الذي تحتويه أدوية السعال، حتى تلك التي تُصنَّف على أنها خالية من السكر، فقد خشي من تهييجها لبطانة الحلق، ما سيدخله في الدوامة المنهكة من السعال فالاختناق، ومن ثم السعال فالاختناق مجددًا طيلة الليل والنهار، في حين كان الطفل يحاول أن يشهق مختنقًا بزكامه الذي سبب له انسداد الأنف، وكنت ألهث في محاولتي البائسة للتنفس أيضًا.

هبَّت أمي لنجدتنا كما جرت العادة عند وقوع أي طارئ، فانضمت إلى دون وجوناثان في محاولة إدارة شؤون المنزل لأتولى بدوري - رغم كل الصعاب - رعاية من هم بأمسِّ الحاجة إليَّ، لكن أمّي أصرَّت على أن ألتزم السرير على الأقل ما بين مهامي المتعددة التي تتطلَّب حضوري.

زارني بيل بعد ظهر يوم السبت حين كنت ملقاةً في السرير خائرة القوى عاجزة عن التنفس، في حين كان المريض الحقيقي (ستيفن) جالسًا في المطبخ يقرأ صحيفته، بتصميمٍ منه على البقاء خارج دائرة الأزمة.

هذا كله دفعني بأن أصب سيل مشكلاتي وأوجاعي أمام بيل، كانت ما تزال لدي الرغبة والعاطفة لرعاية ستيفن، ولمنحه الحياة المنزلية السعيدة، وجعل كل شيءٍ ممكنًا بالنسبة إليه - طبعًا في حدود المعقول- لكن ما يحدث هو أنَّ مطالبه أصبحت فوق الاحتمال وخارج حدود المنطق والمعقول، اصطدمت بجدار تعنته الذي جعل من الحياة أمرًا لا يطاق، والنتيجة كانت اضطراري إلى أن أرمي ثقلي أكثر فأكثر على جوناثان للحفاظ على سلامتي العقلية، ولأشاركه أحمالي التي بتُّ أرزح تحت وطأتها، ولكي أشعر بأني محبوبة، لكن اعتمادي عليه في الوقت ذاته ضاعف الأعباء التي على كاهله ليعاودني مجددًا الشعور بالذنب.

حين انتهيت من بث آلامي ومواجعي على مسمع بيل، ما كان منه إلا أن أمسك بيدي قائلًا بلهجة عميقة حازمة: «جين، يجب أن أخبرك بأمرٍ ما». ظننت بأنه مقبلٌ

على توبيخي وتأنيبي، لكن المفاجأة جاءت حين استرسل بكل لطف وحكمة: «نفوسنا متساوية، وأنت لا تقلّين أهمية عن ستيفن»، تأملت هذا الوحي الغريب بعد أن تركني ليجري محادثةً مع ستيفن، وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، اتَّصل الدكتور سوان لينصح بإرسال ستيفن لمدة وجيزةٍ إلى دار التمريض المحلي، الأمر الذي قابله ستيفن بشراسةٍ ضاريةٍ، إلا أنه انصاع لها على مضض في النهاية.

كنت أعلم أنّ ستيفن كان على حق في كرهه دار الرعاية، فهو لم يكن معروفًا هناك، كما تعذَّر عليه التواصل مع الممرضات لعدم فهمهن كلماته، وعدم امتلاكهن التقنيات الدقيقة اللازمة للاعتناء به، لكن حالما انتشر الخبر أن الحائز على كرسي نيوتن الأستاذ اللوكاسي قد نُقل إلى دار الرعاية، توافدت عروض المساعدة من الطلاب الملكيين والزملاء، وبالأخص طالب البحوث السابق لدى ستيفن المدعو غاري غيبونز Gary Gibbons، الذي نظَّم له لائحة مناوبة بحيث يستطيع ستيفن أن يجد دائمًا من يوصل حاجاته إلى الممرضات.

في المقابل عرض مدير مدرسة روبرت، أنتوني ميلفي Antony Melville من تلقاء نفسه أخذ روبرت إلى منزله إذا دعت الحاجة إلى ذلك، مقدرًا الوضع الكارثي الذي ألمَّ بنا بعد أن عاش هو نفسه حالة مشابهة لأوضاعنا في منزله، أما جون كاسي John Casey وهو زميل من كلية كايوس، فقد أخفى تعاطفه الحقيقي الصادق وراء واجهةٍ مهذبةٍ، واقترح أن تقوم الكلية بدفع نفقات إقامة ستيفن، وأخذ على عاتقه مهمة إقناعٍ الإدارة وأمين الصندوق بذلك، وتجدر الإشارة إلى مدى صعوبة هذا الأمر لولا شخصية أمين الصندوق الذي كان نائب المارشال الجوي المتقاعد ريجي بولن Reggie Bullen، وهو من أكثر الأشخاص إنسانيةً ممن تولى منصب أمين الصندوق في الكلية.

في الأسبوع التالي، قبلتُ دعوة مارتن ريس أستاذ علم الفلك والفلسفة التجريبية منذ عام 1973، جلست إلى مكتبه لأراقب جهوده غير المقنعة للظهور بمظهر العالم العملي بعيدًا عن العواطف، فأعلن لي بشكل قاطع: «جين، عليك ألّا تدعي أي شيَء يحبطك»، وما أثار حيرتي هو رنَّة السخرية غير المقصودة التي طالعتني في كلماته، لكن تعبي وذهولي منعاني من التعليق، وآثرت التزام الصمت لأدع له الفرصة في

إتمام كلامه. أعاد الكلام مرّة أخرى ليضيف اقتراحه في النهاية بأنّ الوقت قد حان لجلب رعاية تمريضية إلى المنزل، وفي حال استطعتُ إيجاد الممرضات فسيتولى هو مهمة إيجاد المولين من مصادر خيرية مختلفة، وهنا شعرت بامتنان عميق لعرضه العملي المقترح بعناية وتعقُّل.

خضعت فكرة إحضار الممرضات إلى المنزل لثلاثة عوامل، تولّى مارتن أحدها من خلال عرضه الخيِّر في تقديم الدعم المادي، فيما تبقى عاملان اثنان، أولهما تعذر إيجاد الممرضات المناسبات، والعامل الأهم من ذلك كلِّه كيفية إقناع ستيفن بقبول الفكرة وهو الغاضب حتى اللحظة من وجوده في دار الرعاية، ما جعله يطبق على أسنانه بغضب حين زرته أنا وتيم الرضيع، ويشيح بنظره عنّا إلى شاشة تلفاز أمامه رافضًا النظر إلينا، كان هناك قدر ضئيل من العزاء قد أحمله إليه بوجودي، وفي الواقع كان حضوري يغيظه لكن في الوقت ذاته لو لم أزره بشكل منتظم لاتُّهمت بالإهمال، لاهثةً تحت وطأة ثقل الرضيع الضخم وتحت وطأة إنهاكي، كنت أناضل مرتين في اليوم على طول الممر المؤدي له جامعةً كل قصاصة معلومات، وكل طرفة من قيل وقال لأتلوها على مسامعه، لكن استقباله لنا كان - دائمًا- ذا تأثير مثبِّطٍ جاعلًا محاولاتي في الترفيه عنه مثل عروض ألعابٍ ناريةٍ في يوم ممطرٍ، وفي إحدى أيام إقامة ستيفن في الدار زاره والداه دون أن يكلفا نفسيهما عناءً الاتصال بنا.

كنا نتوقع وصول والدي إلى كامبريدج لتناول طعام الغداء في نهاية الأسبوع عندما رنَّ جرس الباب لأهرع أنا وأمي لفتحه، شاهدنا في الخارج سيارة غير مألوفة لنا تقف بقربها امرأة في منتصف العمر، في حين كان زوجها يساعد والدي على المشي نحو المنزل، سافر هذان الزوجان ستة أميال أو سبعة خلف والدي بعد مشاهدتهما انزلاق سيارته في طريق من الجليد الأسود ليتحطم على الضفة المقابلة، فأسعفاه. وعلى الرغم من الأذى الذي لحق بالسيارة فقد ظهر والدي سليمًا رغم صدمته النفسية، ولمزيدٍ من التأكد استدعينا الطبيب جون أوينز John Owens (طبيبي عند ولادة روبرت، كما كان طبيب زوجة جوناثان الراحلة جانيت)، وبعد انتهائه من الفحص

أكَّد لنا أن والدي ـ في حالةٍ جيدةٍ بالمقارنة مع محنته التي تعرَّض لها، والتي كادت أن تودي بحياته.

تابعت عجلة الأزمـات الصحية ـ في منزلنا دورانها دون كللٍ، لكن هذه المرّة مع الصغيرة لوسي حين بدأت الأوعية الشعرية تنزف من أنفها، وما أن جف رعافها الغزير حتى عاد من جديد، كان الطبيب الذي حَضر يدعى تشيستر وايت Chester White، لقد قدَّم نفسه على أنه طبيبٌ متدرب تأهل مؤخرًا ليمارس مهنة الطب بصفة مهنة ثانية له ـ في منتصف العمر، أخضع لوسي لفحوص عدة ليؤكد لنا بعدها أنّه لا داعي للقلق، وبينما كان على وشك المغادرة، التفت إلي ليسألني: «ماذا عنك؟ هل أنت على ما يرام؟»، دهشت بشدة؛ فاستطرد: «تبدين متعبةً جدًّا». أخبرته عن أزمتنا وعن ستيفن، وشرحت له ما يجري، كان قد سمع بالعالِم ستيفن هوكينغ، وقد رآه مرّات عدّة ـ في الحي، لكن ما لم يعرفه - بكل الأحوال- هو كيف صمدنا تلك السنوات كلها دون تلقي مساعدة من خدمات الصحة الوطنية، فذهل لاحقًا عند سماعه أننا لم نلجأ إلى خدمة التمريض المنزلي سوى ـ في نهارين ـ في الأسبوع، حين أُجبر ستيفن على السماح لمرضة المنطقة بالمجيء ـ في مدة حملي المرهقة، لتساعده على الخروج من السرير، ومن ثم الاغتسال، وإعطائه حقنة هيدروكسوبلامين.

كنت أسرد بألم قصتي القديمة للنضال المرهق والمستمر ـ في شقِّ طريقٍ لنا عبر كل تلك العوائق، لم أكن ساذجةً لكي تأخذني الأوهام بأن المساعدة ستأتيني من كلّ حدبٍ وصوبٍ، كنت أعلم أنّ الدكتور وايت سيصغي إلى مشكلاتي الكثيرة بمنتهى التعاطف، لكنه مثل غيره عاجزٌ عن فعل أي شيء، ومن باستطاعته أن يفعل شيئًا لكوارثنا التي وكأنما خُلقت دون حلولٍ لها؟ حتى مع الأموال التي وعد بها مارتن ريس والعديد من الأشخاص الذين قالوا لي مرارًا وتكرارًا الكلمات نفسها، كل ذلك جعلني لا أميل إلى أخذ كلام أحد على محمل الجد، لكن الدكتور وايت عقَّب على حديثي بأن جاء باقتراحين استثنائيين مدروسين بدقة: الإجراء الأول يتعلَّق بي حين وصف بعض الأدوية لي، أما الثاني فتواصله مع ممرضٍ شابٍ على لائحة ممرضي الخدمة الخاصة، ربّما سيكون قادرًا على تنظيم جدول عناية منتظم لرعاية ستيفن.

كان الأمل الذي تجدد مع مقترحات الدكتور وايت هشًّا معرَّضًا للانهيار في أيّ لحظة، لكن قررت الأخذ به؛ لعلني أحظى بممرضٍ مناسبٍ إثر هذا اللقاء، بيد أن العقبة الأخيرة الأصعب كانت في مقاومة ستيفن لفكرة التمريض المنزلي، بسبب فرضها عليه من سلطة خارجية، الأمر الذي أدى إلى هدم المبادرة برمَّتها. خلال أيام أبلغني مارتن ريس عن عثوره على مصدر تمويل مؤقت لبعض الرعاية التمريضية عند عودة ستيفن إلى المنزل.

لكن، وكما كنت أخشى، طال انتظاري للدكتور تشيستر في حصوله على الاتصال مع الممرض المطلوب، وانطفأ بصيص الأمل قبل أن تُضرم النار فيه، لم أكن أرغب بالتآمر ضد إرادة ستيفن ورغباته، لكن الوضع أصبح لا يُطاق، وفجأةً يأتيني اتصال هاتفي ذات صباح في نهاية شهر يناير/كانون الثاني.

كان الدكتور وايت قد تواصل مع الممرض نيكي ماناتونغا Nikki Manatunga، الممرض الذي انبعث فجأةً من الفراغ ليحيي الأمل من جديد، كان ممرضًا مجتهدًا من سيرلانكا، مريحًا هادئ النبرات، استقر مع زوجته وطفليه في قرية خارج كامبريدج. أصغى نيكي إلى متطلبات الحالة وصعوباتها دون أن يُظهر أيّ قلق، بل على العكس من ذلك، كان واثقًا من قدرته على تشكيل فريقٍ من الممرضين من زملائه في مستشفى فولبورن؛ مستشفى الأمراض النفسية.

مع عودة ستيفن إلى المنزل جاء نيكي لمناوبته الأولى، فواجهه ستيفن بالرفض الشديد، ورفض أن ينظر إليه أو أن يتواصل معه بأيّ شكلٍ من الأشكال إلا عن طريق تحريك أصابعه على الكرسي المتحرك، اعتذرت لنيكي الذي قابل رفض ستيفن بابتسامة وقال برباطة جأش: «لابأس، نحن معتادون على التعامل مع المرضى صعبي المراس». بعد أسبوع أحضر نيكي ممرضة أخرى، ومن ثم أخرى.

كان هناك ممرضة تأتي مع كل متدرب جديد ليمرَّ على التفاصيل المعتادة من الروتين اليومي، فيبقى ذلك التحول بشكله السلس مع الحد الأدنى من التدخل المطلوب من قبل أفراد الأسرة المقيمين؛ بدأ هيجان ستيفن وغيظه يتخذ منحًى أفضل، حيث

أصبح أكثر هدوءًا وتقبلًا لفكرة وجود أولئك الأشخاص الصبورين المكرَّسين لخدمته، وأدرك في النهاية بأنّه يستطيع أن يدعوهم لمساعدته حتى خارج ساعات خدمتهم الدقيقة، وباستطاعته أن يأخذ الممرضين معه في رحلة إلى الخارج، وأن يحافظ على استقلاليته مع طلابه وزملائه، حتى مع عائلته. لم يعد بعد الآن بحاجةٍ إلى الاعتماد على مجموعة صغيرة من المقرَّبين لمساعدته في احتياجاته الشخصية، وهكذا بزغ فجر حقبة جديدة لسيد الكون، ومن ثم لبقية أفراد أسرته.

12
إلى النجوم

بقدوم فريق نيكي التمريضي، رُفعت الأثقال التي لطالما أثقلت كاهلنا، لتتاح الفرصة لنا كأسرة واحدة لبدء عيش حياة أفضل بدلًا من قضاء الحياة في كفاح مستمر.

كانت رعاية ستيفن سهلة نسبيًّا مقارنة بروتين الحياة السابقة، خاصة منذ أن أصبح جوناثان معنا في معظم الأمسيات وطوال اليوم في عطلة نهاية الأسبوع، ليساعد على إطعام ستيفن، وأخذه إلى الحمام، ورفعه من السيارة وإليها، كما كان شاهدًا لا حول له ولا قوة على نوبات الاختناق المرعبة التي تداهم ستيفن وتهجم عليه بوحشية عند كل وجبة طعام وتضغط على آخر نفس في رئتيه، فننتظر متحلين بأمل أن تمرَّ النوبة بسلام، وعلى أهبة الاستعداد للاتصال بالطوارئ إذا تأزمت الحالة أكثر، دفعت تلك النوبات بستيفن للتشبث أكثر بالحياة بما تبقى لديه من قوة، وعندما تمرُّ الوعكة، وبعد بضع رشفات من المياه الدافئة، يعود إلى وجبته نابذًا كلّ ما من شأنه أن يشتبه في تهييج حنجرته، وما أن نعود جميعًا للاسترخاء، حتى يقع مرة أخرى فريسة هجومٍ آخرَ.

كان جوناثان بطبيعته الخيِّرة يستشعر أين نحتاجه ومتى نطلبه، وكيف سيقوم بأفضل دورٍ لمساعدتنا، وكأنه قد خُلق للنضال والكفاح معنا. ساعدنا في كل الأعمال المنزلية الضرورية التي طالما قمت بها فيما مضى دون مساعدة؛ من إحضار أكياس البطاطا، وإفراغ أكياس القمامة، وتبديل المصابيح الكهربائية، وفحص ضغط الإطارات وملء السيارات بالبنزين، وأخيرًا أصبح هناك شخص يساعدني على جلب جبال عملاقة من حاجات التسوق الأسبوعية من السوق أو من مركز تسوق سينبري. كافحت جسديًّا لسنوات طويلة إما بسحب الحقائب الثقيلة ورائي أو نقلها على عربة، قمنا معًا برعاية الأطفال الثلاثة، وعادةً ما وفَّر جوناثان خدمة التاكسي لنقل روبرت

ولوسي من أنشطتهما المختلفة وإليها، وكان يتولى تلبية النشاط المفضل لدى الطفل المولود الذي لم يحب شيئًا في العالم أكثر من أن يُرمى عاليًا في الهواء، فاغر الفم بعينين مفتوحتين على اتساعهما لجزء من الثانية، قبل أن يترقب العودة إلى الأرض مجددًا، ليقع بأمان بين ذراعي جوناثان.

كانت طموحات ستيفن لا تعرف حدودًا، واستمرت نجاحاته المتواصلة طوال مدة بداية الثمانينيات، فقد تبارت المؤسسات والجامعات والهيئات العلمية في سباقٍ محموم لإمطار ستيفن بالميداليات والتكريمات؛ جائزة ألبرت أينشتاين، ووسام أينشتاين، وميدالية فرانكلين، وميدالية جيمس كلارك ماكسويل، وتكريمات أخرى لا سيما الدرجات الفخرية التي تُقرأ مثل قائمة ليبوريلو لفتوحات دون جيوفاني[1] النسائية في أوبرا موزارت. لكن فتوحات ستيفن لم تقتصر على أوروبا فقط، على الرغم من أنه لم يكن هناك نقص في احتفالات تقديم الجوائز له في بريطانيا، ومع ذلك فقد أخذت ستيفن بنفسي إلى أي تكريم مقامٍ بمقربةٍ من المنزل.

في إحدى المناسبات التي لا تُنسى ذهبنا إلى ليستر لحضور حفل مراسم شهادات في كلية ترينتي في كامبريدج التي كان رئيسها السير آلان هودكين Alan Hodgkin، ورئيس الجمعية الملكية سابقًا حين كان ستيفن زميلًا في عام 1974. كان لطيفًا ومتواضعًا، مبتسم القسمات، حتى حين علا المنصة بزيّه الأسود المغطّى بالشعارات الملكية الذهبية، رحّب بستيفن لانضمامه إلى صفوف الأطباء الفخريين في الجامعة من خلال مصافحته، ضاغطًا بشدّة على اليد التي كان ستيفن يستخدمها للتحكم في الكرسي المتحرك، تلك الضغطة أدخلت كلًّا من ستيفن والكرسي المتحرك والسير آلان هودكين - والذي كان ما يزال معلّقًا بالجهاز إن صح التعبير- في دوامة رقصة ثنائية هوجاء، وجعلت كلًّا من الفرقة بلباسها الاحتفالي الشرفي والقبعات المربعة الشكل، إضافة إلى الكرسي المتحرك على حافة هاوية المسرح بشكلٍ خطير، لكنّ ردة

(1) أوبرا دون جيوفاني للموسيقار موزارت التي تتحدث عن كازانوفا الذي ذاع صيته بعلاقاته المشبوهة، وليبوريلو هو خادم كازنوفا الذي كان يحصي علاقات سيده ومغامراته. (المترجم).

فعلي جاءت سريعةً، وتجلّت في قفزة واحدة إلى المسرح في الوقت المناسب لإطفاء عصا التحكم في الكرسي وتفادي وقوع كارثة مروعة.

كانت معظم الاحتفالات تجري عادةً في الولايات المتحدة، ومع ذلك، يعود الفضل لنيكي وفريقه الذي أبدى استعداده في أن يكون إلى جانب ستيفن في السفر؛ مما مكَّنه من الذهاب إلى كل حفل توزيع جوائز على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي في رحلة مدفوعة التكاليف، فيذهب بعدها إلى الغاية المهمة الأساسية من رحلته؛ النقاشات العلمية مع زملائه في أماكن أخرى أكثر إثارة للاهتمام، كان ستيفن في ذلك الوقت غارقًا بشكل خاص في إنتاج العديد من المجلدات التي تضم المقالات ومجريات المؤتمرات المتعلِّقة بالنسبية ومحاولات التوفيق بينها وبين فيزياء الكمّ، وفي كثير من الأحيان كان تحرير تلك المجلدات مشتركًا كما هو الحال مع فيرنر إسرائيل.

شكَّلت تلك المؤتمرات، أو بالأحرى (ورشات العمل) التي سجلت في تلك المجلدات شغف ستيفن الجديد، حيث وجد أن شهرته التي جابت الآفاق ومكانته المرموقة بصفته أستاذ لوكسان أتاحت له ميزة جذب التمويل إلى قسمه، رغم أنّ إحدى شكاواه المفضلة كانت تتعلق بنقص تمويل المشاريع العلمية. لطالما كنا معتادين على استقبال المشاركين في المؤتمر وتسليتهم وإمتاعهم على نطاق متواضع ولسنوات عديدة، أما الآن فقد تجلّى الوضع الجديد بشكل مختلف من خلال دعوة ستيفن زملاءه وخصومه للقدوم إلى كامبريدج في نطاقٍ واسع ليترأس محاولاتهم جميعها بوصفه السلطة العليا. تنامت ورش العمل وأصبحت أوسع وأكثر وأكبر شأنًا، مع ازدياد التمويل ليس لدعوة المتحدِّثين والمندوبين البارزين فقط؛ ولكن أيضًا لحفلات العشاء والترفيه، ولأودِّع دوري بوصفي مضيفة الحفلات والمسؤولة عن وضع بوفيه الطعام المفتوح لأكثر من أربعين شخص على مدى سنوات وسنوات.

في ظل هذا النظام الجديد، أصبح عشاء ورشات العمل يُعقد في الكلية مكان حضور الوفود، واقتصرت مشاركتي في العهد الجديد على استضافة حفلات الاستقبال وحفلات الشاي المؤلَّفة من شطائر الخيار من مطبخ كلية كايوس، وما عدا ذلك فإن حفلات العشاء التي جرت في المنزل اقتصرت على مجموعة من أقرب الأصدقاء

القادمين من الخارج فقط، وهي حصّة الأسد من ترتيبات إدارية معقدة لهذه الورش تتضمن تنسيق مختلف الأمور من أعضاء الوفود، وترتيبات السفر والإقامة، وطرق الدفع، والمواد المطبوعة المصاحبة للمؤتمر جميعها، فضلًا عن كتابة مجريات الحدث وتوثيقها. كل تلك العمليات المعقدة والشاقة وقعت على عاتق جودي فيلا، سكرتيرة ستيفن، على الرغم من أنها -من الناحية النظرية- تعمل بدوام جزئي فقط، كل ذلك إلى جانب أعباء عملها كأمينة لفريق النسبية.

كانت جودي أمًّا لطفلين في نفس سن روبرت ولوسي، لكنَّها غالبًا ما عملت ساعات طويلة حتّى الليل، في بعض الأحيان كانت تلجأ إلى التكنولوجيا التجريبية التي وضعها المختصّون بديناميك السوائل في الطابق السفلي من القسم؛ تلجأ إليها لإنتاج الصورة النهائية الجاهزة للطبع والقادرة على فكِّ الإشارات الهيروغليفية والرسوم البيانية لوقائع المؤتمر، وعلى الرغم من تقدير ستيفن لتفانيها في العمل، إلّا أن الكثير من زملائها الذين يزاولون مهنة السكرتارية عجزوا عن استيعاب كل هذه الضغوط غير التقليدية التي كانت بموجبها تكدُّ ليل نهار في نمط حياة متعب للغاية.

انحسرت موجة الضغط عن المنزل لتجتاح القسم، وهذه المرة جاءت نتيجةً لضغط وسائل الإعلام العالمية، حيث كانت اختراعات ستيفن في بعض الأحيان تتطلَّب التوثيق من خلال الصحافة العلمية البريطانية والأمريكية، أما التوجه فكان دومًا أساسه الاحترام والتقدير في سياق علمي بحتٍ، مع إشارةٍ ضئيلةٍ أو معدومةٍ لوضعه الجسدي. في أوائل الثمانينيات بدأت الصحافة الشعبية تظهر اهتمامًا أكبر بستيفن؛ انطلاقًا من كونه ظاهرة في حد ذاته. ذلك التناقض الكامن بين القيود التي فرضتها حالته الجسدية التي ظهرت في جسده المنكمش وكلماته المرتعشة، وبين قدراته العقلية الخارقة التي سمحت له أن يطوف في أقصى أطراف الكون؛ ذلك التناقص أمَّن مصدرًا خصبًا لرحلاتٍ خيالية من النثر العجيب في مديحه، وعلاوةً على ذلك كان بطل المقابلات محبًّا للشهرة، وراغبًا بها، رغم جدوله الحافل الذي فرض لائحةً مثقلةً بالمهمّات على عاتق السكرتيرة التي تعيَّن عليها التعامل مع تدفق الصحفيين وأطقم التلفاز -ليس على المستوى الوطني فحسب بل من أنحاء العالم جميعها، لدرجة أنّ

بعض الأكاديميين في القسم اعترضوا على تحوّل غرفة الاستراحة الخاصة بهم إلى استديو تلفازي.

استمتع ستيفن بإذهال الصحفيين الزائرين وتركهم في حيرةٍ من أمرهم، اعتذر ذات مرة عن عدم إحضاره للمكتب نموذجًا رباعي الأبعاد للكون، أو عندما سُئل عن اللانهاية، فأجاب بأنه من الصعب الحديث عنها كما لو أنها طريقٌ طويلٌ، واعترف - بصراحةٍ تامةٍ- عن خيبة أمله من بقاء الثقوب السوداء اكتشافًا بعيد المنال عنه، ذلك أنّ إثباتَ وجودِ الثقوب يضمن له جائزة نوبل؛ كانت هذه الإجابات المبهمة والبارعة عن أسئلة الصحفيين بمثابة صيدٍ ثمينٍ لهم، فيجمعونها لإعادة خلقها على صورة مقالات توقيرية قوامها مجموعةً الملاحظات المحيِّرة التي جمعوها في مقابلاتهم، ونجحت قلَّة قليلة منهم في إنجاز تقريرٍ متوازنٍ عنه، وعادةً ما كانت محاولاتهم في وصف الحالة الجسدية لستيفن تفتقر إلى الحساسية، في حين اعتمد تقييمهم المادة العلمية على تفسيرات زملاء ستيفن وطلابه لأسباب مفهومة طبعًا كونهم الأقدر على ذلك، لكن وسط هذا التدافع الإعلامي وسيل الإنتاجات المتدفق، كان الصحفي الأكثر انعدامًا للإحساس من بين الجموع منتجًا قادمًا من فريق برنامج الأفق[1] على البي بي سي.

لاقى الفيلم الذي أعدَّته صديقة الكلية فيفيان كينغ قبل ستة أعوام نجاحًا باهرًا، ونجح في إظهار ستيفن في سياق عام، متجنبًا الوقوع في شركٍ مغرٍ لتصوير ستيفن على أنّه الدكتور سترينجلوف[2]، كان واحدًا من أسوأ مخاوفي أنْ يظهر ستيفن على أنه مسخ مقيد بكرسي متحرك، مهووس علمي ملتوي الجسد والعقل، يسعى بنية تدميرية وراء العلم وبأي ثمن، وهذا ما حدث بطريقة أو بأخرى في فيلم (الأفق) الثاني، حين

(1) برنامج الأفق: برنامج وثائقي بريطاني تلفازي يغطي مجالات العلوم والفلسفة ومستمر في العرض منذ عامه 1964. (المترجم).

(2) الدكتور سترينجلوف (Dr. Strangelove): شخصية رئيسة في فيلم كوميدي يحمل اسمه، أنتج في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وصدر عام 1964، ويكون الدكتور سترينجلوف على كرسيه المتحرك، وهو في الفيلم خبير نووي ونازي سابق. (المترجم).

سألتُ المنتج إذا كان يود أن يشمل الأسرة في الفيلم بشكل وجيز، فجاءت إجابته باستخفاف وإهانة بأنّه لا يرى في أسرته سوى ورق حائط أو خلفية لحياته، ولم يكن مفاجئًا أن يطابق الفيلم جوابه المستخف، حين جاء بعد ستة أشهر في أحد مشاهد الفيلم وتحديدًا مشهد الغداء في مركز الكلية ظهور لي ولتيموثي الصغير مع خلفية صوتية تعود إلى إحدى طلاب ستيفن: «لم تكن السيدة هوكينغ ولا ابنها من المهتمين في الرياضيات، ولهذا كنّا نحاول ألا نتكلم عن العمل حين يأتون إلى الغداء».

علمت لاحقًا أنّ ذلك المقطع قد تسبب بإحراج هائلٍ لذلك الطالب الذي طلب المنتج إليه قراءة الجواب المكتوب، ردًّا على ذلك كتَبَ مشرفٍ في السابق آلان ديرموند بكل شجاعة احتجاجًا على هذه الإهانة المتعمدة وأرسله إلى البي بي سي، أما المفارقة المثيرة للسخرية فهي افتتاح فيلم الكون عن البروفسور هوكينغ بلقطة مأخوذة من إحدى صور زواجنا، ربما كان والداي هما الشخصان الوحيدان اللذان وجدا فيها أمرًا ممتعًا بعد أن ظهرا في صور الزفاف ليصبحا بين ليلة وضحاها من مشاهير التلفاز القادمين من سانت ألبانز.

لم يكن برنامج الأفق نافذة ستيفن للشهرة، فقد أصبح اسمًا مألوفًا بطريقة أو بأخرى، وفي صيف عام 1981 عبَّر الأمير فيليب - رئيس جامعة كامبريدج - عن رغبته في لقاء ستيفن حين كان يتجول في أروقة أقسام الجامعة، بدا أن توجيه دعوة خاصة له هو أمرٌ أكثر ملاءمة، حيث يستطيع أن يتكلم بحرية دون أي إزعاج وليصبح روبرت العالم الصغير بعمر أربعة عشر عامًا المترجم لإجابات والده على أسئلة رئيس الجامعة حول عمر الكون وطبيعة الثقوب السوداء. صادفَت زيارة الأمير في العاشر من يونيو/حزيران ذكرى ميلاد أحد الضيوف في منزلنا، وكنت قد أعددت كعكة فواكه تعلوها نصف دزينة من الشموع، أطفأها تيم والأمير فيليب كلاهما قبل أن يتوجه الأمير على عجلٍ إلى موعدٍ آخرَ.

في عام 1982 نال ستيفن رتبة كوماندر وهي مرتبة في أعلى قائمة مراتب الشرف في الإمبراطورية البريطانية للسنة الجديدة، وقد قررنا - نظرًا إلى إمكانية تكرار كارثة عدم السيطرة على الكرسي المتحرك- وجوب مرافقة ستيفن، فتولى روبرت تلك

المهمة. حُدِّد موعد تقليد الرتبة في قصر بيكنغهام في الثالث والعشرين من فبراير/ شباط، تطلبت المناسبة ملابس تليق بها باستثناء تيمي الذي كان صغيرًا جدًّا وبقي مع والدي، تجهَّز روبرت بأول بزَّة رسمية له التي لم تُرتدى مرة أخرى؛ لأنه كان أكبر عمرًا عند حصول المناسبة الرسمية التالية، أما لوسي التي كانت تمرُّ في طور الفتاة المسترجلة فقد قبلت بارتداء الثوب والمعطف شريطة ألا يتكرر الأمر لتعود إلى ثيابها المفضلة: الجينز والقميص.

بعد تفكير مليّ تبين أننا لن نستطيع الوصول إلى قصر بيكنغهام في الوقت المحدد (العاشرة صباحًا)، فقد كنت وروبرت المسؤولين عن إدارة الترتيبات كلها، ما اضطرنا إلى القيادة إلى لندن في الليلة السابقة لمراسم التقليد، وحجز شقة للبقاء فيها في الطابق الأخير المخصص للزملاء في الجمعية الملكية المطلّ على الأشجار الباسقة للساحة الخضراء، وعلى الأسوار حول متنزه هورسغاردس Horseguards Parade. بعد مرور وقت طويل انشغلت به في ترتيب ملابس واكسسوارت حفل اليوم التالي أدركتُ متأخرةً أنّ حذاء لوسي الجلدي كان مفقودًا.

كانت تجرجر قدميها -ببراءة- في حذائها المدرسي القديم راضية بالظهور في مظهر تلك القادمة من رحلة لتسلق الأشجار، انطلاقًا من كوني الزوجة المسؤولة عن تسيير الأعمال كان عليَّ البحث عن حلول بديلة، فكرت بأنه لابد من وجود متجر أحذية في نهاية شارع ريجنت، ولربما وُجد مقاس حذاء لوسي، الأمر الذي جعل برنامجنا الصباحي يبدأ أبكر من المخطط له، فتولى روبرت مهمة إطعام ستيفن وجبة الإفطار، فيما سارعت أنا ولوسي لشراء الزوج الوحيد المناسب لمقاس قدمَي لوسي، ورغم أنه لم يكن بجمال الحذاء الذي نسيناه في المنزل بإبزيمه اللامع لكنه كان مناسبًا بكل الأحوال.

كان كل شيء على ما يرام وفقًا للجدول الزمني المحدد على الرغم من مستجدات اللحظة الأخيرة الخاصة بحذاء لوسي، سارعنا إلى الانطلاق لنجد مفاجأةً أخرى لم تكن في الحسبان، كنا قد انضممنا إلى ذروة الاختناقات المرورية حيث ظهرت الجموع الغفيرة التي كانت تتجه إلى قصر بكنغهام، وأعطت الحشود المندفعة الإحساس

ذاته للهواء المحموم على الطرق المزدحمة بالمسافرين المؤدية إلى مطار هيثرو، وكما يحدث مع معظم الوافدين حين يُستبعدون عند البوابة حصل الأمر معنا، ولكن مع فارق أننا نحن من بين كلّ تلك الحشود لدينا الحق في أن نكون داخل تلك البوابات المزخرفة التي تودي بنا إلى عالم مختلف، عالم يعمل بتوقيت زمني مختلف حيث كل شيءٍ يجري هناك بدقّة لا متناهية ودون أدنى أثر لأي فوضى أو نفاد صبر، بل كانت المجاملات اللطيفة والسحر الجميل السمات المميزة لكل اللقاءات.

أُرشدنا إلى مدخل مختلف عن بقية الوافدين، لنغادر السيارة التي ظهرت - فجأةً- قديمةً وقذرةً وباليةً بشكل محرج، صعدنا بضعة طوابق في المصعد القديم، فأرشدنا بعدها خادم بطريقة مهذبة إلى طريقنا عبر متاهة من الممرات التي كنا قادرين أن نتوقف فيها للحظات مبهورين بالأثاث واللوحات والمزهريات الصينية، والزجاج المغطّى بالعاج الذي اصطف على الجدران بصورةٍ بديعة، وعند وصولنا إلى البهو الرئيس انفصلنا كلٌّ على حدة؛ فقد روفق روبرت وستيفن للانضمام إلى بقية طوابير الأبطال والبطلات الوطنيين، في حين أرشدنا أنا ولوسي إلى أريكة وردية فخمة تقع بجانب قاعة الرقص المهيبة.

كان هنالك الكثير من التفاصيل التي استغرقنا في تأمُّلها في أثناء انتظارنا إجراءات البدء بالمراسيم، الثريات الكريستالية الضخمة التي كانت تتدلى متلألئةً في نهاية قاعة هائلة الاتساع، لقد كان هناك ما يشبه المعبد، مخمليًّا أحمر اللون غُمر في ضوءٍ ذهبي رقيق، في حين وقف حارسٌ مسنٌّ من حراس الملكة على المنصة التي كانت الملكة على وشكٍ أن تعتليها بعد قليل. من جهة أخرى كانت الفرقة العسكرية الموجودة على شرفة القصر قد بدأت بعزف برنامجها الاحتفالي قبل البدء بالنشيد الوطني لحظة وصول الملكة، كانت مراسيم التنصيب أو تقليد الرتب تجري بخفة وسلاسة في تنسيق مألوف يجمع بين التقاليد البريطانية العريقة وبين الاحتفالات التي تتسم بميلٍ وطني للأبهة على نطاق واسع، ليتقدم كل مرشح إلى الأمام نحو لحظة المجد المنتظرة وجهًا لوجه مع الملكة.

في غمرة مشاهداتنا وجّهت لوسي لكزة مفاجئة لي عندما رأت أحد الحراس كبار السن، من الذين كان يقفون خلف الملكة، وقد سقط أرضًا ضحيةً لثقل الزيّ الرسمي لحراس القصر وحرارته، وللساعات الطويلة التي قضاها واقفًا على قدميه، فأُبعد من مكان الحادث بسرعةٍ وتكتمٍ، وبدأ الحفل دون أي انقطاع في المراسم.

جاءت اللحظة الحاسمة عندما ظهر روبرت وستيفن في المدخل الجانبي في انتظار دورهما، وفي منتصف المسافة تقريبًا خلال إجراءات التنصيب شعرتُ بقشعريرةٍ سرت في أنحاء جسدي، كنت أشعر بحبّ وفخر لا حدود له، عبرا بعدها الطريق حتى المنتصف وقاما بالتفافة نحو الملكة كما تملي البروتوكولات، بدا ستيفن وروبرت ثنائيًّا مثيرًا للإعجاب؛ العالم النحيل المتراخي الذي لا يُقهر في كرسيه المتحرك يبتسم ابتسامته العريضة الواسعة، يرافقه نجلنا الخجول طويل القامة بشعره الأشقر. كان لستيفن الحق في أن يبتسم ابتسامته العريضة المسرورة بسبب إنجازه الخاص. ولربما كانت أيضًا ابتسامة سخرية. فذلك المتمرد السابق الشاب الاشتراكي الغاضب قد حصل على واحدة من أعلى مراتب الشرف من الملكة، واقتيد إلى حضن تلك المؤسسة التي طالما احتقرها بشدة.

بعد ذلك، وخلال مأدبة غداء في فندق فاخر وسط لندن، اطّلعنا على كتيب المعطيات الذي جاء مع الوسام، فوجدنا أن الامتياز الوحيد الذي يخصنا من هذا الوسام أنه يمكن للوسي أن تتزوج مستقبلًا في مذبح سرداب كاتدرائية القديس بولس؛ بوصفها ابنة الحائز على هذا الوسام من الإمبراطورية البريطانية،علّق روبرت بجفاء على الأمر قائلًا: «لعلها لن تنسى حذاءها في ذلك اليوم».

لم يقتصر الأمر على المؤسسة البريطانية الحريصة على حسبان ستيفن من المنحدرين من صلبها، فقد سبق وأن حصل على الميدالية الباباوية عام 1975، كما دعي في خريف عام 1981 إلى حضور مؤتمر نظمته الأكاديمية الباباوية اليسوعية في الفاتيكان، وهي مجموعة متماسكة من العلماء البارزين، تلك الشخصيات التي لا يرقى إليها الشك، كانت تقدم المشورة للبابا في المسائل العلمية، وقد دعي ستيفن إلى ذلك المؤتمر ليتحدث في الفاتيكان عن حالة الكون؛ في تلك المرحلة لم تكن الممرضات

قد بدأن في مرافقة ستيفن في رحلات الخارج، لذلك رافقه إلى المؤتمر برنارد وايتينغ، الباحث الأسترالي الجنسية الذي كان يعمل مع ستيفن؛ وذلك لمساعدتي على رعايته بشكل عام ولتفسير محاضراته إلى الجمهور.

منذ ولادة تيموثي، استبدت بي أطنان القلق التي ظننت أني قد ودعتها إلى الأبد في موضوع ترك الأطفال عند سفرنا، كان عليَّ اتخاذ قرار بين أخذهم جميعًا أو أن آخذ واحدًا أو اثنين منهم، كان روبرت حينها قد بلغ عمرًا لا يمكن معه التغيب عن المدرسة والدراسة ببساطة، ولحسن الحظ رافقتنا ماري وايتينغ التي كانت على معرفة جيدة بروما، والتي من دونها وزوجها، لتحولت تلك الزيارة إلى كارثة حقيقية. كان يفترض أن يكون فندق مايكل أنجلو أقرب الفنادق إلى الفاتيكان، على الرغم من أنه - وفقًا لمعايرينا- على مسافة عشرين دقيقة من مكان انعقاد المؤتمر، ولم يقدِّم الفندق أي وجبة طعام أو حتى وجبة الإفطار، أضف إلى ذلك أنه يتعيَّن علينا تجاوز عقبة المشي لمسافةٍ جيدةٍ نسبيًّا بالنسبة إلى كرسي متحرك للوصول إلى المصعد، وكأن ذلك كله لم يكن كافيًا ليضاف إلى ذلك الجو الكارثي الماطر.

عادت الشمس لتشرق من جديد في صباح اليوم التالي، وظهر أنّ الطقس قد ابتسم لنا، فبدأنا رحلتنا مرافقين ستيفن إلى الفاتيكان عبر الأراضي التابعة لما كان سابقًا مكان إقامة بيوس الرابع Pius IV، وهو مبنى ريفي جميل يعود إلى عصر النهضة، شيده البابا في القرن السادس عشر وتحوَّل في وقت لاحق إلى مكان لإقامة زائرات الفاتيكان، وأصبح منذ عام 1936 مقرًّا للأكاديمية البابوية. تركنا ستيفن المبتهج والمستعد لإطلاع علماء الكون البابويين على وجهة نظره حول الكون الذي لا بداية له ولا نهاية. في تلك الأثناء تنزَّهنا في بساتين أشجار الغار حتى وقت الغداء في مقر الأكاديمية وهي الوجبة الوحيدة التي يعوَّل عليها، في حين كان الأطفال يلعبون في الجداول المتدفقة إلى أسفل التلال، وما لبث أن تحولت السماء المشرقة طيلة مدة الصباح إلى سماء ملبَّدة بغيوم ثقيلة فوق قبة كنيسة القديس بطرس لتحدث فجأة ألعاب نارية مذهلة من برقٍ ورعدٍ.

قامت ماري بدور الدليل السياحي في روما، فقد أخذتنا في جولات إلى الأماكن التي تحبها كالكولوسيوم، وحمامات كاراكلا وسراديب الموتى في سان كاليكستو، لكن ما خفف من وقع تلك الرحلات الرائعة كلها حتمية عودتنا إلى الفندق قبل الساعة الرابعة، وإلا كنّا معرضين لحمّام مطري غزير، لننتظر في الفندق متأملين انقشاع السحب مساءً للخروج سريعًا دافعةً بيدٍ عربة أطفال، وباليد الأخرى كرسيًّا متحركًا.

وغنيٌّ عن القول بأنّ العاصمة الإيطالية بحركة مرورها المكتظة دائمًا، قد جعلت من المستحيل العودة إلى مكان إقامتنا قبل وقت سقوط الأمطار. لكن ما إن أبرقت السماء عند الساعة الرابعة حتى عدنا أدراجنا إلى محطة سكة القطار، للبحث عن حافلة تعود بنا عبر نهر التيبر Tiber.

أثبت تيم الصغير أنّه بطل الساعة بشكل غير متوقع، حيث وقع في غرام الحافلات البطيئة التي كانت تقلنا إلى الفندق رغم جوها الخانق واكتظاظها الهائل، وبدورهم وقع الإيطاليون في غرام تيم الصغير: «أيُّ طفلٍ جميل هذا!»،وأفسحوا مجالًا لي للجلوس وسط الازدحام الهائل، وتيم على ركبتي يتلقى الابتسامات من كلّ حدبٍ وصوبٍ، تمسيدة على شعره من هنا، ودغدغة لذقنه من هناك، وهتاف «عزيزي، عزيزي»، كان قد بدأ للتوّ في اكتشاف فن ربط الجمل بطريقة نحوية إنكليزية دقيقة، سعيدًا بممارسة موهبته الجديدة وترديد جمله على جمهور الباص المكتظ من رجال أعمال وطلاب وجدّات بدينات، فردد بصوته المحبب جملة: «هل لديك منزل؟ هل لديك سيارة؟»، وتابع مجيبًا نفسه: «لدينا بيت، لدينا سيارة، لدينا مرآب، لدينا حديقة»، فتدوي عاصفةٌ من الضحك والإيماءات من الركاب، في حين استمر انهمار المطر مع حلول الليل في ازدحام مروري خانق.

أدَّت ماري دور الدليل السياحي على أكمل وجه، ولم يهدأ لها بال حتى أتمت مهمتها بأن رافقتنا إلى كلّ كنيسةٍ مميزة في روما، بما في ذلك الكنيسة المفضلة لديها، كنيسة سان كليمنتين San Clemente القادمة من القرون الوسطى والمميزة بصليبها الفسيفسائي الملوَّن في محراب الكنيسة القادم من القرن الحادي عشر، مع لوحات جدارية يعود تاريخها إلى وقت مبكر من القرن السادس، أما الكنيسة بأكملها فقد

شيِّدت فوق أنقاض كنيسة قديمة. تابعنا نزولنا إلى الطبقات السفلى في قَبوها المُضاء إضاءة خافتة، حيث كانت الكنيسة في الأسفل مبنيةً من الطوب الأحمر ولأسباب مجهولة تردد فيها أصداء مياه جارية، علقت ماري على تلك الأصداء بأنها مجرور ماكسيما للصرف الذي بناه الرومان ويمرُّ تحت الكنيسة، ذلك المجرور الرئيس بدا لي أشبه بنهرٍ هادرٍ، لكني افترضت أن ماري تعلم تمامًا حقيقة ما تتحدث عنه.

استغرقت رحلة العودة إلى فندقنا ذلك المساء وقتًا أطول من المعتاد، وكأن المدينة أصيبت بالشلل حتى تناهى إلى سمعنا محادثة بعض الركاب مع السائق عن أنّ التأخير يعود للفيضانات التي سببها انفجار مجرور ماكسينا من حدود القنوات الرومانية وتدفقه في شوارع المدينة. كان نقاشنا لتزجية الوقت ما إذا كان هذا الفيضان بمثابة نذير سوءٍ أو علامة من علامات الغضب الإلهي لتصريحات ستيفن المتهورة بخصوص نظريات الهرطقة التي فجَّرها في حرم قدس الفاتيكان. من ناحية أخرى فقد كان الفاتيكان من أقوى الدول المعروفة بتزمتها وتحجرها الفكري.

أما الرجل الذي كان يتعين عليه أن يتناول مسألة سبب وجود الكون، فقد كان مشغولاً في منع العلماء وحجب حقهم في أن يسألوا عن كيفية نشوء الخلق، في نهاية المؤتمر صرَّح البابا في خطابه للجمعية أنه على الرغم من إمكانية دراسة العلماء تطور الكون، إلا أنه ينبغي عليهم ألّا يسألوا عما حدث في لحظة الخلق أو الانفجار الكبير، وعليه لم تعجبني تلك الأوامر الزجرية ولم تعجب ستيفن طبعًا. وكأن الموقف هو إعادة تذكير بما حصل قبل ثلاث مئة سنة حين اعتُقل غاليليو وسجن، وبحرج واضح بدأت الكنيسة تحاول اللحاق باكتشافاته ونظرياته التي بقيت محظورةً مدةً طويلة، ورغم إبقاء الكنيسة على الأوراق المتعلقة بمصيره طيَّ الكتمان إلا أنّ ستيفن دقَّقها، تلك الأوراق حوت - ما معناه- أن سبب عدم محاولتهم إعادة تأهيل سمعة غاليلو بسرعة كان مجرد خطأ وقع فيه سهوًا. لكن في النهاية كان القرار البابوي يعطي انطباعًا لا يمكن نكرانه أن الكنيسة ما تزال تسعى وراء تقييد الفكر، وما زال هنالك الكثير من الدروس والعبر التي مرَّت منذ ثلاث مئة عام لم يُستفد منها.

13
عودة الوئام

كانت الموسيقى صلة الوصل التي أعادتني إلى الكنيسة مشرِّعةً الأبواب أمام استرداد ألقي الروحي، ولم يكن ذلك ليتحقق دون ماري وايتنغ التي هيأت لي فرصة العودة إلى دروس الغناء مرّةً أخرى بعد ولادة تيموثي، فقد طلبت مني السماح لها بمرافقة تيم في نزهةٍ أسبوعيةٍ على أمل أن يساعدها التواصل مع الأطفال على اتخاذ القرار بشأن إنجابِ طفلٍ، وفيما كانوا يقضون وقتًا طيبًا في التنزُّه في الحدائق وإطعام البط والتأرجح، كنت قد استأنفتُ دروسي كل أربعاء تحت قيادة نايجل ومرافقة جوناثان حين تسمح له التزاماته التعليمية. عدت إلى أصدقائي المقرَّبين موزارت وشوبرت وبرامز وشومان الذين أثاروا بموسيقاهم مزيجًا من المشاعر المتضاربة في أعماق روحي.

أتيحت لي فرصٌ متنوعة للغناء المنفرد في حفلات جمع التبرعات دعمًا للقضايا التي كنّا نتبناها أنا وستيفن، وأحيانًا أخرى كنت أُقدِّم بوصفي مغنية منفردة لملء الفجوات في بعض البرامج التي كانت بوابةً لوصول مشواري الفني إلى ذروته الاستثنائية في صيف عام 1982، في كنيسة كلية الملك، بغناء مقطعٍ قصيرٍ خلال الاستراحة التي تخلَّلت عرضًا من عروضِ جوناثان للعزف المنفرد.

كانت صوتي قد شبَّ ونضج أجمل ما يكون، وتسارعت عملية تعلُّمي للموسيقى بما يكفي لأن أشعر أن الوقت قد حان لدخولي المجتمع الكورالي؛ منحتني تلك الخطوة التي أصبحت قابلةً للتحقيق شعورًا رائعًا من الحرية لم يسبق له مثيل، وفي الوقت الذي كان فيه ستيفن ينعم بأمجاده المستحقة من أصداء شهرته التي جابت الآفاق في أوائل الثمانينيات، كنت أتلمَّس تحولاتي الجذرية في مسارات حياتي تلك التي كانت ترزح تحت وطأة المطالب النفسية والجسدية التي يجب أن أقوم بتلبيتها للآخرين،

وساعد فريق الممرضين على تخفيف ثقلها الذي كان فيما مضى يستهلك كل طاقتي المتاحة.

كان جوناثان الحاضر الدائم في حياتي الجديدة من خلال دعمه الذي لا يتزعزع وتفانيه في خدمة الأسرة كلها، استطاع أن يهبني جناحين لأحلق في سمائي الخاصة، وأكتشف مقدراتي التي طالما قمعتها الظروف، وبقيت حبيسةً في زاوية مظلمة تحت ثقل النضال اليومي. خرجتُ إلى بوابة النور، لم أعد أحيا نصف حياة، بل عشتها بأكملها بكلِّ تفاصيلها، ملء الروح، وأدركتُ أنّ الرمال التي انسابت يومًا من بين أصابعي على شاطئ سانت باربرا لم تعنِ - مع مرور الوقت - توقف طموحاتي الفردية الخاصة.

وجدت ضالتي أخيرًا في أثناء حفل موسيقي في كنيسة الجامعة، حيث تعرَّفت إلى جوقة قوامها متنوع الطيف من أعمار متعددة وتوجهات مختلفة، وقد امتلكوا برنامجًا غنيًّا وتطلعات إلى مستوى متقدم. كان قائد الفرقة ستيفن أرمسترونغ Stephen Armstrong شابًّا يضج بالحياة والطاقة، تخرَّج لتوِّه في الكلية. انضممت للفرقة، وبدأت حضور تمارين الفرقة المكثَّفة مرةً كلّ أسبوع، والتي تعيَّن معها التدريب بشكلٍ جادٍ لمدة ساعتين في نهاية يوم طويلٍ، وقدرًا كبيرًا من التعلُّم في أسبوع الحفل المنتظر، أما في يوم الأداء الموعود، وعادةً ما يكون يوم السبت، يتحول الجدول ليصبح مزدحمًا بشكلٍ محموم، فيما تتحول أفكاري نحو الأسرة التي كان لابدَّ من الاعتناء بها وإطعامها في الوقت الذي كانت فيه التمارين النهائية غايةً في الإرهاق، وحين نصل إلى نهاية الختام تصبح الحفلة في حدِّ ذاتها أشبه بومضة خاطفة، تنتهي في لحظة يختفي معها عمل ثمانية أسابيع تجلَّى في أمسية واحدة، كان الأمر يترك فينا أحيانًا شعورًا جامحًا من النشوة المتولدة من نجاح الحفل، وفي أحيان أخرى حين لا تسير الأمور وفقًا للتوقعات يبقى أثر إحباط ضئيل. تتوالى النجاحات والحفلات ويتغيَّر النَفَسُ الموسيقي بين حفلة وأخرى بشكلٍ سريعٍ من الباروك إلى الموسيقى العصرية فتلك الرومانسية والكلاسيكية، من باخ إلى بنيامين بريتين، كان للأداء، أيًّا كانت شخصيته الموسيقية، الأثر نفسه: ذلك الابتهاج المُسكر.

أحببت كل من غنيت له، وكل عملٍ موسيقي، وكلّ مؤلف كان على التوالي هو المفضل لديّ طوال مدة التمارين والحفلة، جلبت هذه الأجواء الموسيقية معها أثرًا لا يُمحى ولا يزول، ساعدتني على تقطير مآسي الحياة لتتحول معها الشدائد المؤلمة إلى سكينة روحية.

حين بدأ نجمي بالصعود، وقعت والدتي فريسة المرض، كانت أمي -في الآونة الأخيرة- وابنة عمتها الوحيدة على قيد الحياة (جاك) مثقلتان بالقلق على العمة إيفي التي دخلت عامها التسعين، وجب عليَّ توسيع مدى رؤيتي أبعد من نطاق أسرتي الخاصة لأدرك السبب الواضح للقلق المزمن، الذي أدى إلى تفاقم مرض أمي، ظهر لي أنّ الوقت قد حان لأهبَ والديَّ بعضًا من هباتهما وأعطياتهما على مدى سنوات طويلة، وأن أردَّ لهم جزءًا من الدعم المعنوي في وقت محنتهم، خاصةً مع ظهور التغيّرات الجذرية مع مجيء نيكي وفريق الممرضين إلى منزلنا، وما يتيحه نظام حياتي الجديد من الوقت لأطفالي أيضًا.

كان تيم قد نما بصورةٍ أصبح معها طفلًا مسلّيًا ومضحكًا بطريقة لا يمكن مقاومتها، شديد الملاحظة مع سيلٍ من الأسئلة التي لا تنتهي مع رقصاته الشقية، عندما بلغ من العمر ثمانية عشر شهرًا قبل وقتٍ طويلٍ من رحلته إلى روما ورحلة الحافلة التي أسر بها قلوب ركابها الإيطاليين، كان انجذابه لعلم الفلك قد بدأ بالتطور. كان يجلس على كرسيه العالي في المطبخ في ساعات المساء الأولى يراقب مسار القمر، صارفًا انتباهه عن عشائه، متابعًا حركة تنقله في السماء من خلال النافذة، ومع اختفاء القمر ينفد صبره مطالبًا بفكِّ حزامه؛ ليندفع بحماس نحو غرفة المعيشة منتظرًا ظهور أشعته البيضاء من نافذة الحجرة، ليعاود الكرّة في الليلة التالية مع جولة توقعاته المنتصرة، حتى اختفاء القمر بالكامل بعد ليالٍ عدّة، تاركًا إياه في ظلام حيرته وخيبته.

في شهره الثاني والعشرين، أبدى تيم إدراكًا شاعريًّا لظواهر طبيعية أخرى، ففي أحد الأيام الباردة من شهر فبراير/شباط لعام 1980 كانت رقاقات الثلج الكبيرة تتساقط نحو الأسفل بروية وهدوء، ناصعة البياض وبشكلٍ هندسي دقيق على خلفية السماء الرصاصية القاتمة، ما كان من تيم إلا أن اندفع نحو غرفةٍ المعيشة هاتفًا بكل

حماسة: «نج، نج، استطيع رؤية نج»، كانت نج هي طريقته في قول: نجمة، ليرقص مبتهجًا ومصغيًا إلى الموسيقى الصامتة للنجوم المتساقطة من السماء، كانت حماسته ساحرةً للغاية لكنها قد تودي به إلى محاولات تباهي بالاستقلالية أسوةً بشقيقه وشقيقته في محاولة منه لتقليدهما، الأمر الذي ينطوي على خطورة كبيرة في حال غفلت عنه الأعين أجزاء من الثانية. وهذا ما حصل قبل أسابيع من احتفالنا بعيد ميلاده الثاني، حين كنت مشغولةً في تحضير العشاء قبل أن أشعر فجأة أن المنزل قد غرق في صمتٍ غير طبيعي، حيث تلاشت أصوات الثرثرة والضحك، لا أطفال يلعبون، ولا سيارات تجري في أرجاء المنزل، ولا طبول صفيح تُدقُّ بعنف. جَمَد الدم في عروقي واندفعت إلى الباب الأمامي لأجده مفتوحًا على مصراعيه، لتتضح حقيقة فرار تيم.

كان الأمر قد حصل سابقًا مع روبرت الذي كان يهرب بشكلٍ متكررٍ عندما كان صبيًّا صغيرًا، لكنه كان يختفي في أماكن يسهل إيجادها، أما لوسي فقد اختفت مرة واحدة فقط، حين كنا نقطن في سانت ليتل ماري، في أحد أيام الصيف أثارت ذعرنا أنا وثيلما تاتشر لنخرج بحثًا عنها دون جدوى، لكن بعض الأمريكيين المارين في الجوار أخبرونا بمشاهدتهم فتاة صغيرة مع عربة دميتها على جسر ميل، وبالفعل كانت هناك، بسروالها القصير، تمسك بيدها مقود عربة دميتها وباليد الأخرى مظلتها الخضراء الشفافة، تحيط بها مجموعة من الطلاب الجامعيين الذين كانوا يتباحثون فيما يجب القيام به مع ظاهرة الطفلة الواثقة رابطة الجأش التي تتنزه على جسر ميل.

في وقت لاحقٍ لتلك الحادثة، بعد مرور عشرة أعوام، في الطريق الغربي الموحش حيث لا وجود لمنزل جدّين في الجوار لنستنجد بهما، وحيث الأراضي تمتد إلى ما لانهاية دون سورٍ يحيط بها أو حتى بوابة. شعرت برعب شديد، وتملكتني حيرة واهتياج دون أن أدري أيَّ طريقٍ أسلك للبحث عن طفلي؛ أتراه توجه نحو الطريق الذي يؤدي إلى الأسفل حيث النهر، أم تجوَّل حول المنزل نحو الحديقة؟ سارع موظفو الكلية إلى المساعدة بعد أن سمعوا ندائي المسعور هاتفة باسمه، وفي النهاية، نصحني أحدهم بجدية أن أتصل بالشرطة.

وبيدين مرتجفتين وضربات قلب مدوية طلبت رقم 999، جاءني صوت ضابطٍ استمع لمصيبتي دون أدنى تفاعل، بدا لي أنّه لم يتفهم خطورة الحالة، بل أكثر من ذلكً طلب إلي أن أنتظر دقيقة ليعود إليَّ سائلًا باللهجة المزعجة نفسها أن أصف له الطفل المفقود وما كان يرتديه. أجبته بذهول: صبيٌّ صغيرٌ بشعرٍ أشقرَ وعينين زرقاوين، يرتدي سروالًا أخضر اللون. ولدهشتي الشديدة أخبرني بأنٍ لديهم طفلًا بالمواصفات نفسها لكنه عاجزٌ عن إخبارهم بمكان إقامته، وهو الآن في سيارة الشرطة في جولةٍ على أمل العثور على والدته.

أُحضر تيم في سيارة شرطة من قبل شرطية وامرأةٍ بدت لطيفة كانت قد عثرت عليه عندما كان على وشك أن يعبر الشارع في طريقه - كما يبدو- لزيارة جدته جوي كادبري. فوصل طفلي الأشقر المبتلُّ إلى ذراعيَّ المرتجفتين في النهاية.

بالرغم من أن روبرت ولوسي أقل اعتمادًا عليَّ من الناحية الجسدية، لكنهما كانا بحاجة إلى قدرٍ كبيرٍ من الاهتمام والتفهم، بدا روبرت كما لو أنه قد قُدِّر له أن يكون وحيدًا مع أصدقاءٍ قليلين، في حين تسبب نقل لوسي إلى المدرسة الإعدادية في تفريقها عن أصدقائها المقربين الذين تعرفهم منذ زمنٍ طويل. نقل روبرت إلى مدرسة خاصة، وفعلنا مثل ذلك أيضًا مع لوسي، رغم كونها الطالبة الوحيدة في صفها التي نقلت من المدرسة الابتدائية إلى مدرسة بيرس للفتيات، حاولنا تهدئتها بشراء هرَّة صغيرة لها. من ناحيةٍ أخرى قرر ستيفن أن الوقت قد حان لكتابة كتاب؛ على أمل أن يساعده ذلك على دفع رسوم مدرسة لوسي، سيدرس الكتاب نشوء الكون، وسيوجِّه للجمهور بلغةٍ سلسة يتجنب فيها حواجز المصطلحات والمعادلات، الأمر الذي طالما شجعتُ ستيفن على فعله لمواجهة التحدي المتمثل في شرح بحوثه، وقد علَّلت له ذلك بأنني -على وجه الخصوص- سأستفيد من قراءتها، فضلًا عن أنّ هذا سيدفع بدافعي الضرائب إلى تمويل البحث من خلال التمويل الحكومي.

كان كل من لوسي وروبرت يأتيان برفقتي إلى سانت مارك، حيث كان بيل لوفليس الممتلئ إبداعًا يواصل تلبية الأذواق والأعمار كافة محافظًا على تواصله الروحي مع جماعة المصلين في نيونهام، إلى جانب تواصله الفكري من خلال مجموعة ملاحظاته

ومراجعاته المستمرة فيما يخص الدولة والوطن، وأيضًا سخَّر جهودًا استثنائية في جذب العائلات إلى الكنيسة، وذلك من خلال خدمة الأسرة، تلك الخدمة التي حملت دائمًا أوجهًا عديدةً من المتعة والتسلية في آنٍ معًا، مؤثرًا بذلك على جيلٍ بأكمله من الأطفال الذين دخلوا في سن العلمانية بشكلٍ متزايد، أحبت لوسي تلك الأجواء، وكان لديها دور دائم في وظائف عدّة سواء كانت إضاءة الشموع على المذبح، أو قراءة الدرس، أو المشاركة في المسابقات، أو أداء أدوار درامية مختلفة.

وفي أحد أيام الأحد غادرتُ المنزل تاركةً الأطفال يغطّون في غفوة لذيذة يوم العطلة، كان بيل على وشك إعلان الجلسة الافتتاحية لنادي الشباب الجديد، الذي سيتولى قيادته طلاب الكهنوت في الكلية اللاهوتية المحلية، وكان النادي مزيجًا من اللعب والمرح والمناقشة الجادة، أظهر روبرت قليلًا من الاهتمام بالموضوع، لكن حين طلبت منه مرافقتي لحضور الجلسة، وافق على مضض إرضاءً لي، وفي السابعة مساءً توجَّهنا إلى النادي بعد أن توصلت مع روبرت إلى اتفاقٍ بأن يمكث على الأقل عشر دقائق إذا لم يعجبهُ المكان، لكن ما حدث جاء عكس ذلك تمامًا؛ فقد أعجب بالمكان لدرجة أني عدتُ أدراجي إلى المنزل وحيدةً.

أصبح روبرت من المواظبين على الذهاب إلى النادي الذي التقى فيه معارفه القدامى من المدرسة الابتدائية، وأصدقاء جددًا من فتيان وفتيات شكّلوا مجموعة متماسكة ومخلصة منذ ذلك اليوم. شجعت تلك المجموعة روبرت على تطوير ثقته بنفسه، وبعد مضي أسبوعين فقط التقى روبرت ببيل لفلس في طريق عودته من المدرسة إلى المنزل، ليطلب إليه بشكل رسمي موافقته على أن يصبح فردًا دائمًا في المجموعة. تحول بيل لوفليس إلى الصديق الموثوق لكل من روبرت ولوسي، وأصبح الأذن الصاغية لهما، أوضح لهما بلطف تعقيدات حياة البالغين، وحاول شرح أوجه الشذوذ في خلفيتهم العائلية -سواء كانت مرض ستيفن أو طبيعة وجود جوناثان غير التقليدية في الأسرة- التي كانت تتسبب لهم بالاضطراب والتشويش، وتخلٌّ بأفكارهم المثالية عن الحياة الأسرية وما يجب أن يكون عليه الوالدان.

أصبحت الحياة أكثر رخاءً من السنوات التي خلت، وأصبحتُ بدوري قادرةً على استئناف تواصلي مع أصدقاء المدرسة مرّة أخرى، الذين كانوا يأتون مع أزواجهم وأسرهم في أيام الأحد مرّة أو مرّتين أسبوعيًّا لتناول الغداء، ولخوض مناقشاتٍ عديدة في البيئة والعلوم والأدب والموسيقى والسياسة، ومن ثم الانضمام لاحقًا إلى الأطفال في الحديقة والمشاركة في لعبة التخفّي بين الشجيرات لتصبح هذه اللعبة تقليدًا دائمًا يمارس فيها ستيفن دور المراقب، كانت تلك الساعة المكثفة مادةً خصبةً لاستذكار مرحلة الطفولة.

وفي وئام متزامنٍ مع تلك المدة، دخلت علاقتي مع ستيفن مرحلة جديدة انتهى فيها دور الخادمٍ والسيد لنعود مجددًا إلى خانة الرفاق كما الأيام الخوالي، رافقت ستيفن في لقاءاته التلفازية مع شارة رمز السلام ونزع الأسلحة النووية التي ارتداها دائمًا في طيّة سترته إشارةً منه إلى العديد من الأسباب التي كنا ندافع عنها سويةً. وقد حذر روب دونوفان Rob Donovan في أوائل السبعينيات من الزيادة المرعبة والحتمية لأسلحة الدمار الشامل، حيث دخل الجميع في سباقٍ محموم همجي للتسلح ووضع نهاية لهذا العالم؛ من خلال إبادة الكائنات الحية جميعها على كوكب الأرض، شيئًا فشيئًا تحولت حملة نزع السلاح النووي لتصبح قوةً وطنيةً امتدت لتشمل بلدانًا عدّةً.

كانت مجموعتنا (نيونهام ضد القنابل) Newnham Against the Bomb تقيِّم لقاءاتها بشكلٍ شهري في بيت آليس روتون Alice Roughton؛ الطبيبة المتقاعدة ذات الطاقات الهائلة السخية، وصاحبة المعتقدات الخرافية، اشتهرت بتقديمها السناجب المطهية في حفلات العشاء؛ كنا نتحلّق حول النار لتدفئة أيدينا مع كأسٍ من العصير، ونستمع إلى العروض التي يقدمها المتحدثون بلهجة يثقلها التشاؤم، محاولين وضع خطط إستراتيجية لما يمكننا القيام به لوقف سباق التسلح الهستيري، على الرغم من أن الآفاق لم تكن مشجعة. كنّا نحث أنفسنا بشكل دائم ضد المجتمعات الصناعية العسكرية التابعة للقوتين العظميين، وكان عزاؤنا يكمن في مجهودنا ومحاولتنا إيجاد حلٍّ، لنصبح أنا وستيفن مثل داوود في مواجهة قوى جالوت.

أرسلنا الرسائل إلى أصدقائنا حول العالم، لاسيما الموجودين في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، نحثُّهم على الاحتجاج والتصعيد ضد الأسلحة النووية التي هددت بتدمير السكان في نصف الكرة الشمالية، وإنتاج الكثير من الإشعاع ما يجعل فرصة نجاة حياة من تبقوا ضئيلةً، وأشرنا في رسائلنا إلى تلك الحقيقة المرعبة في أنّ لكلّ فردٍ في هذا الكوكب أربعة أطنان من المتفجرات، وأنّ تلك الكمية الهائلة قد تنطلق بطريقة غير صحيحة أو حتى نتيجة عطلٍ في الحواسيب بشكلٍ ما، كان هذا الموضوع فحوى حديث ستيفن في خطابه أمام معهد فرانكلين في فيلادلفيا عند منحه وسام فرانكلين عام 1981مشيرًا إلى أنّ الأمر استغرق نحو أربع مليارات سنة لتطور الثدييات وأربع ملايين سنة لتطور الإنسان وقرابة أربع مئة سنة لتطور حضارتنا العلمية والتكنولوجية، أما في العقود الأربعة الماضية فإنّ التقدم الذي أحرز في فهم التفاعلات الأربعة في الفيزياء كان تقدمًا قيّمًا وفرصةً حقيقيةً لاكتشاف نظرية الحقل الموحَّد بشكل كامل، والتي من شأنها أن تعطي وصفًا لكل شيء في الكون، لكن كلّ ما سبق ذكره معرَّضٌ للتلاشي في أقل من أربعين دقيقة في حال حدوث كارثةٍ نوويةٍ، واحتمال حدوث كارثة كهذه - سواء كان ذلك عن عمدٍ أو عن غير عمد- احتمالٌ قائمٌ وبشكلٍ كبيرٍ، وخلص في خطابه إلى تفوّق هذه المشكلة الأساسية التي تواجه مجتمعاتنا من حيث الأهمية على أي قضيةٍ أيدولوجيةٍ أو إقليميةٍ.

طُرحت هذه النقاط مجددًا عند لقائنا بالجنرال برنار روجرز General Bernard Rogers الحاصل سابقًا على منحة رودس، والقائد الأعلى للقوات المتحالفة في أوروبا. كنّا التقيناه في وليمة عشاءٍ في كلية جامعة أكسفورد، سدَّ ستيفن بعد الانتهاء من الطعام طريق الجنرال بوساطة كرسيه المتحرك عندما كان على وشك المغادرة؛ أصغى برنار روجرز السمع بتعقُّل تام، في حين قرأت خطابي مع قليل من الارتباك نيابةً عن مجموعة نيونهام ضد القنابل.

بعد انتهائي من إلقاء الخطاب اعترف الجنرال بمنتهى التهذيب بأنّ مخاوف مشابهة تراوده، الأمر الذي ناقشه مع نظيره السوفياتي في تلك السنوات، لكن التغيُّر

السريع للوضع الاقتصادي والسياسي ما وراء الستارة الحديدية[1] تفوّق على جهودنا المحلية، ولن نعلم حقًّا إن كانت جهودنا الفردية والجماعية في الاحتجاجات المتواضعة قد تركت أدنى تأثير في مجرى التاريخ، وما إذا كانت رسائلنا قد وصلت إلى أهدافها وضربت في عمق المؤسسات السياسية في الشرق أو في الغرب.

جرت أيضًا حملات من نوع آخر، لكنها تُعنى بمسائل أقل خطورة، بالقرب من منزلنا، كانت كليات كامبريدج تتسم ببطء ملحوظ في تنفيذ قانون المعاقين الذي وصل في صيغته الأولية إلى كتاب التشريعات عام 1970، ولم يُرصد لها أي مبلغ لمساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة في المباني الجديدة في الثمانينيات، أحد تلك المباني كلية كلير التي لا تبعد عن منزلنا سوى مئة ياردة، التي ناشدت الجهات المعنية لتمويلها بهدف إنشاء مكتبة وقاعة عرض، والتي أُعلن عنها بوصفها مكانًا عامًّا أغفلت فيه أي مداخل لوصول المعوقين، قمنا بشن حملةٍ شرسةٍ في وسائل الإعلام ضد هذه المواقف المرائية لنواجه بتعليقات مثل: «إذا رغب ستيفن هوكينغ بمصعدٍ خاص بالمعاقين فليدفع بنفسه تكلفة إنشائه»، وفي النهاية صوّر لورد سنودون[2] Lord Snowdon ستيفن لغلاف مجلّةٍ لامعةٍ، متناولاً قضيتنا على المذياع، وسرعان ما اضطرت الكلية إلى الاستسلام.

واصلنا أنا وستيفن وجوناثان أيضًا العمل الدؤوب لدعم أنشطة جمع التبرعات لجمعية مرض الخلايا العصبية الحركية، التي أنشئت في عام 1979، حيث حضرنا لمدة من الزمن المؤتمرات واللقاءات انطلاقًا من كون ستيفن راعي مرضى الجمعية، وفي أوائل الثمانينيات طُلب إلى ستيفن أن يصبح نائب رئيس منظمة ليونارد شيشاير[3] Leonard Cheshire، ودعيتُ في عام 1982 للانضمام إلى لجنة أقيمت للمطالبة بجمع

(1) الستارة الحديدية: هي الحدود التي قسمت أوروبا إلى منطقتين منفصلتين إبان الحرب العالمية الثانية 1945وحتى نهاية الحرب الباردة في 1991. (المترجم).

(2) مصور إنكليزي وخريج سينمائي، تزوج من الشقيقة الصغيرة للملكة إليزابيث الثانية ليصبح لوردًا. (المترجم).

(3) منظمة بريطانية خيرية تُعنى بشؤون المعاقين وتقوم بدعمهم في بريطانيا وحول العالم. (المترجم).

الأموال؛ بهدف تحويل منزل فتكوري في برامبتون إلى منزلٍ تابع للجمعية وخاص بالمعاقين، حضرتُ الاجتماعات الشهرية وسرعان ما اكتشفت أنّ المكان الأمثل لجمع التبرعات هو جامعة كامبريدج بكل كلياتها والأفراد النزلاء. كانت مهمتي تقتضي التنقل عبر مئات الجهات المحتملة للتبرع وتوجيه رسائل شخصية إلى كل فرد، وذلك استعدادًا لانطلاق حملة المطالبات في صيف عام 1984، تمَّت الحملة بشكل جيدٍ ومبشرٍ بالخير، لكن لسوء الحظ تزامن جمع التبرعات الخيرية مع إضراب بريدي دام لستة أسابيع. في تلك الأثناء كان يتمّ -بشكلٍ مدروس- صرف الوعي القومي عن أنشطة الجمعيات الخيرية المحلية، من خلالِ تركيزِ الإعلام على الصور المروعة التي تبثُّ يوميًّا على شاشات التلفاز للمجاعة في أفريقيا. استغرقنا سنواتٍ عديدة في جمع التبرعات قبل أن يفتح المنزل بشكل رسمي، بالإضافة إلى المضمونِ الإيجابي لتلك الحملات فقد شكَّلت بالنسبة إلينا أمرًا رائعًا؛ حيث توحدت أدوارنا المشتركة بعيدًا عن الفيزياء وعوالمها.

14
أعمال غير منجزة

تبقى لي في بداية الثمانينيات مجموعة من الأمور العالقة التي يتعيَّن الانتهاء منها، أهمها أطروحتي للدكتوراه، التي استُدعيت من أجلها إلى ويستفيلد للخضوع لفحص شفهي خاص بها في يونيو/حزيران من عام 1980، وبحضور ستيفن هارفي Stephen Harvey؛ أستاذ اللغة الإسبانية في كلية الملك، ومشرفي آلان ديرموند.

قبل توجهي إلى هناك، وفي الليلة السابقة تحديدًا، حضرتُ وستيفن أداءً موسيقيًّا لأوبرا هاندل (رينالدو) Handel opera, Rinaldo على أنه جزء من احتفالات نهاية العالم في كيوس، وفشل الأداء عمومًا في ترك أيّ انطباعٍ مؤثرٍ في نفسي، حتى الأغنية الشهيرة Lascia ch'io pianga فقدت جاذبيتها بشكلٍ مؤقت، كان حالي هذه المرة مثل حال ستيفن في تلك المناسبات حين يجد نفسه مكرهًا على حضور الباليه، صرت أتلوى في مقعدي بنفاد صبر، ممتعضةً من تضييع وقتي الثمين حيث تملَّكني قلقٌ عظيم من أنّي لن أتمكن من تذكُّر كل نقطة، وكل تاريخ، وكل إشارة في 336 صفحة من أطروحتي في اليوم التالي عند تمام الساعة الثانية.

لم يفارقني التوتر في اليوم الموعود بل فارقتني قدرتي على الرؤية بشكل جيد، لقد فقدت عدساتي اللاصقة في طريقي إلى لندن لأتلمَّس طريقي خلال الامتحان، فجأة ومع ابتسامة خبيثة يسألني ستيفن هارفي إن كنت قد قرأت كتابًا للمؤلف ديفيد لودج David Lodge، أدهشني السؤال المفاجئ، حاولت أن أكتشف مغزى السؤال الذي طرحه من خلال قراءة تعابير وجهه، فهو بالتأكيد لا يشير إلى رواية الكاتب الشهيرة (تغيير الأماكن) Changing Places، القصة المضحكة التي تروي تبادلًا أكاديميًّا بين جامعتين وهميتين، لكن لم أستطع استشفاف أي تشابهٍ بين أحداث الرواية وبين الشعر الإسباني. استجمعت شجاعتي لأسأله عن أي روايةٍ يتحدث، فأجاب بأنّه يقصد دراسة نقدية تدعى أساليب الكتابة الحديثة Modes of Modern Writing، اعترفتُ له بأني لم أقرأها

قطُّ. بعد ذلك استأنفت الامتحان في جو أكثر استرخاء، وفي وقتٍ لاحقٍ اعترف لي مشرفي بأنّه بدوره لم يقرأ رواية تغيير الأماكن. في فصل الربيع التالي جلب ستيفن وجوناثان رداء الدكتوراه الأحمر ليرافقاني إلى قاعة ألبرت، فقد أُقيم حفل تكريم ضخم أعلن معه نهاية رحلةٍ طويلة شاقة لربما انتهت إلى طريقٍ قد يظهر مسدودًا، لكن لا أهمية لذلك. لم تكن لدي أي آمال كبيرة في وظيفة التدريس أو حتى ساعات مدفوعة الأجر من وظيفة الإشراف في جامعة كامبريدج، بعد أن تجاهل المسؤلون استفساراتي المبدئية بشكل مؤدب حول إمكانية تدريسي في قسم اللغة الإسبانية.

ولكن حين يُغلق للأمل باب يفتح ألف باب من مكانٍ آخر، إذ جاءت فرصة الوظيفة بشكلٍ غير متوقعٍ ومن المكان الذي لم أرجُ منه وظيفة أو مهنة وأقصد بذلك لغتي الفرنسية، تلك اللغة التي كان تماسِّي الأول معها في عمر الثالثة أو الرابعة، حين وجدت صعوبةً في قراءة المكونات المكتوبة بالفرنسية على زجاجة صلصة إتش بي، منذ ذلك الحين بدأ شغفي بالفرنسية جنبًا إلى جنب مع دراستنا لها في سن مبكِّرة، والتي كانت قويةً بما فيها الكفاية لنتغلب معها على المثبطات القوية التي تسببت بها مُدرِّسة اللغة الفرنسية الهزيلة والبارعة، فقد كانت تجعل من الأفعال الفرنسية الخمسين شكلها المفضل في العقاب، وقد قيل في تأبينها أنّها استطاعت الحفاظ على صفوفها الدراسية في صمت مطلق حتى في غيابها.

مع بداية الثمانينيات، كنت قد ودَّعت تمامًا رحلتي مع الأطروحة، في تلك الأثناء كانت لوسي ومثيلاتها يتطلعن إلى تعلُّم اللغة الفرنسية في المدرسة الابتدائية، لكن خطّة تدريس اللغات في المناهج الدراسية كانت ضحيةً للتدابير الاقتصادية لحكومة حزب المحافظين، فقد أزيل المقرر وبإجراءات موجزة، لذلك قدمت إحدى الصديقات العزيزات عرضًا مغريًا يتجلى في تعليم مجموعة من الأطفال بعد ساعات الدوام المدرسي اللغة الفرنسية، تملكتني الرهبة في بادئ الأمر إزاء هذا المشروع الذي كُتب له لاحقًا أن يحيا لعشر سنوات. كان موعدنا بعد ظهر كل يوم إثنين؛ حيث ابتدأنا حصّتنا مع العصائر والبسكويت، لنستأنف بعدها ساعة من التعلم المكثَّف والممتع على صورة ألغاز بارعة، وألعاب، ومجموعات من الأغاني والرسومات والقصص،

وبعد سنة أو اثنتين من بدء المشروع وجدت نفسي مجبرةً على إعادة النظر في مقرر الفرنسية ليتناسب مع امتحان جي سي أي GCE، فقد أشار تقرير مدرسة روبرت إلى تدني مستواه مشيرًا إلى صعوبة اجتياز روبرت هذا الامتحان.

كانت فكرة فشل أحد أبنائي في اللغة الفرنسية أمرًا مزعجًا للغاية، ما اضطرَّني إلى المسارعة في اتخاذ تدابير إسعافية بالسرعة القصوى. استُدعي توماس كادبوري Thomas Cadbury صديق روبرت لخلق جوٍّ تنافسي خلال الدرس، ولنضمن الجدِّية في إحراز هدفنا ألا وهو الحد الأدنى من الأفعال الخمسين المصرَّفة مع الأشخاص جميعهم وفي الأزمنة جميعها.

أصاب الهجوم اللغوي الشرس هدفه بنجاح جعل روبرت يُحطم عقبته الوحيدة لينتقل بمستوى لغته الفرنسية إلى المستوى (أ)، وليصبح كل ما عدا ذلك من مواد دراسية أمرًا سهلًا وهو الذي كُرِّس لاختصاصات الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وبطبيعة الحال، الحوسبة.

تنامت ثقتي بنفسي بما فيه الكفاية من ناحية التعليم، لأبدأ باتخاذ خطوات أكثر رسمية في هذا المجال، سواء كان التدريس في ميدان اللغة الفرنسية أو الإسبانية. جاءت الفرصة الذهبية مع إحدى الأمهات التي عرفتني إلى كلية خاصة تأسست مؤخرًا معروفة باسم (مركز كامبريدج للدراسات)، فكانت نتائج المقابلة الرسمية مع مديرة المدرسة مذهلة حيث تمت الموافقة على تدريسي للمرشحين لدخول أكسفورد وكامبريدج. كان الأمر بمثابة تحدٍّ جديدٍ لأختبر قدرتي على مساعدة الطلاب في ارتياد أيّ من الجامعتين المرموقتين كلتيهما. كانت الأفضلية في اختياري لهذا العمل تعود إلى قدرتي على اختيارِ ساعات التدريس الخاصة، علاوة على أنّ الأماكن التي خصَّصتها المنظمة للتدريس كانت محدودة مما يخولني للتدريس من المنزل.

قضيت ساعات طويلة في مكتبة الجامعة أبحث في نماذج القبول السابقة، ووضع برامج التدريس، والتفكير في الأسئلة الأخلاقية والفلسفية المنصوص عليها في ورقة الأسئلة العامة والتي تدور بطريقة أو بأخرى حول الإشكالات الفلسفية أو اللغوية

المفضلة لدى برتراند راسل؛ مثل: (كان هناك حلاق في أثينا، حلق لكلّ شخص ولم يحلق لنفسه، من حلق للحلاق؟)، أو التعميمات غير الصحيحة، كذلك كانت المقولات الساخرة القصيرة واحدةً من الأشياء المفضلة لدى القيّمين على الامتحانات الذين وجدوا ذخيرةً من الإمدادات في مقولات أوسكار وايلد؛ كقوله: «الحقيقة البسيطة النقية نادرًا ما تكون نقيةً مثلما يستحيل أن تكون بسيطةً».

كانت هذه الصيغ متناسبة مع عناوين المقالات لتحفِّز النقاش حول الأخلاقيات أو القيم الإيجابية أو السلبية للعلم، على سبيل المثال موضوع الردع النووي، ومقولة: «عبقرية أينشتاين أودت بنا إلى هيروشيما». كل هذه الموضوعات وغيرها من المقالات كانت بمثابة الغذاء لدماغي النّهم. كانت أوراق القبول الجامعية فاتح شهية، رحت بعدها ألتهم الأشياء كلَّها المتعلقة بمناهج المستوى (أ)، أضف إليها الترجمات ومناهج القواعد والنحو، وفهم النصوص الأدبية؛ ولم تكن كلّ ساعات التفكير تلك، مع الإعداد والتنقيح، سوى وليمةٍ فخمةٍ للفكر الجائع، لأجد المتعة الكبيرة مع المجموعة العمرية التي أوكلت إلى عهدتي وهي من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة.

شعرت بصلةٍ طبيعيةٍ مع هؤلاء المراهقين انطلاقًا من أن أطفالي في المرحلة العمرية والتعليمية نفسها، وقد استطعت الوصول حتى إلى أعند التلامذة وأصعبهم من خلال سلوك طرقٍ ودِّيةٍ آتت ثمارها. حيث إن العديد من هؤلاء التلاميذ أرسلوا منذ سن السادسة إلى مدرسة داخلية، ليظهر إحباطهم واضحًا بطريقةٍ دراميةٍ في سن السادسة عشرة، فطردوا من مدارسهم، والآن تجلَّت أمامهم فرصة ذهبية لا بد لهم من انتهازها. أما بالنسبة إلى التلاميذ القادمين من الخارج والمتحدثين بلغاتٍ متعددة، الذين أراد آباؤهم أن يستفيدوا من تعلم اللغة الإنكليزية في بيئةٍ سكنيةٍ آمنة؛ فهؤلاء الطلاب عادةً ما يكونون أكثر الطلاب حماسًا وتحفُّزًا، رغم حقيقة كون الأغلبية منهم في حالة مشتتة من ناحية هويتهم الوطنية الحقيقية، بسبب خلفيتهم المتعددة الجنسيات، إلى جانب أن أيًّا من لغاتهم تفتقر إلى الطلاقة المطلوبة كتابةً. تكمن قوة المستوى (أ) في عمله على تعليم التلاميذ التفكير التحليلي والنقدي، وتقديم الأدب للأشخاص الذين ربما لم يقرؤوا كتابًا في حياتهم.

بعد مرور عامين على مزاولتي مهنة التدريس، كنت أشعر بالسعادة الغامرة حين يأتيني طالب ما ليشكرني على هدايته إلى درب القراءة والمطالعة، أما ما يضاعف سعادتي فهو أن يكون هذا الطالب من أولئك الطلاب الذين يعانون عسر القراءة، حيث كانت لي تجربة واسعة في هذا الأمر في عائلتي الخاصة، على أنّني كنت موقنة بمقدرتي على التعامل مع هؤلاء الطلاب، وتشجيعهم بالرغم من عدم تعاونِ النظام التعليمي سواء أقطاعًا خاصًّا كان أم مدارس عامة، وعادةً ما كان التعامل معهم غايةً في السوء، فبدل تشجيعهم كان هؤلاء التلاميذ يُنعتون بالغباء والكسل، ويُطلب إليهم الجلوس في المقاعدِ الأخيرة من صفوفهم.

لكن في حقيقة الأمر، لدى المصابين بعسر القراءة عمومًا نسبة ذكاء أعلى من البقية، إلا أن دماغهم المتطور قلَّص في المقابل وظيفة أخرى من الوظائف الذهنية، وعادةً ما تكون مرتبطة باللغة أو بالذاكرة على المدى القصير، لكن تعامل النظام التعليمي مع طفل ذكي لديه مقدرات تواصلية ضعيفة أو محدودة قد يؤدي إلى نتائج أسوأ؛ فبدلًا من التعامل معه بصبر ومراعاة يُرسل إلى المقعد الأخير في الصف مصابًا بالإحباط دون مساعدته على استرداده لتقدير الذات أو السماح له بالتعبير عن ذكائه الكامن. كانت ساعات التدريس في المنزل ملائمة بما يناسب وقتي الخاص وقد ساعدني على تنظيم وقتي خليفة كيكي، جليسة الأطفال الخاصة بتيمي وهي فتاة جديدة رقيقة موثوق بها أشرفت على رعاية تيمي ريثما أنتهي من تدريسي الصباحي. وفي الوقت الذي يغادر فيه ستيفن إلى عمله، كان طلابي يعلنون وصولهم لأخلع عني مآزر العمل وأبدأ ساعات التدريس، شعرت بسعادة غامرة، كانت المرة الأولى التي تتاح لي أن أستفيد من مهاراتي، حصدت السعادة الشخصية واحترام تلاميذي لي، واكتشفت هويتي المهنية لأستيقظ أخيرًا من غيبوبتي الفكرية.

15
المغادرة

كانت رحلة تدريسي بمراحلها المتعددة هي سبيلي إلى الخروج من القوقعة وتحسُّس قيمة ذاتي، لكن بقي هناك زوايا أخرى مظلمة كان يتعيَّن عليَّ المضي قدمًا لإنارتها بثقة؛ كانت إحدى تلك الزوايا هي فوبيا الطيران ورهاب التحليق، العاقبة الوخيمة لرحلتي المشؤومة إلى سياتل بعد ولادة روبرت حيث اجتزنا الولايات المتحدة طولًا وعرضًا وأنا أرعى اللفافة الصغيرة التي تضم طفلي؛ حرمتني تلك الرحلة من فرصٍ عديدةٍ لمرافقة ستيفن إلى كاليفورنيا في منتصف الشتاء، وجزيرة كريت في الربيع، والسفر إلى نيويورك في الكونكورد، وأجبرني الرهاب المقيت على اختراع أعذارٍ واهيةٍ أداري بها قشعريرة الخوف التي كانت تنتابني في كل مرّة أواجه اقتراحًا للسفر.

ساهمت تلك الحالة في خلق جوٍّ من التوتر في المنزل، وأبقتني في تعاسة دائمة، ليصبح الأمر غير مقتصر على مشاعر عابرة، بل تطوَّر ليتخذ أعراضًا جسدية ملحوظة جدًّا قبل رحلتنا إلى روما في خريف عام 1981، كنت أتوق لإيجاد علاج لحالتي؛ لذلك شعرت بإثارة كبيرة في تلك اللحظة التي كنت أُقلِّب فيها بملل مجلةً في عيادة طبيب الأسنان، وجدت إعلانًا عن عيادة تستقبل حالات فوبيا الطيران، بإدارة الطبيب موريس يافي Mr Maurice Yaffe وهو طبيبٌ نفسيٌّ بارز يُعنى بمعالجة المصابين إما بشكل خاصٍ أو في مجموعات في مركز الخدمات الصحية الوطنية وبطرقٍ وأساليب متنوعة.

كانت طرق الطبيب موريس بعيدةً كل البعد عن الطرق الطبية التقليدية، فهو لم يأتِ على ذكر كلمة فوبيا في علاجه لنا، بل وصف خوفنا من الطيران بكونه (مجرد صعوبة)، وراح يتكلم -في حماسة- عن عروض التذاكر الرخيصة ما جعلنا نعدِّل أفكارنا ونوجهها إلى ملذات باريس، وروما، ونيويورك بدلًا من التفكير بعذابات الوصول إلى هناك. كان لابدَّ أيضًا من دورة أساسية للغاية في الانسيابية والديناميكية

الهوائية التي لا تترك بقايا شك في الأذهان لهؤلاء المتشكِّكين بخصوص طيران هذا الهيكل الضخم في الهواء، وفي النهاية كشف موريس ياي في النقاب عن فكرة من بنات أفكاره الإبداعية، محاكاة لمقصورة الطائرة، في غرفة صغيرة في الطابق السفلي من مستشفى غي، جلسنا في مقاعدنا لنجد أنفسنا نحلِّق بسرعة متزايدة بعيدًا إلى وجهتنا في مانشستر، وكان المنظر الذي يظهر من نافذة الطائرة فيديو لرحلة حقيقية إلى مانشستر مع المؤثرات الجانبية كلها؛ من أحاسيس الإقلاع والتحليق، ومحرِّكات التسريع، وإعلانات المضيفة، وبكاء الأطفال، وميلان الطائرة، والاضطراب الطفيف للهيكل السفلي للطائرة كما لو أنها مرَّت في سحابة، سرعان ما تلاشت مشاعر الذعر الأولية في رحلة مانشستر، وأصبح الأمر بأجمعه مملًّا لدرجة أني نسيت خوفي وبدأت بالاسترخاء.

تمثَّلت ذروة الدورة في عطلة نهاية الأسبوع، والتي ستكون وجهتها باريس، وقد رتَّب موريس ياي في كل تفاصيلها الدقيقة، وإن كانت تكاليفها بطبيعة الحال علينا، وهكذا كانت باريس رمزًا للخطوة الأولى على طريق تحريري من مخاوفي، أما كاليفورنيا فتحولت في صيف عام 1982 إلى فرصة لتجديد الصداقات القديمة على طول الولاية وعرضها معيدةً النظر في وساوسي القديمة.

في هذه الأثناء، رتَّب جوناثان حضور مؤتمر للموسيقى مقام في فانكوفر، وذلك في أغسطس/آب الجاري، حيث تصادف وجودنا في زيارة لسانتا باربرا من أجل حضور مؤتمر علمي، رافقنا فيه جوناثان كأنه واحدٌ من طلاب ستيفن يتشارك معهم أماكن إقامتهم وأهداف رحلتهم، ويتناوب معهم في الواجبات، على الرغم من أنه - خلافًا لهم- كان يدفع تكاليف إقامته الخاصة. أعرب تيم عن دهشته في هذه الزيارة إزاء حجم البلد الكبير، كان يتمتم لنفسه محدِّقًا من نافذة السيارة إلى الصحارى والجبال: «لقد بنى هؤلاء بلدًا كبيرًا!».

كان يعلن بحزن عند مشاهدته غروب الشمس في سانتا إينيس: «إنّها نهاية العالم»، مكرِّرًا عبارته بكل جدّية، وفي وقت لاحق سألت تيمي عن أكثر ما نال إعجابه في كاليفورنيا، هل هو تحف بول غيتي، أم الصحاى، أم الجبال والبحر، أم متحف

هنتينجتون والحدائق؟ لم يلزمني الكثير من الوقت لأدرك مدى غباء هذا السؤال المطروح على طفلٍ يبلغ من العمر ثلاث سنوات، ليجيبني دون أدنى تفكير: «متحف ميكي ماوس».

بعد أن حلَّت عقدتي الأزلية مع الطيران أصبح بإمكاني السفر شرقًا وغربًا دون تردد، مع إبقاء الحذر بشأن فرص العمل، حيث بدأت لوسي دراسة المستوى (٥) في اللغة الروسية. في الماضي لم تكن دراسة الروسية بالخيار الجيد، وعلى الرغم من تغيُّر الأزمنة إلا أنّ ذلك الاختيار بقي في خانة الميول التي لا تؤدي إلى أيّ مهنة واعدة، ولن ينتج عنها سوى الكثير من الإحباط، حينها لم نكن نعلم ما سيأتي في قادم الأيام وما ينتظر لوسي من صرامة دراسة الكنيسة الروسية في القرن السابع عشر في جامعة أكسفورد، إلى جانب قضاء شتاء من شتاءات موسكو وسط وضع صعب. كلّ ذلك كان ما يزال في أفق المستقبل البعيد، أما في الوقت الحالي فرافقنا ستيفن مع سربٍ من الممرضات بالإضافة إلى لوسي متجهين نحو موسكو في أكتوبر/تشرين الأول من العام 1984 لحضور مؤتمر هناك. لاقت محاولات لوسي للحديث بالروسية فرحةً هائلةً، وبالأخص عندما وقفت لتقترح نخبًا موجزًا في المأدبة الختامية للمؤتمر: «السلام والصداقة».

كانت وليمةً من تلك الولائم الروسية التي تمتلئ فيها المائدة بما لذَّ وطاب من المقبلات الفخمة، والكافيار، والسمك المدخن، واللحوم، والمكسرات، والمخللات، وبطبيعة الحال الخيار؛ سيد المائدة في تلك الولائم التي تستمر لساعات وساعات، حيث لا شيء قادر على قطعها سوى تبادل الأنخاب والخطابات، وفي النهاية يصل الطبق الرئيس في اللحظة التي يغادر فيها الجميع مائدة الطعام، وهو قطعة اللحم المعتادة غير المعروفة الأصل إلى جانب البطاطا المهروسة.

كانت المفارقات تستحضر نفسها بتلقائية، فقبل أحد عشر عامًا كان معارفنا يظهرون أقصى الحذر في التعامل معنا. واليوم يبدو أن لا أحد يلقي بالًا للتعامل بشكل رسمي، حتى إن ذلك المرشد الشاب الذي تعهد بتوجيه تحركاتنا أنا ولوسي، أظهر

اهتمامًا كبيرًا بمرافقتنا إلى المحلات التجارية بالعملة الصعبة لشراء الملابس بدلًا من توجيه تحركاتنا كما تملي عليه وظيفته.

دعانا اثنان من أصدقاء ستيفن المقرَّبين ريناتا كالوش وزوجها أندريه ليندي إلى تناول العشاء في شقتهما الصغيرة على مشارف موسكو، فقدَّموا لنا وجبةً شهيةً للغاية، يعود قسم من نجاحها إلى المطعم الذي تعاقدوا معه، والقسم الآخر يعود إلى مؤونة بيت ريناتا الريفي، والتي كان بينها عصير فراولة منزلي الصنع معبأ في زجاجات منزلية.

على الرغم من تمكني من السيطرة على رهاب الطيران بطريقة أو بأخرى، إلا أنّه من غير الممكن عمليًّا أن أرافق ستيفن في رحلاته الدولية كلها، فقد أصبح السفر هاجسًا بالنسبة إليه، حتى إنه غدا يقضي وقتًا أطول في الجو من الوقت الذي يقضيه على الأرض، لذلك كان من الصعب أن يتقبل فكرة مرافقتي له. وبصرف النظر عن لوسي وتيم، لم أكن مستعدة لأن أتخلى عن أي من روبرت أو طلابي مع اقتراب موعد اختباراتهم في ربيع عام 1985، وهي المدة التي تعيَّن فيها على ستيفن الذهاب في جولة واسعة في الصين.

حمل كل من برنارد كار وإحدى ممرضاته التي تدعى لولانتا أعباء العناية بستيفن ببسالة، تلك الأعباء التي لا تنتهي بدءًا من رفع الكرسي من الطائرة وإليها، وكذلك الأمر في القطارات، والمناورة ببسالة على كرسي متحرك للوصول إلى السور العظيم، للعودة ظهرًا وقد استنفدوا طاقتهم بأكملها، إلى جانب ذلك المجهود فإنّ صحة ستيفن لم تكن في أفضل حالتها على الرغم من إنجازاته العلمية الرائعة. كان يسعل باستمرار وبدا أنه أصبح أكثر حساسية لمكونات الطعام، لأقضي لياليَ طويلة مضنية في رعايته بين ذراعي محاولةً تهدئة الذعر الذي كان ينتابه، والذي كان بحد ذاته يزيد من حدة الاختناق، وعلى الرغم من كل شيء كانت الآمال معقودةً على أن تكون الإجازة الصيفية مدة راحة واستجمام، فقد كنا سنقضي شهر آب بأكمله في جينيف على خلفية إجراء ستيفن لمناقشات علمية مع علماء فيزياء الجسيمات في سيرن، في الوقت الذي تستطيع فيه بقية الأسرة الاستمتاع بمحيط بحيرة جينيف.

كانت المناقشات هناك تدور حول عمل ستيفن على الآثار المترتبة لاتجاه الوقت في النظرية الكمية والملاحظات من مسرّع الذرة، كان هذا هو فحوى الموضوع الذي أسهب بالحديث عنه باستفاضة وشيءٍ من التفصيل بمساعدة روبرت، موجهًا حديثه إلى الجمعية الفلكية في مدرسة بيرس. في تلك المحاضرة بالذات أدركت في قرارة نفسي أنّ الفيزياء أصبحت تجريدية للغاية، وأصبح الأمر برمته عصيًّا على الفهم، ويتجاوز قدراتي على الاستيعاب حتى حين شرح لي بوساطة الصور، ومهما أعيد الفيلم لي مرارًا وتكرارًا؛ لإقناعي بأن تلك الكؤوس المكسورة والصحون الطائرة يمكنها العودة إلى المائدة لتصلح نفسها في نظرية الزمن المعكوس، فلن يفلح ذلك معي في شيء. كان لذلك الافتراض فيما لو ثبت القدرة على تغيير مجرى التاريخ البشري، لكن كان لا بدَّ أولًا من إثبات إمكانية هذه النظرية؛ لأن البرهان من شأنه ضمان عدم وجود شيء أسرع من الضوء.

بعيدًا عن رحلات ستيفن التي لا تنتهي في الزمان والمكان، فقد كان الصيف جميلًا منذ بدايته مع ولادة هرر صغيرة على أرضية مطبخنا، وتتلاحق الأحداث، ويبدأ الفرز التلقائي في إنتاج أجمل عيناتٍ من لحظاتنا الثمينة مع لفيف من الأصدقاء والمعارف، وأصبح لدينا في نهاية المطاف صورة واحدة تذوب فيها التفاصيل كلها لتصبح غير قابلة للتمييز. غونزالو فارغاس يوسا أحد تلاميذي الأكثر حساسية والقادم من البيرو يصرُّ على تعريفي بأرنبه الأبيض الطليق في غرفته، ولوسي تُجري أول تواصلٍ لها بالفرنسية مع فتاة من بريتون، وروبرت يحتفل بعيد ميلاده الثامن عشر على طريقته الخاصة قبل بدء امتحاناته، وذلك بسهرة في حديقتنا على طراز سليده[1] في ليلة دافئة زينتها إشعاعات بدر مكتمل. أما في عيد ميلاد تيمي فتنوعت الاحتفالات وأوصافها، الكورالية والموسيقية، والحفلات الفردية، وحتى حفل موسيقى البوب في قاعة ألبرت؛ حيث كان تيم الصغير معجبًا كثيرًا بفرقة سكاي، ومكرِّسًا

(1) مناسبة اجتماعية يتم عزف الموسيقى الأسكتلندية والإيرلندية الشعبية، الغناء، والرقص الشعبي في أجواء احتفالية. (المترجم).

نفسه -بإخلاص- في كل لحظة من يومه لتقليدٍ بارعٍ لكل إيماءاتهم وحركاتهم، وحشد القوائم الخاصة بهم.

أيضًا، حصل حفل آخر من طبيعة مختلفة في باحة منزلنا، فوجئنا به عند عودتنا أنا وستفين من إحدى الرحلات؛ كان جوناثان على وشك العزف على آلته القيثارية حين حصل خلل في إضاءة قاعة الحفلات في الجامعة، وحيث كان الجو لطيفًا وجد الجميع الحلَّ، وكان بالتوجه إلى حديقة منزلنا لتركيب الآلات الموسيقية، فيتحلَّق الجمهور حولها جالسين في الهواء الطلق على البسط والوسائد وما توافر لهم ليكملوا الحفل.

ورغم الطلب إلى جوناثان العزف مع فرق الهواة والفرق الحديثة، كتلك التي اتخذت مسرحًا لها في حديقتنا تلك الليلة، إلا أنّه كان يعبر عن أسفه لعدم وجود أداء باروكي أصيل في كامبريدج، حيث تنافس العديد من العازفين الشباب على الفرص القليلة المتاحة، ومن ناحية أخرى، كان يشعر بمدى بعده عن المشهد اللندني، فقد كان من الممكن أن يكون هناك لولا التزامه الوثيق معنا، وبالأخص معي، إذ تضمن لندن لمسيرته التقدم بسلاسة أكبر، وتمثَّل الحلُّ الوحيد في إنشاء فرقته الخاصة، إلا أنّ هذا يتطلب التزامًا وأموالًا.

قادت تلك العزلة الموسيقية جوناثان نحو الإحباط، حيث كان يتمنى أن يكون جزءًا من فرقة، ووجدتُ أن الوقت قد حان لأن أتولى الأمر بنفسي، وبالفعل، وجدت الفرصة الملائمة بدخول جوناثان إلى المستشفى لإجراء عملية، اتصلت مع قاعة حفلات الجامعة طالبةً حجزها، وبعد ذلك قمت بجولة اتصالات مع موسيقيين مختلفين لحجز فرقة موسيقية صغيرة لكن مكتملة، لتتكون لدينا أوركسترا من عازفي الباروك. استيقظ جوناثان من غيبوبته على أخبار مثيرة، ففي غيابه المؤقت عُيِّن مدير فرقة باروك كامبريدج الجديد، التي من المقرر أن تقدِّم حفل الموسيقى الافتتاحية في الرابع والعشرين من يونيو/حزيران، لنبدأ بحماسٍ وضع خططنا، وبرامج الدعاية في الأسابيع الفاصلة التي كانت أيضًا بالنسبة إلى جوناثان أَسابيع نقاهة من عمليته الجراحية.

تولت الأسرة مهمات متنوعة، روبرت على شباك التذاكر، في حين باعت لوسي برنامج الحفل، وشارك العديد من الأصدقاء في نشر أخبار الحفل، بينما ركضتُ جيئة وذهابًا للتحضير وراء الكواليس ولتهيئة حضور ستيفن الذي قرر الجلوس إلى جانب المنصة، ولدهشتنا، امتدت قائمة الانتظار لشراء التذاكر حتى الساحة الأمامية؛ كنا نحصي كل شخصٍ من الجمهور بوصف ذلك عاملًا حاسمًا في النجاح المالي الذي لم يكن يعنينا من أجل تحقيق الربح، بل كان مجرد مدلولٍ على نجاح ما نحن بصدده. كان اسم العرض (سيصدح البوق)، امتلأ المكان بأكمله بالجمهور، وبدأ الحفل بالتصفيق الحماسي، مأخوذين بنجاح حفل عام 1984، غامرت فرقة كامبريدج للباروك، وظهرت مرّة أخرى بعد ترويج آخر لها، وهو برنامج أقيم بمناسبة الاحتفالات بالذكرى المئوية لولادة باخ، وهاندلٍ، وسكارلاتي. لحسن الحظ كانت مغامرتنا في مكانها، لكن في مرات مقبلة ستؤثر عوامل أخرى بطريقة سلبية في حجم الجمهور؛ مثل نهائيات كرة القدم التي بُثت بوساطة التلفاز؛ وشهدت الفرقة ظهورها الأول في لندن في أكتوبر/تشرين الأول لعام 1985 في قاعة الملكة إليزابيث، وكان بمثابة استثمار جيد للمستقبل، قد لا نصل به إلى أهداف متقدمة، لكن على الأقل سنسلط الضوء على فرقة كامبريدج للباروك أمام جمهور أكبر.

كان المنزل قد عاد إلى توازنه مرّة أخرى، وبدا أن ستيفن أكثر أفراد الأسرة رضًا بالنتائج، حيث انتهى من المسودة الأولى لكتابه المنتظر حول علم الكونيات ونشأة الكون، تكلم الكتاب باستفاضة بدءًا من علم الكون المبكر، وصولًا إلى النظريات الحديثة في فيزياء الجسيمات وسهم الوقت، مع إشارة خاصة - بطبيعة الحال- إلى الثقوب السوداء، وفي ختام الكتاب أظهر توقه لتلك اللحظة المستقبلية عندما تصبح البشرية قادرة على معرفة نظرية متكاملة وموحدة عن الكون. عُرض الكتاب على الناشرين من خلال وكيلٍ في نيويورك، في حين ناقشنا في إنكلترا طرقًا ضريبيةً فعالةً لتلقي عائدات الكتاب، والتي توقعنا أن تجلب لنا دخلًا إضافيًّا متواضعًا يضمن الاستمرارية المنتظمة على مرِّ السنين، مثل الكتب المدرسية التي قيل لنا إنّه يمكن التعويل عليها على المدى الطويل أكثر من الكتب الأكثر مبيعًا، لكن فكرة الكتاب الأساسية، والمتمثلة

في دفع تكاليف الرسوم المدرسية للوسي، قد باتت غير قابلة للتحقيق، فقد صارت لوسي الآن في المرحلة الثانوية.

في نهاية يوليو/تموز طار كل من ستيفن وسكرتيرته الجديدة لورا وارد، وبعض الطلبة والمرضين إلى جينيف، أما أنا فحرصتُ قبل مغادرتي لكامبريدج على البقاء لرؤية روبرت قبل ذهابه في رحلةٍ استكشافيةٍ إلى آيسلندا، وقضت الخطة بأن نلتقي خلال أسبوع بستيفن ومرافقه في بايرويت في ألمانيا، لحضور عرض (حلقة النيبلُنغين) Ring Cycle لفاغنر، ومن ثم الانطلاق بعدها للمنزل الذي استؤجر لتلك العطلة.

وأخيرًا شعرتُ أنّ قدمي وطأت ضفة السعادة، ذلك التوازن الذي لطالما افتقدته في حياتي بمساعدة الموسيقى المباركة لبورسيل وباخ وهاندل للتصدي للآثار المشؤومة بروح دعابة وتسامح، كان أمرًا اعتياديًّا قمت به دون أدنى تفكير، مودعةً ستيفن لدى مغادرته المنزل في 29 يوليو/تموز، وفي النهاية لا يمكن مقارنة المسافة إلى جينيف بالمسافة إلى الصين.

في تلك الأثناء استبدَّ بنا قلق شديد بشأن حالة والد ستيفن الصحية، ففي خضم مرضه المزمن الذي خشينا أن ينال منه في أثناء غيابنا، كان لديه المقدرة على تجرع الألم وإخفائه برباطة جأش وديناميكية عملية استخدمها في الحالات جميعها، وعلى الرغم من التقلبات التي واجهتني في علاقتي مع عائلة هوكينغ، إلا إنني لم أتوقف للحظة عن احترامه وبالأخص في الآونة الأخيرة، حين بدأ بكتابة الرسائل لي معبرًا عن تقديره ومشيدًا برعايتي لستيفن والأطفال وإدارة المنزل، لكن أمرًا طارئًا شغل أفكاري وجعل قلقي يتوجه إلى مكانٍ آخر؛ لقد كان روبرت في خضم مشروع الكشافة الذي بدأ بعد ثلاثة أيام من رحيل ستيفن، وقد خطَّط المشروع للقيام برحلةٍ بوساطة زورقٍ في نهرٍ جليدي في الساحل الشمالي لأيسلندا، الأمر الذي شغل تفكيري وأثار هواجسي.

الفصل الرابع

1
الليلة الحالكة

نادرًا ما كنا نبقى أنا وجوناثان بمفردنا لمدة طويلة، وكنا نحاول التصرف بطريقة تظهر بأننا أصدقاء مقربين ليس إلا خاصة أمام ستيفن والأولاد، كما كنا نبذل قصارى جهدنا لإخفاء ما نكنُّ من مشاعر أقوى؛ حرصًا منا على ألا نسبب أي جرح أو أذى لأحد. كنت أقف في كل ليلة وراء ستيفن بينما يراقب جوناثان وهو يغادرنا إلى منزله الواقع في الطرف الآخر من كامبريدج. ولكي نتمكن من المحافظة على تلك الطريقة الغريبة وغير المعتادة في إدارة أمور المنزل، حاولنا الحصول على دعم عدد من الناس، أذكر منهم السيدة إيف سكلينغ Eve Suckling، وهي عجوز كانت تساعدني في أعمال المنزل، وأشخاصًا آخرين تسنى لهم أن يشهدوا وضع منزلنا عن كثب، وقد اعترف إيفين دون Even Done ذات مرة حين رآنا أنا وجوناثان مستلقين بجوار بعضنا بعد أن أعيانا التعب ليلة ولادة تيم، أن الوضع كان يتطلب منه أكثر مما كان يتوقع بكثير، بل إنه كان يتطلب منه أكثر من استطاعته في بعض الأحيان، وبالطبع كنت أعلم ذلك، وأخبرنا أيضًا أنّ مدة مكوثه الطويلة بيننا وما شهده من قسوة الحياة التي نعيش قد أودى به إلى صراعات داخلية لا تحصى.

وكذلك كان بيل لوفليس Bill loveless يقدم لنا دعمه، كنا نعلم تمامًا أن بإمكاننا الاعتماد عليه لتقديم النصح لنا؛ وليساعدنا على الالتزام بالحدود الصارمة التي يفرضها مثل هذا الحل دون أن ينسى إظهار تعاطفه، ولا عجب أنه كان يكرر على مسامعنا أنّ وضعنا مختلفٌ عن كل ما شهده سابقًا؛ لذا فليس باستطاعته تقديم النصح لنا حول ما يتعيَّن علينا فعله.

حين كان ستيفن يغادر البلاد أو يطلب إلينا أن نلحق به بالسيارة بعد سفره، كنا نسمح لعلاقتنا تلك أن تتطور وتزدهر، إلا أن طبيعة العلاقة الغريبة تلك كان تشعرني بالذنب، فكنت كثيرًا ما أذرف الدموع خاصة وأني أعي أنّ زلة لسان ما مِن قبل ، أو

مصادفة أحد ما على الشاطئ أو في موقع التخييم كان كفيلًا بتحطيم تلك اللحظات العابرة من الحرية والسعادة.

وعلى الرغم من ذلك كله فإنّ ليالي الراحة - وإن كنا غالبًا ما نقضيها تحت ظل خيمة ما أو في غرفة ما برفقة اثنين أو ثلاثة من الأطفال - كانت تمنحنا بعض الحرية، وتعطينا استراحة قصيرة من الرقابة الدائمة، وبذلك كانت تساعدنا على استرجاع إيماننا بمبادئنا، وقد يبدو الأمر غريبًا، إلا أنها كانت أيضًا تعزز شعورنا بالإخلاص لستيفن، وفي أكثر الأحيان كنا نزور فرنسا خلال رحلاتنا؛ حيث منحني ذلك الفرصة لأقدم جوناثان إلى كلّ من براندون ولوسيت اللذين كانا يعيشان خارج باريس، وإلى ماري وبرنارد وايتنغ اللذين كانا يعشيان في قلب تلك المدينة الساحرة مع طفليهما الصغيرين، وقد رحب الجميع بجوناثان وعدّوه فردًا مهمًّا وأساسيًّا في حياة عائلتي.

تغيرت وجهات سفرنا عام 1985، وعوضًا عن الذهاب إلى باريس فقد تعيَّن علينا الذهاب إلى بلجيكا وألمانيا، كنا قد اعتدنا على أن يسافر ستيفن برفقة طلابه وممرضيه جوًّا إلى إحدى بقاع أوروبا لحضور مدرسة صيفية، أما أنا وجوناثان والأولاد فكنا دومًا نلحق به بالسيارة بعد قضاء أيام عدّة سويًّا في إجازة؛ وفي يوم الجمعة المصادف للأول من شهر آب/أغسطس عام 1985، وبعد أن غادر روبرت إلى أيسلندا برفقة فينتشر سكاوت Venture Scout، قمت وجوثان ولوسيت وتيم بالتوجه إلى فليكزستو Flexistowe لنلحق بهم عن طريق البحر، مستقلين العبّارة التي ستستغرق خمسة عشر يومًا للوصول إلى زوبريجي Zueebrugge.

كنا ننوي قضاء العطلة على الشواطئ البلجيكية، وذلك قبل أن نستقل السيارة منطلقين عبر بلجيكا وألمانيا وصولًا إلى بايروث Bayreuth؛ لنلتقي ستيفن هناك في الثامن من آب/أغسطس من أجل حضور عرض (حلقة النيبِلُنغين)، إلا أنّ ليلةً واحدةً في المحيط كانت كافيةً لجعلنا نعدل عن رأينا خاصة بعد ما شهدناه من عواصف رعدية عاتية؛ لذا بدأنا نبحث عن مكان للتخييم في آلاردن، وهي منطقة هضبية ذات أشجار كثيفة تقع في المنطقة الحدودية بين بلجيكا وألمانيا. ولم يكن المطر الغزير الذي

بدأ يضرب نوافذ السيارة بشدة وقسوة قبل أن نصل إلى بروكسلBrussels هو المشكلة الوحيدة التي واجهتنا، إذ بدأنا جميعًا نشعر ببعض اللسعات عند مؤخرة العنق، وشعرنا وكأن هناك أشواكًا في معاطفنا. لقد انتقلت عدوى القمّل التي أصابت تيم قبل نهاية الفصل الدراسي إلينا كذلك، فغسلنا جميعنا شعرنا بالشامبو الذي يوصف عادة في مثل تلك الحالات، أما ستيفن فقد أصر على اتخاذ احتياطات أكثر؛ فغسل شعره بسائل ذي رائحة كريهة جدًّا، فلم يقترب منه في ذلك اليوم إلا طالبه المخلص.

لم تكن أحوالنا جيدة في عطلة الصيف التي قضيناها في بلجيكا، وخاصة بعد إصابتنا بالقمّل، إلا أني سرعان ما وجدت شامبو مناسبًا للقضاء عليه، وبدأنا نقود السيارة ببطء بسبب الأمطار الغزيرة متنقلين من بلجيكا إلى لوكسمبورغ، حيث توقفنا في طريقنا في إنشترنياك Echternach وهي بلدة صغيرة كثيفة الأشجار تقع على الحدود الألمانية، وهناك بدأ تيم يركض جيئة وذهابًا بين الأشجار في الحديقة، خاصة وأنه كان قد قضى مدة الصباح داخل السيارة، ولكنه سقط في بركة من الوحل بعد حين، وعندما وقف لم يكن بإمكاننا تمييزه، فقد ظهر أمامنا صبيًّا مغطًّى بالوحل، ملابسه جميعها مغطاة بالوحل حتى معطفه المطري، فما كان من جوناثان حين رأى الصبي على تلك الحالة إلا أن دفعني إلى المقعد الأمامي للسيارة، وأخرج وعاء الغسيل، ووضع الموقد الذي نستخدمه عادة في التخييم على الرصيف، وسخَّن بعض الماء، ثم بدأ يغسل الصبي قدر المستطاع وسط ذهول المارة، أما لوسيت فظهر أنها شعرت بحرج كبير. أما الجزء الأخير من هذه الرحلة فقد تضمن زيارة روتنبورغ Rothenburg، وذلك بمساعدة بعض أصدقاء جوناثان الموجودين في مانهايم Mannheim. أحضرنا خيامنا في الصباح الباكر، وتوجهنا إلى مطعم جميل تناولنا فيه الطعام والعصائر ببطء شديد؛ إذ كنا لا نزال نحاول مغالبة النعاس، وحين عودتنا إلى موقع التخييم توقفتُ عند إحدى كابينات الهاتف؛ لأتصل بجنيف كي أعرف أكثر حول ترتيبات لقائنا مع ستيفن في اليوم التالي في بايروث. أجابت لورا وارد Laura Ward على مكالمتي، وكانت قد حلت مكان جودي فيلا Judy Fella التي غادرت مع زوجها في رحلة طويلة إلى جنوب أفريقيا. لحظت أن صوت لورا كان غريبًا ويدل على قلق

شديد، وما لبثت أن قالت بلهجة حادة: «حمدًا لله أنك اتصلتِ بنا يا جين، إن ستيفن في غيبوبة، وهو في المشفى الآن، ولا نعلم إن كان سينجو أم لا».

كانت تلك الأخبار مرعبة بالنسبة إلي، لقد أصابتني بيأس وحزن شديدين؛ إذ نسيت تمامًا في تلك اللحظة المرات التي كان ستيفن يسافر فيها إلى الخارج من دوني دون أن يواجه أي مشكلات تذكر، وبدأت ألوم نفسي وأعاتبها: كيف سمحت لنفسي أن أترك ستيفن يسافر وحيدًا؟ كيف سمحت لنفسي أن أحرمه حمايتي وأنا أكثر من يعلم حالته واحتياجاته؟ أنا أكثر من يعلم ما يحب وما يكره، وكذلك أكثر من يعلم مخاوفه وحساسيته، كيف سمحت لنفسي أن أتركه دون أن أشعر بعذاب الضمير؟ كيف سمحت لنفسي أن أتركه وحيدًا وأذهب في إجازة برفقة جوناثان؟

حين كنا في كامبريدج، اتصل بي ستيفن كما هي عادته ليؤكد لي أن كل شيء على ما يرام، وأنه يعيش في منزل جميل في فيرني فولتير Ferny Volatire، وإن كانت مشكلته الوحيدة أنه بعيد عن المخبر بعض الشيء، وأخبرني أيضًا بأنه يتمنى لنا رحلة سعيدة، وأنه يتطلع شوقًا للقائنا في بايروث بعد أسبوع.

لم أفكر بستيفن ثانية بعد ذلك الاتصال، كنت قلقة بشأن أمور عدّة، أولها بالطبع رحلة روبرت في قارب التجديف في الساحل الشمالي لأيسلندا، أما ستيفن فقد شعرت بأنه في أيد أمينة؛ إذ لم يكن يعاني أيَّ علة سوى ذلك السعال الذي أصابه بعد عودته من الصين، ولم يكن من المتوقع أبدًا أن تصيبه الغيبوبة في جنيف. عدت بعدها إلى السيارة وناقشت جوناثان في الأمر، وقررنا بعد ذلك أن نحزم أغراضنا ونمضي إلى جنيف، ولكن -للأسف- حين وصلنا موقع التخييم وجدنا أن كل شيء كان مغلقًا بما في ذلك البوابة الأساسية، ولم يكن هناك من طريق للمغادرة سوى اجتياز بوابة صغيرة يمر من خلالها المشاة فقط. ومن ثم لم يكن في إمكاننا المغادرة قبل حلول الصباح وقضيت تلك الليلة متقلبة في كيس النوم، أسمع عويل الذئاب وأصوات الحيوانات البرية الأخرى بعيدًا في الظلام، وهمست داعية الله وأنا أنتظر بزوغ الفجر بفارغ الصبر: «أرجوك يا الله، اكتب لستيفن أن يبقى على قيد الحياة».

ما إن فتح موقع التخييم أبوابه حتى وضعنا أغراضنا جميعها في السيارة وانطلقنا بسرعة عبر الأراضي الأوروبية قاصدين جنيف. قطعنا آلاف الأميال في الأراضي الألمانية، وتوقفنا عند الحدود لبعض الوقت لنشتري بعض الطعام للأولاد، أما أنا فلم يكن في مقدوري تناول أي طعام، ثم تابعنا طريقنا بسرعة جنونية لنصل أخيرًا إلى البحيرات الهادئة، بحيرة نيوشاتل Neuchatel وبحيرة جنيف Geneva التي بدت حينها متجمدة المشاعر بالنسبة إلي. لم نتحدث طوال الطريق تقريبًا؛ إذ كنا جميعنا غارقين في شعور من الحزن والاضطراب الذي فرضه ما جال في بالنا من خيالات، حتى الأطفال لم يصدر عنهم أي صوت، بل جلسوا صامتين تمامًا في مقعد السيارة الخلفي. وصلنا بعد ذلك إلى جنيف التي كانت تتلألأ تحت أشعة شمس الظهيرة، ولكن لم يكن لدينا متسع من الوقت لنستمتع بذلك المشهد؛ إذ كان لدينا هدف واحد فقط وهو الوصول إلى مشفى كانتونال Canatol Hospital الذي كانت تنتظرنا فيه أخبار الموت أو الحياة. ساعدتنا خبرة جوناثان على قراءة الخرائط إضافة إلى مقدرتي على استخدام اللغة الفرنسية في السؤال عن الاتجاهات للوصول إلى المشفى، وكانت أبنية عدّة نظيفة مقسمة إلى عيادات بيضاء لامعة من الخارج، أما من الداخل فهي مغطاة بالفولاذ اللامع. ذهبنا إلى غرفة العناية المشددة مباشرة حيث وجدنا ستيفن مستلقيًا هناك، مغلق العينين، هادئًا وصامتًا. وكان هناك قناع يغطي أنفه وفمه، وعدة أنابيب وأسلاك موصولة إلى أجزاء عدّة من جسده ومتدلية في الجهات كافة، وعلى شاشات تلك الأجهزة كانت الخطوط والأضواء الخضراء تعكس نبضات قلبه الذي كان يصارع عدو الإنسان الأزلي: الموت. لقد كان ستيفن على قيد الحياة.

ألقى عليَّ الطاقم الطبي تحية باردة، وسألوني: كم سنة مضت منذ رأيت زوجك آخر مرة؟ كان جليًّا أنهم كانوا يعتقدون أني وستيفن منفصلان، وأن وضع ستيفن قد أصبح أسوأ منذ آخر مرة تقابلنا فيها، فأصابتهم الدهشة حين أجبتهم أن آخر مرة رأيته فيها كانت الأسبوع الماضي. وعندها ما كان منهم سوى أن سألوني: لماذا إذًا يسافر بمفرده في حالته الصحية تلك؟ لم أستطع الإجابة عن ذلك السؤال، ولكني حاولت أن أذكر تفاصيل القصة المعروفة والمعتادة عن شجاعة ستيفن التي لا تقهر وعن عبقريته العلمية، وتلك قصة طويلة ومعقدة جدًّا يصعب عليَّ روايتها في حالة

مثل تلك، وعلى أي حال فإن أحدًا لم يصدق ذلك وعوضًا عن الاستماع إليَّ أخبروني تفاصيل ما حدث.

بعد وصول ستيفن إلى جنيف، بدأت حدة سعاله تزداد، ولم يكن مرافقوه مطَّلعين على تفاصيل حالته، إذ إنّهم لم يقضوا معه أيامًا وليالي طوالًا؛ لذا لم يخطر في بالهم أن تلك حالة طبيعية. وعلى الرغم من أن ستيفن قد رفض بشدة فقد أحضروا طبيبًا يتفحص حاله، وبعد جدال ومفاوضات طويلة، أصر الطبيب على إرساله إلى المستشفى، وهناك وجدوا أنه مصابٌ بالالتهاب الرئوي، وبعد خوض مزيد من الجدل ربطوا ستيفن بآلة الإنعاش، لم يكن في غيبوبة كما أخبرتني سكرتيرته، ولكنه كان قد خُدِّر من أجل تزويد جسده بما يلزمه من مغذيات ومضادات حيوية بوساطة أجهزة عدة، وزوِّد كذلك بأجهزة تساعده على التنفس. لم يكن وضعه الحالي يمثل أي خطورة على حياته؛ إذ إنّ الأجهزة كانت تسيطر على وظائفه الجسدية جميعها، وكنت أعلم أن حالته تلك تمثل أكبر مخاوفه، وأحد أكبر الكوابيس التي يخشاها. لقد انتزع قدره من بين يديه ومنحه لمجموعة من الغرباء الذي لا يعلمون شيئًا عن حالته، بل إنهم لا يعلمون من يكون.

قوبل وصولنا إلى المنزل المستأجَر بترحاب وتهليل، وكان جليًّا أنّ عودتي قد أضفت شعورًا بالارتياح والاطمئنان لدى الجميع؛ لأنّ مدة الضياع قد ولَّت. لقد أحس أولئك أن ابتعاد اللاعب الأساسي عنهم جعل وجودهم غير ذي جدوى؛ لذا وقفوا أمامي مجتمعين صامتين محتارين متسائلين: ما الذي يتعيَّن علينا فعله؟ وبما أن ستيفن كان مخدَّرًا في المشفى فلم يكن في إمكانهم فعل أي شيء، ولكن في الأيام القليلة التالية، وجدت نفسي غارقة في مشكلات عدة: إدارية، وعاطفية، فتعيَّن على الجميع القيام بمهمات جديدة غير معتادة بالنسبة إليهم، ولكنهم أدَّوا واجبهم على أكمل وجه. وبذلك أصبح التسوق والطبخ مهمة الطلاب، أما الممرضات والممرضون فقد بدؤوا يعتنون بالأطفال ويأخذونهم في نزهات خارج المنزل فهذه مدة إجازتهم الصيفية، أما لورا، سكرتيرة ستيفن فقد حاولت البقاء على اتصال دائم مع كامبريدج وسيرن؛ وذلك من أجل إدارة التأمينات والأمور المالية.

كانت تلك الأخبار مروعة بالنسبة إلى أسرة ستيفن وبالأخص والدته، إذ لم يكن يكفيها من المصائب أن زوجها قد أصبح عاجزًا، بل أصبحت حياة ابنها مهددة بالخطر كذلك. كنت أتكلم معها بوساطة الهاتف يوميًّا، وكانت تحاول تقديم الدعم والنصح اللازم لي على الدوام، وكان يظهر عليها أنها تمكنت من التجرد من عواطفها تمامًا، وأنها قد اعتادت فكرة موت ستيفن. كانت الحياة قاسية على آل هوكينغ في تلك المدة، إذ كان هناك ثلاثة رجال من ثلاثة أجيال مختلفة في خطر -وإن كان كل واحد منهم في مكان مختلف: كان فرانك العجوز مريضًا جدًّا، وتعيَّن عليه التزام المنزل في بودينشاير، ذلك المنزل الذي قرر هو وإيزابيل Isobel الانتقال إليه حديثًا، وكان ستيفن في حالة خطرة في المشفى، أما روبرت فإن الله وحده يعلم ما حلَّ به. من الجيد أني لم أعلم في ذلك الوقت بخبر انقلاب قارب التجديف خاصته في البحر الشمالي بالقرب من شواطئ أيسلندا.

أما مشكلات أصغر أفراد عائلة ستيفن فكانت مختلفة تمامًا؛ كانت صحته على خير ما يرام، ولكننا لم نكن نعلم ما يمكننا فعله بشأن وضعه الراهن، لم نجد حلًّا آخر سوى أن يعود تيم إلى إنجلترا ليبقى مع أهلي؛ وذلك أنه لم يكن في مقدوري تقديم العناية اللازمة له بسبب انشغالي بالاهتمام بستيفن، لقد تولت الممرضات تلك المهمة ولكن موعد الرحيل كان قد أزف. كانت لوسي تحمل جواز السفر الخاص بها، أما تيم فكان اسمه مسجلًا في جواز السفر الخاص بي؛ لذا ذهبت إلى القنصلية البريطانية طالبة المساعدة في إرساله إلى الوطن، ولم يكن من المستغرب شعوري بأن القائمين بالأمر في القنصلية حاولوا قاصدين إعاقة مطلبي، إذ اكتفت تلك المرأة ذات البشرة الداكنة والشعر قاتم اللون بالتلويح بيدها لتخبرني أن مطلبي عصي على التحقيق، علمًا بأني كنت قد قضيت ساعات في انتظار مقابلتها وأني شرحت لها ظروفي بالتفصيل الممل. قالت لي إنه لا يمكن إرسال تيم إلى بريطانيا دون جواز سفر ولمنحه واحدًا يجب أن أقدم شهادة ميلاده. لم يكن مني سوى أن أصدرت تنهيدة تعبر عن حزني وألمي، إذ إنّي كنت قد تركت شهادة ميلاد تيم في البيت.

حاولت الاتصال بالمنزل رغم ثقتي بأنه لن يجيبني أحد، ولكن على عكس توقعاتي أجابتني إيف Eve التي كانت قد جاءت إلى المنزل لتقوم ببعض أعمال التنظيف، فطلبت إليها أن تجد شهادة الميلاد على المكتب وترسلها إلى جنيف، وكان ذلك ما فعلته. وبكل فخر عدت إلى القنصلية البريطانية بعد أيام عدّة لأبرز شهادة الولادة أمام تلك المرأة القاسية، ولكنها لم تكن راضية عن ذلك، وقالت: هذا ليس كافيًا، هذه شهادة ميلاد قصيرة، إننا نطالب بشهادة الميلاد الأصلية، نظرت إليها بدهشة، فأضافت: وعلى أي حال فإن مثل هذا الإجراء يتطلب ملء استمارات يتعيَّن على زوجك توقيعها، فأجبتها غاضبة: «لقد أخبرتك سابقًا أن زوجي في مشفى كانتول في قسم العناية المشددة، وأنه في غيبوبة وليس في مقدوره توقيع أي أوراق)، فقالت ببرود: «حسنًا، إن لم يكن زوجك يعلم أنك تنوين إرسال ابنك خارج البلاد فليس بمقدورنا منحه جواز سفر».

حاولتُ إقناعها للمرّة الأخيرة، وقلت لها متوسلة ودموعي تكاد تنهمر: «إني أريد أن أعيد الصبي إلى موطنه ليس إلا». ويظهر أنها رقت لحالي، فصمتت لبعض الوقت، شعرت أنها لم تع ما كنت أقوله حتى تلك اللحظة، فقالت: «إن كان في مقدورك إحضار شخص بريطانيِ آخر، شخص ذي مؤهلات عالية، مدرس مثلًا، ليوقع الأوراق ويحضر صورة للصبي فسوف نعاود النظر في مطلبك». وبالطبع فقد أدّى جوناثان تلك المهمة إذ إنّه يمتلك تلك المواصفات آنفة الذكر جميعها.

اصطحبنا تيم إلى محل تصوير، ودرَّبناه على التوقيع، وأخيرًا وفي الثالث عشر من شهر آب/أغسطس صدر جواز سفر بريطاني يحمل اسم السيد تيم ستيفن هوكينغ، وتظهر عليه صورته البريئة ويحمل توقيعه الغريب، خاصة أنه لم يكن قد تجاوز السادسة من عمره بعد. وبذلك تمكن السيد تيم ستيفن هوكينغ من السفر جوًّا وفي مقاعد الدرجة الأولى -إذ كانت تلك المقاعد الوحيدة المتوافرة- إلى بريطانيا برفقة لوسي والممرضات ليمكث في بيت أهلي.

لم يحمل إلينا ذاك الصيف أخبارًا جيدة سوى من روبرت، جاء برنارد كارBernard Carr -الذي كان دومًا يقدم لنا العون في الأزمات- ليتولى أمر الطلاب بعد أن ساءت

حال ستيفن، وقد أحضر برفقته نتائج امتحانات روبرت التي تؤهله -بامتياز- للحصول على مقعد في كامبريدج لدراسة العلوم الطبيعية في جامعة كوربس كريستي Corpus Christi، الجامعة نفسها التي درس فيها والدي.

2
خيط رفيع

كانت الأمور تجري على نحو غريب فقد اعتقدتُ مثلًا أن مسألة جواز سفر تيم ستكون عملية بسيطة وسهلة، إلا أنها استغرقت وقتًا طويلًا جدًّا، لكن حين واجهتني مسألة أخرى أكثر تعقيدًا تمكنت من إيجاد حلٍّ لها خلال ثوانٍ؛ فبعد يومين من وصولي إلى جنيف، طلب الطبيب المسؤول عن حالة ستيفن رؤيتي لأمر طارئ، لم يجل في خاطري في بداية الأمر سوى أنه يريد أن يثني على إرادة ستيفن الخارقة خاصة، وأن الممرضات في المشفى كنَّ قد بدأن يتقبلن حقيقة أن ستيفن ليس مريضًا عاديًّا، وأنّ حالته غير ناتجة عن إهمال أسرته له، ولكن ما إن أكد الطبيب على أنّ بقاء ستيفن على قيد الحياة أمرٌ خارق للطبيعة بل وخارقٌ للمعتاد، وأنه ناتج عن قوة إرادته حتى انتقل فجأة إلى موضوع مختلف، إذ سألني ما إذا كان يتعيَّن على طاقمهم الطبي فصل جهاز التنفس عن ستيفن وهو تحت أثر التخدير أم يتعيَّن عليهم إعادته إلى وعيه. أصبت بصدمة حقيقية، لم تكن مسألة إنهاء حياة ستيفن أمرًا واردًا بالنسبة إلي، يا لها من نهاية كارثية لبطل! يا لها من كارثة بالنسبة إلي أيضًا، كيف لهم أن يقترحوا هذا الأمر مغفلين كل ما جاهدنا لتحقيقه سويًّا؟ لم أحتج أي وقت للتفكير، كما لم أستشر أحدًا. كان الجواب واضحًا وجاهزًا وبسيطًا: يجب أن يبقى ستيفن على قيد الحياة، يتعيَّن عليكم محاولة إعادته إلى وعيه. فما كان من الطبيب حين سمع جوابي إلا أن بدأ يشرح لي تعقيدات الأمر وما سينجم عنه من تبعات؛ لن يكون في مقدور ستيفن التنفس قبل إجراء عملية فغر الرغامى، وهي عملية فتح فتحة في القصبة الهوائية في مقدمة العنق لتمكين دخول الهواء إلى مجرى التنفس، وسوف يتطلب ذلك وجود رعاية ومتابعة صحية دائمة. لم أُعر انتباهًا لتلك التحذيرات رغم كونها واقعية؛ كنت قد اتخذت القرار الذي أعتقده صحيحًا: ستيفن يجب أن يبقى على قيد الحياة، وسوف أبذل قصارى جهدي لأساعده على ذلك.

حين انتهت مقابلتي مع الطبيب، خرجت من الغرفة لأرى أشخاصًا لم أكن أتوقع حضورهم. كان جيمس فيتزيمونس James Fitzsimons وزوجته الفرنسية أودي Aude، واللذان كانا زميلين لنا في جامعة جونفيل Goneville وقد جاءا لقضاء إجازة في جنيف مع أسرة زوجته، ولكنهما علما عن طريق الجامعة أن ستيفن في المشفى، فقدما ليعرضا المساعدة. لم يعلما أنهما وصلا في اللحظة المناسبة تمامًا؛ وذلك لأني بدأت أشعر بإعياء شديد رغم ما أظهرته في تلك المقابلة من تحدٍّ وقوة. لقد أدركت للتوِّ أن الأزمات لم تنتهِ بعد، وأن أزمة أكثر شدة كانت على وشك النزول بنا، إذ إنّنا لم نكن نعلم إن كان ستيفن سوف يبقى على قيد الحياة بعد إعادته إلى وعيه.

أعاد وجود جيمس وزوجته بعض الطاقة والحيوية لنا، فقد أصرّا على تقديم الدعم والمساعدة. وفي تلك المدة التي بدأ ستيفن يعود فيها إلى وعيه شيئًا فشيئًا، انضم إلينا جيمس في جولات المناوبات والسهر. كنا أنا وجوناثان، والآن جيمس، نتبادل الأدوار في المناوبة الليلية، ولم نكن نسهر لنؤدي دور الممرضات، لقد كان هناك عدد كافٍ ووافٍ من الممرضات في المشفى، بل إننا كنا نقوم بذلك لكي نبعث في ستيفن الحماسَ والرغبة في البقاء على قيد الحياة، لنوقظ فضوله واهتمامه ونساعده على التخلص من حالة الجمود التي كان يعيشها والتي لم يسبق له أن مر بمثلها. كان جيمس يتحدث الفرنسية بشكل جيد، وساعدني ذلك على التواصل مع الممرضات لتلبية طلبات ستيفن التي لم يكن في مقدوره أن يعبر عنها بصورة واضحة.

في كل مرة كان يحاول فيها التعبير عن مطلبه كان يدرك أنه ليس بمقدوره ذلك؛ بسبب القناع الذي يغطي وجهه والأنابيب المتصلة به، فتعيَّن علينا -نحن الأقرب إليه- توقع مطالبه، والتأكد إن كنا على حق عن طريق طرح السؤال المناسب الذي كان ستيفن يرد عليه بنظرات التأكيد أو النفي، بالعبوس أو رفع حاجبيه.

ولكي نزيح عن أنفسنا الضجر، كنا نقرأ بصوت عالٍ أي كتاب تقع عليه أيدينا، وبدأت – بمساعدة طالبي جونزالو فارغاس لولوسا Gonzalo Vargas Llosa – أطلع على أعمال الكاتب الأرجنتيني الموسوعي متعدد الثقافات خورخي لويس بورخيس Jorge Luis Borges، والذي كان يتحدث لغتين كذلك. لقد راقت لي كتب ذلك الكاتب، بل

وسحرتني الأفكار التي قدمها حول التناقض والغموض، والزمن والخلود والطبيعة الدورية للأحداث التاريخية. كانت كتبه تتحدث عن اكتشافات القرن العشرين العلمية بلغة أدبية، بل أمكن حسبانها نسخًا أدبية عن لوحات إيشير Escher التي تمثل أحد المفاهيم الرياضية وهي شريط موبيوس. كنت أخطط لقراءة كتابه الذي يحمل عنوان كتاب الرمل The book of Sand في عطلة الصيف، وتوقعت أن تروق ألغازه وأحاجيه لستيفن؛ لذا طلبت من برنارد أن يحضر معه النسخة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية إلى جنيف، ولم أستطع أن أعرف فيما إذا كانت كتابات بورخيس وما قدمه من أحجيات عقلية قد راقت لستيفن حقًّا أم لا، إلا أنها أعجبتني كثيرًا، فقد كانت تساعدني على التخلص -ولو لمدة وجيزة- من شعور القلق والتوتر الذي كان سائدًا في غرفة العناية المشددة. وقد ازداد إعجابي بتلك الكتابات عندما لاحظت أني أنسى مرور الوقت حين أغرق في متاهات تلك القصص ودهاليزها، لا سيما القصة الأولى التي كانت تحمل عنوان الآخر والتي تجري أحداثها في جنيف؛ يروي بورخيس أنه كان جالسًا على أحد المقاعد في كامبريدج، عام 1969، يراقب نهر شارلز فإذا بشاب يأتي إليه ويجلس قربه، ويبدآن بتبادل أطراف الحديث، فيؤكد ذاك الشاب أنهما جالسين الآن بجانب نهر رون في جنيف عام 1914وليس نهر شارلز في كامبريدج. لم يكن ذاك الشاب سوى بورخيس ذاته ولكن حين كان أصغر سنًّا، ويبدأ بعدها في سرد ذكرياته وتفاصيل حياته في موطنه؛ أي في جنيف، شارع مالاغنو Malagnou، المنزل رقم 17. أثارت فكرة القصة تلك -فكرة الهوية والسفر عبر الزمن والتنبؤ بالمستقبل والأحلام وحقيقة أنّ التاريخ يعيد نفسه، وبذلك يمكّننا من معرفة المستقبل بسهولة- أثارت هذه الفكرة الحماس في نفسي خاصة وأني كنت أقرأها على مسامع ستيفن في جنيف. لقد جعلتني تلك المصادفة أشعر وكأني أصبحت جزءًا من القصة ومن ثم أضافت عامل متعة جديدًا، عاملًا نال إعجاب برنارد الذي كان مهتمًّا بفكرة التخاطر. وذات مساء، اقترحت على جوناثان في أثناء مغادرتنا المشفى أن نقود السيارة باتجاه جبال الألب عبر شارع مالاغنو، وبحثنا عن المنزل رقم 17 في الذهاب والإياب، ذلك المنزل التي تدور فيه أحداث القصة التي كنت أقرأ ولكننا لم نجده. لقد وجدنا المنازل التي تحمل الأرقام 15، 19، 16، 14، أما المنزل رقم 17 فلم يكن له أي أثر.

و بدأت الأحداث تتسارع بعد أن عاد ستيفن إلى وعيه؛ دفعت جامعة كايوس أجرة الطائرة المزودة بالتجهيزات الإسعافية التي ستقلنا إلى المطار. ولأننا كنا نحمل كمية كبيرة من الأمتعة فقد استقل جوناثان السيارة عائدًا إلى المنزل؛ في اليوم ذاته الذي ركبنا فيه أنا وستيفن تلك الطائرة برفقة أحد الأطباء، وبالطبع فقد حملنا فيها المواد الإسعافية وجهاز التنفس ووصلنا إلى المطار، فنقلت الأغراض إلى طائرة صغيرة أخرى انطلقت في السماء في اللحظة ذاتها التي أُغلقت فيها الحجرة الخاصة بنا، ولو شاءت الأقدار أن نسافر في ظروف مختلفة لوجدنا تلك الرحلة ممتعة دون أدنى شك. ما يؤكد ذلك هو أنّ ستيفن – بالرغم مما يعانيه من مشكلات – حاول النظر عبر النافذة بينما كنا نحلق بين الغيوم. تلك كانت الطريقة الأمثل للسفر جوًّا، وقد سُمح لنا بالانطلاق في طائرتنا الخاصة قبل أي من الطائرات الأخرى التي كانت تقف منتظرة في المدرج، لذلك لم نعانِ ما كنا نعانيه عادة في المطار من قلق وانتظار وتأخير، وعند وصولنا إلى كامبريدج، وجدنا في انتظارنا سيارة إسعاف كان قد أحضرها رئيس قسم العناية المشددة.

لا يمكننا إنكار حقيقة أن العناية التي تلقيناها في جنيف كانت رائعة، ولكن الوصول إلى المنزل منحنا شعورًا كبيرًا بالراحة حيث يعرف الجميع هنا حالة ستيفن تمامًا.

جاء إلى زيارتنا في غرفة العناية المشددة عدد كبير من الناس، أذكر منهم سكرتيرة ستيفن السابقة جودي فيلا Judy Fella، التي حلَّت محله في غيابه، وكانت مستعدة لتقديم أي مساعدة. ولم يظهر الطاقم الطبي في أدينبروك أي أثر للدهشة حين اطلعوا على جدول أعمال ستيفن وخططه للسفر، ولم يظهروا أيضًا أي شكوك حول مقدرته على السيطرة على مرضه العصبي، ولم يطالبوا سوى بشرح عام للحالة، ولكنهم طالبوا بشرح مفصل لكيفية إدارته لوضعه وحاله، والأعمال الروتينية التي اعتاد القيام بها يوميًّا، وكمية الدواء التي كان يتناولها إضافة إلى عدد المرات التي كان يتناول فيها ذاك الدواء، والأوضاع التي يجدها أكثر راحة حين يستلقي في السرير، وفيما إذا كان يصر على تناول الطعام الخالي من الغلوتين حتى عن طريق الأنبوب، كانت مثل تلك الأمور تقود إلى نقاشات طويلة لا تكاد تنتهي.

بعد ثلاثة أيام من وصولنا إلى كامبريدج، بدأت حال ستيفن تستقر؛ لذا وجد جون فارمان John Farman أنه من الممكن لستيفن أن يبدأ محاولة التنفس دون الاعتماد على جهاز التنفس. كان جون يأمل أن يساعد ستيفن على تجنب إجراء عملية فغر الرغامى، فيما كان ستيفن يشعر بالراحة وبدأ كذلك باسترجاع قوته، أما نحن -أقصد الأصدقاء والأقرباء جميعهم الذين جاؤوا لتقديم المساعدة- فكنا قد نظمنا جدول مناوبة، إذ أردنا ألا يبقى ستيفن بمفرده مطلقًا، وأن يجد بجواره شخصًا واحدًا على الأقل ليلًا ونهارًا. عادة ما كان الطلاب والممرضات يبقون إلى جواره ليلًا ليأتي الأقرباء والأصدقاء ويتابعوا تلك المهمة نهارًا، وفي تلك الليلة التي كان مقررًا فيها إزالة جهاز التنفس أكدت لي الممرضات بأنهن سوف يتصلن بي في حال كان وجودي ضروريًّا.

استيقظت في وقت مبكر جدًّا إذ سمعت صوت الهاتف يرن، وحين أجبت لم تقل الممرضة شيئًا سوى أنه يتعيَّن عليّ أن أذهب إلى المشفى في الحال. كل ما كنت في حاجة إلى فعله هو أن أرتدي ملابسي وأنتظر بزوغ الضوء، وأكتب ملاحظة صغيرة ثم أنطلق إلى المشفى، وذلك أني كنت مطمئنة أن والديَّ سوف يقدِّمان العناية اللازمة لتيم. بدا ستيفن في حال يرثى لها؛ أصبح لون بشرته البيضاء شاحبًا ومبقعًا، أما عيناه المنتفختان فلم يعد لونهما ظاهرًا أبدًا، وكان جليًّا أنه لا يقدر على تحريك أطرافه المتشنجة. بدأ ذاك السعال الحاد يعاوده ويعذبه، يتركه لبرهة قصيرة ثم يعود أشد حدة وقوة، وبين كل هجمة سعال وأخرى كان يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة، أيضًا كان الخوف ظاهرًا على قسمات وجهه.

أخبرتني نظرات الممرضات أنه لم يكن في مقدورهن فعل أي شيء لمساعدته، وأن نهايته قد أصبحت وشيكة، ولكني لم أوافقهم الرأي. لم أشكَّ لحظة في أن شدة المرض قد عاودت زيارة ستيفن، ولكني لاحظت كذلك -خلال حالات الاختناقات التي أصابته- ما لم يكن ممكنًا للممرضات ملاحظته، وهو أن نوبات الهلع التي كانت تصيب ستيفن عادة بوصفها نتيجة طبيعية لمرضه قد عاودته، كنت عادة أساعده في السيطرة على هذه الحالة بتطبيق ما تعلمته من تقنيات في دروس اليوغا، وكان

ذلك العلاج فعالًا. جلست إلى جواره في السرير، ووضعت ذراعي خلف رقبته، وبدأت أربِّت بلطف على وجهه وأكتافه وذراعيه، وبدأت كذلك أهمس في أذنه بعض الكلمات الحانية لكي أهدئ من روعه، حرصت على اختيار تلك الكلمات بعناية، وبدأت أرددها في إيقاع جميل لكي ينسى ما يعانيه من ألم، وحاولت استحضار مشاهد جميلة من بحيرات زرقاء هادئة وسماوات صافية وهضاب خضراء ورمال ذهبية دافئة. وتدريجيًّا – بعد مرور بضعة ساعات- بدأت شدة التوتر تخف، وبدأ ستيفن يتنفس براحة أكبر. وعلى الرغم من إصابتي بالإعياء كنت أيضًا في غاية السعادة إذ نجحت في استخدام تقنيات التنويم المغناطيسي البسيطة تلك، إلا أن أمرًا واحدًا كان يشغل بالي: لقد ازدادت حالة ستيفن سوءًا.

عدت إلى المنزل لأنال قسطًا من الراحة، وأعطيت الممرضات رقم هاتف منزل صديقَينا جون وماري تايلور John and Mary Taylor اللذين كانا يعيشان بالقرب من المشفى، حيث لم يكتف أولئك بزيارة ستيفن يوميًّا بل عرضا عليَّ أن أرتاح في منزلهما كونه قريبًا من المشفى، فلبَّيت دعوتهما تلك في اليوم ذاته في الساعة السابعة صباحًا. عرضت عليَّ ماري أن أرتاح في السرير، ولكنني فضلت أن أبقى في الحديقة لبعض الوقت؛ وذلك لأستنشق هواء الصباح المنعش، وأستمتع بشمس الصباح بعد أن بدأت يومي باستنشاق هواء المشفى الجاف الذي لا يحمل سوى رائحة المعقمات. أحضرت لي ماري بعض الطعام وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، ورغم أني كنت أشعر بإعياء شديد فإن أمرًا واحدًا كان يجول في خاطري؛ لقد شعرت برغبة كبيرة بالتحدث إلى روبرت، لم أرَهُ منذ مدة طويلة، مدة كانت قد حملت الكثير من الأحداث. افترضت أنه بخير، وأنه لا يحمل أخبارًا جديدة. ووفقًا للجدول الذي زودنا به كان من المفترض أن يعود إلى موقع التخييم الأساسي قبل أن ينطلق في رحلة الاستكشاف الأخيرة، وذلك يعني أنه لم يعد معزولًا عن العالم الخارجي وأن بإمكاني الاتصال به. شعرت بأن الوقت قد حان لأخبره أن والده في وضع خطير، إلا أني لم أكن أنوي أن أطلب إليه العودة إلى المنزل، وقد اقترحت عليَّ ماري أن أتصل به من منزلها. لم أظهر أي رفض أو مقاومة، بل حملت سماعة الهاتف وطلبت رقمه في أيسلندا، وحين جاءني صوته تراجعت عن قراري رغمًا عني، ونسيت كل ما نويت فعله، وصدرت عني صرخة

متألمة لم أستطع كبح جماحها وقلت راجية: «أرجوك عد إلى المنزل»، فأجابني روبرت: «سأعود حالًا»، ولم يظهر أي تردد بل عاد إلينا في اليوم التالي، فاستقبله آل تايلور في مطار هيثرو Heathrow، لم أدرك حينها أنه لو تمكن من إكمال رحلته الاستكشافية لأصبح مؤهلًا للحصول على جائزة الملكة للكشافة. وحين سمعت -لاحقًا- عن خبر انقلاب القارب ضحك وأخبرني أن ذلك لم يكن بالأمر الخطير.

عند عودتي إلى المشفى كان الأطباء قد اكتشفوا أن هناك نوعًا جديدًا من البكتريا في رئتي ستيفن، وقد دفعهم ذلك إلى تغيير الدواء وإعادة جهاز التنفس، وعلى الرغم من ذلك كله ظهر أن ستيفن في غاية السعادة حين علم بعودة روبرت. تحدثت إلى جون فارمان حول إمكانية إحضار منوم مغناطيسي مختص؛ وذلك من أجل المساعدة على تخفيف نوبات الهلع والخوف التي تحل بستيفن، وكذلك المساعدة على التخلص من التشنج الذي يصيب عضلاته حين يحاول التنفس بمفرده دون مساعدة الآلة. وافق جون على مطلبي ذاك، وطلب إلى أحد معارفه التي كانت طبيبة وكذلك مدربة تنويم مغناطيسي القدوم لتهدئة ستيفن، استخدمت تلك الطبيبة تقنيات التنويم المغناطيسي ذاتها التي كنت أستخدمها أنا، لقد كان لها أثر إيجابي في ستيفن، ولكنها لم تساعده كثيرًا على التنفس بمفرده دون الاعتماد على جهاز التنفس، وبالطبع كان ذلك يعني أنه لا بد من إجراء عمليه فغر الرغامى.

مع انتهاء شهر آب/أغسطس وحلول شهر أيلول/سبتمبر، بدأ الأطباء يتحدثون بجدية عن إجراء تلك العملية، وفي الوقت ذاته بدأت العدوى في الرئتين تتجاوب للعلاج، وبدأ ستيفن يشعر بتحسن. لم أعر اهتمامًا لمخاطر العملية التي كان يخشاها الأطباء فقد كنت أثق أنّ ستيفن سوف ينجو من هذه الأزمة، كيف يمكن له ألا ينجو وهو محاطٌ بأولئك الأشخاص كلهم الذين كانوا مستعدين دومًا لمساعدته، وتقديم كل ما يلزمه من عناية ورعاية؟ قدم بعضهم مساعدة عملية، أن يبقوا إلى جواره في سريره، ويحضروا إليه كل ما يطلبه، أما بعضهم الآخر فقد كان يساعدنا في المسائل الإدارية اليومية أو في إدارة منزلنا. وكان هناك آخرون يقطنون في أماكن أبعد، وكان

أولئك يقدمون صلواتهم ودعمهم المعنوي. وقد قدم آخرون أنواع المساعدة جميعها المذكورة آنفًا، وأذكر منهم جوناثان الذي عاد من جنيف للتوّ، ووالديه ووالديَّ.

كانت العملية ناجحة، وقد تماثل ستيفن إلى الشفاء بسرعة، فبعد قضائه أسابيع أربعة في غرفة العناية المشددة كان من الممكن رفعه عن سريره ووضعه في كرسيه ذي العجلات، إلا أنه لم يكن قادرًا بعد على تحريك الكرسي بنفسه. كانت حاله تتحسن يومًا إثر يوم، وأصبح من الممكن نقله من غرفة العناية المشددة إلى إحدى غرف قسم الأعصاب. صحيح أن ستيفن قد تعافى ولكنه دفع ثمن ذلك غاليًا: لقد فقد قدرته على الكلام تمامًا.

3
عبء المسؤولية

كان لعزلتنا عن العالم الخارجي في جنيف بعض النتائج الإيجابية؛ إذ لم يكن هناك ما يمكن أن يشغلنا عن ستيفن، فعلى سبيل المثال كانت تحركاتنا مقتصرة على الانتقال بين المشفى والمنزل الذي استأجرناه في فيرني فولتير -البلدة الحدودية - التي لن تجد فيها ما يجذب الأنظار عدا عن تمثال فولتير، الذي كان يُعدُّ أحد أشهر قاطني تلك المنطقة في الماضي. اختار فولتير الاستقرار في تلك المنطقة عام 1957؛ لكونها تبعد مسافة لا بأس بها عن الحكومة الفرنسية من جهة، ولكونها قريبة من سويسرا من جهة أخرى؛ لذا كان في مقدوره الهرب إلى هناك في أي وقت. وباستثناء أولئك الذين كانوا يأتون لزيارتنا ويغادرون بين حين وآخر، بدا العالم الخارجي الموجود الذي يقع خارج سماعة الهاتف عالمًا وهميًّا لا وجود له، وكيف لنا أن نشعر بوجود ذاك العالم الذي لم يكن يعي أو يدرك المصاب الذي حل بنا؟ كنا نعيش في جنيف كل يوم بيومه فلم يخطر ببالنا قط أن نخطط لأشهر أو أسابيع قادمة.

ولكن ذاك الحال تغير كليًّا حين عدنا إلى كامبريدج، فأصبح من واجبنا -إضافة إلى استمرارنا في تقديم الرعاية اللازمة لستيفن-التعامل مع أمور الحياة اليومية المعتادة. كان يتعيَّن علينا تقديم العناية للأطفال وإطعامهم ودفع الفواتير المترتبة علينا، وأيضًا كان يتعيَّن علينا اصطحاب تيم إلى المدرسة صباحًا وإعادته إلى المنزل ظهرًا، والإشراف على تدريسه، وكان يتعيَّن عليَّ العودة إلى عملي في التدريس. كانت تلك الأمور تستغرق وقتًا طويلًا، ولم تكن زيارة المشفى تستغرق وقتًا أقل مثلما كانت تستغرقه في جنيف؛ وذلك أن حال ستيفن لم تكن قد استقرت بعد. لم أجد حلًّا لتلك المعضلة سوى أن أجمع ساعات التدريس كلها في مدة الظهيرة؛ أي بعد أن أطمئن على ستيفن في الصباح وقبل أن أعود إليه في المساء. إن المساعدة التي قدمها لنا والدي وجوناثان والأصدقاء كانت هي ما ساعد أسرتنا على تخطي تلك المرحلة المرهقة بسلام.

لم تكن المسؤوليات الملقاة على عاتقي مقتصرة على الإشراف على وضع ستيفن وإدارة أمور المنزل فقط، بل شملت عددًا كبيرًا من المهمات التي كان من أبرزها الإشراف على مستقبل كتاب ستيفن. كان ستيفن قد أنهى كتابة المسودة الأولية التي وافق عليها الناشر. وبعد توقيع العقد في صيف عام 1985، بدأ أحد المحررين في نيويورك تدقيق تلك المسودة ومراجعتها، وحين عاد ستيفن من جنيف وجد بانتظاره رسالة من المدقق تحمل قائمة ببعض انتقادات الكتاب الأولية، إلا أن ستيفن لم يكن في وضع يسمح له بقراءتها. لم يكن من المستغرب أن تُعدَّ تلك النسخة غير صالحة للنشر؛ وذلك لأن أغلب المفاهيم التي طرحها ستيفن كانت غامضة ومجهولة بالنسبة إلى العموم. أذكر أنني حين قرأت المسودة أشرت إلى عدد لا بأس من الفقرات التي شعرت بأن المادة العلمية فيها غير مفهومة، وكان الناشر قد أكد لي أن كل معادلة من تلك المعادلات غير الواضحة سوف تخفض نسبة المبيعات إلى ما دون النصف. لم يكن من الممكن لستيفن أن يقوم بإجراء أي من التغيرات في وضعه الصحي الحالي، أو أن يناقش أمر تلك التغييرات، وإن لم نجد مخرجًا من تلك المعضلة فسوف يتعيَّن علينا إعادة المبلغ الذي دفعه الناشر لنا قبل بداية العطلة الصيفية. طلبت إلى براين ويت Brian Whitt – أحد طلاب ستيفن السابقين- تقديم يد العون لي في تدقيق الكتاب، ولم أتخذ بعد ذلك أي إجراء فيما يخص ذلك الأمر؛ وذلك لأن أمورًا أخرى أكثر أهمية بكثير كان تشغل بالي في ذلك الحين.

بدأ ستيفن يشعر بالتحسن بعد أن نُقل إلى غرفة في قسم الأعصاب، وبدأت مسألة عودته إلى المنزل تشغل بالنا؛ كان واضحًا أن ستيفن في حاجة إلى توافر رعاية طبية مختصة لمدة أربع عشرين وساعة يوميًّا؛ إذ لم تعد الرعاية التي كانت تقدمها ممرضات الدعم النفسي في مدد محددة من اليوم ولمدة قصيرة كافية، لقد أنقذت تلك العميلة حياة ستيفن ولكنها كذلك جعلته معرضًا إلى مخاطر عدة. كان يتعيَّن علينا تنظيف الأنبوب الذي ثُبِّت في ثقب في بلعومه؛ وذلك من أجل إزالة الإفرازات التي تتجمع حول رئتيه، ولا أعتقد أنه أمكن تخيل درجة أكبر من العجز عند أي أحد.

إن الحصول على رعاية طبية وممرضات متخصصات لمدة أربع وعشرين ساعة يوميًّا على مدار العام سوف يكلفنا ثروة، وطبعًا كان من المتوقع ألا يمنحنا قسم الخدمات الصحية الوطنية سوى جزء صغير جدًّا من ذلك المبلغ؛ لذا تعيَّن علينا إيجاد مصادر أخرى للتمويل والحصول على الممرضات، وفي الوقت نفسه فإن المؤسسات الخيرية التي كانت تزودنا بالمال اللازم للحصول على التمريض والرعاية الصحية اللازمة لمدة ساعتين في اليوم، لم تستطع منحنا المال اللازم للحصول على رعاية صحية لمدة أربع وعشرين ساعة يوميًّا؛ إذ إنّ ذلك سوف يكلف قرابة ثلاثين أو أربعين ألف باوند في السنة ولمدة غير محدودة. وحين كنا غارقين في تلك المحنة وصلتنا رسالة من كاليفورنيا من كيب ثورن Kip Thorne، إذ كانت أخبار مرض ستيفن قد وصلت إلى هناك بسرعة؛ وذلك بفضل جودي فيلا التي تدخلت في الوقت المناسب، وراسلت كيب ثورن الذي نصحني أن أقوم بمراسلة مؤسسة جون دي وكاثرين تي مارك آرثر الخيرية الأميركية John D and Catherine T. MacArthur الموجودة في شيكاغو؛ كان كيب يعتقد أنه من الممكن لنا إقناع تلك الجمعية بإعطائنا منحة، وذلك حين نثبت لهم أننا في حاجة إلى مساعدة مادية لكي نتمكن من إحضار طاقم التمريض المختص.

كان العالم الفيزيائي موراي جيل مان Murray Gell Mann أحد أعضاء مجلس الإدارة في تلك الجمعية، وكان كيب واثقًا بأنه سوف يقدم لنا الدعم والعون اللازمين لإقناع باقي الأعضاء في النظر بقضيتنا، وإن لم نكن في الحقيقة واثقين فيما إذا كانت الجمعية سوف توافق على صرف تلك المنحة في بلد آخر غير الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يسبق لي أن كتبتُ رسائل رجاء وتوسل، إلا أن الشعور بالحاجة فاق أي شعور كنت أحمله بالازدراء تجاه مثل تلك الأمور، ذكرت في تلك الرسالة المعطيات كلها التي كان من الممكن أن تؤثر في رأي اللجنة، ولم أنس طبعًا أن أذكر أن ستيفن قد زار الولايات المتحدة الأمريكية مرات عدة، وأنه حصل كذلك على درجات شرف عدّة من جامعاتها، وأرفقت بتلك الرسالة صورًا عدّة لأفراد أسرتنا كنا قد التقطناها في أوقات أفضل. أما مهمتي التالية فكانت القيام بإقناع المسؤولين في الجامعة بالإشراف

المالي نيابة عنا؛ وذلك أن أحد الشروط الأساسية للحصول على المنحة المالية كان إثبات أن هناك محاسبين مختصين سوف يشرفون على كيفية صرف الأموال، وقد استغرقت تلك المفاوضات المعقدة وقتًا طويلًا، ولكن الجامعة أبدت استعدادها لتلبية مطلبنا.

حين كان ستيفن في غرفة العناية المشددة كان طاقم التمريض المختص يقدم له رعاية جيدة جدًّا، إلا أن تلك الحال تغيرت حين نقل إلى غرفته الخاصة في قسم العصبية، إذ إنّ العناية التي قدمت له هناك لم تكن جيدة، وذلك ما جعل الحصول على طاقم تمريض في أسرع وقت ممكن أمرًا في غاية الأهمية. كانت رئيسة الممرضات لطيفة وموهوبة، ولكن ذلك لم يكن ينطبق على باقي الممرضات، ولم تكن المشكلة الأكبر أن عدد الممرضات كان أقل بكثير من عددهن في غرفة العناية المشددة، بل أنهن لم يكنّ على الدرجة نفسها من الالتزام والتفهم والإخلاص لعملهن، وما زاد في تعقيد الأمر أن أغلب المرضى في قسم الأعصاب كان في حالة أقرب إلى الغيبوبة من الصحو ؛ أي لم يكن أولئك قادرين على التفكير أو الاعتراض أو التعبير عن حاجاتهم، وكانت إحدى الممرضات تستغل ذلك الوضع وتقوم بمعاملة المرضى بطريقة غير إنسانية على الإطلاق؛ وصلت ذات يوم في مدة ما بعد الظهر إلى المشفى، فوجدتها تتجول في الغرفة محاولة التظاهر بالانشغال -أو هكذا بدا الأمر لي- متجاهلة حاجة ستيفن الذي كان جالسًا في كرسيه مكشرًا ومتشنجًا يريد الذهاب إلى الحمام. ساعدت ستيفن بنفسي وطردت تلك الممرضة من الغرفة، فأخبرني ستيفن وهو يستشيط غيظًا أنها دومًا ما تهمل طلباته وأنه لا يثق بها إطلاقًا؛ إذ إنّها من الممكن أن تعطيه جرعة زائدة أو ناقصة من الدواء. أدركت تمامًا ما يقصده ستيفن فأنا كذلك لم أثق بها، كنت أجد نظرات عينيها الزرقاوين الجامدتين تفضح ما لديها من سادية وعنجهية. لم يكن أمامي من خيار آخر: يجب عليَّ القيام بكل ما بوسعي لكي أتمكن من نقل ستيفن إلى المنزل، وذلك بعد أن أتمكن من الحصول على المساعدة المادية اللازمة للحصول على الطاقم الطبي المختص.

استطاع ستيفن التعبير عن غضبه واحتجاجه على تصرفات تلك الممرضة بفضل آلة لم يكن يتوقع أن يحصل عليها ألبتة. لا يمكن لشيء في العالم أن يعوض إنسانًا عن فقدانه القدرة على النطق. صحيح أننا حاولنا جميعًا -أنا والأصدقاء والطلاب وأفرد الأسرة- ألا نترك ستيفن بمفرده لحظة واحدة، حاولنا أن نجعل الفاصل بين مدة مناوبة وأخرى لا تزيد على دقائق معدودات، وقد أحضرت له تلفازًا إلى غرفته، ولكن لا شيء يمكن أن يعوض إنسانًا عن فقدانه القدرة على النطق. ولكن ما أن بدأنا نستسلم للأمر ولحقيقة أن ستيفن لن يستطيع النطق مجددًا حتى وصلت إلينا تلك الآلة العجيبة، كان الفضل في ذلك يعود إلى جودي التي ما برحت تبحث في أرجاء المعمورة جميعها عن تلك الأداة التي يمكن للذين خسروا القدرة على النطق الاستعانة بها، والتي تذكر أنها كانت قد رأتها في إحدى حلقات البرنامج العلمي (عالم) الذي كان يعرض على شاشة البي بي سي. وقد أثمرت جهود جودي تلك نجاحًا كبيرًا، إذ تمكنت من الوصول إلى العالم البريطاني الذي اخترع تلك الأداة وإقناعه بالقدوم إلى المشفى، وتجربة تلك الآلة التي كانت مجموعة من الأقطاب الكهربائية تقوم بقياس حركات العين السريعة بعد أن توصل بالرأس، بل إنها تمكنت كذلك من إقناع إحدى شركات الحاسوب في كامبريدج بمنحنا الكومبيوتر اللازم لتشغيل الآلة دون مقابل. أظهر ستيفن انزعاجه من تلك الأقطاب الكهربائية المتصلة بصدغيه ولكن حين وضع أحد طلابه تلك الأسلاك في صندوق محمول يمكن التحكم فيه يدويًّا، أظهر ستيفن استعداده التام لتجربة الآلة تلك.

كان جهاز الحاسوب مزودًا ببرنامج قاموس للكلمات والعبارات، وبمساعدة جهاز التحكم يقوم المستخدم بالبحث في الشاشة عن الكلمات التي يريد استخدامها، وبعد أن يجدها جميعها كان يتعيَّن عليه أن يضغط عليها، وبذلك تظهر كل كلمة في مكانها المناسب في الجملة التي تتشكل في أسفل الشاشة مُعْلمة القارئ بما يريد قوله. أيضًا كان ذلك الجهاز يعمل على إكمال العبارات المستخدمة بكثرة بنفسه، لم يكن التواصل في تلك الطريقة في البداية منهكًا فحسب، بل كان يستغرق وقتًا طويلًا كذلك، ويتطلب تركيزًا كبيرًا من المستخدم والمتلقي كليهما. كان في مقدوري التنبؤ بما يرغب ستيفن بقوله بعد أن أقرأ كلمة أو كلمتين، وبذلك كنت أوفر عليه عناء كتابة الجملة كاملة،

ولكنه كان يصر على إكمال الجمل؛ لكي يعتاد استخدام ذاك الجهاز. ساعدتنا تلك الآلة على التغلب على التعب والملل الذي سيطر في المدة الأخيرة من مكوثنا في المشفى، خاصة بعد أن أصبح في مقدور ستيفن تحريك عضلات يديه وأصابعه ثانية، ما جعل استخدام تلك الآلة أمرًا أكثر يسرًا. بالرغم من أن استخدام تلك الآلة كان يتطلب مشقة كبيرة، ولكنها ساعدت ستيفن على إيجاد طريقة جديدة ليعاود الاتصال مع العالم الخارجي الذي يتعدى حدود المشفى. كان في استطاعته الآن مخاطبة طلابه والتحدث عن الفيزياء مجددًا ومحاولة الكتابة ثانيةً، وكان في استطاعته أيضًا إدارة أموره الصحية بنفسه.

وبما أني كنت قد بدأت أبحث عن مصادر مالية جديدة فقد وجدت أن الوقت قد حان للبحث عن ممرضة جيدة ومحترفة، وقد ساعدتني في هذه المهمة لورا وارد Laura Ward. لم يكن أيٌّ منا خبيرًا في تعيين الموظفات وإجراء المقابلات أو اختيار الممرضات الجيدات، إلا أني كنت آمل أن يقدم لنا قسم الخدمات الاجتماعية في المشفى النصح اللازم لتنفيذ تلك المهمة بنجاح. اتصل بنا العديد من العاملين الاجتماعيين والمشرفين على الممرضات، وجاؤوا لزيارتنا وتناول القهوة معنا، وأخبرونا عن حيواناتهم الأليفة وأمور أخرى مماثلة، ولكني لم أجد أي فائدة ترجى من تلك المعطيات التي حصلت عليها منهم، وبدأت أنا ولورا نعتقد أنه ما من حل أمامنا سوى أن نكتب إعلانًا للبحث عن الممرضات في الجريدة، وأن نتبادل المناوبة فيما بيننا كل ثلاث ساعات أو ثمانٍ.

أعادت لورا نشر الإعلان في الجريدة مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة كانت تطلب أرقام الأشخاص الذين يمكن لها استشارتهم في توظيف المتقدمين، وكانت تتصل بهم وتسألهم عن المعطيات اللازمة. ولأن الوقت لم يكن في صالحنا، وجدنا أنه من الأفضل أن نقوم بمقابلة الأشخاص الذين نجدهم مؤهلين للحصول على المنصب، قبل أن نعود إلى الأشخاص المرجعيين الذين يمكن لنا استشارتهم في التوظيف.

وجدت أن المتقدمين جميعهم كانوا جيدين ومرشحين للحصول على تلك الوظيفة، وكنت على عجلة من أمري، وأريد استقدام أكبر عدد ممكن من الممرضات من أجل إعداد الفريق المختص وإحضار ستيفن إلى المنزل؛ كنت أعتقد أن الممرضات

جميعهن مخلصات ومثاليات، وأن بوسعي أن أضع ثقتي كلها فيهن دون أي تردد. حاولت أن أشرح لهن الحالة بوضوح، فأخبرتهن برغبتي في أن يكون ستيفن قادرًا على العيش في المنزل، ولكني في الوقت ذاته لا أرغب أن يتحول منزلنا إلى مشفى؛ لكونه منزلًا لثلاثة من الأطفال كذلك. كنت أنوي أن أعامل الممرضات اللواتي سوف يمكثن في منزلنا بوصفهن ضيفات، واعتقدت أنهن سوف يحترمن خصوصية ذلك المنزل بالمقابل. واكتشفت لاحقًا أن تلك لم تكن سوى أوهام.

لم تكن اعتقاداتي حول مثالية الممرضات وإخلاصهن صحيحة، بل ولم تكن تنطبق على كثير من الممرضات اللواتي قابلتهن وأحببتهن. ذلك ما اكتشفته حين بدأ الأشخاص المرجعيون في التدخل في الأمر، وفي الواقع تعيَّن علينا استبعاد كثير من الممرضات اللواتي كنا ننوي توظيفهن؛ إذ تبين أنهن كن قذرات أو لسنَ أهلًا للثقة، ولكن الأسوأ من ذلك كله أن بعضهن كن مجرمات، وبدأنا نتساءل: هل من المعقول أنه لا توجد قوانين أساسية تحد من تحركات مجموعات الممرضات الأخيرة تلك، لا سيما أنهن كن سوف يعملن في المنازل ومع أشخاص ضعفاء لا حول لهم ولا قوة؟ بقي بين أيدينا أسماء عدد لا بأس به من المرشحات حتى بعد أن استبعدنا كثيرًا منهن، ولكن -للأسف- حين راسلناهن لم تجب بعضهن على الإطلاق، فيما أرسل بعضهن إلينا يخبرننا أنهن قد وجدن مكانًا آخر للعمل، أو أنهن فكرن بالأمر مليًّا ووجدن أن الوضع غير مناسب. زاد الوضع سوءًا حين أخبرنا أطباء ستيفن أن نستبعد بعض الممرضات اللواتي كنا نعتقد أنهن على كفاءة عالية؛ وذلك لأنهن لم يحصلن على تدريب جيد فيما يخص التعامل مع عملية فغر الرغامى.

لم يبقَ أمامنا خيار سوى طلب ممرضة عن طريق الوكالة، وذلك يعني أنه لن يكون في إمكاننا إيجاد ممرضة واحدة تبقى معنا طوال الوقت، بل سيتعيَّن علينا استبدال تلك الممرضة بعد حين وبشكل مستمر، وذلك كان من شأنه أن يزيد من حالة اليأس والحزن التي كان من المحتمل أن نمر بها جميعًا، وليس ذلك فحسب؛ بل إن المنحة المالية التي سنحصل عليها من جمعية ماك آثر لن تكون كافية لدفع أجور الوكالة علاوة على أجور الممرضة. كانت تلك الجمعية قد وافقت على منحنا المبلغ اللازم، وإن

أظهر الأوصياء على الأمر بعض الشك حول دور خدمات الرعاية الوطنية البريطانية المشهورة. أراد أولئك أن يعرفوا لمَ لمْ تقدم تلك الخدمات الدعم اللازم لستيفن، وكان يتعيَّن أن أجيب عن ذلك السؤال بحذر، وأن أختار كلماتي بعناية. أخبرتهم بأن سياسة حكومة تاتشر الأمريكية النقدية -التي بدأت منذ ولادة تيم- كانت تعمل على تدمير خدمات الرعاية الوطنية البريطانية المجانية. وفي الحقيقة، لم يكن انتشار مذهب المادية يعمل على تدمير الخدمات الصحية في بلادنا فحسب؛ بل كان كذلك يعمل على تدمير نظام التعليم الخاص بنا، بل وعلى تدمير نسيج المجتمع الأساسي. كانت السيدة تاتشر تعتقد أن لا وجود لما يسمى مجتمعًا، بل هو مجموعة من الأفراد الذين لا يجمعهم سويًّا أي هدف مشترك. لم يكن ذلك الوقت المناسب والمساعد لك لأن تكون مريضًا غير موظف، سواء كنت شابًّا أو عجوزًا، فكيف بكونك عاجزًا؟!

غادرتنا لورا وارد بعد شهرين، إذ شعرت أنها مريضة بعض الشيء، ولحسن الحظ، جودي فيلا التي كانت قد قدمت لنا حتى تلك اللحظة خدمات جلية أظهرت استعدادها لخدمتنا، والبقاء في منصبها بصفتها سكرتيرة ستيفن الخاصة إلى أن نجد بديلًا. كانت تلك الأخيرة أكثر انتباهًا ويقظة وحرصًا في اختيار الممرضات، خاصة بعد أن لاحظت أني أريد الانتهاء من تلك المهمة بسرعة؛ لكي أتمكن من إحضار ستيفن إلى المنزل. لقد أظهرت حذرًا كبيرًا حتى في التعامل مع الممرضات اللواتي كنَّ يحملن شهادات ومؤهلات رائعة لا تشوبها شائبة، وحين عيَّنت ممرضة على سبيل التجربة وصلتني كثير من الشائعات حولها، شائعات تقول إنّه رغم أن أشخاصًا مرجعيين كثرًا يدعمونها للحصول على العمل عادة، إلا أن سجلها المهني حافل بالمشكلات، وأن الممرضات الأخريات لا يرغبن بالعمل معها؛ وذلك لأنها كان تبدي اهتمامًا غير منطقي أو صحي بمرضاها. لم أعر تلك الشائعات اهتمامًا كبيرًا. كنت أعرف تلك الممرضة بالشكل فقط إذ صادفتها وهي تنتظر أبناءها أمام باب المدرسة، شعرت بأنها الشخص المناسب لذلك المنصب وخاصة أنها كانت تذهب إلى الكنيسة بانتظام.

خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر، كنت أحضر ستيفن إلى المنزل في أيام الآحاد بمساعدة إحدى الممرضات ولم يكن ذلك سهلًا بالنسبة إليه، كان تغيير المكان يشعره بالخوف ويسبب لديه نوبات اختناق، فكنا نضطر أحيانًا إلى إعادته إلى المشفى حين تكون نوبة التوتر أشد من أن يتحملها. كنت أشعر كذلك بأن ستيفن بدأ يخشى العالم الخارجي بعد أن قضى وقتًا طويلًا في العزلة؛ لقد ازدادت رغبته في البقاء على قيد الحياة قوة بعد أن قضى ثلاثة أشهر في المشفى، فأصبح يشعر أن كل ما يحيط به يهدد حياته بالخطر. وبدا ستيفن محتارًا بين أمرين؛ كان يرغب في العودة إلى عالمه المعتاد، ولكنه في الوقت ذاته كان يخشى مغادرة المشفى الذي يوفر له جوًّا من الأمان لا يمكن الحصول عليه في ذلك العالم.

وخلال تلك الشهور التي مكث فيها ستيفن في المشفى لم أمنح نفسي راحة أو إجازة سوى في الأول من شهر تشرين الأول/أكتوبر. ذهبت في ذلك اليوم لحضور الحفل الموسيقي الأول في لندن لجوقة الباروك التابعة لكامبريدج، وقد كان الطقس في تلك الليلة دافئًا وجميلًا ومناسبًا لعقد المهرجانات والاحتفالات، ولكنه زاد في نفسي الشعور بالعزلة والاضطراب. سارت الأمور في ذلك الحفل على ما يرام على الرغم من أن عدد الحضور لم يكن كبيرًا كما كان معتادًا في كامبريدج، ولكن ما أثار إعجابي أن جوناثان تمكن من إقامة تلك الحفلة والتحضير لها، على الرغم من أنه كان يمضي وقته إما في المشفى مع ستيفن أو في المنزل مع الأسرة. كان -وبكل بساطة- يتابع ممارسة أنشطته اليومية في وقت متأخر من الليل وذلك بعد أن يعود لمنزله، وبدأ جوناثان يقود جوقته بأناقته وببساطته المعتادة تحت أضواء قاعة الملك إليزابيث، ولم يكن من الممكن لأحد أن يخمن حال جوناثان خلال الأيام الماضية وما كان يعانيه من ضغوطات وتوتر. شعرت بالسعادة لأني تمكنت من مشاركته نجاحه ذاك، غير أن عذاب الضمير لم يبارحني لحظة؛ لأني تركت ستيفن في المشفى جالسًا على أحد مقاعد ما يُعدّونه حديقة تحت أشعة شمس الخريف الجميلة.

تغيرت الأحوال تمامًا مع نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر؛ أصبح ستيفن أفضل حالًا بكثير، واستعاد قوته وعافيته. أما أنا فظهرت آثار الإعياء واضحة علي، بدأت

أعاني نوبات ربو حادة كانت تمنعني من النوم ليلًا؛ لذا بدأت بتناول حبوب المنوم بكثرة. لم يقتصر الأمر على ذلك بل بدأت كذلك أعاني بعض الانتفاخات التي كانت تبقى لمدة قصيرة، وتختفي تاركة بقعًا مؤلمة على شفتي وراحة يدي، وحين رأى الأطباء حالي نصحوني أن آخذ إجازة لمدة أسبوع قبل أن يعود ستيفن إلى المنزل. وجدت أن الوقت كان مناسبًا لزيارة روبرت الذي غادر كامبريدج في شهر أيلول /سبتمبر ليقضي عامه في أسكوتلندا ولكنه مكث في دونافانز Donavans لبعض الوقت، فقد عمل في ورشة في فيرانتي Ferranti، وتعلم هناك بعض تقنيات الهندسة بإشراف كبير العمال، وبعد ذلك انتقل إلى إيدينبرغ. لم تكن تلك الحياة سهلة بالنسبة إلى شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وخشيت ألا يعتني بنفسه جيدًا، ولكن حين وصلت إليه في العطلة الانتصافية، وجدت أنه على خير ما يرام. كان المناخ في إيدينبرغ ساحرًا في ذلك الوقت، إذ حل فصل الخريف بشمسه الحانية وهوائه العذب. اكتشفت بعد وصولي إليه أن قضاء ثلاثة أيام في الاستمتاع بالجو الجميل والمناظر الخلابة المبهرة لم تكن مدة كافية لنسيان عناء الشهور الثلاث الماضية وتوترها وتعبها.

إن قضاء ثلاثة من الأيام بل ثلاثة من الشهور، بل ثلاثًا من السنين في هدوء وراحة وسكينة لم تكن لتساعدني على تحمل القادم من الأحداث التي لم أكن أتوقعها مطلقًا.

4
التمرد

في اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر وفي وقت مبكر من عصر ذاك اليوم عاد ستيفن إلى المنزل، وكان ذلك أشبه بإحضار مولود جديد من المشفى. كنا نخشى أن يفقد ذلك المخلوق الضعيف هش البنية قدرته على التنفس بعد لحظات من دخوله المنزل. بدا ستيفن متوترًا جدًّا، ولم يكن واثقًا من أهلية الممرضات اللواتي حضرن لرعايته، وكان يخشى أن تعيق أي ذرة غبار عملية التنفس لديه. كان من عادة ستيفن أي يستخف بذكاء الناس حين كان في أفضل حالاته الصحية، أما بعد أن ساءت حاله وتراجعت فقد بدأ يعدُّ أن من حوله جميعهم ليسوا سوى مجموعة من الحمقى. وقد كانت مخاوف ستيفن مبررة وإن كانت الأسباب التي ولدت عنده مثل هذه المخاوف غير متوقعة.

إن الممرضة التي عملت على رعاية ستيفن في أول يوم عاد فيه إلى المنزل لم تكن تشعر أنها في حالة جيدة؛ وذلك أنها كانت عجوزًا طاعنة في السن. لقد أدت واجباتها على أكمل وجه وأتمه، ولكنها أخبرتنا حين غادرت المنزل أنها لن تستطيع القدوم ثانية؛ لأنها لا تعتقد أن جسدها سيساعدها على تحمل هذه الضغوطات كلها. كانت تلك أخبارًا سيئة؛ إنها كانت المسؤولة عن مناوبات عدّة خلال الأسابيع الإحدى والعشرين الأولى، وقد جاءنا ممرضات كثر مثلها، ممرضات ذوات كفاءة عالية، ولكنهن غير قادرات على التكيف مع الظروف الصعبة التي نعيش. كانت الوكالة الملاذ الوحيد بالنسبة إلينا. وبينما كنا أنا وجودي غارقين في إجراء المقابلات وطرح الأسئلة وشرح حالنا ونشر الإعلانات في الجريدة من جديد بحثًا عن ممرضة جديدة، أخبرتنا الوكالة بأن هناك عددًا من الممرضات ذوات قدرات ومؤهلات متفاوتة، ويبدو أن تلك الممرضات لم يتوقعن ما سوف يواجههن من صعوبات، وقد حدث ما كنا أنا وستيفن نخشاه. كانت الوكالة ترسل إلينا في كل مرة ممرضة مختلفة، ويعني ذلك أنه كان يتعيَّن علينا إعادة شرح وضع ستيفن وحاله، وإيضاح المطلوب من الممرضة بالتفصيل.

لم تكن مهمة سهلة، إذ كانت أغلب الممرضات يجدن صعوبة في فهم تلك الأمور، وغالبًا ما كنا أنا أو جوناثان نقضي جولة المناوبة الأولى إلى جانب الممرضة ونعيد شرح المطلوب طوال الليل.

بعض الممرضات لم يتعلمن مطلقًا كيفية إمساك فنجان ستيفن بطريقة تمنع الشاي من التسرب إلى أنبوب فغر الرغامى، وبعضهن الآخر لم يقطع الطعام إلى قطع صغيرة حتى يتمكن ستيفن من تناولها أو أنهن كنّ يقمن بهرس الطعام إلى درجة كبيرة؛ بل كان بعضهن الآخر يحاول إعطاءه الدواء بطريقة غير صحيحة، أو أنهن كن يدفعن بيده بقوة ليتمكن من الإمساك بعصا التحكم الخاص بالكرسي ذي العجلات وبذلك يبدأ في الالتفاف حول نفسه. أما الحمام فتلك كانت مسألة أخرى؛ إذ إنّ أغلبهن لم يعرفن كيف يتعاملن مع وضع ستيفن. كانت أغلب الممرضات اللواتي جئن لمساعدتنا يمتزن بخبرة طبية كبيرة، إلا أنهن كن يخشين أن يلحقن أي ضرر بالأنبوب المزروع في الرغامى حين تنظيفه، ونادرًا ما كانت ممرضة تعود في اليوم التالي، وإن حدث ذلك كنت ألقي عليها التحية بوصفي شخصًا مقربًا مبدية إعجابي بشجاعتها. كنت أبذل ما بوسعي لأبدو هادئة وصبورة ولكني كنت في الحقيقة شديدة التوتر، أما ستيفن فلم يبذل أي جهد لإخفاء ما يشعر به من يأس وإحباط.

إن كانت المهام الروتينية اليومية تبدو أقرب للمستحيل، فإن المهام الليلية كانت أكثر استحالة. كان يتعيَّن على ستيفن التخلي عن الأداة الإلكترونية المساعدة على الكلام واللجوء إلى إحدى وسيلتين للتعبير عن حاجاته. أما الأولى فعن طريق لوح شفاف مقسم إلى مجموعات تشمل كل مجموعة منها عددًا من الأحرف الأبجدية، وكان يتعيَّن على ستيفن تركيز نظره على إحدى تلك المجموعات بداية ثم على حرف محدد في تلك المجموعة؛ ليشكل جملة يعبر من خلالها عما يريد قوله. كانت تلك مهمة شاقة للغاية، وتتطلب تركيزًا شديدًا من ستيفن والمتلقي كليهما؛ لذا حاولت أن أجعل تلك العملية أكثر بساطة، وذلك بتطوير شيفرة مختزلة يمكن لستيفن استخدامها للتعبير عما يريد قوله بتركيز نظره على حرف واحد فقط أفهم أنا من خلاله ما يريد

قوله، ولكننا لم نستمر في استخدام تلك الشيفرة لوقت طويل، إذ يبدو أنها ضاعت في غياهب غرفتنا، أو أن الممرضات اعتقدن أنه يمكن لهن إيجاد حل أفضل.

أما الوسيلة الثانية فكانت جهاز طنان كهربائي. كان ستيفن يمسك عصا التحكم الخاصة بذلك الجهاز طوال الليل مثلما كان يمسك عصا التحكم الخاصة بآلة النطق طوال النهار، وما إن يضغط على تلك العصا حتى يضيء الصندوق الصغير الذي يحمل عددًا محدودًا ومكتوبًا من الطلبات التي يمكن لستيفن الإشارة إليها. كان من الصعب على ستيفن، حتى خلال تلك الأيام التي كانت صحته فيها أفضل بكثير، أن يستلقي في السرير بشكل مريح وغير مزعج، إذ كان لا يعلم أي وضع سيكون الأفضل لإراحة أطرافه المتصلبة؛ لذا كنت أبقى إلى جانبه حتى أتأكد من أنه يشعر براحة تامة وإن كانت تلك المهمة قد بدأت تستغرق وقتًا طويلًا بعد أن ساءت حالته، فأنا كنت أعلم أن ستيفن لن يشعر بالراحة بوجود ممرضة غريبة عنه. غالبًا ما كنت أخلد إلى سريري في الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا، وغالبًا ما كانت الممرضة توقظني بعد مدة وجيزة إذ تكتشف أنّ ليس في إمكانها إدارة الأمور بمفردها.

لم تقتصر المشكلات التي كنا نعانيها على المسائل الروتينية المعتادة، بل تعدتها إلى مسائل أخرى أكثر خطورة بكثير، فكثيرًا ما كان ستيفن يستيقظ ليلًا ليجد أن هناك انسدادًا في أنبوب التنفس أو أنه قد انتُزع من مكانه، وكانت الممرضات يحاولن في مثل تلك الحالات إصلاح وضع الأنبوب، أما أنا فكنت أسرع إلى الهاتف لأتصل بأطباء قسم العناية المشددة وأسألهم عما ينبغي فعله، وكنا نضطر في أغلب الأحيان إلى الإسراع إلى المشفى والانتظار لبعض الوقت في قسم الإصابات، ليقوم أحد الأطباء بعد ذلك بإصلاح الأمر ومساعدة ستيفن على التنفس ثانية. كان طالب ستيفن الأسترالي المرح نيك وارنر Nick Warner – الذي كان يساعدنا في العناية بالأطفال- قد غادرنا؛ لذا كان جوناثان ينام في الطابق العلوي ليشرف على أمور الأطفال نيابة عنه، ويرسل تيم إلى المدرسة صباحًا، بينما آخذ قسطًا من الراحة بعد عناء ليلة طويلة.

بعد أن غادرنا روبرت حولت غرفته إلى غرفة لستيفن؛ إذ كانت تلك الغرفة تحوي حوض استحمام وخزانات عدّة يمكن استخدامها لتنظيم أدوات التمريض والأدوات

الطبية التي كنا نحضر قسمًا منها بين الحين والآخر، أيضًا كانت تلك الغرفة كبيرة وتتسع للسرير المتحرك والحاويات والحواسيب والمكاتب والكراسي وأنواع المعدات كلها؛ إضافة إلى الكرسي المتحرك الذي كان يزداد حجمًا ووزنًا يومًا بعد يوم، إذ استبدلنا الحاسوب الذي أحضرته جودي إلى المشفى بآخر من كاليفورنيا أكثر تطورًا، حيث كان مزودًا بميزة جيدة هي توليف الصوت؛ أي إنه لم يكن باستطاعة ستيفن أن يكوِّن جملًا مكتوبة فحسب؛ بل أن يقولها أيضًا. وكان الصوت الذي يصدره ذلك الجهاز مزعجًا وأشبه ما يكون بالروبوت، ولكنه أعاد إلى ستيفن قدرته على النطق. تمكن زوج إحدى الممرضات -دافيد مادسون David Madeson- والذي كان مهندس حاسوب ماهرًا من إلحاق جهاز الحاسوب بالكرسي ذي العجلات لكي لا يضطر ستيفن إلى البقاء جالسًا في مكان واحد حين يستخدم تلك الآلة، وضع جهاز الحاسوب الثقيل وأداة إخراج الصوت في مؤخرة الكرسي المتنقل، أما الشاشة فقد وضعها في الأمام ليتمكن ستيفن من رؤيتها، وحين وضعنا - في وقت لاحق - ستيفن وكرسيه ذا العجلات فوق ميزان مخصص لقياس وزن الآلات، اكتشفنا أن وزن الكرسي مع الأجهزة الملحقة به يتجاوز مئة وثلاثين كيلو غرامًا.

كانت الكوارث تتوالى علينا واحدة تلو الأخرى وصحة ستيفن تتراجع عامًا بعد عام؛ كنا نضطر إلى أن نطلب إلى أحد الأشخاص المجيء ليلًا لمساعدتنا، وكنا أحيانًا نطلب مساعدة دافيد ماديسون، وفي مرات أخرى كنا نلجأ إلى صديقنا ومستشارنا المقرب جون ستارك John Stark، أو إلى الدكتور سوان أو أي طبيب آخر من قسم الجراحة، وكنا كذلك نطلب مساعدة المختصين في الأجهزة الطبية الصناعية في عطل نهايات الأسبوع، ونوقظ الكيميائي صاحب الصيدلية القريبة من المنزل بعد أن تنتهي ساعات عمله؛ بالمختصر، كنا نتخلص من أزمة لنقع في براثن أخرى طوال هذين الشهرين: كانون الأول/ديسمبر، وكانون الثاني/يناير.

كنت أقضي معظم وقتي بجوار ستيفن، وأبذل طاقتي كلها في رعايته، أبقى إلى جانبه وأشاركه الطعام والشراب والهواء، وأمنح طلابي وأطفالي ما يتبقى لدي من وقت وطاقة، وكان جوناثان يقدم لي الدعم اللازم حين ينال التعب مني. أصبحت

ساعات التدريس تمثل بالنسبة إلي مهربًا من روتين الحياة القاسي ذاك، فقد كانت الوقت الوحيد الذي أعود فيه إلى قراءة اللغة والأدب متناسية ما حلَّ بي من قنوط ويأس. لا عجب إذًا أن طلاب ذاك العام الدراسي قد أصبحوا الأقرب إلى قلبي؛ إذ إنّ تقديرهم ودعمهم وما أظهروه من تفهم قلما يظهره من هم في سن المراهقة عادة، ما دفعني إلى متابعة مزاولة مهنة التدريس مهما كلفني ذلك، خاصة بعد أن أدركت أني بحاجة إلى العمل حتى لا أفقد صوابي.

أما ستيفن الذي كانت محنته وخوفه قد حولاه إلى طفل أناني، فلم يرَ أن دافعي لمتابعة مهنتي أو اهتماماتي الأدبية كان على النحو الذي ذكرت سابقًا. كان ستيفن محتاجًا إلى أن نؤكد له أننا ما زلنا نحبه، وأننا مستعدون لتقديم الدعم اللازم له رغم ما يعانيه من حالة صحية وجسدية يرثى لها، ولكن كان من الصعب التقرب منه، فهو دومًا ما يبدي امتعاضه وازدراءه واحتقاره لمن حوله كلهم. كان ستيفن في الماضي متسلطًا وقد تحول الآن إلى شخص استبدادي ودكتاتوري، كان يستغل كل مناسبة تتاح له ليظهر سخطه وعدم موافقته على القرارات التي اتخذتها بشأن الأسرة في أثناء وجوده في المشفى؛ مؤكدًا أني كنت أحاول تجاهل وجوده عمدًا وأن من حقه أن يبدي رأيه مهما كانت حاله، وكنت بدوري أتفهم تمامًا حال ستيفن، فله أن يدافع عن حقه في إدارة أمور منزله، ولكن لم يحاول أحد حرمانه ذلك الحق، ولذلك فإن تصرفاته الغريبة التي عادة ما كانت تجعل من حياتنا أكثر صعوبة ومشقة لم تكن مُحتملة ولا مفهومة؛ كان يضع كرسيه مثل حاجز يمنع مرور الآخرين، أو يتطفل على خصوصيات أولئك المحيطين به؛ وخاصة لوسي.

لم تكن لوسي ابنتي وحسب، بل كانت صديقتي المقربة، إذ كنت أجد في شخصيتها المستقلة والقوية وروحها المرحة المندفعة ما يمنحني القوة، ويساعدني على تخطي أعتى لحظات اليأس قوة. كنا نقضي أوقاتًا طويلة ونحن نتبادل أطراف الحديث حول موضوعات الحياة جميعها، ولم تكن لوسي تقدم العون لي فقط بل لوالدها كذلك، فلم يكن من المستغرب - والحال على ما هو عليه في منزلنا- أن ترغب لوسي بالحصول على مساحة حرية خاصة بها؛ ولا تريد في اقتآن يقترب أحد من غرفتها؛ فهي تجد

فيها مهربًا من صخب ألسنة الممرضات وضجيج الكراسي ذات العجلات، ولكن رغبتها تلك لم تلقَ ترحابًا.

ما زلت أذكر ما شعرت به من حزن حين تعامل ستيفن مع أحد أصدقائنا من الأطباء بفظاظة، فأجاب ذاك الطبيب: «فكري بالأمر مليًّا يا جين، لقد مر ستيفن بالكثير من المحن، يمكننا أن نقول إن ستيفن قد اختبر الموت، وأنه لم يكن ليعود إلى الحياة لولا الأدوات والأدوية. هل يعقل ألا تكون مثل تلك التجارب قد تركت أثرها في دماغه؟ ألم يختبر لحظات كان يفقد فيه أي مصدر للأكسجين؟ أنا واثقٌ تمامًا بأن ذلك قد أدى إلى ظهور أورام صغيرة في دماغه، أورام غير قابلة للاكتشاف، ولكن من الواضح أنها تؤثر في ردود فعله العاطفية وفي تصرفاته، وإن لم تنل من قدراته الذهنية»، وذكرت صديقة أخرى كانت ممرضة في إحدى دور المعاقين إن أفراد أسر أولئك الأشخاص الذين فقدوا أعزاءهم ممن كانوا يعانون ذلك المرض العصبي العضال هم الأسوأ حالًا. كانت مثل تلك الآراء تمنحني بعضًا من الراحة؛ إذ تؤكد لي أن تصرفات ستيفن غير ناتجة عن أنانيته المفرطة، بل عن مرضه العضال وسوء أحواله الصحية، ولكن كثرًا – وأغلبهم من الأطباء – لم يلقوا لمثل تلك الآراء بالًا، إذ كان واضحًا بالنسبة إليهم أن ذكاء ستيفن لم يتأثر ألبتّة.

مع ذلك لم تكن تلك هي القصة الكاملة، فقد كنتُ ولوسي وجودي ندرك جيدًا أن أنانية ستيفن تزداد بفعل ممرضاته، ولم يكن في إمكاني منع نفسي من التعبير عن قلقي حيال هذا الأمر ووجوب أن يبقى المنزل مكانًا سعيدًا للعائلة كلها، وعدم السماح بأن يتحول إلى مستشفى، إلا أنّ طاقم التمريض لم يكن يبالي بحقيقة أن هناك في المنزل فتًى مراهقًا ذكيًّا وحساسًا وخجولًا يبلغ من العمر ست سنوات، كما قلبت إحدى الممرضات شؤون المنزل رأسًا على عقب بمجرد دخولها إليه، فقد كانت تغسل كل ما يظهر أمامها محاولة تطبيق معايير العناية المركزة في المنزل، وبدورها إيف التي تتولى مهمة غسل الملابس وتنظيف المنزل، كانت تراقبها غير مصدقة، وقد وصفتها بالسخيفة، وأخيرًا قررت المغادرة بسبب إرهاقها الشديد من العمل في مثل هذه الأجواء غير الصحية.

أظهر بعض أفراد طاقم الممرضين إخلاصًا وتفهمًا كبيرًا، خاصة السيد جو Mr. Jo الذي لم يكتفِ بتقديم الرعاية اللازمة لستيفن، بل كان يحضر لنا ألذ الوجبات في أيام الآحاد. لاحظت أن الأفراد الأكثر مهارة وإخلاصًا كانوا إما نساء أو رجالًا كبارًا في السن؛ وذلك لأن أولئك تلقوا تدريبًا وتعليمًا في عصر أفضل من هذا الذي نعيش الآن، أو أفرادًا حققوا نجاحًا كبيرًا وحصلوا على درجات تعليمية عالية، أو عانوا هم أنفسهم أزمات وكوارثَ، وقد وعدنا الممرضون والممرضات الآخرون أن يفعلوا ما بوسعهم لتقديم العون اللازم، ولكنهم لم يتحملوا الضغط والتوتر الذي تفرضه أوضاعنا، ناهيك عن أن مفاهيم التفهم والإخلاص في العمل تعني الكثير لأولئك؛ فلم تكن تهمهم سوى راحتهم الشخصية. لا أنكر أن قضاء سبع أو ثماني ساعات في رعاية مريض مهمة صعبة ومتعبة، ولكن كان من الممكن للممرض أو الممرضة الحصول على بضع ساعات من الراحة بعد أن ينهي ساعات عمله.

كانت أغلب الممرضات يعتقدن أننا أسرة ذات غنى كبير؛ وذلك لأننا كنا نعيش في منزل كبير وجميل، ولأن ستيفن كان يحتل مكانة مرموقة في الجامعة. حاولنا الإيضاح لأولئك أننا استأجرنا المنزل من الجامعة، ولكن عبثًا، حتى إن إحدى الممرضات جاءت إلي ذات ليلة وأنا أنظف صحون الفطور في المطبخ، وطلبت إلي أن أتوسط لدى الجامعة لكي أساعدها على الحصول على قرض مالي، لم أصدق ما سمعته أذناي، فطلبت إليها أن تعيد ما قالته على مسامع ستيفن الذي كان مستلقيًا في السرير، ففعلت ذلك، وأخبرتها أن هناك سوء تفاهم ما، وأني لا أستطيع التأثير في الجامعة من أجل تحقيق مطلبها، فما كان منها سوى أن بدأت بعد حلول منتصف الليل تصرخ وتضرب صدرها محتجة، ثم بدأت تتحرك غاضبة بطريقة هستيرية حول سرير ستيفن. أسرعت واتصلت بجودي التي جاءت في الحال، وساعدتني على إبعاد تلك الممرضة الغاضبة التي ما برحت تصرخ معبرة عن غضبها واحتجاجها، واتصلت بالوكالة على الفور طالبة استبدالها.

اكتشفت لاحقًا أن إحدى الممرضات اللواتي صادقتهن - وتلك كانت امرأة وحيدة وحزينة- كانت مدمنة على شرب الكحول، وأنها كانت تستغل فرصة غيابنا عن المنزل

لتشرب ما يطيب لها من العصائر التي كنا نحتفظ بها في المطبخ، وتضع ما نتركه من سنتات هنا وهناك في جيبها. وصدف أن أقلَّها ذات مرة إلى هيثرو أحد معارف جودي الذي كان يعمل سائق سيارة أجرة، وقد أخبر ذلك الأخير جودي أن تلك المرأة أخبرته بالتفصيل عن كل شاردة وواردة تدور في منزلنا. كان إجراء محادثة خاصة أمرًا مستحيلًا في منزلنا في ذلك الحين وخاصة مع ستيفن؛ إذ لم نكن نستمتع بأي قدر من الخصوصية، وفي كل مرة كنت أريد أن أجري فيها حوارًا خاصًّا مع أحد كان يتعيَّن عليَّ أن أطلب إلى الممرضة الانتظار في غرفة أخرى لبعض الوقت.

ونظرًا إلى أن الوقت المتوافر لإقامة أي حوار كان قصيرًا جدًّا فقد بدأت القيام بأمر جديد؛ كنت أكتب كل ما أنوي قوله لستيفن، حتى الأمور المالية والأسرية، وكنت أدعم أقوالي بحجج أجدها مقنعة، ولكن ستيفن اعترض على تلك الطريقة، ووجد أني أحاول حرمانه حقوقه مجددًا ومؤكدًا أنه على حق، وبذلك بدأت الأمور الثانوية تتحول إلى مشكلات كبيرة، وكنت في كل مرة أدخل غرفة ستيفن سعيدة ومرحة أخرج منها متجهمة شاحبة الوجه.

لقد استعاد ستيفن قدرته على الكلام، وبذلك عدت إلى كوني شخصًا انطوائيًّا عصبيًّا وفاقدًا الثقة بنفسه. لم يكن هناك من مخرج لتلك الأزمة؛ إذ إنّها كانت جزءًا لا يتجزأ مما حل بنا من كوارث، كان ستيفن ضحية مرضه، وكنت أنا ضحية التوتر والضغط النفسي. بدأت حالتي تسوء، وبدأت الكوابيس تراودني مرتين أو ثلاث أسبوعيًّا، وكنت في كل مرة أستيقظ هلعة من هول ذاك الكابوس الذي ما برح يراودني؛ كنت أرى أنّ أحدهم يقوم بدفني وأنا حية في مكان مغلق لا مخرج منه.

وفي محاولة أخيرة لضبط عصيان طاقم التمريض، قررت وجودي أن نمنح الممرضات ملابس جديدة وموحدة، إذ كثيرًا ما كنَّ يشتكين من تلف ملابسهن واتساخها نتيجة انسكاب السوائل عليها، وقد تمكنت إحدى الممرضات من كبار السن من الحصول على اثنتي عشرة قطعة من الزي الأبيض الموحد، وكنا نأمل أن يساعدنا ذلك على تحقيق بعض الانضباط المهني، وإقامة حدود واضحة بين الممرضات وأفراد الأسرة، وقد وجدت أن تلك خطوة صحيحة، فقد لاحظت أن الوكالة تجبر الممرضات

على ارتداء زي موحد، ولكن تلك الفكرة لم ترق لستيفن. لم يرد ستيفن أن يستيقظ من ذلك الوهم اللذيذ، أولئك المحيطون به ليسوا عاملين بل أصدقاء مقربين. لم تكن تلك فكرة جيدة، إذ كانت بعض الممرضات يرتدين أزياء أنسب للحفلات منها للعمل.

وسرعان ما اعتادت لوسي أن تقوم الممرضة المناوبة بأخذ الجريدة منها وهي تتناول طعام الفطور صباحًا قبل ذهابها إلى المدرسة، لتضعها في غرفة ستيفن منتظرة حضوره بعد عشر دقائق أو ما قارب ذلك، وسرعان ما تحول أفراد الأسرة إلى مواطنين من الدرجة الثانية، بل من الدرجة الثالثة أو أقل؛ إذ كانت الممرضة تعدُّ الطلاب والعلماء ومهندسي الحاسوب الذين يزوروننا بين حين وآخر أعلى منا درجة، وقد تأكدتُ من ذلك الأمر حين سألتني إحدى الممرضات التي تدعى إيلين ماسون Elaine Mason، لمَ لم أترك مهنتي في التدريس لأتعلم كيفية استخدام آلة تنظيف الأنبوب وأنصرف للاعتناء بستيفن بنفسي. علمت من خلال ذلك السؤال أن الممرضات يعددن جميع أولئك الذين لا يملكون خبرة في مجال الطب أقل منهن درجة.

كانت تلك الممرضة لا تمل الإشارة إلى معتقداتها الدينية في كل مناسبة، وتعدُّ أن ما حلَّ بستيفن قضاء الله وقدره، وكثيرًا ما رددت على مسامعه أنها تفضل العناية به على العناية بولديها الاثنين، إذ إنّ تلك المهمة الأخيرة أصعب وأشد مشقة. كم رغبت أن أذكِّرها أنها لا تجالس ستيفن سوى مرتين في الأسبوع، إلا أني كنت أجد فيها ممرضة جيدة؛ لذا عملت على تجاهل تلك الملاحظات جميعها.

وجدتُ في مواعظ القديس مارك مهربًا من تلك الاعتقادات والفلسفات المنافقة. كنت أصغي إلى خطب بيل لوفيلس Bill Loveless بحماس كبير وإلى خطب جيسل جيبونس Gecil Gibbons وهو أحد أتباعه الذي كان عالمًا ومبشرًا سابقًا، فقد كان ذلك الأخير قد قرر بعد أن تقدم في السن أن يبقى على اطلاع على آخر الاكتشافات العلمية، ويحاول تفسيرها بما يتناسب مع النصوص الدينية، وكان أولئك غالبًا ما يقدمون النصح لي، ويحدثونني عن مكان الإنسان في الكون، وعن الخير والشر، وغيرها من الأمور. وبدأت بفضل تلك المواعظ أشكل فلسفتي الخاصة والبسيطة حول الإيمان، بعد أن أدركت أن الإرادة الحرة هي الشرط الأساسي للظرف الإنساني،

فلو أن العرق البشري كان مفطورًا ومجبرًا على الإيمان ما كنا لنشهد ما شهده هذا العرق من تطورات وثورات في عالم الفكر، ولتحول الناس جميعهم إلى آلات. أما الشر، فهو دومًا -وإن لم يكن ذلك واضحًا تمامًا- وليد الأنانية والطمع، وما تلك إلا باقي الغريزة الحيوانية والرغبة في البقاء. مسألة واحدة لم أتمكن أن أجد لها تفسيرًا وهي المرض العضال غير القابل للعلاج. ربما كان المرض أيضًا نتيجة لخطأ الإنسان، نتيجة لاختياره أجواء أو بيئة أو طريقة حياة غير صحيحة، ربما كان مرض ستيفن ناتجًا -مثلًا- عن إعطائه لقاح الجدري بوساطة حقنة غير معقمة في الستينيات، ربما يكون ذلك هو السبب. أما بالنسبة إلى الوضع الراهن وما يشوبه من الفوضى، فقد كنت آمل أن يساعدني الإيمان ومنح العون اللازم للآخرين على جعل الأيام أقل وطأة وأكثر سعادة.

أما على الصعيد الإداري، فكانت جودي قد بدأت تعاني توترًا كبيرًا؛ لذا قررت أن تضع جدولًا يشتمل على مناوبات الشهر القادم جميعها، ولكنها لاحظت أن الممرضات لم يلتزمن بذلك الجدول، وأن المناوبات لم تسر على النحو الذي كان مخططًا له. لم نكن نعلم مَن من الممرضات كانت تنوي القدوم في كل يوم، وكثيرًا ما كنا نضطر إلى الاتصال بالوكالة طالبين ممرضات أخريات، وقد أصابتنا تلك المشكلات التي رافقت محاولتنا إعادة ستيفن إلى المجتمع والناس بتوتر كبير، فعقدنا عددًا من الاجتماعات من أجل تسوية تلك الخلافات جميعها. كانت بعض الأخبار قد وصلت جودي بأن الممرضات كن يحضرن للقيام بمشاغبات أخرى أشد خطرًا من تخريب جدول المناوبة.

كانت منحة الجمعية تصل على دفعات كل ستة شهور، وما إن تنتهي تلك المدة حتى يقوم المحاسبون في الجامعة بتقديم تقرير إلى الأوصياء في الجمعية؛ ليطّلعوا على كيفية إنفاق أموالهم، وكنت أرفق بذلك التقرير تقريرًا آخر أتحدث فيه عن حالة ستيفن الصحية وما نقدمه له من رعاية، ورسالة رجاء أطلب فيه أن تستمر الجمعية في منحنا المال، وقد أخبرتهم في الرسالة الثانية في شهر آذار /مارس عام 1986 عن معاناتنا في إيجاد طاقم ممرضات جيد ومختص، وأننا حاولنا في البداية أن نحصل

على الممرضات عن طريق نشر الإعلانات في الجريدة، فوجدنا أن تلك الطريقة غير ذات جدوى؛ لذا كنا دومًا نلجأ إلى الوكالة، وعلى الرغم من أن ما يقدمونه لنا من دعم مالي كان عظيمًا، إلا أنه لم يكن كافيًا لتغطية نفقات الوكالة، إضافة إلى نفقات الممرضات اللواتي كنَّ قد بدأن بحياكة مكيدة يطالبن فيها بالحصول على حقوق أكثر. عقدت جودي ذلك الاجتماع المذكور آنفًا، وبدأتُ الكلام شاكرة الجميع على الجهود العظيمة التي يبذلونها في مساعدتنا، ثم بدأت أشرح لهم كيف تمكنا من الحصول على الأموال بصعوبة، آملة أن ذلك سيجعلهم أكثر تقديرًا لأحوالنا، أخبرتهم عن المنحة التي كنا نحصل عليها كل ستة أشهر من الولايات المتحدة وعن ضرورة تجديدها؛ لذا لم يكن في مقدورنا دفع المال إلى الممرضات إلا مقابل ساعات العمل، وأن فكرة تقديم مصاريف عطلات ومصاريف إصابات عمل وتعويضات كان ضربًا من المستحيل.

بدا الحشد أكثر هدوءًا، وأخذوا يطالبون بأمور بسيطة مثل سلال الغسيل، والإضاءة الجيدة، وزيادة عدد الرفوف، وما شابه. وزعت أنا وجودي بعد ذلك نسخًا من ميثاق شرف التمريض البريطاني، وطلبنا إليهن قراءة كل بند من بنوده الأربعة عشر بحذر، وتنفيذه في أثناء أدائهن لعملهن، وقد كان لذلك الميثاق أثر كبير، خاصة وأني عبَّرت للحشد عن مخاوفي ورغبتي في إبقاء منزلنا منزلًا سعيدًا ومتوازنًا.

5
القيامة من الرماد

قام ستيفن كطائر الفينيق على الرغم من تأثير المتطفلين السلبي في المنزل، ومع بداية شهر كانون الأول/ديسمبر في العام 1985 كان جاهزًا للتقدم لإدارة القسم. في البداية كنت أصحبه في سيارتي، وتدريجيًّا، أصبح قادرًا على استخدام كرسيه المتحرك للذهاب في الطريق المعتاد- إن كان الجو مناسبًا لمثل هذا طبعًا. الفرق الوحيد هو أن من يرافقه ممرض وليس أحد طلابه المخلصين، ومع ضرورة تجهيز المريض بعناية فائقة قبل الانطلاق أصبح التحضير للبعثات العلمية يتطلب وقتًا أطول، فكان لا بد من تزويد الكرسي المتحرك بالعديد من المعدات الضرورية، الأمر الذي أعطاه مظهرًا يولد في النفس الشعور بالإرهاق. كان الكرسي أشبه بعربة سبَّاك، محشوًّا بأنواع غريبة من التجهيزات المكدسة على ظهره، وكان ستيفن يبدو مثل القزم فيه وهو يجره بثقة نحو معركة استعادة مجده بين أفواج المفكرين.

لم يكن من الحكمة إفاضة المزيد من العاطفة على ستيفن لفرط حساسيته تجاه ذلك، مع أن أمر التعلق العاطفي بضرورة المبالغة في الاعتناء به كان فخًّا سقط فيه الكثيرون. اجتهد بعضنا في خلق نوع من التوازن بين الإشفاق على ذلك الجسد الضئيل المتهالك، وبين ما يمكن حسبانه إجحافًا بحق عظمة قدراته النفسية والفكرية، إلا أنه كان من المستحيل المحافظة على هذا التوازن الدقيق والضروري جدًّا لحياة أسرية صحية لا يدعي أحد فيها الأفضلية أمام الآخر. في أفضل الحالات، كان الأمر خليطًا بين حرق الأعصاب في العناية بالتفاصيل المتعلقة بستيفن كلها، والشك الإيجابي في جدوى بعض تصريحاته الفجائية الغريبة؛ فعلى سبيل المثال، في مساء أحد الآحاد، أحضر جوناثان معه طبق الكاري المعتاد، وعلى الرغم من عصبيته وتدقيقه الدائم بمحتويات وصفاتي المنزلية الصحية والخالية من الغلوتين، كان ستيفن يستمتع أيام الآحاد بأكل طبق كبير جدًّا من الكاري، وكنا أنا والأولاد نعدُّ هذا السلوك المتذبذب لا يعدو كونه محاولة لطيفة لإغاظتنا.

في حين كان الدخول في أحاديث خاصة قد أصبح مستحيلًا ، أفسحت تلك الأمسيات مجالًا للخوض في مناقشات متعددة، ففي الجو المريح الذي ميَّز أمسيات الآحاد - وأحيانًا وقت الغداء حيث يحضر روبرت الذي عاد إلى كامبريدج في العام 1987 للدراسة زملاءه لتناول وجبة دسمة- في تلك الأوقات، شكل الجدال حول العلم والدين قاعدة لمحاورات لطيفة وهادئة؛ أشار سيسيل غيبون في إحدى عظاته إلى أن البحث العلمي يحتاج إلى نوع من التسليم المطلق عند التزام إحدى الفرضيات العلمية تمامًا مثلما يحدث مع الدين. عادة ما كان وجه ستيفن يعبس عند ذكر الدين أو الإيمان، إلا أنه- وفي لحظة تاريخية- قدم اعترافًا صادمًا بأن علمه الخاص المتعلق بالكون يحتاج إلى مثل ذلك التسليم؛ ففي العلم الذي يختص بدراسته يتركز مثل هذا التسليم -أو الحدس الإلهامي- حول شكل الكون، أو النظرية أو المعادلة التي يجب عليه البدء فيها لتكون موضوع بحثه، ومن ثم في المرحلة التجريبية من البحث يخضع ذلك التسليم إلى الملاحظة والتدقيق، ومع القليل من الحظ، ربما يمكن للفرضية (التسليم) أن تكون بلغة ريتشارد فيمان: «غير صحيحة مؤقتًا»، حيث ينبغي على الباحث أن يعتمد على حدسه الذي يقول له بأن الفرضية التي اختار الانطلاق منها صحيحة، وإلا فربما كانت النتيجة إضاعة سنين عديدة في بحث لا جدوى منه ينتهي بخطأ محتم. ما يتعدى ذلك من محاولات للخوض في إشكاليات العلاقة بين العلم والدين كان ستيفن يقابله بابتسامة غامضة.

على الجانب الآخر، أغرق الممرضون ستيفن بالرعاية والاهتمام، حيث لم يكونوا مهتمين بحساسية العلاقة بيننا وبينه، ولم يستطيعوا التمييز بين متطلبات العقل ومتطلبات الجسد. أدى هذا كله إلى التقليل من قيمة قوة ستيفن العقلية، وإلى تقويض محاولاتي للحفاظ على ذلك الاتزان المناسب. بالنسبة إليهم كان قد أصبح وثنًا منزهًا عن النقد، ومحصنًا حتى من تلك الشكوك التي راودت ممرضيه المختصين حول صحته النفسية، كان جل اهتمامهم منصبًّا حول خطورة وضعه الصحي وحسب لا على تغلُّبه عليه؛ كانوا يدارون نزواته كلها بوصفه مريضًا، وينظرون إلى أدنى دعابة بريئة يتلقاها على أنها إهانة موجهة إلى معبودهم.

الخطأ العاطفي ذاته كان قد ارتُكب سابقًا في العام 1985 عندما جاءنا رسام مبعوث من الكلية ومن المعرض الوطني للوحات الشخصية لرسم ستيفن. نجحت اللوحات التي عرضت صيف ذلك العام في إثارة الشفقة نحو جسده النحيل، حيث أظهرته ضعيفًا غارقًا في كرسيه المتحرك، ولكنها فشلت في تصوير إرادته وعبقريته كما يظهران جليًّا في تقاسيم وجهه ولمعان عينيه. لم أرَ في اللوحات أكثر من تقليد متهكم للواقع، وعندما أخبرت المسؤولين عن تقديم تلك اللوحات بذلك ثارت حفيظتهم. على كل حال، في الأشهر الأولى من عام 1986 عاد بريق التصميم إلى عيني ستيفن بعودة جسده إلى الحركة، والذي أدى بدوره إلى إعادته إلى منصبه الثابت في القسم. لم يكن تأثير المدة التي أقعده المرض فيها مختلفًا عن تأثير إقصاء نيوتن عن كامبريدج عندما فرض الطاعون إغلاق الجامعة في عام 1665. في أثناء عزلته في مزرعته في وولسثورب Woolsthorpe بالقرب من غرانثام Grantham، حصل نيوتن على الوقت الكافي للتفكر وإكمال الحسابات المطلوبة من أجل وضع نظريته حول الجاذبية. أما ستيفن فكانت الأشهر التي أجبره ضعفه فيها على ملازمة المنزل مفيدة له ليتعلم استخدام الحاسوب الجديد بعناده المعروف، والذي ساعده في حفظ المعادلات الطويلة عندما فقد قدرته على الكتابة في أواخر الستينيات.

مع فقدانه صوته اكتشف ستيفن أنه قد غنم وسيلة أكثر تطورًا للتواصل، أصبح بمقدوره التحدث مع أي كائن كان، وليس فقط مع المجموعة الصغيرة المكونة من عائلته وطلابه كما كانت الحال عليه في الماضي، فضلًا عن أنه لم يعد محتاجًا إلى وجود أحد طلابه بجانبه ليدوِّن محاضراته، فبرفع صوت المكبرات عاليًا، كان قادرًا على مخاطبة جمهوره مثلما يفعل أي محاضر آخر، إن لم نقل بفاعلية أكبر. كان حديثه ذا إيقاع بطيء، كون اختيار المفردات يتطلب وقتًا، لكن ذلك كان أمرًا طبيعيًّا؛ فلطالما اتسم حديثه بالدقة، فقد اعتاد ستيفن دائمًا إعطاء نفسه الوقت الكافي للتفكير قبل التكلم؛ وذلك لتجنب الكليشيهات أو اللغو، وليضمن أن تكون آخر كلمة في أي موضوع له وحده وحسب.

لم تقتصر قدرات ستيفن الجديدة على التعبير عن أفكاره بطريقة مباشرة، أو على إعطاء محاضراته بنفسه، أو على كتابة رسائله دون مساعدة، بل كان قادرًا أيضًا على استكمال عمله في تأليف كتابه بعد انقطاع. بدأ براين ويت- الذي كان طالبه فيما مضى- بمساعدته على التنظيم المنهجي لمواد بحثه في الأشهر الماضية، واستمر في مساعدته لاحقًا، وخصوصًا في الجداول البيانية وفي إحضار مصادر البحث، لكن ستيفن غدا الآن ممسكًا بتفاصيل المشروع وبقوة. وأيضًا منحه الكتاب الدافع لاستغلال طاقة الحاسوب القصوى، منحه الحاسوب الفرصة لكتابة نسخة مدققة من مخطوطته بمساعدة الاقتراحات المدمجة في المحرر الأمريكي. أوشكت فكرة الكتاب أن تتحول إلى حقيقة، كان من الممكن ألا نبقى مضطرين إلى دفع السلف المالية، بل وأصبح الاستقرار المالي وشيك الحدوث. ربما لم يكن للكتاب أن يوصلنا إلى الثراء، ولكن إمكانية أن يأتي لنا بدخل إضافي متجدد أعلنت بداية النهاية لربع قرن من الاقتصاد في المصروف.

حاولت في المنزل جاهدة التوفيق بين مهامي جميعها، التعليم والموسيقى والأطفال، ذلك كله كان مترافقًا بالمتطلبات المتعبة للممرضين المشاكسين، وبمساعدة جسورة من جودي، استطعت درء خطر الفوضى الشاملة عن المنزل، بإجراء مقابلات أسبوعية مع مرشحين جدد، وبإجراء التحسينات المطلوبة المدرجة أصلًا على جدول الأعمال. شعرنا وكأننا أصبحنا موضع تفريغ الشحنات السلبية التي لم يكن من الممكن للممرضين أن يوجهوها نحو ستيفن. في إحدى المرات، شرحت المأزق الذي كنت فيه لصديقة قديمة درَّست فن التمريض، وقد نجحت في تشخيص الحالة لي: «الممرضون كالجنود، مدربون كي يعملوا لا كي يفكروا، فإن كان هناك مريض محتاج للرعاية، فإن مهمتهم الأسمى تصبح في الاعتناء بذلك المريض دون غيره، وتكون مجمل أفعالهم على مستوى الجسد لا الفكر، فالإبداع لا مكان له في حقل التمريض». أصابت هذه المعلومة التي قدمتها لي صلب الموضوع، لكنها لم تكن ذات فائدة تذكر، فهي تعني أن الممرضين كانوا في أفعالهم على النقيض تمامًا مع أفكارنا الفلسفية، وأنهم مهما تعددت محاولاتنا معهم لإيجاد حلٍ وسط كانوا عاجزين-وفق طبيعة عملهم- عن القيام بما نرجوه من وجودهم.

في هذه الأثناء كان ستيفن يحتفل بعودة صحته إلى الحالة الطبيعية؛ حيث زار المسرح الإيمائي في عيد ميلاده، وزار أيضًا كلية كوليج ليديز نايت College Ladies' Night بعد ذلك بيومين، كذلك بدأ بالتخطيط لرحلاته العلمية للسنة القادمة مندفعًا بحماس أوقدته تجربة جنيف، وكانت باريس وروما على خط المسير في فصل الخريف، يسبقهما- كما تقتضي الخطة - القيام برحلة علمية خارجية في حزيران/يونيو إلى جزيرة على الشاطئ السويدي لحضور مؤتمر في الفيزياء الذرية. أما بالنسبة إلى تنفيذ الخطة فتلك كانت مسألة أخرى، وخصوصًا أن موعد المؤتمر السويدي تزامن مع أول امتحانات لوسي للمرحلة الابتدائية من دراستها، ولم أكن راغبةً في تركها في مثل ذلك التوقيت الحرج.

ما حدث فعلًا هو أن الاهتمام تحوَّل دراماتيكيًّا من ستيفن إلى لوسي ربيع العام 1986؛ ففي آذار/مارس، انطلقت في رحلة مدرسية إلى موسكو، ولكن- وعلى عكس مما توقعنا- لم ترافقها عناية مُدرِّستها الروسية ورعايتها. اعتادت فيرا بيتروفنا في كل عام أن تُلبس طلابها مثل رجل ميشلان Michelin[1]، طبقة فوق طبقة من الألبسة التي تشتريها من المتاجر الشعبية والمحال التجارية الرخيصة، وفي موسكو، كانت تصحب البنات في رحلة عبر المدينة لزيارة أصدقائها ومعارفها، وتبدأ الطالبات بالتبرع بقطعة من الثياب في كل زيارة. في العام 1986 ولأول مرة في حياتها، لم تستطع فيرا الحصول على فيزا للسفر إلى موسكو ولينينغراد Leningrad وحلت محلها مُدرِّسَة لا تتكلم اللغة الروسية، وللمصادفة كادت أن تحدث كارثة حقيقية عندما مرضت لوسي في موسكو، واضطرت إلى الاعتماد على ما تعرفه من كلمات روسية لتساعد نفسها. خافت الفتاة أن يتركوها وحدها في مشفى روسي، ولذلك لم تخبر أحدًا بمدى الألم الذي كانت تشعر به، فقد امتنعت عن الطعام وقضت عشر أيام على معدة خاوية. عندما عادت إلى المنزل كانت تعاني حمى شديدة وألمًا شديدًا في المعدة؛ فأجبرت على ملازمة الفراش؛ شخَّص الطبيب حالتها على أنها مصابة بالتهاب حاد في الزائدة

(1) رجل ميشيلان أو (بيبندوم Bibendum)، وهو رجل يظهر على صورة رجل مطاطي من إطارات السيارات، ويمثل شعار شركة ميشلان للإطارات. (المترجم).

الدودية. ومجددًا عدنا إلى ممرات مشفى أدينبروك Addenbrooke المألوفة، نحتل الكراسي البلاستيكية ذاتها، لكن هذه المرة كنا ننتظر نتائج عملية استئصال لزائدة دودية بدلًا من عملية جراحية لجهاز تنفسي مغلق. أخبرونا في اليوم التالي، بعد أن بدأت لوسي بالتماثل للشفاء، أنها كانت محظوظة جدًّا كون زائدتها الدودية لم تنفجر في موسكو.

على كل حال، كان لقدوم الربيع أثرًا مخففًا لما حمله الشتاء من توتر، واكتست الحياة قشرة -ولو رقيقة- من العذوبة بعد ما كانت تحمله من قساوة. وانطلاقًا من تصميم لا يلين على أن يبقى البيت جديرًا بالاسم الذي يحمله، حاولت أن أقلل من أهمية الرعاية الدائمة الواجب عليَّ توفيرها على مدار الساعة، وذلك بالتظاهر بأنها أمر اعتيادي لا يعدو كونه عبئًا إضافيًّا ثانويًّا. عدنا ثانية إلى إقامة حفلات العشاء لزوارنا من العلماء، وشاركنا في الأنشطة المحلية للمدارس والكنيسة. دعا تيم سبعة عشر صديقًا من صفه إلى حضور حفلة عيد ميلاده، واستطاع بانش وجودي أن يُبقيا الضيوف مسرورين بعروضهما الكلاسيكية التي قدموها، أما بقية السهرة، فقد كانت لوالدي وعزفه المميز على البيانو، حيث أمتع ضيوف حفيده ببعض المعزوفات الموسيقية.

ومع تحسن صحة ستيفن، أصبح لدي الجرأة للعودة إلى بعض الأنشطة القديمة التي كنت أقوم بها، وأهمها كان الغناء في كورس الكنيسة مع الجوقة الموسيقية التي انضممت إليها في بداية الثمانينيات، وخصوصًا أن تدريبات الجوقة تلك كانت تقام أسبوعيًّا في كنيسة كلية كايوس، بعد أن تكرم عميدها جون ستوردي John Sturdy، ومنحنا الإذن بذلك، وهذا الأمر كان موافقًا لتحركات ستيفن؛ فبينما كان يتناول طعام الغداء بمرافقة أحد الممرضين، كنت أنا أغني في الكنيسة، محاولة جهدي أن أتخطى الصعوبات التي رافقتني باستمرار. في بعض الأحيان، كان ستيفن ينهي غداءه ثم يستمع للمراحل الأخيرة للتدريبات، ومن ثم نعود إلى المنزل سوية.

أما لوسي فقد بدأت بالميل إلى الاستقلالية أكثر، وأصبحت حياتها متمحورة حول شغفها بالمسرح الذي كان يبقيها لمدد أطول خارج المنزل.

رافق ستيفن في رحلته إلى السويد ثلاثة ممرضين وطبيب، مستفيدين بذلك من الميزانية التي خصصتها مؤسسة ماك آرثر للرحلة إلى أقصى حد. ومع ذلك، كان الأمر استثمارًا مربحًا لنا، كون موري غيل مان Murray Gell-Mann، أحد القائمين على المؤسسة، كان مشاركًا في المؤتمر، ومن ثم كان باستطاعته التأكد عن قرب كم هي مرعبة ظروف ستيفن، وكم يكلف الاهتمام الذي يحتاجه للحفاظ على حياته وإسهاماته في حقل الفيزياء. في المرة الثانية التي تقدمت بطلب منحة من المؤسسة في أيلول/سبتمبر عام 1986، كنت قادرةً على الإشارة إلى لقائنا بموري غيل مان والتأكيد على أن صحة ستيفن- على الرغم من أنها كانت أكثر استقرارًا حينها- ما زالت تتطلب القدر ذاته من الاحترافية في الرعاية، متكهنة أنها ستبقى كذلك إلى وقت غير منظور. بناءً على ذلك، وافقت مؤسسة ماك آرثر على دعم تكاليف العناية بستيفن لأجل غير مسمى، وقبلت ما تقدمت به من شرح لكيفية أن كل ما منحته منظمة الرعاية الصحية الوطنية هو زيارة صباحية سريعة لممرض الناحية بهدف التأكد من كفاية المؤونة، وزيارة أسبوعية لطبيب مختص في الطب العام، ونوبة واحدة من ثماني ساعات بدلًا من إحدى وعشرين ساعة، وبضع زيارات لمساعدته في حمامه الصباحي بوصف ذلك نوعًا من الخدمة الإضافية لأيام محدودة في الأسبوع.

على الشاطئ الغربي للسويد تقع جزيرة مارستراند Marstrand الصغيرة والهادئة، التي اتضح أنها أمتع وأفضل منتجع يمكن لفيزيائي أن يقضي نقاهته فيه ممرنًا عضلاته العقلية، وبينما كان ستيفن ورفقاؤه يستكشفون الكون من خلال التفكر في مسارات الجزيئات الأولية، كنت أنا أستمتع بالسلام والعزلة داخل التجاويف الصخرية، وبالمسير على طول الطريق المشجر حيث يزهر نرجس حزيران/يونيو ويطول إشراق الشمس حتى المغيب. حرية تلك الأيام القليلة التي قضيتها في السويد كانت رفاهية من نوع نادر، رفاهية لا أحصل عليها إلا في المرات القليلة التي تنقذني فيها مساعدة والدة ستيفن الاستثنائية من بعد أن توفي والده في آذار/مارس من العام 1986. كان الاعتناء بوالد ستيفن في مرضه الأخير صعبًا؛ فالشلل الذي أصابه في نهاية أيامه شكَّل عبئًا ثقيلًا على رجل كان يستخف بصعوبة القيادة بيد واحدة عبر أفريقيا؛ ليقدم خدماته في بداية الحرب العالمية الثانية، رجل اعتاد في أواخر عقده

السابع من العمر، على قضاء أسابيع بطولها في تسلق جبال ويلز والتجوال فيها. كانت جنازته نهاية حزينة لعمله بصفته طبيبًا مختصًّا في الأمراض الاستوائية، تلك المهنة التي أُبخس حقها مع أهميتها المميزة. لا أعتقد أني كنت الوحيدة التي اختلطت عليها مشاعرها تجاهه، كنت أقدره وأحترمه حين يظهر تلك الرهافة والاهتمام والتقدير، ولكنه أحيانًا كان يبدي برودًا وقسوة منفِّرَين.

بعد موته، خففت إيزابيل من صرامتها، وأظهرت علامات واضحة من التعاطف، بدت مهتمة بمشاركتنا الضغوط العائلية التي نعانيها بطريقة جديدة، وتقرَّبت من الأولاد بحسها الفكاهي الساخر وبطبيعتها المرحة التي فرضت عليهم مطالب جديدة، علاوة على أنها تقبلت علاقتي بجوناثان بكرم مفاجئ، وذلك بعد أن عرفت أن وجوده لم يكن مهددًا لتماسك الأسرة؛ بل على العكس، كان عنصرًا داعمًا للعائلة كلها بما فيها ستيفن، كنت ممتنة لتفهمها ولمساعدتها، وخصوصًا عندما اقترحت أن تكون مسؤولة عن المنزل في أثناء غيابنا في رحلاتنا حول القارة الأوروبية. شعرت بأني قادرة على تجميع قواي لأستمر مهما كانت الضغوط التي تواجهني إن أنا استطعت الحصول على استراحة صيفية لبضع أسابيع، بعيدًا عن ضغوط نصف الحياة التي أعيشها في المنزل، وبعيدًا عن الواجبات المتنوعة المفروضة عليَّ سبعة أيام في الأسبوع وتسعة وأربعين أسبوعًا في السنة على الأقل، وبعيدًا عن الأعمال التي تعيَّن علي القيام بها لإرضاء متطلبات سكان المنزل جميعهم. في نهاية ذلك الوقت المستقطع عدت إلى ستيفن دون أسئلة.

بعد أن فرد جناحيه كطائر الفينيق في السويد دون أي مشكلات تذكر، كان ستيفن على استعداد تام للتحليق بهما ثانية وثالثة. في أيلول/سبتمبر، انطلق السيرك الرحال -الذي انضم إليه خريجٌ فيزيائي شاب بصفة مساعد شخصي لستيفن- نحو باريس لحضور مؤتمر في (الأوبزيرفاتوار دي باريس) Observatoire de Paris في ميودون Meudon، حيث يعمل براندون كارتر Brandon Carter. كنت سعيدة لتمكني من قضاء بعض الوقت مع لوسيت، وإطلاعها على الأحداث كلها التي حصلت معنا خلال السنة

الماضية، وأيضًا حصلت على وظيفة جديدة هناك -سائقة ومترجمة للمجموعة- وأخيرًا أمكن للممرضين أن يسمعوا ويروا بأم أعينهم أنني مفيدة في شيء ما.

مرة أخرى وجدنا أنفسنا في روما، حيث كان البابا يريد تقديم ستيفن في الأكاديمية البابوية للعلوم، بالرغم من هرطقاته بعدم وجود بداية أو نهاية للكون. حضر تيم أيضًا، وكذلك طاقم الممرضين والمساعد الشاب الذي كانت تنحصر مهمته في الإشراف على الحاسوب وآلية محاضرات ستيفن. اعتمدنا اختيار الكاثوليكيين من الممرضين ومن ثم القادرين على تقدير أهمية المناسبة، وفي هذا كنا محظوظين بأنّ بام وتيريزا، أكثر الممرضين موثوقية وأريحية من حيث التعامل، كانا كاثوليكيين ومهتمين جدًّا بالانضمام إلينا، وكنا بحاجة إلى ثلاثة ممرضين، إلا أنه لم يكن الجميع متحمسًا للفكرة مثل بام وتيريزا، وأخيرًا وافقت إيلين ماسون على مرافقتنا، وذلك بعد أن أقنعناها بأنها ليست مضطرة إلى مصافحة البابا، الخطوة التي كانت تعدُّها ضد مبادئها.

الزيارة الثانية لروما كانت رسمية أكثر من الأولى، وكان ذلك في العام 1981. كان الطقس أفضل، وكذلك كانت الظروف مهيئة لنا بشكل جيد، فقد أقمنا في فندق أرقى وأقرب إلى الفاتيكان، وتسنى لنا القيام بجولات خاصة لمشاهدة كنوز الفاتيكان الفنية، في الوقت الذي كان فيه العلماء مجتمعين في أروقة الأكاديمية التي يعود بناؤها إلى عصر النهضة. الجزء الأهم من الزيارة تمثل في لقاء البابا جون بول الثاني، الذي استضاف جميع أعضاء فريق ستيفن جميعهم دون استثناء، أخذ البابا يتحدث إلينا أنا وستيفن بهدوء.

لم يعرف طموح ستيفن أي حدود، فالنجاح الذي حققه في رحلاته المتلاحقة حول أوروبا أغراه بالمضي قدمًا. في كانون الأول/ديسمبر وقبل حلول أعياد الميلاد، انطلق لحضور المؤتمر العلمي السنوي في شيكاغو، في محاولة منه لاستعادة مكانته العالمية. هذه المرة كان التمويل من شيخ عربي، ورافقه في رحلته جموع غفيرة من المحبين والممرضين والطلاب ومساعده الشخصي وزميله الاعتيادي. حشد ستيفن أمتعةً كثيرة لدرجة أن هيكل الليموزين التي استقلها إلى المطار كاد يلامس الأرض إلى

حد ما. كانت شركات الطيران قد اعتادت أن تعامل ستيفن باحترام يليق بزبون ذي أهمية خاصة لا زبونًا ذي احتياجات خاصة، فقد لقي في المطار مساعدة ورعاية كنا بحاجتها فعلًا قبل عشرين سنة مضت، عندما كنت أعاني وحيدة مع ستيفن وطفله الصغير. أما الآن، فوجودي غدا إضافة لا معنى لها في الرحلات العالمية. كنت أنا الوحيدة من بين الجميع التي تتخذ من تيم رفيقًا دائمًا، تمامًا مثلما كان روبرت من قبله مرافقي الصغير على امتداد أيام مضت. شغل تيم هذا الدور ببراعة. كان محبًّا للترحال جوًّا، وكان يصرخ عندما تبدأ الطائرة بالتحرك -حيث كانت تلك أسوأ لحظات حياتي- «أسرع، أسرع!» مزيلًا مخاوفي كلها بحماسته منقطعة النظير. في تلك الرحلات كان في جعبتي الكثير لأعلمه له وأثير فضوله حوله، أقله أساسيات في لغات العصر الرومانسي. في إسبانيا، وبدوره علمني لعب الشطرنج، الشيء الذي لم يستطع والده النجاح في تعلمه أبدًا.

6
الرياضيات والموسيقا

مضى ثمانية عشر شهرًا على انقضاء فرص نجاته نهائيًّا، ومجددًا؛ أدهش ستيفن كل أولئك المتشائمين. لقد نجا وعاد إلى البحث العلمي، كانت فرضيته الجديدة عن جزيئات خيالية تطوف في وقت خيالي وفي كون مواز غير موجود إلا في أذهان أصحاب مثل تلك النظريات، حفزته قيامته الاستثنائية وما تلا ذلك من تحول في الاحتمالات المفتوحة أمامه للمثابرة بقوة أكبر؛ عاد للسفر مجددًا محليًّا وعالميًّا حيثما وأينما أراد، وعلاوة على هذا كله، أكمل المسودة الثانية لكتابه، وبدأ بالبحث عن عنوان له، وذلك بعد سنة فقط من محاولاته المضنية لاستيعاب كيفية عمل الحاسوب وعودته الحذرة لرئاسة القسم. كانت حالته الصحية موضع قلق دائم؛ حيث بقيت غير مستقرة إلى حد كبير، فمع كل مساعدات الطب الحديث والرعاية التمريضية له على مدار الأربع والعشرين ساعة في المشفى، كان يحمل معه مشفىً مصغَّرًا (إن جاز التعبير) خاصًّا به أينما ذهب. تعلمت الممرضات كيفية تغيير أنبوب الرغامى في حالة الطوارئ، وتولى ستيفن مسؤولية دوائه بنفسه؛ لأنه اعتقد -وكان محقًّا في اعتقاده- أنه أكثر دراية بحالته من أي طبيب.

انضمت ممرضة أخرى إلى قائمة الممرضات، أمارجت تشوهان Amarjit Chohan من البنجاب، وهي من خلفية أرستقراطية وتتمتع بقامة طويلة. كانت تعمل ليلًا في غرف العمليات في أدينبروك، ونهارًا (وفي أوقات الفراغ) تأتي للاعتناء بستيفن. كانت وحيدة في المنفى البعيد عن منزلها؛ ضحية للتمييز العنصري المبطن، وقد تعهدتنا برعاية استثنائية سرعان ما أزعجت بقية الممرضات، شعر ستيفن بالإطراء بعد أن وجد نفسه موضع الجائزة التي يتنافس عليها مَن حوله جميعهم، وكانت المعارك التي تخاض في صالحه تزعزع حالة الاستقرار بين مرافقيه مع كل تبدل يصيبها، أما هو فكان ينظر إلى نزاعاتهم تلك بتواطؤ مضطرب. في إسبانيا كنت أنا وتيم مندهشين لمشاهدة إحدى الممرضات تغازل أحد الطلاب، ومن ثم تدخل في عراك بالأيدي مع

ممرضة أخرى بعد جدال سخيف. كان التنافس بين تلك الشخصيات العدائية كالرعد البعيد، يدوي متوعدًا، فكل واحدة منهن تصر على تفوق أسلوبها في التمريض؛ تلك مشكلة أخرى أثارت القلق في المنزل، وكانت مصدر إحراج إذا ما حدثت خارجه.

في عام 1987 اشتغل ستيفن وأولئك الذين اعتقدوا بفرضيته حول المسارات الخيالية والأكوان الوهمية بحدث ضخم، الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لنشر نيوتن مبادئ الرياضيات Newton's Principia Mathematica مع عقد مؤتمر دولي في كامبريدج. كانت مكانة ستيفن راسخة في قلب هذا الحدث، حيث إن العرف النيوتوني في إدارة البحوث الكونية في كامبريدج قضى بترؤس ستيفن بصفته بروفيسورًا لوكاسيًّا، كما أن بحوثه شكلت امتدادًا منطقيًّا لفيزياء نيوتن مع تعديلات يفرضها تأثير نظرية النسبية لأنشتاين على بحوث القرن العشرين.

وُلد اسحاق نيوتن في عام 1642 وهو العام الذي توفي فيه جاليليو والعام الذي يسبق ولادة ستيفن بثلاث مئة سنة. على الرغم من الطبيعة المتواضعة لدراسته بوصفه تلميذًا في غرانثام وطالبًا موظفًا «سيزار" Grantham في جامعة ترينيتي Trinity College، كان عمل نيوتن الرئيس (مبادئ الرياضيات) مستمدًّا من تأثره بالقواعد الرياضية والميكانيكية التي صاغها الفيلسوف الفرنسي العظيم ريني ديكارت في القرن السابع عشر. في كامبريدج وفي ستينيات القرن السابع عشر أثارت نظريات ديكارت ضجة جعلت بعضهم يثور عليه، وأدت إلى منع قراءتها على أنها تفنيد لحقائق الإنجيل، ومع ذلك كان هناك توجه عام للاستفادة منها وخاصة من قبل الناشطين في الجامعة. نقل نيوتن مبادئ ديكارت إلى دياره في وولسثورب مانور مباشرة بعد تخرجه، وكان ذلك أيام الطاعون الشهيرة، فخلال تلك المرحلة الاستثنائية من الإبداع في وولثروب مانور طوَّر نيوتن ذو الثلاثة وعشرين ربيعًا اكتشافاته الرئيسة الثلاث: حساب التفاضل والتكامل، وقانون الجاذبية العالمي، والنظرية الجسيمية لطبيعة الضوء.

لربما كان نيوتن مستعجلًا في تبنيه نظريات ديكارت، لكنه لم يكن مستعجلًا على الإطلاق عندما نشر النتائج التي قادته إليها تلك النظريات. نشر أخيرًا كتابه مبادئ الرياضيات في عام 1687، بتشجيع كل من ساموبل بيبي Samuel Pepys رئيس الجمعية

الملكية، وعالم الفلك الشاب إيدموند هالي Edmond Halley. في رائعته تلك لم يقترح نيوتن فقط القانون العالمي للجاذبية الذي توقع المسار البيضاوي لحركة الكواكب حول الشمس، بل طور الحسابات المعقدة الخاصة بتلك الحركات؛ في عمله مبادئ الرياضيات سخر الرياضيات لخدمة الفيزياء وطبقها بدقة على الكون المرئي. وكان كتاب البصريات أحد أعمال نيوتن العظيمة الأخرى التي طورها خلال سنوات تفشي مرض الطاعون، والتي لم تنشر حتى العام 1704. في ذلك الكتاب شرح الضوء على أنه طيف من سبعة ألوان تشكل بمجموعها اللون الأبيض. وضع نيوتن موشورًا في طريق شعاع الشمس، وأخذ يراقب اللون الأبيض يدخل عبر الموشور، ويتفكك إلى ألوان قوس قزح، وعلى الحائط المقابل لم يحصل على صورة مدورة للشمس، بل انعكست صورة مستطيلة تباعدت فيها الألوان من الأزرق إلى الأحمر وانتشرت (تبعًا لدرجة قابلية انكسارها). كان كتاب مبادئ الرياضيات مستوحًى من سقوط تفاحة في حديقة في ولسثورب مانور، ومصدر إلهام كتاب البصريات تجاريًّا، عن طريق تحسين زجاج عدسة التيليسكوب، تلك الأداة التي كان جاليليو أول من وجهها نحو السماء في شتاء 1609.

يعدُّ نيوتن نفسه بأنه مختص في مجال الفلسفة الطبيعية، إلا أن الآخرين يعرفونه بأنه أول عالم عظيم مختص بالرياضيات الحديثة والفيزياء. عاش نيوتن طفولة معذبة كان يمكن أن تؤدي به إلى أن يصبح ديكتاتوريًّا بدلًا عن ذلك المراوغ الصغير، وقد اكتسب شهرة بسبب رغبته في الانتقام من الفيلسوف الألماني غوتفريد لايبنتس Gottfried Leibniz الذي زعم أنه هو من اكتشف حساب التفاضل والتكامل أولًا. إن اكتشاف نيوتن لحساب التفاضل والتكامل -أو التفاضل كما يسميه- كان نتيجة حاجته في منتصف الستينيات إلى منهج عام لحساب رياضي ضروري للتعامل مع ديناميكيات حركة الكواكب، وقد وضع ذلك المنهج مباشرة قيد الاستخدام في قانونه للجاذبية، لكنه فشل عمومًا في نشر نتائجه، وشعر بعدها بالسخط عندما نشر لايبنتس اكتشافاته المستقلة في عام 1676. ما أثار إعجابي أنه وعلى الرغم من ذلك كله، فقد حافظ هذا العبقري الحانق على تواضعه، فعندما كتب متأملًا مدى إسهامه في المجال العلمي شكك في أهمية اكتشافاته: «لا أعرف كيف ينظر إليَّ العالم، لكني

أرى نفسي مجرد صبي يلعب على الشاطئ مسليًا نفسه بين الحين والآخر في البحث عن حصاة أنعم، أو عن صدفة أكثر جمالًا من قريناتها، بينما يمتد أمامي محيط الحقيقة العظيم المبهم»، (جمع الحصى من على الشاطئ) كان ذلك التشبيه ذاته الذي استخدمه ستيفن عام 1965، ليصبَّ جام غضبه على دراسات العصور الوسطى.

لم يترك نيوتن حصاةً على شاطئ العلوم إلا وتفحصها، روى معاصروه بأنه كان عاجزًا عن تمييز الطبقات الصوتية، ومع ذلك فقد وضع نظرية في الموسيقى عام 1667. لم تكن أطروحته المسماة عن الموسيقى Of Musick ذات أهمية بالغة ولم تحمل أي مفاهيم جديدة، لكنها بحثت في قضايا تتعلق بضبط السلم الموسيقي، وقارنت الأزمنة اللوغاريتمية بالأزمنة الموسيقية المعادلة والمتساوية. استخدم نيوتن الموسيقى لرسم ملامح الشبه التي يمكن لحظها بين النوتات السبع للسلم الدياتوني والتدرجات السبع لألوان الطيف، وربط بين عرض الحزم الضوئية للطيف وأطوال العلامات الموسيقية السبع المتآلفة لتشكيل السلم الموسيقي.

لم يكن نيوتن متذوقًا للموسيقى، لكن ولحسابات أخرى، منها شدة اهتمامه بالنظريات المتمحورة حول الموسيقى، أقيمت على شرف ذكراه المئوية حفلة موسيقية عزفت فيها ألحان أُلِّفت في عصره، كان الدافع في ذلك أيضًا الانطلاق من حقيقة أن سبب توقد عبقرية نيوتن يعود بشكل رئيس إلى التوجه الفرنسي الجديد نحو العلم، فبالتزامن مع عودة النظام الملكي عام 1660 انطلقت موجة من الحماس تجاه النمط الفرنسي المبتكر في الموسيقى، الذي وصل إلى إنجلترا مع تشارلز الثاني، وألهم العبقري الإنكليزي الآخر في تلك المدة هنري بروسيل Henry Purcell. ومنذ ذلك الحين، شكلت موسيقى هنري بروسل جنبًا إلى جنب مع موسيقى باخ وهاندل أساس الذخيرة الفنية لفرقة كامبريدج باروك كاميراتا Cambridge Baroque Camerata؛ لذلك لم يكن هناك طريقة أنسب من إقامة حفلة موسيقية من وحي تلك الحقبة لترفيه الوافدين إلى المؤتمر المنعقد بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة نيوتن. على كل حال، ربما كان ستيفن يفضل أداء مسرحية فاغنر الموسيقية (حلقة النيبِلُنغين) Ring Cycle، إلا أن ذلك كان متعذرًا. جلبت تلك المناسبة المرموقة-بانعقادها في كلية ترينيتي- الرعاية التجارية

للفرقة الموسيقية، وأفسحت المجال لجوناثان، إضافة إلى إقامته مشروعه الموسيقي على أرض ثابتة، بأن يضع تسجيلًا لبرنامجه الذي منحه اسم (مبادئ الموسيقى).

يظهر أنني وستيفن وجوناثان قد وجدنا أنفسنا مجددًا نكافح من أجل نوع ما من التوليف بين مواهبنا واهتماماتنا المختلفة. على الرغم من أن الفيزياء الحديثة لنظرية الكمّ كانت بعيدة عني كليًّا، إلا أنه كان بمقدوري أن أدرس الفيزياء النيوتونية، وأفهم بعض مبادئها وربما بعض معادلاتها الرياضية أيضًا، وبأن أسهم بفاعلية في تنسيق المفاهيم الرياضية والموسيقية بوصفها نشاطًا أساسيًّا في ذلك الصيف. أمتعني تنظيم الحفلات، ورغم صعوبة العمل أحسست بقيمةٍ لذاتي، تمامًا كالإحساس الذي يمنحني إياه ممارسة التعليم. فإضافة إلى العمل التطبيقي للترويج للحفل من ترتيب المكان، والإعلان، وصرف التذاكر وهلم جرا.. كان هناك الدافع الفكري للكتابة عن خلفية المقطوعات الموسيقية التي يتضمنها البرنامج، وفي سعيي للحصول على معطيات حول المشهد الموسيقي في أواخر القرن السابع عشر، وجدت نفسي أعود إلى حرم مكتبة الجامعة، حيث يتباطأ إيقاع الحياة المسعور نحو خطى مبجلة ومتأنية. أثمرت بحوثي عن إيجاد صلة لطيفة بين نيوتن وبورسيل في كتابات أحد أهم الباحثين في العلوم الموسيقية في القرن السابع عشر؛ روجر نورث Roger North، وهو طالب جامعي معاصر لنيوتن، كان قد خلص إلى أن (التسالي الفعلية) العظيمة لحياته كانت تنحصر في أمرين رئيسين: الأول هو الرياضيات، والثاني هو الموسيقى. وصل تمتعه بالرياضيات إلى ذروته مع أجدد نظرية للسيد نيوتن وأروعها ، وهي نظرية الضوء بوصفه مزيجًا لخليط الألوان كلها. أما فيما يتعلق بالموسيقى، فلم يكن هناك شك بأن موسيقى بروسيل المقدس the devine Purcell منحه متعةً عظيمة بوصوله إلى (أقصى درجات التفوق الموسيقي).

كما في السابق، كانت الساعات التي تمكنت من قضائها في مكتبة الجامعة نادرة بشكل مؤسف. كان لدي القليل من الوقت لتفحص بعض المراجع، ومن ثم الاندفاع خارجًا مع كومة من الكتب تحت ذراعي. قبل الاحتفالات بذكرى نيوتن في تموز/يوليو، كان في الجدول أنشطة أخرى تسبقها. لم أهدأ قطُّ، مدفوعة بتوتر داخلي اجتاح كل

جانب من وجودي البدني والعقلي والفكري والإبداعي والروحي، ومع هذا، كان عليَّ أن أثبت لنفسي أنني رفيقة جديرة بعبقرية ستيفن، وأن أثبت للعالم بأسره أننا نعيش أسرة عادية بكل ما تعنيه الكلمة. إضافة إلى أنشطتنا الأكاديمية، كان هناك الكثير من الحفلات، والمزيد من العمل لصالح الجمعيات الخيرية، والمزيد من الحفلات الموسيقية والمؤتمرات، والمزيد من السفر، والمزيد من الدرجات الفخرية. صحيح أن العائلات الأخرى كانت تعاني الانشغال الدائم في حياتها، إلا أننا وبالمقارنة معهم كنا نعيش حياة أقرب إلى الجنون من الاعتيادية. كنت أعتمد في استمراريتي على كل الدعم والتأييد الذي يمكن أن تقدمه لي كل من أنشطتي اللامحدودة وعائلتي والأصدقاء وجوناثان. أما الممرضون المرافقون لستيفن، فلم يكونوا موهوبين لا في اللجوء إلى البصيرة ولا في الجنوح إلى الخيال، وكانوا يشكلون عقبة في طريق ستيفن بدلًا من أن يكونوا دعائم يرتكز عليها في مسيرته. وسرعان ما شعرت وبقية أفراد الأسرة، أن علينا أن نعتذر له عن وجودنا، وعن حياتنا، وعن تنفسنا الهواء نفسه الذي يتنفسه ذلك الرجل العبقري. غالبًا ما كانت لوسي هي التي تساعدني في الحفاظ على نظرة معتدلة للأمور، وجوناثان كان يشجعني على الاحتفاظ ببعض الكبرياء. أصبح وجود جوناثان الدائم والمريح سببًا لكثير من الهمسات المتحفظة، وكتم الأنفاس من قبل هؤلاء الغرباء، الذين -وبسبب سطحيتهم- سعوا للحكم على الآخرين بمقاييس لم يستطيعوا هم أنفسهم أن يؤيدوها كما أثبتت الوقائع.

بينما كانت لوسي تكمل دراساتها في اللغة الروسية وهي ما تزال في السنة الأولى من المرحلة (أ)، عادت معي ومع ستيفن إلى موسكو مجددًا في أيار/مايو من عام 1987؛ لحضور مؤتمر آخر في أكاديمية العلوم، كانت تلك الأكاديمية - مثل باقي المؤسسات الروسية- تسقط بهدوء تسمياتها (السوفياتية) السابقة تسليمًا بالتغيير الدرامي الذي كان يحدث في المجتمع الروسي. (بيريسترويكا) و(غلاسنوست) كلمات كانت تتردد على ألسنة الجميع بحماس معدٍ أشبه بالنشوة. سألني الصحفيون أنا ولوسي بعد محاضرة ستيفن العامة: «ما رأيك بتغيُّر الوضع في هذا البلد؟»، فأجبنا: «حقيقة أنك قادر على طرح مثل هذا السؤال هو دليل كاف على ذلك التغير الهائل». حرية التعبير،

والتحرر من الاضطهاد، وحرية التنقل، حريات ثمينة بشكل مذهل للناس الذين كانوا مقيدين ضمن الحدود الرمادية الجافة لدولة الحزب الواحد المظلمة.

كنا أيضًا نتمتع بحرية أكبر مقارنة بالزيارات السابقة لموسكو، فكان بإمكاننا الذهاب حيث أردنا دون أن يصطحبنا أو يتتبع أثرنا أحد، ولم يكن الترفيه المتاح لنا هو فقط الزيارة الإجبارية لمسرح البولشوي، بل كان هناك أيضًا حفلة موسيقية في كنيسة خارج موسكو. استحوذ التأجج الديني على موسكو، ففي كنيسة نوفوديفيتشي - على سبيل المثال- كان الهواء مثقلًا بدخان مئات الشمعات المشتعلة حول المؤمنين الذين كانوا يرتلون ويسجدون وكأنهم يتداركون الوقت الضائع. بالصدفة كنت قد قضيت أشهر الشتاء أتدرب على صلاة الغروب لراتشمانينوف مع الجوقة في روسيا؛ لتأديتها في كنيسة جامعة السيد المسيح في آذار/مارس. وكانت المفاجأة السارة بالنسبة إلي أن الحفلة الموسيقية التي أخذونا إليها ستؤديها مجموعة مماثلة من المغنين الهواة، ولم تكن مصحوبة بضوابط الطقوس الروسية، وكانت تشبه إلى حد كبير صلاة الغروب في جو من الإبداع الواعد في محاولة لإعادة إحياء التراث. بمواجهة خلفية من الأيقونات المطلية بالذهب، استدعت أصوات باسو بروفوندو bassoprofondo المهيبة أصوات روسيا القاتمة، واستدعت ألسنتهم تلك الأصوات لتطلقها في فضاءات الكنيسة العتيقة التي رددت بدورها صداها، فأسرت بتلك النغمات العميقة الحضور جميعهم في جو من البهجة والحبور.

خلال وجودي في موسكو فاتتني في كامبريدج مناسبة ذات أهمية بالغة ليس فقط بالنسبة إلى الأطفال وإليَّ وإلى جوناثان، بل إلى كل رعية القديس مارك، وهي مراسم تقاعد الكاهن بيل لوفليس. كان الاجتماع في فقدان الكاهن المحبوب العزيز على قلوبنا محبطًا للغاية، حيث دخلت الأبرشية في حالة مشابهة لحداد جماعي طال إلى ما بعد رحيله. في الربيع، اغتنمت لوسي الفرصة لحضور سلسلة الصفوف الأخيرة لبيل والتي أدت إلى حصولها على القبول الجامعي، في ذلك الوقت تقريبًا وتكريمًا لتقاعده الوشيك أقامت الجوقة حفلًا موسيقيًّا أُنشدت فيه اثنتان من أغاني شوبرت المفضلة لديه، ومنها أغنية Die Forelle، وبعدها أقمنا حفلة عشاء كبرى لوداعه في ويست رود،

مع ذلك كنت حزينة لأني لم أستطع حضور خطبته الأخيرة يوم الأحد؛ كان لديه مخزون من الحكمة التي لم أنهل منها إلا قطرات، وما زلت أذكر جيدًا كيف أثرت فيَّ إحدى عظاته الأخيرة التي تمحورت حول البحث عن الصفاء الذهني، ففيها وجدتُ كل جوانب افتقاري للسلام الداخلي: همومي، ومخاوفي المتعلقة بستيفن وأولادي ونفسي، وعدم قدرتي على الراحة، والضغوط والمسؤوليات، والخيبات والشكوك. كما أذكر طرحه لفكرة أن المجموعة الأخرى من الاضطرابات العاطفية تقترن بالذهن المشوش ويستدعيها الشعور بالذنب، ذلك الشعور الذي لم أكن غريبة عنه أبدًا، لقد لاحقني تأنيب النفس كظل متوعد، فاستمعت من بيل لوفليس إلى أي شيء يعطيني السكينة، وشعرت بأن كلماته كانت موجهة لي وحدي.

تابع قائلًا: «الشعور بالذنب، هي المجازفة الناتجة عن السعي الدائم للكمال، والحب هو العلاج الوحيد لذلك الشعور، وبالحب وحده يمكننا أن نؤازر بعضنا». قدمت كلماته حلًّا لمأزق الشعور بالذنب الذي كان يأكلني من الداخل. الحب هو بالتأكيد القوة التي تصون أسرتنا، ولذلك كنت صادقة في عهدي؛ كنت أكن الحب للجميع، حبًّا غامرًا أموميًّا للأطفال كلهم، حبًّا لستيفن ومثله لجوناثان.

للحب أوجه عدة؛منه العذري، ومنه الجسدي، وأردت أن أستمر في إثبات حبي لستيفن بفعل كل ما في وسعي لأجله، ولكن يحدث أحيانًا أن يشتبك الحب بفيالق القلق الناتج عن مسؤولية الاعتناء به، وعندها يصبح من الصعب معرفة أين انتهى الهلع وأين بدأ الحب. ستيفن نفسه كان يشعر بالإهانة عند ذكر أي عبارة تعاطف، حيث كان ينظر إليها كأنها شيء نابع من الشفقة والوجدانية الروحانية، ومن ثم كان يرفض تفهمها وقبولها رفضًا تامًّا.

7
التطرّف

بمساعدة بسيطة من شكسبير تمكن ستيفن من وضع عنوان لكتابه، وأُعيدَت صياغة المخطوط الأول وقُدِّم للناشر الذي وافق عليه، وحدَّد موعدًا للنشر في حزيران/ يونيو 1988.

كان من المقرر أن تُنشَر الطبعة الأمريكية الأولى في الربيع قبل الطبعة البريطانية، ولكن كان يجب وقف الطبعة الأمريكية قبل أن تنشر؛ وذلك خوفًا من اتخاذ إجراءات قانونية بسبب طعن النص بنزاهة اثنين من العلماء الأمريكيين، وقد ساعدنا ذلك على تصحيح إغفال طفيف، إذ إنّ ستيفن كان قد أهدى كتابه موجز تاريخ الزمن إلي؛ تعبيرًا عن امتنانه وتقديره لما قدمته له، ولكنَّ هذا الإهداء أُهمِل في الطبعة الأمريكية.

ضاعفت المطابع سرعتها لتتمكن من إنتاج عشرة آلاف نسخة من الطبعة المعدَّلة خلال أيام قليلة، وذلك بعد أن أُلغي الطعن آنف الذكر، وذُكر اسمي في الإهداء، ثم نشر الكتاب في الولايات المتحدة.

بينما كان ستيفن في أمريكا ليشرف على إطلاق الكتاب، ذهبتُ أنا وتيم لزيارة صديقه المقرَّب آرثر ووالديه اللذين يقيمان حاليًّا في ألمانيا. كان الوالدان نادرًا ما يرى أحدهما الآخر ولكنّهما لم يكونا قد اكتسبا أصدقاء مقرَّبين آخرين؛ لذا فقد شعرا بسعادة كبيرة حين التقيا مجددًا وبدآ يتصرفان بوصفهما أخوين كما كانت عادتهما، وكان الثلج قد تساقط في الليل وغطى الغابة؛ لذا فاجأنا والد آرثر بالسؤال عما إذا كنّا نرغب بالذهاب للتزلج، لم يسبق لي التزلج في حياتي، ولم أكن أتوقع فعل ذلك، على الرغم من أن ستيفن كان متزلجًا ماهرًا، وأن لوسي كانت تذهب للتزلج مع صديقاتها. كانت لوسي في تلك الأثناء في جبال الألب، ذهبت هناك لتنال قسطًا من الراحة،

بعد أن انتهت من التدريبات الشاقّة للمسرحية التي ستمثِّلها مع زميلاتها في مسرح الشباب في كامبريدج في نيسان/أبريل قبل المشاركة في مهرجان أدنبرة في الصيف.

قررنا أنا وتيم أن نستغل الفرصة، ونحاول أن نتعلَّم التزلُّج، فتعلَّم تيم بسرعة، وبدأ يتزلج في المنحدرات الخطرة متجاهلًا الأخطار التي يمكن أن تنجم عن السرعة، كنت أشاهده بلا حول ولا قوة، بينما كانت بليندا والدة آرثر تصرخ بيأس طالبة منه أن يبطئ من سرعته.

حين حاولت تعلم التزلج أول مرة أصبت بكسور عدة، وقد جعلني ذلك أخشى الثلج وأكرهه، ومضى وقت طويل قبل أن أدرك أنه يمكن للثلج أن يشكل فراشًا باردًا وثيرًا يمكن للمرء أن يستمتع بالاستلقاء عليه.

استعدتُ بعض شجاعتي المفقودة خلال عطلة نهاية الأسبوع في الغابة، وقد ساعدني قضاء الوقت على قمم التلال العالية، والاستمتاع بالرياح وهي تداعب وجهي، وبمشهد أشعة الشمس المنعكسة على الثلوج البيضاء المتلألئة على نسيان روتين الحلقة المفرغة من الرعاية والمسؤولية، والمشاجرات المتعبة المملَّة مع الممرضات اللواتي جعلن الحياة في بيتنا أشبه بالصراع المحبط الدائم.

يتطلَّب التزلج تركيزًا عقليًّا وجسديًّا كاملًا. كان هدفنا الحالي الوصول إلى أسفل المنحدر، وقد كان السؤال الوحيد الذي يجول في أذهاننا: كيف يمكننا تحقيق ذلك دون أن نصاب بأي أذى؟

بقي ستيفن في أمريكا أكثر من ثلاثة أسابيع، وبعد مدة وجيزة من عودته كان علينا السفر معًا إلى القدس؛ ليتسلَّم جائزة وولف Wolf Prize المرموقة مناصفة مع روجر بينروز Roger Penrose؛ وذلك لتميزه في الفيزياء.

لم تكن مخاوفي من رحلة إسرائيل ناتجة عن عدم رغبتي في ترك العائلة أو التوقف مؤقتًا عن التدريس. على الرغم من تطلعي للقاء هانا سكولنيكوف Hanna Scolnicov، صديقتي من أيام لوسي كافينديش Lucy Cavendish، إلا أنني لم أكن متلهِّفة كثيرًا

لزيارة أقدس وأقدم مدينة في العالم برفقة مجموعة من الفيزيائيين، بل كنت أفضِّل أن أحجَّ إليها مع أُناس يماثلونني بالتفكير، ولكنّي لم أملك أيَّ خيار.

ساد توتر واضح في الجو عندما قال ستيفن إنه إذا لم أرِد الذهاب، فسيكون واثقًا أن إيلين ماسون؛ الممرضة التي رافقته إلى أميركا، ستكون سعيدة بمرافقته بدلًا عني.

كان ستيفن قد استاء من رفضي الذهاب معه إلى أمريكا في آذار/مارس، عندما ذهبنا أنا وتيم إلى التزلج، وباتت خطوط التواصل بيننا هشَّة ومتوترة منذ عودته، وقد قابل اقتراحي له بإقالة بعض المشاغبات من ممرضاته بردٍّ حادٍّ غير قابل للجدال: «أحتاج ممرِّضات جيّدات»، وعندما عرضتُ عليه التعاون سويًّا لكتابة مشروع سيرته الذاتية، هذا المشروع الذي كنت آمل أن يقرِّبنا مجددًا من بعضنا، رفض الأمر قائلًا: «سوف أجد متعة في قراءة رأيك حول حياتنا»، عندها فقط بدأت أدرك ما كانت بعض الممرضات يحاولن قوله لي منذ زمن، وهو أن أحدهم كان يمارس نفوذًا كبيرًا على ستيفن، مستغلًا ما يدور بيننا من خلافات، وما آلت إليه علاقتنا أنا وجوناثان التي كان جليًّا للآخرين أنها قد أصبحت أقوى؛ لذا لم أكن أملك ما أقوله لأدافع عن نفسي فيما يخص هذا الأمر.

قبل مغادرتنا إلى الشرق الأوسط، كان لدي متَّسع من الوقت لمشاهدة أداء لوسي في العرض الحيّ لمسرحية قلب الكلب The Heart of a Dog، المستمدَّة من الرواية التي كانت تشكِّل هجاءً سياسيًّا لاذعًا، كتبه الكاتب الروسي ميخائيل بولغاكوف Mikhail Bulgakov عام 1920، وعبَّر فيها عن مخاوفه من سيطرة طبقة العمال أو البروليتاريا على المجتمع الروسي، وقد عُدَّ وقحًا جدًّا لنشرها في ذلك الوقت، مع أنّها لم تُنشَر أيضًا في الاتحاد السوفياتي حتى عام 1987 وقتَ زيارتنا الأخيرة.

في الأحد التالي، غادرنا إلى إسرائيل بعد أن طلبت إلى والديّ رعاية المنزل.

مضت الرحلة بخير دون حوادث على الرغم من التأخير الذي حصل في مطار هيثرو. كان جوناثان، الذي كان في رحلة مع فرقة كامبريدج باروك، قد أهداني جهاز

استماع Walkman وبعض أشرطة قدّاس لباخ بمناسبة عيد ميلادي، أمضيتُ الوقت وأنا أستمع إليها، وكنت بين الحين والآخر أطلُّ من النافذة وأرقب البحر المتوسط ذا اللون الأزرق الداكن، ومع حلول الليل وتحول السماء والبحر إلى اللون الأسود كانت أشرطة أضواء النيون تظهر بصورة واضحة على الشريط الساحلي، وعندها أخبرونا بضرورة وضع أحزمة الأمان استعدادًا للهبوط في تل أبيب. بدأت الطائرة هبوطها، فبدأت أشاهد عن قرب إضاءة المباني والمدرجات.

سمعت أصوات قعقعة عجلات الطائرة تنخفض بانتظار اصطدامها بالأرض، ولكنَّ الاصطدام لم يأتِ، بل على العكس عاودت الطائرة طريقها إلى السماء المظلمة، أدهشني وقتَها أني لم أكن خائفة بل مفتونة.

لم يكن هناك أي تصريح، ساد الصمت غرفة القيادة، ولكني أحسستُ أن السؤال نفسه يدور في أذهان المسافرين جميعهم: هل اختطِفنا؟ وهل نحن متجهون إلى لبنان؟

بعد عشر دقائق جاء صوت الطيّار بوساطة مذياع الطائرة شارحًا، لم نتمكّن من الهبوط في تل أبيب بسبب الضباب المفاجئ، وتم التحوّل إلى المدرج الآخر الوحيد المتاح للهبوط في القاعدة العسكرية الجويّة في صحراء النقب، بمحاذاة الشريط الضيِّق للبحر الأحمر بين مصر والأردن. هبطت الطائرة في الليل في الصحراء بصعوبة وانحدار شديدين على المدرج القصير غير المهيأ لاستقبال طائرة من نوع 747.

في هذا الوقت كان الضباب قد انقشع عن تل أبيب، إلا أنه كان علينا أيضًا انتظار مجيء طاقم آخر من هناك لاصطحابنا؛ وذلك لأنّ مدة خدمة الطاقم الحالي كانت قد انتهت. وضعتُ عصابة العينين وغرقتُ في النوم، وفي الصباح التالي أيقظني نيك فيليبس Nick Phillips مساعد ستيفن، نزعتُ عصابة العينين ونظرتُ حولي إلى الأراضي المقدسة ذات المناظر الخلابة؛ لن أنسى ذلك المشهد الخلاب الذي يعكس سلامًا أبديًّا؛ مشهد الكثبان الرملية الذهبية القاحلة، والتلال الأرجوانية وقد بدأت أشعة الفجر الوردية تطبع قبلتها الأولى على سفوحها.

كان هدف الزيارة الرسمي تقديم جائزة وولف في الكنيست، وقد بدأت المراسم بحضور كلّ من الرئيس الإسرائيلي الليبرالي حاييم هيرتسوغ ورئيس الوزراء اليميني المتشدِّد إسحاق شامير، الممثِّلين للطيفين السياسيين في البلاد التي يعيش فيها الاعتدال والتطرف على حدٍّ سواء.

بعد انتهاء الاحتفال كان ستيفن وروجر بينروز منشغلين جدًّا بالمؤتمرات والمحاضرات والنقاشات العلمية مع زملائهم الإسرائيليين، فيما تُركتُ للتجول والاستكشاف في القدس مع تحذيري بكل الوسائل: «اذهبي إلى القسم اليهودي من المدينة القديمة، ولا تذهبي إلى القسم العربي منها حيث إن الوضع هناك خطير للغاية بسبب الانتفاضة»، ولكن مع نفاد صبري تجاه الاحتفالات الرسميّة، تجاهلتُ هذه التحذيرات، وفرحتُ عندما وجدتُ أن الفندق حديث البناء، كان على بعد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام عن باب الخليل في المدينة القديمة. جذبتني تلك الجدران الرمادية على التلِّ المقابل، والتي كانت تشبه بقوتها ومناعتها قصر الحمراء في غرناطة.

اضطررتُ إلى التوقُّف بسبب الجموع الكبيرة الهائجة من كلِّ الألوان، وقد تدفقت من بوابة برج داوود، نظرتُ حولي وأنا أتساءل: أين يجب أن أذهب؟ إلى اليمين أم اليسار؟ فكرتُ أن أترك نفسي أنخرط مع الحشود الكبيرة باتجاه الطريق الضيق إلى يساري، ولكن دارت في عقلي التحذيرات الكثيرة للبقاء خارج الحي العربي، فتوجَّهتُ مباشرة إلى اليمين، تجاوزتُ الكنيسة الإنجليكية ذات الأحجار الرمادية إلى الشارع المحاذي لأسوار المدينة، ولكنَّه لخيبة أملي كان مملًّا وهادئًا جدًّا.

لم يسترعِ اهتمامي سوى بعض أصوات الدق من الورشات القريبة المتباعدة، وبعض الأشخاص المسرعين المتَّجهين لأعمالهم اليومية، إلى جانب صوت بيانو لطيف قادم من نافذة علوية، كان ممتعًا ولكنه غير ملفت للنظر. اجتهدتُ بالسير ووصلتُ إلى مناطق السكن الحديثة التي خيَّبت آمالي أكثر.

أودى بي الطريق الممتدُّ بين البيوت الحديثة المنتشرة على جهة اليسار إلى درج مرتفع شديد الانحدار، يؤدي إلى ساحة صغيرة مربَّعة محاطة بالأشجار، حيث توقفتُ قليلًا للشرب قبل المتابعة نزولًا عبر الطريق الطويل، في الأسفل كانت هناك فسحة واسعة رحبة مغلقة من الجانب الآخر بجدار مرتفع من الأحجار الطرية الجافة، أيضًا كان يوجد رجال عدّة يرتدون ملابس سوداء يصلُّون ويقبِّلون الجدار، ومقابله كان يوجد أشخاص يحتفلون بالزفاف، ويلتقطون الصور الفوتوغرافية. هنا كنتُ قد وصلتُ إلى حائط المبكى، تمشَّيتُ قليلًا على مهل أشاهد الحشود، بعضهم بدا متديّنًا وجديًّا، وبعضهم الآخر كان يضحك ويتحادث.

في أحد جوانب الفسحة كان يوجد نفق تحت مجموعة من الأبنية يحرسه بعض الجنود. كان الناس يتنقَّلون من خلاله بحريّة تامة، لذلك انضممت إليهم، اكتشفت عندها من خلال اجتيازي للنفق -ومن دون مساعدة العمليات الحسابيّة المعقدة- أنّ السفر عبر الزمن يمكن أن يكون حقيقيًّا من النواحي العمليّة والسياسيّة، حيث يفصل هذا النفق بين الأحياء اليهودية والأحياء العربية في المدينة القديمة.

تاريخيًّا، يقسم النفق القسم المدني الحديث عن الماضي القديم الذي يتمازج مع أصوات وألوان وتقاليد العصور التوراتية القديمة.

بَدا السيّاح في المدينة كزائرين من كوكب آخر، اختلطوا بالسكّان المحليين، الذين كانوا بأطفالهم وحميرهم المنتشرة، يعيشون حياتهم اليوميّة وكأن القرن العشرين لم يأتِ بعد.

مشيتُ وحيدةً وأنا أتوقف بين الحين والآخر بجانب بعض السياح، استمعتُ إلى شرح الدّليل السياحي لكلّ موقع، كما رافقتُهم أيضًا في بعض صلواتهم.

كانت تجربة غريبة أن أكون وحدي فجأة، حرّة تمامًا في استكشافاتي وأحكامي الخاصة. بدأت أرتعش، إذ شعرت بأن جوًّا من الكآبة والخداع يحيط بكنيسة القيامة، وتلك الطوائف المختلفة وطوابير السيّاح التي كانت تقف منتظرة دورها في دخول

الحرم الداخلي، لم أستطع الانتظار، كنت أتوق للتخلص من هذا الجو الغريب والعودة إلى الاستمتاع بضوء النهار.

كان المنظر من أعلى البرج يستحق تلك المعاناة حقًّا، فقد ظهر صورة بانورامية للأسطح البيضاء المدهشة، تمامًا مثل منظر الأسطح الحمراء في فينيسيا من أعلى برج الأجراس. في الأسفل كان هناك دجاجات وديكة تصيح، وحمار ينهق.

تردّدتُ كثيرًا وأنا أجرُّ نفسي بعيدًا عن كنيسة سانت آن، القريبة من الحفريّات في بركة بيت حسدا، على بعد مئات الأمتار فقط من بوّابة الأسد ومناظرها المطلّة على جبل الزيتون. كانت كنيسة سانت آن ضخمة ومقبّبة، ومضاءة ورحبة، ولكنها مهجورة لأنني عندما قرقعت أصابعي -وهي خدعة علّمني إياها جوناثان لاختبار الصدى في مبنى ما- فوجئتُ أن الصّدى في الكنيسة كان تردّده أكثر منه في معبد الملك.

شجّعني الصّمت في الكنيسة الفارغة على دندنة بعض المقاطع من ترنيمة المساء لبروسيل (الآن، الآن وقد حجبَتْ الشمس نورها وتتمنّى للعالم ليلة سعيدة...)، استمعتُ وقد أصابني الذهول وأنا أسمع صدى صوتي وكأن الأعمدة تحمله وتحلّق به إلى القبّة، هناك حيث اكتسبت الأغنية حياتها الخاصة، وهامَت بنشوة قبل الهبوط ثانية إلى الأرض هامسة.

ظهر حارس الكنيسة العربي اللطيف من الباب الجانبي، قائلًا إنّه يحبُّ أن يستمع إلى الحجاج القادمين للغناء في كنيسته. على ما يبدو كنت محظوظة بفعل ذلك وحدي، فعادةً تصطفُّ الجوقات بانتظار دورها، ثمّ دعاني للعودة إلى هناك كلّما أحببت ذلك.

لم أشعر في القسم العربي من المدينة بالرعب؛ لذلك جئت في اليوم التالي إلى قبة الصّخرة، المكان المقدّس المذهل للمسلمين، ذلك المكان الذي أعدَّ فيه إبراهيم ابنه

إسحاق[1] للتضحية. كان المدخل مغلقًا وتحت حراسة الجنود الإسرائيليين، وسيظلُّ مغلقًا في المستقبل المنظور إلا عن المصلّين.

عدتُ أدراجي وقد أُصبت بخيبة أمل، ووصلت إلى الطريق المؤدي إلى البازار العربي الذي يعرض تشكيلة واسعة من البضائع السياحيّة: الزجاج الأزرق من بيت لحم، وقطع الفخار والجلديّات. تجوَّلتُ بين الأكشاك القديمة التي تعرض قطعًا من الزجاج الروماني، والنحاسيّات والقطع النقديّة، بينما كانت أكشاك الطعام تفيض بالأطباق الشهيّة جميعها من شرق البحر المتوسط، مثل المكسّرات والزيتون، والأطايب التركيّة والحلاوة الطحينيّة، مع تشكيلة واسعة من الفاكهة والخضراوات. كان العرب هنا مثل البائعين الذين قابلتهم في طنجة منذ خمسة وعشرين عامًا، مهذَّبين ولطفاء.

بعد المساومة على خرزة زجاجية رومانية جميلة في أحد الأكشاك القديمة، وعلى حجر ملكيت وعقد من الفضة مقابل سعر تافه رخيص جدًّا، جاء مالك الكشك للتحدث معي دون أن يحاول الضغط عليَّ للشراء، تحدَّث الإنكليزية بشكل جيّد، كان على وشك أن يخبرني عن قريبه في منطقة ميدلسكس في إنجلترا عندما نظر نظرة خاطفة إلى الشارع، ودفعني بقوّة إلى داخل المتجر، ثم وضع يديه على خصره أمام الباب، كان ذعره المفاجئ غير مفهوم.

كانت وحدة عسكرية من الجنود الإسرائيليين تأخذ طريقها بصخب وقوّة عبر الزقاق، لم يظهر عليهم احترام أي ممتلكات خاصة أو عربات أو أكشاك، وكان رد الفعل التي أظهره صاحب المتجر وجيرانه تؤكد على أن أولئك لصوص نشل. بعدما اختفت ضجَّة مرورهم وأصوات أحذيتهم على الرصيف وصوت صراخهم، جاء صاحب المتجر متنهِّدًا، واعتذر لي عن دفعي بالقوة إلى المتجر قائلًا ببساطة: «كما ترين، علينا أن نكون حذرين جدًّا».

(1) وفق المعتقد المسيحي فقد طلب الله من النبي إبراهيم التضحية بابنه إسحاق، وليس إسماعيل كما في المعتقدات الإسلامية. (المترجم).

اشتريت العقد، ولوحة فاخرة مزينة وملوَّنة يدويًّا ثم ودَّعته على أمل العودة.

عدتُ إليه بالفعل في اليوم الأخير لأجد أن كلّ شيء كان مغلقًا، المتاجر مقفلة، والشوارع مهجورة إلا من القطط الضالّة، واختفت كل مظاهر الحياة والصّخب والألوان التاريخية القديمة.

كلّ مكان، كلّ شارع، كلّ زاوية، كلّ ساحة، كلّها كانت مظلمة، غريبة ومرعبة، وكأنّها مدينة أشباح أغلقت أبوابها أمام الزائرين.

على الرغم من تعاطفي مع العرب، شعرتُ بالانجذاب نحو الشعب اليهودي، العديد من أصدقائنا هم من اليهود، كانوا أذكياء للغاية، لبقين وحسّاسين، فالعديد من عائلاتهم دُمِّرَت بسبب المحرقة.

ولكن بكلّ الأحوال لم أستطع التعاطف مع الممارسات الوحشيّة للجيش الإسرائيلي، التي شهدتها بنفسي في الأحياء العربية في القدس.

على الأقلّ لم أستطع التعاطف مع السائق المقرف الذي خُصِّص لنا، والذي كان يهوديًّا أمريكيًّا من أصول أوروبيّة، فراح يبدي رأيه بصورة واضحة وفظّة أينما ذهبنا.

بينما كان يقود السيّارة على الطريق المتعرِّج نحو البحر الميّت أشار إلى صفٍّ من المنازل البيضاء أعلى التلال، وقال بفخر: «انظروا هناك، هذه واحدة من مستوطناتنا، لقد بنينا هذه المنازل كلها، لقد امتلك العرب هذه الأراضي لألفي سنة ولم يفعلوا شيئًا بها، لقد أخذوا فرصتهم وقد حان دورنا الآن. يريدون أن يدفعوا بنا إلى البحر».

كنت قد سمعتُ سابقًا مثل هذه الحجج المضنية بذات النَفَس المتأمرك من قِبَل بعض المهاجرين. وصلنا أسفل الطريق إلى خيمة بدويّة، احتجَّ السائق قائلًا: «ماذا بإمكانك أن تفعلي مع ناس كهؤلاء؟ انظري إليهم، لم يستطيعوا التطوّر خلال ألفي سنة»، لم أتمكن من إخفاء سخطي فأجبته بحزم: «ربّما كانوا يحبُّون أسلوب حياتهم التقليدي».

أحزنني أن السلام كان بعيد المنال بين شعبين من الأصول العرقية نفسها، ويمكنهم أن يقدِّموا الكثير لبعضهما، فقد كان أفضل اليهود وأفضل العرب يتمتَّعون بالكثير من القواسم المشتركة، كانوا أذكياء، وكرماء، وودودين، وظرفاء.

ربّما كان اليهود متفوقين على العرب في النقاشات العقلانية في مجال العلوم والتكنولوجيا والرياضيات، ولكن العرب لديهم مهارات فائقة في الإمكانات الشعريّة والفنيّة. وبين الاثنين توجد مفاتيح الحضارة الأكثر نجاحًا وعطاءً في العالم على الإطلاق.

كان هناك العديد من البعثات العلميّة التي لا مفرَّ منها، ولاحقت كاميرات التلفاز والصحفيين ستيفن في لقاءاته جميعها، متلهفين لسماع آرائه حول العديد من الأسئلة.

سؤال واحد تكرَّر في كل مقابلة، كنتُ أشاهد وأسمع من المقاعد الجانبية، وقلبي يضعف أكثر كلّما سمعته يتكرَّر مرة تلو الأخرى بشكل أو بآخر.

كان روجر أكثر لباقة، ومع ذلك لم تبدِّد إجابات روجر حزني، فحياتي مع ستيفن نشأت على الإيمان، الإيمان بشجاعته وعبقريّته، الإيمان بجهودنا المشتركة، والأساس هو الإيمان الديني.

جلستُ صامتة بائسة في مؤخرة الشاحنة حيث طاف بنا السائق في الأماكن المقدَّسة كلها في العهد القديم والجديد، المغارة المظلمة في بيت لحم، والحجارة المبيضة في برج أريحا، والجبال الجافة في الصحراء، ونهر الأردن، وبحيرة طبريّا. تأملتُ بصمت وأنا في زاوية الشاحنة المسرعة، هذه الأرض المأساوية التي تولِّد ذلك الصّراع كله. بمقابل هذه المناظر الطبيعية الغامضة كلها كان مشهد الصراع الأحمق متفشيًا جدًّا، حتى إنني كنت وستيفن تحت خطر الانصياع له؛ إذ أصبح من النادر أن نتفق على أمر ما.

حين أنهى ستيفن غداءه في مطعم بجوار بحيرة طبريّا، سبحتُ وحدي في مياه البحيرة الفيروزية، شعرتُ لبضع دقائق أني أعيش في سلام وانسجام مع هذه الأرض وتاريخها.

إنّ الخوف من اندلاع الحرب في مرتفعات الجولان حافظ على الجليل من تدمير السياحة فيها، وكانت النتيجة أنّ القليل قد تحقّق خلال ألفي سنة.

كانت طبريّا عام 1988 أقل من منتجع بالنسبة إلى ما كانت عليه في العصر الروماني، ولكن البحيرة بقيت هادئة وعلى حالها كالبحيرة الأسكتلندية، ومع أنها ليست بالحرارة نفسها، إلا أن بحيرة طبريّا كانت تظهر من كنيسة العظة على الجبل مثل بحيرة لوموند في أسكتلندا.

في اليوم الأخير، وبتشجيع مني وبدعم من مرافقي ستيفن سبحنا جميعًا في البحر الميّت، استلقى ستيفن على ظهره إذ إنّ شدة الملوحة ساعدته على أن يطفو على سطح الماء، وبذلك تمكن من استرجاع اتصاله مع الطبيعة حوله مدة وجيزة. كان قد ابتعد عن تلك الطبيعة طويلًا على عكس حاله مع نظريّاته التي كان على تواصل دائم معها.

ساد الصمت كلّ مكان حولنا، بينما كانت الجبال الورديّة الضبابيّة في الأردن الشاهد الوحيد على قيام ستيفن بالسباحة، إضافة إلى السماء الزرقاء وبعض الطيور الجارحة. كان من المستحيل أن يغرق أو حتى أن يسبح، أما محاولتي في السباحة على الصدر فقد باءت بالفشل، رحتُ أتخبَّط وأرشُّ المياه في كل مكان، وامتلأ أنفي برذاذ الملح اللاذع. كان عليَّ أن أترك السباحة للمسبح على سطح الفندق، حيث كنت أسبح أشواطًا عدّة في المساء بعد كل رحلة في الأيام الحارة المغبرَّة.

لم يعكر صفو الاستمتاع بالسباحة ومشاهدة مدينة القدس الممتدة أسفل تلك السفوح سوى وجود طفل مزعج مليء بالبقع في المسبح، كان مصابًا بجدري الماء. ولكني كنتُ واثقة من خلال تجربتي كطالبة في إسبانيا أنني محميّة تمامًا بالمضادات الحيويّة ضدَّ هذا الفايروس.

8
الملكة الحمراء

لم تكن رحلتنا إلى الشرق الأوسط سوى تحضير للصيف القادم وما سيحمله من أحداث، وبالرغم من أنه لم يكن هناك أيُّ مهرب من مشاحنات الممرضات المزعجة، فقد انتقلت بؤرة الخلافات إلى القسم الذي كان ستيفن يقضي معظم يومه فيه. كتب لي المساعد الشاب نيك فيليبس معتذرًا ومقدِّمًا استقالته، في خطوة فُرضَت عليه بعد أن كان هدفًا للسخريّة والنقد اللاذع من إحدى الممرضات، وقد استخدم مصطلح (الانتقاد) أو (الذمّ) في مذكَّرته، ومع أني تعاطفتُ معه لكني لم أملك الكثير لمساعدته، فقد كانت الممرضات هنَّ القانون بنفسه دون وجود أي تأثير لي أو لجودي فيلا.

بكل الأحوال فإن ما يجري في القسم كان خارجًا عن متناول يدي، فانصبَّ اهتمامي على محاولة الحفاظ على الجوّ الحضاري في المنزل.

مع بداية امتحانات المرحلة الأولى وانتهاء ارتباطاتي التعليمية لهذه السّنة، صببتُ كامل اهتمامي على التخطيط لحفلة عيد ميلاد روبرت الواحد والعشرين، كنا قد احتفلنا في يوم ميلاده الفعليّ وتناولنا معًا عشاءً فخمًا في المنزل، ولكنَّه خطَّط لإقامة حفلة مسائية أخرى بعد أسبوع في الحديقة بصحبة فرقة موسيقية، مستعيدًا بذلك ذكرى حفلة عيد ميلاده الثامن عشر، كان من المقرَّر أن الحفلة لموسيقى الجاز، ولكن روبرت أرسل دعوات تذكر أن تلك كانت حفلة تنكرية.

بعد ثلاثة أسابيع من عودتنا من القدس، وفي خضمِّ التحضيرات للحفلة، استيقظتُ في أحد الصباحات وأنا أعاني صداعًا رهيبًا، وحكَّة وبقعًا حول خصري، لم أشعر بصداع مماثل إلا ذلك الذي صاحب إصابتي بالجدري حين كنت طالبة في إسبانيا. أخذت لوسي شقيقها الأصغر إلى المدرسة بينما عدتُ إلى السرير.

لم أرَ أحدًا وقتها حتى أتت إيف كالعادة في العاشرة صباحًا، كان صوتها مسموعًا بوضوح خارج غرفتي وهي تسأل بلكنة برمنغهام: «أين جين؟»، جاء ردُّ إيلين ماسون العاجل بوتيرة فاترة: «أوه، يا للخجل، إنها مستلقية في السرير». لم تعلِّق إيف ولكنَّها جاءت مباشرة إلى غرفتي، نظرة واحدة إليَّ كانت كافية لتصرخ بصوتٍ عالٍ مسموع للجميع: «أنتِ بحاجة إلى طبيب».

شخَّص الطبيب إصابتي بداء القوباء، الفيروس النشيط لمرض الجدري الذي تفاقمَ بسبب الإجهاد، وطلب إليَّ ملازمة السرير ووصف لي دواءً جديدًا لإزالة الحكَّة. تذكَّرتُ بأسى الطفل المليء بالبقع في مسبح السطح في القدس وأنا أتساءل: «كيف يمكنني ملازمة السرير بينما تنتظرني قائمة طويلة من الأشياء الواجب فعلها؟».

تمكَّنتُ من نيل قسط من الراحة بمساعدة إيف التي كانت تعاني كسرًا في ذراعها، ولوسي وجوناثان، كان جوناثان يحضر لي الأغراض التي أحتاجها ويقلُّ تيم بين المدرسة ومخيَّم اليافعين في الوقت الذي كان يحضِّر فيه ويتدرب لجولة حفلاته الموسيقيّة القادمة، بينما أوقفت لوسي أنشطتها الاجتماعية المعتادة لتحضر لي الشاي وتطبخ الطعام، وتمنع عني الضيوف غير المرغوب فيهم.

لحسن الحظ لم يعد جوناثان يعتمد على خدماتي في إدارة أوركسترا الباروك، وذلك منذ أن أسَّس مشروعه على أسس مالية متينة، فأصبح قادرًا على توظيف إداري يهتمُّ بتفاصيل كل حفلة. كان جوناثان بعيدًا عن كامبريدج معظم الوقت بعد أن نجحت فرقته الموسيقية، وزادت أهميتها وبدأت تحيي الحفلات بشكل دائم حتى في الأماكن النائية، لقد عمل بشكل مجهد في التدريبات وإحياء الحفلات، حتى إنه غالبًا ما كان يعود من مكان الحفلات في ساعات الصباح الأولى.

كان برنامجه غير المنظَّم نموذجًا لحياة الموسيقي الجوّال، ولكنَّه أيضًا لم يكن مفهومًا أو مقبولًا للممرِّضات، فتوافره في المنزل دون أن يشاهدوا أو يقدِّروا موهبته أعطى انطباعًا أنه شخص متكاسل، متسكِّع ومتواكل على سخاء ستيفن في عمله، ولذلك فقد أثار وجوده الكثير من الهمس.

في غضون ذلك كانت لوسي تحاول أن تؤدي العديد من المهمات في الوقت ذاته، فقد كانت منشغلة بالتحضير لامتحاناتها الصيفية من جهة والعناية بحياتها الاجتماعيّة وتدريباتها لمهرجان أدنبرة من جهة أخرى، ولأني كنت أتماثل للشفاء بشكل بطيء فقد وجدت نفسها مجبرة على القيام بأعمال أخرى؛ فقد كان من المفروض أن أرافق ستيفن في رحلته إلى لينينغراد لحضور مؤتمر علمي في الأسبوع الثالث من حزيران/يونيو، ولكني لم أكن قد شفيتُ تمامًا لأتمكن من مرافقته كما كان واضحًا للجميع عدا ستيفن وأتباعه المخرِّبين، فمع بذله مجهودًا خارقًا لتذليل العقبات كلها، كان من الصعب عليه أن يفهم لمَ لا يقدر الآخرون -وفي مقدِّمتهم زوجته- على القيام بالمثل أو التحلِّي بقوَّة الإرادة، خصوصًا أن الأمراض كلَّها تبدو تافهة أمام مرضه. كان من الواضح أنني لم أعد قادرة على الارتقاء لمستوى تطلُّعاته، فوجدتُ نفسي أبدأ كل حديث معه باعتذار أخرق، وقد جعلتني كل محاولة للاعتذار أدرك أكثر عدم كفاءتي. تنامى بعدها إحساسي المتزايد بالعجز ما أدى إلى تزايد القوباء بشدَّة، ازداد الدوار وألم الأعصاب بشكل كبير؛ كانت أعصابي ترتعش وكأنَّ آلاف النحلات تلسعني في كل طرف من أصابعي، وقد حاولتُ أن ألهي نفسي عن شعور الألم ذاك وأشغل بالي بأي أمر عائلي مهما كان تافهًا ولكني لم أنجح في ذلك.

كان الحدث الوحيد الذي لا يمكنني تفويته هو إطلاق كتاب موجز تاريخ الزمن A Brief History of Time المقرَّر في 16 حزيران/يونيو، بعد أسبوع واحد من إصابتي بالقوباء. فقد كان الكتاب تعبيرًا حقيقيًّا عن انتصار ستيفن على قوى الطبيعة، قوى المرض، الشلل وحتى الموت بحدِّ ذاته. كان أيضًا انتصارًا وإنجازًا يشمل كلينا، حافلًا بذكريات نضالنا العنيف وانتصاراتنا في سنوات زواجنا الأولى. مع ذلك لم يكن هذا الانتصار شأنًا خاصًّا فقط بل حدثًا عامًّا أيضًا شهد تغطية إعلاميّة كثيفة.

لم أشارك في أي محادثة في تلك المأدبة، إذ شعرت بتعب شديد، ولم أقدر على الإجابة عن أسئلة الصحفيين بسهولة وثقة.

في اليوم التالي لإطلاق الكتاب نهضت من فراش المرض، ارتديت فستانًا أحمر مبتذلًا وتاجًا من الورق الأحمر، ووضعتُ لمسات من الأحمر الصارخ على وجنتَيّ

فظهرتُ في حفلة روبرت كالملكة الحمراء، لقد جعلتُ من نفسي نكتةً يرثى لها، ممثِّلة دور الملكة الحمراء التي تجتهد دائمًا للبقاء في المكانة نفسها، وعدت بعد ذلك أتابع رحلة الكفاح والنضال، أغالب التعب والإرهاق، وأحاول القيام بواجباتي على أكمل وجه سواء في المنزل أو في المدرسة، خاصة وأنّ السنة الدراسية كانت قد شارفت على الانتهاء.

لم أكن أملك الطاقة أو الرغبة في الدخول مجددًا في المشاحنات المتأججة بين الممرضات، والتي زادت حقدًا وقوة حين شهد أولئك النجاح الكبير الذي حققه كتاب موجز تاريخ الزمن؛ إذ إنّه انضم إلى قائمة الكتب الأفضل مبيعًا في العالم، ولذلك فقد بقيتُ أعاملهن بالازدراء الذي يناسبهن طالما أن شجاراتهنّ لا تؤثر في التوازن في المنزل. لقد كنت ولمدة وجيزة على استعداد لمساعدتهن نظريًّا، ولكنَّ خلافاتهن باتت تمتدُّ مطوّلًا بوساطة الهاتف، متجاهلات حقيقة أني أملك أشياء أهم للقيام بها، وكنَّ يشعرن بإهانة شديدة حين أنهي المكالمة دون الاستماع إليهنّ.

في النهاية، وجدتُ نفسي مجبرةً على استدعاء إحدى الممرضات للنقاش، وتلك كانت إيلين ماسون التي بدا أن تصرُّفاتها هي السبب الأساسي للمشكلات، عزمتُ على إخبارها أني لم أعد أستطيع البقاء ساكنة مكتوفة الأيدي وأنا أرى انهيار مناوبات التمريض وتمزُّق بيتي وعائلتي، وأنّ ما يجري من أحداث سوف يودي بي إلى التهلكة قريبًا، ولكنها نفَتْ بثقة متعجرفة ما تحمله من نيات خبيثة مستدعيةً زوجها ليشهد على شخصيّتها التقيّة، قبل أن تغادر المنزل مرفوعة الرأس وتتركني أغرق في قعر هذا اليأس المحيط بي.

في خضم تلك المشكلات المحيطة بنا، بدَتْ اتصالات المتطفلين الذي كانوا غالبًا ما يتصلون بنا من أمريكا دون أي مراعاة لفارق التوقيت أمرًا مسليًا ومضحكًا.

كانوا يطلبون بإلحاح التحدُّث حالًا مع (البروفيسور)، إذ إنّهم قد تمكنوا من حل لغز الكون؛ لذا فإنهم لا يطيقون صبرًا لإخباره أن حساباته غير صحيحة، وأتذكر

منهم السيّد جاستين كيس Mr Justin Case الذي كان في حالة تنافس مستمر مع السيّد إسحق نيوتن الذي كان غالبًا ما يتصل بنا من اليابان.

تلقَّت لوسي أيضًا اتصالًا من أحد الرجال الذي طلب إليها الزواج متوسِّلًا إليها: «لوسي الجميلة، هل تتزوجيني؟ ولكن اقرئي أطروحتي لوالدك أولًا».

متَّصل بائس آخر من فلوريدا أصرَّ على التحدُّث مع ستيفن؛ لأنه كان على يقين أنّ العالم على وشك الانفجار خلال نصف ساعة، أجبنا: «عذرًا، إنه في الخارج»، فجاء ردُّه يائسًا: «حسنًا إذًا، إنّها نهاية العالم وأنا لا أستطيع القيام بشيء للحفاظ عليه». كان بعض الدخلاء يحضرون إلى المنزل وينتظرون ستيفن أمام الباب، ولكنَّ ذلك لم يكن في صالحهم؛ فعلى سبيل المثال، كان واحد منهم يقف أمام الباب الأمامي حين دفع أحدهم الباب فجأة ليساعد ستيفن على صعود عربته، فدفع معه ذاك الرجل الذي وجد نفسه ملقى بين الشجيرات، وبذلك تمكن ستيفن من النجاة منه.

لم تتوقف قائمة المتطفلين عند هذا الحد؛ فقد أرادت إحدى نجمات هوليوود اختبار نظريتها الغامضة غير المكتملة عن الكون، ووعدنا بعض الصحفيّين المحتالين بمنح عائدات مقابلاتنا للجمعيات الخيريّة، ولكنَّهم لم يفعلوا ذلك، وحاول بعض كُتّاب السيرة الذاتية المبتدئين كسب المال عن طريقنا.

كنتُ أتطلَّع بفارغ الصبر إلى العطلة الصيفية، حيث يمكننا أخذ قسط من الراحة بعيدًا في جنيف، فأيُّ مكان سيكون أفضل من كامبريدج.

تمكنا أنا وستيفن على الرغم من تلك المشكلات كلّها، من وضع خطط وأفكار حول كيفيّة إنفاق أموال جائزة وولف. كما أنّ المبالغ المستحقّة من كتاب موجز تاريخ الزمن مع المبالغ التي ادَّخرتُها خلال سنوات كانت كافية لنفكِّر بشراء منزل آخر. كان ستيفن يفضِّل شراء شقَّة في كامبريدج، بينما كنتُ أحلم بامتلاك فيلا ريفية في مكانٍ ما، بعيدًا عن كلّ هذا الصخب والتوتر والانتهاك المتواصل لخصوصيّتنا. فكَّرت أنّ منزلًا ريفيًّا في الساحل الشمالي لنورفولك سيكون مثاليًّا، ولكنَّ ذلك كان

خارج إمكاناتنا. كان أيُّ منزل في الريف سيمنحنا السلام الذي نتوق إليه، وأيضًا كان سيمنح ستيفن والأولاد الوقت والراحة اللازمين للتفكير ومراجعة الامتحانات، أما أنا فسأكون سيدة مملكتي الخاصة في المنزل والحديقة.

كنا أنا وتيم وجوناثان نتمشى في الشمال الفرنسي، في الطريق جنوبًا لملاقاة ستيفن في جنيف في آب/أغسطس، وقد بدأت فكرة امتلاك منزل في فرنسا تراودني، ووجدت أن تطبيقها قد يكون أمرًا ممكنًا، حتى قابلنا رجلًا إنجليزيًّا غريب الأطوار، يتكلَّم الفرنسيّة بلكنة إنكليزية، ويعمل في مجال الأعمال التجارية، وترميم الممتلكات الفرنسيّة وبيعها للبريطانيين بأسعار رخيصة جدًّا مقارنةً بتلك الموجودة في الوطن.

كان يستعرض خططه في مطعم جانبي أمام جمهور من الفرنسيين الحائرين والمتفرِّجين البريطانيين المفتونين، فبدأت فكرة امتلاك منزل في فرنسا تستحوذ على تفكيري أكثر وأكثر. وجدت أن ذلك سوف يمنحنا ميزات عدة؛ سوف نستمتع بالسلام الذي يمنحه السكن في الريف، وسنكون في الوقت نفسه مواطنين أوروبيين، وسوف نتعلم لغة جديدة.

مع الهرج والمرج الذي يرافق بداية السنة الدراسية أبعدتُ هذه الفكرة عن رأسي بعد عودتنا إلى إنجلترا، وتحولت إلى مجرَّد أحلام. قضينا وقتًا رائعًا مع ستيفن ولم تحدث أي مشكلات تذكر طوال تلك المدة، وعاد الوئام والسلام يسود حياتنا؛ لذا اتجهنا أنا وجوناثان وتيم إلى جنوب فرنسا من أجل التخييم لمدة عشرة أيام، ثم عدنا إلى كامبريدج ممتلئين نشاطًا وقوة، وأصبحنا أكثر استعدادًا لتولّي زمام الأمور، ولم نكن نعلم أن هناك أيام سوداء في انتظارنا.

أولًا: وقبل كلّ شيء، كان يجب أن يُسحَب طلب لوسي بسرعة من جامعة أوكسفورد، جامعة أبيها وجدِّها، ليقدم في وقت لاحق؛ وذلك لأن النجاح غير المتوقَّع لزيارة مسرح الشباب في كامبريدج إلى أدنبرة جعل من المستحيل بالنسبة إليها التقدم للامتحانات، وكان عليها الاعتماد على المقابلات الشفهية ونتائج اختبارات المرحلة الأولى عوضًا عن ذلك.

ثانيًا: كانت المستأجرة المقيمة في منزل روبرت وجدَّته تهدِّد باتخاذ إجراءات قانونية؛ لأنه وفي أثناء غيابي في فرنسا فكر ستيفن أن يحلَّ المشكلة المتفاقمة من خلال الطلب إليها الرحيل عن المنزل. ثالثًا: كان مدير فرقة كامبريدج لموسيقى الباروك يرى أن العمل يتطلب جهدًا كبيرًا ولذلك فقد طالب بزيادة في الراتب.

رابعًا: كان القسم يتحول إلى مكان لحياكة المؤامرات، ما جعل جودي غير قادرة على القيام بعملها بسبب عدم الانضباط بين الممرضات، وهذا ما دفعها إلى تقديم استقالتها. كان هذا حدثًا مؤلمًا لنا نحن الذين شهدنا إخلاصها وحبَّها الشديد لستيفن على مدى خمسة عشر عامًا.

كنت أخشى أن الخلافات المتأججة في القسم قد تصل إلى المنزل وتبتلعه في أسوأ وقت ممكن، حيث كانت لوسي تعاني ضغطًا هائلًا، إذ كانت تحضِّر لامتحانات المستوى الأول، وتستعد لدخول أوكسفورد، وفي الوقت نفسه كانت تتدرب لتقديم عرض آخر لمسرحية قلب الكلب؛ لأن أداء المسرح الشبابي لكامبريدج في أدنبرة كان قد منحهم واحدة من أكبر الجوائز في المهرجان، وجائزة أخرى لأفضل أداء، ما خوَّلهم القيام بجولة أخرى لأسبوعين في مسارح لندن.

لسوء الحظ جاء توقيت العروض في لندن مباشرة قبل مقابلة لوسي المصيرية لدخول أوكسفورد، لذلك كان عليها الذهاب يوميًّا بعد المدرسة للعرض في لندن، والعودة في اليوم التالي. وبما أنها كانت في هذه الوقت تبذل كل ما تمتلكه من طاقات وقدرات، فقد كان من الضروري بالنسبة إليها توافر جو من الهدوء والسلام في المنزل، ولم يكن ذلك الأمر سهل التحقيق؛ ذلك أن زوارًا كثرًا كانوا يتوافدون إلى منزلنا يوميًّا.

لم تكن محاولاتي الإبقاء على خلافات الممرضات طيَّ الكتمان كافية للحفاظ على الهدوء في المنزل، فقد تحوَّل ستيفن من كونه شخصية علمية مشهورة في بريطانيا وأميركا - بعد أن حقَّق شهرة مفاجئة في أرجاء العالم- إلى شخصيَّة ملهِمة بسبب

نجاح الكتاب. اختبرنا ذلك أول مرة في تشرين الأول/أكتوبر 1988، عندما رافقناه أنا وتيم إلى برشلونة لإطلاق النسخة الإسبانية من كتاب موجز تاريخ الزمن. لقد كان معروفًا في كلِّ مكان، وكانت الحشود في الشوارع تنجذب إليه متوقفة للتصفيق والتهليل له، وقد يُطلب إليَّ عادة القيام بترجمة ما يقوله للصحفيين في المؤتمرات الصحفيّة واللقاءات التلفازية، بل إنهم طلبوا إجراء مقابلات معي شخصيًّا لصالح بعض المجلات النسائية، وقد أحسستُ بالارتياح للعمل مجدَّدًا مع ستيفن بوصفه شريكًا فكريًّا، غير أنّ طلبات اللقاءات قد زادت بشكل كثيف جدًّا، ليس في إسبانيا وحدها؛ بل في الوطن والخارج أيضًا. كان التكيف مع متطلبات الشهرة في الخارج أسهل بكثير؛ وذلك لأن الجميع كان يعلم أن الهدف من زيارتنا هو بيع الكتاب؛ لذا كانت مهمتنا منحصرة في إجراء المقابلات الصحفية والتلفازية، أما في المنزل فكان ينبغي علينا في الوقت ذاته أن نتابع ممارسة روتيننا اليوميَّ المعتاد. أصبحت تدخلات الصحافة تشويشًا مزعجًا جدًّا لحياتنا الأسريّة، وأصبحت المعدَّات التلفازية أثاثًا ثابتًا في مكتب ستيفن، وكانت الممرضات يتنافسْن في الظهور أمام الشاشة، ولكن لم يكن ثمّة مشكلة في ذلك كلّه، بل ظهرت المشكلة حين طلب الصحفيّون إجراء مقابلة والتقاط صور داخل المنزل أيضًا. هذا ما كنت أرفضه بشدّة، واعترض الأولاد كثيرًا أيضًا، فقد كان من السيئ بما يكفي وجود الممرضات في المنزل كلَّ الوقت، والآن مع وجود كاميرات التلفاز والمراسلين فلن يتمتَّع أحد في المنزل بالخصوصية.

كان اعتراضي الحادّ غير ذي جدوى، بل أصبح دليلًا قاطعًا على عدم ولائي لهذا الرجل العبقري. وكان من الواضح أنني أصبحتُ مُدانة بسبب اعتمادي على جوناثان ورفضي أن أتدرب لأصبح ممرِّضة، وعُدَّ رفضي تزويد الصحافة بقصص حياتنا مع العبقريّة داخل جدران المنزل كأنه اعتراف بخيانتي.

في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر بدأت جولة لوسي في لندن في مسرح هاف مون Half Moon في نهاية طريق مايل إند Mile End. خرجتُ في الرابعة مساءً من المدرسة وكان لديها نصف ساعة فقط لتلحق بالمدرِّب، تطلَّبت المسرحيّة مجهودًا ضخمًا من الطاقة والتركيز من طاقمها الشاب؛ لقد كانوا يغيِّرون الأدوار في كل مشهد، فأحيانًا

يقومون بالتدريب في مشاهد منفردة وأحيانًا ضمن مجموعة. كان جدول أعمال لوسي مرهقًا، ولكن قرار ستيفن الذهاب مع طاقمه إلى كاليفورنيا لقضاء شهر أزاح عن كاهلها بعض ما كانت تعانيه من توتر. منذ ذلك الحين تحسَّنت الحياة في المنزل بشكل كبير، واستطعنا تنفُّس الصعداء، ونعِمنا بالعزلة والسلام النسبي.

كنت -وعلى غير المعتاد- جالسة أقلب صحيفة يوم الأحد، فإذ بي أقرأ إعلانًا حول توافر العقارات في فرنسا، وفي أسفل ذلك الإعلان وجدت إعلانًا آخر عن وكالة إنجليزية تعرض خدماتها في توفير مساكن لزبائنها في الريف الفرنسي، لم أتردد لحظة؛ وطلبت الرقم الظاهر في الإعلان، وبعد أسبوعين بدأت صور المنازل المتوافرة في شمال فرنسا تصلني بوساطة البريد. لم تكن تلك الصور واضحة؛ وذلك بسبب الضباب المحيط بتلك المساكن، وغالبًا ما كنت أضطر إلى البحث في القواميس عن معاني الكلمات المستخدمة في وصف حال المنازل ولكنَّ أسعارها لم تكن مرتفعة. وبما أن الصور لم تكن كافية لتطلعنا على حال تلك البيوت، قررنا أنا وتيم وجوناثان السفر إلى هناك للتحقق من الأمر بأنفسنا وذلك في أحد أيام السبت من شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

9
البحث عن الجنة

كانت فرنسا في تشرين الثاني/نوفمبر قاتمة وباردة وموحشة؛ وصلنا إلى أراس Arras في السابعة مساء حيث كانت تعج بالحياة والنشاط، والمتاجر بدأت بتقديم عروضها بمناسبة أعياد الميلاد. توقفنا في أحد المقاهي الصغيرة وتناولنا وجبة لذيذة من اللحم على حسابنا الشخصي، كان في هذا المقهى عدد من الكتّاب يلتقون بنقادهم في جو يسوده اللطف والدفء، إلا أنّ عروض عيد الميلاد كانت كارثية في نظر سكان المنطقة؛ فإن لم ترضهم سوف تفسد معها عطلة نهاية الأسبوع أيضًا.

في اليوم التالي كان البرد قارسًا والصقيع يعمُّ أرجاء المكان، وما زلت أذكر مشهد المنازل الغريبة حول المنطقة. كان هناك سمسار عقاري مع مساعده الشاب الأنيق ينتظران على أهبة الاستعداد لمساعدتنا على إيجاد أفضل منزل سكني في المنطقة، انطلقنا بسيارته مع ابتسامة رقيقة على وجهه، وأخذت السيارة تشق طريقها وسط زخات مطر خفيفة ومتقطعة تذيب الثلج المتراكم على الطريق مساعِدة السيارة على التقدم، كان الضباب يحجب عنا رؤية المنازل المنتشرة على طرفي الطريق، وكانت جدرانها متهاوية على بعضها. كنا نبحث عن منزل قديم الطراز لكنه بحالة جيدة مع إمكانية التجديد والتعديل عليه مستقبلًا، وارتأينا أنه يجب أن يحوي ردهة فسيحة في الطابق الأرضي يتسع بما يكفي للعجزة والمسنين من أفراد العائلة وخاصة بالنسبة إلى ستيفن، كما يجب أن تكون المسافة الفاصلة من الطريق إلى المنزل مناسبة.

لم تفلح محاولاتنا في اليوم الأول للوصول إلى هدفنا المنشود، لكن في اليوم التالي كانت الأمور منذ بزوغ الفجر توحي بأن اليوم سيكون جيدًا، فالشمس مشرقة تضيء الشوارع المكسوة بالثلج الناصع الطري. في طريق عودتنا إلى بولوني Boulogne توقفنا في محل تجاري صغير لتأخذنا سمسارة تدعى مدام ماييه Mme Maillet إلى خارج المدينة باتجاه الشاطئ. كان الطريق يمر بوادٍ تنتشر على أطرافه تلال صغيرة، ومن

ثم بمحاذاة قرية صغيرة تكاد تخلو تقريبًا من علامات الحياة، فقد كانت تظهر لنا بين الفينة والأخرى شاخصات تدل على منازل مسكونة، وتظهر لنا أجراس الكنائس بين الأشجار، لتعود وتختفي مع اقترابنا من برج لجر المياه أو طاحونة رياح مهجورة.

وفجأة انعطفت ماييه إلى اليمين فتبعناها، كنا على مسافة كيلو متر تقريبًا عن الطريق الرئيس. كان المنزل كبيرًا ذا جدران بيضاء وقرميد أحمر، وظهر لنا من بعيد وكأنه بيتنا القديم، وعرفت على الفور أني قد أحببت هذا المنزل من النظرة الأولى.

لم نصب بخيبة أمل عندما اقتربنا، فقد كان المنزل مبنيًّا على جزء من طاحونة قديمة، وكانت الواجهة التي شاهدناها عندما اقتربنا من المنزل واحدة من واجهات ثلاث أخرى وهو على صورة فيلا رومانية قديمة تمامًا؛ كان هذا المنزل هو ما تمنيناه أنا وستيفن في مدة خطوبتنا الذهبية.

كان هناك ممر طويل في المنزل ينتهي بغرفة الاستقبال من جهة الطريق، وكانت غرفة المعيشة كذلك والمطبخ يطلان على فناء خارجي مهمل غير مرتب، ومتروك تحت رحمة عدة إوزات عدائيات، فيما كان في الزاوية الأخرى مكان لزراعة الخضراوات المنزلية، وكان الطابق الأرضي مناسبًا لاحتياجات ستيفن. أما غرف النوم فهي موزعة بشكل مثالي وبعيدة عن ضجيج الطريق، وعلى الرغم من بعد المنزل عن الطريق الرئيس إلا أن الوصول إليه كان سهلًا. شعرت أن كل شيء يكاد يكون مثاليًّا، وببعض عمليات التحسين يمكن توسعة المكان وزيادة الإضاءة والتهوية، وقد كان المنزل يتمتع بإطلالة خلابة تمتد أمامه مروج خضراء، وإلى الأمام قليلًا كانت هناك غابة صغيرة ذات أشجار قليلة الارتفاع، كان المنزل ذا هيئة قديمة ولكن وضعه الفني-بشكل عام- جيد جدًّا، وسعره مناسب.

على طول طريق العودة كنت مشغولة الفكر بمولان ورسم انطباعاتي الخاصة عنها، وبالحماس للتجربة الجديدة والعديد من الأفكار. أسرعت لتدوين كل شيء

بالقلم والمسطرة عندما عدت إلى إنجلترا؛ وذلك لجعل الرسومات التقريبية للعقار مفهومة، ووضعت الخطط لنتكيف مع احتياجاتنا، وأرسلت ذلك كلَّه بالفاكس لستيفن في جنوب كاليفورنيا، ووضعت له تعليقًا مقتضبًا بمثابة الموافقة على هذا المنزل (يبدو جيدًا).

أجاب ستيفن بالإيجاب؛ لقد كان التواصل معه عن طريق الفاكس عبر المحيط الأطلسي أقل تعقيدًا من التواصل معه وجهًا لوجه.

دارت بعدها عجلة عملية الشراء بسرعة ملحوظة، وبتلك السرعة نفسها اضطررت إلى تعلم اللغة، وأسرعت بالإجراءات لشراء المنزل في فرنسا التي لطالما أثبتت أنها مختلفة جدًّا في كل مرحلة عن إنجلترا، وعملت جاهدة للتعرف إلى القانون الفرنسي والمصطلحات القانونية، والنظام المصرفي الفرنسي، والتأمين، والضرائب المحلية.

كان الجنيه الإسترليني مزدهرًا مقابل الفرنك الفرنسي في ذلك الوقت، وكانت الفكرة جيدة ومربحة حيث من الممكن الاستفادة من أسعار الصرف؛ إذ إنّ مبلغًا من المال لا يمكن أن يشتري لنا أي شيء يستحق في إنجلترا قد يساوي ثروة في فرنسا.

شعرت داخل أعماقي بالطمأنينة، وتأكدت من أن هذا المشروع -استنادًا إلى الدخل المادي في بلدي، ومعرفتي للغة الفرنسية- سيزيد من مساهمتي في الحياة الأسرية، فلقد كان هدف العديد من رحلاتنا في الماضي واحدًا؛ هو السعي للعلم، أما المشروع الجديد فمن شأنه الجمع بين مواهبنا المتعددة كلّها: الحب في فرنسا، وطريقة الحياة الفرنسية، والاسترخاء، والحدائق العامة، والموسيقى، وكذلك السعي العلمي. كنت أدرك كلما نظرت في خططي أنّ مولان مدينة ذات إمكانات أكبر مما ظننته في البداية.

كانت هناك حظيرة قديمة بجوار المنزل الذي حان الوقت لتجهيز الطابق العلوي فيه من أجل الإقامة، مع إمكانية إقامة قاعة للمؤتمرات في الطابق السفلي، وإعطاء

الفرصة لستيفن لكي يكون له مدرسته الصيفية الخاصة به، بحيث يتاح له دعوة زملائه الجامعيين وأسرهم، وأيضًا كانت لي رؤيتي الشخصية في إنشاء المدرسة الصيفية، وكان لدي أمل بإعادة الانسجام بيني وبين ستيفن كما كان سابقًا قبل أحداث عام 1985، حيث لم نعد كذلك منذ ذلك الحين.

10
عودة إلى الوطن

بقيت خططي بخصوص العودة إلى الوطن طيَّ النسيان عند بداية عام 1989؛ بسبب انشغالي في تنقيح الطبعة الفرنسية من كتاب موجز تاريخ الزمن A Brief History of Time، لقد وجدت أنّ الأمر ليس مجرد مسألة تحقق من اللغة بل هي أمر بالغ الأهمية، وتتطلب كثيرًا من التعمق. فتحت الطبعة الإنجليزية مع المقدمة التي كتبها العالم الأمريكي كارل ساغان، ووقعت في حيرة من أمري؛ وجدت أنها لم تُترجم إلى الفرنسية، فالناشر الفرنسي فلاماريون Flammarion استعار مقدمة من كتاب فيزيائي فرنسي ليستبدله بها، وقد وجدتُ أن هناك ألفاظًا غير مستحبة في المقدمة الفرنسية وأخذت على عاتقي حذفها.

كان من المقرر إطلاق كتاب موجز تاريخ الزمن في أوائل شهر آذار/مارس في باريس، حيث كان يتزامن مع شراء المنزل، وقد حفلت الأسابيع التي سبقت إطلاق الكتاب بعدد من الصحفيين الفرنسيين ومحطات التلفزة التي قدمت إلى كامبردج، فيما كنتُ مشغولة بإنجاز عملية نقل الملكية التي حازت على تركيزي أكثر وأكثر من جانب آخر، وأخذت آفاقي تتوسع، ولم أعد كالسابق حبيسة الجدران مثلما كنت في إنجلترا، فخضتُ في تعقيدات النظام القانوني الفرنسي، وآليات إنشاء حساب مصرفي، وتفاصيل عقد التأمين وكل هذه التفاصيل بحماسة، وقد ساعدني على ذلك أسلوبي الخاص في التعامل مع من كانوا يقابلونني من المنطقة الريفية تيرنوي Ternois الهادئة شمال فرنسا.

كانت خططي لإنجاز نقل ملكية المنزل تجري وفق نسق جيد، فقد وقَّعت على اتفاقية الشراء في حفل بسيط بداية شهر آذار/مارس، وكان ذلك إنجازًا كبيرًا، حيث كان أطراف العقد جميعهم موجودين في هذا الحفل، وفي الوقت ذاته كان ستيفن يحثني على عدم التأخر بإجراءات الشراء، فهو قد عاد لتوِّه من جولة علمية إلى

نيويورك بطائرة كونكورد، وقد خُيِّل إلي أنّ ستيفن لم يحب المنطقة، وقد أظهرت أمه ذلك في مرات عدّة، ما جعلني أفكر أنها قد توعز إليه بالابتعاد عن مولان؛ لذلك سارعت بعملية الشراء، وربما تعود قلة ثقة ستيفن بهذه البلاد للتجربة السيئة التي حدثت معه.

بعد شراء المنزل بدا ستيفن متأقلمًا مع أضواء باريس، وقد كان يكرَّم أينما ذهب، كما أحبَّه الإعلام، ومُنح جوائز عدّة، وكنتُ بدوري أحب باريس أيضًا، وسرَّني التمتع بأضوائها إلى جانب ستيفن والدعوات التي كنا نتلقاها، فقد دُعينا لتناول العشاء في مطعم لاكوبل La Coupole، ودُعينا أيضًا لتناول العشاء في برج إيفل حين دُعي ستيفن لتسجيل اسمه في سجل الزوار من الأغنياء والمشاهير، وزرنا أيضًا متحف أورساي، وبدورنا دعونا الأصدقاء ومعارف ستيفن الفرنسيين - بما في ذلك ابنة عمه ميمي Mimi- إلى حفل عشاء احتفالًا بإطلاق الكتاب.

كان المكان يزدحم بالصحفيين والمصورين الذين يلاحقوننا للقيام بسبق إعلامي مع هذا الرجل الظاهرة؛ وقد وافق ستيفن على إجراء مقابلة إذاعية مع الإعلامي الشهير جان بيير الكبّاش Jean-Pierre Elkabbach على إذاعة أوروبا الأولى؛ عندما وصلتُ كان النقاش طويلًا ومستعرًا، كانت المقابلة تبث مباشرة على الهواء لكل فرنسا، وبهذه الطريقة قدَّمونا إلى الجيران الجدد في قريتنا الجديدة في الشمال قبل أن نقابلهم، وبعد ثلاثة أسابيع عدنا إلى فرنسا، لكن هذه المرة مع تيم ولوسي في سيارة امتلأ صندوقها الخلفي بالحقائب، والكتب، والأواني الفخارية، وأدوات المائدة، وأواني الطعام، ووجدنا أنهم قد أصلحوا الطريق السريع إلى مكان إقامتنا كأنهم يرحبون بنا من جديد، أيضًا وجدنا بعض العمال يضعون اللمسات الأخيرة على أعمال التجديد في المنزل لكي تناسب ستيفن. كانت الابتسامات ترافقنا في أرجاء المكان، واشترى ستيفن سيارة فولكس فاكن مخصصة له ومجهزة بمزالق تسهل عملية تركيب الكرسي المتحرك فيها، كما أنها ذات قدرة ممتازة على نقل قطع الأثاث الكبيرة، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم وصل جوناثان على وجه السرعة بسيارة محملة بالأثاث والأمتعة، وفي اليوم التالي انطلق إلى المطار ليقابل ستيفن

ومرافقيه والمرضين الموثوقين، كانت العائدات من نشر الكتاب - بالإضافة للهبات والتبرعات المقدمة لستيفن- جيدة، إذ مكَّنته من استئجار طائرة نقل ركاب خاصة لتقلَّه من كامبردج إلى فرنسا، حيث كانت هذه الوسيلة هي الأفضل والأكثر ملاءمة لوضعه، وكانت الطائرة تحتوي على ستة مقاعد للركاب بالإضافة إلى مكان للأمتعة والحقائب، وكان ربان الطائرة رجلًا لطيفًا أسترالي الجنسية؛ فلقد أفسح المجال لستيفن ليجلس بجانبه. كان المنظر من الأعلى فاتنًا؛ فقد ظهرت المباني على شواطئ فرنسا على البحر المتوسط لامعة تحت ضوء الشمس الساطع، وكانت الغيوم تمتد كأنها ندف عملاقة من الثلج حتى إن ستيفن قد فُتن بها، على أنه اشتكى في بادئ الأمر بأن الأرض مسطحة كما هي في كامبردج، ولكن هذا غير صحيح تمامًا، حيث اكتشف روبرت أنّ قيادة الدراجة الهوائية في هذه المناطق صعبة؛ وذلك بسبب انحدارها، مثلما أنّ التلال المجاورة للنهر كانت تعيق عملية التنقل على الدراجة الهوائية، لم يشأ ستيفن -كالمعتاد - الاعتراف بوعورة المكان لكنه أحب الحياة الاجتماعية في تلك المنطقة، حتى إنه خرج والأطفال في أحد الأيام لشراء العصائر التي شاركناها مع جيراننا والأشخاص جميعهم ممن ساعدونا في الشراء أو العمل في المنزل. كان ستيفن يستقطب اهتمام الجميع وبدوره ألقى بعض الدعابات بوساطة الجهاز الذي يساعده على الكلام، فأخذ يتحدث الفرنسية بلكنة أمريكية وبطريقة مضحكة، وقد انهالت التهاني عليه لنجاح كتابه. أما الأطفال فقد أصبح لديهم أصدقاء جدد بسرعة، وعلى الرغم من قلة المفردات الفرنسية التي كان تيم يعرفها إلا أنّ تواصله مع الآخرين تطور هناك، مستعينًا أحيانًا بالإشارات والتخمين، أما الشيء المضحك فهو أنّ تيم كان يكره أنّ يقبله أحد على وجنتيه وكثيرًا ما أبدى امتعاضه من ذلك، ولكنه مع مرور الوقت ظهر أنه يحب تقبيل الفتيات له. أما بالنسبة إلي فقد حقق لي وجودي في فرنسا راحة البال؛ حيث كان بإمكاني التصالح مع نفسي لأول مرة، وبدا كل شيء مثاليًّا تمامًا.

11
ثمن الشهرة

لم أكن أتوقع أنه مع نهاية شهر نيسان/أبريل سوف يتقدم منتج سينمائي من هوليود ليعرض علينا إنتاج فيلم سينمائي يعرض قصة حياتنا في المنزل، لقد بدا ذلك المنتج ودودًا ولطيفًا وملهمًا أيضًا، وقد عرض أفكاره حول إنتاج فيلم سينمائي مقتبس من كتاب موجز تاريخ الزمن، وأن تكون أفكار هذا الفيلم مأخوذة من الكتاب، كما أعجبته فكرتي في أن يأخذ الفيلم شكل رحلة في الزمن والكون من خلال عيون طفل، كانت الفكرة مغرية، ويمكن أن تنجَز وفق هذه الرؤية باستخدام تكنولوجيا مبتكرة من الرسومات، وعلى وجه السرعة حضر طاقم الفيلم الأمريكي، وكان من إخراج امرأة حازت ثقتي بنهجها المتعاطف، وبعد مدة من العمل أصبحت الفوضى والجلبة التي يثيرها طاقم الفيلم من روتين منزلنا اليومي؛ قبل أن ينتبهوا إلى وجود ذلك الرجل العبقري ذي الاحتياجات الخاصة فيعاودون ترتيب الأمور، وبدا مسؤولو الإنتاج للوهلة الأولى لطيفين ومتفهمين، وقد وعدوا بأن يعملوا على أن يكون أي خلل في المنزل في حدوده الدنيا، بحيث يكون العمل مجرد لقطات ومشاهد ستؤخذ من زوايا مختلفة، دون أن يتسببوا بأي تعطيل لأنشطتنا اليومية، وقالوا بأنّ الكاميرات والكابلات والأضواء والميكروفونات سوف توضع في الأماكن المناسبة، وسيُحرَّك الأثاث قليلًا من مكانه ويمكننا متابعة حياتنا بشكل اعتيادي، لكنَّ الواقع لم يكن مطابقًا للوعود؛ ففي هذه الأثناء القصيرة بين المجاملات والتصوير، وعند وقوع أول مشكلة كنا نلاحظ دهشة المنتجين ونكثهم بالوعود المقطوعة، فأغلبهم يكون متحفظًا بشأن موضوع الوقت وضيقه وقلة الدعم المالي، وعند تحرك الكاميرات وبدء عملها تبدأ قطع الأثاث بالتناثر، وغالبًا ما تتضرر ولا تعاد إلى أماكنها ولا يعاد إصلاحها، أما أضواء التصوير الساطعة فكانت تعمي الأبصار بسبب انعكاساتها في مختلف أرجاء المكان، وتسببت هذه الإضاءة في تغيير ألوان المفروشات والستائر، وأيضًا اصطبغت أوراق الصحف بلون أصفر بسببها. كانت كابلات الميكرفونات منتشرة بشكل فوضوي في

الغرفة حيث كانوا يضعونها أينما يحلو لهم، وهكذا تحولنا إلى غرباء في منزلنا وسط عدد غير محدود من الأنابيب المعدنية والمعدات الأخرى الخاصة بفريق التصوير، كان الممثلون المشاركون في العمل - وعلى الرغم من عدم تدريبهم الكافي - يواجهون عدسات الكاميرات براحةٍ تامّة؛ هذا هو حال الإعلام في القرن العشرين.

هناك عبءٌ إضافي يتوغل من تحت السطح وبالأخص بشأن لوسي التي أصبحت أكثر تشتتًا مع اقتراب امتحاناتها، ولم أكن في وضع يسمح لي بمنع الكاميرات في المنزل؛ خوفًا من استياء ستيفن الذي كان ردة فعله إيجابية إزاء الظهور الإعلامي والدعاية، وكان قد عاد لتوّه من رحلة إلى أمريكا. كانت هذه المدة بالنسبة إليَّ أسوأ موسم من السنة، خاصة عندما بدأت حبوب الطلع بالتناثر من الأشجار لتتسبب لي بالكثير من الإزعاج، وأصبحت المخرجة الأميركية حازمة، بل محرجة جدًّا على الرغم من أنها ظهرت ودية ومحبوبة للوهلة الأولى، فعندما كانت تحمل كاميراتها لتصوير حياتي اليومية مثل ذهابي المعتاد للتسوق صباح السبت، كان كامل الطاقم يمشي بجوارنا في أثناء التصوير ويدسون كاميراتهم في وجوهنا، وكم تمنيت أن يقوموا بحمل البقالة أكثر من ملاحقتنا؛ لم أكن أعلم أنّ الفيلم سيتطرق إلى حياتي بهذا الشكل، فقد كان من المفروض أن يكون فيلمًا عن حياة ستيفن لصالح قناة إخبارية أمريكية، حاول هذا العمل التلفازي أن يخدم غرضًا مزدوجًا؛ حيث يقدم خلفية ذاتية عنا وموجزًا قصيرًا عن كتاب موجز تاريخ الزمن.

في الوقت نفسه وصل صحفي أوروبي وزوجته ليشربا معنا فنجان شاي في مساء يوم السبت، ولم أكن في مزاج مناسب لتحمل المزيد، أو للترحيب بتصوير أي فيلم آخر، أو مقابلة شخصيات تلفازية أو تقنيين في المنزل، فقدمت نفسي لهم بشكل مختصر، على عكس زوجة الصحفي التي قدمت نفسها بطريقة فوقية، وبشكل غير رسمي سألتني بينما كنت أعطيها الشاي: « هل تدينين بأي دين؟»، تمالكت نفسي واستدرتُ إليها طالبة منها الاهتمام بشؤونها، ومن ثم دعوت كامل الطاقم لشرب الشاي.

أدركت في وقت متأخر من الليل وأنا مستلقية على السرير أن الفخ قد أحكم قبضته عليَّ، فضغط الدعاية والإعلان أجبرني على التصرف بطريقة لم أعتدها من قبل،

غير أنه لم تكن من طريقة أُخرى للخروج من هذا المأزق، وكان واضحًا بالنسبة إلي أنّي أصبحت شيئًا أشبه بالذيل في عيون وسائل الإعلام، شكل تكميلي مرتبط ببقاء ستيفن ونجاحه فقط، لا لشيء سوى أني قد تزوجت بهذا الرجل في الماضي البعيد، وأنجبت منه أطفاله الثلاثة.

في تلك الأيام كنتُ أحاول نيل رضا وسائل الإعلام الراغبة بالحصول على التفاصيل الشخصية بشكل موسع، بينما يعلو في أعماق روحي صوت التمرد على الإهانة والعجز الذي أشعر به. وبعد عشرة أيام من جولة التصوير كان الوقت قد حان لأضع حدًّا لهذا الأمر.

في تلك الأثناء ألقى ستيفن محاضرة برفقة شرودنغر Schrödinger في قاعة المحاضرات التي كانت تغصُّ بالحضور، في كلية إمبريال Imperial College في لندن.

تحمل معادلة شرودنغر (وهي المعادلة الأساسية في علم ميكانيك الكم التي وُضعت في عام 1926) مقاربةً لحركة الأجسام الذرية مماثلة للمقاربة التي تحملها قوانين نيوتن لحركة الكواكب، وكانت محاضرة ستيفن حول الوقت الوهمي واضحة بأكبر قدر ممكن، فقد كرَّمه بعد ذلك ممثلون من شركة IBM التي رعت المحاضرة. وكان هناك أشخاص يتوقون إلى التقاط صورة مع ستيفن، وقد وقفتُ أتصور معهم وأنا الشخص المدعو الوحيد غير المؤهل علميًّا، إلى أن قُدمت إليَّ ابنة شرودنغر التي التقيت بها في السنة السابقة في مناسبة مماثلة في دبلن عام 1983، حيث كانت هادئة ومتواضعة، وأخبرتني للمرة الثانية بأنها ابنة شرودنغر من زوجته المتزوجة سابقًا من شخص آخر، لكن تبناها السيد شرودنغر. كنتُ حزينة لحالها فقد كانت ملاحقة بسمعة أبيها السيئة ومحط إعجاب بسبب مركزه العلمي، وأصابني الخوف على مستقبل أطفالي فهذا القَدَر لا أريده لهم.

فتحت بريد ستيفن -كالمعتاد- في السبت التالي قبل الانطلاق إلى المدينة لبيع اللوحات؛ بهدف جمع التبرعات للمؤسسة الوطنية لمرضى الفصام، حيث كان يحتوي على رسالة من رئيسة الوزراء تاتشر التي اقترحت التوصية باسمه إلى الملكة لمنحه

مرتبة الشرف. أُرسِل لنا اقتراح الترشيح، وقيل لنا إنّ هذه المرتبة واحدة من أعلى المراتب الممنوحة على وجه الأرض، كان ستيفن على وشك مغادرة البلاد متجهًا إلى أمريكا، وقد كان على عاتقي القبول بهذا العرض. منذ أن رُشِّح اسم ستيفن لنيل الدكتوراه الفخرية في العلوم من جامعة كامبريدج، كان الصيف يعد بوصوله إلى ذروة حياته المهنية. وعلى الرغم من التدفق الهائل لوسائل الإعلام إلا أنّ لوسي نالت علامات جيدة في دراستها وكذلك روبرت في امتحاناته النهائية، ناهيك عن الاستقرار والتناغم، إلا أني كنت مشتتة بشكل كبير؛ فأولوياتي كانت الحفاظ على حرمة منزلي وحياتنا العائلية الخاصة (هذه الحالة كانت قد بدأت مع محاولة المرضات تمزيق أوصال العائلة، وقد حان الوقت للإعلام ليكمل على ما تبقى منها).

ومع أن ستيفن حقق كل تلك الشهرة، إلا أنه لم يكن لأحد من أفراد الأسرة الحق بأن يتظاهر بأنه أفضل من الآخر، وعلى الرغم من وضعه الصحي الذي يتطلب رعاية صحية لم يكن أحد من أفراد العائلة يتطلبها، إلا أن الاهتمام كان موجودًا بين أفراد العائلة جميعهم على حد سواء، وكان على الأطفال ألا يستاؤوا من حالة ستيفن الصحية وحاجته الدائمة للممرضين. كان ستيفن يجد متعة في علاقته مع وسائل الإعلام التي جعلت اسمه على لسان كل شخص على هذا الكوكب، كانت شهرته تمثل تحديًا كبيرًا، ليس فقط من قِبل المشككين في قدرته على فهم أسرار الكون، بل كذلك تُعدُّ انتصارًا على عجزه وحالته الصحية. بالنسبة إليه كانت أي طريقة في الإعلان جيدة ويمكن تبريرها؛ وذلك لزيادة نسبة مبيعاته للكتاب الذي طرحه مؤخرًا، لقد تمكن ستيفن من النجاح في تحقيق هدفين يقعان على النقيض من خلال تبسيطه للأفكار التي يطرحها فرعه العلمي المعقد، فقد جذب ببساطته المثقف العلمي المتخصص والإنسان العادي. بالإضافة إلى ذلك لا يمكن إنكار أن الكتاب حصد نجاحًا باهرًا، وقد فضَّلتُ إخفاء أمر الهبات الكريمة المقدمة لستيفن وجعلها سرًّا لا يعرفه أحد غيرنا. فإذا أظهرتُ تحسننا المالي المفاجئ فإن جزءًا كبيرًا من المال سيُفقد عن طريق الأصدقاء الذين سيحاولون جاهدين الاقتراض منا لتغطية مصاريفهم. في الماضي القريب عندما كان عقل ستيفن يركز على المشكلات المعقدة المتعلقة بنظرياته، كنت أركز بعين حريصة على الأمور المالية، وآخذ بعين الحسبان أنّ

حالة ستيفن الصحية ستزداد سوءًا، وأنّ المال سينفد من محافظنا بسرعة. كنت أدير الأمور المالية للمنزل بحكمة، وأعمل على ادخار الأموال من أجل قسط مدرسة لوسي، ومن أجل الأوقات العصيبة التي قد تستمر لأشهر أو سنين، ومنذ التوقيع على كتاب موجز تاريخ الزمن عام 1985 تعاقدتُ مع مدير مالي في نيويورك لتسهيل العمليات المالية، ولأسباب مجهولة، انقلبت الترتيبات المتعلقة بمراسلات حقوق الاختراع التي كنت أتعامل معها رأسًا على عقب، فقد أعلمني العميل بأنه سيرسل المراسلات المتعلقة بالكتاب جميعها إلى ستيفن في شقته، وأنها لن ترسل إليَّ في المنزل بعد الآن، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب هذا التغيير، ولم يشرح ستيفن لي أي شيء، كان كما لو أني قد وُضعت موضع الشك في النهاية بعد كل تلك السنين من الثقة المتبادلة وقدرتي على تدبير الأمور المالية بكفاءة. كانت مراسلاتنا متناثرة بشكل فاضح في المكتب وعلى الطاولات؛ بحيث أُتيح المجال أمام الجميع لقراءتها كما لو أنّ ذلك ناتج عن ازدياد شهرة ستيفن العبقرية.

عدنا من عطلة في الدنمارك في شهر أيار/مايو إلى مولان Moulin التي استقبلتنا بزيها الصيفي، وكانت أعمال التجديد في المنزل قد انتهت، حيث بُني حمام مخصص لستيفن وحده، كما تمت عمليات التوسيع في الطابق الأرضي، وانتهت أيضًا صيانة الحظيرة، وأصبحت الحديقة في أفضل صورة؛ إنّ حلمي في امتلاك حديقة إنجليزية في فرنسا قد تم بالفعل، حتى الأزهار كانت جميلة والبستاني كلاود كان متفانيًا في عمله لإنجاز هذه المهمة، وقد اعترف لي بأنه قد باشر بزراعة الأزهار في حديقة منزله بالإضافة إلى الخضراوات التي تفرد في زراعتها، والأكثر أهمية من ذلك هو أنّ الحياة أخذت بالتباطؤ والابتعاد بنا عن دوامة كامبريدج؛ وذلك بفضل سحر طبيعة مولان بشمسها الدافئة التي تطل كل صباح مسدلة خيوطها على المروج الخضراء وحقول الذرة الصفراء. لقد نقش المكان طابعه الخاص في قلبي، وكان الهواء منعشًا وعليلًا، وكان امتداد المشهد إلى الأفق الرمادي ينسيني صعوبة الأوضاع التي كنت أعانيها، كانت رائحة الجذوع والأخشاب المقطوعة حديثًا تعطي انطباعًا مريحًا يجلب لنا السلام والطمأنينة. هنا حيث يمكنني أن أكون وحيدة وهادئة، بعيدة عن الممرضات والصحافة والعدسات، هنا يمكنني أن أتمتع بجمال الطبيعة والاستماع إلى

الموسيقى دون الشعور بالذنب من إضاعة الوقت، وهنا يمكنني قراءة الكتب بحرية أكثر، ويمكنني هنا أن أتحد مع الطبيعة وأزرع حديقتي. ربما قد تأثرت بقصة كانديد بطل رواية فولتير التي تحمل الاسم نفسه، الذي صدمته الحياة بواقعها المزيف وخاب ظنه في أقرب الناس إليه؛ لذلك قرر الابتعاد عن البشر والعناية بحديقته؛ ربما يكون الاعتناء بالحديقة حلًّا شخصيًّا ابتكره للتخلص من شرور المجتمع. صراع المنطق لا يرحم ولكنه في كثير من الأحيان كان يبدو قاسيًا إلى درجة تشعر فيها بسخرية القدر.

كانت المشكلات العاطفية التي لم تُحل مثل ديدان تسبب تآكل جذور وجودنا في كامبريدج، حيث بدأت هذه المشكلات تعصف بحياتنا العائلية مع اتساع دائرة الشهرة والإعلام.

في فرنسا كانت التربة خصبة وفيها من المغذيات الطبيعية ما يبشر بحياة جيدة للمزروعات، وذلك وفقًا للقوانين الطبيعية.

12
الدكتوراه الفخرية

قُدمت قرابة اثنتي عشرة جائزة فخرية لستيفن في عام 1989، جذبت الانتباه له بسبب عبقريته العلمية وتعدد أفكاره، وسلطت عليه الأضواء بشكل هائل؛ حدَّد مستشار دوق أدنبرة تاريخ منح الدكتوراه الفخرية لستيفن يوم الخميس 15 حزيران/ يونيو، والتي لم تعلن إلا لنا نحن، لكنها أعلنت للإعلام والعامة يوم السبت في 17 حزيران/يونيو، وكان هذا التاريخ -للصدفة- مطابقًا لتاريخ الحفل الذي أُعطي فيه ستيفن مرتبة فخرية في كامبريدج من قِبل جوناثن وكاميراتا، وعلى الرغم من أنّ احتفالية نيوتن كانت في العام 1987 وهو حدث لامع وجذاب لدعم كاميراتا تجاريًّا، إلا أن الراعين أنفسهم كانوا عرضة للتقلبات الاقتصادية في بريطانيا زمن رئيسة الوزراء تاتشر، ولم يكد الحبر يجف عن الأوراق في صفقة سخية، من قبل شركة بريطانية محترمة، استحوذت عليها شركة أمريكية مختصة ببرمجيات الحاسوب لم يكن لديها أي وازع للقيام بأي عمل من شأنه إكسابها المزيد من المال، لم يكن مثل دعم الفنون والعلوم والثقافة. لقد ألغوا - ببساطة وبشكل مفاجئ - عقد الرعاية مع جوناثان، ما جعله في تخبط لمدة عامين من الاعتماد على رعايات غير مستقرة، وربما مع مبلغ ضخم من الديون بعد أن أمَّن كفاف نفسه من الموسيقى في المدد السابقة.

في ذلك الوقت العصيب لكل من جوناثان وكاميراتا، كان نجم ستيفن يلمع وشهرته تزداد منبئة عن مستقبل واعد له.

يمكن حسبان أن الحفل الغنائي في دار الأوبرا كان لجذب المزيد من المستمعين، ليس فقط للاستماع إلى المحاضرة التي سيلقيها ستيفن وحسب؛ وإنما للاستمتاع بالمقطوعات الجيدة التي ستعزف هناك، وقد تكون جاذبة لداعمين جدد مهتمين بالمجال العلمي، حيث سيكرَّم ستيفن بقطعة من موسيقى الباروك المفضلة لديه. كان

هذا الجزء من الخطة يبشر بالخير للجميع، وقد وافق ستيفن على ذلك إضافة إلى موافقته على خطاب رئيسة الوزراء، قبل مغادرته لأمريكا في شهر مايو.

كان التحدي المتمثل في التخطيط للحفل يحلق في مواجهة المنطق الاقتصادي السليم بشكل دائم، وكان من الصعب جدًّا وصف الطريقة التي حاولوا تلميع المقابلة وفقها. جاء الصحفيون من فرنسا وإسبانيا ومن أصقاع الأرض جميعها ليعرفوا المزيد عن تجربة ستيفن العلمية، وقد جلبوا معهم أجهزتهم عالية التقنية المتخصصة بالمقابلات إلى المحطة، وبدوري طورت أسلوبي الخاص معهم؛ لأتحكم في كمية المعطيات ونوعيتها التي من الممكن أن أسمح لهم بمعرفتها، ولم أجد داعيًا لأن أخبرهم عن كل تفاصيل حياتنا، فقد اكتشفت حقيقة جديدة عن الصحفيين بأنهم يستغلون الأشياء الغريبة في حياتنا ليبيعوا أعدادًا أكثر من صحفهم.

فلو أردت أن أعترف يمكنني الذهاب إلى الكاهن، وإن كانت أقرابة النفسية مضطربة سأذهب إلى مختص، ولو أردتُ رواية قصة يمكنني كتابتها، أما أن أسمح لهم بمعرفة أشياء محددة عني فهذا أصبح مستحيلًا. كنت قد تعلمت تحويل المقابلة إلى محادثة بسيطة يسألوني من خلالها عن ردود أفعالي على أفكار ستيفن. لقد تعرضت لعدة تصريحات مهينة، فعلى سبيل المثال نشر أحد الصحفيين مقالة في مجلة التايمز تفيد بأنّ زواجي بستيفن كان نتيجة لرعايته الصحية، صدم هذا الخبر العديد من المقربين لدي، وبالأخص مدرستي القديمة السيدة جانيت وهي أحد الداعمين الأساسيين لي في هذه الحياة، فراسلت بريد الصحيفة واستنكرت المقالة وطالبت باعتذار ، جاءت إجابة الصحفي وقحة؛ لقد قال لها إنه يعرف عني وعن ستيفن أكثر ما تعرف هي. أما صديقنا جورج هيل زوج صديقتي المخلصة كارولين الذي كان على الدوام يحاول حمايتنا من أعين المتطفلين والصحفيين المزعجين فقال لنا: إنه يعرف هذا الأسلوب من التحريف والخداع؛ لأنه عمل في ذات الصحيفة. لم أكن أفهم لماذا عمل الصحفي ذلك دون أن يراعي ما قد تتعرض له الأسرة.

على الرغم من ذلك لم أكتفِ عند إجراء صحيفة الغارديان مقابلة معي بالكليشيهات القديمة التافهة عن مزايا العيش مع رجل عبقري، تلك التفاهات التي غالبًا ما تكون

مكررة تتحدث عن الشهرة والثروة كما لو أن المرض والعجز ليسا عناصر أساسية في حياتنا.

يمكن أن أُتهم بقلة الوفاء لستيفن، لكني من جهتي كنتُ أرى أن متابعة تلك الأسطورة عن حياة الرفاهية والأجواء المخملية التي أعيشها في كنف ستيفن، ليست سوى عملية خداع وغش للعديد من العجزة وعائلاتهم الذين يعانون -على الأرجح- الصدمات والضغوطات نفسها التي عانيناها فيما مضى، وسنفتح المجال للمجتمع اللامبالي بأن يطالب أولئك الأشخاص ببذل المزيد من الجهد طالما أنّ البروفيسور والعالِم الشهير ستيفن هوكينغ قام بذلك.

ربما يتعرض المهتمون إلى الحدود القصوى بأمر ما لضغوطات من أجل تأدية واجبات أكثر صعوبة؛ بسبب الصورة غير الواقعية عن طريقة عيشنا والتي قدمها الإعلام على مدار سنوات عدة، وأعطى انطباعات غير صحيحة عن أنّ حياتنا سهلة وميسرة، وقد كنتُ مضطربة في مقابلتي مع الغارديان؛ حيث وجهت سهام النقد إلى الرعاية الصحية الوطنية، وأكدتُ أنّ حقيقة نجاح ستيفن - حتى رواتب ممرضيه- كانت نتيجة مجهوداتنا الخاصة بشكل كامل، وقد وضحتُ أن تأرجح وضعنا بين النجاح والخيبة أثبت بشكل كبير سطحية الكثير من الناس الذين يريدون التصديق بأنّ ستيفن يعيش حياة مرفهة، مبعدين أنفسهم عن حقيقة الواقع. فُسِّرت تصريحاتي كما لو أنها خيانة، ولم يُقبل بها بوصفها نوعًا من النقد أو بوصفها ردة فعل، وإنما استُغلت فقط لزيادة إحساسي بالعزلة، وتساءلتُ إن كان الناس من حولي مجانين أو عميانًا، أو أني الشخص الوحيد من يفقد عقله.

هل يعيش هؤلاء الناس في عالم موازٍ حيث القوانين مقلوبة؟ أم أني أنا لا أستطيع عيش حياة متوازنة؟ وتزايدت اتهامات الناس لي بعدم الوفاء بسرعة من خلال المقابلات التي ظهرت في الفيلم الذي عُرض على قناة بي بي سي.

كررت انتقاداتي للصحيفتين اللتين أجريتا مقابلة معي في محاولة بلا جدوى لاستعادة التوازن لكليهما، بتصوير حياتنا الشخصية وتقديم النظريات العلمية

كأساس لدينٍ جديد، وقد ترافقت تصرفاتي أمام الكاميرات - والتي سارت عبر مدة من التكريم والاحتفالات - بالتهابات في الحلق، وصبغت الأنفلونزا مقابلاتي بنبرة صوت فيها من الاستهجان وحس الفكاهة أو الخيانة المصبوغة بلمسة من المرارة، وظهرت كامرأة حزينة يملؤها التشاؤم واليأس.

أشارت نيكي ستوفلي المنتجة التلفازية الشابة إلى أنّ إيلين ماسون (إحدى ممرضات ستيفن) قد عطلت عملية التصوير في المنزل، مدَّعية أنها كانت ملاحقة بشكل مكثف كأنها عملية اغتصاب، وادَّعت أيضًا أنها المديرة الرئيسة لأمور المنزل ولا يمكن الاستغناء عنها، وكانت تفترض -بتزلف ناجح- أنّ كل احتجاج سيكون عديم الجدوى، وأنّ أي تعليق سيعود بالفائدة على ستيفن، فنقلتُ شكواي إلى مدير الكلية الملكية للتمريض ورئيسها؛ من أجل تطبيق قواعد السلوك للممرضين، ولكن رفضوا هذا الاقتراح والتورط في مثل هذا الأمر إلا إذا تمكنتُ من تقديم أدلة دامغة على ممارسات الممرضين السلبية؛ وفي محاولة متواضعة لضمان بعض الخصوصية حاولت لوسي بتفاؤل أن تضع إشارات على أوراق التقويم كما يأتي: 8 حزيران/ يونيو ستبدأ لوسي المستوى (أ) وتتفوق فيه، اليوم الذي سيكرَّم فيه ستيفن ويُمنح درجة الدكتوراه 15 حزيران/ يونيو كتبتْ: لوسي ستنهي مستوييّ (أ)، ورغم تفويتها حضور الاحتفالات على حساب الامتحان إلا أنه كان هناك أمل صغير في إنجاز التفوق الذي تطمح إليه، ولذلك تعالت في 22 حزيران/يونيو نداءاتها الحماسية: «امنحوني التعاطف، إنني أستحقه». في هذه الظروف كان مبعث فخر بالنسبة إليها أنْ تتدبر أمرها في الامتحانات ناهيك عن نجاحها فيها.

في 15 حزيران/يونيو كانت نتائج المستوى (أ) الأكثر صعوبة باهرة وممتازة، فيما كانت مراسم حفل منح والدها مرتبة الدكتوراه تجري في طقس مثالي؛ فلم تظهر هناك أي تناقضات بين أفراد الأسرة الواحدة، وقد غادرت لوسي باكرًا في ذلك اليوم إلى المدرسة مبتهجة ومسرورة. غادرنا المنزل في الساعة العاشرة، ومشينا إلى أسفل الطريق حيث لم تبدُ المروج أكثر روعة من قبل، فقد كانت أوراق الأشجار كلّها تلمع تحت أشعة الشمس، في حين ظهر النهر وكأنه مرآة فضية تعكس السماء الزرقاء، فيما

تلقي أوراق الصفصاف المتدلية بظلالها على النهر؛ وصلنا إلى كايوس لنجد صخبًا غير معتاد، فقد اجتمع أفراد الكلية بأكملها ليلقوا التحية على ستيفن، واستغرق الأمر منه بضع دقائق ليرتدي الثوب الفخري المصنوع من المخمل والمناسب لفصل الشتاء، بينما كنا نخرج من الكنيسة مع الزملاء المتأنقين الذين وقفوا بانتظام على طول الطريق في ممر إلى بوابة قاعة التكريم، وبدأت الأبواق النحاسية تعزف نشيد الدومينو، وكانت فرقة أخرى تجول ملاحقة ستيفن الذي كان يهرع بأقصى سرعة عبر بوابة الشرف إلى ساحة مجلس الشيوخ.

كان روبرت قد وضع قائمة بالمساعدين من أصحاب العضلات للمساعدة في رفع كرسي ستيفن -ذي التجهيزات الغريبة- إلى أعلى الطريق المؤدي إلى قاعة المؤتمرات في مجمع المدارس القديمة حيث أعضاء لجنة التكريم والأمين العام للأمم المتحدة، وقد تسنى الوقت لستيفن ليرتشف بعضًا من العصير قبل أن يصل الأمير فيليب والمستشار الألماني الذي تقدم إلينا، واستذكر قدومه إلى ويست رود عام 1981، ممازحًا تيم بسبب قبعته وبقي لمتابعة المحاضرة التي سيلقيها ستيفن من خلال حاسوب الخاص قبل أن يؤخذ لمقابلة كبار الشخصيات الأخرى. مررنا بدورنا بشخصيات ملكية في طريقنا لتحضير أنفسنا من أجل الموكب الذي تحرك لحظة انضمامنا له، فمشينا ببطء حول حديقة مجلس الشيوخ بين الحشود التي تراقبنا من خارج الحديقة، وقد تبخر التوتر والارتباك بفعل أشعة الشمس الحارقة حتى بدا أنه لا يوجد أحد يشعر بالارتباك ضمن الموكب، وفي قاعة مجلس الشيوخ كان الجميع هادئين منتظرين قدوم السادة أصحاب الياقات الأنيقة في الكلية والأساتذة والمستشارين ليشغلوا أماكنهم، كما كان الجمهور وعائلات المدعوين متأنقين بملابس رسمية. انتظرنا بصمت مطبق بينما أغلقت الأبواب الخشبية الضخمة في وجه السياح ذوي الملابس غير الرسمية وعامة الناس في منتصف ذلك النهار الصيفي.

افتتحت الجوقات المختلفة في سانت جون وسانت كينغ المراسم بالنشيد الوطني، ومن ثم صدح مكبر الصوت بأسماء كل من رئيس مجلس اللوردات؛ اللورد ماكاي Lord Mackay، والأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويلار Pérez de Cuéllar.

قُدِّم الحفل بلغة لاتينية ذكية وحكيمة زادت من رونق الحفل وبريقه، وتحدث الأمين العام للأمم المتحدة مادحًا ما قدمه ستيفن من إسهامات علمية كان من شأنها تغيير نظرتنا إلى الكون والعالم، وتحدث باختصار عن إنجازاته في إحلال السلام في بقع مختلفة من العالم مثل إيران والعراق.

من ثم منح دوق أدنبره - وسط الكثير من المجاملات والمصافحات ورفع القبعات- الدرجات الفخرية واحدة تلو الأخرى وانتهى الافتتاح بالتصفيق، ثم ألقى ستيفن كلمته؛ وصل الحفل إلى ختامه مع المزيد من الأناشيد ومقطع من النشيد الوطني، ثم خرجنا مع ستيفن تاركين تيم مع جدته، نمشي بثبات جانب المرج في الساحة الرئيسة قبل التوجه إلى قاعة الملك تحت أشعة الشمس الملتهبة.

هللت الحشود مبتسمة وملوحة بأيديها، وبعد أن وصلنا إلى جامعة كوربوس كريستي Corpus Christi (جامعة روبرت، كما كانت جامعة ستيفن من قبل) جلسنا لتناول الغداء، ووجدنا أنفسنا محاطين بالعديد من المحبين يتبادلون الأنخاب. وكانت الكلمة قصيرة في ظل الجو الحار، وكان ستيفن أول من ألقى كلمته، وعبَّر دوق أدنبرة عن إعجابه بالمكرَّمين الذين يعبرون بأفضل شكل عن حضارتنا، وتكلم اللورد ماكاي، ومن ثم انتهى كل شيء عند ذلك. أما بقية النهار فكان مزيجًا من الانزعاج والتصرفات الرعناء كما لو أنّ قسوة الواقع عادت لتلقي بظلالها علينا.

في المنزل تجمع المقربون من الأصدقاء وأقمنا حفلة بسيطة، أما روبرت فقد كان شارد الذهن طوال الوقت؛ ربما يفكر بعمل عليه أن ينجزه مساءً، فقد كان عليه أن يجدف القارب الآخر في كوربوس مندفعًا بين الحشود، وقد تمكنتُ من تجاوز هذه الحشود لأشاهد روبرت يجدف. كان نهارًا طويلًا ومليئًا بالأحداث، حيث جاءت لوسي إلى المنزل بحالة استغاثة رهيبة كما لو أنّ امتحان المستوى (أ) لم يسِر بشكل جيد، ولاحقًا بعدما غادر الضيوف وفيما كنت أنظف المنزل رنَّ جرس الهاتف؛ إنه روبرت، فتحادثنا قليلًا ثم أخبرني بأنّ النتائج لم تكن جيدة، كان مستاءً للغاية وشعرت بوضعه، فقد كانت نتائجه معلقة على أحد الأعمدة في جامعة كوربوس في الوقت الذي كان يقام فيه حفل تكريم والده، وقد عملتُ جاهدة كي لا يرى ستيفن هذه النتائج ما

قد يفسد علينا الحفل برمته، لكنَّ شعور الأسى تجاه روبرت لم يُزِل عني شعور الفرح تجاه تكريم والده.

كنتُ أعلم أن روبرت سيصاب بخيبة أمل كبيرة إذا لم يحقق الإنجاز الأكاديمي الذي يطمح إليه، فأنا أعرفه حق المعرفة، ولذلك فقد أخذت ستيفن إلى مركز السباق في كوربس بعد ظهر اليوم التالي على الرغم من التوقيت غير الصحيح؛ فقد كانت السباقات تجري على طول مجرى النهر على بعد خمسة أميال من المدينة، وعلى الرغم من ذلك وصلنا إلى المكان الذي كان فيه قارب كوربس يترنح في المؤخرة، ورأيت وجه روبرت حانقًا بسبب خسارته تلك، لكنَّ بعض السرور تسلل إلى قلبه في نهاية ذلك النهار.

13
العِشرة الطيبة

في وقت متأخر من مساء 16 حزيران/ يونيو جلسنا لمشاهدة إعلان تكريم ستيفن في عيد ميلاده، ولسبب غير مفهوم كانت الممرضة إيلين ماسون حاضرة تعترض وتتفاخر، ولكن والد ستيفن كان ينتفض فرحًا وسرورًا لارتقاء ابنه إلى المراتب العليا. في الصباح التالي استيقظت وفي ذهني نظرة أكثر واقعية لكيفية بدء النهار بطريقة احتفالية، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن طريقة بها يكون ذلك النهار والفطور الصباحي هو الأكثر أهمية لستيفن، وتذكرت أن هناك بقايا طعام من احتفال الأمس، قليل من الكافيار وبعض العصائر الفاخرة تجعل من الفطور ملكيًّا في ذلك النهار، أنجزنا الكثير من الأمور في ذلك الصباح، ثم حجزنا طاولة الغداء في مركز الجامعة بداية مدة ما بعد الظهر، ووجدت عائلة جوناثان مشغولة بترتيب المقاعد والتخطيط لجلوس المدعوين بينما كانت الأوركسترا تتدرب على معزوفاتها. تركتهم وهرعت عائدة إلى المنزل لآخذ والديّ في رحلة خاطفة إلى النهر، حيث وصلنا في الوقت المناسب لنرى القارب الثاني لا يزال يجدف حاملًا غصنًا من الصفصاف كإشارة على أنه تخطى عثرة النصر.

شهد مساء حزيران/ يونيو الخالي من الغيوم عودتنا إلى مجلس الشيوخ مندهشين من رؤية الصف الطويل من الأصدقاء والمعجبين الذين كانوا ينتظمون لدخول الحفلة الموسيقية التي كان عنوانها (أونوريس كوزا) Honoris Causa، وقد وجهتُ ستيفن بعيدًا بحيث لا يرى قوائم العلامات المعلقة على الأعمدة الخارجية، وتركته جالسًا على المقعد نفسه الذي جلسنا عليه منذ يومين لالتقاط الصور التذكارية مع بعض الضيوف من منتجي الأفلام والحفلات الموسيقية. قمنا أنا ولوسي ووالدي بعمل شاق لقيادة كل فرد من الحضور إلى مقعده، ثم انضممت إلى ستيفن في الخارج لطلب المزيد من المساعدة من أجل تيم. أصرَّ مدير مجلس الشيوخ - لدرجة أحرجتني- على أني

وستيفن يجب أن ندخل بمرافقة فرقة مراسم دخول رسمية، وأبقانا في الخارج حتى اكتمل عدد الحضور في الداخل، ومن ثم استُقبلنا بحفاوة بالغة.

بعد دقيقتين تعالت أصوات موسيقى الباروك تعزف سوناتا بورسيل محلقة فوق رؤوس الجمهور، لتمتزج مع زخرفات السقف التي تعود للقرن الثامن عشر، وكان الجمهور راضيًا كل الرضا في نهاية الحفل، ونتيجة لذلك تمكنا من إرسال الشيكات إلى ثلاث جمعيات خيرية مثلما تمكنا من تغطية تكاليف الحفل من مبيعات التذاكر.

كان النجاح باهرًا كما بدا الأمر، فالجمعيات الخيرية استفادت، وحصلت فرقة كامبريدج باروك كاميراتا على عقد تمويل جديد واتفاق رعاية، والأكثر أهمية من ذلك كلّه تكريم ستيفن ونيله التصفيق ومئات التهاني، لكنه مع ذلك كان منفعلًا وساخطًا، فقد تصور أن جوناثان والأوركسترا قد تحجب نصيبه من الأضواء. لم أعتد عليه من قبل كذلك، لم يكن هو ستيفن العادي الذي أعرف، لقد دخل في المشروع بحماس، وعندما لم يكن في أمريكا أقحم نفسه في تطويره. أما جوناثان فقد تنحى جانبًا ليفسح المجال لستيفن كي يتلقى تملق الجمهور في نهاية الحفل، بل لم يكن هناك شكّ في أن الحفل كان حفل ستيفن. كان الاستنتاج الذي لا مفر منه -للأسف- أن ستيفن سقط فريسة النفاق والتزلف الفارغ، وظهر أنه بات مقتنعًا بأفكار كانت غريبة عنه وعن عبقريته.

كان من الواضح أنّ الأضواء مسلطة على ستيفن طوال الصيف، ولم يكن ذلك أكثر مما كانت عليه عندما قدمنا لزيارة قصر بكنغهام للمرة الثانية بعد بضعة أسابيع، على الرغم من أنّ هذه الزيارة كانت حميمية بشكل مدهش مقارنةً مع زيارتنا السابقة قبل سبع سنوات. كانت الطريق مسدودة أمام حركة المرور نحو الصالة بسبب تبديل الحرس؛ وذلك لتجنب الازدحام حول المدخل الرئيس، وتوجهنا إلى مدخل خاص بالملكة حيث انتقلنا فجأة إلى حديقة ملونة بعيدة عن اضطرابات حركة المرور في لندن، واستقبلنا بعض الموظفين وسائس الخيل والوصيفات بابتسامات رصينة، وأطلعونا على سيارة كانت للأمير تشارلز إضافة إلى دراجتين ناريتين، ثم وصلنا إلى

صالة البلياردو التي كانت مضاءة ومفروشة بقماش الداماسك الأحمر والوردي، كما وقفت أزهار الزنبق مثل حراس للقاعة يحرسون كنوزها.

استدرنا وعدنا إلى صالة معرض الصور متابعين خطواتنا بسرعة على طول القاعة الرخامية بالكاد نلقي نظرة على صورة تشارلز الأول وعائلته. وكانت هناك الكثير من صور الأميرة أوغستا، ثم عبرنا إلى ممر ضيق وصولًا إلى غرفة جانبية صغيرة مليئة باللوحات والأثاث، كانت الغرفة الإمبراطورية. أخيرًا سرَّعنا أنا وستيفن من خطونا لنلتحق بالملكة التي كانت تنتظر في غرفة في نهاية الممر، حيث وقفت ترتدي ثوبًا أزرق ملكيًّا مع بعض الخطوط البيضاء، كانت تنظر باتجاهنا بابتسامة ودية، لكن القلق كان باديًا على ستيفن وسرعان ما تحول إلى نظرة ملؤها الرعب، تابعنا طريقنا صعودًا حيث كنا نمشي على سجادة سميكة فعلقت كرسي ستيفن وتوقفت لتسد الطريق، فمن وراء الكرسي لم أتمكن من الرؤية بسهولة، وكانت الملكة الشخص الوحيد داخل الغرفة حيث نهضت قليلًا كما لو أنها على وشك التقدم للمساعدة في رفع كرسي ستيفن لتمكينه من متابعة الحركة، ولكن -لحسن الحظ- تقدم سائس الخيل الذي كان هناك وخلَّصنا من تلك الورطة.

بطبيعة الحال كانت جلالة الملكة مرتبكة بعض الشيء -مثلما كنت أنا- فلذلك لم نتمكن من المصافحة، ونسيتُ أن أنحني في أثناء تلاوتها لخطاب ترحيب قصير، وبعد صمت محرج قررت المضي قدمًا في العرض دون تأخير، فأعلنت لنا عن سرورها لمنح ستيفن مرتبة الشرف، وقدمت لي الميدالية نيابة عنه وقرأت الكتابة عليها بصوت مرتفع: «مخلصون في العمل، ذوو شرف رفيع». وقدمنا إليها بدورنا نسخة مطبوعة من كتاب موجز تاريخ الزمن التي أفزعتها بعض الشيء، فاستفسرت: «هل هذه نسخة شعبية من عمله كالتي يقدمها المحامون؟»، وهنا جاء دوري بالاضطراب؛ لأنني لا يمكن أن أتصور شيئًا يتعلق بالقانون والمحاماة يمكن أن يكون شعبيًّا. استعدتُ رباطة جأشي، وقلت: «إنه لمحة تاريخية في معظمه، وخاصة الفصول الأولى التي تقدم عرضًا رائعًا عن تطور دراسة الكون»، ثم تواصل الحديث قرابة عشر دقائق، ورغم ابتسامة الملكة إلا أنّ نظرتها الثاقبة وثوبها الأزرق المهيب كانا يشعراني ببعض الارتباك، فكنت

أخشى حتى النظر في عينيها ولا أجرؤ على تحويل نظري من اليمين إلى اليسار، ورغم طريقة سؤالها اللبقة إلا أني شعرت أني في امتحان شفوي أو مقابلة مع مديرة ذكية ولكنها حسنة النية. وتساءلت لاحقًا إن كانت إجاباتي كافية وصحيحة.

لاحقًا اشتكى ستيفن من أنه لم يكن قادرًا على التحدث بقدر ما كان يود بسبب مشكلة في جهاز الحاسوب، وأيضًا كان منزعجًا من حادثة تعثر كرسيه بالسجادة، ولكن كان الانطباع العام بأنّ هذه المناسبة قد مضت، وها هو ستيفن مع ميدالية أخرى رائعة يضمها إلى مجموعته الكبيرة. وعند مغادرتنا المطعم فوجئنا بباقة من الزنابق الصفراء تقدمتها لنا الإدارة.

14
يوم الغضب

وبمرور أسبوع آخر كنتُ وتيم في فرنسا مرّة أخرى، اتجهنا نحو مولان التي ومضت بأضوائها في ظلمة المساء، وما إن وصلناها وفتحنا الأبواب حتى تنفسنا بعمق الهواء المنعش للروح، كنت متوترةً عاطفيًّا ومنهكةً جسديًّا بعد تلك الخضات الأخيرة، خيَّم علينا هدوء الفناء الداخلي ليلفنا بعطفه من طغيان العالم الخارجي، وحدها زقزقة العصافير من كسرت حاجز الصمت هذا، ليتردد غناؤها العذب قبالة الجدران البيضاء.

ضمَّ تيم صوته إلى صوتها ليطلب بانعدام صبر فتح الباب لكي يصعد العلية، ويتحقق من أرجوحته على صورة طائرة، التي كانت معلقةً في بيت الدرج بمجموعةٍ متشابكةٍ من الحبال والمواد اللاصقة، وفي الداخل تنقلنا من غرفةٍ إلى أخرى، نتفحص كلّ زاوية وركن، للتعرُّف إلى كلّ تفصيل، ولدهشتنا وجدنا أنّ الحظيرة السوداء المغبرة قد تحولت -مثلما في قصة سندريلا- لتصبح جاهزةً لاستيعاب حاشية ستيفن من طاقم تمريضي، وقد اختفت الأنقاض وخيوط العنكبوت والعوارض الخشبية المتعفنة تمامًا، كانت هناك غرفة كبيرة مكسوَّة بالبلاط ومطبخ في الطابق السفلي، وفي الطابق العلوي كان هناك غرفتا نوم وحمامان، وقد حملت العوارض الجديدة والقديمة الصالحة للاستخدام الهيكل برمته، وبدا المنزل واثقًا في عراقته دون الحاجة إلى لمعان التجهيزات الحديثة، مكتفيًا بما كان هناك منذ عهدٍ سحيقٍ.

ثم تجولنا في الحديقة- لاستكشاف المزيد- وكأنّ سحرًا قد مسَّها في غيابنا ليلهث تيم: «إنّها مثل قصر بكنغهام!»، وفي الواقع كان على حق، فقد نمت النباتات والبذور التي كانت حشائش صغيرة لتقرب من مرحلة نضحها، وفي أيار/مايو كانت مجرد كتلٍ صغيرةٍ معزولةٍ ضئيلةٍ، وها هي الآن تنفض رؤوس أزهارها لترقص في ردائها الملوَّن في سعادة غامرة.

بالطبع كانت هناك بضعة أشياء يتعيَّن القيام بها، من طلاءٍ للجدران وتغطية الأرضيات، إلا أنّ الأعمال الأساسية كانت منجزةً. لم تكن مولان علىً أهبة الاستعداد لاستقبالنا فحسب؛ بل لاستقبال حشود زوار الصيف كذلك، إذ سيحضر أخي عائلته المكوَّنة من أربعة أطفال، وسيأتي آرثر صديق تيم مع والديه في زيارة نهاية الأسبوع، وسيحضر جوناثان والديّ، وسيأتي ستيفن جوًّا إلى لو توكيه، بإشراف بان بنسون -الممرضة الموثوقة- وإلين وديفيد ماسون وعائلتهم.

وعلى الرغم من شكوك أمي، إلا أنّني وفي غمرة تفاؤلي دعيت أسرة ماسون، على أمل أن تشجع تجربة عيشها معنا في المنزل نفسه (لكن في ظروف أكثر استرخاءً من ظروف كامبريدج) قدرًا أكبر من احترام الانضباط الذاتي التي كانت أساسيةً في روتين حياتنا، ولم يكن لديَّ أي نية للتدخل في أي رابطة وديةٍ كانت قد تطورت بين إلين وستيفن، فقد وجدتُ أنّها ممرضة محترفة، مقتنعة بأنّ نجاح مهمتنا يعتمد على العمل الجماعي والتوازن الدقيق، ولا مجال لمثيري المشكلات في هذه الحالة الدقيقة.

وبسذاجة، اعتقدت أنّها إذا أدركت أنّني وجوناثان لا ننام في الغرفة نفسها، فإنّها ستتعلم احترام أسلوب الحياة الذي مكننا من رعاية ستيفن والأطفال إلى ذلك الحين، وحده فقط التعصب الشديد هو من سيمنع المرء من رؤية ما كنّا نسعى إليه وجهودنا الجبارة لتحقيق ذلك المسعى، ومن دواعي السخرية أنّ ستيفن كان واحدًا من الذين يسخرون بشدّة ممن يمتلكون مثل هذا التعصب في نظرتهم للأمور.

كنّا، أنا وتيم والحرفي البارع كلود وفتاة لطيفة جدًّا من القرية، لا نزال منهمكين في طلاء جدران الجزء الجديد من الطابق السفلي للمنزل عندما وصل أخي وعائلته قبل أسبوع من موعدهم؛ ربما بسبب شتات ذهن أخي، ولذلك سارع كريس للتعويض عن وصولهم المفاجئ بالإشراف على الطبخ، وفي رأيه كانت المتاجر الكبرى أفضل مناطق الجذب السياحي في فرنسا، فقد أمضى - في سعادة - أوقاتًا طويلة في تفحص الرفوف بحثًا عن مكونات باهظة ليضيفها إلى طبخاته، التي فاحت منها رائحة جعلت لعابنا يسيل كل مساء واعدةً إيانا بمسرّات ذوقية لا مثيل لها.

وفي الوقت الذي توجه فيه ستيفن وفريقه المتنوع إلى لو توكيه في منتصف شهر أغسطس/آب، اختبرت موجات متتالية من الزوّار الجناح الجديد في المنزل، بمن فيهم

والداي، اللّذان عبَّرا عن رضاهما التام لسحره وملاءمته، لكن التوتر كان ملحوظًا بين الوافدين الجدد، ولاقت فرحتي برؤية ستيفن استجابةً باردةً منه، لأعرف أنّ غمغمته حول كرهه للريف الفرنسي قد ضربت المنزل بقوةٍ، إذ عبَّر عن عدم رغبته في قضاء عطلته في فرنسا، ناهيك عن المكوث في الريف، وضاعت محاولاتنا جميعها في وضعه أمام مناظر طبيعية خلابة من الحقول الساحرة تحت أشعة الشمس المتماسة مع الخط الأزرق البعيد للتلال والغابات في الأفق، ليعبِّر عن مله وازدرائه العميق للمكان.

يومًا بعد يوم، بدت الحقيقة المؤلمة لي، لقد خصَّ إلين بابتساماته واهتمامه، ولم أشك في أنّه قد تلقى تشجيعًا لاحتقاري؛ لأنّني لم أكن على أهبة الاستعداد لتلبية طلباته جميعها بحذافيرها، ويظهر أنّه اقتنع بأنّني لم أعد مفيدةً له، وأنّني لست جيدة في شيء، كان موقف إلين قويًا، إذ كان على عاتقها مسؤوليات محدودة، وكان لها أن تلبي أدنى طلب لستيفن بكلّ تملق ومداهنة، وقد ساعدها تدريبها المتخصص على تلبية طلباته جميعها.

وبما أنّ شواغل ستيفن الرئيسة كانت عمله وحالته الجسدية، فإنّ دوري في هذا المجال قد تقلص كثيرًا، بينما تعزز دور إلين بالمقابل بشكلٍ متعاظم، وبدأت الروابط الأسرية والفكرية التي أقدِّرها، والتي حافظنا بوساطتها على صورةٍ من صورالحياة الطبيعية تصبح أقل أهمية بالنسبة إليه، وربما وجد فيها شخصًا أكثر صرامةً مني.

لم أكن لأنكر له هذه الهبة بالنسبة إليه، وكنت على استعداد لقبول الأمور على ما هي عليه – بالطريقة السخية نفسها التي قبل فيها علاقتي بجوناثان، شريطة أن تكون علاقةً كتومةً، ولا تهدد أسرتنا وأطفالنا ومنزلنا ومسار العملية التمريضية المكلفة جدًّا، وكان من الضروري بمكان عدم إلغاء علاقتي بستيفن، لقناعتي أنّه سيكون من دوني كالطفل الضائع؛ عنيدًا وصعب المراس لكن عاجزًا وساذجًا على حد سواء.

ارتبط مصيري به ارتباطًا وثيقًا، لدرجة أنّني لم أشعر بعدم المبالاة إزاءه قطُّ مهما بلغت ظروفه قسوة، وقد أصبح الاهتمام برفاهيته من صلب طبيعتي، ومهما بلغ كدره أو رفضه أو انزعاجه من صغر ما تجاهلته، والحقيقة أنّني ما زلت أحبُّه بالتعاطف نفسه المهتم والعميق.

وفي تلك الهيئة الهزيلة - ورغم قوة عقله - إلا أنّ معاناته التي تثير أعماق نفسي واضحة وضوح الشمس، ولم أشعر أبدًا ذات يوم أنّني أتفضل عليه بمساعدته، بل كنت أعيش على حبلٍ عاطفي مشدود، حيث اليأس والإحباط مقابل عناده ومطالبه غير المعقولة، والتي إن لم تُنفذ فستبدو وكأنّها إهانة لحقوق شخص بالغ العجز مثله.

أصبح زواجنا - هذا البناء المعقد - السمة الرئيسة لحياتي، حيث تلخصت أهم إنجازاتي باستمرار ستيفن في الحياة، وكذلك الأولاد والعائلة والمنزل. كان تاريخًا طويلًا من المعارك المشتركة لمقاومة مرض ستيفن ونجاحنا في ذلك ونجاحه في عمله عكس التوقعات كلّها، كرَّستُ نفسي لتلك الأهداف كلِّها، وحتى لو قبلتُ مساعدة الآخرين، فهذا كان ليساعدني على المثابرة وبذل المزيد دون أن تتحول مهمتي إلى مهمة انتحارية. كنتُ أتوق إلى المزيد من الحرية في بعض الأحيان، وأشتاق لمزيد من الحركة والتحرر من القيود الصارمة ولكني لم أفكر يومًا بالهروب مما نذرت نفسي له باستثناء لحظات اليأس. ربما أثقل كاهلي هذا البناء، وأفزعني اهتزاز أركانه، ولكن لم يكن بإمكاني التصديق أنّ هذا الزواج يمكن أن تجرفه فورة عاطفية. كانت حقيقة كون إلين لديها زوج قادر على العمل وعائلة خاصة بها خارج قدرتي على الفهم؛ كانت تلك مسألة تخص ضميرها ولا مكان لي فيها.

ربما كانت الأمور تُحل سلميًّا لو كان الأشخاص المعنيون مختلفين عما هم عليه، لو كانوا أكثر مراعاة، وأقل عنادًا وأنانية. ربما لو كنتُ أقوى وأقل اضطرابًا لتعاملت مع المسألة بشكل مختلف وبمزيد من الاطمئنان؛ لقد تجمعت عوامل عدّة زادت من نفور ستيفن من هذا البلد ومن مولان كذلك، بعكس ما كان عليه الوضع خلال الربيع، فقد أصبح عدائيًّا بشكل أكبر تجاه الأسرة وتجاه بام الممرضة الأخرى، وعندما أخذتُ على عاتقي الإيضاح لستيفن وإلين أنّ ما يقومان به قد يتسبب في ترك بام الالتزام بجدول مناوباتها، كنتُ من غير قصد قد أضرمت النار في الهشيم، نار كان من شأنها أن تحرقنا جميعًا. وابتلعت النيران البيت القديم في ذلك اليوم والليلة التالية لتُحطم جدار الصمت، وتهدم الأعمدة القديمة، وتؤلِّب عليَّ كل مَن حولي لأحترق بنار الذم والرغبة في الانتقام؛ أصبحتُ بنظرهم الزوجة الخائنة والشريك المهمل والمرأة

الأنانية الخجولة التافهة، واتُهمت بأني أدير الأمور وفق طريقتي الخاصة منذ زمن طويل وأن عليّ أن (أضع ستيفن أولًا).

واجهت ذلك الهجوم وحدي، ولم أشأ أن أقحم جوناثان في هذه المعركة غير الحضارية، ولكن في الوقت نفسه لم يكن من سبيل لإخماد النيران، أو الإشارة إلى أني حاولت جاهدة أن أكون زوجة جيدة لستيفن؛ رغم الانحرافات كلها التي تخلفها الفيزياء ومتطلبات حالته المرضية وأكوام المهام المطلوب مني أداؤها، وأني حاولت بصدق بذل قصارى جهدي مع كل تلك الأدوية والمعدات الطبية وجداول مناوبات الممرضات، والعدد الكبير من أوراق البحوث العلمية والمعادلات والاجتماعات، ومع ذلك لم تسلم حياتي الخاصة من تأثير ذلك كلّه. ولم يكن حب جوناثان ومساعدته اللذان أنقذاني من اليأس ليمنعا أصابع الاتهام عني، لم تكن جهودي كلها التي بذلتها كافية، والآن ها أنا ألقى جانبًا لصالح شخص خدع رجلًا مريضًا بوعود كاذبة وواهية وآمال غير واقعية. لقد كانت تلك بداية موت زواجنا.

وحيدة في غرفتي بعد أن خفتت قليلًا الموجة الأولى من الهجوم، شعرت بأنّ لا حول لي ولا قوة فسالت دموع الغضب حارة، وشعرت بتمرد يمزق روحي، تمرد على ضحالة هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين دخلوا حياتنا مؤخرًا، أشخاص لم يواجهوا من قبل تلك الأزمات المتلاحقة، ولم يتحتم عليهم من قبل مواجهة تلك الصدمة الساحقة بأن تعيش في مواجهة مع الموت كل يوم لربع قرن من الزمن، لم يغوصوا يومًا في أعماق مشاعرهم ولم تمزقهم معضلة أخلاقية من قبل، ولم يسبق لهم أن تجاوزوا حدود قدراتهم البدنية والعقلية، كانت تجربتهم بخصوص هذه المسائل سطحية لا تتجاوز سطح الواقع، مدفوعين بدافع من الإشباع الذاتي بحيث يُمْلون قيمًا مطلقة على الآخرين في حين هم أنفسهم لا يمكنهم الالتزام بها، بالإضافة إلى أني كنت في عيونهم مجرد إنسان آلي لا مطالب مبررة له، ولا يحق له إبداء رد فعل على ما يجري من حوله، وكانت حاجتي إلى أنْ أكون محبوبة فقط لأجل شخصيتي وما أنا عليه، موضوعًا غير مقبول بالنسبة إليهم.

بعد هذا الفشل الذريع عاد ستيفن وزوجته إلى إنجلترا، فيما بقيت أنا وتيم في مولان. كان البيت والحديقة القديمان الجميلان يجمعان ثنايا روحي المتعبة، وكنتُ

أجد راحتي الجسدية في أنحائهما، كنتُ أجد الطمأنينة في الريف الفرنسي الهادئ، وفكرتُ بأنه إن كان ستيفن حقًّا لا يريدني، يمكنني بدء حياة جديدة جيدة في فرنسا، كما يمكنني إعالة نفسي من خلال تعليم الإنجليزية والإسبانية، ويمكن لِتيم أن يتحدث لغتين بشكل طليق. ومع بداية شهر أيلول/سبتمبر بدأ بارتياد مدرسة القرية، فكوَّن صداقات متعددة بشكل سريع دون أن يعرقله اختلاف اللغة، وشيئًا فشيئًا بِتُّ أشعر أن إنجلترا أصبحت بلدًا غريبًا بالنسبة إلي، ناهيك عن المظالم السياسية في عهد رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر، في حين قدَّمت لي فرنسا نمط حياة جديدًا وأصدقاء جددًا، كما كنتُ أشعر فيها بالمساواة.

علاوة على ذلك ففرنسا بلد كاثوليكي يقدس السيدة العذراء، الوسيط المؤنث للثالوث الذكوري، وكأن الأمر انعكس اجتماعيًّا؛ حيث كان للمرأة حضور قوي بافتراض أنّ لها مكانة مرموقة في النظام الإلهي للحياة.

اندمجتُ وتيم في روتين الحياة هناك بشكل سريع، وشعرتُ أنّ بإمكاننا العيش في فرنسا بشكل دائم إذا لزم الأمر أو نعود إلى إنجلترا عندما تُحل مشكلات ستيفن. أما جوناثان فقد عاد إلى كامبريدج لإقامة عدد من الحفلات، وكنا على اتصال دائم، وقد حثَّنا على البقاء في فرنسا طالما نشعر فيها بالراحة.

كان ستيفن يتواصل معي هاتفيًّا بشكل يومي ليقنعني بالعودة إلى إنجلترا. لقد اشتاق لنا كما أخبرني وقال بأنه يحتاجنا إلى جانبه، كان مقنعًا لدرجة أني كنت واثقة من أنه ينوي حقًّا استعادة بعض الانسجام في حياتنا، وأنه سيُبقي الممرضات تحت السيطرة، وفي وقت لاحق من ذلك الشهر عدت إلى إنجلترا عبر البحار الهائجة عازمة على تجنب المواجهة، وكانت عائلتي بما فيهم والداي وروبرت سعداء لرؤيتنا ثانية، إلا أنّ استقبال ستيفن لي كان جافًّا بصورة واضحة، لم يكن طفلًا معذبًا جاء لتحيتنا كما خُيِّل إليَّ في البداية، بل كان قد أصبح طاغية. عندها أيقنتُ أني ارتكبتُ خطأً جسيمًا بالعودة إلى إنجلترا.

15
واقعية لا تحتمل

في يوم الإثنين التالي، عاد تيم إلى مدرسته الابتدائية، وعدت أنا إلى عملي في التدريس؛ إذ قررت أن أكمل الفصل الدراسي الحالي على الأقل، وحين عودتي وجدت أن ستيفن قد أرسل إليَّ رسالة يخبرني فيها أنه قرر العيش مع إيلين ماسون، وتتالت في تلك الليلة الأحداث الحزينة حين سمعت أن روبرت تعرض لبعض السارقين الذين ضربوه وكسروا فكه.

لم يتمكن ستيفن من تنفيذ قراره في الحال؛ لأنه لم يجد مأوى آخر، وقضيت تلك المدة أتخبط في الفوضى، وكم تمنيت أن يتجاوز ستيفن فورة المشاعر تلك ويختار البقاء مع أهل بيته. كان يأتي ويذهب دون أن يشعر به أحد، إذ كانت الضغوطات الخارجية أقوى مما يستطيع تحمله، ولكن ما إن يتجاوز عاصفة ما حتى يسكن ويتصرف وكأن شيئًا لم يحدث، ولم أكن أعي أن تلك لم تكن سوى بداية المشكلات ليس إلا، إذ سرعان ما وصلتني أخبار تقول بأنّ تلك الممرضة قد بدأت تنشر خبر زواجها بستيفن. أصابني ذلك بذعر جديد، وخشيت ألا أحصل على حضانة تيم، ومما زاد الطين بِلّة أن جوناثان كان قد تلقى إنذارًا قضائيًّا يمنعه من زيارتنا، فلم يجد بُدًّا من أن يلزم منزله.

أدركت أنه لا مجال للنقاش؛ وذلك لأن الحواجز التي نشأت بيني وبين ستيفن قد باتت لا تحصى، وكلما شعر ستيفن بأنه بدأ يفقد السيطرة على جسده كان يزيد من إحكام سيطرته عليَّ. يبدو أنه لم يعد يعدُّني سوى قطعة أثاث في منزله. لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد بل بدأت الممرضات يضعن في شباك سيارتي العديد من الرسائل المزعجة مطالبات بتحقيق ما أعجز تمامًا عن تلبيته، فقد بدأن يوجِّهن إلي بعض الاتهامات الباطلة، ويطالبن بأن أتوقف عن التفكير في جوناثان، وأن أعود إلى رشدي وأقوم بواجبي تجاه ستيفن على أكمل وجه؛ إذ ذلك ما يتعيَّن عليه فعله، وكذلك

وجدت نفسي فجأة ودون أي سابق إنذار جزءًا في الصراعات المالية ليس مع ستيفن فحسب بل كذلك مع تلك الممرضة، إيلين ماسون.

كان الأمر الوحيد الذي ساعدني على المحافظة على قدراتي العقلية هو ما يتطلبه التدريس من تركيز، خاصة أني كنت في ذلك الوقت قد بدأت بتدريس روايات غابرييل غارسيا ماركيز. كانت غرفة المدرسين المكان الوحيد الذي أجد فيه السلوان، فقد كان زملائي يظهرون لي بعض التعاطف والدعم، كما عملت الموسيقى على تهدئة عواطفي المتأججة وإن كان صوتي يختفي أحيانًا تحت تأثيرها القوي. إذًا ساد الهرج والمرج في منزلنا، وأصبحنا أنا وتيم نعاني رعبًا شديدًا، وقد رفضت هيئات التمريض: قنصلية التمريض البريطانية UK Nursing Council والكلية الملكية للتمريض Royal College of Nursing التدخل لمساعدتنا.

في وقت لاحق من ذلك الشهر طبعت قبلة الوداع على جبين اثنين من أولادي؛ إذ إنّ روبرت كان ينوي الذهاب إلى غلاسكو ليكمل دراسته في تكنولوجيا المعلومات، ولوسي كان تنوي الذهاب إلى أوكسفورد، حينها شعرت بأن الأساس الذي تقوم عليه حياتي، وبنيت عليه هويتي الشخصية، وكنت أؤسسه عامًا بعد عام من تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة قد بدأ بالزوال.

كنتُ وحيدة وسط تلك الحرب، وحيثما ولَّيت وجهي لم أكن أرى من ذاك الصرح الذي بنيناه أنا وستيفن معًا سوى بعض الأنقاض، شعرت وكأن هناك ثقبًا أسود قد بدأ يبتلع ذلك الصرح، ويبتلع معه خمسة وعشرين عامًا من عمري، ويبتلع كذلك آمالي وأمنياتي كلّها. أصبح ابني الأصغر تيم أملي الوحيد؛ لذا كان يتعيَّن عليَّ أن أستجمع كل ما أملكه من قوة وبأس لأدافع عنه وأحميه، كان يتعيَّن علي أن أقوم بذلك رغم كل ما أشعر به من يأس وكل ما حل بي من دمار.

لم يخطر ببالنا قط، أنا وجوناثان، أن نعيش حياتنا سويًّا بعيدًا عن ستيفن، لم يكن مثل ذلك التغير أمرًا واردًا بالنسبة إلى كلينا، وكنت أنا نفسي أعتقد أننا جميعًا قد وجدنا طريقة لنكمل حياتنا بأسلوب متوازن وبطريقة تضمن رضا الجميع، وإن كان

ذلك يتطلب الكثير من ضبط النفس. اكتشفت لاحقًا أن تلك لم تكن سوى أضغاث أحلام، فقد بدا جليًّا أن ستيفن لم يكن سعيدًا أو راضيًا عن أسلوب حياتنا لأعوام عدّة خلت. أذهلني مثل ذلك الاكتشاف، وبدأتُ أتساءل: إن كان ستيفن غير راض عن حياتنا، فلمَ لَمْ يخبرني بذلك من قبل؟ كيف استطاع أن يكون ناجحًا ومبدعًا وديناميكيًّا إن كان حقًّا لا يشعر بالسعادة بيننا؟ يبدو أن ستيفن لم يحتمل فكرة أننا نتعامل معه على أنه فرد من أفراد الأسرة ليس إلا، بل كان يريد أن نتعامل معه على أنه السيد الآمر الناهي والمرجع الأول والأخير، وجاء فجأة من يقدم له ذلك كلَّه، جاءت تلك المرضة التي كانت مستعدة أن تقدم له فروض الطاعة، وليس ذلك فحسب؛ بل وعدت ستيفن أنه لن يحتاج إلى ممرضات أخريات من الآن فصاعدًا، إذ إنّ في مقدورها وحدها أن تقدم له كل ما يلزمه من خدمات ليلًا ونهارًا وعلى مدار الأسبوع، وفي مقدورها وحدها أن تسافر معه حيث يشاء. ولم يكن في مقدوري بالطبع أن أتنافس مع ما تستطيع تلك المرضة المخلصة البسيطة تقديمه، ونتيجة لذلك طردت من منزل أسرتي وجُرِّدت من دوري في رعاية ستيفن، وظهر أنه يجب محو أي ذكرى تشملني.

بدأ الفصل الجديد؛ لذا كان يتعيَّن علينا أنا وتيم أن نترك فرنسا للأبد، ونعود إلى حياتنا المعتادة في كامبريدج ،ولكني كنت بحاجة إلى ملجأ بعيد عن أعين الناس جميعًا، وبالطبع لم يكن في إمكاني الذهاب إلى منزل جوناثان؛ فذلك يعني أنني أسعى إلى إنهاء زواجي وتلك لم تكن نيتي ألبتة. كنا أنا وتيم بحاجة إلى ملجأ بعيد عن الصراعات والأحقاد والاتهامات والحروب التي حلت بمنزلنا الواقع في ويست رود، ملجأ في منطقة محايدة. ولم أجد أمامي سوى خيار واحد فقط، صحيح أن منزلنا الواقع في جادة القديسة ماري الصغيرة Little St Mary'sLane كان قد أصبح ملكًا للكلية منذ سنوات؛ وذلك أننا استبدلنا بذلك المنزل منزلنا الجديد الحالي، إلا أنه كان ما يزال يُعدُّ ملكًا لنا حتى اللحظة؛ لذا كتبت رسالة إلى السيد أرجوه فيها أن يسمح لي أنا وتيم بالنزول هناك ريثما تهدأ العواصف التي حلت في بيتي. كان ذلك السيد عضوًا جديدًا في الكلية ولم يكن يعرف الكثير عني، كما أني لم أكن أعرف الكثير عنه، ولكن رده جاء صارمًا وواضحًا: إنّ نص الاتفاقية واضح جدًّا، لقد

استبدل ستيفن ذلك المنزل الواقع في شارع ويست رود بالمنزل في جادة القديسة ماري ؛ لذا لا يمكنني المكوث فيه إلا إذا أنكر ستيفن تلك الاتفاقية.

كانت نوبات الرّبو خلال النهار تمنعني من التنفس والتفكير على حد سواء، وكلما كان ستيفن يدعوني لأتحدث إليه كنت أصاب بتوتر شديد، وكنت أستيقظ كل ليلة على أثر الكابوس ذاته، كنت أرى أبنية تنهار فوقي وتدفنني في الركام، وكان تيم أيضًا يعاني بعض الكوابيس الليلية؛ كان يُخيّل إليه أن بعض الصبية المزعجين يطاردونه حيثما ذهب، أما نهارًا فكنت ألحظ أن تيم قد تحول إلى فتى منزو وانطوائي، وقد وصف لي الطبيب بعض الأدوية، وأرسلني لرؤية مستشار نفسيّ، أما تيم فلم يكن أمامه من حل سوى أن يبتعد عن المشكلات، ولم يكن تطبيق ذلك بالأمر السهل، وذلك أننا لم نحصل على الإذن بالمكوث في منزلنا القديم.

طلبتُ من مدير مدرسة تيم أن يخبر مدرسيه جميعهم أنه يعاني بعض التوتر في المنزل، ولكني - للأسف - اكتشفتُ متأخرة جدًّا أنه لم يستجب لطلبي؛ لذا كان تيم يعود من مدرسته يوميًّا والدموع تملأ عينيه.

استمرت تلك المعارك الطاحنة طوال الفصل، ولم نحصل على أي هدنة إلا خلال زيارتنا لإسبانيا؛ إذ توجهنا إلى هناك للحصول على جائزة منحها لنا وريث العرش، ساعدتني تلك الزيارة على استرجاع بعض القوة، على الرغم من أن الأمر لم يخلُ من بعض المتاعب والضغوطات الناتجة عن ملاحقة الصحافة لنا طوال الوقت، ومطالبة الصحفيين الدائمة بإجراء الكثير من المقابلات، إلا أني وجدت تلك فرصة لأثبت ذاتي من جديد، لأثبت ذاتي بوصفي متحدثة بلغات عدّة بداية، ورفيقة درب لستيفن ثانيًا. أكثر ما أثار عجبي أن يمر ذلك الإنسان الذي تمكن من اكتشاف أسرار الكون الرياضية بمحنة عاطفية مثل تلك. لقد حمى ستيفن نفسه بعباءة خشنة تمامًا كما هي حال سيغفريد Siegfried بطل فاغنر، عباءة كان قد حاكها من خيوط المنطق والتفكير العقلي، ولكنه تمامًا مثل ذلك البطل خلع تلك العباءة فور تعرضه لأول هجمة عاطفية، مثبتًا بذلك ما يعاني في داخله من هشاشة وعجز. لا شك أن نقطة ضعف ستيفن الجسدية كانت حنجرته، أما نقطة ضعفه النفسية فهي عدم قدرته

على مقاومة الألاعيب العاطفية؛ لأنه لم يختبر مثل تلك الأمور سابقًا، وقد جعلت تلك الأمور منه رجلًا عصبيًّا. كان يقابل كل عائق يقف في طريق تحقيقه ما يسعى إليه بثورة من الغضب لا تلبث أن تهدأ؛ فيعود إلى رشده ويعود السلام ليعم منزلنا، خاصة أنه حينها يصبح أكثر رقة ولطفًا، ويسعى جاهدًا إلى أن يضع الصراعات كلّها جانبًا، ويعود إلى حياته الأسرية التي اعتادها منذ سنوات. كان يسرُّ لي في مثل تلك الأحوال أنه يعاني تقلبًا في عواطفه، وأنه بحاجة إلى كمٍّ كبير من التفهم والدعم، وكنت بالطبع مستعدة لتقديم تلك الأمور كلّها، كنت أرغب -بحق- أن أساعده على تخطي محنته، ولكن مدة الهدوء تلك لم تكن تدوم طويلًا؛ إذ كانت تنتهي بمجرد أن تصل ستيفن رسائل جديدة ودعوات عاطفية. كم كنت أخشى عليه ما يجلبه ذلك من نتائج، كان يتوقف عن تناول الطعام ويعتزل العالم الخارجي، واستمر الأمر على ذلك المنوال حتى حلول عيد الميلاد. كان والدايّ قد قررا أن يحتفلا في ذاك اليوم بمرور خمسين عامًا على زواجهما، ولكن ذلك الاحتفال تحول إلى كارثة؛ إذ إنّ ستيفن قضى نهار اليوم مع أسرته، ولكنه ركب شاحنته ليلًا برفقة إيلين ماسون متوجهين إلى فندق ما، وغادرا في اليوم التالي سوية لحضور مؤتمر في إسرائيل.

لم نسمع بعد تلك الحادثة أي خبر عن ستيفن حتى حلول شهر كانون الثاني/يناير، وذلك حين عدنا إلى المنزل أنا وجوناثان والأطفال بعد أن انتهت إجازتنا في فرنسا، حيث وجدنا ستيفن منتظرًا هناك متوقعًا أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه سابقًا، ولم يقدم أي شرح أو تفسير لغيابه، ولم أطالبه أن يفعل ذلك. اجتمعنا في تلك الليلة جميعًا، وأقمنا مأدبة كبيرة واحتفلنا بعيد ميلاده، وأرسلتُ إلى والدة ستيفن أعلمها أن المشكلات قد ولَّت، وأننا سنتابع حياتنا أسرة سعيدة، ولكن ردها كان قاسيًا وسلبيًّا، علمت من خلال رسالتها تلك أنها كانت تشك أني قدَّمت لابنها ما يكفيه من دعم وعناية، وأنها لم تكن تعدُّني سوى امرأة استغلالية تسعى للحصول على الشهرة من خلال نجاح ابنها؛ وأني لذلك أحاول منع ستيفن من قضاء ما تبقى من حياته مع المرأة التي أحبَّته بحق.

لم تدم مدة الاستقرار طويلًا. بدأت الحروب والمعارك والاتهامات تستجمع قواها من جديد؛ لذا غادرنا أنا والأطفال إلى النمسا في عطلة منتصف السنة؛ حيث كنا ننوي لقاء آرثر ووالديه لنعاود التدريب على التزلج، وحين عدنا إلى المنزل وجدنا أن ستيفن قد رحل دونما عودة، ويبدو أن زوج إلين قد ساعده على مغادرة المنزل في الليلة نفسها التي سافرنا فيها إلى النمسا، وذلك في السابع عشر من شهر شباط/فبراير عام 1990. تلك كانت النهاية إذًا. لم أشعر بسعادة أو راحة بل شعرت بخدر تام.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن أدرك أن تلك لم تكن النهاية حقًّا، وذلك أني تلقيت في اليوم التالي اتصالًا من ستيفن الذي كان يصوِّر فيلم (موجز تاريخ الزمن) في استديو إلستري Elstree، حيث طلب إليَّ القدوم إلى هناك لمشاركته في تصوير مشهد تظهر فيه أسرتنا. كان ذلك طلبًا مثيرًا للدهشة، لا يزال ستيفن الذي ترك أسرته للتوِّ يتوقع أن نقوم بتلبية رغباته كأننا دمى متحركة، لا يزال مصرًّا على تقديم صورة زائفة للمشاهدين حول أسرتنا السعيدة والمترابطة. أدركت في تلك اللحظة أنه لم يعد لستيفن أي سيطرة عليَّ، وأن نغمة التردد التي كانت بارزة في صوتي لسنوات قد اختفت، فرفضت طلبه، إذ إنّي لم أعد أخشى ردود فعله المتعجرفة؛ لقد استعدت للتوّ سيطرتي على حياتي.

ومنذ ذلك الحين تحولت التراجيديا إلى مهزلة. لم يتوقف الهاتف عن الرنين، وفي كل مرة كنت أجيب كنت أستمع إلى تملُّقات المنتجين والمخرجين الذين كانوا يحاولون إقناعي بالعدول عن قراري والمشاركة في تصوير الفيلم، وحين قَدِم أولئك إلى كامبريدج ليكملوا التصوير في كنيسة لم تعد مستخدمة - حيث بنوا هناك مكتبًا مشابهًا لمكتب ستيفن الأصلي، وزاروني وحاولوا إقناعي من جديد - أخبروني بأنّ عدم وجودي في الفيلم سوف يقلل من مصداقيته، وبذلك سوف يخسرون ملايين الدولارات، وكنت أستخدم الحجة ذاتها التي طالما استخدموها سابقًا: هذا فيلم وثائقي وعلمي يحتوي بعض الإشارة إلى الحياة الأسرية ليس إلا. وكلما ازدادوا إصرارًا ازددت تصميمًا وقوة.

16
عدم ولا شيء!

رغم أني وجدت بعض السلوى في استعادتي استقلالي الضائع منذ سنوات، فإن تلك الحوادث قد تركتني روحًا محطمة. كنت أشعر بإنكار كل ما قدمته من جهود، وأني أبحث عن هوية جديدة بعد أن أصبحت الخمس وعشرون سنة الماضية هباء منثورًا ليس إلا، لم يكن ذلك الشعور نابعًا عن إحساسٍ ذاتيّ فحسب، بل إنّ الجمعيات الخيرية التي قدمت لها جلَّ ما أستطيع لم تعد راغبةً في الحصول على مساعدتي؛ وذلك لأنها لا تستطيع أن تخاطر بمصداقيتها وتُبقي ضمن صفوفها زوجين منفصلين، وبالطبع فضَّل أولئك الحفاظ على مشاركة ستيفن؛ لأنه شخصية معروفة في حين أنهم استغنوا عن خدماتي. أكدت تلك الحادثة شكوكي: بعيدًا عن ستيفن وخارج إطار زواجنا كنت أُعدُّ لا شيء.

على الرغم من كل هذا شعرت بأن قوة روحية ما تحيط بي، قوة لم أشعر بها سابقًا، ولم تكن تلك القوة مرتبطة بما أعانيه من تعب جسدي، كانت قوة تكشف عن وجودها من خلال ما قدمه لي أصدقائي المنتشرون في أرجاء العالم من حب ورعاية. أولئك هم الأصدقاء الحقيقيون، أصدقاء عرفونا منذ سنوات وكانوا دومًا يقدمون يد العون خلال الأزمات، أصدقاء كانوا دومًا يفرحون لما نحققه من نجاح، ولكن ذلك لم يكن ليعميهم عن الحقيقة المرة، أصدقاء أدركوا ما أعانيه من صعوبات في تأقلمي مع وضعي الجديد، أصدقاء عرفوا جوناثان وقدروا موهبته الموسيقية وما قدمه لأسرتنا من رعاية. أخبرني بعضهم أن دموعهم قد انهمرت غزيرة حين سمعوا أخبار الانفصال. ساعدني وقوف أولئك الأصدقاء إلى جانبي على استجماع قوتي، وقررت أن أضع ما كنت أبذله من طاقة في رعاية ستيفن لتنفيذ مشروع جديد، مشروع خاص بي وحدي: قررتُ أن أبدأ تأليف كتاب، لم أكن أنوي أن أكتب سيرتي الذاتية - على الرغم من أن الناشرين كانوا يلحون علي لأفعل ذلك؛ لأنّ هذا سوف يسبب لي الكثير من الألم، خاصة أنّ الأمور لم تكن واضحة في ذهني بعد. قررت أن

أكتب كتابًا حول تجاربنا في إيجاد منزل في فرنسا، وكنت أنوي تضمين ذلك الكتاب بعض الحكايا المسلية والمعطيات المفيدة التي يرغب الإنجليز الذين يودون شراء منزل في فرنسا بمعرفتها، وبما أنّ معظم أولئك لا يجيدون استخدام اللغة الفرنسية فقد نويت أن أجمع في الكتاب كذلك عددًا من المصطلحات الفرنسية الخاصة بشراء المنزل والإقامة في فرنسا؛ مثل: التأمين، ونظام الهاتف، والحكومة المحلية، والرعاية الصحية.

معظم الوقت الذي كنت أقضيه عادة في إدارة المنزل، وتلبية رغبات ستيفن، والإجابة على الهاتف، وإعداد الحفلات، وتنظيم نوبات عمل الممرضات؛ خصصت ذلك الوقت لتأليف الكتاب، وتعلمت خلال تلك المدة كيف أستخدم الحاسوب، وكم تمنيت لو حصلت على واحد حين كنت أكتب أطروحتي. كان ستيفن قد قدم لي الحاسوب والطابعة هدية عند فراقنا، ولم أفهم يومًا لماذا فعل ذلك، ولكني كنت أشك أنّ ما يعانيه من اضطراب هو ما دفعه للقيام بمثل تلك الخطوة وإن لم يكن ليعترف بذلك مطلقًا، وعلى أي حال كنت ممتنة جدًّا للحصول على تلك الهدية، فلولاها لما استطعت أن أجمع قاموس المفردات الفرنسية المفيدة.

وجدتُ في العمل على المشروع متعة لا تضاهى، وبالأخص الجانب الذي يشمل التعامل مع اللغة الفرنسية، ولكن النشر كان حكاية أخرى. وقعت لكوني غير خبيرة في تلك الأمور فريسة ناشر ادعى حسن النية، وأخبرني أنه سوف يقوم بنشر الكتاب، ولكنه - مثل آخرين سواه- لم يكن مهتمًّا سوى بالحصول على السيرة الذاتية.

ورغم كل ما تتمتع به الصحافة من مكر وخداع، تمكنّا من إبقاء أمر انفصالنا سرًّا لشهور عدّة. لم يظهر الخبر في العناوين الرئيسة، وبذلك استطعنا الحصول على مدة من الراحة. استغللناها في رسم الشكل الجديد لعلاقتنا سويًّا. كنا نلتقي كأننا أصدقاء قدامى، إذ كان ستيفن يأتي لرؤية تيم في أوقات الغداء، ولاحظنا أن باستطاعتنا الآن مناقشة أمور أسرتنا بهدوء وعقلانية، بعيدًا عما كانت تسببه حياتنا اليومية سويًّا من توتر ومشاحنات. لم يتغير شيء إذًا كل ما في الأمر أن ستيفن الآن يعيش في مكان آخر برفقة شخص آخر.

علمت الصحافة في النهاية بخبر انفصالنا مصادفة، حيث كان ستيفن في طريقه إلى منزله برفقة إحدى الممرضات (لم تكن إيلين) حين صدمته سيارة أجرة، فقلبت كرسيه ذا العجلات. لحسن حظه لم يصب سوى بكسور في كتفه، ولم يحتج لقضاء أكثر من يومين في المشفى، وحين علم الصحفيون بالأمر أرادوا أن يعرفوا لماذا لم يعد مقيمًا في ويست رود، وبدؤوا يتوافدون على منزلنا مطالبين بالحصول على شرح كافٍ مسببين الذعر لي ولتيم على حد سواء، وقد ساعدنا كل من رئيس قسم الصحفيين في هارفي كورت Harvey court وجوناثان الذي لم يكن الصحفيون يدركون أنه موجود بيننا، على الهروب من الباب الخلفي.

وما إن علمت الكلية بخبر انفصالنا حتى أرسلت إلينا سمسارًا يطالبنا بالرحيل، فقد وجد القائمون على الكلية أن الأمر جلي وواضح: لم تعد الكلية مسؤولة عن إيواء أسرة ستيفن طالما أن ستيفن نفسه لم يعد يسكن هناك. لم أكن قادرة حينها على الاعتراض أو المجادلة؛ وذلك لأن اليوم السابق لتلك الحادثة كان يصادف عيد زواجنا الخامس والعشرين، وفي ذلك اليوم تحديدًا -يوم الإثنين من شهر تموز/ يوليو- أدركت أن كل ما مر من أحداث وذكريات خلال تلك الأعوام لم تكن تعني أحدًا سواي، ولم يجدها أحد ذات أهمية سواي. ينبغي عليَّ الآن أن أدرك الحقيقة المرة الجديدة وأواجهها. بدأت أدرك أخيرًا أن أحدًا لم يكن يقيم بالًا لحياتي أو حياة أطفالي؛ فليس هناك من شخص يهم الآخرين سوى ستيفن. جاءتني الأوامر بمغادرة المنزل، وبذلك أصبحت أنا وأطفالي دونما ملجأ.

في النهاية منحنا القائمون على الأمر عامًا كاملًا مهلة لنقوم خلالها بترتيب أمورنا. كان ذلك خبرًا رائعًا؛ وذلك لأن تيم كان قد انتقل لتوِّه إلى مدرسة كينغ كوليج King College التي تبعد عن المنزل مسافة لا تزيد على خمس دقائق سيرًا على الأقدام، فكان من غير المعقول أن ننقله في ذلك العام تحديدًا إلى مسكن أبعد، وما زاد من سعادة تيم أن آرثر كان قد انتقل إلى تلك المدرسة نفسها، فأصبح يراه كل يوم ليس في المدرسة فحسب، بل في المنزل أيضًا، وذلك أنّ آرثر أمضى عامين في ضيافتنا وقد

قَدَّم لتيم كل ما يحتاجه من دعم معنوي؛ لذا فإن وجوده بيننا غمرنا جميعنا بسعادة عارمة.

من حسن حظي أني لم أكن وحيدة، فقد وقف جوناثان إلى جانبي في محنتي تلك رغم كل ما كان يتلقاه من هجوم، لقد كان يحاول أن يجمع أجزاء شخصيتي المتناثرة جزءًا جزءًا، متحليًا بكل ما أوتي من صبر وروية، ويحاول كذلك في الوقت ذاته أن يعتاد ويفهم ما حل بنا، كان جوناثان على يقين منذ البداية أن علاقتنا أنا وستيفن قائمة على خيط رفيع، هو قبول ستيفن لحقيقة أن هدف تلك العلاقة هو الحفاظ على الأسرة وليس تدميرها، ولكنه لم يشك لحظة في أن تدخل طرف خارجي سوف يجلب ذلك الدمار كلّه. بالنسبة إليَّ لم يكن هناك من بديل لجوناثان، فذلك كان الشخص الوحيد الذي قدم كل الرعاية لي ولأسرتي ولستيفن، لم أتكيَّف مع الوضع الحالي، بل لم يكن في مقدوري أن أبقى على قيد الحياة لولا ما قدمه لي من دعم ومساعدة. وجدت بين ذراعيه الأمان العاطفي الذي كنت قد خسرته منذ زمن بعيد، وقد ساعدتنا تلك المحنة على أن نقترب من بعضنا أكثر، ولكن ذلك لم يمنحنا أي شعور بالغبطة أو السعادة؛ إذ شعرنا ببعض الحزن لأننا لم نستطع تحقيق ما كنا نسعى إليه، إلا أن شعورًا خفيًا بالراحة كان قد حل بيننا؛ وذلك لأن مدة الصراعات قد ولت دونما عودة. أصبحنا أنا وجوناثان زميلَي سكن ولكننا لم نفكر في الزواج؛ لم أشعر أني كنت مستعدة عاطفيًا أو جسديًا للزواج من أحد، و شعرت أيضًا بأني لن أكون قادرة على أن أقدم لجوناثان الرعاية التي يستحق، وليس ذلك فحسب بل إن الطلاق لم يكن قد وقع بعد بيني وبين ستيفن، وذلك يعني أني كنت لا أزال زوجته.

رغم كل ما جلبه كتاب موجز تاريخ الزمن من ويلات علينا إلا أنّ ما حققه من نجاح ومبيعات ساعدنا على شراء منزل جديد يقع في الطرف ذاته من كامبريدج. لم أحب ذلك المنزل حين رأيته أول مرة إذ شعرت أنه يثير في النفس الكآبة؛ كان صندوقًا مبنيًا من القرميد، وتغطي جدرانه بعض أوراق الجدران القديمة والمشققة، أما حديقة المنزل فكانت خالية تمامًا من أي نباتات، كانت خالية من أي حياة، ولكني فكرت بأنه لا بأس بذلك كله، يجب عليَّ أن أبدأ من الصفر، وأحول هذا المنزل القديم

المهترئ إلى موطن دافئ، وأزرع في حديقته أجمل أنواع الأزهار. ميزة ذلك المنزل الوحيدة كانت موقعه، فلم يكن بعيدًا عن مدرسة تيم أو منزل والده الذي كان يلحُّ على رؤيته مرتين أسبوعيًّا. كان آرثر يرافق تيم في تلك الزيارات التي كانت في أغلبها ذات نتائج سلبية، إلا أني شعرتُ براحة كبيرة؛ لأن ستيفن لم يلحَّ على اتخاذ إجراءات الطلاق بسرعة، فقد كنت أخشى أن يصبح تيم حجر شطرنج في معركة جديدة، وكثيرًا ما كانت تصلني منه رسائل يطالب فيها أن يقع الطلاق، ولكني كنت أعلم أن ستيفن كان يقوم بذلك تحت تأثير الكثير من الضغوطات؛ لذا كنت أتعامل مع الأمر بهدوء شديد، وكانت نقاشاتنا عمومًا متحضرة وواعية.

ولأن الطلاق لم يقع في الحال لم تعد مسألة حضانة تيم تثير الرعب في داخلي، إذ كان قد كبر في العمر. كنت أعيش حياة طبيعية مختلفة تمامًا عما كانت عليه حياتي خلال الخمس وعشرين سنة الماضية. وجدنا أنا وجوناثان متعة كبيرة فيما حصلنا عليه من خصوصية، وإن كان الأمر لا يخلو من بعض إزعاجات الصحافة والصحفيين الذين كانوا يسعون لتلقف آخر الأخبار إرضاءً لجمهور القراء، ولكن مثل تلك الحالات لم تكن تدوم طويلًا.

كنّا نعلم تمامًا أن الجامعة والكلية قد بدأتا تخططان لهدم منزلنا في ويست رود لبناء مشاريع أخرى مكانه، وقد اتفقت المؤسستان على تحويل الحديقة إلى مكتبة تابعة لكلية الحقوق، إلا أن الكلية كانت تنوي تحويل المنزل إلى سكن طلابي منذ أعوام. وفي السنة الأخيرة التي قضيناها في ذلك المنزل كان المستثمرون يأتون إلى الحديقة، ويجلبون معهم أدوات القياس، ويضعون بعض الأوتدة والأعمدة، بل وجلبوا جرافة لنقل التربة من الحديقة، وحين غادرنا المنزل أصبح مصيره رهن أيديهم. لم يكن في اليد حيلة، ولكني حاولت رغم ذلك إنقاذ بعض الأشجار القديمة في الحديقة؛ حاولت أن أتأكد من أن تلك الأشجار محمية بموجب قوانين المحافظة على المساحات الخضراء، وقد أكد لي المشرفون على العملية أنه ما من داع للقلق؛ وذلك لأن تلك المنطقة تُعدُّ محمية طبيعية، شعرت بسعادة كبيرة لأني أديت واجبي المدني تجاه مجتمعي وبيئتي، وانتقلت إلى منزلي الجديد مرتاحة البال.

كنت غالبًا ما أمرُّ بجانب منزلنا القديم في طريق العودة؛ لأطمئن أنه لم يقع ما أخشاه. يومًا بعد يوم بدأت مخاوفي تتلاشى تمامًا، إذ إنّ أحدًا لم يقترب من الحديقة أو تلك الأشجار الجميلة، غمرني شعور بالحنين إلى تلك الأيام الخوالي حين عبرتُ الحديقة، وبدأت أتنقل في حنايا الذاكرة مسترجعة في ذاكرتي كم أقمنا من حفلات وكم لعبنا هناك سويًّا، وكم احتضن ذلك المنزل في الماضي من أحداث ومن ألم وبهجة على حد سواء، ولم يبق هناك من شواهد على تلك الأيام سوى بعض القطع المبعثرة والمرمية هنا وهناك مثل كرة القدم المفرغة من الهواء، والحفرة الرملية التي صنعها تيم والتي كانت الأمطار قد غسلتها، وإناء أزهار متصدع، ودلو مكسور. تلك الأشياء كانت تروي حكايات لا يعرف القاطنون الجدد عنها شيئًا.

وبعد أن تلاشت مخاوفي فيما يخص الأشجار والحديقة، بدأت مخاوف أخرى أكثر أهمية تشغل بالي، حيث إن الوكيل الذي وعدني بنشر كتابي في المنزل في فرنسا At Home inFrance أخبرني أنه لم يلق نجاحًا كبيرًا في تحقيق ذلك. وحين لاحظت أن جميع محاولات ذلك الوكيل باءت بالفشل، قررت أن أقوم بنشر الكتاب بنفسي، فما كان من الوكيل حين سمع ذلك إلا أن أرسل لي نص العقد الذي يبين أني ملزمة بالعمل معه مدة أربع سنوات، وأخبرني أنه لا مانع لديه أن يلغي ذلك العقد شريطة أن أوقع معه عقدًا جديدًا ينصُّ على أنّ من حقه دون غيره نشر أي سيرة ذاتية أكتبها حول حياتي مع ستيفن في المستقبل. كم شعرت بالغضب من نفسي لأني وقعت ضحية ذلك المخادع الذي يحاول استغلال كوني مبتدئة في مجال الكتابة والنشر، واستغلال ما أشعر به من كآبة وحزن، إلا أن ذلك زاد من تصميمي وإصراري على نشر الكتاب بمفردي مهما كلفني الأمر؛ وذلك لأحرمه من نشر أي كتاب أكتبه سواء في الحاضر أو في المستقبل.

أدت سياسات حكومة المحافظين إلى ارتفاع نسبة البطالة؛ لذا بدأ أولئك بالبحث عن مصادر جديدة لدعم الإيرادات الداخلية، وكانوا بالطبع قد علموا ما حققه كتاب موجز تاريخ الزمن من أرباح، وقد عمدوا إلى تركيز انتباههم على حالات الانفصال التي سببت بعض المشكلات المالية؛ لذا بدأ مسؤول الضرائب يطالبني بالمال كل يوم

رغم أني لم أعد المشرفة على كتاب ستيفن. كان ذلك المسؤول يرسل إليَّ الرسائل، ويتصل بي هاتفيًّا حتى في أعياد الميلاد حين أكون مشغولة بإعداد الحلوى والتحضير للكورال.

ومع كل هذه الانشغالات والهموم لم تخطر في بالي مسألة الحديقة والأشجار حتى أحد أيام الإثنين في عام 1993، فقد شعرت حينها برغبة كبيرة في الذهاب إلى هناك، ولكني قاومت ذلك الشعور لأني كنت مشغولة جدًّا في الإعداد والتحضير لعطلة الصيف، ولاحقًا خلال الأسبوع ذاته وجدت الفرصة سانحة للذهاب إلى هناك بعد أن انتهيت من بعض أعمال التسوق، وحين وصلت رأيت ما لم أكن أتمناه؛ لم أجد الأزهار الجميلة والأشجار العتيقة، بل وجدت مكانها كومة من الخراب، لم يعد هناك سنجاب وشجيرات وعصافير وقنافذ وأزهار؛ فقد ابتلعتها جميعًا تلك الحفرة السوداء الكبيرة في وسط الحديقة. بدأت أحصي كم من الأشجار قطعت، فأدركت أنها لا تقل عن أربعين ، كان أجملها شجرة الأرز التي اعتاد أرنب تيم، كوتنتيل، الجلوس في ظلالها. لا عجب إذًا أني كنت قد شعرت قبل أسبوع أن تلك الأشجار تناديني، هل كانت تطلب إليَّ النجدة؟

توجهت بأسئلتي إلى مجلس المدينة، فأجابني أنه ما من سجلات تبين أني طالبت بالحفاظ على تلك الأشجار، وأخبروني كذلك أنه حين قُدِّمت خطط البناء الجديدة للجنة التخطيط لم يذكر أحد شيئًا عن أشجار قديمة وما شابه، بل قالوا إنّ هناك بعض الشجيرات الصغيرة المبعثرة؛ لذا منحتهم لجنة التخطيط موافقتها الفورية دون أن تحاول التحري أكثر حول الأمر. كم يشبه مصير تلك الحديقة الغَنّاء مصير أسرتنا، لا أعتقد أن أي صورة أخرى سوف تكون معبرة بالقوة ذاتها عن مصيرنا: حفرة سوداء كبيرة.

شباط/فبراير 2007

لقد بدأتُ كتابة هذه التكملة الجديدة في أثناء إقلاع الطائرة إلى سياتل في رحلة تستمر تسع ساعات ونصف، كان مطار هيثرو Heathrow في لندن يختفي تدريجيًّا في الأسفل، ويتلاشى إلى قطع من الحقول الخضراء الإنجليزية في حين كانت طائرتنا تعلو فوق الغيوم. إنها رحلة سبق وأن خضتها مرات عدّة منذ الرحلة الأولى عام 1967. في أثناء طيراننا فوق الجبال الأسكتلندية المكسوة بالثلوج متجهين إلى الشمال الغربي حيث آيسلندا وغرينلاند، كنت أسافر عائدة في الزمن مستذكرة تلك الرحلة عندما كان روبرت ما يزال طفلًا صغيرًا مع بداية ظهور الأعراض الأولى لإعاقة ستيفن، وأعجب مرة أخرى لهذه الصدفة، فقد تعيَّن على روبرت أن يستقر في سياتل مع زوجته كاترينا النحاتة الموهوبة وابنهما، مثلما أعجب لحقيقة أن ستيفن الذي لم يتوقع له الأطباء أن يعيش أكثر من عامين تقريبًا، لم يواصل حياته لاحقًا لأربعة وأربعين عامًا فحسب، بل حصل مؤخرًا على وسام كوبلي Copley الميدالية المرموقة للجمعية الملكية.

في عام 1995 خلال زيارة روبرت الذي كان قد استلم عمله في مايكروسوفت قبل ستة شهور، شعرتُ بإيحاء شعريّ يفيد بأنّ سياتل قد رسمت دائرة أحاطت بسنين زواجنا كلّها، والآن أشعر أن هذا الجو الشاعري المرتبط بهذه المدينة قد أصبح أقوى ونحن نجهز للاحتفال بعيد الميلاد الأول لحفيدنا الصغير جورج. لستُ وحيدة في هذه الرحلة، فروبرت معي، عائدين إلى سياتل بعد جنازة أمي في الأمس، فقد توفيت قبل أسبوع بسلام وهدوء خلال نومها بعد مرض مفاجئ. كنت منشغلة في تلك المدة، وشعرتُ بأن وفاتها كانت رعشة خفيفة، أو رفرفة من أجنحة ملاك.

وفي سياتل مرة أخرى في عام 1995 مباشرة بعد إتمام الطلاق وبعد عام على نشر كتاب في المنزل في فرنسا AtHome in France، بدأتُ التفكير في كتابة مذكرات حياتي الطويلة مع ستيفن، وقد فوجئت عندما وجدت دعوة من الناشر للقيام بذلك. تدفقت الكلمات مني بسرعة وحماس كما لو أنّ شيئًا ما يحثني على التحرر من ماضٍ يأسرني

ويُشعرني باليأس؛ كان عليَّ التخلص منه، ووضع نهاية واضحة لحقبة طويلة قبل الشروع في بناء مستقبل جديد، ويُحسب لفريق النشر أنهم سمحوا لي بكتابة قصتي بشكل عفوي. مثَّلت الطبعة الأولى تدفقًا عظيمًا وشفافًا لرؤية تفاؤلية مليئة بالنشوة، وكذلك بالحزن واليأس.

كان الخوف من فقدان الخصوصية الذي قد يترتب على نشر مذكراتي هو السبب الرئيس في ترددي في القيام بذلك، ولكنه مهَّد الطريق أمام الوعي التدريجي لحقيقة أنه لم يكن أمامي أي خيار في المسألة، إذ إنّ خصوصيتي قد انتُهكت على أي حال، فحياتي كانت ملكًا للعامة بالفعل نتيجة شهرة ستيفن، ولن تكون سوى مسألة وقت قبل قيام كتّاب السيرة الذاتية بتقصي تفاصيل الحياة الشخصية لذلك الرجل العبقري وصموده في وجه مرضه، بما في ذلك أنا أيضًا. لم يكن لدي أي سبب لأفترض أنهم سيعطونني أهمية أكثر مما فعلت الصحافة سابقًا.

ومن ثمّ كان الأفضل بالنسبة إلي أن أقوم برواية القصة بنفسي، وأكشف الحقائق جميعها مهما كانت شخصية ومؤلمة، على الرغم من أن دوري في حياة ستيفن قد تضاءل بشكل كبير، فزواجه الثاني أغلق الباب أمام فرص التواصل بيننا، أما أنا فلا يمكنني تناسي ربع قرن من الحياة على حافة الثقب الأسود، خصوصًا بوجود أولاد ثلاثة غاية في الوسامة والتهذيب بوصفه دليلًا لا يمكن إنكاره على تلك الحياة الحافلة التي عشناها معًا. مع تدفق الكلمات، اكتشفت أن الأصوات ما زالت بداخلي مستعدة ومنتظرة فرصتها للتعبير عن نفسها، عن كل تلك الذكريات التي تراكمت عبر السنين، بالإضافة إلى أن مرض الحركية العصبية قدَّم دافعًا ليسيل حبري على الورق، راغبة في إيقاظ السياسيين والمسؤولين الحكوميين، ولفت انتباههم إلى واقع يواجهه يوميًّا العديد من ذوي الإعاقة وعائلاتهم، كما أمَّلتُ من هذه المذكرات أن تصل المختصين في الطب لزيادة الوعي تجاه هذا المرض وآثاره في شخصية المريض وجسده.

نتيجة لنشر كتاب موسيقى حركة النجوم Music to Move the Stars عام 1999 – حيث جاءتني فكرة العنوان من اقتباس لفلوبير- وصلتني الكثير من رسائل الدعم،

معظمها من النساء اللواتي تعاطفن بشدة مع وضعي وأثنَين على قراري بكتابة مذكراتي، وقد رأى الكثير منهن جزءًا من حياتهن الخاصة في حياتي التي خططتها على الورق، واعترف كثيرون أنّ الكتاب أثّر فيهم حتى ذرفوا الدموع، وأيضًا توافدت عبارات التأييد من داخل كامبريدج بشكل كبير جدًّا، وقد أعرب الكثيرون عن أن الكتاب أَسَرَهم بحيث لم يتمكنوا من تركه حتى الانتهاء من قراءته كاملًا، بما في ذلك عجوز في الرابعة والتسعين من عمره قال إنه رفض الذهاب إلى الفراش قبل الانتهاء من القراءة، فيما أعرب كثيرون عن أنهم كانوا مخدوعين بحجم المساعدة التي كنا نتلقاها أنا وستيفن عندما كان يظهر على شاشات التلفزة، وتفاجؤوا عند اكتشافهم مدى ضعف الدعم الحقيقي الذي كنا نتلقاه على أرض الواقع، مما أكد شكوكي الراسخة في أنّ الوجه العام والخاص للقصة على طرفي نقيض.

أُحيل الماضي بالكامل إلى جهاز الحاسوب، إن لم نقل إنه طرد تمامًا بزواجي وجوناثان عام 1997. وأثبت يوم زفافنا أنه جزيرة للراحة في وجه بحر صاخب بالأمراض والحوادث والكوارث التي كانت تؤثر في عائلاتنا وبعض أقرب أصدقائنا، حتى إني وجوناثان لم نكن بأفضل حال أيضًا، فجوناثان عانى نوبات الحصى في الكلى في أثناء أدائه على منصة الحفل في ليفربول، كما كنتُ بدوري أمشي على عكازين لبعض الوقت بسبب تمزق في أربطة الركبتين بعد حادث تزلج عانيت منه. لم تترك هذه الحوادث التي حلت بنا وبالمقربين منا وقتًا يذكر للتخطيط للجوانب العملية في حياتنا ناهيك عن التحضير الذهني والعاطفي.

في الحقيقة، لم يكن لشيء أن يحضّرنا عاطفيًّا وروحيًّا لذلك اليوم؛ دقيقة واحدة فقط أو اثنتان قبل مغادرة المنزل فوجئتُ بأنه على بعد ميل هناك كنيسة مليئة بالناس ينتظرون مجيئي. ولذلك عند وصولي سان مارك برفقة أطفالي الثلاثة، ورغم تحية رجل الدين الودّية لم تهدأ مشاعر الرهبة والعجب بداخلي. اتخذنا أماكننا أنا ولوسي وروبرت وتيم في الشرفة حيث لمحت زوجي المستقبلي قادمًا باتجاه مذبح الكنيسة.

اجتاحتنا موجة من العواطف عندما بدأ عازف الأرغن بعزف الافتتاحية الساحرة لسيمفونية وصول ملكة سبأ، وحملني أولادي وأنا أرتجف غير قادرة على النظر يمينًا

أو يسارًا، حيث أوصلوني إلى أعلى الممر ووضعوني بجانب جوناثان، وعلى يساري كانت أمي جالسة على كرسيها المتحرك، وقد بدت شاحبة وضعيفة.

تبع ذلك التراتيل والصلوات والقراءات والأناشيد والكلمات المختارة بعناية مترجمةً إلى الفرنسية والإسبانية، وكأنّ روحًا نُفخت في هذه الكلمات عندما كانت تُغنَّى، أصبحت أكثر عمقًا واتساعًا وصادحة بالحقيقة وهي تتردد على ألسنة رجال الدين والقراء والمنشدين، أولئك كانوا من الأصدقاء القدامى والكثير منهم كان من الموسيقيين المحترفين، وقد رددوا الكلمات بطريقة مؤثرة؛ أما بالنسبة إلى الواعظ فلم يكن هناك من خيار أفضل من بيل لوفليس Bill Loveless الذي يعرفنا أنا وجوناثان منذ وقت طويل، وقد قدم لنا دعمه في كثير من الأوقات، وعلى الرغم من شيخوخته واعتلال صحته صعد إلى المنبر وانطلق في خطاب عاطفي، متحدثًا بصراحة وصدق عن كل مشكلات الماضي وآلامه دون إخفاء حقيقة علاقتنا، واستذكر الأيام الماضية حين قدم العديد من الأصدقاء حول العالم دعمهم ومساندتهم لي، أولئك الذين كنت أتلو لهم صلاة صامتة صباح الأحد، وقد كانوا جميعهم في الكنيسة معنا وحولنا، الجميع باستثناء ستيفن، والد أطفالي وشريكي خلال تلك المدة الطويلة كلّها.

كانت صورة لوسي العزيزة لا تُنسى وهي تقف على المنبر تقرأ سوناتة شكسبير عن الزواج؛ كانت واقفة هناك تتلألأ بثوبها الحريري تشبِّك يديها أسفل بطنها المنتفخ كما لو أنها تستمد الثقة من جنينها، فيما ابتسم زوجها أليكس فخورًا بين جموع المصلين. كانت هناك لحظات تشتت رهيبة، ثم انتهت المراسم بسرعة وكنا أنا وجوناثان ننزل إلى أسفل الممر ترافقنا مقدمة سانت آن St Anne Prelude لباخ Bach والفرح المرتسم على وجوه الحضور، خرجنا إلى الشمس حيث كان يومًا جميل الطقس بعد أسابيع من الطقس الماطر، وهناك قدَّم الضيوف التهاني قبل أن نسير بخطى بطيئة في موكب بقيادة أصدقائنا من فرنسا إلى قاعة ويمبول Wimpole Hall للصور الفوتوغرافية، واستمرت الاحتفالات والعشاء حتى الليل.

كنتُ وجوناثان ننظر بتفاؤل إلى حياة طبيعية نسبيًا مع بعضنا في الأيام القادمة، ومنذ ذلك الحين تعلمتُ أنه ما من شيء مثل الحياة الطبيعية، لا شك في أننا نعيش

حياة حافلة تلعب فيها الموسيقى دورًا رئيسًا، وما زلت أستمتع بما حفظته من الكورال، بالإضافة إلى أني واصلت تقديم حفلات منفردة في بعض الأحيان برفقة جوناثان، وتركت التعليم؛ لأن هناك مطالب كثيرة كانت تشتت تركيزي، وأيضًا حرصت على إيجاد وقت لأمارس الرقص الذي لم يكن نشاطًا ممكنًا بالنسبة إلي في الماضي لا بوصفي راقصة ولا حتى مُشاهِدة. كانت أسفاري مع جوناثان كثيرة؛ فقد أتيحت لنا كثير من الفرص لنجوب الريف الفرنسي، وعملت في حديقة أنشأتها للاحتفال بالألفية الجديدة في حين كان جوناثان يخطط لمشاريع موسيقية جديدة إما لكامبريدج باروك كاميراتا Cambridge Baroque Camerata، أو لجوقة كلية المجدلية Choir of Magdalene College التي أنشأها خلال عمله مديرًا لكلية الموسيقى خلال السنوات الخمس الماضية.

ولكن نادرًا ما كانت أيامنا تخلو من المتاعب والهموم، فخلال الصيف ساءت حالة أمي كثيرًا، ولولا إخلاص أبي ورعايته لما تمكنتُ من متابعة حياتها في سانت ألبانز St Albans.

على الرغم من أني كنت أزورهم بانتظام، إلا أني كنت أتحسَّب لليوم الذي سيصبح فيه أبي غير قادر على تدبر أمور حياته بنفسه، وهكذا كنا مرة أخرى بحاجة إلى رعاية من وكالة خاصة، ومرة أخرى كذلك ما من مساعدة أتتنا من الرعاية الوطنية NHS أو من الرعاية الاجتماعية، علاوة على أن توقعاتنا بأن الرعاية الخاصة ستكون حِرفية وعالية المستوى كانت قد أُصيبت بإحباط شديد أيضًا؛ فقد أثبت العديد من مقدمي الرعاية الخاصة أنه لا يمكن الوثوق بهم باستثناء بعض الحالات، وكثيرًا ما كان والدي يستدعيني طالبًا المساعدة خلال عطلة البنوك؛ لأنه لا يتمكن من الحصول على المبلغ المقدم من الرعاية، وأخيرًا اتخذ قرارًا بالانتقال مع أمي إلى دار للرعاية خارج كامبريدج.

ارتحتُ لكونهما استقرا في مكان قريب وفي أيد أمينة، ومن ثم وجدت نفسي مسؤولة عن تنظيف منزلهما وبيعه، لقد كانت مهمة مرهقة إلا أني كنت سعيدة لقيامي بذلك خلال حياتهما. كان والدي ما يزال بكامل فطنته وحكمته ولكنه ضائع بشدة بين روحه الشابة وجسده المتعب، وفي النهاية استسلم لمرض الالتهاب الرئوي الذي تفاقم بسبب

إصابته أيضًا بمرض باركنسون. وفي حزيران/يونيو 2004 رفض الذهاب إلى مشفى أدينبروك؛ بسبب معاملتهم السيئة مع أمي قبل بضعة أسابيع، وبعكس التوقعات جميعها عاشت أمي أكثر منه، واحتفلت بعيد ميلادها التسعين في حزيران/يونيو 2006، وأُتيح لها أن تلتقي حفيدها الرابع جورج الصغير.

في العادة لا يتحضر المرء للمرحلة التي يتقدم فيها والداه في السن أو يصبح أبناؤه شبابًا؛ لأننا نكون عالقين بين الجيلين ومتطلباتهما، كما أنك لا تتلقى تحذيرًا مسبقًا من الصدمة التي ستشعر بها عند وفاة الوالدين مهما كانت أعمارهما؛ فهما الشخصان اللذان كانا إلى جانبك طوال حياتك دون أي قيد أو شرط، لقد كنت قادرة على الاعتماد عليهما طوال حياتي، وها هما الآن لم يعودا معي؛ شعرت بأنّ جزءًا مني مفقود، وها أنا الآن بعد وفاة أمي بأسبوع أجوب العالم في حالة من الصدمة لم أتجاوزها رغم الأسفار والرحلات، كان عزائي أنها عاشت حياة مليئة بالتضحية ونكران الذات والاهتمام بالآخرين. لقد سبق لي أن تخيلت كم سيكون فقدان الزوج أو الابن مروعًا، إلا أنني لم أفكر قط بحجم الصدمة التي سأعانيها عند فقداني أحد والديّ.

وُلد ويليام ابن لوسي ولادة عسيرة بعد عملية قيصرية؛ كان طفلًا عبوسًا وجميلًا جدًّا بشعر أحمر لامع وبعينَين زرقاوين مشعَّتين، ولكنه لم يتمكن من الكلام، وكان سلوكه من سيئ إلى أسوأ، وأخيرًا شخَّص مركز تنمية الطفل في أدينبروك حالته على أنه مصاب بمرض التوحد. شعرتُ أن إيماني الذي تعرض سابقًا لهزات عدّة قد تلقى ضربة قاسية هذه المرة، لم أصدق بسهولة أنني بعد الوقوف إلى جانب ستيفن في معركته مع المرض لسنين طويلة، أواجه الحالة نفسها من جديد، ولأن هذا التحدي الجديد يخص حفيدي وابنتي فلم يكن لدي من خيار سوى أن أرتقي إلى مستواه، وقطعت عهدًا على نفسي أن أفعل ما بوسعي لمساعدة ويليام على التغلب على المرض، وعلى أي حال لا يمكنني مواجهة الأمر دون موارد خاصة، وقد وجدت هذه الموارد في إيماني الراسخ كالصخرة منذ الأيام الأولى من زواجي بستيفن. لم يكن إيماني الآن كما كان في تلك الأيام، فقد أصبح ذا مفهوم أوسع وأكثر تشككًا، ولكنه مع ذلك بقي

متجذرًا في الأدبيات المسيحية ومتجليًّا في الموسيقى، لقد ذهب التفاؤل القديم، ولكن حلت مكانه العزيمة الصارمة التي ربما اكتسبتها من تجربتي مع ستيفن.

عندما شخِّص مرض ويليام توقعنا أن يخضع لعلاج بسيط على الأقل ورعاية خاصة أو مشورة صحية ومساعدة عملية، لكن الأمر لم يكن على هذا النحو، والحقيقة أن لا فائدة ترتجى من بعض العاملين في المجال الصحي، ولم تكن هذه المرة الأولى؛ فتجربتي السابقة مع الرعاية الوطنية NHS لا تبشِّر بالخير، ويبدو أنّ المهمة الأساسية لهذه المنظمة هي عدم إعطاء المرضى العلاج المناسب، فضلًا عن أنّ الخدمات الاجتماعية تتجاهل احتياجات الطبقة المتوسطة. وحتى ذلك التاريخ فإنّ العلاجات المفيدة كلها التي تلقاها ويليام كانت نتيجة المصادفة، مصادفات كانت مفيدة بما فيه الكفاية لبثِّ الروح من جديد في إيماني، فقد وجدنا العلاج المفيد الأول في كتيّب التقطه جوناثان في تيسكو Tesco، والثاني جاء نتيجة حديث عادي مع مدير دار رعاية والدتي، حيث بدا وأنّ هذا العلاج يقوم بتصحيح بعض المناطق المتضررة في الدماغ بشكل بطيء.

تمكن ويليام من التمتع بألعاب الفيديو بفضل تثبيت الأقطاب الكهربائية في الجمجمة على الفص الصدغي الأيسر حيث منطقة الكلام في الدماغ، وبفضل تنشيط خلايا دماغه كان يتدرب على ملاحقة شخصية تظهر على الشاشة ثم تختبئ؛ ساعد هذا النوع من التدريب على تنشيط دماغه، فحاز على ميدالية في مدرسته الابتدائية نتيجة التقدم الذي حققه، وأصبح يتصرف كطفل لطيف نموذجي، إلا أنه كان ما يزال يعاني مشكلة كبيرة في الكلام؛ لقد أعجبني هذا الأسلوب الحديث في مجال معالجة التوحد إذ كان يمثل خطوة ثورية إلى الأمام.

بعد ست سنوات من تشخيص إصابة ويليام بمرض التوحد، وبفضل صدفة أُخرى قيَّمت الرعاية الوطنية حالة ويليام، حيث حدَّقت إحدى الاختصاصيات بي أنا ولوسي بذهول ونحن نروي لها مسار مواجهتنا للمرض، وكيف أننا لم نتلقَ أي مساعدة رغم مناشداتنا المتكررة، وعبَّرت عن مفاجأتها بما رويناه لها. لقد كان هذا التاريخ الطويل من مواجهة المرض محطمًا للمعنويات وكذلك الأمل بأن تتلقى الأجيال القادمة رعاية

أفضل، وإذا كان معيار الحكم على المجتمع هو حجم الرعاية والخدمات التي يقدمها للمرضى وكبار السن فنحن فاشلون بالتأكيد، وقد اتخذت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب موقفًا منتقدًا بشدة تجاه سياسات حكومة تاتشر Thatcher في هذا الخصوص، أما في أيامنا هذه فأنا أدرك أن الأمر لا يتعلق في من هو بموقع السلطة، ولا يكفي أي كلام جميل من السياسيين للتعويض عن نقص التمويل والتنظيم في الرعاية الصحية الوطنية National Health Service، فإن هذا التقصير يتسبب في أزمات كارثية لأعداد كبيرة من الناس الصامتين الذين يكافحون قدر استطاعتهم للبقاء على قيد الحياة.

عادت لوسي مرة أخرى لتلعب دور الأم والأب معًا، وقد عانت الكثير في الموازنة بين رعاية ويليام وتلبية احتياجاته وحياتها المهنية بصفتها كاتبة، وانتقلت أخيرًا لتسكن في المنزل المجاور لنا، وعلى الرغم من المتطلبات المضنية التي ترتبت عليها بوصفها أمًّا لطفل ذي احتياجات خاصة، إلا أنها تمكنت من نشر العديد من المقالات المميزة في الصحافة الوطنية، وكذلك أن تشارك في ماراثون لندن للجمعية الوطنية لمرضى التوحد، وتمكنت أيضًا من كتابة روايتين، متطلعة إلى نشر مشروعها القادم: مفتاح الكون السري عند جورج George's Secret Key to the Universe، وهو كتاب موجه للأطفال بخصوص حقائق الكون.

تعافى تيم ببطء من صدمة طفولته، كان يحب تعلم اللغات مثلي، فقرأ اللغات الحديثة في إكستر، ومن ثم بعد مدة محبطة قضاها في هيئة الإذاعة البريطانية BBC قرر أن يحصل على درجة الماجستير في التسويق من برمنغهام، وشرع يعمل في مجال تسويق سيارات لاند روفر Land Rovers، وكانت له صديقة لطيفة اسمها جين، وهي راقصة شقراء طويلة القامة.

أما ستيفن، فإن اللافت بشأنه أنه استعاد السيطرة على حياته؛ كان طلاقه الثاني في مراحله الأخيرة، ومنذ الصيف الماضي أصبح قادرًا على مشاركتنا حياتنا بحريّة مرة أخرى، حيث يأتي إلى حفلات العائلة واجتماعاتها، ودعوات الغداء والعشاء سواء في منزلنا أو في منزل لوسي. كان الوضع تمامًا كما في الماضي، كثير من المزاح والطرافة تعم أجواء المائدة بينما ننتظر ستيفن أن يضيف الكلمة الأخيرة، وكنتُ

أيضًا سعيدة لدعوتي إلى الجمعية الملكية Royal Society لأشهد تقديم ميدالية كوبلي لستيفن، وشعرتُ بالفخر بهذا الإنجاز مثلما في مناسبات عديدة في السابق، على الرغم من أني لا أعرف تمامًا إلى أين وصلت بحوثه هذه الأيام. عليَّ أن أعترف بأني لم أكن سعيدة بإعلانه في يوم استلامه للميدالية بوساطة المذياع بأنه ينوي السفر إلى الفضاء، فذهب ستيفن إلى إسرائيل مدة أسبوعين، في رحلة قام بها بشرط أن يُسمح له بزيارة رام الله والتحدث مع الفلسطينيين. تابعنا أخباره بحالة من الرهبة ونحن نشاهد صوره في صحيفة الغارديان يقود كرسيه المتحرك ضمن حشود المتفرجين الفلسطينيين.

بعد عودته من إسرائيل، أمضى ستيفن عيد الميلاد واحتفل بالسنة الجديدة معنا، وكثيرًا ما كان ينضم إلينا لتناول الغداء يوم الأحد، وكنا نذهب إلى المسرح معًا، وجاء أيضًا إلى جنازة أمي مع والدته، وقد سُررت لرؤيتهما هناك. كانت إيزابيل تبدو ضعيفة جدًّا، ولكنها بخير وإنما قد فقدت جموحها، ورغم أن ذاكرتها أصبحت ضعيفة إلا أنها لم تفقد روح الدعابة؛ إنها تذكِّرني بالمثال الإيجابي للشخصية الذي أطمح أن أكون عليها. أرسلت لي رسالة شكر قبل عامين على كل ما فعلته لستيفن، وقد كانت لفتة كريمة منها ساعدت على تخفيف ما كنت أشعر به من ألم الذكريات، وكذلك على استعادة علاقتنا بشكل متحضر.

كانت تقف صالة ضخمة في موقع ويست رود 5، حيث عشنا هناك في ذلك البيت الرائع وقضينا أمتع الأوقات في حديقته الجميلة. كان هناك بضع أشجار ما زالت تقف مكانها نتيجة للحملة التي قمت بها في التسعينيات، بعد أن اكتشفت حجم الخراب الذي حلَّ بالحديقة بعد رحيلنا. كنتُ أشاهد مثل ذلك الخراب وأنا في الطائرة في طريقي إلى سياتل، خراب يمتد من شمال كندا ويطلق أدخنته الملوثة فوق مناطق الجليد المنحسرة في القطب الشمالي، وأسأل نفسي إن كانت إزالة حديقتنا باسم التقدم ليس سوى أعراض بسيطة من الاندفاع المجنون لاستغلال الموارد كلها المتناقصة على هذا الكوكب، ومثلما جرَّف ذلك المنزل والحديقة فقد جرَّفت حياتنا كذلك، ولكنّ الجوهر الروحي لتلك العائلة كان ما زال حيًّا، ويبعث نفسه من جديد في الفرص والمناسبات

كلها، حيث نجتمع كلنا ونستمتع برفقة بعضنا، وإذا كان السؤال اليوم: هل يمكن استعادة روح الأرض لتسري فينا من جديد؟ فهو لا يختلف عن ذلك السؤال والتهديد الذي كانت البشرية تواجهه في الستينيات، عندما التقيتُ بستيفن أول مرة حول ما إذا كانت الأرض وجميع أشكال الحياة عليها ستزول بفعل حربٍ نووية.

المشهد الأخير – أيار/مايو 2007

منذ أن انتهيت من كتابة هذه التكملة، أكمل ستيفن رحلته إلى عالم انعدام الجاذبية، وعاد إلى الأرض سالمًا، كما ظهرت صورته في وسائل الإعلام والابتسامة تعلو وجهه. شعرتُ بأنّ تلك الابتسامة التي تطفو في عالم الفضاء قد وصلت إلى النجوم، ولقد وصلت إليَّ كذلك، واستقرت عميقًا في داخلي، لتعكس أيَّ امتياز يمكن أن أشعر به في رحلتي مع ستيفن إلى اللانهاية.